رحلات جلفر

ترجمة

د . محمد رجا عبد الرحمن الديريني

مكتبة لبنان



رحلات جلفر

رحلات جلفر

المؤلف
جوناثان سويفت
١٦٦٧- ١٧٤٥م

المترجم وكاتب الدراسة
د. محمّد رجا عبْد الرّحمن الدّيريني
أستاذ مشارك
قسم اللّغة الإنجليزيّة وآدابها - كلية الآداب
جامعة الكويت

« ساهمت جامعة الكويت في نفقات إعداد هذا الكتاب »

الطبعة الأولى

مكتبة لبنان

مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح
بيروت ، لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

طبع في لبنان

رقم الكتاب 03 C 360002

المُحتوَيات

صفحة

مُقدِّمة

تمهيد

دَأَبَ المُترجِمونَ العربُ على تقديمِ كِتاب **رحلاتِ جلفر** للقُرّاءِ العربِ بطريقةٍ توحي بأنّه كِتابٌ مُخصَّص للأطفالِ فقط؛ وأنّه يَتناسَبُ مع عقولِهم الساذَجةِ وأفكارِهم الطُّفوليّةِ وخيالاتِهم الصِّبيانيّةِ. وهم في عَمَلِهم هٰذا غيرُ مُخطِئينَ، إلاّ أنّهم لم يُقدِّموا للقُرّاءِ إلاّ جزءًا بسيطًا من الحقائقِ المُتعدِّدةِ والمُتنوِّعةِ عن هٰذا الكتابِ العظيمِ.

يَتألَّفُ كِتابُ **رحلاتِ جلفر** من أربعِ رحلاتٍ. لٰكنّ مُعظَمَ المُترجِمينَ العربِ لم يُقدِّموا للقُراءِ سوى ترجماتٍ مُبَسَّطة ومُنقَّحةٍ أو مُهذَّبةٍ ومُختصَرةٍ للرِّحلةِ الأولى فقط أو للرِّحلةِ الثانيةِ فقط أو للرِّحلتينِ الأولى والثانية معًا، وأهملوا بشكلٍ عامٍّ الرِّحلتينِ الثالثةِ والرابعةِ. وقد أدّى هٰذا إلى نشوءِ مفهومٍ خاطىءٍ فَحواه أنّ هٰذا الكِتابَ ليس سوى قصّةٍ خياليّةٍ مُسلِّيةٍ عن إنسانٍ عاديٍّ يَعيش مع الأقزامِ تارةً ومع العَمالقةِ تارةً أخرى، ويَتعرَّضُ في الحالتين لأحداثٍ مُضحِكةٍ؛ وأنّه يُخاطِب الصِّغارَ من القُرّاءِ دون الكبارِ.

التَّرجمةُ التي نُقدِّمها للقُرّاءِ في هٰذا الكتابِ تُصحِّح هٰذا المفهومَ الخاطئَ وتُعطي صورةً صحيحةً وأمينةً عن الرِّحلاتِ الأربعِ في الكتابِ، وتُؤكِّدُ أنّه يُخاطِبُ القُرّاءَ من جميعِ الأعمارِ والأعمالِ.

كذٰلك دَأَبَ المُترجِمونَ العربُ على طباعةِ كُلِّ رحلةٍ في كُتيِّبٍ مُستقِلٍّ، أو على طباعةِ الرِّحلتينِ الأولى والثانيةِ معًا في كِتابٍ مُنفصِلٍ، والرِّحلتينِ الثالثةِ والرابعةِ في كِتابٍ ثانٍ مُنفصِلٍ. ولم نَعثرْ حتّى الآنَ على الرِّحلاتِ الأربعِ منشورةً في كِتابٍ واحدٍ بالعربيّةِ. وهٰذا خطأٌ ثانٍ نَسْعى إلى تصحيحِهِ في التَّرجمةِ التي نُقدِّمُها في هٰذا الكِتابِ، لأنّ الأصلَ والقاعدةَ الأساسيّةَ في إصدار

رِحلات جلفر هو نشْرُه بأجزائِه الأربعةِ (أو رحلاتِه الأربع) في مُجلَّد واحدٍ لكي يُقْرَأ باعتباره وَحْدَةً فَنِّيَّةً وعُضْويّةً واحَدةً ذاتَ أجزاءٍ مُتعدِّدةٍ لٰكنّها مُتلاحِمةٌ ومُتشابِكةٌ بطريقةٍ لا تَسمحُ بانفصالِ جزءٍ منها واستقلالِه عن الأجزاءِ الأخرى. هٰذا ما أراده المُؤلِّف «جوناثان سويفت» حينَ عَمِلَ على إصدارِ كتابِه لأوّل مَرّةٍ عامَ ١٧٢٦؛ وحِيْنَ سَمَحَ، أثناءَ حياتِه، بإعادةِ طَبْعِهِ عدّةَ مَرّاتٍ كانت آخِرَها طبعةُ ١٧٣٥ التي تَعتمِدُها دُوْرُ النَّشْرِ الإنجليزيّةُ الجادّةُ حتّى الآنَ، والتي اعتمدْناها في التَّرجَمةِ التي نُقدِّمُها في هٰذا المُجلَّدِ.

إلى جانبِ تصحيحِ المفهومِ الخاطئِ الشائعِ لدى القُرّاء العربِ عن حقيقةِ كتابِ رحلاتِ جلفَر، وَتقويمِ المُمارَساتِ العربيّةِ المُنحرِفةِ عن جادّة الصَّوابِ في نَشْرِ هٰذا الكتابِ، حاوَلْنا أن نَتلافى نَقصًا آخَرَ تَجاهَلَتْه التَّرجماتُ العربيّة السابقةُ، ويَتجسَّدُ هٰذا النَّقصُ في تَجاهُلِ حاجةِ القارئِ لمعرفةِ طبيعةِ هٰذا الكتابِ وأغراضِه ولمعرفةِ بعضِ المعلوماتِ الأساسيّةِ عن مُؤلِّف الكتابِ وعَصْرِه. ولهٰذا كانتِ التَّرجماتُ السابقةُ تَصدرُ دون مُقدِّماتٍ ذاتِ معلوماتٍ صَحيحةٍ ودقيقةٍ.

المُؤلِّف «جوناثان سويفت»: عَصْرُه وحياتُه

وُلِدَ «جوناثان سويفت» في «دَبْلِنْ» بإرلندا عامَ ١٦٦٧ وتُوفِّيَ أيضًا في «دَبْلِنْ» عامَ ١٧٤٥، أي أنّه عايَش النِّصفَ الثانيَ من القرنِ السابعَ عَشَرَ، والنِّصفَ الأوّلَ من القرنِ الثامنَ عَشَرَ. تُعرَفُ هٰذه الفترةُ في تاريخِ بريطانيا بأسماءٍ مُتعدِّدةٍ. فهي تَحملُ اسمَ «عَصْرَ العَقْلِ» (The Age of Reason) كما تَحمِلُ اسْمَ «عَصْرِ النُّورِ أو التَّنْويرِ» (The Age of Enlightenment)، وهي أحيانًا تَحمِلُ اسْمَ «عَصْر عودة الملكيّة» (Restoration)، أو اسمَ «العَصْرِ النيوكلاسيكيّ» أو «عَصْرِ الكلاسيكيّةِ الجديدةِ» (Neoclassical Age)، أو «العَصْرِ الأوغسطيّ» (Augustan Age)، أو عَصْرِ الحلولِ الوَسَطِ (The Age of Compromise).

ولهٰذا العَصْرِ سماتٌ فكريّةٌ وفلسفيّةٌ واجتماعيّةٌ وسياسيةٌ وأدبيّةٌ وفنّيّةٌ تُميِّزُه من بقيّةِ العصورِ التاريخيّةِ في بريطانيا بشكلٍ خاصٍّ وفي أوروبّا بشكلٍ عامٍّ.

يُعتبَر عامُ ١٦٦٠ بدايةً لهٰذا العَصْرِ، وهو العامُ الذي عادَ فيه النِّظامُ الملكيُّ إلى بريطانيا بَعْدَ انقطاعٍ دامَ حوالي عشرينَ سنةً (١٦٤٠ إلى ١٦٦٠) عاشتْ بريطانيا خلالَه دون ملكٍ وفي ظِلِّ حُكْمٍ جمهوريٍّ مُتزمِّتٍ برئاسةِ «أوليفر كرومويل» (Cromwell). في هٰذه الفترةِ كان الملكُ

الشّرعيُّ يَعيش، مع حاشيته والمُواليِنَ للِّنظام ِ المَلَكيِّ، في باريسَ بفرنسا. وحينَ عادَ هٰذا المَلِكُ إلى إنجلترا جَلَبَ معه تَوجُّهاتٍ فكرّيةً وفلسفيّةً وأخلاقيّةً جديـدةً وتيّاراتٍ أدبيّـةً شديـدةَ التّأثـرِ بالتّيارات الأدبيّةِ في فرنسا، كما جَلَبَ معه روحًا ثقافيَّةً وسلوكيّةً جديـدةً سادتْ مَيـادينَ الفكرِ والفلسفةِ والأدبِ والأخلاقِ لِأكثَرَ من مئةِ عامٍ (حتى عامِ ١٧٧٠ عِنْدَ بَعضِ المُؤرِّخينَ وعامِ ١٧٨٠ عند بَعضِهم الآخرِ).

عُرِفَ هٰذا العصرُ بإنجلترا بالحرصِ على الاستقرارِ عن طريقِ الاحتكام ِ إلى العقـلِ وإهمـالِ العواطفِ والانفعـالاتِ في مُواجَهـةِ مَشاكـلِ الحياةِ السِّياسيّةِ والاجتمـاعيّةِ والـدينيّـةِ والاقتصاديّةِ، وعن طريقِ الابتعادِ عن العنفِ ما أمْكَنَ ذٰلكَ. كما عُرِفَ بالحرصِ على الاعتدالِ، وعلى الابتعادِ عن التّعصُّبِ لرأيٍ دونَ آخَرَ، ومَذْهبٍ دُوْنَ غيرِه مِنَ المَذاهبِ، وعَلى السّماحِ بوجودِ اختـلافٍ في الرّأيِ والفكـرِ وتَسامُـحٍ في التّعامُـلِ مع ذوي الفكـرِ المُخالِفِ والـرّأيِ المُعارِضِ.

في هٰذا العصرِ تُوِّجَ العقلُ البَشريُّ ملكًا على كُلِّ المَواهبِ والقُدراتِ الإنسانيّة، ونُصِّبَ مَرجِعًا أساسيًّا وقاضيًا وحَكَمًـا في شؤونِ الحياةِ ومَجـالاتِها المُتعـدِّدةِ من فِكْرٍ وسلوكٍ دينيٍّ أو اجتماعيٍّ أو اقتصاديٍّ أو فنِّيٍّ أو أدبيٍّ. واعتُبرتِ المُلاحَظةُ المُباشِرةُ والبحثُ التّجريبيُّ وسيلتي العقلِ للتّعرُّفِ على حقائقِ الحياةِ وجمعِ المعلوماتِ والمعارفِ وتصنيفِها وتبويبِها. ولهٰذا ازدهرتْ في هٰذا العَصرِ العلومُ التّجريبيَّةُ والتّطبيقيَّةُ القائمةُ على المُلاحظةِ والتّجريبِ والبرمجةِ المَنهجيّةِ، ونَشأتِ الجمعيّةُ المَلَكيّةُ لتَحسينِ المعرفةِ وجَمْعِ المعلوماتِ على أُسسٍ مَنهجيّةٍ وموضوعيّةٍ كانَ فرانسيس بيكون (Francis Bacon) قد نادى ببعضِها ودعا إلى إتّباعِها في مُؤلّفاتِه العديدةِ وأشهرُها كِتابُه **تحسينُ العِلْمِ The Advancement of Learning** عام ١٦٠٥، وكتابُه **أطلانطا الجديدة New Atlantis** ١٦٢٧ وكِتابُه **الأداةُ الجـديدةُ Novum Organum**، الـذي قَضى في تأليفِـه أكثَرَ من عشرينَ عامًا.

وفي هٰذا العصرِ أيضًـا أصبحَ الانسيـاقُ وراءَ العواطفِ، والاستسـلامُ لضغطِ الانفعالاتِ الحادّةِ، والتّعصُّبُ للرّأيِ والتّزمُّتُ سلوكيّاتٍ جديرةً بالازدراءِ والسُّخريّةِ لأنّهـا تَدلُّ على عـدمِ التّحضُّرِ وقِلّةِ الحكمةِ والتّعقُّلِ، كما تَدلّ على جهلٍ أو غفلةٍ أو أنانيّةٍ أو فَسادٍ أو انحرافٍ عن الطّريقِ القويمِ.

وفي هٰذا العصر ازدهرتِ الصّناعةُ والتّجارةُ وظَهَرَتْ في المُدُنِ الكبيرةِ، وفي الموانئِ طبقةٌ

برجوازيّةٌ من الصُّنّاعِ والحِرفيّينَ والتُّجّارِ وجَوّابي البحارِ وبُناةِ المُستعمَراتِ في العالَمِ الجديدِ. وكانتْ هٰذه الطّبقةُ كبيرةَ العددِ واسعةَ الثّراءِ ممّا حدا بها إلى توسيعِ طموحاتِها وترسيخِ رغبتِها في المُشارَكةِ بقُوّةٍ وفعاليّةٍ في حُكْمِ البلاد، وفي نَيلِ نصيبٍ أكْبَرَ في سُلطاتِ التّشريعِ والإدارةِ، وإصدارِ القراراتِ السِّياسيّةِ والاقتصاديّةِ المُهمّةِ، كما زادتْ طموحاتِها إلى نيل حُرِّيّات واسعةٍ، في التِّجارةِ والكسبِ والعبادةِ. وقَدِ استطاعتْ هٰذه الطّبقةُ البرجوازيّةُ الصّاعِدةُ قُبيْلَ بدايـةِ هٰذا العَصْرِ أن تُغيِّرَ نظامَ الحُكْمِ في إنجلترا من مَلَكِيٍّ إلى جمهوريٍّ (بين ١٦٤٠ و١٦٦٠) ثمّ عادتْ فوافَقتْ على تغييرِه من نظامٍ جمهوريٍّ مُتزمِّتٍ مُتسلِّطٍ إلى نِظامٍ مَلَكِيٍّ دستوريٍّ مُتسامِحٍ، كما استطاعتْ أن تَعزِلَ مَلِكًا عن عرشِهِ حِيْنَ حاوَلَ تجاوُزَ صلاحيّاتِه الدُّستوريّةِ وعَيَّنَتْ مَكانَه مَلِكًا غيرَه، وأنْ تَفْعَلَ هٰذا دُوْنَ إراقةٍ للدِّماءِ ودُوْنَ لجوءٍ إلى العنفِ الهدّامِ.

أمّا في ميدانِ الأدبِ وأساليبِ التّعبير الأدبيِّ فقد اعتُبرتِ الأعمالُ الأدبيّةُ والفَنّيّةُ الكلاسيكيّةُ (الإغريقيّة والرومانيّة) روائعَ نموذجيّةً تتجسَّدُ فيها قواعدُ الأدبِ الرَّفيعِ وأُصولُ الفَنِّ الراقي ولهٰذا فهي جديرةٌ بالدِّراسةِ والفهمِ والاهتداءِ بما تَنطوي عليه من قواعدَ فنّيّةٍ راسخةٍ وأصولٍ ومَبادئَ إبداعيّةٍ كاملةٍ. وقَدِ ازدهرتِ اتّجاهاتٌ أدبيّةٌ في الأدبِ المسرحيِّ والشِّعريِّ مُشابِهةٌ لتلك التي ازدهرتْ في عَصْرِ الإمبراطورِ الرّومانيِّ أوغسطينَ (٢٧ ق.م - ١٤ م) على يدِ أُدباءَ خالدينَ مِثْلِ «ڤيرجيل»، و«هوراس» و«أوڤيد»، وغيرِهم من الذين رَسَّخوا قواعِـدَ عددٍ من الأجنـاسِ الأدبيّةِ كالملحمةِ، والشِّعرِ الرَّعويِّ، والشِّعرِ الهجائيِّ الساخرِ، والمَسرحيّاتِ المحكومةِ بقواعِدِ الوَحَداتِ الثّلاثِ (وَحْدةِ الزّمانِ ووَحْدَةِ المكانِ ووَحْدَةِ الحدثِ) ورسَّخوا بَعْضَ أصول الكتابةِ والتّعبيرِ الأدبيِّ كالوضوحِ والإيجازِ والدِّقّةِ والرَّشاقةِ حتّى أصبحتْ هٰذه القواعدُ شعاراتٍ أساسيّةً يَلتزمُ بها مُعظَمُ الأدباءِ والكتّابِ في هٰذه الفترةِ من تاريخِ إنجلترا الأدبيِّ.

في هـٰذه الفترةِ ازدهـرَ في الشِّعرِ القـالَبُ الشِّعريُّ المعـروفُ باسمِ (Heroic Couplet) والقالَبُ المعروفُ باسمِ (Ode)، كما ازدهرَ الشِّعرُ الهجائيُّ الساخرُ، وظَهَرَتِ الصُّحُفُ لأوّلِ مَرّةٍ، وسادَ فَنُّ المَقالةِ، كما راجتْ كُتُبُ الرِّحلاتِ، والكتاباتُ العلميّةُ والفلسفيّةُ، كما بَرَزَ إلى الوجودِ فَنُّ القصّةِ الواقعيّةِ الطّويلةِ، وفَنُّ الرِّوايةِ، وأصبحَ للأدبِ بجميعِ أجناسِه سوقٌ رائجـةٌ وجمهورٌ واسِعٌ من القُرّاءِ، وأصبحتِ الكتابةُ مهنةً ذاتَ عوائدَ مادّيّةٍ ومعنويّةٍ مرموقـةٍ وأصبحتِ الكلمةُ المطبوعةُ، شِعْرًا كانت أو نثرًا، أداةً مُهِمّةً فتّاكةً وسلاحًا فعّالاً في صراعاتِ الساسة والقادةِ والأحزابِ والطّوائفِ الدينيّةِ المُتنافِسةِ والمذاهِبِ الفكريّةِ المُتعارِضةِ.

في هٰذه الأجواءِ السِّياسيّةِ والفكريّةِ والاجتماعيّةِ والأدبيّةِ وُلِدَ جوناثان سويفت، ونَشَأَ، وكَوَّنَ لنَفْسِه مكانةً مرموقةً كأديبٍ بارعٍ في استعمالِ سلاحِ الكلمةِ المطبوعةِ، وكسياسيٍّ مُحنَّكٍ، ورَجُلِ كنيسةٍ مرموقٍ، وبَطلٍ قوميٍّ لدى جماهيرِ إرلندا.

كان جَدُّه رَجُلَ كنيسةٍ إنجليزيًّا. حِيْنَ قامتِ الثَّورةُ في إنجلترا ضدَّ الملكِ «جيمس سْتيوارْتْ » الأوّلِ، وَقَفَ جَدُّ سويفت إلى جانِبِ المَلِكِ والمَلكيّينَ. لَكِنّ الثَّورةَ انتصرتْ وقَبَضَ الثُّوّارُ على المَلِكِ «جيمس» الأوّلِ، فسَجَنوه وحاكَموه وأدانوه ثمّ أعدموه، واضطهدوا أنصارَه ومن بينهم جَدُّ «جوناثان سويفت»، ممّا اضطرَّ أبناءَه إلى الهربِ إلى إرلندا حَيْث اتَّخذوا من دَبْلن عاصمةِ إرلندا وطنًا ثانيًا لهم. وكانَ والدُ «جوناثان سويفت» أصغرَ أولٰئك الأبناءِ. وقد وَرِثَ «سويفت» عن جَدِّه كراهيةً دائمةً وعَداوةً لا تَلينُ للثُّوّارِ (البيروتّيانيّينَ) وفِكْرِهم وعَقيدتِهم.

حِيْنَ وُلِدَ سويفت كان أبوه قد تُوفِّي منذ سبعةِ أشهرٍ، وخَلَّفَ وراءَه زوجةً وطفلةً في فقرٍ مُدقعٍ يَصِلُ حَدَّ الجوعِ، ممّا اضطرّ أُمَّ «سويفت» أنْ تَتركَ ابنَها في رعايةِ أعمامِه وتَعودَ إلى إنجلترا لتعيشَ مع أُسْرتِها. وهٰكذا قضى سويفت طفولَته في تعاسةٍ بالغةٍ محرومًا من حَدَبِ الأبِ وحنانِ الأمِّ.

عَلَّمَه أعمامُه في أحسنِ المَدارسِ المُتَوافِرةِ في «دَبْلِنْ» حينذاك حتى تَخرَّجَ بشهادتِه الجامعيّةِ الأولى من كلّيّةِ «ترينتي» في «دَبْلِنْ» عامَ ١٦٨٦. لَكِنّ إحساسَ سويفت بالفقرِ واليُتْمِ وبأنّه عالةٌ على الآخرينَ كانَ يُلازمُه ويَحزُّ في نَفْسِهِ ويَبتليه بمَشاعرِ الإحباطِ وسوءِ الحظِّ وتعاسةِ العيشِ.

بالإضافةِ إلى إحساسِه بفقرِه وبؤسِ وَضعِه العائليِّ، كان «سويفت» يَتألَّمُ لكثرةِ الصِّراعاتِ الدينيّةِ في إرلندا بين الكاثوليكِ والإنجليكانيّينَ، والسِّياسيّةِ بين أنصارِ المَلِكِ «جيمس» الثاني المعزولِ وأنصارِ الملكِ وِلْيَم الثالثِ مَلِكِ إنجلترا الجديدِ، وَلِما يَنجمُ عن هٰذه الصِّراعاتِ من كراهيةِ كُلِّ فريقٍ للآخرينَ واضطهادِه لهم وتآمُرِه عليهم. كذٰلك كان الفقرُ الشَّديدُ الذي ترزحُ تحت نيرِه الجماهيرُ الإرلنديّةُ تَزيدُ شعورَ «سويفت» بتعاسةِ العيشِ وبؤسِ الحياةِ وقَسْوَةِ البَشَرِ.

لهذا كُلِّه غادَرَ «سويفت» إرلندا حالَما تَيسَّرَ له ذٰلك وذَهَبَ في عام ١٦٨٨ إلى إنجلترا حيث أقامَ مع أُمِّه بضعةَ أشهرٍ انتقلَ بَعْدَها إلى قصرِ «السير وِلْيَمْ تِمْبلْ» الذي عَيَّنَهُ سكرتيرًا له. كان «تِمْبل» من أقطابِ رجالِ السِّياسةِ والحكمِ والفكرِ في إنجلترا. في هٰذه الفترةِ كان مُتقاعِدًا لَكِنّ قَصْرَهُ كان ناديًا يَؤُمُّه عددٌ من أصدقائِه من النُّبلاءِ والساسَةِ والأدباءِ.

إستمرَّ «سويفت» على عَلاقةٍ حميمةٍ مع «السير وليم تِمْبِلْ» رَغْمَ ظهورِ فترةٍ أو فترتينِ قصيرتينِ من الفتورِ والحَرَد من جانب «سويفت». وقد كان لهٰذه العَلاقةِ الحميمةِ أَثَرُها البالغُ في رَسْمِ مُستقبَلِ «سويفت» وتشكيلِ حياتِه العاطفيّةِ واهتماماتِه الفكريّةِ والسِّياسيةِ. أثناءَ إقامتِه شِبْهِ الدائمةِ في قَصْرِ «تِمْبِلْ» حتّى عام ١٦٩٩ تَعَرَّف «سويفت» على عدد من رجالاتِ الحكمِ والسِّياسةِ في إنجلترا، وتَعلَّمَ أساليبَهم في التَّعامُلِ والسُّلوكِ والمُجامَلةِ، وقَرَأَ الكثيرَ من الكتبِ والثَّمينةِ المُتوافرةِ في مَكتبةِ «تِمْبِلْ» الغنيّةِ بكُتُبِ الأدبِ والتاريخِ والفلسفةِ والفنِّ، وتَرسَّخَ حُبُّه للتُّراثِ الكلاسيكيِّ، وحَصَلَ عام ١٦٩٢ على شَهادةِ الماجستير من جامعةِ أوكسفورد، كما حَصَلَ، بِدَعْمٍ من «تِمْبِلْ»، على مَنصبٍ مُحترَمٍ في الكنيسةِ الإنجليكانيّةِ في إرلندا. كذٰلك أَلَّفَ في هٰذه الفترةِ عددًا من الكُتُبِ التي نَشَرَها فيما بَعْدُ (عامَ ١٧٠٤)، وأهمُّها كِتابُ **معركة الكُتُب (The Battle of the books)** وكِتابُ **قصّة برميل (A Tale of A Tub)**. وبِالنِّسبةِ لحياتِه العاطفيّةِ تَعرَّفَ سويفت على فتاةٍ صغيرةٍ محبوبةٍ في قَصْرِ «تِمْبِلْ» اسمُها «اسْتَرْ جونسون» وشارَكَ في تعليمِها، وحين كبرتْ أصبحتْ صديقتَه المُفضَّلةَ ـ وربّما حبيبتَه ـ وأصبحَ هو بالنِّسبةِ لها الحبيبَ الأوحدَ الذي لا غنًى لها عنه. ولا تَزالُ قصَّةُ عَلاقةِ «سويفت» بهٰذِه الفتاةِ التي اشْتُهِرَت باسمِ «سْتيلّا» سرًّا غامِضًا مجهولَ التَّفاصيلِ. هناك من يَقولُ إنه تَزوّجها سرًّا عام ١٧١٦، ومن يقولُ إنَّ هٰذا الزَّواجَ كان اسميًّا فقط، وفريقٌ يَقولُ إنّه لم يَتزوّجْها قَطُّ وإنّ عَلاقتَهما كانت حُبًّا أفلاطونيًّا عميقًا وقويًّا وصامتًا. لٰكِنّ الثابِتَ أنّ «سْتيلّا» هٰذه انتقلت إلى إرلندا بَعْدَ وَفاة «تِمْبِل» وأقامت بجوارِ «سويفت» حتى تُوفِّيَت عامَ ١٧٢٨.

بَعْدَ وفاة «تِمْبِلْ» في عام ١٦٩٩ واجَه «سويفت» الحياةَ وَحْدَه، لٰكِنّ أحوالَهُ المادِّيّةَ وعَلاقاتِه الشَّخصيّةَ ومَواهِبَه الفكريّةَ والأدبيّةَ فَتَحَتْ له أبوابًا للأملِ بالصُّعودِ وتحقيقِ الكثيرِ من طموحاتِه. حَصَلَ على الدُّكتوراه في اللاهوتِ عامَ ١٧٠٢. وَنَشَر في عامِ ١٧٠٤ كِتابَ **معركة الكتب** وكتابَ **قصّة برميل** ومَقالات أخرى لَفَتَتْ إليه أنظارَ الأدباءِ وقادةَ حزبِ الأحرارِ وأمراءَ الكنيسةِ في إنجلترا وإرلندا. بَدَأَ نَجْمُ «سويفت» في الصُّعودِ وصارَ الكثيرونَ يَخطبونَ وُدَّه ويَستميلونَه ويُكلِّفونه بالدِّفاعِ عن مَصالِحهم لدى أصحابِ النُّفوذِ والقرارِ في الدَّولةِ. وبالتَّدريجِ أصبحَ له صوتٌ مسموعٌ ورأيٌ يُحسَبُ له الحسابُ في الكنيسةِ الأنجليكانيّةِ في إرلندا وفي الحياةِ السِّياسيّةِ في إنجلترا، وصارَ لقلمِه جولاتٌ مشهودةٌ في الصُّحفِ والمَطابعِ اللَّندنيّةِ والإرلنديّةِ.

الفترةُ الذَّهبيّةُ في حياةِ سويفت كانتْ بين عامَيْ ١٧١٠ و١٧١٤ حينَ اعتلى حزبُ المُحافِظينَ برئاسةِ «هارلي» (لورد أوكسفورد) و«سان جون» (بولنْبروك) سُدَّةَ الحُكمِ في بريطانيا.

في هٰذه الفترةِ عاشَ «سويفت» جُلّ وَقْتِه في لندن حيث أصبحَ صديقًا مُقرَّبًا ومُستشارًا مسموعَ الكَلِمَةِ لدى زعيمي حِزْبِ المُحافِظينَ. من ناحيته سَخَّرَ سويفت قَلَمَه لترويجِ سياسةِ هٰذا الحِزْبِ بخصوصِ قضيّةِ الحربِ والسَّلامِ مع فرنسا ولتسفيهِ سياساتِ حِزْبِ الأحرارِ حَوْلَ هٰذه القضيّةِ وغيرِها من القضايا. سَلَّمه حِزْبُ المُحافِظينَ عامَ ١٧١١ رئاسةَ تحريرِ جريدةِ **The Examiner** ، الناطقةِ بلسانِ الحزبِ، فنَشَرَ فيها وخارِجَها عددًا من المقالاتِ التي أَثَّرَتْ على مَسيرةِ الأحداثِ في إنجلترا وعلى مَسيرَةِ علاقاتِ إنجلترا بأوروبّا عامّةً وفرنسا بشكلٍ خاصٍّ، ومن أهمِّ هٰذه المَقالاتِ مَقالتُه المعروفةُ بعنوان **سلوك الحلفاء The Conduct of the Allies** (عامَ ١٧١١) والتي يُدافِعُ فيها عن سياسةِ حِزْبِ المُحافِظينَ الحاكِمِ بضرورةِ إنهاءِ الحربِ مع فرنسا وعَقْدِ مُعاهَدةِ سَلامٍ معها، ومَقالتُه بعنوان: **نبوءة وِنْدْسور The Windsor Prophesy** (عام ١٧١٢) التي تُهاجِمُ وتَسخرُ من رجالاتِ حِزْبِ الأحرارِ المُعارِضِ.

في هٰذه الفترةِ أيضًا كان «سويفت» مَلْجَأً لذوي الحاجاتِ من المُفكّرينَ والأُدباءِ والفَنّانينَ وحَظِيَ بصداقةِ الكثيرينَ منهم. وفي عامِ ١٧١٤ أَلَّفَ مع عددٍ من أصدقائِه المُقرَّبينَ نادِيَ «سْكْريبِلْيروس» الأدبيِّ الذي وَضَعَ عددًا من المَشاريعِ الأدبيّةِ الساخرةِ. لكنّ هٰذا الناديَ لم يُعمِّرْ طويلاً.

عَكَفَ «سويفت» في هٰذه الفترةِ على تسجيلِ مُذكّراتٍ شِبْهِ يوميّةٍ وكانَ يُرسِلُها إلى صديقتِه «سْتيلّا» في إرلندا. وَقد جُمِعَتْ هٰذه المُذكِّراتُ فيما بَعْدُ ونُشِرَتْ في كِتابٍ تَحْتَ عنوانِ: **مُذكِّرات إلى سْتيلّا Journal to Stella**. وأصبحَ هٰذا الكتابُ مَرجِعًا مُهِمًّا لمن يَرغبونَ في معرفةِ شخصيّةِ «سويفت» والتّعرُّفِ على قضَايا العصرِ المُهِمّةِ.

خلالَ هٰذه الفترةِ تَعرَّفَ سويفت على فتاةٍ من إحدى الأُسَرِ الراقيةِ في لندنَ، وهي الفتاةُ المعروفةُ لدى كُتّاب سيرةِ سويفت باسم «ڤانيسّا». أَحَبَّت هٰذه الفتاةُ «سويفت» حُبًّا طغى على حياتِها بحيثُ لم تَعُدْ تُطيقُ الابتعادَ عنه. وحين اضطرَّ «سويفت» لمُغادَرةِ لندنَ عامَ ١٧١٤ وقضاءِ بقيّةِ عُمْرِه في «دَبْلِنْ» بإرلندا، لحقت «ڤانيسا» به وعاشت بجوارِه حتى قَضَتْ نَحْبَها في عامِ ١٧٢٣.

انتهتْ هٰذه الفترةُ الذّهبيّةُ في حياةِ «سويفت» بشكلٍ مُفاجئٍ ومأساويٍّ حين تُوفّيتِ المَلِكَةُ «آن» (Ann) وسَقَطَ حِزْبُ المُحافِظينَ وتَسَلَّم حِزْبُ الأحرارِ دَفَّةَ الحكمِ وراحَ يَضطهدُ رجالاتِ حِزْبِ المُحافِظينَ ويَتَّهِمُهم بالخيانةِ أو استغلالِ النُّفوذِ أو سوءِ الإدارةِ، فَهَرَبَ بعضُهم إلى فرنسا

ووُضِعَ بعضُهم في السُّجونِ. أمّا «سويفت» فقد انْسَلّ عـائدًا إلى «دَبْلِنْ» حيث لَـزِمَ الصَّمْتَ واختفى من الحياةِ العامّةِ في إنجلترا.

قُبَيْل نهايةِ هٰذه الفترةِ، وفي عامِ ١٧١٣ على وَجْهِ التَّحديدِ، فازَ «سويفت» بمنصبٍ رفيعٍ في الكنيسةِ الإنجليكانيّةِ بإرلندا، وهو رئاسةُ كاتدرائيّةِ «سان باتريك»، وهي كاتدرائيّةٌ مُهِمّةٌ وذاتُ أوقافٍ وعوائدَ مادِّيّةٍ غنيّةٍ. وحِيْنَ سَقَطَتْ وزارَةُ حِزْبِ المُحافِظينَ لَجَأَ «سويفت» إلى كاتدرائيّتِهِ وكَرَّسَ نَفْسَهُ لِرعايةِ شوؤنِها حتى تُوفِّي عامَ ١٧٤٥. في الوقتِ نَفْسِه تفرَّغَ لمُتابَعَةِ اهتماماتِه الأدبيّةِ من ناحيةٍ، وللدِّفاعِ عن مَصالِح الشَّعبِ الإرلنديِّ التي كانت تَتعرَّضُ للاستغلالِ وسوءِ الإدارةِ أو الإهمالِ المُتعمَّدِ من قِبَلِ حكومةِ لندنَ. ولهٰذا أصبحَ «سويفت» في نظرِ الإرلنديّينَ بطلاً قوميًّا جَديرًا بالإجلالِ والتَّقديرِ.

رَغْمَ مَولِده ونشأتِه وقضاءِ مُعظَمِ سنـواتِ عُمْرِه في إرلنـدا، ورَغْمَ اعتزازِ الإرلنـديّينَ به وإجلالِهم لِقَدْرِه ومكانَتِه، فإنّ «سويفت» لم يَنْسَ قَطُّ أنّه إنجليزيُّ الأصلِ، وظَلَّ طـول عمرِه إنجليزيَّ الهوى والحنينِ. كانَ حُلْمُه الأكبرُ وأملُه الأهمُّ أن يَستقرَّ في إنجلترا وأن يَحظى بمنصبٍ كَنَسيٍّ رفيعٍ فيها ليُعيدَ أمجادَ أُسرتِه حيث تُوجَدُ جذورُها. لٰكِنّ هٰذا الأملَ ظَلَّ يَتيمًا كصاحِبه. لقد شاءَ له القَدَرُ أن يَظلَّ إرلنديًّا، وفَرَضَتْ عليه الأيّامُ إقامةً شِبْهَ جبريّةٍ في إرلندا وجَعَلَت منه بطلاً قوميًّا إرلنديًّا رَغْمَ أنفِه.

أهَمُّ أعمالِ سويفت الأدبيّةِ

من السِّماتِ العامّةِ لقلمِ سويفت أنّه لم يَكنْ قَلَمَ أديبٍ مُحترِفٍ. لم تَكُن الكلمةُ المطبوعةُ بالنِّسبةِ لـ«جوناثان سويفت» بضاعةً يُتاجِرُ بها وَيَكسبُ رزقَه من ترويجِها. كانَ هٰذا شأنَ كُتّابِ (Grub Street) الذين كان «سويفت» يَحتقرُهم. وهَو لم يَأخذْ أَجْرًا على مَقالةٍ أو كِتابٍ سوى مَرّةٍ واحدةٍ حِيْنَ قَبِلَ مائتين مِن الجنيهاتِ مُقابِلَ كِتابِ رحلات جلفر. كذٰلك لم تَكُنِ الكلمةُ تَرَفًا جماليًّا: «سويفت» لم يَكُنْ يَعرفُ فلسفةَ الفنِّ من أَجْلِ الفَنِّ. ولم تَكُنِ الكتابةُ بالنِّسبةِ له علاجًا يُداوي به لواعجَ نَفْسِه بواسطةِ تفريغِ همومِـه وأوجاعِـه على الورقِ. ويُمكِنُ القـولُ أيضًا أنّ «سويفت» لم يَتّخذِ الكلمةَ المطبوعةَ سُلّمًا يَرقى به إلى الشُّهرةِ والمجدِ الأدبيِّ.

كانتِ الكلمةُ لدى «سويفت» أداةً لشرحِ رأيٍ أو للتّعبيرِ عن موقفٍ تجاهَ قضيّةٍ عامّةٍ، أو سلاحاً يَشهرُه للدِّفاعِ عن أوضَـاعٍ سليمةٍ، حسب رأيـهِ، حِيْنَ يَتهدَّدُهـا الخطرُ، أو لمُهـاجَمةِ

تَوَجُّهاتٍ خاطِئَةٍ أو قراراتٍ ظالمـةٍ تَمسُّ المَصالِحَ العامَّـةَ، أو لتسفيهِ خصمٍ أو خصـومٍ، أو للسُّخـريةِ من الـرَّذائلِ والانحـرافاتِ والأوهـامِ. ويُقَرِّر «ديفيـد وارْدْ» (David Ward, p.2) أنّ «سويفت» في كُلِّ مُؤلَّفاتِه يَتّخذُ موقفًا جَدَليًّا، فيُهاجِمُ أو يُدافِعُ عن وجهةِ نظرٍ دينيّةٍ أو فلسفيّةٍ أو سياسيّةٍ، أو يُعبِّرُ عن موقفٍ مُحدَّدٍ في الخصُوماتِ الحزبيّةِ أو تجاهَ قضايا عمليّةٍ مُباشِرةٍ مِثْلِ قضيّةِ عَقْدِ مُعاهَدةِ سلامٍ وإنهاءِ الحربِ مع فرنسا، أو قضيّةِ العملةِ المغشوشةِ التي حاوَلت حكومةُ لندنَ فَرْضَها على الإرلنديّينَ. ويُؤَكِّدُ «إدوارد سعيد» (Edward Said, p.56) هٰذه السِّمةَ في أعمالِ «سويفت» ويَقولُ إنّ مُعظَمَ هٰذه الأعمالِ كانت نِتاجَ مُناسَباتٍ عامّةٍ طارئةٍ. حِيْنَ تَظهرُ قضيّةٌ أو مُشكِلةٌ عـامّةٌ وتَختلِفُ حَـوْلَها الآراءُ وتَتعـدَّدُ التَّفسيراتُ وتَتعـارَضُ الحلولُ المُقتَـرَحـةُ؛ يَشـرعُ «سويفت» قَلَمَه الفَعّالَ ليُحلِّلَ ويُفسِّرَ ويُوضِحَ ما يَراه رأيًا سديدًا وحَلًّا صائبًا بطريقةٍ مُباشِرةٍ أحيانًا أو بأسلوبٍ ساخرٍ غيرِ مُباشِرٍ في مُعظَمِ الأحيانِ.

ويُمكِنُ القولُ بصورةٍ عامّةٍ إنّ أعمالَ «سويفت» توحي بأنّه كان ذا عقليّةٍ مُحافِـظةٍ تَعتبرُ الإنسانَ ذا طبيعةٍ قائمةٍ على الغرورِ والكبرياءِ الزائفِ وخِداعِ النَّفْسِ والأنانيّةِ والجَشعِ. ولهٰذا فالإنسانُ في نظرِ «سويفت» أكثرُ إقبالاً على ارتكابِ الشَّرِّ منه على فِعلِ الخيرِ، ويَستطيعُ أن يَرى الشَّرَّ والفسادَ في غيرِه لٰكِنّه عَاجِزٌ عن رُؤيتِهما في ذاتِه وأفعالِه. ولهٰذا فإنّ الجنسَ البشريَّ يَسيرُ في طريقٍ يَهبطُ به نحو مَزيدٍ من الانحطاطِ والفسادِ والعبثيّةِ والضَّلالِ. ومن هنا فإنّ الماضيَ في رَأيْ «سويفت» خيرٌ من الحاضرِ، والمُستقبَلَ يُنذِرُ بمَزيدٍ من الفسادِ والضَّلالِ والانحلالِ. وعليه يَصحُّ القولُ إنّ «سويفت» كان مُتشائِما أكثرَ منه مُتفائلاً، كارِهًا للتّغييرِ والتّجديدِ لأنّهما حَسَبَ رأيِهِ يَجلبانِ معهما المَزيدَ من الفسادِ والتَّفسُّخِ والخرابِ. في مُعظَمِ أعمالِهِ الأدبيّةِ كان «سويفت» يُحاوِلُ، جادًّا وحادًّا أحيانًا، وساخِرًا بشكلٍ مُضحِكٍ أو مُزعِجٍ أحيانًا أخرى، أن يُنبِّه إلى هٰذه الحقائقِ ـ في رأيِه ـ التي غَفَلَ عنها أو أَنكرَها الكثيرونَ من مُعاصريهِ.

في كتابِه **معركة الكتب** (١٧٠٤) يُصوِّرُ «سويفت» بشكلٍ ساخـرٍ وبأسلوبِ «هـوميروس» الملحميِّ مَعْرَكةً حاميةً بين الكُتُبِ القديمةِ والأخرى الجديدةِ الموجودةِ في مكتبةِ «سان جيمس» تَنتهي بانتصارِ الكُتُبِ القديمةِ وهزيمةِ الكُتُبِ الحديثةِ مِثلِ مُؤلَّفاتِ «دْرَايْدِنَ» و«بِنْتْلي» وغَيْرِهما من الكُتّابِ الحديثين.

وفي مَقالتِهِ **العمليّات الميكانيكيّة للروح** (عام ١٧٠٤) يَسخرُ «سويفت» من الخوارج (The

Dissenters) وبِدَعهِم الدينيّةِ، وَيزعمُ أنّ أفكارَهم المَذهبيّةَ وبِدَعَهم الدينيّةَ مُستلهَمةٌ من غريزةِ الجنسِ وسلوكيّاتِها المُنحرِفَةِ.

وفي كتابه **قصّة برميل** (١٧٠٤) يَسخرُ «سويفت» من كُلِّ أنواعِ الانحرافِ في الفِكْرِ والعقيدةِ والسُّلوكِ. يَخترعُ «سويفت» مُؤلِّفًا من خرّيجي مُستشفَى للمجانينِ، ويَجعلُه يَرى الدُّنيا بأَسْرِها جديرةً بالازدراءِ والاحتقارِ لأنّها دنيا فوضى مُحيِّرةٍ ذاتِ قِيَمٍ سخيفةٍ وعلومٍ ضَارّةٍ وفلسفاتٍ مجنونةٍ، ويُطلِقُ على لسانِه عبارتَه المشهورةَ بأنّ أَسْلَمَ سبيلٍ يُمكِنُ للمرءِ أن يَسلكَه في هٰذا العالَمِ المجنونِ هو أن يَكون مُغَفَّلاً بين سفلةٍ لئامٍ.

وفي مَقالتِه **سلوك الحلفاء** (١٧١١) يُدافِعُ «سويفت» عن سياسةِ السَّلامِ التي انتهجَها حزبُ المُحافِظينَ والتي انتهت بإنهاءِ الحربِ المُدمِّرةِ التي كانت قائمةً بين إنجلترا وحلفائها من جهةٍ، وفرنسا وحلفائِها من جهةٍ أخرى.

وفي مَقالته **نُبوءة وِنْدسور** (**The Windsor Prophecy**) ١٧١٢ هاجَمَ «سويفت» مُعارِضي السَّلامِ من حِزْبِ الأحرار ودُعاةَ استمرارِ الحربِ أمثالَ «مارْلْبورَو» قائدِ القُوّاتِ الإنجليزيّةِ، ولورد «سومَرْسِتْ».

وفي مَقالاتِه المشهورةِ باسم **رسائل تاجر جوخ** (**The Drapier's Letters**) (١٧٢٤ ـ ١٧٢٥) هاجَمَ «سويفت» مُحاوَلةَ حكومةِ لندنَ فَرْضَ عُمْلَةٍ مغشوشةٍ على إرلندا، وهي العملةُ المعروفةُ باسمِ (Wood's Penny). وكانت هٰذه **الرّسائل** من القوّةِ والعنفِ والتّأثيرِ على القُرّاءِ بِحيثُ إنّها صارتْ تُعتبَرُ من العوامِلِ التي أجبرتْ حكومةَ لندنَ على إلغاءِ تلك العُمْلةِ.

وأخيرًا هناك مَقالتُه، المشهورةُ بعنوان **اقتراح مُتواضِع A Modest Proposal** (عامَ ١٧٢٩)، وفيها اقتراحٌ بِتَسْمينِ مائةِ ألفِ طفلٍ مِمَّنْ يُنجِبُهم فقراءُ إرلندا حتى يُصبِحَ عُمْرُ الواحِدِ منهم سنةً، ثمّ بَيْعِهم للجزّارينَ لكي يَذبحوهم ويَبيعوا لحمَهم الطّريَّ للأُسَرِ الغنيّةِ في كُلٍّ من إرلندا وإنجلترا، وبهٰذا تُحَلُّ مَشاكِلُ عديدةٌ مِنها إنقاصُ عددِ الفقراءِ، والتّخلُّصُ من مَشاكلِ تربيةِ أبنائِهم، وإنهاءُ مُشكِلةِ نَقْصِ الأغذيةِ أو توفيرِ الأمنِ الغذائيِّ ـ كما يُقال في أيّامِنا.

إلى جانِبِ الكُتُبِ والمَقالاتِ المذكورةِ أعلاهُ والمكتوبةِ بلغةِ النَّثرِ، وبأسلوبٍ يَتمتَّعُ بالوضوحِ والإيجازِ والدِّقّةِ والرَّشاقةِ، فإنّ «سويفت» كان أيضًا شاعرًا قديرًا وإن لم يَكُنْ شاعرًا موهوبا مِثْلَ صديقِه «أَلِكْسَنْدَر بوب». ومن أشهرِ قصائدِ سويفت تلك التي تَحمِلُ عنوانَ قصيدة

بُمناسَبة وفاة الدكتور سويفت (Verses on the Death of Dr. Swift) والتي نُشِرت عامَ ١٧٣١ ؛ ويُصوِّرُ فيها «سويفت» بأسلوبِهِ الساخرِ حادثـةَ وفاتـهِ وردودَ فِعْلِ الآخـرَينَ، بمن فيهم الملكةُ والأعداءُ والأصدقاءُ، عند سَماعِهِم نبأَ وفاتِه.

لُكنّ أَهَمَّ عَمَلٍ من أعمالِ «سويفت» وأشهرَها هو كتابُه **رِحلات جلفر** الذي قضى في تأليفِهِ أكثرَ من خمسِ سنواتٍ (١٧٢١ ـ ١٧٢٦)، والذي ظَهَرَ لأوّلِ مَرّةٍ في ٢٨ أكتوبرَ عامَ ١٧٢٦ ، وحَظِيَ لدى القُرّاء برواجٍ مُبَاشِرٍ وواسعٍ ، وأعيدَ طَبْعُه عامَ ١٧٢٧ ثمّ ظَلَّ يُعادُ طَبْعُه واستمرّ يَحظى بالرَّواجِ حتى الآنَ . وقد تُرجِمَ هٰذا الكِتَابُ على الفورِ إلى اللُّغةِ الفرنسيّةِ وبَعْدَ ذلك إلى اللُّغَاتِ الأوروبِّيّةِ ثمّ إلى جميعِ لغاتِ العالَمِ المكتوبةِ ومن بينها اللُّغَةُ العربيّةُ التي تُرجِمَ هٰذا الكتابُ إليها لأوّلِ مَرَّةٍ في مِصْرَ عامَ ١٩٠٩ .

رِحلات جلفر :

السَّفرُ والانتقالُ من بلدٍ إلى آخَرَ من طبائِـعِ البشرِ، وكـأنَّ روحَ الإنسانِ تـأبى أن تَقنعَ بالجَسَدِ الذي تَستَقرُّ فيه والبلدِ الذي يُقيم فيـه جَسَدُهـا، وتَنزعُ إلى تـوسيعِ آفـاقِها المكـانيّةِ ومَدارِكِها المعرفيّة فتَحثّ الجَسَدَ الذي يُؤويها على التَّرحُّلِ بدَوافِعَ مُتنوِّعَةٍ وأسبابٍ مُتعدِّدةٍ. تارةً تكونُ الدَّوافعُ اقتصاديّةً كالمُتاجَرةِ أو البحثِ عن عملٍ أو مَرْعًى، وأخرى تكونُ دينيّةً كرحلاتِ الحجِّ أو زيارةِ أماكنَ مُقدَّسةٍ أو هربًا من اضطهادٍ عقائديٍّ أو للتّبشيرِ بدينٍ جديدٍ، وتارةً تكونُ الدَّوافعُ سياسيّةً وعسكريّةً كرحلاتِ الغَزوِ والاستعمارِ الاستيطانيِّ والفتوحاتِ؛ وأخرى تكونُ دوافعَ استطلاعيّةً ومعرفيّةً كالرِّحلةِ في طلب العِلْمِ ورحـلاتِ الاستكشافِ الجغـرافيِّ أو الإتنوجـرافيِّ والأنتروبولوجيِّ . وأخيرًا قد تكون الرِّحلةُ لرغبةٍ في التَّغييرِ أو حُبًّا للإثـارةِ والمُغامَـرةِ ومُواجهـةِ الأخطارِ.

ومع أنّ النُّزوعَ إلى التَّرحُّلِ موجودٌ لدى البشرِ جميعًا إلاّ أنّ القيامَ فعليًّا بالرِّحلاتِ مقصورٌ على قِلّةٍ من ذوي الهِمَمِ العاليةِ والطُّموحاتِ الكبيرةِ وعُشّاقِ المعرفةِ والمُغامَرةِ. لُكنَّ القاعِدينَ عن التَّـرحُّلِ والسَّفَـرِ يَجدونَ في أنفسِهم رغبَـةً مُلِحّةً في تَتبُّـعِ أخبارِ الـرَّحّالينَ ومُشـاهَداتِهم ومُغامَراتِهم. وما كُتُبُ الرِّحلاتِ إلاّ استجابةً لتلك الرَّغبةِ. ومن هنا كانت كُتُبُ الرِّحلاتِ وأخبارُ الرَّحّالينَ تَحظى بالرَّواجِ ، وخصوصًا إذا كانت تَحفلُ بأخبارِ الغرائبِ والعجائبِ.

وقصصُ الرِّحلاتِ أنواعٌ. منها ما هو قصصٌ فولكلوريّةٌ تُروَى شفاهةً من جيلٍ إلى جيلٍ

وتُوْجَدُ لدى جميعِ الشُّعوبِ، ومنها ما هو تراثٌ دينيٌّ مِثْلُ قصّةِ سفينةِ نوحٍ وقصّةُ يونسَ في بطنِ الحوتِ وقصّةُ يوسفَ وإخوتِه وقصّةُ موسى وصاحِبِهِ ثمّ موسى وقومِه حِيْنَ عَبَروا البحرَ وتاهوا في الصَّحراءِ. ومنها ما هو مكتوبٌ على شكلِ تقاريرَ عن رِحلاتٍ قامَ بها أصحابُها ودَوَّنوا خبراتِهم ومَشاهَداتِهم في كُتُبٍ مِثْلِ كِتابِ **التَّواريخ** للمُؤَرِّخِ الرَّحّالةِ اليونانيِّ «هيرودوتس»، وَكِتابِ **أحسن التَّقاسيم في معرفة الأقاليم** لِعَبْدِ الله مُحمَّد أحمد المقدسيِّ، وكِتابِ **نُزْهَة المُشتاق في اختراق الآفاق** لِعبدالله مُحمَّد بن مُحمَّد الإدريسيّ، وكِتابِ **مروج الذَّهب ومَعادِن الجوهر** لأبي الحسن علي بن الحسين الشَّهير بالمسعوديّ، وكِتابِ **تُحْفَة النُّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** الذي دَوَّنَه مُحمَّد بن جزي الكلبيّ نقلاً عن ابن بَطّوطة، وكِتابِ **رِحلات ماركو بولو**، وكُتُبٍ أُخرى عن رِحلاتِ «فاسكو دي جاما» و«كريستوفر كولـومبوس»، و«فـرديناند ماجـلّان» و«وليم دامبْيير». لٰكِنّ أشهرَ كُتبِ الرِّحلاتِ تلك التي تَروي قصصًا عن رِحلاتٍ خياليّةٍ.

أمّا الرِّحلاتُ الخياليّةُ فأهمُّها نوعانِ: نوعٌ يَروي قصصًا واقعيّةً ـ أي أنّ كلّ ما يَحصلُ فيها مُمكِنُ الحدوثِ وليس فيها أحداثٌ خارقةٌ أو مُستحيلةٌ أو مخلوقاتٌ مُستحيلةُ الـوجودِ ـ ولٰكنّهـا ليست بالضَّرورةِ قصصًا فعليّةً؛ من ذٰلك قصّةُ **روبِنْصُن كروزو** وقصّةُ **يوطوبيا**. ونوعٌ ثانٍ يَروي قصصًا يَختلطُ فيها المُمكِنُ والمستحيلُ، والمألوفُ وغيرُ المألوفِ، والعاديُّ والخارقُ. من هٰذا النَّوعِ قصّةُ رِحلات «يوليسيس» في ملحمةِ «هوميروس» المعروفَةِ باسمِ **الأوديسّة**، وقصّةُ رِحلات «إينياس» في مَلحمةِ «ڤيرجيل» المعروفةِ باسمِ **الإنْيادة**، وقصّةُ **رحلات السِّندباد في ألف ليلة وليلة**، وقصّةُ **رِحلات بانتاجْرُويِلْ** للكاتب الفرنسيِّ «فرانسوا رابيليه»، وقصّةُ **تاريخ صادق** للكاتب السوريّ الساخرِ «لوسيان»، وقصّةُ رِحلات «سيرانو دي بِرْجِراك». في كتابَيْهِ **تاريخ مُضحِك للقمر وتاريخ مُضحِك للشَّمس**. ويَندرجُ كِتابُ **رِحلات جلڤر** تحت هٰذا النَّـوعِ من كُتُبِ الرِّحـلاتِ الخياليّةِ التي تَجمعُ بين الواقعيّةِ من جهةٍ وما يُسَمَّى بـ «الفانتازي» من جهةٍ أُخرى.

العناصرُ الواقعيّةُ في رِحلات جلڤر:

عاشَ «سويفت» في عصرٍ يَكرَهُ المُبالَغةَ والادِّعاءَ والتَّزييفَ ويُبالِغُ في الحرصِ على الصِّدقِ والموضوعيّةِ والواقعيّةِ. كما إنَّ هٰذا العصر شَهِدَ فيضًا من كُتُبِ الرِّحلاتِ التي زَعَمَ مُؤَلِّفوها أنّها تَقاريرُ موضَوعيّةٌ صادقةٌ عَن رِحلاتٍ وأحداثٍ فعليّةٍ، كما شَهِد إقبالاً شديدًا من القُرّاءِ عَلى هٰذه الكُتُبِ.

وقـد قَرَأَ «سـويفت» الكثيرَ من هٰـذه الكُتُبِ وأَدْرَكَ أنّها، رَغْمَ مَـزاعمِ مُؤلِّفيها بـالصِّدقِ

والموضوعيّةِ، تَنطوي على كثيرٍ من التَّزييفِ والمُبالَغةِ والكذبِ، كما تَعرَّفَ على أساليبِ أولٰئكَ المُؤلِّفينَ في التَّزييفِ وخداعِ القُرّاءِ. وإذ أدْرَكَ «سويفت» أنّ لدى القُرّاءِ قَدْرًا كبيرًا من الغَفلةِ والسَّذاجةِ وأنّ لدى المُؤلِّفينَ قَدْرًا مُماثِلاً من الانتهازيّةِ وروحِ الاستغلالِ، فإنّه يَحقُّ له أن يَسخرَ من المُؤلِّفينَ والقُرّاءِ معًا بتقليدِ أساليبِ المُؤلِّفينَ بشكلٍ ساخِرٍ (Parody) واستغفالِ القُرّاءِ بشكلٍ بارعٍ والضَّحكِ عليهم جميعًا وعلى نَفْسِه أيضًا (Satire).

أوَّلُ عنصرٍ واقعيٍّ في رِحلاتِ جلفر هو «جَلِفَر» نَفْسُه: الرَّحّالةُ والراويةُ في الوقت ذاتِه. «جلفر» شَخْصٌ وهميٌّ اخترَعَه «سويفت» وأعطاه جميعَ المُواصَفاتِ التي تَجعلُه يَبدو شخصًا حقيقيًّا موثوقًا وجديرًا بالتَّصديقِ. نَسبَه إلى أُسْرَةٍ في مكانٍ مُحدَّدٍ من إنجلترا، وجَعَلَه يَسْرُدُ لنا قَصّةَ تعليمِه حتى أصْبَحَ طبيبًا، وقصّةَ مُمارَستِهِ لمهنةِ الطِّبِّ، وقصّةَ زواجِه، وقصّةَ فَشَلِه في كسبِ ما يَكفي من الرِّزقِ لإعالةِ أُسْرتِه، وقَصّةَ التحاقِه بالعملِ في السُّفنِ كطبيبٍ جرّاحٍ، إلى غيرِ ذٰلك من التَّفاصيلِ التي تُقنِعُ القُرّاءَ بأنّ إنسانًا بهٰذه المُواصَفاتِ لا بُدَّ أن يَكون جديرًا بالثِّقةِ والمسؤوليّةِ والتَّصديقِ. وبهٰذا يَسلبُ «سويفت» القُرّاءَ قُدْرَتَهم على التَّشكُّكِ والارتيابِ في صِدْقِ ما يَرويه «جلفر» لهم.

وتدعيمًا لمصداقيّةِ «جلفر» يَحرصُ «سويفت» على جَعْلِه يُوْرِدُ أرقامًا وقياساتٍ وتواريخَ فعليّةً كما جَعَلَه يُوْرِدُ أسماءً ووقائعَ وتفاصيلَ حقيقيّةً. في كُلِّ رحلةٍ من رِحلاتِه يُحدِّدُ «جلفر» تاريخَ المُغادَرةِ باليومِ والشَّهرِ والسَّنة، ومُدَّةَ الرِّحلةِ بالسَّنواتِ والأَشْهُرِ والأيّامِ، وتاريخَ العودةِ. كَما يَضعُ خارطةً بمَواقعِ البلدانِ التي مَرَّ بها ويُحدِّدُ خطوطَ الطولِ والعَرضِ. كذٰلكَ يُذكرُ أسماءَ السُّفنِ التي سافَرَ فيها، وأسماءَ قباطنَتِها، وسعةَ تلك السُّفنِ ومِقدارَ حمولتِها، وأسماءَ المَوانئِ التي غادَرَتْ منها أو مَرَّتْ بها أو رَسَتْ فيها. وحين يَصِلُ إلى بَلَدٍ من البلدانِ يَصِفُ بالتَّفصيلِ سُكّانَها وحيواناتِها ونباتاتِها، كما يَتعلَّمُ لغةَ أهْلِها، ويَختَلطُ معهم ويَصِفُ غاداتِهم ومَساكنَهم وقيمَهم، وغيرَ ذٰلك من التَّفاصيلِ الواقعيّةِ التي يَعجِزُ القارئُ المُتشكِّكُ أن يُنكِرَ صِحّتَها أو يُثبِت بُطْلانَها وزيفَها.

العناصِرُ الغريبةُ والخارقةُ أو «الفانتازي» في رِحلاتِ جلفر:

في كُلِّ رِحلةٍ من رحلاتِ جلفر يَبدأُ «سويفت» بعناصرَ واقعيّةٍ يُخدِّرُ بها الشُّكوكَ ويُغري بها القُرّاءَ للاستمرارِ في قراءةِ القصّةِ حتى يَنزلقَ بهم إلى عالَمٍ من العجائبِ والخوارقِ دون أن يَدْرَوا

أنّهم وَقعوا تَحْتَ سيطرةِ المُؤلِّفِ وأسلوبِه الساحرِ. في الرِّحلةِ الأولى يُولِّدُ «سويفت» لديهم الرَّغبةَ في معرفةِ ما يَحدثُ لجلفر بَعْدَ أن يَنجوَ دون رفاقِه من الغَرَقِ، وفجأةً يُدخِلُ القُرّاءَ مع جِلفر في بَلَدٍ لا يَتعدَّى طولُ الواحدِ من سُكّانِه نِصْفَ قَدَمٍ وتَتضاءَلُ أحجامُ المخلوقاتِ فيه من نباتٍ وحيوانٍ وطيرٍ، وكذٰلكَ أحجامُ الموجوداتِ فيه من بيوتٍ وعرباتٍ وبراميلَ وطعامٍ، بحيث تَتناسَبُ مع ضآلةِ حجومِ السكّانِ. وإذا جلفر، والقُرّاءُ معه، في عالَمٍ عجيبٍ غريبٍ وكأنَّه مَسْرَحٌ للدُّمى واللُّعبِ والفُكاهةِ. وبالتَّدريجِ تَتحوَّلُ الدُّمى البشريّةُ ذاتُ المَظْهَرِ الجميلِ المُمتِعِ إلى مخلوقاتٍ لئيمَةٍ خَطِرَةٍ، وإذا حياةُ جلفر بينهم تَبدأُ وكأنّها لعبةٌ مُسلِّيةٌ وآمنَةٌ ثُمَّ تَتحوَّلُ بالتَّدريجِ إلى مُؤامَرةٍ لئيمةٍ خسيسةٍ تَستهدِفُ فَقْءَ عَيْنَيْ جلفر ثمَّ تجويعَه حتى الموتِ.

في الرِّحلةِ الثانيةِ يُكرِّرُ «سويفت» الأسلوبَ نَفْسَهُ فيَتدرَّجُ بالقُرّاءِ مُبتدِئًا بالعناصرِ الواقعيّةِ المألوفةِ ثمّ يُسَرِّبُ في القصّة عالَمًا من الغرائبِ والعجائبِ، فَإذا بجلفر في بَلَدٍ لا يَقِلُّ طولُ الواحدِ من سُكّانِه عن ٧٢ قَدَمًا، وتَتَضاخمُ حجومُ المخلوقاتِ والأشياءِ فيه لتُناسِبَ الحجومَ الخارقةَ للسُّكّانِ. بَدَلَ مَسْرَحِ الدُّمَى واللُّعبِ في الرِّحلةِ الأولى يَجِدُ جلفر نَفْسَه في الرِّحلةِ الثانيةِ في عالَمٍ من الغيلانِ والوحوشِ ذاتِ الحجومِ الضَّخمَةِ والتي قد تَدوسُه وتَسحقُه دون أن تُحِسَّ بوجودِه لضآلةِ حجمِهِ. لكنَّه سرعانَ ما تَتبدَّدُ مَخاوِفَه على غيرِ ما يَتوقَّعُ، فإذا الغيلانُ رَغْمَ ضخامتِهم أناسٌ طَيِّبونَ يُحيطونَه بالرِّعايةِ والحمايةِ حتى يَنتهِيَ به المقامُ في قصرِ ملكٍ وملكةٍ لا مثيلَ لهما في الطيبةِ والكرمِ وحُسْنِ الرِّعايةِ، كما يَنعمُ بصداقةِ وحُبِّ مُربِّيتِه الطِّفلةِ التي تَحرصُ عَليه أكثرَ ممّا تَحرصُ على حياتِها وتَخدمُه كما تَخدمُ الأُمُّ وليدَها الغاليَ.

ويُتابِعُ سويفت في الرِّحلتينِ الثالثة والرابعةِ أسلوبَه ذاتَه في تسريبِ العناصرِ الغريبةِ والخارقةِ (Fantastic Elements) إلى النَّسيجِ الواقعيِّ للأحداثِ بحيثُ تَلتحِمُ هٰذه بتلك في نسيجٍ قصصيٍّ نادرِ المِثالِ.

في الرِّحلةِ الثالثةِ تَقذفُ الأحداثُ الواقعيّةُ بجلفر إلى الجزيرةِ الطائرةِ (لابوتا) التي يُقيمُ فيها المَلِكُ وحاشيتُه وعائلاتُهم. من هٰذه الجزيرةِ يُشرِفُ المِلكُ على حُكْمِ إمبراطوريّتِهِ الواسعةِ على الأرضِ. لكنّ هٰذا المَلِكَ ورجالَ حاشيَتِه مُصابونَ بنوعٍ غريبٍ من الجنونِ يَتمثَّلُ في شرودِهم الذِّهنيِّ الدائمِ وسرحانِهم في تأمُّلاتٍ علميّةٍ نظريّةٍ، وخاصّةً في علومِ الفلكِ والرِّياضةِ والموسيقى. ولهٰذا يَجِدُهم جلفر في ذُهولٍ عمّا يَدورُ حَولَهم من شؤونِ الحياةِ اليوميّةِ العاديّةِ، لدرَجةِ أنّ أحدَهم قد يَقَعُ في حُفْرَةٍ أو يَصطدِمُ بعامودٍ دُوْنَ أن يراه، ولدرجةِ أنّهم يَنسونَ نساءَهم

ممّا يَدفعُهنَّ إلى مُغازَلةِ الرِّجالِ الغرباءِ من الذين يَزورونَ الجزيرةَ، وقد يَرتكِبْنَ معهم الفَواحِشَ أمامَ أعينِ أزواجِهنّ وَهُمْ عمّا يَحدثُ حَوْلَهم غافِلونَ.

فِي هٰذه الرِّحلةِ يُطلِقُ «سويفت» لخيالِه العنانَ ويُصوِّرُ، بأساليبَ ساخرةٍ بارعةٍ ومن خلالِ مُشاهَداتِ جلفر، الانحرافاتِ المُضحِكةَ في فِكْرِ العلماءِ وسلوكِهم، والجنونَ المُحزِنَ والمُضحِكَ في مَشاريعِ المُخترعينَ والمُجَدِّدينَ في أكاديميّةِ «لاجادو» وفي مدينةِ «لاجادو» نَفْسِهَا. ورَغْمَ مَزاعمِ المُخترِعينَ والمُجدِّدينَ بأنّهم يَسْعَوْنَ لتحسينِ البلادِ وإسعادِ العبادِ فإنّهم لا يُنتِجونَ غَيْرَ الخرابِ والتَّعاسَةِ والفسادِ. كذٰلك يُصوِّرُ «سويفت»، عن طريقِ مُقابَلةِ جلفر في جزيرةِ السَّحرةِ لأرواحِ المَشاهيرِ في الحربِ والحُكْمِ والفِكْرِ والأدبِ من القُدَماءِ والمُحدَثينَ، تَفَوُّقَ القُدَماءِ على المُحدَثينَ في قُوّةِ الجسدِ وهيبةِ الطَّلعةِ وعُمْقِ الحكمةِ وأصالةِ الفِكْرِ وكَرَمِ الأخلاقِ، كما يُوضِحُ أكاذيبَ المُؤرِّخينَ وتزويرَهم لحقائقِ التاريخِ، وفسادَ الأساليبِ التي يَصِلُ بها المُنافِقونَ والفاسقونَ والدَّجّالونَ إلى مَراكزِ القيادةِ، وخِسّةَ الوسائلِ التي يُحافِظونَ بها على تلك المراكزِ.

كذٰلك لا يَنسى «سويفت» حماقةَ الطامعينَ في العمرِ المديدِ الحالِمينَ بالخلودِ فيُرسِلَ جلفر إلى جزيرةِ «لوجْنَاجْ» حيث تُوْجَدُ مجموعةٌ من البشرِ الذين حُرِموا نعمةَ الموتِ. ولدى مُقابَلةِ جلفر لبعضِ أفرادِ هٰذه المجموعةِ والتَّعرُّفِ على أحوالِهم البائسةِ وأوضاعِهم التَّعيسةِ يُقرِّرُ أنَّ الموتَ خيرٌ ألفَ مَرَّةٍ من الحياةِ في هٰكذا أحوالٍ وأوضاعٍ.

في الرِّحلةِ الرابعةِ تَبلغُ عناصرُ «الفانتازي» ذُرْوَتَها حَجْمًا وَمَعنًى أذ يُرسِلُ «سويفت» بَطَلَه الرَّحّالةَ جلفر إلى بلدٍ يَبدو لأوّلِ وهلةٍ كأنّه عالَمٌ مسحورٌ تُعكَسُ فيه طبائعُ المخلوقاتِ كما تُقلَبُ العَلاقاتُ بين أجناسِ المخلوقاتِ. يَجِدُ جلفر نَفْسَه وجهًا لوَجْهٍ أمامَ جنسينِ من المخلوقاتِ هما «بَنُو الهوينْهمْ» و«بنُو الياهو». الجنسُ الأوّلُ هو خَيْلٌ ناطقةٌ عَاقلةٌ فاضلةٌ تَنمُّ لُغَتُها عن عَقْلٍ سليمٍ وفِكْرٍ عمليٍّ بنّاءٍ وأخلاقٍ سلوكيّةٍ فرديّةٍ واجتماعيّةٍ فاضلةٍ. وبفَضْلِ هٰذه الصِّفاتِ حازتْ هٰذه الخيلُ على السِّيادةِ في البلدِ والهيمنةِ على الأجناسِ الأخرى من المخلوقاتِ، وعلى الأخصِّ على جنس «بني الياهو». أمّا الجنسُ الثاني، «بَنُو الياهو»، فهُمْ مخلوقاتٌ بكماءُ، قذرةٌ، شرسةٌ، جشعةٌ، أنانيّةٌ وغدّارةٌ. ويَظنّ جلفر أوّلَ الأمرِ أنّهم سُلالةٌ ملعونةٌ من الحيواناتِ ويقولُ: «لم أشاهِدْ قطُّ في جميعِ رحلاتي حيوانًا مُنفِّرًا إلى هٰذا الحَدِّ، أو حيوانًا شَعرتُ تجاهَه، وبالغريزةِ، بهٰذا القَدْرِ من الكراهيةِ والاشمئزازِ». (الرِّحلة الرابعة: الفصل الأوّل، فقرة ٤).

في أوّلِ الأمرِ يَتهيَّأُ لِجَلِفر أنّ الخيلَ ليستْ سوى بشرٍ مِمَّنْ يَتعاطَوْنَ السِّحرَ فيَتَّخذونَ ما

يَشاءونَ من أشكالِ الحيواناتِ، وكذٰلك يَتهيّأُ له أنّ «بني الياهو» حيواناتٌ كريهةٌ مُقزِّزةٌ. لٰكنّه لا يَلبثُ أن يُدرِكَ أنّ الخيلَ هي خيلٌ حقيقيّةٌ وأنّ «بني الياهو» هم بَشَرٌ مِثْلُه لٰكنّهم في حالةِ انحطاطٍ وعُرْيٍ فطريّينِ. ويَعزُّ على جلفر أن يَتقبَّلَ هٰذه الحقائقَ التي لا مَفرَّ منها، ويُحاوِلُ جاهِدًا أن يُخفيَ طبيعتَه «الياهويّة» البشعةَ وأن يُقلِّدَ الخيلَ في اللُّغةِ وأن يَتحلّى بالفضائلِ التي يَعتقدُ أنّ أمثالَه من «بني الياهو» عاجزونَ عن اكتسابِها.

لٰكنّ الخيلَ تُقرِّرُ أنّ جلفر ليس إلاّ واحدًا من «بني الياهو» وفيه ما فيهم من مَيْلٍ فطريٍّ إلى الشَّرِّ، وأنّه، وإن بدا وديعًا ومُسالِمًا لا بُدَّ أن يَعودَ يومًا لطَبْعِه الفطريِّ الشِّرّيرِ، ولذٰلك تأمرُه بمُغادَرةِ البلادِ فلا يَسَعُه إلاّ أن يَنصاعَ لهٰذا الأمرِ.

الأساليبُ القصصيّةُ الفنّيّةُ في رِحلاتِ جلفر:

كِتابُ رحلات جلفر قصّةٌ خَياليّةٌ وليس تقريرًا عن رِحلات حقيقيّةٍ. والفنُّ القصصيُّ صنعةٌ لها، كما للصِّناعاتِ الأخرى، قواعِدُها وأصولُها وأسرارُها التي قد تَخفى على القُرّاءِ العاديّينَ، أمّا عيونُ مُؤرِّخي الأدبِ والنُّقّادِ والمُفسِّرينَ والدارسينَ المُتخصِّصينَ فقد تَعرَّفت على بعضِ تلك القواعدِ والأسرارِ، ولٰكنّ بعضَها الآخَرَ لا يَزالُ قيدَ التَّخمينِ والجدلِ.

لقد استعملَ «سويفت» الكثيرَ من التِّقنيّاتِ والأساليبِ الفنّيّةِ التّقليديّةِ في بناءِ وصياغةِ قصصِ الرِّحلاتِ. من هٰذه التِّقنيّاتِ اختراعُ رَحّالةٍ وهميٍّ، وإرسالُه في رحلةٍ، وإيصالُه بطريقةٍ غيرِ مُتوقَّعةٍ إلى بلدٍ غريبٍ، وإبقاؤُه في ذٰلك البلدِ الغريبِ فترةً تكفي لتَعلُّمِ لغةِ أهلِ ذٰلك البلدِ والتَّعرُّفِ على ثقافتِهم وحضارتِهم، ثمّ إعادَتِه سالمًا إلى وطنِه حيث يَروي أخبارَ مُشاهَداتِه ومُغامَراتِه.

كذٰلك يُقلِّدُ «سويفت» أساليبَ الأدباءِ الساخرينَ (Parodists) في إيهامِ القُرّاءِ بأنّ الأشياءَ الغريبةَ والخارقةَ التي يَذكرونَها هي أشياءُ حقيقيّةٌ. وكما فعَلَ «لوسيان» في كتابِه تاريخ صادق و«توماس مور» في كتابِه يوطوبيا، يَزعمُ جلفر، ويُكرِّرُ زَعْمَه أنّه حَرَصَ على الصِّدقِ والموضوعيّةِ في كُلِّ ما أَوْرَدَه في كتابِه. ويَدعمُ جلفر زَعْمَه هٰذا بذِكْرِ أرقامٍ وقياساتٍ وتواريخَ وأسماءِ سُفُنٍ وأشخاصٍ وأماكنَ وبلدانٍ حقيقيّةٍ فعلاً. وكما سَبَقَ أن أَسْلَفنا، فإنّ سويفت يَجعَلُ جلفر يَبدأُ وَصْفَه لكُلِّ رحلةٍ بذِكْرِ التَّواريخِ وأسماءِ السُّفنِ والقباطنةِ والأماكنِ الفعليّةِ والحقيقيّةِ ثمّ يُسرِّبُ الخوارقَ والعجائبَ بَعْدَ أنْ يكونَ قَد خَدَّرَ شكوكَ القُرّاءِ وجَعَلَ حُبَّهم للاستطلاعِ ومعرفةِ ما

سيَحدثُ يَتغلّبُ على مَيْلِهم للإنكارِ وعدمِ التَّصديقِ.

وخدمةً لأغراضِه في السُّخريةِ من الأوضاعِ والأحداثِ والتَّوجُّهاتِ الفكريّةِ الهدّامةِ والسُّلوكيّاتِ المُنحرِفةِ الشاذّةِ في عَصْرِهِ يَعمدُ «سويفت» إلى استخدامِ أساليبَ مُتنوِّعةٍ نَذكُرُ بعضًا منها فيمَا يلي:

تصويرُ ما يَحدثُ في إنجلترا بطريقةٍ رمزيّةٍ (Allegorically). إنّ الكثيرَ من الأحداثِ والأوضاعِ في «ليليبوت» (في الرِّحلة الأولى) تَعكسُ أحداثًا وأوضاعًا مُماثِلَةً في إنجلترا أيّامَ «سويفت»: التَّعارضُ الطّائفيُّ في «ليليبوت» بين أتباعِ مَذْهبِ طرفِ البيضةِ الكبيرِ (Big Eudians) وأتباع مَذْهَبِ طرف البيضةِ الصَّغيرِ (Small Eudians) هو رمزٌ للتَّعارُضِ في إنجلترا بين أتباعِ الكنيسةِ الرَّسميّةِ (الأنجليكانيّةِ) وأتباعِ مَذاهبِ الخوارجِ (Dissenters). كذلك فإنّ حِزْبَ ذوي الكعوبِ الطّويلةِ وحِزْبَ ذوي الكعوبِ القصيرةِ في «ليليبوت» يَرمزانِ لِحِزْبَيِ المُحافِظينَ والأحرارِ في إنجلترا؛ والحربُ بين «ليليبوت» و«بْليفُسْكو» تَرمزُ إلى الحربِ بين إنجلترا وفرنسا. كذلك فإنّ نشاطاتِ العلماءِ في أكاديميّةِ «لاجادو» في الرِّحلةِ الثالثةِ تَرمزُ إلى نشاطاتِ الجمعيّةِ الملكيّةِ في إنجلترا.

الذَّمُّ عن طريقِ المدحِ هو أسلوبٌ آخَرُ، ويَتمثّلُ هٰذا الأسلوبُ في إجاباتِ جلڤر، في الرِّحلةِ الثانيةِ، على أسئلةِ مَلِك «بروبدنجناج» عن الأحوالِ والأوضاعِ في إنجلترا. هنا يُحاولُ جلڤر، كما يَقولُ، أن يَضَعَ فضائِلَ بلادِه ومَكارِمَها تحت أفضلِ الأضواءِ، وأن يُخفِيَ عيوبَها ويَتستَّرَ على نقائصها (الفصل ٥، فقرة ١). لكِنّ المَلِكَ يَستنتجُ من أقوالِ جلڤر أنّ البَشَرَ في إنجلترا «هم أخبثُ سلالةٍ من الحشراتِ المُؤذيةِ البغيضةِ التي سَمَحَت لها الطَّبيعةُ بالزَّحفِ على وَجْهِ الأرض» (الرِّحلة الثانيةُ، الفصل ٦، الفقرة الأخيرة).

أسلوبٌ ثالِثٌ هو جَعْلُ الأقوالِ تَتناقَضُ مع الأفعالِ. مَلِكُ «ليليبوت» مثلاً يُبالِغُ في ادِّعاءِ الرَّحمةِ والتَّظاهُرِ بالرَّأفةِ كُلّما أَصْدَرَ حُكْمًا بالِغًا في القسوةِ، كما فَعَلَ حينَ أَصْدَرَ حُكْمَه العَلَنيَّ بفَقْءِ عيني جلڤر وَوافَقَ سرًّا على تجويعِه حتى الموتَ. (الرِّحلة ١، فصل ٧، فقرة ٢ قَبْلَ الأخيرة) كذلك فإنّ جلڤر يَزعمُ أنّه حريصٌ على الصِّدقِ لكنّه يَكذبُ في أكْثَرَ من مُناسَبةٍ. فقد مارَسَ الكذبَ في إجاباتِه على أسئلة مِلكَ «بروبدنجناج» كما مارَسه حين أخفى حقيقةَ مَلابسِه عن الخيلِ ليُوهِمَهم أنّه مُختلفٌ عن «بني الياهو».

أسلوبٌ رابعٌ هو جَعْلُ الأقوالِ تَتناقَضُ مع المعنى المقصود. مثالُ ذٰلك قولُ جلڤر لدى

زيارتِه لمدرسةِ المُخترِعينَ السِّياسيّينَ في أكاديميّة «لاجادو» في الرِّحلةِ الثالثةِ:

في مدرسةِ المُخترِعينَ السِّياسيّينَ لم أَجِدْ ما يَسُرُّني. فقد خُيِّلَ لي أنّ الأساتذةَ قد فَقَدوا عقولَهم... كان هٰؤلاء المتاعيسُ يَقترحونَ خططًا لإقناعِ الملوكِ باختيارِ المُقرَّبينَ إليهم على أساسِ ما يَتحلَّونَ به من حكمَةٍ ومَقدرةٍ وفضيلَةٍ، وتعليم الوزراءِ الإهتمامَ بالمصلحةِ العامّـةِ، ومُكافَأةِ ذوي الجدارةِ والمَقدرةِ والخدماتِ الجليلةِ، وتربيةِ الأمـراءِ على إدراكِ أنّ مَصلحتَهم الحقيقيّةَ هي مَصلحةُ شعوبِهم... وما إلى ذٰلك من التَّخريفاتِ المجنونـةِ المستحيلةِ التي لم تَخطرْ قَطُّ على بالِ إنسانٍ. (الرِّحلة الثالثة، فصل ٦، فقرة ١).

الأسلوبُ الخامسُ يَتمثَّلُ في تغييرِ زاويةِ النَّظرِ إلى الأشياءِ والأحداثِ. مثالُ ذٰلـك رؤيةُ الأشيـاءِ من فوقُ كمـا يَفعلُ جلڤـر في «ليليبوت» أو رؤيتُهـا من تحتُ كمـا يَفعـلُ جلڤـر في «بروبدنجناج»، أو رؤيتُها من زاويةِ الرِّضا كما يَفعلُ جلڤر في الرِّحلةِ الرابعةِ تجاهَ الخيلِ أو من زاويةِ السُّخطِ كما يَفعلُ في الرِّحلةِ نَفْسِها تجاهَ «بني الياهو» وكما يَفعلُ في الرِّحلةِ الثانيةِ تجاهَ المَلِكِ حِيْنَ يَرفضُ المَلِكُ هديّتَه المُتمثِّلةَ في مسحوقِ البارودِ.

ويَرتبطُ بالأسلوبِ السابقِ أسلوبٌ آخَرُ يَتمثَّلُ في تصغيرِ الأشياءِ كما يَحـدثُ في الرِّحلةِ الأُولى أو تضخيمِها كما يَحدثُ في الرِّحلةِ الثانيةِ أو تحريفِها كَمَا يَحدثُ في أكثرَ من مُناسَبةٍ.

الأسلوبُ السابعُ يَتمثَّـلُ في المُبالَغـةِ، ولا سيّما في اتِّبـاعِ المَنْهَجِ الـواقعيِّ في السَّرْدِ القصصيِّ. من الأشياءِ الواقعيّةِ والفعليّةِ في حياةِ البشرِ عناصرُ يَتجاهلُها الأدباءُ بشكلٍ عامٍّ حرصًا على الالتزامِ بِقيَمِ الحشمَةِ والحياءِ. لٰكنّ سويفت لا يَترفَّعُ عن ذِكْرِ عناصرَ كهٰذه مِثْلُ البَوْلِ والبِرازِ والأعضاءِ التَّناسُليّةِ والبِرازيّةِ والمُداعَباتِ الجنسيّـةِ، بَل هـو يُكثِرُ من ذِكْـرِها وتَسخيـرِهَا لأغراضِه الفنّيّةِ تارةً (مِثْلُ قصّةِ إطفاءِ الحريقِ في قصرِ إمبراطورةِ ليليبوت) والتَّهكُّميّةِ تارةً أخرى.

ونَذكرُ أخيرًا، وليس آخِرًا، أسلوبَ «سويفت» في جَعْلِ النَّتائِجِ مُتَناقِضةً مع التَّوقُّعاتِ، ومُفاجأةِ القُرّاءِ بهٰذه النَّتائجِ. من ذٰلك مَثلاً أنّ القُرّاءَ يَتوقَّعونَ أن يَكونَ جلڤر آمِنًا ومرهوبًا لدى أَهْلِ «ليليبوت» نظرًا لضخامتِه وضآلتِهم، لٰكنّهم يُفاجَأونَ بـالخطرِ العـظيمِ المُحدِقِ بـه نتيجةً لغفلتِه وسَذاجتِه من جانبٍ، ولؤمِهم ودهائهم من جانبٍ آخَرَ. ويَتوقَّعُ القُرّاءُ أن تُداهِمَ الأخطارُ المُتعدِّدةُ جلڤر في «بروبدنجناج» وتَقضيَ عليه، ولٰكنّ جلڤر يَحظى بالسَّلامة دائمًا رَغْمَ تَعرُّضِه للعديدِ من الأخطارِ المُهلكةِ. وفي الرِّحلةِ الثالثة يَتوقَّعُ القُرّاءُ كما يَتوقَّعُ جلڤر أن يَكونَ الخالِدونَ

ذوي هيبةٍ وثراءٍ وسلطانٍ وحكمةٍ ونفوذٍ، ثُمَّ يُفاجَأونَ بأنّ الخالدينَ هم أتعسُ البَشَرِ وأفقرُهم وأحقرُهم.

الموضوعاتُ الرَّئيسيّةُ في رِحلاتِ جلفر:

يُعالِجُ كِتابُ **رِحلات جلفر** موضوعاتٍ عديدةً ليس من المُمكِنِ، في مُقَدِّمةٍ كهٰذه، أن نُحيطَ بها عَدًّا وشَرْحًا، وسنَكتفي بالإشارةِ إلى أهمِّها وشَرْحِها بإيجازٍ.

الموضوعُ الرَّئيسيُّ الذي يَنتظِمُ الرِّحلاتِ الأربعَ هو مُحاوَلةُ الإجابةِ على السُّؤال: ما هو الإنسانُ؟ الأديانُ والفلسفاتُ تُقدِّمُ إجاباتٍ مُتعدِّدةً؛ منها أنّ الإنسانَ «حيوانٌ ناطِقٌ»، أو «حيوانٌ اجتماعيٌّ» أو «حيوانٌ عاقِلٌ». وليس هٰذا مَجالَ مَناقَشةِ هٰذه القضيّةِ فلسفيًّا، ويَكفي القولُ إنّ هٰذه التَّعريفاتِ تُحاوِلُ أن تَجِدَ الصِّفةَ أو الصِّفاتِ التي يَنفردُ بها الإنسانُ دُوْنَ سائِرِ الحيواناتِ ويَتميَّزُ بها منها. في كتابِه **رِحلات جلفر** لا يَلتفِتُ «سويفت» إلى صِفةِ «ناطِق» أو «اجتماعيّ»، لٰكنّه يُنكِرُ صِحّةَ ذٰلك التَّعريفِ الذي يَقولُ إنّ الإنسانَ **حيوانٌ عاقِلٌ** ويُؤكِّدُ أنّ الصِّفةَ التي يَتميَّزُ بها الإنسانُ هي أنّه **قادِرٌ على التَّفكيرِ**، لٰكنّ هٰذا لا يَعني بالضَّرورةِ أنّه «عاقِلٌ». يَقولُ سويفت في رسالةٍ بَعَثَ بها إلى صديقِه «أَلِكْسَنْدَرْ بوب» في ٢٩ سبتمبر ١٧٢٥: «لديّ مادّةٌ تَكفي لمَقالةٍ تُبرهِنُ زيفَ ذٰلك التَّعريفِ القائلِ بأنّ الإنسان **حيوانٌ عاقِلٌ** (**Animal Rationale**) وتُبيِّنُ أنّه فقط **قادِرٌ على التَّفكيرِ** (**Rationis capax**). وفي الفصل السابعِ من الرِّحلةِ الرابعةِ يَقولُ السَّيِّدُ الحصانُ (سيِّد جلفر ومولاه في بلادِ الخيل)، بَعْدَ أن استمعَ لأقوالِ جلفر عن إنجلترا وعن الجنسِ البشريِّ، إنّه يَعتبرُ البَشَرَ نوعًا من الحيواناتِ التي حَظِيَتْ بمقدارٍ ضئيلٍ من **العقلِ** أو **القُدْرَةِ على التَّفكيرِ**، لٰكنَّهم لا يَستخدمونَ هٰذا العقلَ إلاّ لتضخيمِ وزيادةِ شرورِهم الفَطريّةِ.

السُّؤالُ الثاني الذي يُعالِجُه كِتابُ **رِحلات جلفر** يَتعلَّقُ بطبيعةِ الإنسانِ الفطريّةِ: هل الإنسانُ بفطرتِه شرّيرٌ أو خَيِّرٌ؟ مُعظَمُ المعلوماتِ التي يَكتسبُها جلفر من خبراتِه ومُشاهَداتِه تُؤيِّدُ القولَ بالفطرةِ الشِّريرةِ وتَنفي القولَ بالفطرةِ الخيِّرةِ إلاّ في حالاتٍ نادرةٍ مِثْلِ حالةِ القبطانِ الإسبانيّ «دون بيدرو» في الفصل الحاديَ عَشَرَ من الرِّحلةِ الرابعةِ، ومِثْلِ مَلِكِ بروبدنجناج في الرِّحلةِ الثانيةِ. إنّ القولَ بالفطرةِ الشِّرّيرةِ في البشرِ لا يَختلِفُ عن مَقولةِ الدينِ المسيحيِّ الذي كان «سويفت» من رجالاتِه المُخلِصينَ والداعينَ إليه بجدِّيّةٍ. وفَحوى هذه المَقولةِ أنّ أبناءَ آدمَ وَرِثوا عن أبيهم آدمَ ميلاً فطريًّا إلى الوقوعِ في الخطأِ، وارتكابَ المَعاصي والآثام.

الموضوعُ الرَّئيسيُّ الثالثُ الذي يُعالِجُه كِتابُ **رِحلات جلڤر** هـو مَفهومُ التَّقـدُّم والارتقاءِ والاكتمالِ الذي كان قد بَدَأ يَنتشِرُ في عصرِ سويفت. «سويفت» يُنكِرُ هٰذا المَفهومَ ويُؤيِّدُ مَقولاتِ التَّطوُّرِ الانحطاطيِّ والانحداريِّ التي كانت شائعةً في الآدابِ الكلاسيكيّةِ (مثل مقولةِ التَّطوُّر نحو الأسوإِ من عصرٍ ذهبيٍّ إلى عصرٍ فضِّيٍّ ثُمّ برونزيٍّ ثُمّ حديديٍّ) أو التي تَنطوي عليها العقيدةُ الألفيّةُ (The Idea of the Millennium) وفحواها أنّ البشريّةَ تَتطوَّرُ نَحْوَ الأسوإِ ونَحْوَ انتشارِ مزيدٍ من الظُّلْمِ والجَوْرِ والنِّفاقِ والفسادِ حتى يَعودَ المُنقِذُ يَسوعُ المسيحُ ويَتمُّ الخلاصُ من الفسادِ على يديه. لٰكن يَنبغي أن نُوْضِحَ هُنا أنّ «سويفت» لا يُقحِمُ الدينَ في كِتابِ **رِحلاتِ جلڤر** كما يَفعلُ «دانيال ديفو» في كِتابِ **روبنصون كروزو**، بل يَكتفي، في مُعالجَتِهِ لمُختلِفِ المواضيعِ، بالمَنْهَجِ العقلانيِّ والدُّنيـويِّ الذي يَتبعُـه جلڤر في تقـويم الأمورِ، والـذي يَقومُ على أسـاسِ المُلاحَظةِ والمُشاهَدةِ والتَّجريبِ والمُثاقَفةِ مع الغيرِ، إن صَحّ التَّعبيرُ.

إنّ رَفْضَ سويفت لمَفهومِ التَّقدُّم والارتقاءِ والاكتمالِ وتأييدَه للمفهومِ المُعـاكِسِ، وهو مَفهومُ التَّأخُّر والانحدارِ والنَّقصِ، يَرتبطانِ بِمَوْقِفِه من قضيّةِ القُديمِ والحديثِ وبإيمانِهِ أنّ الإنسانَ ذو طبيعةٍ فطريّةٍ شِرّيرَةٍ. الأجناسُ البشريّةُ التي يُقابلُها جلڤر في رِحلاتِه الأربع، وسلوكيّاتُها المُتنوِّعةُ، تُؤيِّدُ مَواقِفَ «سويفت» بطريقةٍ رَمزيّةٍ. نَجِدُ أَهْلَ «بروبدنجناج» أَضْخَمَ الأجناسِ جسدًا وأَطْيَبَهم سريرةً وأعْقَلَهم في اختيارِ ما يَنفعُ وتَجنُّبِ ما يُضِرُّ. فإذا ما انتقلنا إلى جزيرةِ «لابوتا» نَجِدُ أجناسًا بشريّةً عاديّةً (مِثْلَنا ومِثْلَ جلڤر) أَصْغَرَ حجمًا وأَقلَّ طيبةً وحكمةً. أمّا في «ليليبوت» فَنجِدُ جنسًا بشريًّا غايةً في ضآلةِ الجسدِ وغايةً في خُبْثِ السَّرائِرِ والأنانيّةِ والدَّهـاءِ العقليِّ اللَّئيم. أمّا في بـلادِ الخيلِ فَنجِدُ جنسًا بشريًّا من «بني الياهو» لم يَعرفوا دينًا ولَم يَستغلّوا قُدْرَتَهم على التَّفكيرِ إلاّ لخدمةِ غرائزِهم القذرةِ وأهوائِهم العنيفةِ الفاسدةِ فانحدروا إلى أقصى ما يُمكِنُ أن يَنحدِرَ إليه البَشَرُ من بهيميّةٍ وقذارةٍ وفسادٍ.

إلى جانبِ هٰذا التَّصويرِ الرَّمزيِّ لتطوُّرِ الإنسانِ نحو الأسوإِ نَجِدُ في **رِحلات جلڤر** أوصافًا وأحكامًا مُباشِرةً تُبيِّنُ بوضوحٍ أفضليّةَ القديمِ على الحديثِ وتُؤيِّدُ دونَما مُوارَبـةٍ مَقولـةَ التَّطوُّرِ الانحطاطيِّ والانحداريِّ. من هٰذه الأوصافِ والأحكامِ ما يلي:

في الفصلِ السادسِ من الرِّحلة الأولى نَجِدُ وصفًا مُفصَّلاً لعلومِ أهلِ «ليليبوت» وقَوانينِهم وعاداتِهم وأساليبِهم في تعليمِ الأجيالِ الناشئةِ وتربيتِهـا، يُوحي لنـا هَذا الـوصفُ أنّ مُجتمعَ «ليليبوتَ» لا بُدَّ أن يكون مُجتمَعًا فاضلاً وسعيدًا ويوطوبيًّا. وقَبْلَ أن نُكوِّنَ هٰذا الحُكْمَ يُفاجِئنا

«سويفت»، كعادتِه، بقولِ جلفر إنّ هٰذا الوَصْفَ كان صحيحًا في الماضي فقط قَبْلَ أن يَأتيَ جَدُّ الأمبراطورِ الحاليّ ويَسمحَ للفسادِ بالتّسرُّبِ، ممّا أدّى إلى انقساماتٍ مَذْهَبِيّةٍ وحزبيّةٍ، وإلى ظهورِ الصّراعاتِ الداميةِ، وانتشارِ النّفاقِ والتّآمُرِ والمُمارَساتِ المُنحرِفةِ.

وفي الفصلِ الرابعِ من الرِّحلةِ الثالثةِ يَزورُ جلفر مدينةَ «لاجادو» ويَنزِلُ ضيفًا على اللُّوردِ «مونودي» ويُشاهِدُ بنَفْسِهِ مَظاهِرَ الخرابِ والدّمارِ والتّعاسةِ والشّقاءِ التي أنجبَتْها جهودُ المُجدِّدينَ والمُصلِحينَ، كما يُشاهِدَ، في القصرِ الريفيّ الذي يَملكُه لورد «مونودي»، مَظاهِرَ الجمالِ والبهاءِ التي أبْدَعَها أجدادُ اللُّوردِ القدماءُ والتي أصْبَحَتْ مُهدَّدةً بالزّوالِ حِيْنَ تَصِلُ إليها أيدي دُعاةِ التّغييرِ والتّجديدِ.

وفي الفصلينِ السابعِ والثامنِ من الرِّحلةِ الثالثةِ يُتاحُ للرَّحالةِ جلفر أن يَزورَ جزيرةَ السَّحَرَةِ وأنْ يُقابِلَ أرواحَ المَشاهيرِ من القُدماءِ والمُحدَثينَ في ميادينِ الحربِ والسِّلْمِ والسِّياسةِ والفِكْرِ والأدبِ وأن يُقارِنَ بَيْنَهم في مَظهرِهم الجسديّ وإنجازاتِهم الفعليّةِ، وأن يَنتهيَ إلى حُكمهِ المعروفِ بأفضليّةِ القدماءِ وتَفوُّقِهم على المُحدَثينَ.

وأخيرًا فإنّ مُعالَجَةَ كِتابِ رِحلات جلفر للعلومِ والعقلِ تَنسجِمُ مع مُعالجَاتِه للمواضيعِ الأخرى التى ذَكرناها أعلاهُ. يَتّهِمُ بعضُ النُّقّادِ «سويفت» بأنّه يُعادي العلومَ والعلمانيّةَ والعقلَ والمَذْهَبَ العقلانيّ. والصّحيحُ، في رأينا، أنّ «سويفت» يُميِّزُ بين العلومِ الضارّةِ (كالعلمِ الذي يُنتِجُ مسحوقَ البارودِ وآلاتِ التّدميرِ الأخرى) والعلومِ النافعةِ (كالعلومِ التي تَزيدُ الإنتاجَ الغذائيّ. أو تُنتِجُ سُنْبُلَتَيْنِ بَدَلَ سُنْبُلَةٍ كما يَقول مَلِكُ «بروبدنجناج») ويُشجِّعُ الثانيةَ ويُعادي الأولى. كذٰلك فإنّه يُعادي العلومَ التّجريبيّةَ التي لا يُمكِنُ التّنبُّؤ سلفًا بنتائِجها والتي تُنفَّذُ على نطاقٍ واسعٍ كما يَحدثُ في «لاجادو» في الرِّحلةِ الثالثةِ، فلا تُنتِجُ غَيْرَ الخرابِ. كذٰلك فإنّنا نَرى أنّ «سويفت» لا يُعادي العقلَ في حدِّ ذاتِه، لٰكنّه يَسخرُ من الإيمانِ بكفايةِ العقلِ البشريّ وقدرتِه على حَلِّ جميعِ المَشاكِلِ التي تُواجهُ البَشَرَ. ذٰلك أنّ العقلَ، في رأي «سويفت»، قاصِرٌ وَحْدَه عن التّعرُّفِ على أسرارِ الكونِ وعلى سُبُلِ السُّلوكِ القويمِ، ولهٰذا فلا بُدَّ لهٰذا العقلِ أن يَستعينَ بالتّعاليمِ السّماويّة ويَسترشدَ بهَدْيِها. أمّا إذا استقلّ العقلُ عن الإيمانِ بحكمةِ الأديانِ، وإذا اعتُبِرَ هٰذا العقلُ المُنفصِلُ عن الدينِ كافيًا وَحْدَه، فإنّ النّتائجَ ستكونُ في مُعظَمِها ذاتَ ضررٍ بالِغٍ ؛ ما دامتِ الفطرةُ البشريّةُ شرّيرةً فإنّها ستَستغِلُّ العقلَ أو القُدْرَةَ على التّفكيرِ لإشباعِ غرائزِها الفطريّةِ

البهيميّةِ وتُسخِّرُها في خدمةِ أهوائِها الأنانيّةِ وأطماعِها الجشعةِ وإراداتِها المُنحرِفةِ الضالّةِ، وتَكونُ النّتائجُ خَرابَ الذِّمَمِ وفسادَ السَّرائرِ وتَعاسَةَ المُجتَمعاتِ.

كِتابُ رِحلات **جلفر** يَرسمُ لنا جلفر بطلاً من أولٰئكَ الـذين يَعتبرونَ العقـلَ وَحْدَه كـافيًا كمُرشِدٍ ودليلٍ في هٰذه الحياةِ. جلفر لم يَذكر اللهَ مَرَّةً واحدةً، لا في السَّرّاءِ ولا في الضَّرّاءِ، ولم يُكلِّفْ نَفْسَه مَشَقَّةَ مُلاحَظةِ المُمارَساتِ الدينيّةِ وأماكنِ العبادةِ وتفاصيلِ العقائدِ الدينيّةِ وأثرِها على سلوكِ الخَلقِ في البلادِ التي زارَها. وقدِ انتبهَ الكثيرونَ من الدارسينَ والنُّقّادِ لغيابِ العنصرِ الدينيِّ في كتابٍ بأهمِّيّةِ رِحلات **جلفر** وخـطورَتِه، ومن مُؤَلِّفٍ هـو أصلاً من رجـالِ الكنيسةِ البارزينَ في عَصْرِه، وبَعْضُهم أعتبرَ هٰذه الظاهرةَ دليـلاً للطَّعنِ في إخلاصِ «سـويفت» لدينِـه وعقيدتِهِ. لٰكنّنا نرى أنّ «سويفت» غَيَّبَ العنصرَ الدينيَّ مُتعمِّدًا لكي يَرسمَ لنا ما يُمكِنُ أن يَحدثَ لإنسانٍ مِثلِ جلفر يَتَّخِذُ العقلَ وَحْدَه إمامًا ومُرشِدًا فيَنتهي به الأمرُ إلى كراهيةٍ مجنونة للبَشَـرِ (Misnathropy).

إلى جانبِ صورةِ جلفر، نَجِدُ في كتابِ رِحلات **جلفر** صورًا عديدةً للشّرورِ الناجمةِ عن الإعتمادِ الكلّيِّ على العقلِ وَحْدَه من قِبَلِ بَشَرٍ مفطورينَ أصلاً على الشَّرِّ. وهٰذه الصُّوَرُ مُنتشِرةٌ في «ليليبوت» و«لابوتا» و«لاجادو» وبلادِ الخيلِ. بل إنّها موجودةٌ أيضًـا، ولٰكِنْ بشكلٍ كـامنٍ وقابلٍ للإنفجارِ، في مَملكةِ «بروبدنجناج» التي يَعتبرُها بعضُ النُّقّادِ بَلَدًا يوطوبيًّا ومُجتمَعًا مثاليًّا. وإلاّ فكيف نُفسِّرُ وجودَ ميليشياتٍ عسكريّةٍ في بلدٍ لَيْسَ له أعداءٌ من خارجِه؟

كذٰلك فإنّ صُوَرَ الشُّرورِ ـ الناجمةِ عن الاكتفاءِ بالعقلِ وَحْدَه دليلًا ومُرشِدًا - مُنتشرةٌ في كِتابِ رِحلات **جلفر** في مُعظَمِ ميَادينِ الحياةِ، وعلى الأخصِّ في ميـادينِ الحُكْمِ والسِّياسـةِ والاقتصادِ والقَضاءِ والطِّبِّ وكتابةِ التاريخِ.

* * *

وبَعْدُ، ليست هٰذه المُقدِّمةُ سوى غَيْضٍ من فيضٍ، لأنّ ميدانَ الكتابةِ عن كتابِ **رِحلات جلفر** أوسعُ من أن تُحيطَ به مُقدِّمةٌ، مهما كَبُرَ حَجْمُها. لٰكِنْ نَرجو أن نكونَ قد أَوْضَحنا أنّ هٰذا الكتابَ ليس مُجرَّدَ قِصّةِ أطفالٍ تُسلِّيهم وتُنشِّطُ خيالاتِهم وتُوسِّعُ مَداركَهم، بل هو أيضًا كِتابٌ للكبارِ يُمَتِّعُهم بما فيه من خيالٍ واسعٍ وفُكاهةٍ رائعةٍ وسُخريةٍ لاذعةٍ. وهو فوق ذٰلك كتابٌ جادٌّ

عميقُ الفكرِ بعيدُ الغورِ، في ثناياه كنوزٌ أدبيّةٌ وفكريّةٌ وفلسفيّةٌ مُغـرِيَةٌ بـالنِّسبةِ لمن يَستمتعـونَ بالبحثِ عن كنوزٍ من هٰذا النَّوعِ ولمن يَعرفونَ سُبُلَ الكشفِ عنها.

والله وليُّ التَّوفيقِ.

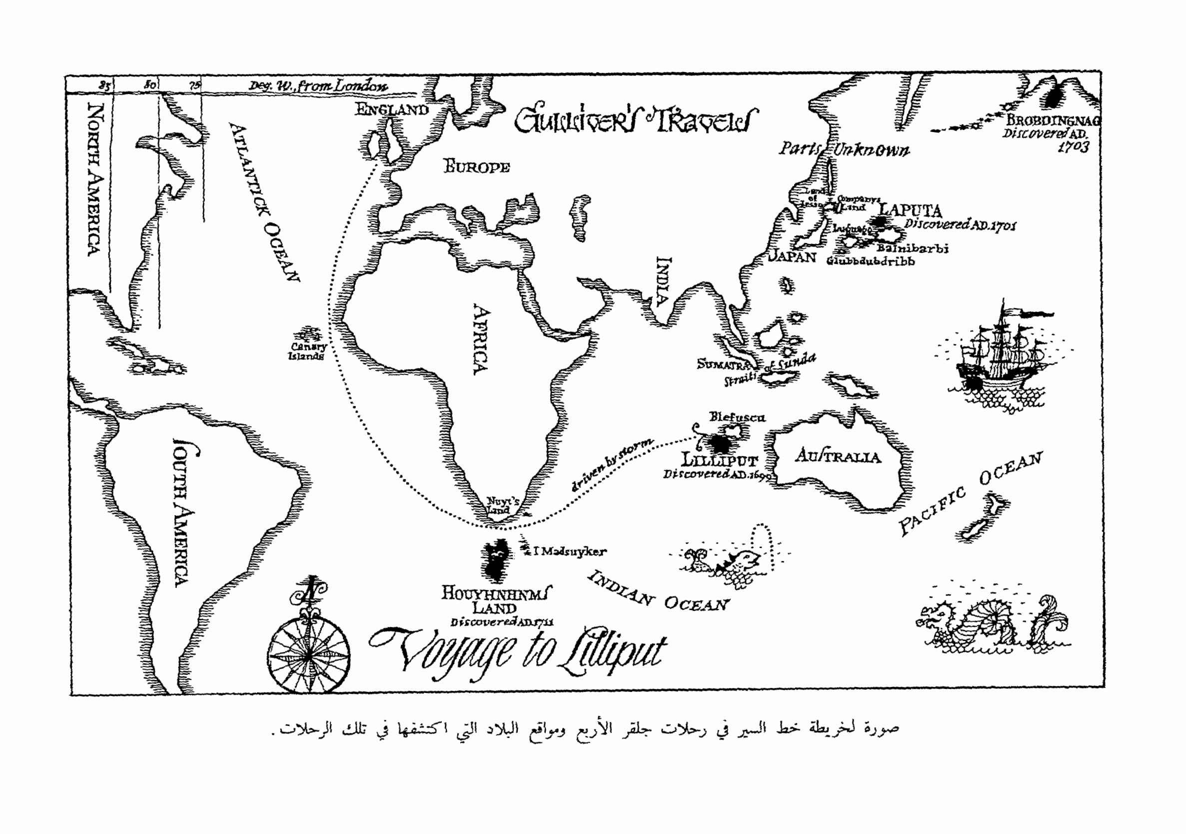
Selected Bibliography مراجع مختارة

* Dennis, Nigel. *Jonathan Swift: A short Character:* London: Weidenfeld and Nicolson, 1965.
* Downie, J.A. *Jonathan Swift Political Writer.* London: Routledge & Kegan Paul, 1984.
* Ehrenpreis, Irvin. *Swift, The Man, His Works, And the Age.* 3 vols. London: Methuen (1962 - 1983).
  Volume I. *Mr. Swift and His Contemporaries,* 1962.
  Volume II. *Dr. Swift.* 1967.
  Volume III. *Dean Swift.* 1983.
* Gravil, Richard (ed.) *Swift's Gulliver's Travels: A Casebook.* Boston: Twayne Publishers, 1974.
* Hinnant, Charles H. *Purity and Defilement in Gulliver's Travels.* New York: St. Martin's Press, 1987.
* Jeffares, A. Norman. *Swift: Modern Judgements.* Macmillan, 1968.
* Murry, John Middleton. *Jonathan Swift: A Critical Biography.* London: Jonathan Cape, 1954.
* Murry, J. Middleton. *Swift.* Longman, 1966.
* Quintana, Ricardo. *The Mind and Art of Jonathan Swift.* London: Methuen, 1953 (Repd. from 1936).
* Rembert, James A.W. *Swift and the Dialectical Tradition.* London: Macmillan Press, 1988.
* Said, Edward. "Swift's Tory Anarchy» and «Swift as Intellectual» in *The World, the Text, and the critic* (Harvard University Press, 1983), pp. 54-89.
* Speck, W.A. *Swift.* London: Evan's Brothers, 1969.
* Swift, Jonathan. *Gulliver's Travels.* Edited with Introduction and Notes by Paul Turner. University Press, 1980. (Repd. from 1971).
* Swift, Jonathan. *Gulliver's Travels.* Edited by Peter Dixon and John Chalker with an Introduction by Michael Foot. Penguin Books, 1982. (Repd from 1967).
* Swift, Jonathan. *Gulliver's Travels.* With an Introduction, a Guide, Notes and a Glossary. Beirut, York Press, Librairie du Liban, 1988.
* Ward, David. *Jonathan Swift: An Introductory Essay.* London: Methuen, 1973.
* Williams, Kathleen. *Jonathan Swift and the Age of Compromise.* London: Constable and Co., 1959.
* Wood, Nigel. *Swift.* Atlantic Highlands, NJ. Humanities Press International, 1986.

رحلات جَلِفَرْ

الجزء الأول

«رحلة إلى ليليبوت»



صورة لخريطة خط السير في رحلات جلفر الأربع ومواقع البلاد التي اكتشفها في تلك الرحلات.

إعلان[1]

إن رسالة السيد **سيمبسون** إلى القبطان **جلفر**[2] التي تتصدر هذاالكتاب، تنفي الحاجة إلى إعلان طويل. تلك الإضافات[3] التي استنكرها القبطان، أدخلها شخص متوفّى الآن، وكان الناشر يعتمد على رأي ذلك الشخص وحكمه في إحداث أية تغييرات يراها ضرورية. لكن ذلك الشخص لم يفهم خطة المؤلف فهمًا صحيحًا، كما لم يستطع أن يقلد أسلوبه الواضح البسيط، وظن أنه من المناسب، بالإضافة إلى ما أحدثه من تغييرات، وما أدخله من حشو وإضافات، أن يحيي ذكرى المرحومة صاحبة الجلالة بقوله إنها حكمت البلارد دون الاستعانة برئيسٍ للوزراء[4]. نحن متأكدون أن النسخة التي أُرْسِلَتْ للناشر في لندن كانت نسخة طبق الأصل عن المخطوط الأصلي الذي كان في حوزة سيدٍ موثوقٍ جدًا[5] في **لندن**، وكان صديقًا حميمًا للمؤلف. وبعد أن اطَّلَعَ هذا السيد على الطبعة الأولى من الكتاب، وقارنها بالأصل، قام بتلك التصحيحات التي سيجدها القارئ في طبعتنا هذه. لأن هذا السيد الموثوق نفسه تكرّم، وسمح لنا بنسخ تلك التصحيحات.

رسالة من القبطان جلفر
إلى قريبه سيمبسون[١]

أرجو أن تكون مستعدًا للاعتراف علنًا، حينما يُطْلَبُ منك ذلك، أنك بإلحاحك الكبير وحَثِّكَ المتكرر، جَعَلْتَني أنشر تقريرًا غير دقيق ولا مترابط عن رحلاتي. وأَشَرْتَ عليَّ أن أستأجر واحدًا من السادة الذين تعلموا في إحدى الجامعتين[٢] لكي يرتِّبَ هذه الرحلات، ويصحّح الأسلوب، كما عمل قريبي دامْبْيِرْ»[٣] تبعًا لنصيحتي، في كتابه الموسوم، **رحلة حول العالم**. لكني لا أتذكر أنني فوَّضْتُك أن توافق على حذف أي شيء أو إضافة أي شيء. ولهذا، وبالنسبة للإضافة، فإنني أُنْكِرُ كل شيء من هذا القبيل، وعلى الأخص الفقرة الخاصة بالمرحومة صاحبة الجلالة الملكة «آنْ»[٤]، ذات التقوى العظيمة والذكرى المجيدة، مع أنني كنتُ فعلًا أحترمها وأقدِّرها أكثر من أي واحد في الجنس البشري. ولكن كان عليك، أو على من فَوَّضْتَه بالإضافة والحشو، أن تُقَدِّر أنه ليس من طبعي، كما أنه ليس من اللائق بي، أن أمْتَدِحَ لسيدي الحصان **الهُويِنْهِمْ**[٥] حيوانًا من جِبِلَّتنا. زِدْ على هذا أن الحقيقة التي يُعَبِّر عنها الحشو هي حقيقة زائفة كليًا. لأنني كنت في انجلترا خلال فترةٍ من عهد جلالتها، وكانت، حسبما أعلم، تحكم عن طريق رئيس للوزراء، لا بل رئيسين متعاقبين، أولهما كان اللورد غودولْفِينْ، وثانيهما اللورد أوكْسْفورْدْ. وهكذا فقد جَعَلْتَني **أقول الشيء الذي لم يكن**[٦]. وكذلك حَرَّفْتَ نصوص التقرير عن أكاديمية المخترعين، ونصوصًا عديدة عن مناقشاتي مع سيدي الحصان، فحذفْتَ بعض التفاصيل الهامة أو عَبِثْتَ بها أو غَيَّرْتَها بطريقة جَعَلْتَني لا أعرف العمل الذي سَطَّرْتُه[٧]. وحين ألمحتُ في إحدى رسائلي إليك إلى شيء من هذا التحريف، أَجَبْتَني أنك كنتَ تخشى أن يثير النصُّ الأصليُّ غضب البعض، وأنّ ذوي السلطة كانوا يراقبون المطبوعات مراقبة صارمة، ويميلون لا إلى التأويل فحسب، بل وإلى معاقبة كل ما يبدو أنه تعريض وغمز (كما وَصَفْتَها حسبما أذكر). ولكن أرجوك أن تتساءل معي: كيف يمكن لشيء قُلْتُه قبل سنوات عديدة جدًا، وفي مكان يبعد أكثر من خمسة آلاف فرسخ، وفي ظل حكم جنسٍ آخر، أن ينطبق على واحد من بني **الياهو**[٨] الذين يقال الآن أنهم يحكمون القطيع، وخصوصًا أنني قُلْتُ ما قُلْتُه في وقتٍ لم أكن فيه أظن أو أخشى أن أُبْتَلى بتعاسة العيش تحت حكمهم؟ أليس لديَّ سبب من أهم الأسباب للتذمر، وأنا أرى بني **الياهو** أنفسهم يُحْمَلون في عرباتٍ يجرها بني **الهُوينْهِمْ**، وكأنّ هؤلاء

حيوانات متوحشة، وأولئك[٩] مخلوقات عاقلة؟ وفي الحقيقة، كانت رغبتي في تجنب مثل هذا المشهد الفظيع المقيت هي الدافع الرئيسي لانزوائي هنا.

هذا ما رأيتُ أن أقوله لك بالنسبة لنفسك وبالنسبة للثقة التي وضعتُها فيك.

من ناحية أخرى، إنني بالفعل أشكو مُرّ الشكوى من غفلتي وضعف بصيرتي، إذْ سمحتُ لنفسي أن أتأثر برجائك ورجاء غيرك، وأن أعمل بآرائكم الزائفة التي كانت تتعارض تمامًا مع رأيي، فسمحتُ بنشر رحلاتي. أرجوك أن تُذَكِّر نفسك كم مرة رجوتُ منك وأنت تلحّ على مبدأ المنفعة العامة، أن تتذكر أن بني **الياهو** هم جنس من الحيوانات عاجز عجزًا مطلقًا عن إصلاح نفسه بالمبادئ أو القدوة. وهذا ما ثَبَتَ: بدلاً من رؤية توقفهم الكامل عن كل مظاهر سوء التصرف وكل مظاهر الفساد، على الأقل في هذه الجزيرة الصغيرة كما كنتُ أتوقع، انْظُرْ ما حدث: بعد ما يزيد على مهلة ستة أشهر، لم أعلم أن كتابي أعطى نتيجة واحدة من النتائج التي كنت أهدف إليها: لقد رغبتُ إليك أن تتكرم بإعلامي عن طريق الرسائل، إن كانت نار التحزّب والانقسام قد أُطْفِئَت، أو إنْ أصبح القضاة ذوي علم واستقامة، أو المتقاضون ذوي أمانة وتواضع ولديهم شيء من الفكر السليم، أو إن كانت كتب القانون قد جُمِعَتْ في أكوام ضخمة كالأهرامات في ساحة سْميثْفيلْدْ[١٠] وأُحْرِقَتْ، أو إنْ كان تعليم أبناء النبلاء قد غُيِّر كليًا، أو الأطباء قد تم نَفْيُهم، أو إن تَحَلَّتْ بنات **الياهو** بالفضيلة والشرف والصدق والفهم السليم، أو إن كانت دواوين الوزراء العظام قد نُظِّفَتْ تمامًا وكُنِسَ منها الطُّفَيْليون، وأهل البيان والكفاءة والعلم يكافَئون، ومن يسيئون إلى شرف الكلمة في النثر أو الشعر يعاقَبون بأن لا يأكلوا شيئًا سوى ورقهم البذيء وأن لا يَرْوُوا عطشهم إلا بِحِبْرِهم. لقد اعتقدتُ جازمًا، بناء على تشجيعكم، وعلى المبادئ والوصايا التي يفيض بها كتابي، أن هذه الإصلاحات وألْفًا أخرى غيرها ستتحقق. ولا بُدَّ من الاعتراف أن شهورًا سبعة تُعْتَبر وقتًا كافيًا للتخلص من أية رذيلة أو حماقة يقع فيها بني **الياهو**، لو كان في طبائعهم أدنى قدر من الميل إلى الفضيلة أو الحكمة. ومع ذلك فليس في أية من رسائلك ما يتفق مع توقعاتي، بل على العكس، إنك لا تُحَمِّلُ رسولنا في كل أسبوع سوى قصائد الهجاء والشتم[١١]، ومفاتيح لرموز الكتاب[١٢]، وتفسيرات له، ومذكرات وأجزاء (يُزْعَم أنها محذوفة منه)[١٣]، وأرى نفسي في هذه الأشياء مُتَّهَمًا بالتعريض برجال الدولة وغمزهم، وتحقير الطبيعة الإنسانية (ما زال لديهم الثقة لِوَصْفها بهذا النعت) والإساءة إلى جنس النساء. كذلك أجد أن كُتّاب تلك التُّرَّهات لا يتفقون على رأي: فبعضهم لا يصدقون أنني مؤلف لرحلاتي، وآخرون يزعمونني مؤلفًا لكتب لا أعرفها البتة.

كذلك أجد أن مطبعتكم قد بلغ بها الاستهتار حد خلط التواريخ[١٤]، فأخطأتْ في تحديد مواعيد رحلاتي وعوداتي العديدة ولم تنسبها إلى السنة الصحيحة أو الشهر الصحيح أو اليوم

الصحيح. وقد سمعتُ أن المخطوط الأصلي قد تَلِفَ كلّه[١٥] بعد أن نُشِرَ كتابي. وليس لديَّ نسخة من ذلك المخطوط. وعلى كل حال، ها أنذا أرسل لك بعض التصحيحات التي يمكنك أن تُدْخلها في الكتاب لو ظهرتْ منه طبعة ثانية. ومع ذلك فَلَسْتُ أُصِرّ على ذلك وأتْرُكُ للحصيفين والصادقين من قرائي أن يصححوا الأمر كما يشاءون.

كذلك علمتُ أن بعض رجال البحر من جنسنا من بني **الياهو** يُخَطِّئون اصطلاحاتي البحرية ويعتبرون الكثير منها غير صحيح أو لم يعد مستعملاً[١٦]. وهذا أمر خارج عن إرادتي. ففي رحلاتي الأولى، حينما كنتُ صغير السن، تعلمتُ لغة البحّارين واصطلاحاتهم من بحارين كبار السن. ولكني اكتشفت بعد ذلك أن البحارين من بني **الياهو**، هم كأمثالهم منن المقيمين على البر، مولعون بالجديد من الكلمات التي تتغير كل عام. وأذكر أنني عند كل عودة لي إلى بلادي، كنت أجد لغتهم القديمة قد تغيرتْ ولا أكاد أفهم مصطلحاتهم الجديدة. بل إنني ألاحظ أنه كلما حضر أحد من بني **الياهو** من **لندن** ليزورني في بيتي بدافع الفضول، لا يستطيع أي منّا أن يعبر عن مفاهيمه وأفكاره بطريقة مفهومة للآخر.

ولو كنتُ أتأثر بنَقْد بني **الياهو** لتَوَفَّر لدي سبب عظيم للتذمر من أولئك الذين يتجرأون على الظنّ بأن كتاب رحلاتي ليس إلاّ قصة مختلقة من نسج خيالي، ووصل بهم الأمر إلى حدّ إطلاق التلميحات بأن بني **الياهو** وبني **الهُوينْهِمْ**، هم مثل أهل **يوتوبيا**[١٧]، ليس لهم وجود.

وفي الحقيقة لا بد لي أن أعترف أنه بالنسبة لأهل **ليليبوت** وأهل **بْروبْدِنْجْراجْ** (هكذا كان يجب أن يُكْتَبَ هذا الاسم، وليس **بْروبْدِينْجْناجْ** كما كُتِبَ خطأ) وأهل **لابوتا**، فإنني لم أسمع أحدًا من بني **الياهو** يتبجح بإنكار وجودهم أو بالشك في الوقائع التي رويتُها عنهم: لأن الحقيقة يقتنع بها القارئ حالَمَا يراها[١٨]. وليس هناك أدنى شك في صدق وصفي لبني **الهوينهم** وبني **الياهو**، إذ من الواضح بالنسبة لهؤلاء أنه يوجد في هذه المدينة، **لندن**، آلاف عديدة جدًا منهم، وهم لا يختلفون عن إخوانهم الوحوش في بلاد **الهوينهم** إلا في كونهم يستخدمون نوعًا من الرطانة، وفي كونهم لا يسيرون عراة. وإنما كتبْتُ لإصلاحهم لا لإمتاعهم. لو أجمعَ كل أبناء هذا الجنس على مدحي وإطرائي، لما عادل ذلك عندي صهيل ذينك الحصانين من بني **الهوينهم**، اللذَيْن أَحْتَفِظُ بهما في إسطبلي، لأنني ما زلتُ أتعلم منهما، رغم انحطاطهما وتدهوُر أخلاقهما، بعض الفضائل التي لا تشوبها الرذيلة.

هل تجرؤ هذه الحيوانات التعيسة[١٩] على الظن بأن أخلاقي تدهورت إلى الحد الذي أدافع فيه عن صدقي وصحة أقوالي؟ ومع أنني **ياهو**، فإنه معروف عني في طول بلاد **الهوينهم** وعرضها، أنني تمكنتُ خلال عامين (وأعترفُ أن ذلك كان غاية في الصعوبة)، وبفضل توجيهات

سيدي وأستاذي العظيم واقتدائي به، أن أجتثَّ من نفسي تلك الطبائع الجهنمية من كذب وتمويه وخداع وتذبذب، والتي هي عميقة الجذور في نفوس بني جلدتي، ولا سيما الأوروبيين منهم.

وهناك أمور أخرى في هذا الموضوع المزعج تثير سخطي، ولكن لا أود أن أسبب لك المزيد من الإزعاج بذكرها. لكن لا بد أن أعترف بكل صراحة أن بعض الفساد الكامن في طبيعتي الياهوية قد بدأ، منذ عودتي الأخيرة، ينتعش وينشط فيَّ بسبب تعاملي مع بعض بني جنسكم من الياهو، وعلى الأخص أعضاء أسرتي الذين لا مَفَرَّ لي منهم. ولولا ذلك لما تورطتُ في محاولة تنفيذ مشروع سخيف، كمشروع إصلاح بني الياهو في هذه المملكة. لكني تُبْتُ الآن وللأبد عن مقارفة مثل هذه المشاريع الوهمية.

الثاني من أبريل ١٧٢٧

من الناشر إلى القارئ[1]

مؤلف هذه الرحلات، السيد **ليمويل جَلِفَرْ** صديقي الحميم منذ عهد قديم، كما أن بيني وبينه صلة قربى من ناحية الأم. قبل ثلاث سنوات كان السيد **جَلِفَرْ** قد تعب من مقابلة الفضوليين الذين كانوا يزورونه في بيته في **ريدْريفْ**، فاشترى قطعة صغيرة من الأرض عليها بيت مناسب بالقرب من **نِيوورْك** في مقاطعة **نوتِنْجْهامْ** التي هي مسقط رأسه. وهو يعيش هنا الآن متقاعدًا ويتمتع بين جيرانه بالاحترام والتبجيل.

ومع أن السيد **جَلِفَرْ** وُلِد في **نوتِنْجْهام** التي كان يقطنها والده، إلا أنني سمعته يقول إن أصل أسرته من مقاطعة **أوكْسفورْدْ**. وقد تأكد لي صدقه حين لاحظتُ في مقبرة الكنيسة في بلدة **بانْبرِي**[2] في تلك المنطقة، شواهد قبور عديدة تحمل اسم **آل جَلِفَرْ**.

لكنه حين غادر **ريدْريفْ** ترك بين يديّ كوديعةٍ مجموعةً من الأوراق، وفَوَّضَني أن أتصرف بها كما أرى مناسبًا. وقد قرأتُها بإمعان ثلاث مرات: أسلوبها واضح وبسيط، والعيب الوحيد الذي أجده فيها هو أن مؤلفها يهتم بالتفاصيل الصغيرة، على عادة الرحالين. إن مظهر الحقيقة واضح فيها كلها. وفي الحقيقة، فإن كاتبها كان معروفًا لدى جيرانه، بالحرص على الصدق، لدرجة أنه أصبح بينهم مضرب المثل في الصدق[3]. فلو أراد أحدهم أن يؤكد شيئًا فإنه يقول: «إن الأمر صحيح وكأنه ورد على لسان **جَلِفَرْ**».

وبناء على نصيحة عدة أشخاص محترمين مِمَّنْ أَطْلَعْتُهم، بعد استئذان المؤلف، على هذه الأوراق، فقد قررتُ نشرها على الملأ، راجيًا أن تكون، ولو لبعض الوقت، تسلية للشباب من نبلائنا، أفضل من الكتابات السوقية عن السياسة والحزبية.

حجم الكتاب الأصلي كان سيكون على الأقل ضِعف حجم هذا الكتاب[4]، لو لم أتجرأ على حذف نصوص عديدة منه تتعلق بوصف الرياح وحركات المدّ والجَزْرِ، وأمور فنية أخرى حدثت خلال الرحلات المتعددة، ونصوص أخرى فيها تفاصيل دقيقة عن إدارة السفن في العواصف على طريقة رجال البحر، أو عن خطوط الطول والعرض. وأخشى أن يؤدي حذف بعض النصوص هذا

إلى سخط السيد جلفر، لكني قررتُ أن أجعل حجم الكتاب متناسبًا قدر الإمكان مع قـدرات القراء. وعلى كل حال، إذا كان جهلي بشؤون البحر قد جعلني أنزلق إلى ارتكاب بعض الأخطاء، فإنني وحدي أتحمل وِزْرَ ذلك. وإذا رغب أي قارئ أن يرى الأصل كله، كما خَطَّتْهُ يد المؤلف، فإنني على استعداد لتحقيق رغبته.

أما بالنسبة لأية تفاصيل أخرى عن المؤلف، فقد أوردنا في الصفحات الأولى من الكتاب ما يرضي القارئ.

ريتشارد سيمبسون

عنوان كتاب رحلات جلفر كما ظهر في الطبعة الأولى عام ١٧٢٦

TRAVELS

INTO SEVERAL

Remote Nations

OF THE

WORLD.

IN FOUR PARTS.

By *LEMUEL GULLIVER*,
first a SURGEON, and then a CAPTAIN
of several SHIPS.

VOL. I.

LONDON:
Printed for BENJ. MOTTE, *at the Middle*
Temple-Gate *in* Fleet-street.
M, DCC, XXVI.

رحلات إلى بلاد بعيدة ذات شعوب عديدة في العالم

في أربعة أجزاء

بقلم

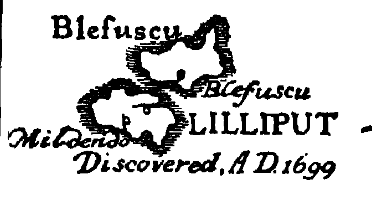
لِيمْوِيلْ جَلِفَرْ
الذي كان أول الأمر جراحًا ثم قبطانًا
في عدة سفن

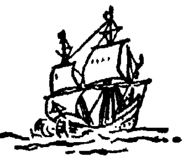
لندن
طباعة ونشر بنيامين موط في
ميدِلْ تِمْبِلْ جيتْ ـ شارع فْلِيتْ عام ١٧٢٦



Part One

A Voyage to LILLIPUT







الجزء الأول

رحلة إلى ليليبوت[١]

الفصل الأول

المؤلف يعطي نبذة عن حياته وأسرته، والأشياء الأولى التي أَغْرَتْه بركوب البحر. تتحطم سفينته ويسبح طلبًا للنجاة. يصل سالًما إلى شاطئ بلاد ليليبوت. يُؤْسَر على الشاطئ ثم يُنْقَل إلى داخل البلاد.

كان لأبي عقار صغير في منطقة **نُوتِنْجْهامْ**، وكنت الثالث بين خمسة أبناء. وقد أرسلني والدي وأنا في الرابعة عشرة، للدراسة في كلية **عمانوئيل في كامبردج**[٢]. حيث انكبَبْتُ على دروسي طيلة ثلاثة أعوام. لكن نفقة إعالتي (رغم كونها صغيرة) كانت فوق طاقة أبي الذي كان دخله ضئيلًا، ولذلك نُقِلْتُ للعمل مع طبيب جراح مشهور في لندن هو السيد **جِيمْسْ بِيتْسْ**، وذلك كَصبيّ تحت التدريب، وبقيتُ معه أربعة أعوام. وكان والدي يمنحني بين الحين والآخر مبالغ صغيرة من النقود، كنت أبتاع بها كتبًا عن علوم البحر والأبحار وعن تلك الأجزاء من علوم الرياضة التي تنفع من ينوي ركوب البحر، إذ كنتُ أعتقد أنه سيكون من قَدَري أن أركب البحر ذات يوم. حين تركتُ السيد **بيتس** عدتُ إلى والدي وحصلت هناك، بمساعدة أبي وعمي **جون** وبعض الأقارب، على أربعين جنيهًا ووعدٍ بمبلغ ثلاثين جنيهًا سنويًا للانفاق عليّ في مدينة **لِيدِنْ**[٣] حيث درستُ الطب لمدة عامين وسبعة أشهر، إذ كنتُ أعرف أن هذا سيفيدني في الرحلات الطويلة.

وحالما عدتُ من **ليدن** رشَّحَني أستاذي الطيب، السيد **بيتس** ، للعمل جراحًا في سفينة اسمها **سْوالُو**[٤] يقودها القبطان **أبراهام بَانِلْ**، فمكثتُ معه ثلاث سنوات ونصف، قمنا خلالها برحلة أو اثنتين إلى الشرق وأجزاء أخرى من العالم. وحينما رجعتُ قررتُ أن أستقرّ في **لندن**، وشجعني أستاذي السيد **بيتس**، وأرسل إليَّ العديدين من المرضى لأعالجهم. أخذتُ جزءًا من بيت صغير في حيّ **أُولْدْ جُوري** ثم عملتُ بنصيحة بعضهم بأن أغير حالتي الاجتماعية، وتزوجتُ السيدة ماري

بيرتون، الابنة الثانية للسيد **إدموند بيرتون**، وهو بائع ملابس في شارع **نُيُوجيتْ**، وحصلتُ منها على أربعمائة جنيه مهرًا[٥].

ولكن حينما تُوُفِّيَ أستاذي الطبيب **بيتسْ** بعد سنتين، وكان أصدقائي قليلين، بدأ زبائني يتناقصون ودَخْلي يقلّ. ولم يكن ضميري يسمح لي بتقليد الممارسات السيئة التي كان يقوم بها الكثيرون جدًا من زملاء المهنة. وبعد أن شاورتُ زوجتي وبعض معارفي قررتُ أن أركب البحر من جديد. وعملتُ جراحًا في سفينتين بالتتالي طيلة ست سنوات، قمتُ خلالها برحلات عديدة إلى جزر الهند الشرقية والغربية، وبهذا جمعت بعض المال. وكنتُ في ساعات فراغي أقرأ كتب خِيرةِ المؤلفين من قدماء وحديثين، وكنت دائمًا أتزود بعدد كبير من هذه الكتب. وحين كنتُ أنزل إلى الشاطئ، كنتُ أقضي وقتي في ملاحظة عادات الشعب وطباعه وفي تعلُّم لغته، وكانت ذاكرتي القوية تُسَهِّل ذلك عليّ.

ولأن آخر رحلة من هذه الرحلات لم تكن موفقة تمامًا، مَلَلْتُ البحر وقررتُ أن أستقر في بلدي مع زوجتي وأسرتي. ونقلتُ مسكني من **أولْدْ جوري** إلى شارع **فِتَّرْلينْ** ومن هنا إلى **وابِنْغْ**، على أمل أن يكثر زبائني من البحارة. ولكن الأمور لم تَسِرْ كما يرام. وبعد ثلاث سنوات من خيبة الأمل في تَحَسُّن الأمور، قبلتُ عرضًا سَخِيًّا من القبطان **وِلْيَمْ بْريتْشارْدْ**، صاحب السفينة **أَنْتِيلُوبْ** الذي كان يزمع القيام برحلة إلى بحر الجنوب. وأقلعنا من **بْريستول** في الرابع من مايو ١٦٩٩[٦]، وكانت رحلتنا في أول الأمر ناجحة جدًا.

وقد لا يكون مناسبًا، لبعض الأسباب، أن أُثْقِل على القارئ[٧] بتفاصيل مغامراتنا في تلك البحار. يكفي أن أخبره أننا في طريقنا من هناك إلى جزر الهند الشرقية قَذَفَتْنا عاصفة عنيفة إلى غرب ـ شمال أرض **ڤانْ دِيمِنْ**[٨]. وبالملاحظة وجدنا أنفسنا على خط عرض ٣٠ درجة ودقيقتين جنوبًا. وقد تُوُفِّي من بحارتنا اثنا عشر رجلًا بسبب مشقة العمل وسوء التغذية، أما الناجون فكانوا في حالة إعياء شديد. وفي الخامس من نوفمبر، وهو بداية الصيف في تلك الأنحاء، وكان الجو مكفهرًا والرؤية غير واضحة، رأى البحارة صخرة على بعد ثلاثمائة قدم[٩] من السفينة. ولكن الريح كانت عنيفة لدرجة أنها دَفَعَتْنا مباشرة نحو الصخرة فانشطرت السفينة في الحال. في هذه اللحظات كنت مع ستة من البحارة قد أَنْزَلْنا قارب النجاة إلى البحر وحاولنا الابتعاد فيه عن السفينة والصخرة. وطِبقًا لتقديراتي جَذَّفنا لمسافةٍ تقرب من الثلاثة فراسخ، حتى لم يَعُدْ بإمكاننا التجذيف، خصوصًا وأن قوانا كانت قد أُنْهِكَتْ من مشقة العمل في السفينة قبل أن نغادرها، ولهذا استسلمنا لرحمة الأمواج. وفي حوالي نصف ساعة انقلبَ زورقُنا على أثر هَبَّة ريح مفاجئة داهَمَتْنا من الشمال. ولستُ أعلم ما حدث لرفاقي في الزورق، أو لِمَنْ نَجَوْا على الصخرة، أو للذين بَقَوْا في

المركب. وأظن أنهم قد هلكوا جميعًا. أما أنا، فقد سبحتُ كما وجَّهَتْني الأقدار. وقذفَتْ بي الريح وحركة المَدّ إلى الأمام. وكثيرًا ما سَمَحْتُ لساقيَّ أن تتدليا فلم تَصِلْ قدمايَ إلى القعر. وحين أوشكتُ على الهلاك ولم يَبْقَ لديّ قدرة على مواصلة الكفاح، وجدتُ نفسي في مياه ضحلة لا تغمرني. وهنا كانت حدة العاصفة قد خَفَّتْ وكان الانحدار طفيفًا بحيث أنني مشيتُ قرابة ميلٍ قبل أن أصل للشاطئ. وكان الوقت حسب تقديري حوالي الساعة الثامنة مساء. ثم تقدمتُ للداخل قرابة نصف ميل فلم أعْثرْ على أثر لوجود بيوت أو سكان. على الأقلّ كنتُ في حالة من الوَهَن الشديد فلم ألاحظ شيئًا. ولما كنتُ في غاية الإرهاق، وكان الجَوّ حارًّا وكنتُ قد شربتُ نصف قارورة من النبيذ قبل مغادرة السفينة، فقد غلبني النعاس وغَفَوْتُ فوق عشب قصير ناعم ونِمْتُ أعمق نومة، ولا أذكر أنني نِمْتُ مثلها في حياتي. وامتدَّتْ نَوْمتي - حسب تقديري - أكثر من تسع ساعات، لأنني حينما استيقظتُ كان ضوء النهار قد بزغ[١٠]. حاولتُ أن أنهض فوجدتُ نفسي عاجزًا عن الحركة. وبما أنني كنتُ مستلقيًا على ظهري فقد اكتشفتُ أن ذراعيَّ وساقيَّ كانت في كلا الجانبين مشدودةً بقوة إلى الأرض، كما وجدتُ شعري الطويل الكثيف مربوطًا أيضًا بالأرض بنفس الأسلوب. كذلك وجَدْتُ أربطةً رفيعة على عرض جسمي ابتداء من إبطيّ حتى فَخْذَيّ. لم أستطع أن أرى إلا ما هو فوقي. كانت حرارة الشمس قد بدأت تزداد، وأحسستُ بضوئها يؤذي عينيّ. وسمعتُ أصواتًا مشوشة من حولي، لكن الوضع الذي كنتُ عليه لم يُتِح ليَ أن أرى شيئًا سوى السماء. وبعد فترة وجيزة شعرتُ بشيء حَيّ يتحرك فوق ساقي اليسرى، وراح يتقدم برِفْق حتى صار فوق صدري وكاد يصل إلى ذَقْني. خَفَضْتُ بصري إلى أقصى ما أستطيع، فتبيّن لي هذا الشيء مخلوقًا بشريًا لا يزيد طوله عن ست بوصات[١١]، يحملُ بين يديه قوسًا ونشّابًا وعلى ظهره كنانة سِهام. وفي الوقت نفسه، شعرتُ بما لا يقلّ عن أربعين آخرين (حسب تقديري) من جنس هذا المخلوق يسيرون في أثره. وكنتُ في دهشة بالغة وزَأَرْتُ بأعلى صوتي فارتدّوا جميعًا مذعورين، وأصيبَ بعضُهم بالأذى، كما قيل لي فيما بعد، حين قفزوا عن جوانبي وارتطموا بالأرض. لكنهم سرعان ما رَجَعوا، وتجرّأ واحد على الدُّنُوّ حتى تمكّن من رؤية وجهي كله، فرفع يديه وعينيه إعجابًا، وصاح بصوت رفيع لكنه واضح: هِيكينَه ديجُلْ[١٢]، وكرر الآخرون هاتين الكلمتين مرات عديدة، لكني لم أفهم المعنى حينذاك. ويمكن للقارئ أن يتخيل ما عانيتُه في هذه الأثناء وأنا مستلقٍ طيلة الوقت على ظهري. ولحسن الحظّ استطعتُ أخيرًا وبعد كفاح مرير، أن أقطع بعض الخيوط وأقتلعَ بعض الأوتاد التي كانت تشد ذراعي الأيسر إلى الأرض. وحين رفعتُها إلى وجهي اكتشفتُ الأساليب التي اتَّبعوها في شدّ وثاقي. في الوقت نفسه، وبعد شدّةٍ عنيفة سبَّبَتْ لي ألمًا فظيعًا، استطعتُ أن أُرْخِيَ قليلاً الخيوط المربوطة في شعري من الناحية اليسرى بحيث صار بإمكاني أن أدير رأسي مسافة بوصتين. لكن تلك المخلوقات ولَّتْ هاربة مرة ثانية قبل أن أمسك بها. وعلى الفور انطلقتْ صرخة عظيمة بنبرة حادة. وحين انتهتْ هذه الصرخة سمعتُ أحدهم يصيح بصوت

عال: **تُولْجو فُوناكْ**[١٣]. وفي الحال شعرتُ بما يزيد على مائة سهم تُطْلَق على يدي اليسرى فتَغزّها وكأنها إبَر. وبالإضافة إلى ذلك أطلقوا وابلًا آخر من السهام في الهواء، كما نفعل بالقـذائف في أوروبا، وسقط العديد منها، كما أفترضُ، على جسدي (مع أني لم أحس بها)، كما سقط بعضها على وجهي الذي سارعتُ بتغطيته بيدي اليسرى. ولما انتهى هذا الوابل من السهام رحت أجْأَرُ بالأنين حزنًا وألمًا. وحين حاولتُ مرة ثانية أن أَفُكّ قيودي، أمطروني بوابل آخر من السهام أكبر من الأول. وحاول بعضهم أن ينخزوني في جوانبي برماحهم. ولكني لحسن الحظ كنتُ ألبس معطفًا من الجلد، ولم تستطع حِرابُهم أن تخترقه. وأدركتُ أنه من حسن التصرف أن أركن إلى السكون، ومن حسن التخطيط أن أبقى كذلك حتى يخيم الليل، وتكون يدي اليسرى قد أصبحت طليقة لأفُكّ بها وثاقي بسهولة ويسر. أما بالنسبة للسكان هناك، فإن باستطاعتي أن أواجه أقوى الجيوش التي قد تهاجمني إذا كان الجند جميعًا بحجم المخلوق الذي رأيته. لكن القدر كان يرسم لي مصيرًا آخر. ولما لاحظ أولئك الناس هدوئي توقفوا عن إطلاق السهام عَلَيّ. لكني عرفتُ من ازدياد الضجيج أن أعدادهم كبرتْ، وسمعتُ على بعد حوالي أربع ياردات من أذني اليمنى، أصوات طرق ودق لمدة تزيد على الساعة. ولما أَدَرْتُ رأسي في ذلك الاتجاه بقدر ما سَمَحَتْ بذلك الخيوط والأوتاد، شاهدتُ منصة منصوبة على ارتفاع قدم ونصف عن الأرض، تتسع لأربعة من السكان، وحولها سُلَّمان أو ثلاثة سلالم للصعود إلى المنصَّة. ومن فوق هذه المنصّة كلمني واحد منهم كان يبدو أنه شخصية مرموقة، وألقى على مسامعي خطابًا طويلًا لم أفهم منه شيئًا، كان يجب أن أذكر أنه قبل أن يبدأ هذا الشخص المهم خطابه، كان قد صاح ثلاث مرات: **لانجْرو ديهُلْ سانْ**[١٤] (هذه الكلمات والكلمات السابقة أعيدت على مسامعي فيما بعد وشُرِحَتْ لي) وعلى الفور تقدم نحوي أربعون من السكان وقطعوا الخيوط التي كانت مربوطة بالجانب الأيسر من رأسي، وهذا أتاح لي أن أحركه نحو الناحية اليمنى، وأن ألاحظ شخصية وحركات الشخص الذي كان سيخاطبني. بَدَا لي أنه في متوسط العمر وأنه أطول من أيٍّ من الثلاثة الذين كانوا يرافقونه: أحدهم كان وصيفًا يحمل له أغراضه وبدا أنه أطول قليلًا من إصبعي الأوسط، أما الاثنان الباقيان فوقفا أحدهما عن يمينه وثانيهما عن يساره ليسنداه. أما هو فقد قام بدور الخطيب المفوّه. ولاحظتُ في خطابه رنّة التهديد والوعيد تارة، ولهجة الوعد والترغيب تارة أخرى، ورنّة الرثاء والعطف ونغمة الرقة واللطف. وَرَدَدْتُ عليه ببعض الكلمات بلهجة التسليم والخضوع، ورفعتُ يدي اليسرى وعيناي نحـو الشمس وكأنني أدعـوها لتكون شاهدة على صدق قولي. ولأنني كنت في غاية الجوع، كَوْني لم أتناول لقمة واحدة منذ قبل أن أغادر السفينة بساعات، فقد وجدتُ مطالب الطبيعة فيَّ تُلِحُّ عَليَّ إلحاحًا شديدًا لم أُطِقْ عليه صبرًا، ورحتُ (وربما كان ذلك قلة أدب وقلة حياء) أضع إصبعي على فمي مرارًا وتكرارًا لأُبَيِّنَ أنني جائع وأحتاج طعامًا. وقد فهم الهوركو (هكذا يسمون السيد العظيم عندهم كما علمتُ فيما

بعد) قصدي ومبتغاي. فنزل عن المنصة وأمر بوضع السلالم على جانبي، فصعد عليها مائة منهم، وساروا نحو فمي وهم يحملون سلالاً من اللحوم التي كانت قد أُعِدَّتْ وأُرْسِلَتْ لي بأوامر الملك الذي أصدرها حالما سمع بوجودي. كانت تلك اللحوم من حيوانات عديدة، لكني لم أستطع أن أميز بعضها من غيره بواسطة الطَّعْم. كان بينها أكتاف وأفخاذ وخواصر، لها شكل أعضاء الخروف، وكانت مُبَهَّرَةً ومطبوخة بشكل شهيّ جدًا، لكنها أصغر من جناح القُبَّرَة. وكنتُ ألتهم اثنين أو ثلاثًا منها في اللقمة الواحدة، كما كنتُ آكُلُ ثلاثة أرغفة دفعة واحدة، فهي لا تزيد عن حجم قذيفة مسدس. وقد راحوا يُزوّدونني بالطعام بأسرع ما يستطيعون، وملء ملامحهم علامات التعجب والذهول من كبر حجمي وقوة شهيتي. ثم أشرتُ لهم أنني أريد شرابًا. وأدركوا من أكْلي، أنه لن تكفيني كمية صغيرة من الشراب، فتداركوا الموقف بطريقة تدل على براعة عظيمة. فقد رفعوا بمهارة فائقة واحدًا من أكبر البراميل عندهم ودحرجوه نحو يدي ثم فتحوه من أعلاه، وشربتُ كل ما فيه بجرعة واحدة. ولا غرابة في ذلك لأن محتوياته كلها تقل عن نصف لتر، ولها طعم نبيد البيرغندي، لكنه ألَذّ منه. وجاءوني ببرميل ثانٍ وشربته بالأسلوب نفسه. وأشرتُ لهم طالبًا المزيد، لكنه لم يكن قد بقي لديهم شيء منه. وحين قمتُ بهذه الأفعال العجيبة الخارقة، راحوا يصيحون سرورًا ويرقصون على صدري طربًا، ويكررون مرات عديدة ما قالوه في أول الأمر: **هيكينَهْ دِيجُلْ**، وأشاروا إليّ أن أرمي البرميلين الفارغين بعد أن أنذروا رفاقهم الواقفين على الأرض أن يبتعدوا، وراحوا يصيحون: **بُوراكْ ميڤولا**(١٥). وحين رأوْا البرميلين في الجَوّ انطلقتْ من حناجرهم جميعًا صيحة واحدة: **هيكينَهْ دِيجُلْ**. وأعترفُ أنهم بينما كانوا يسيرون جيئة وذهابًا فوق جسدي، راودتني نفسي أن أقبض على أول أربعين أو خمسين تطولهم يدي، وأخبطهم بالأرض حتى تتكسر عظامهم. ولكني تذكرت الألم الذي كان قد أصابني منهم والذي ربما لا يكون أسوأ ما يمكن أن يفعلوه بي، كذلك تذكرت وعد الشرف الذي قَطَعْتُه لهم. هكذا فسَّرْتُ لنفسي طاعتي لهم، فاختفت من ذهني تلك المراودة الشيطانية. وبالإضافة إلى ذلك، اعتبرتُ نفسي الآن ملتزمًا بقوانين الضيافة تجاه أناس أكرموني بسخاء. ومع ذلك، كنتُ في أعماقي مندهشًا غاية الدهشة لما يُبْديهِ هؤلاء البشر الأقزام من بسالة وإقدام حين يصعدون إلى جسمي، ويسيرون فوقه، في حين كانت واحدة من يديّ طليقة، دون أن ترتعد فرائصهم لدى رؤية مخلوق هائل في ضخامته مثلي. وبعد فترة وجيزة، حين لاحظوا أنني لم أطلب مزيدًا من اللحم، ظهر أمامي شخص ذو مرتبة رفيعة مندوبًا عن جلالة الامبراطور. وبعد أن صعد سعادته فوق الجزء الرفيع من ساقي، تقدم صاعدًا نحو وجهي يتبعه اثنا عشر شخصًا من حاشيته. وبعد أن قَدَّم أوراقه ممهورة بالخاتم الملكي، وقرَّبها كثيرًا من عينيَّ، راح يتكلم لمدة عشر دقائق، دون أن تظهر عليه علامات الغضب، بل بلهجة حازمة صارمة. وكان يُكْثِرُ من الإشارة للأمام، أي نحو العاصمة، كما فهمتُ فيما بعد. وهي تبعد حوالي نصف ميل. وكان الامبراطور قد قرر مع مجلسه أن أُنْقَلَ إلى هناك. ورددتُ عليه ببضع كلمات، لكن دون جدوى. ثم عملتُ إشارة

بيدي الطليقة، بوضعها (من فوق رأس سعادته خوفًا من إيذائه أو إيذاء حاشيته) على يدي المقيدة، ثم على رأسي وعلى جسمي، لأُبَيِّن أنني أرغب في فَكِّ قيودي ونَيْلِ حريتي. وبدا لي أنه فَهِمَ قصدي جيدًا، لأنه هزَّ رأسه علامة على الرفض ورفع يده بطريقةٍ تعني أنني سأُنْقَلُ إلى العاصمة كأسيرٍ. لكنه أعطى إشارات أخرى لِيُفْهِمَني أنني سأُعْطَى ما يكفيني من الطعام والشراب وسأُعامَلُ معاملة جيدة. وعند ذلك خطر لي مرة أخرى أن أحاول تحطيم قيودي، ولكن تَمَثَّل لي الألم الذي سَبَّبَتْهُ لي سهامهم، والآثار التي تَرَكَتْها تلك السهام في كل وجهي ويديّ، وبقايا النصال التي انغرزتْ وانكسرتْ فيهما، كما لاحظتُ أن عددهم قد زاد. ولهذا أعطيتُهم إشارات تدل على أنه يمكنهم أن يفعلوا بي ما يشاءون. عند ذلك، انسحب الهوركو وحاشيته بأدب جَمّ ووجوه مستبشرة. بعد ذلك سمعتُ صيحة جماهيرية تكررتْ فيها كلمات بِيبْلُومْ سيلانْ[١٦]، وأَحْسَسْتُ أن أعدادًا كبيرة منهم عند جانبي الأيسر، يقومون بإرخاء الحبال، لدرجة أتاحت لي أن أنقلب نحو جانبي الأيمن وأريح نفسي من البَوْل الذي انطلق بغزارة أدهشتهم غاية الدهشة. وكانوا قد حزروا من حركاتي ما كنتُ سأفعل فابتعدوا في الحال يمينًا أو شمالاً عن مجرى البول الذي انقذف مني كالشلال الهادر العنيف. لكنهم قبل هذا كانوا قد دهنوا وجهي ويديَّ بمَرْهَمٍ زكيّ الرائحة، وفي بضع دقائق أزال ذلك المرهمُ كل آثار الألم والأذى الذي سببته سهامهم. هذه الأشياء كلها، بالإضافة إلى الراحة التي أحسستُ بها. بعد تناول الطعام الدسم والشراب اللذيذ، جَعَلَتْني أشعر بالنعاس. ونمتُ ساعات ثمانية كما أكدوا لي فيما بعد. ولا غَرْوَ في ذلك، فقد كان أطِبّاؤهم، وبأمر الامبراطور، قد وضعوا مادة منومة في برميلَي الشراب.

ويبدو أنه في اللحظة التي تَمَّ فيها اكتشافي نائمًا على الأرض بعد وصولي إلى البَرّ، تمَّ إبلاغ الامبراطور بذلك بواسطة رسول خاص، فعقد اجتماعًا على الفور، وقرر أنه يجب تقييدي وشَدّ وثاقي بالطريقة التي وَصَفْتُها أعلاه (وقد تم ذلك في الليل وأنا نائم)، وأن يُرْسَلَ لي الكثير من الطعام والشراب، وأن يَتِمّ تجهيز آلة لتحملني إلى العاصمة.

وربما يبدو هذا القرار جريئًا وخطيرًا، وإني لواثق أنه لا يوجد في أوروبا حاكم يتخذ قرارًا مماثلاً تجاه وضع مماثل. وفي رأيي أن هذا القرار كان غاية في الحكمة والكرم. إذ لو افترضنا أن هؤلاء القوم حاولوا قتلي برماحهم وسهامهم أثناء نومي، لكنتُ استيقظتُ على أحاسيس الألم، ولأثار ذلك غضبي وأيقظ قُوَّتي بحيث أتمكن من قطع الخيوط التي كانت تقيدني، وبعد ذلك ما كانوا ليستطيعوا مقاومتي وما كنتُ لأرحمهم.

يتفوق هؤلاء القوم في علوم الرياضة، وقد توصلوا إلى كمال عظيم في الميكانيكا بواسطة الحَثّ والتشجيع من الامبراطور الذي اشتهر برعايته للتعليم. ولدى هذا الأمير آلات عديدة على عجلات

لحمل الأشجار والأشياء ذات الأوزان الثقيلة جدًا. وكثيرًا ما يَبْني أكبر سفنه الحربية التي يبلغ طول بعضها تسعة أقدام في الغابات حيث يتوفر الخشب، ثم يحملها على هذه الآلات مسافة ثلاثمائة أو أربعمائة ياردة إلى البحر. وقد جَنَّد في الحال خمسمائة نجار ومهندس لتجهيز أكبر عربة في تاريخهم، وكانت هذه العربة تتألف من هيكل من الخشب يرتفع عن الأرض مسافة ثلاث بوصات، وطوله سبعة أقدام وعرضه أربعة، وتحمله اثنتان وعشرون عجلة. والصيحة التي كنت قد سمعتها كانت بسبب وصول هذه العربة الضخمة التي استغرق إنجازها أربع ساعات بعد وصولي إلى البَرّ. وقد وضعوها بموازاتي وأنا نائم. الصعوبة الرئيسية كانت تتمثـل في رفعي ثم وضعي فيها. دقـوا في الأرض ثمانين عامودًا لهذا الغرض، وكان طول كل عامود قدمًا واحدًا، وكان على كل عامود بكرة يتدلى منها خيط قنّب متين جدًّا ينتهي بخطاف. وقد ثَبَّتوا هذه الخطاطيف بأربطة كان العمال قد طَوَّقوا بها عنقي وجسمي ويديّ وساقيّ. ثم استخدموا تسعمائة من أقوى رجالهم لشد خيوط القنّب لأعلى بواسطة البكرات المثبتة في الأعمدة. وهكذا استطاعوا في أقل من ثلاث ساعات أن يرفعوني ويضعوني فوق العربة، ثم يُحْكِموا تقييدي فيها. وقد عَلِمْتُ بهذا فيما بعد، لأنني أثناء قيامهم بهذه الأعمال كنت أغطّ في نوم عميق بتأثير الدواء المنوم الذي دُسَّ في شرابي. وقد استُخْـدِم في جَرّ العربة التي حملتني إلى العاصمة التي كانت، كما أسْلَفْتُ، تبعد نصف ميل، ألف وخمسمائة من أكبر خيول الامبراطور والتي كان طول قامة الواحد منها يبلغ أربع بوصات ونصف.

بعد أربع ساعات من بداية رحلتنا، أيقظني حادث طريف وسخيف جدًا. كانت العربة قد توقفتْ فترة ريثما يتم إصلاح عطل فيه. وَوَلّدَ الفضول في اثنين أو ثلاثة من شبانهم الرغبة في رؤية حالي وأنا نائم، فصعدوا إلى العربة وتقدموا بحذر وهدوء نحو وجهي، ودَسَّ أحدهم، وكان ضابطًا في الحرس، رأس رمحه داخل منخري الأيسر، فدغدغ ذلك أنفي كما تفعلِ القشة، ممـا جعلني أعطس بعنف، فانسلّوا مبتعدين عنّي دون أن يلحظهم أحد، ولم أعلم إلّا بعد أسابيع ثلاثة بسبب يقظتي الفجائية. وقطعنا مسافة طويلة فيما تبقّى من ذلك النهار، وحين استَرَحْ خلال الليل وقف خمسمائة من الحرس على يميني ومثلهم على يساري، نصفهم يحملون المشاعل والنصف الآخر على أتمّ الاستعداد بأقواسهم وسهامهم ليطلقوها عليَّ إن حاولتُ الحركة. وفي الصباح التـالي عند بـزوغ الشمس، استأنفنا رحلتنا حتى وصلنا على بعد مائتي ياردة من أبواب المدينـة. وخرج الامـبراطور وحاشيته كلها لملاقاتنا، لكن كبار ضباطه لم يسمحوا أبدًا لجلالته أن يصعد فوق جسمي خشية أن يتعرض شخصه للخطر.

المكان الذي وَقَفَتْ عنده العربة كان معبدًا قديمًا(١٧) وأكبر المعابد في المملكة كلها. لكنه كان قبل بضع سنوات قد تدنَّس بحدوث جريمة قتل غير طبيعية فيه، وبهذا أصبح في نظر أولئك القوم، وحسب معتقداتهم، مكانًا مدنسًا لا تصح فيه العبادة، فخُصِّصَ للاستخدامات العامة بعد أن جُرِّدَ

من كل ما كان فيه من أثاث وزينات. كان قد تقرر أن أقيم في هذا المبنى الذي كانت بوابته الكبيرة تواجه الشمال، وتبلغ أربعة أقدام ارتفاعًا وقدمين عرضًا، وكان بوُسْعي الدخول أو الخروج منها زحفًا. وعند كل جانب من جانبَيْ البوابة كانت توجد نافذة صغيرة لا يزيد ارتفاعها عن الأرض أكثر من ست بوصات. وكان حَدّادو الملك قد ثَبَّتوا في النافذة التي على اليسار، إحدى وتسعين سلسلة كتلك السلاسل التي تتدلى منها ساعات السيدات في أوروبا، وبنفس حجمها تقريبًا. وقد قَيّدوا ساقي اليسرى بهذه السلاسل بواسطة ستة وثلاثين قفلًا. مقابل ذلك المعبد على الجانب الآخر من طريق السفر، وعلى بُعْد عشرين قدمًا، كان يوجد برج لا يقل ارتفاعه عن خمسة أقدام. وقد صعد الامبراطور مع الكثيرين من كبار اللوردات من حاشيته إلى هذا البرج لتتاح لهم فرصة رؤيتي، كما قيل لي، لأنني لم أستطع أن أراهم. وقد قُدِّرَ عدد الناس الذين خرجوا من المدينة لهذه الغاية أكثر من مائة ألف. ورغم وجود الحراس فإنني أعتقد أن عدد الذين تمكنوا على فترات من ارتقاء السلالم والوقوف على جسدي يربو على العشرة آلاف. لكن سرعان ما صدر أمر يمنع ذلك ويعاقب من يخالف الأمر بالموت. وحين أيقن العمال أنه يستحيل عليَّ أن أحطم قيودي وأهرب، قطعوا كل الحبال التي تربطني بالعربة، فسارعتُ بالنهوض والوقوف وأنا في أنْكَد حال واجهتُها في حياتي، لكن الضجيج الذي صدر عن الناس والذهول الذي خيم عليهم حين رأَوْني أنهض وأمشي، كان أكبر من الوصف. كانت السلاسل التي تقيد ساقي اليسرى بطول ياردتين، وهذا أتاح لي أن أسير للأمام والخلف في نصف دائرة. وكانت هذه السلاسل مثبتة على بُعْد أربع بوصات من البوابة، وهذا أتاح لي أن أزحف إلى داخل المعبد، وأن أستلقي داخله بِطولي كُلّه وبكامل جسدي.

الفصل الثاني

امبراطور ليليبوت يأتي، وبرفقته عدد من النبلاء، ليشاهد المؤلف في السجن، وصف لشخص الامبراطور وسلوكه. تعيين علماء لتعليم المؤلف لغتهم. طبعه الهادئ وحسن تصرفه يكسبه الحظوة. تفتيش جيوبه ومصادرة سيفه ومسدسه.

حين وجدتُني واقفًا على قدميَّ، نظرتُ حولي، ولا بد أن أعترف أنني لم أرَ قط مشهدًا أكثر جمالاً وإمتاعًا. بدا لي الريف وكأنه حديقة متصلة. أما الحقول المسورة والتي كانت مساحة الواحد منها تبلغ بشكل عام أربعين قدمًا مربعًا، فقد بَدَتْ وكأنها مشاتل عديدة للزهور. وكانت تتدخل بين هذه الحقول غابات تبلغ مساحتها ثُمْنَ فدان، وأطول الأشجار فيها تبلغ حسب تقديري سبعة أقدام ارتفاعًا. أما المدينة عن يساري فقد بَدَتْ وكأنها مشهدٌ لمدينةٍ مرسومٌ في مسرح.

كنتُ لبضعة ساعات أعاني أشد المعاناة من حاجتي إلى التغوط. ولم يكن هذا بالأمر المستغرب، لأن آخر مرة تخلصتُ فيها من الغائط كانت قبل حوالي يومين. وكنت أتمزق بين الحاجة الملحة لتلبية نداء الطبيعة والخجل من فعل ذلك. وخطر لي أن أفضل حلّ للموقف هو أن أزحف إلى داخل المعبد. وهذا ما فعلتُه، وأغلقتُ البوابة خلفي وذهبتُ إلى أبعد ما تسمح به السلاسل التي تقيدني. وأفرغتُ من جسدي كل ذلك الحمل المتعب. وكانت هذه المرة الوحيدة التي اقترفتُ فيها ذلك الفعل القذر، وأرجو أن يغفر القارئ النزيه لي هذه الزلّة بعد أن يفكر في حالتي والورطة التي كنتُ فيها، بشكل ناضج وخال من التعصب. بعد هذه المرة، اتّبعتُ طريقة واحدة ثابتة. كنت أنهض مبكرًا وأقضي تلك الحاجة في العراء على أبعد مسافة تسمح بها قيودي، وفي كل صباح كانت تُزال تلك المادة البرازية الكريهة، ويُنَظَّف مكانها قبل أن يزورني أحد. كان يحملها في عربات صغيرة خادمان مخصصان لهذه الغاية. وما كنتُ لأتوقف طويلاً عند هذا الموضوع الذي قد لا يبدو مهمًا لأول وهلة، لو لم أجد أنه من الضروري أن أُبَرِّىءَ ساحتي أمام العالم فيما يختص بموضوع النظافة التي قيل لي إن بعض المُفْتَرين من أعدائي[1]، يتخذون من هذه الحادثة وأمثالها دليلًا على عدم حرصي على النظافة.

حين انتهيتُ من تلبية نداء الطبيعة، عدتُ إلى خارج المعبد وأنا بحاجة إلى هواء نقي. وكان

هذا الامبراطور قد نزل عن البرج القديم وتقدم نحوي ممتطيًا جواده، وكاد هذا الأمر يكلّفه حياته. ذلك أن الجواد، رغم تدريبه الجيد، لم يرَ قط مشهدًا مثلي، إذ بَدَوْتُ له وكأنني جبل يتحرك أمامه، فنَفَر ووقف على رجليه الخلفيتين. لكن الأمير كان فارسًا متمرسًا. وظل ثابتًا على ظهر جواده حتى أسرع نحوه أتباعه، وأمسكوا بعنان الجواد حتى تيسر لجلالته أن يترجل. وحين تم له ذلك، راح يدور حولي ويتفحصني بعينين ملؤهما الدهشة والإعجاب، لكنه ظل أبعد من أن تطوله يداي. ثم أمر الطباخين والسقائين أن يقدموا لي ما كانوا أعدوه من طعام وشراب، فراحوا يدفعونه نحوي في أوعية على عجلات حتى تصل إليّ. وتناولتُ كل تلك الأوعية، وفي وقت قصير أفرغتُ محتوياتها في جوفي. عشرون منها كانت مملوءة لحمًا وعشرة مملوءة شرابًا. أما آنية الطعام فكان في الواحد منها يكفي للقمتين أو ثلاثًا. أما قوارير الشراب العَشْر الفخارية فقد صببتُ كل ما فيها في وعاء واحد وشربتُه جرعة واحدة. وكانت الامبراطورة، وبرفقتها صغار الأمراء والأميرات من الأسرة الملكية وبعض السيدات، تجلس مع حاشيتها على الكراسي وعلى مسافة أبعد. وحين أجفل جواد الأمير وحصل بعض الهرج، نزلَتْ هي وحاشيتها عن الكراسي واقتربوا جميعًا من شخص الامبراطور الذي سأصفه فيما يلي. كان أطول من أي شخص في حاشيته بقدر عَرْض إظفري[٢]، وهذا وحده كان كافيًا لزيادة هيبته لدى من يشاهده. كذلك كان في ملامحه قوة ورجولة[٣]، فشَفَتُهُ نمساوية،[٤] وأنفه مقوس، وبشرته زيتونية، ومشيته منتصبة يقظة، وجسده وأعضاؤه متناسقة. وكان في حركاته خفة ورشاقة وفي سلوكه هيبة وجلال. كان حينذاك قد تجاوز مرحلة الشباب[٥] إذ كان عمره ثماني وعشرين سنة وثلاثة أرباع السنة، وكان قد جلس على العرش منذ سبع سنوات[٦]، كانت عامرة بالسعادة وزاخرة عمومًا بالانتصارات. ولكي أراه بشكل أفضل، تمددتُ على جانبي بحيثُ صار وجهي موازيًا لوجهه الذي كان يبعد عني ثلاث ياردات. وبعد تلك المقابلة أتيح لي أن أضعه على راحة يدي عدة مرات، ولهذا لا يمكن أن أنخدع عن حقيقة أوصافه، كانت ثيابه عادية وبسيطة جدًا، ونَمَطُها بين الآسيوي والأوروبي. ولكن كان على رأسه خوذة خفيفة من الذهب، مزينة بالجواهر، وفي أعلاها ريشة. كان قد أبقى سيفه مسلولًا في يده ليدافع به عن نفسه لو حاولتُ أن أحطم قيودي، وكان طول نصل سيفه ثلاث بوصات تقريبًا. أما مقبضه وغمده فكانا من الذهب المرصع بالألماس. وكان صوته رفيعًا لكنه واضح وفصيح[٧]، وكان بوسعي أن أسمعه بوضوح وأنا واقف. أما السيدات وأفراد الحاشية فكانوا يرتدون ملابس غاية في الفخامة، بحيث أن المكان الذي كانوا يقفون عليه بدا وكأنه ثوب نسائي مفرود على الأرض، ومزين بأشكال عديدة مطرزة بخيوط من ذهب وفضة. وقد خاطبني جلالته مرات عديدة ورددتُ عليه مرات مماثلة، لكن لم يفهم واحدنا كلمة مما قال الآخر. وكان حوله الكثيرون من الرهبان ورجال للقانون كما خَمَّنْتُ من ملابسهم. وقد أمرهم أن يخاطبوني، كما أني رددتُ عليهم بكل اللغات التي أعرفها جيدًا أو بعض المعرفة، ومنها

اللغات الألمانية والهولندية واللاتينية والفرنسية والأسبانية والإيطالية، وبخليط منها[٨]، ولكن دون جدوى، وبعد حوالي ساعتين انسحب الامبراطور وحاشيته وبقيَتْ معي فرقة قوية من الحراس لكي تمنع عني وقاحة الرعاع وربما حقدهم[٩]، فقد كان هؤلاء يتزاحمون حولي ويغريهم جهلهم بالاقتراب مني. وقد بلغتِ الجهالة ببعضهم حدًا جعلَتْهم يطلقون سهامهم عليّ وأنا جالس على الأرض عند باب مسكني، وكاد أحد سهامهم يصيب عيني اليسرى. لكن قائد الحرس أمر بالقبض على ستة من مثيري الشغب. ورأى أنَّ أنْسَبَ عقاب لهم هو تسليمهم إليَّ مقيدين. وقد نَفَّذ الجنود أمره وراحوا يدفعون هؤلاء الستة بأعقاب رماحهم حتى أصبحوا في متناول يدي. وأمسكْتُهم جميعًا بيدي اليمنى ووضعتُ خمسة منهم في جيب معطفي، أما السادس فقد تظاهرتُ بأني سآكُلُهُ حيًا. وقد راح المسكين يزعق رعبًا وهلعًا، أما القائد وضباطه فقد بدا عليهم ألم شديد، وخصوصًا عندما رأوني أُخْرِجُ سكيني. لكنّي سرعان ما هَدَّأْتُ رَوْعَهم إذ نظرتُ إليه بعطف، وفي الحال قَطَعْتُ الحبال التي كان مقيدًا بها ووضعتُه برفق على الأرض فراح يعدو مبتعدًا. وعاملتُ الخمسة الآخرين بالأسلوب نفسه بعدما أخرجتُهم من جيبي واحدًا تِلْو الآخر. وقد لاحظتُ على وجوه الناس والجنود علامات السرور والامتنان لما شاهدوه من صفحي ورحمتي، وقد نُقِلَتْ أخبار هذه الحادثة إلى القصر حيث أعطَتْ عني انطباعًا جيدًا نَفَعَني كثيرًا.

وعندما اقترب الليل دخلتُ بصعوبة إلى مسكني حيث نِمْتُ على الأرض وبقيتُ أفعل ذلك طيلة حوالي أسبوعين. وفي هذه الأثناء أصدر الامبراطور أوامر بصنع فراشٍ لي. أحضروا ستمائة مرتبة من مراتبهم العادية داخل عربات إلى مسكني، وحوَّلوها إلى فرشة لي مكونة من أربع طبقات، في كل طبقة مائة وخمسون مرتبة خيطت معًا عرضًا وطولاً. وكانت هذه الفرشة لا تكاد تفي بالغرض، لكنها حَمَتْني من صلابة البلاط الذي كان مكونًا من حجارة ملساء. كذلك أَعَدّوا لي، وبالتقديرات نفسها، ملايات وشراشف وأغطية لا بأس بها بالنسبة لإنسان مثلي متعود على مشاق الحياة منذ أمد طويل.

وحين ذاعت أخبار وصولي في أرجاء المملكة، توافدت أعداد هائلة من الناس لرؤيتي. جاء الأغنياء والفقراء جميعًا مدفوعين بحب الاستطلاع، مما كاد يُفْرِغُ القرى من أهلها ويؤدي إلى إهمال الناس لفلاحتهم وزراعتهم وأعمالهم المنزلية. لكن جلالة الامبراطور اتخذ احتياطات عديدة، فأصدر مجموعة من الإعلانات والقرارات والمراسيم التي تحول دون وقوع هذه النتائج المؤسفة. وقد أصدر أمرًا بوجوب عودة من رَأَوْني إلى منازلهم وبلدانهم، وأَمَرَ أن لا يقترب أحد إلى مسافة خمسين ياردة من مسكني إلا بعد الحصول على رخصة بذلك من القصر، وبهذا تمكن الوزراء من جباية رسوم كبيرة.

في هذه الأثناء عقد الامبراطور جلسات متعددة لمناقشة أفضل السبل للتعامل معي. وقد أكَّد

لي أحد الأصدقاء فيما بعد، وكان هذا الصديق شخصية هامة جدًا وعلى اطلاع على أسرار الدولة، أن رجال القصر توقعوا صعوبات عديدة تتعلق بي، فقد كانوا يخشون أن أحاول تحطيم قيودي والفوز بحريتي، أو أن تكلفهم إعالتي غاليًا وتسبب مجاعة في البلاد. وفي بعض الأحيان قرروا أن يجوعوني حتى الموت، أو على الأقل أن يطلقوا على وجهي ويديّ سهامًا مسمومة تقتلني على الفور. ولكنهم عادوا ودرسوا الأمر وخشوا أن تؤدي الروائح الكريهة التي ستنبعث من جيفتي الضخمة إلى ظهور طاعون في العاصمة قد ينتشر في جميع أنحاء المملكة. وفي وسط هذه المشاورات والمداولات، وصل عدد من الضباط إلى باب قاعة المجلس الكبرى، وسُمِحَ لاثنين منهم بالدخول، فقدما تقريرًا بسلوكي مع المجرمين الستة كما وَصَفْتُه أعلاه مما ترك في صدر الملك وصدور جميع أعضاء مجلسه انطباعًا جيدًا في صالحي، ودفعهم إلى إصدار أمر أمبراطوري يفرض على جميع القرى الواقعة على مسافة تسعمائة ياردة حول العاصمة، أن تقدم كل صباح ستة من الثيران وأربعين من الغنم ومواد غذائية أخرى لطعامي(١٠)، مع كميات مناسبة من الخبز والنبيذ والمشروبات الأخرى، على أن تتقاضى مقابل ذلك سندات يصدرها جلالته وتُدْفَع من خزينته. ذلك أن هذا الحاكم كان يعيش بصورة رئيسية على غَلّة أملاكه، ولم يكن يفرض ضرائب على رعاياه إلا في المناسبات الهامة الخطيرة، وكان على رعاياه أن يَنْضَوُوا تحت لوائه أثناء حروبه على نفقتهم الخاصة. كذلك أُنْشِئَتْ مؤسسة تضم ستمائة شخص لتقوم على خدمتي، على أن يدفع مجلس الامبراطور نفقات إعالتهم وبناء خيام مناسبة لهم عند جانِبَيْ باب مسكني. كذلك صدر أمر يقضي بقيام ثلاثمائة من الخياطين بصنع ملابس لي على طريقة بلادهم، وصدر أمر آخر باستخدام ستة من أعظم علمائهم ليقوموا بتعليمي لغتهم، وأُمِرَ غيره بضرورة تمرين خيول الامبراطور والنبلاء وفرق الحراس أمامي لكي أُصْبِحَ شيئًا مألوفًا لدى تلك الخيول. وقد جرى تنفيذ كل هذه الأوامر في حينها. وبعد ثلاثة أسابيع أحرزتُ تقدمًا عظيمًا في تعلّم لغتهم. وفي هذه الأثناء شرَّفني الملك بزيارات عديدة وتكرَّم بمساعدة العلماء في تعليمي، وصار بإمكاننا أن نتبادل الحديث معًا. كانت أول كلمات تعلمتُها هي التعبير عن رغبتي في أن يتكرم عليَّ بمنحي حريتي، ورحتُ كل يوم أكرر هذه الكلمات وأنا جاثٍ على ركبتيّ. وكان جوابه، كما استطعت أن أفهمه، هو أن هذا أمر لا يتم إلا بمرور الأيام، وأنه لا يمكنه البتّ فيه دون الرجوع إلى أعضاء مجلسه، وأن عليَّ أولًا أن أُقْسِم أن أكون في سلام معه ومع مملكته. لكنه طمأنني أنني سأُعامَل بكل عطف، ونصحني أن أتحلّى بالصبر والسلوك الحكيم لكي أنال الرضا وأفوز بحسن الظن منه ومن رعاياه. ورغب إليَّ أن لا أحمل الأمر على محمل السوء إذا أصدر أمرًا لبعض الموظفين من ذوي الاختصاص بتفتيشي، لأنني ربما أحمل معي بعض الأسلحة التي لا بد أن تكون خطيرة إذا كان حجمها يتناسب مع حجمي الهائل. فأجبتُ أنه يمكن لجلالته أن يطمئن، لأنني على استعداد لخلع ملابسي وقَلْبِ جيوبي أمامه. وكان جزء من جوابي بالكلمات والجزء الآخر بالإشارات. ورَدَّ أنه

طِبقًا لقوانين المملكة، فلا بد أن يقوم بتفتيشي اثنان من موظفيه، وأنه يعرف أن هذا التفتيش لن يتم إلا بموافقتي ومساعدتي، وأنه يُحْسِن الظن كثيرًا بكرمي وحبي للعدالة بحيث أنه سيأتمنني على هذين الموظفَيْن وهو مطمئن أنني لن أُسَبِّبَ لهما مكروهًا. وأكّد لي أن كل ما يأخذانه مني سيُرَدّ إليّ حين أغادر البلاد أو يُدْفَع له الثمن الذي أقرره. بعد هذا حَمَلْتُ هذين الموظفَيْن بين يدي، ووضعتهما أولاً في جيوب معطفي، ثم في جميع جيوبي الأخرى ما عدا جيبين صغيرين في بِنطالي وجيبٍ سرّي آخر لم أكن أرغب أن يفتشاه، وكان في هذه الجيوب الصغيرة أشياء صغيرة ليست ضرورية أو ذات أهمية بالنسبة لأحد سوايَ. كان في أحد الجيبين الصغيرين ساعة فضية، وفي الآخر كمية قليلة من الذهب في كيس نقود. كان هذان الموظفان يحملان معهما ريشة وحبرًا وورقًا، وكتبا جَرْدًا بكل ما رأياه. وحين انتهيا طلبا مني أن أُنْزلهما إلى الأرض ليقدما الجَرْدَ إلى الأمبراطور. وقد ترجمتُ هذا الجَرْد فيما بعد إلى الانجليزية. والترجمة الحرفية هي ما يلي:

أولاً: في الجيب الأيمن لمعطف **الرجل ـ الجبل العظيم**، وبعد تفتيش دقيق وجدنا قطعة وحيدة ضخمة من القماش الخشن، وهي كبيرة جدًا بحيث تصلح أن تكون سجادة لقاعة الاجتماعات الرئيسية لجلالتكم. وفي الجيب الأيسر رأينا صندوقًا فضيًا ضخمًا، له غطاء من المعدن نفسه، وعجزنا نحن المفتشان عن فتحه، فطلبنا فتحه. وحينما خَطَا واحِدٌ منا إلى داخله وجد نفسه يغوص حتى منتصف ساقه في نوع من الغبار الذي تطاير جزء منه إلى وجوهنا وجَعَلنا نعطس معًا عدة مرات. في الجيب الأيمن من صدريته وَجَدنا رزمة كبيرة جدًا مصنوعة من مواد رقيقة بيضاء ومطوية عدة طيات فوق بعضها، وهي في حجم ثلاثة رجال، ومربوطة بحبل قوي وعليها أشكال سوداء هي في رأينا كتابات، كل حرف فيها يساوي في حجمه نصف راحة يدنا. وفي الجيب الأيسر كان هناك شيء كأنه آلة، تمتدّ من ظهره عشرون من الأعمدة الطويلة التي تشبه أعمدة السياج الذي أمام قصر جلالتكم، ونظن أن **الرجل ـ الجبل** يمشط بهذه الآلة شعره. فنحن لم نزعجه دائمًا بأسئلتنا إذْ وجدنا أنه من الصعب جدًّا أن يفهمنا. في الجيب الكبير على الجانب الأيمن من ثوبه (هكذا أترجم كلمة **برانفو ـ لو**، ويقصدون بها بِنطالي) وجدنا عمودًا مجوفًا من الحديد، طوله بقدر طول الإنسان، مثبتًا على قطعة قوية من الخشب أكبر من العمود نفسه، وعلى أحد جانبي العمود كانت تبرز قطع ضخمة من الحديد ذات أشكال غريبة، ولسنا نعرف ما هي. في الجيب الأيسر وجدنا آلة أخرى من النوع نفسه. في الجيب الأصغر من اليمين كانت توجد قطع مدورة ومسطحة ذات أحجام مختلفة ومن معدن أبيض أو أحمر. وبعض القطع البيضاء التي تبدو أنها من الفضة كانت كبيرة وثقيلة بحيث كِدْنا نعجز أنا ورفيقي عن رَفْعِها. وفي الجيب الصغير الأيسر وجدنا عمودين لهما شكل غير منتظم، ولم نستطع الوصول إلى قمتهما إلا بصعوبة لأننا كنا في أسفل الجيب. أحد هذين العمودين كان مغطى وكان يبدو قطعة واحدة، ولكن ظهر على الطّرف العلوي للعمود الآخر مادة

مدورة بيضاء تساوي ضعف حجم رأسينا. وكان يوجد داخل كل من هذين العمودين صفيحة ضخمة من الفولاذ، أمرناه أن يريها لنا لأننا خشينا أن تكون آلات خطيرة. وقد أخرجها من علبتها وأخبرنا أنه في بلاده يَحْلِق ذقنه بالأول ويقطع اللحم بالثاني. وهناك جيبان لم نستطع دخولهما وهو يسميهما جيبيه الصغيرين، وهما عبارة عن شقين طويلين كبيرين في قمة ثوبه الأوسط، ولكنهما محكما الإغلاق بسبب ضغط كرشه عليهما. من الجيب الصغير الأيمن تتدلى سلسلة فضية في نهايتها آلة عجيبة. طلبنا منه أن يسحب ما هو معلق في نهاية السلسلة، وتبين أنه كرة نصفها من فضة ونصفها من معدن شفاف، ومن الجهة الشفافة رأينا بعض الأشكال الغريبة مرسومة بشكل دائري، وخُيِّل لنا أننا نستطيع أن نلمس تلك الأشكال، لكن وجدنا أصابعنا تصطدم بتلك المادة الشفافة وتتوقف عندها. وقد وضع تلك الآلة على آذاننا وكانت تُصْدر ضجيجًا متواصلاً شبيهًا بصوت طاحونة الماء، ونظن أنها ربما تكون حيوانًا ما غير معروف لدينا أو أنها الإله الذي يعبده. لكننا نميل إلى الأخذ بالرأي الأخير لأنه أكّد لنا (إن صَحَّ فهمنا له، فقد شرح الأمر بشكل غير دقيق) أنه قلما يقوم بعمل ما دون استشارتها. وقد سماها مَصْدَر وَحْيٍ له وقال إنها تحدّد الوقت لكل عمل في حياته. من الجيب الصغير الآخر أخرجنا شبكة كبيرة، لدرجة تجعلها تصلح لصياد سَمَك، ولكنها مصنوعة بطريقة تجعلها تُفْتَح وتُغْلَق مثل كيس النقود، وهو يستعملها للغاية نفسها، فقد وجدنا فيها عدة قطع ثقيلة من معدن أصفر، وإذا كانت حقًا من الذهب، فإنها لا بد أن تكون ذات قيمة كبيرة جدًا.

بعد أن قُمْنا، تنفيذًا لأوامر جلالتكم، بتفتيش كل جيوبه، لاحظنا حول وسطه حزامًا مصنوعًا من جلد حيوان ضخم. وقد تدلّى من الجانب الأيسر لهذا الحزام سيف بطول خمسة من رجالنا، ومن الجانب الأيمن كيس مقسوم إلى قسمين كل قسم يتسع لثلاثة من رعايا جلالتكم، في أحدهما عدة كرات أو كريات من معدن ثقيل جدًا، حجم الواحدة مثل حجم رأسنا، ويتطلب رفعها يدًا قوية، أما القسم الآخر فكان فيه كومة من الحبات السوداء ليست بالكبيرة أو الثقيلة، لأننا استطعنا أن نحمل في راحات أيدينا أكثر من خمسين حَبّة مِنْها.

هذا جَرْدٌ دقيق بما وجدناه حول جسم الرجل ـ الجبل الذي عامَلَنا بأدب عظيم وبالاحترام اللائق بمندوبي جلالتكم، وعليه توقيعنا وختمنا في اليوم الرابع من الشهر القمري التاسع والثمانين من عهد جلالتكم الميمون.

كْليفْرِنْ فْرِيلُوكْ ومارْسي فْرِيلُوكْ[١١]

وحين قُرِأَ هذا الجَرْدُ على الامبراطور أمرني بتسليم كل ما ورد فيه من مفردات. طلب أولًا سيفي الذي أخرجته له، بغِمْده وكل شيء خاص به. وفي هذه الأثناء أمر ثلاثة آلاف من أحسن

قواته التي كانت ترافقه بالإحاطة بي من بعيد، وأن يجعلوا أقواسهم وسهامهم معدّة للاطلاق. لكني لم ألاحظ ذلك لأن عينيّ كانتا مركزتين على جلالته. بعد ذلك طلب مني أن أستل سيفي الذي كان قد أصابه بعض الصَّدأ من ماء البحر، لكنه رغم ذلك كان في معظم أجزائه شديد اللمعان. وحين نفَّذْتُ أمره صدرَتْ في الحال عن جميع الجنود صيحة اختلطت فيها الرهبة بالدهشة، فقد كانت الشمس ساطعة وانعكاس ضوئها على نصل السيف، وأنا أُلَوّح به بيدي يمينًا ويسارًا، بَهَر عيونهم. أما جلالته الذي كان في غاية الشهامة ورحابة الصدر، فلم يُرَوّعه الأمر كما توقعتُ. وقد أمرني أن أعيد السيف إلى غمده، ثم أن أرميه على الأرض على بعد ستة أقدام من نهاية قيودي وبكل ما أستطيع من رفق. الشيء الثاني الذي طلبه كان واحدًا من العمودين الحديديين المجوفين. يعني ذلك المسدس الذي أحمله في جيبي. أخرجتُ المسدس وشرحتُ له، بقدر ما أستطيع، كيفية استعماله، ثم حَشَوْتُه بمسحوق البارود فقط، الذي لم يكن قد ابتلّ بماء البحر بفضل متانة وسماكة الكيس الذي كان المسحوق فيه (وابتلال مسحوق البارود أمرٌ سيّء ينبغي على كل البحارة أن يحتاطوا لمنعه)، وبعد أن طلبتُ من الامبراطور أن لا يخاف ضغطتُ الزناد وأطلقتُ طلقة. وهنا كانت دهشتهم أكبر بكثير من دهشتهم لدى رؤية السيف، فقد سقط المئات على الأرض وكأنهم خَرُّوا صرعى، حتى الامبراطور الذي ثبت مكانه واقفًا على الأرض، لم يستطع أن يستردّ كامل وعيه إلا بعد لأيٍ. وقد سلّمتُ المسدسين بنفس الطريقة التي سلّمتُ بها السيف. ثم سلّمتُ كيس مسحوق البارود وكيس الرصاصات. ورجوتُ الامبراطور أن يحتفظ بكيس البارود بعيدًا عن النار، لأنه إن مَسَّتْهُ شرارة صغيرة سيشتعل وينسف القصر الامبراطوري ويفجّره في الجو. كذلك سلّمتُ ساعتي التي أبدى الامبراطور رغبة قوية في رؤيتها، وأمر اثنين من أطول فرسان حرسه بحملها على عمود فوق أكتافهما كما يفعل سائقو عربات الجَرّ في انجلترا حين يحملون برميلاً مليئًا بالجعة. وقد تعجب كثيرًا من الصوت الدائم الذي يصدرعَنْها، كما تعجَّب من حركة عقرب الدقائق التي استطاع أن يراها ويميزها بسهولة ـ ولا عجب في ذلك فإن بصرهم أقوى وأحَدّ من بصرنا بقدر كبير. وقد سأل رجال العلم لديه عن آرائهم في الساعة، فتعددتْ آراؤهم وابتعدتْ عن الصواب كما يمكن للقارئ أن يتوقع ذلك دون أن أذكرها له. وفي الحقيقة فأنا لم أستطع فهْمَ آرائهم فهمًا تامًا. ثم سلّمتُ نقودي الفضية والنحاسية، وكيس نقودي الذي كان فيه قطع ذهبية كبيرة وبعض القطع الصغيرة. كذلك سلّمتُ سِكّيني وموسى حلاقتي ومشطي وعلبة سعوطي، ومنديلي ودفتر مذكراتي، أما سيفي والمسدسان وكيس مسحوق البارود فقد نُقِلَتْ على عربات إلى مخازن الامبراطور، أما ما تبقى من أغراضي فقد أعيدت إليّ.

لكن كان لديّ، كما لاحظتُ من قبل، جيب خاص سرّيّ لم يصل إليه التفتيش، وكان في هذا الجيب زوج من النظارات (وهذه أستعملها أحيانًا بسبب ضعف بصري) ومنظار جيب صغير

الحجم، وأشياء أخرى من لوازمي. ولأن هذه الأشياء ليست ذات أهمية بالنسبة للامبراطور **فقد** رأيتُ أنني لستُ ملزمًا، بدافع الشرف والأمانة، أن أكشف عن وجودها. أضِفْ إلى ذلك أنني كنت أخشى عليها من التلف أو الضياع لو خرجَتْ من حوزتي.

الفصل الثالث

المؤلف يسلّي الامبراطور ونبلاءه من الجنسين بطريقة غير مألوفة. وصفٌ للألعاب والتسليات في قصر امبراطور ليليبوت. المؤلف ينال حريته على أساس بعض الشروط.

كانت رِقَّتي مع الناس وحُسْن سلوكي قد أكسباني رضا الملك ورجال حاشيته، وكذلك رضا رجال الجيش والناس عمومًا، مما شجعني أن أعقد الآمال بنَيْل حريتي بعد وقت قصير. وقد اتّبعتُ جميع السبل الممكنة لكسبهم إلى جانبي والفوز برضاهم عني. وبالتدريج أصبح أهل البلاد أقلّ خشية من أن ينالهم مني أذى. وكنتُ أحيانًا أنبطحُ على الأرض وأمكّن خمسة أو ستة منهم من الرقص فوق راحة يدي. وفي آخر الأمر صار الأولاد والبنات يجسرون على ممارسة لعبة الغُمَّيضة (الاستغماية) بين خصلات شعري. وكنتُ قد أحرزتُ تقدمًا ملموسًا في فَهْمِ لغتهم ونُطْقِها. وقد خطر للامبراطور ذات يوم أن يُفرّجني على عدد من الاستعراضات والألعاب التي يتفوقون فيها على جميع الشعوب التي أعرفها من حيث المهارة والروعة والفخامة. وكان أكثر ما أعجبني مهارة راقصي الحبال[1]، في الرقص على خيط دقيق أبيض، طوله قدمان تقريبًا، وارتفاعه عن الأرض اثنا عِشرة بوصة. وأرجو أن يكرمني القارئ بصبره ريثما أسهب في وصف لعبة الرقص على الحبال.

هذه اللعبة لا يمارسها إلا الأشخاص المرشحون لنيل الحظوة والفوز بمناصب عظيمة في القصر. وهم يُدَرَّبون على فنون هذه اللعبة منذ حداثتهم، وليسوا دائمًا من ذوي النسب الرفيع أو التعليم العالي. وحين يشغر منصب هام بسبب الوفاة أو التصرفات المشينة (وهذا يحدث كثيرًا) يقدّم خمسة أو ستة من أولئك المرشحين التماسًا للامبراطور بتسلية جلالته والحاشية برقصةٍ على الحبال، وأيهم ينجح في القيام بأعلى القفزات دون أن يقع يفوز بالمنصب الهام. وكثيرًا ما يُؤْمَر الوزراء الكبار بإظهار براعتهم لإقناع الملك أنهم لم يفقدوا لياقتهم وقدراتهم. ويُسْمَح للسيد فْليمنَابْ[2] وزير الخزانة بالقيام بقفزة على الحبل أعلى بمقدار بوصة عن القفزة التي يقوم بها أيّ لورد آخر في المملكة كلها. وقد رأيتُه يؤدي قفزة الشقلبة عدة مرات معًا فوق صفيحة خشبية مثبتة على الحبل الذي لم يكن أَسْمَكَ من خيط من خيوط القِنّب المستعملة لربط الرزم في انجلترا. أما صديقي رِيلْدْ

ريسالْ[٣] وزير الدولة والشؤون الخاصة فهو في رأيي، إن لم أكن متحيزًا، الثاني في المهارة والبراعة بعد وزير الخزانة. أما بقية الذين يشغلون المناصب الهامة، فإنهم متساوون إلى حد كبير في البراعة.

كثيرًا ما تؤدي هذه الألعاب إلى حوادث مميتة، وفي السجلات ذكر لعدد كبير منها. وقد رأيتُ بعيني اثنين أو ثلاثة من المرشحين ينكسر فيهم ساق أو ذراع. ويزداد الخطر كثيرًا عندما يُطْلب من الوزراء أنفسهم أن يُظْهروا براعتهم في الرقص، لأن هؤلاء إذْ تتملكهم الرغبة في التفوق على أنفسهم وعلى الآخرين، يبالغون في إجهاد أنفسهم ويصابون بالتوتر الشديد، وبالتالي ليس بينهم أحد إلا وأصيب بوقعة أو سقطة، ومنهم من وقع مرتين أو ثلاثًا. وقد أكد أحدهم لي أنه قبل وصولي بسنة أو اثنتين، وقع فليمناب وقعةً كادت تَدُقّ عنقه لولا وجود (حَشِيّة) أو وسادة من وسائد الملك[٤] كانت حينذاك بالصدفة على الأرض، فوقع عليها وخفّ أثر الوقعة عليه.

وهناك أيضًا لعبة أخرى لا يتفرج عليها أحد سوى الامبراطور والامبراطورة والوزير الأول في مناسبات خاصة. يضع الامبراطور على منضدة ثلاثة خيوط حريرية دقيقة، طول الواحد منها ست بوصات[٥]. أحدها أزرق والآخر أحمر والثالث أخضر. وتُعْتَبَر هذه الخيوط جوائز للأشخاص الذين يرى الامبراطور أن يُنْعِم عليهم بتقديره واهتمامه. ويتم الحفل في القاعة الكبرى بقصر جلالته حيث يخضع المرشحون لامتحان في البراعة مختلفٍ عن الامتحان السابق، وهو امتحان لم أرَ له مثيلًا في أي بلد آخر في العالم القديم أو الحديث. يحمل الامبراطور عصا في وضع أفقي، ويتقدم المرشحون واحدًا واحدًا، ويقفز كلٌّ منهم فوق العصا أو يزحف تحتها إلى الخلف وإلى الأمام عدة مرات، تبعًا لتقديم العصا أو تأخيرها أو لرفعها أو خفضها. أحيانًا يمسك الامبراطور بأحد طرفي العصا ويمسك وزيره الأول بالطرف الآخر. وأحيانًا يحمل الوزير العصا وحده. مَنْ يلعب دوره في هذه اللعبة بسرعة وخفة أكبر ولمدة أطول، يُكَافأ بالخيط الحريري الأزرق. أما الأحمر فيُعْطَى لِمَنْ يليه ويُعْطَى الأخضر للثالث. وفيما بعد يلبس كل منهم خيطه حول وسطه. ولن ترى سوى القليلين من كبار الشخصيات في هذا القصر لا يتزينون بواحد من هذه الأحزمة.

كانت خيول الجيش وخيول الاسطبلات الملكية تقاد يوميًا أمامي، فأَلِفَتْني ولم تَعُدْ تخشاني، بل كانت تتقدم حتى تصل إلى قدمي دون أن تجفل. وكان الفرسان يقفزون بها من فوق يدي وهي مبسوطة على الأرض. بل إن أحد صيادي الامبراطور قفز بحصان سريع من فوق قدمي وهي في الحذاء، وكانت تلك قفزة هائلة حقًا. وقد شاء لي حسن الحظ أن أسلي الامبراطور ذات يوم بأسلوب غير عادي وغير مألوف. رَجَوْتُه أن يأمر بإحضار مجموعة من العِصِيّ طول الواحدة منها قدمان، وثخنها مثل ثخن العكازة العادية. وعلى الفور أصدر أمره لمدير غاباته أن يصدر التعليمات اللازمة. وفي الصباح التالي وصل ستة من الحطابين في عدد مماثل من العربات، تَجُرّ كلَّ عربة منها

ثمانية جياد. تناولتُ تسعًا من هذه العِصِيّ[٦] وغَرزْتُها في الأرض على شكل مربع طول ضلعه قدمان ونصف القدم، ثم أخذتُ أربع عصي أخرى وربطتُها متوازية في كل زاوية على ارتفاع قدمين عن الأرض. ثم ربطتُ منديلي على العصي التسعة المثبتة عموديًا وشددتُه في كل ناحية حتى صار ثابتًا كأنه سطح طبل. واستخدمتُ العصي الأربعة المتوازية التي ترتفع عن سطح المنديل بخمس بوصات كحوافّ مستعرضة في كل جانب. وبعد أن انتهيتُ من عملي عرضتُ على الامبراطور أن يسمح لفرقة من أحسن فرسانه، تتكون من أربعة وعشرين منهم، أن يتمرنـوا مع جيـادهم فوق هـذه الساحة. وقد وافق جلالته على هذا العرض. فحملتُ الفرسان ومدرّبيهم، كل فارس على جواده وبكامل عدته، واحدًا واحدًا، ووضعتُهم فوق المنديـل. وحالما اكتمل عـددهم وانتظم جمعهم، انقسموا إلى فريقين، قاما بمعارك وهمية اشتملت على إطلاق سهام مثلمة، واستلال للسيوف، وفرار ومطاردة، وهجوم وانسحاب، وباختصار أظهروا أحسن نظام عسكري رأيته في حياتي. أما العصيّ المتوازية فقد كانت تحميهم وتحمي جيادهم من السقوط عن المسرح. وقد سُرَّ الامبراطور بهذه اللعبة أيما سرور فأمر بتكرارها عدة أيام. وقد سرّه ذات مرة أن يأمرني برفعه إلى المسرح ليعطي أوامر المعركة الوهمية بنفسه. بل إنه أقنع الامبراطورة، بعد جهد، أن تسمح لي بحملها وهي في كرسيها المغلق، على بعد ياردتين من المسرح، لكي تتمكن من مشاهدة اللعبة بكاملهـا. وكان من حسن طالعي أنه لم يحدث أي مكروه خلال هذه اللعبات. مرة واحدة فقط حدث أنّ حصانًا جامحًا لأحد الضباط راح يخبط بحافره، فأحدث مُزْقًا في المنديل، وانزلقَتْ قدمه فيه فوقع ووقع عنه راكبه، ولكني أسعفتهما في الحال. وبعد أن غطيتُ المُزْقَ بإحدى يديَّ أنزلْتُ الفرقة إلى الأرض باليد الأخرى. كان الحصان الذي وقع قد أصيب بالتواء في الكتف الأيسر، أما الراكب فلم يُصَبْ بأي أذى. وقد رَتَقْتُ المنديل بأحسن ما أستطيع، لكني لم أستطع بعد ذلك أن أطمئن إلى قوته ومتانته في مثل هذه اللعبة الخطيرة.

قبل إطلاق سراحي ومنحي حريتي بيومين أو ثلاثة، وبينما كنت أُسَلّي حاشية الامبراطور بهذه اللعبة الباهرة، وصل رسول ليبلغ جلالته أن بعض أبناء رعيته كانوا يمرون على جيادهم بالمكان الذي عُثِرَ عليَّ فيه أول مرة، فرأوا شيئًا ضخمًا أَسْوَد مُلْقى على الأرض، له شكل غريب، ويغطي مساحة تماثل مساحة غرفة نوم جلالته، وفي وسطه بروز يبلغ ارتفاعه قامة رجل منهم. لكنه ليس مخلوقًا حيًا كما كانوا يخشون، إذ كان يقبع على العشب دون حراك. وقد قام بعضهم بالدوران حوله عدة مرات، كما تسلق بعضهم على أكتاف البعض الآخر حتى وصلوا إلى قمة البروز في ذلك الشيء فوجدوها قمة مسطحة ومستوية. وحين داسوا على تلك القمة وجدوها مجوفة من الداخل. وهم يعتقدون أن هذا الشيء يخصّ الرجل ـ الجبل، وأنهم مستعدون، إذا سمح لهم جلالته، أن يُحْضِروا هذا الشيء تجره خمسة جياد. وقد أدركتُ على الفور ما يَعْنون وسُرِرْتُ كثيرًا بسماع هذا الخبر. إذ

يبدو أنني حين وصولي إلى الشاطئ بعد تَحطُّم سفينتنا، كنتُ في غاية الاضطراب. وقبل أن أصلَ للمكان الذي نِمْتُ فيه، كانت قبعتي التي كانت خلال تَجْديفي في البحر وخلال سباحتي مثبتة على رأسي بخيط، قد وَقَعتْ عنه بعد أن وصلتُ إلى البر. ويبدو أن الخيط كان قد انقطع دون أن ألاحظ ذلك، وكنت قد ظننتُ أن قبعتي قد ضاعت في البحر. وقد رجوتُ جلالته أن يُصْدِر الأوامر بإحضارها لي بأسرع ما يمكن، بعد أن وَصَفْتُها له وشرحتُ كيفية استعمالي لها. وفي اليوم التالي أحضرها سائقو العربات، لكنها لم تكن بحالة جيدة، إذ كانوا قد أحدثوا ثقبين في طرفها على بعد بوصة ونصف من حافتها، ووضعوا في كل ثقب خطافًا، وربطوا الخطافين بالعربات بواسطة حبل طويل، وبهذا جَرُّوا القبعة لمسافة نصف ميل انجليزي. لكن الأرض في تلك البلاد ملساء ومستوية فكان التَلَفُ الذي أصاب القبعة أقلّ مما توقعتُ.

بعد يومين من هذه الحادثة، أمر الامبراطور[٧] ذلك الجزء من جيشه الذي يقيم في العاصمة وحولها، أن يكون على أهبة الاستعداد. كان قد خَطَرَ له أنْ يتسلى بطريقة فريدة جدًا. فقد طلب مني أن أقف كالتمثال[٨] وساقاي منفرجتان بأقصى قدر ممكن، ثم أمر قائد الجيش (وكان جنرالًا عجوزًا واسع الخبرة وأحد المدافعين عني والمتحمسين لي) أن يصُفّ الفرق صفوفًا متراصة، وأن يأمرها بالسير بمشيةٍ عسكريةٍ بين ساقيّ. وكانت فِرَقُ المشاة تتكون من أربعة وعشرين جنديًا في الصف الواحد يمشون جنبًا إلى جنب، وفِرَق الفرسان من ستة عشر فارسًا فوق جيادهم. وسار الجميع على صوت الطبول، بأعلام مرفوعة ورماح مشرعة إلى الأمام. وكان مجموع الفِرَق ثلاثة آلاف من المشاة وألفًا من الفرسان. وقد أصدر جلالته أوامر مشددة، عقوبة من يخالفها الموت، بأن على كل جنديّ أن يلتزم الأدب والحشمة بالنسبة لشخصي. لكن هذا لم يمنع بعض الضباط الصغار السن، أن يلتفتوا إلى الأعلى وهم يمرون من تحتي. وفي الحقيقة كان بِنْطالي في ذلك الوقت في حالة رثة ممزقة، وقد أتاح ذلك بعض الفرص للجنود بأن يَرَوْا ما يضحكهم ويثير استغرابهم وتَعجُّبهم.

كنتُ قد أرسلتُ العديد من المذكرات والالتماسات أُطالب فيها بحريتي، حتى أن جلالته في آخر الأمر، ذكر الموضوع للوزراء أول الأمر ثم للمجلس بكامله. ولم يعارض أحد سوى **سْكَايْرِيشْ بُلْغُلام**[٩] الذي اختار دون أن أفعل ما يغيظه أو يثير حفيظته، أن يكون عدوي اللدود. وقد وافق جميع أعضاء المجلس رغم معارضته، وأيد الامبراطور موافقتهم. وكان **بُلْغُلام** وزير البحرية، ومَحلّ ثقةٍ كبيرة لدى الامبراطور، وشخصًا متمرسًا بالأمور. ومع ذلك كان ذا طبعٍ نَكِدٍ وبشرةٍ ذات لَوْنٍ بغيضٍ. لكنه اضطُرّ آخر الأمر أن يوافق، وأصرّ على أن يصوغ بنفسه المواد والبنود والشروط التي أنالُ حريتي بموجبها بعد أن أُقْسِم على الالتزام بها. وقد أشرف فعلًا على صياغتها بمساعدة اثنين من وكلاء الوزارات وعدد من الشخصيات الهامة. وبعد أن قُرِئَتْ هذه المواد عليّ، طُلِبَ مني أن أُقْسِم على العمل بها، أولًا بالطريقة المتبعة لأداء القسم في بلادي، وبعد ذلك بالطريقة التي تَنُصّ عليها

قوانينهم، وهي أن أُمْسِكَ قدمي اليمنى بيدي اليسرى وأن أضع الاصبع الوسطى من يدي اليمنى على قمة رأسي والإبهام فيها على أعلى أذني اليمنى. ولكن لأنّ القارئ قد يُحب أَخْـذَ فكرة عن الأسلوب وطريقة التعبير الخاصّين بأولئك القوم، والاطلاع على المواد التي استعدْتُ بموجبها حريتي، فقد أعددتُ ترجمة لتلك الوثيقة بكاملها. وهي ترجمة حرفية قريبة من الأصل قدر الإمكان. وها أنذا أقدمها هنا لجمهور القراء.

نحن جولياسْتو ممومارِنْ إِڤْلامي جورديلو شيفِنْ مولّلي أولّلي جو، أعظم أباطرة **ليليبوت** بأسًا، ومصدر السرور والرعب في الكون، والذي تمتدّ أملاكه خمسة آلاف بْلوسْتْروجْ (مساحة يبلغ محيطها اثني عشر ميلًا) إلى أقصى أطراف الأرض، ومَلِك الملوك وأطول أبناء البشر، والذي تطأ قدماه مركز الأرض وينطح رأسه قرص الشمس، والذي يرجف لإشارةٍ منه ملوك الأرض، المحبوب كالربيع، المريح كالصيف، المثمر كالخريف، المرهوب كالشتاء، والذي يسمو جلالُه على كل جلال، نعرضُ على **الرجل ـ الجبل** الذي وصل بلادنا مؤخرًا المواد التالية، التي عليه أن يُقْسِم بأغلظ الأيمان على العمل بها وهي:

المادة الأولى: يجب على **الرجل ـ الجبل** أن لا يغادر أملاكنا دون رخصةٍ منّا ممهورةٍ بخاتمنا العظيم.

المادة الثانية: يجب عليه أن لا يتجرأ على دخول عاصمتنا دون أمرٍ صريحٍ منّا، وحينذاك يجب إعطاء السكان إنذارًا قبل ساعتين من قدومه لكي يَبْقَوا داخل بيوتهم.

المادة الثالثة: يجب على **الرجل ـ الجبل** أن لا يمشي إلا في شوارعنا وطرقنا الرئيسية، ولا يحق له أن يسير أو يستلقي في مرجٍ أو مرعى أو حقلٍ مزروع بالذرة.

المادة الرابعة: حينما يسير في الشوارع والطرق المذكورة أعلاه، يجب عليه أن يحتاط أشد الحيطة كيلا يدوس على أجساد أيّ من رعايانا المحبوبين، أو خيولهم أو عرباتهم، كما لا يجوز له أن يحمل في يديه أيًا من رعايانا المذكورين أعلاه دون موافقتهم.

المادة الخامسة: إذا احتاج أحَدُ رُسلنا للقيام برحلة عاجلة ومُلِحّة جدًا، فإن **الرجل ـ الجبل** ملزم أن يحمل في جيبه الرسول والجواد في رحلة تستغرق ستة أيام مرة كل شهر قمري، وأن يعيد ذلك الرسول (إذا اقتضى الأمر ذلك) سالمًا حتى يَمْثُل أمام جلالتنا.

المادة السادسة: يجب أن يكون حليفنا ضد أعدائنا في جزيرة **بليفسكو**(١٠) وأن يبذل قصارى جهده لتحطيم أسطولهم الذي يستعدّ الآن لِغَزْوِنا.

المادة السابعة: يجب على **الرجل ـ الجبل** المذكور أن يقوم في وقت فراغه بمساعدة عمالنا وبذل

العون لهم، فيساعدهم في رفع بعض الحجارة الضخمة المستعملة في بناء أسوار منتزهنا الرئيسي وأسوار أبنيتنا الملكية الأخرى.

المادة الثامنة: يجب على الرجل ـ الجبل المذكور أن يقوم خلال شهرين قمريين بمسح دقيق ومضبوط لمحيط البلاد التابعة لنا، محسوبًا بعدد خطواته هو حول سواحلنا.

المادة الأخيرة: وعندما يقسم بأغلظ الأيمان على الالتزام بالمواد المذكورة أعلاه، يكون من حق الرجل ـ الجبل المذكور علينا أن ينال يوميًا ما يكفيه من الطعام والشراب، وهو ما يكفي ١٧٢٨ من رعايانا، وأن يكون له حق الاتصال دون عائق بشخصنا الملكي، وميزات أخرى تمثل حظوته لدينا. وقد منحنا هذه الوثيقة في قصرنا في (بِلْفابوراك) في اليوم الثاني عشر من القمر الحادي والتسعين من عهدنا.

وقد وافقتُ على هذه المواد وأقسمتُ على الالتزام بها بانشراح ورضا كبيرين، مع أن بعضها لم تكن شروطًا كريمة ومنصفة كما تمنيتُها أن تكون، وهي الشروط التي أملاها بشكل كلي حِقْدُ **سكايريش بُلْغُلام** قائد البحرية. وعلى أثر أداء القسم فُكَّتْ قيودي في الحال ونِلْتُ كامل حريتي. وقد شرفني الامبراطور بحضوره شخصيًا ووقوفه بجانبي أثناء الاحتفال كله. وقد أعربتُ له عن امتناني واعترافي بفضله بالسجود عند قدمَيْ جلالته، ولكنه أمرني أن أنهض، وبعد أن أكرمني بالكثير من عبارت الاطراء الرقيقة التي لن أعيد ذكرها خشية أن أُتَّهَم بالغرور، أضاف أنه يأمل أن أثبت بأنني خادم نافع أستحق كل الأفضال التي أنْعَمَ بها عليّ وتلك التي سينعم عليَّ بها في المستقبل.

وأرجو القارئ أن يلاحظ أنه في المادة الأخيرة من الشروط التي استعَدْتُ حريتي بموجبها يقرر الامبراطور أن يزودني بكمية من الطعام والشراب تكفي لإعالة ١٧٢٨ من أبناء **ليليبوت**. وبعد بعض الوقت سألتُ صديقًا لي من رجال الحاشية عن كيفية تَوصُّلهم إلى ذلك الرقم المحدد. فأخبرني بأن علماء الرياضة لدى الملك قاسوا ارتفاع جسمي بآلة الربعية (وهي آلة لقياس الارتفاعات)، ووجدوا أنه يزيد على ارتفاع قامات أهل ليليبوت بنسبة ١٢ إلى ١، واستنتجوا من التشابه بين جسمي وأجسامهم أن جسمي يساوي ١٧٢٨ ضعفًا من أجسامهم، وأنه بالتالي يحتاج من الطعام ما يكفي لإطعام ذلك العدد من أهل **ليليبوت**. ومن هذا المثال يمكن للقارئ أن يكوّن فكرة عن براعة أولئك الناس، وعن السياسة الاقتصادية الحكيمة والدقيقة لذلك الأمير العظيم.

الفصل الرابع

وصف لمدينة ميلْديندو[1] عاصمة ليليبوت، مع وصف لقصر الامبراطور. حديث بين المؤلف وأحد وكلاء الوزارات الرئيسيين عن شؤون تلك الامبراطورية وأحوالها. المؤلف يعرض خدماته لمساعدة الامبراطور في حروبه.

كان أول طلب لي بعد حصولي على حريتي، هو أن يُسْمَحَ لي برؤية ميلْديندو العاصمة. وقد سمح لي الامبراطور بذلك بعد أن ألزمني بأن أتعهد ألاّ أسبّب أي أذى للسكان أو لبيوتهم. وتم إبلاغ الناس بالإعلانات عن موعد زيارتي للمدينة. يبلغ ارتفاع السور المحيط بالمدينة قدمان ونصف وعرضه إحدى عشرة بوصة على الأقل. ويمكن أن تساق عربة تجرها جياد حول السور بأمان. ويوجد على جوانب السور أبراج محصنة، يبعد أحدها عن الآخر عشرة أقدم. وقد خطوتُ فوق البوابة الغربية الكبيرة وسِرْتُ مواربة وبرفقٍ شديد في الشارعين الرئيسيين، وكنتُ ألبس صدريتي دون معطفي، خشية أن تحتك أطراف المعطف بسقوف البيوت وحوافّها البارزة فتتلفها. وكنتُ أمشي باحتراسٍ شديد كيلا أدوس أحدًا من المتسكعين الذين ربما يبقون في الشارع، مع أن الأوامر كانت حازمة وصارمة بأن يَبقى الناس داخل بيوتهم، وألا يعرضوا أنفسهم للخطر. كانت أسطحة البيوت ونوافذ الحجرات العليا فيها مكتظة جدًا بالمتفرجين، حتى ظَنَنْتُ أنني لم أشاهد في كل رحلاتي مكانًا أكثر اكتظاظًا بالسكان. المدينة مربعة الشكل تمامًا وطول السور في كل جانب يبلغ خمسمائة قدم، أما الشارعان الرئيسيان اللذان يتقاطعان، فيقسمان المدينة إلى أربعة أرباع، فيبلغ عرض الواحد منها خمسة أقدام. أما الشوارع الجانبية والأزِقّة التي لم أستطع الدخول فيها، ولكني شاهدتُها وأنا أمُرّ بها، فَعَرْضُها يتراوح بين اثنتي عشرة وثماني عشرة بوصة. وتتسع المدينة لخمسمائة ألف نسمة[2]، والبيوت تتألف من ثلاثة إلى خمسة طوابق. أمّا الأسواق والمحلات التجارية فهي مزودة بالبضائع بشكل جيد.

ويقع قصر الامبراطور في وسط المدينة حيث يتقاطع الشارعان الكبيران. يحيط بالقصر سور، ارتفاعه قدمان، ويبعد عن المباني عشرين قدمًا. كنتُ قد حصلتُ على إذنٍ من الامبراطور بتَخَطّي هذا السور. وبما أن المسافة بين السور ومباني القصر واسعة، فقد استطعتُ بسهولة أن أرى القصر من كل جوانبه. القصر الخارجي مربع، طول ضلعه أربعون قدمًا، ويحتوي على قصرين آخرين، في الخلفي منهما توجد الأجنحة الملكية، وكانت لديّ رغبة شديدة في رؤيتها. لكن ذلك كان صعبًا

جدًا، لأنّ ارتفاع البوابات الكبيرة التي تُفْضي من مربع إلى آخر، لم يكن يزيد عن ثماني عشرة بوصة، وعرضها سبع بوصات. أما مباني القصر الخارجي، فكان ارتفاعها لا يقل عن خمسة أقدام، وكان من المستحيل عليّ أن أخطو من فوقها دون أن أُحْدثَ في دعائمها تلفًا بالغًا، مع أن الجدران كانت مبنية بناء متينًا بحجارة منقوشة يبلغ سمكها أربع بوصات. في الوقت نفسه كان الامبراطور تواقًا جدًّا لأن أرى روعة قصره وفخامته. ولكني لم أتمكن من فعل ذلك إلّا بعد أيام ثلاثة قضيتُها في قَطْعِ عددٍ من أعلى الأشجار بسكّيني، من غابة الملك التي تبعد مائة ياردة عن المدينة. وقد صنعتُ من هذه الأشجار كرسيين، ارتفاع الواحد منهما ثلاثة أقدام، وكل منهما قويّ بما يكفي لتحمُّل وزني. وبعد أن تم إبلاغ الناس مرة ثانية، دخلتُ المدينة من جديد، وسرتُ فيها إلى القصر وأنا أحمل الكرسيين في يدي. وحين وصلتُ إلى جانب القصر الخارجي، وقفتُ على أحد الكرسيين، وحملتُ الثاني في يدي، ورفعتُه من فوق السطح، ثم وضعتُه برفق في الساحة التي بين القصر الأول والثاني، وعرضها ثمانية أقدام. ثم خطوتُ فوق المباني ويُسْر حتى وقفتُ فوق الكرسي الثاني، وجررتُ الكرسي الأول خلفي بواسطة عصا معقوفة. وبهذا التدبير وصلتُ إلى القصر الخلفي، واضطجعتُ على جانبي، ووجَّهْتُ وجهي نحو نوافذ الطوابق الوسطى التي كانت قد تُرِكَتْ مفتوحة عمدًا، فاكتشفتُ داخلها أروع أجنحة تخطر على البال. رأيتُ هناك الامبراطور والأمراء الصغار في حجراتهم المتعددة، كما رأيت حولهم المرافقين من خَدَم وحَشَم. أما الامبراطورة فقد أكرمَتْني بابتسامة لطيفة[٣]، وأخرجَتْ لي من النافذة يدها لكي أُقَبّلها.

لن أثقلَ على القارئ بأوصاف أخرى من هذا النوع، وأحتفظ بها لكتاب آخر يكاد يكون الآن جاهزًا للطباعة، وهو يحوي وصفًا عامًا لهذه الامبراطورية، منذ إنشائها أول مرة، ومرورًا بسلسلة من الأمراء، ووصفًا خاصًا لحروبهم وسياساتهم، وقوانينهم، وعلومهم، وديانتهم، ونباتاتهم وحيواناتهم، وعاداتهم وآداب السلوك لديهم، وقضايا أخرى غريبة ومفيدة، غرضي الرئيسي في الوقت الحاضر هو أن أروي فقط تلك الأحداث والأمور التي جَرَتْ لي أو لجمهور الأقزام خلال إقامتي التي امتدتْ حوالي تسعة شهور في تلك الامبراطورية.

ذات صباح، بعد أسبوعين من نَيْلي حريتي، جاء ريلْدْريسالْ، وزير الدولة (كما يسمونه)، أو وزير الشؤون الخاصة، إلى مسكني، لا يرافقه سوى خادم واحد. وقد أمر أن تنتظره عربته على مسافة بعيدة، وطلبَ مني أن أمنحه ساعة من وقتي، فلبيتُ طلبه بسرور، بسبب مكانته الاجتماعية ومزاياه الشخصية والخدمات العديدة الجليلة التي قدمها لي في القصر أثناء مطالبتي بحريتي. عرضتُ عليه أن أستلقيَ على الأرض لكي يتمكن دون مشقة من إسماعي صوته، لكنه فضّل أن أحمله في يدي خلال حديثنا. وقد بدأ الحديث بتهنئتي بالفوز بحريتي، وقال إنه يمكن أن يزعم لنفسه بعض الفضل في ذلك، لكنه أضاف أنه لو لم تكن الأمور في القصر على ما هي عليه في الوقت الحاضر، لما

حصلتُ على حريتي بمثل هذه السرعة، وقال: رغم أن حياتنا تبدو مزدهرة في عيون الغرباء، فإننا مُبْتَلَوْن بشَرَّيْن عظيمين هما خطر الانقسام في الداخل وخطر الغزو الذي يتهددنا من عدوّ قوي في الخارج. وبالنسبة للشرّ الأول، اعْلَمْ أنه منذ أكثر من سبعين قمرًا[٤] يوجد في هذه الإمبراطورية حزبان متصارعان يحملان اسْمَيْ **ترامِكسان وسْلامِكْسان**[٥]، طبقًا لطول أو قِصَرِ الكُعوب في أحذيتهم، وهو ما يميز أحدهما من الآخر.

هناك من يزعمون أن حزب ذوي الكعوب العالية أكثر اتفاقًا مع دستورنا القديم. لكن أيًا كان الأمر فقد قرَّر جلالته أن يستخدم ذوي الكعوب القصيرة[٦] فقط في إدارة الحكومة وكلّ الوظائف التي هي تحت تصرف التاج. ولا يسعك إلا أن تلاحظ ذلك، ولا سيما أن كَعْبَيْ جلالته أَقْصَر بمقدار (دْرُورْ) من كَعْبَيْ أي شخص آخر في القصر (دْرُورْ هو وَحْدَة قياس الطول وتساوي ١/١٤ من البوصة). وقد بلغَتِ العداوات بين أفراد هذين الحزبين حدًّا يجعلهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتحدثون مع خصومهم. وطبقًا لحساباتنا، فإن ذوي الكعوب العالية يفوقوننا عددًا ولكن السلطة كلها في جانبنا. ونخشى أن لدى صاحب السمو، ولي العهد، بعض الميل إلى ذوي الكعوب العالية[٧] ـ على الأقل من الواضح للعيان أن أحد كعبيه أعلى من الآخر، مما يجعل في مشيته عرجًا. والآن، ونحن في وسط هذه الاضطرابات الداخلية، يتهددنا غزو من جزيرة **بْليفُسْكو**، التي هي الامبراطورية العظيمة الأخرى في الكون، وتكاد تضاهي في الاتساع والقوة امبراطورية جلالته. أما بالنسبة لما سمعناك تؤكده، فإن فلاسفتنا يَشُكّون في صحة ذلك، ويفضّلون الزعم بأنك سقطتَ من القمر أو من أحد النجوم، لأنه من المؤكد أن مائة من البشر لهم مثل حجمك يدمِّرون في زمن قصير كل الثمار والأنعام في أراضي جلالته. زد على ذلك أن تواريخنا طيلة ستة آلاف قمر[٨]، لا يَرِدُ فيها ذِكْرٌ لمناطق أخرى غير الامبراطوريتين العظيمتين **ليليبوت وبْليفُسْكو**، وهاتان القوتان العظيمتان مشتبكتان، كما كنتُ سأقول لك، في حرب عنيدة طيلة الستة والثلاثين قمرًا الأخيرة[٩]، وقد بدأتْ هذه الحرب للسبب التالي. من المعترف به لدى الجميع أن الطريقة البدائية لكسر البيضة قبل أن نأكلها، هي كَسْرُها من الطرف الأكبر، لكن جدّ الامبراطور الحالي[١٠]، حينما كان صبيًا، حدث أنه أراد أن يأكل بيضة، ولما كسرها بالطريقة القديمة جرح واحدًا من أصابعه. وعليه، أصدر الامبراطور، أبوه، مرسومًا يأمر كل رعاياه أن يكسروا البيض من طرفه الأصغر، ويعاقِب من لا يفعل ذلك بعقوبات جسيمة. وتُخْبِرنا تواريخنا أن الشعب استنكر هذا المرسوم استنكارًا شديدًا، أدى إلى قيام ست ثورات فقد فيها أحد الأباطرة حياته[١١] وفقد امبراطور آخر عرشه[١٢]. وكان ملوك **بْليفُسْكو**[١٣] يُغَذّون هذه الفتَن الداخلية باستمرار. وحين كانت الفِتَن تُخْمَد كان المنفيون يفرّون ويَجِدون ملجأ في تلك الامبراطورية. ويُقَدَّرُ عدد الذين آثروا الموت على أن يكسروا البيض من طرفه الأصغر بأحد عشر ألف شخص. وقد كُتِبَتْ مئات المجلدات الضخمة حول هذه القضية،

ولكن كُتُبَ أتباع الطرف الأكبر حُظِرَتْ منذ زمن بعيد(١٤)، وأصبح أتباع هذا المذهب جميعًا ممنوعين قانونًا من العمل في الوظائف(١٥). وخلال هذه الاضطرابات دأب أباطرة **بليفسكو** على الاحتجاج والمجادلة بواسطة سفرائهم، يتهموننا بخَلْق انقسام في الدين، بانتهاكنا جزءًا من صلب عقيدة نبينا العظيم **لوسْتْروجْ** المنصوص عليها في الفصل الرابع والخمسين من ال **بْرونْد ريكال** (وهو قرآنهم)(١٦). وعلى كل حال، يقال أن القضية لا تعدو مجرد اختلاف في تفسير النَّص. كلمات النَّص تقول: **على جميع المؤمنين أن يكسروا البيض من الطرف المناسب**. ويبدو، في رأيي المتواضع، أن تحديد الطرف المناسب ينبغي أن يُتْرَكَ لضمير الإنسان، أو على الأقل يُتْرَك للحاكم الأعلى. ولقد حظي المنفيون من أتباع مذهب الطرف الأكبر، بالثقة والتقدير الكبير في بلاط امبراطور **بْليفُسْكو**، كما يجدون المساعدة والتشجيع من أتباع مذهبهم هنا في الوطن، مما أدى إلى قيام حَرْب طاحنة بين الامبراطوريتين(١٧) واستمرارها طيلة ستة وثلاثين قمرًا دون أن يُحْرز أي من الطرفين نصرًا حاسمًا. وقد فقدنا في هذه الحرب أربعين سفينة كبيرة وعددًا أكبر من القوارب الأصغر، وثلاثين ألفًا من خيرة بحّارتنا وجنودنا، وتُقَدَّر خسائر العدو بأنها أكبر من خسائرنا. وعلى كل حال، لقد جهزوا الآن أسطولاً ضخمًا، وهم على وشك أن يغزونا وينزلوا على سواحلنا. ولأن جلالة الامبراطور يثق ثقة كبيرة في قوّتك وشجاعتك، فقد أمرني أن أضع أمامك هذا التقرير عن أحوال امبراطوريته.

وقد رغبتُ إلى وزير الدولة هذا أن يقدم للامبراطور آيات الولاء والطاعة، وأن يخبره أنني أعتقد أنه لا يليق بشخص غريب مثلي أن يتدخل في شؤون المذاهب والأحزاب، وأنني رغم ذلك على استعداد للمجازفة بحياتي دفاعًا عن شخص جلالته وعن دولته ضد جميع الغزاة.

الفصل الخامس

المؤلف يمنع غزوًا بواسطة خطةٍ غير عادية ويُنْعَمُ عليه بلقبٍ رفيع. سفراء امبراطور بليفُسْكو يصلون ويطلبون السلام. اشتعال حريق بالصدفة في جناح الامبراطورة وجهود المؤلف الموفقة في إنقاذ بقية القصر.

امبراطورية **بليفُسْكو** جزيرة تقع إلى الشمال والشمال الشرقي من **ليليبوت**، ويفصلها عنها قنال عرضه ثمانمائة ياردة. لم أكن قد رأيتُ هذا القنال بعد، ولدى معرفتي بالغزو المرتقب، تجنبتُ الظهور على ذلك الجانب من الساحل خشية أن تكشفني بعض سفن العدو الذي لم يكن قد سمع أخبارًا عني، لأن الاتصالات بين الامبراطوريتين كانت محظورة خلال الحرب حظرًا كاملًا، وعقوبتها الاعدام، ولأن امبراطورنا كان قد أمر بمنع السفن، أيًا كان نوعها، من الإقلاع. وقد أَطْلَعْتُ جلالته على مشروعٍ أعددته لأَسْرِ أسطول الأعداء بكامله وهو راسٍ ـ كما أَكَّدَتْ لنا دوريات الاستكشاف ـ في الميناء ومستعد للإقلاع حالما تهبُّ ريح مواتية. وقد استشرتُ ذوي الخبرة من البحارة حول عمق القنال كما سبروه أكثر من مرة، فأخبروني أن عمقه في الوسط يبلغ سبعين (جُلَمْ جْلَفْ) ـ أي حوالي ستة أقدام بوحدات القياس الأوروبية، أما بقية القنال، فعمقها لا يزيد عن خمسين (جْلَمْ جْلَفْ). وقد سِرْتُ إلى الساحل الشمالي الشرقي المواجه للجزيرة **بْليفُسْكو**، واستلقيتُ وراء تلةٍ صغيرةٍ ثم أخرجتُ منظار الجيب الصغير، وتفحصتُ بواسطته أسطول الأعداء وهو راسٍ في الميناء، فوجدت أنه يتألف من خمسين بارجة حربية وعددٍ كبيرٍ من سفن الإمداد. حينذاك عدتُ إلى مسكني وأصدرتُ أمرًا (وكنت قد حصلتُ على تفويضٍ بذلك) بإحضار كمية كبيرة من أقوى حبالهم وأعمدتهم الحديدية. وكانت حبالهم في ثخن خيوط القنّب وأعمدتهم بطول وحجم إبرة الحياكة. وقد جَدَلْتُ ثلاثة من حبالهم معًا في حبل واحد قويّ، كما ثَنَيْتُ كل ثلاثة أعمدة في عامود واحد، وعقفتُ أطرافها لتصبح بشكل الخطاف. وبعد أن ربطتُ خمسين خطافًا بعددٍ مماثلٍ من الحبال، عدتُ إلى الساحل الشمالي الشرقي وخلعتُ معطفي وحذائي وجوربَيَّ، وخضتُ في البحر وعليَّ سترةٌ من الجلد، وذلك قبل المدّ بنصف ساعة. وقد رحتُ أخوض بأسرع ما أستطيع، ثم سبحتُ حين وصلتُ منتصف القنال لمسافة ثلاثين ياردة حتى لمَسَتْ قدماي قعرَ البحر، ووصلتُ إلى الأسطول في أقل من نصف ساعة. وقد أصيب الأعداء بالهلع والذعر حين رَأَوْني وطفقوا يقفزون

إلى البحر ويسبحون إلى الشاطئ حيث كان هناك ما لا يقل عن ثلاثين ألف نسمة. وحينذاك أخرجتُ عُدَّتي وثَبَّتُّ خطافًا في ثقبٍ في مقدمة كل سفينة، ثم ربطتُ أطراف كل الحبال في عقدة واحدة. وبينما كنت أقوم بهذا العمل، أطلق الأعداء عليَّ عدة آلاف من السهام التي انغرز الكثير منها في يديَّ ووجهي، فآلمتني كثيرًا بالإضافة إلى أنها سببت لي الكثير من الازعاج والتأخير في عملي. كانت عيناي أكثر ما أخاف عليه، ومن المؤكد أنني كنت سأفقدها لولا أنني تذكرتُ فجأةً شيئًا كنت قد احتفظتُ به بين لوازمي الصغيرة - وهو زوج من النظارات - في جيبٍ سِرّيّ فلم تصل إليها، كما ذكرتُ من قبل، أيدي مفتشَيْ الامبراطور. والآن أخرجتُ هذا الزوج من النظارات وركزته قدر المستطاع فوق أنفي، واستأنفتُ عملي ببسالةٍ رغم سهام الأعداء التي وقع الكثير منها على عدستَيْ النظارة، فلم تترك أي أثر أكثر من زحزحتها قليلًا عن مكانها. بعد أن ربطتُ كل الخطاطيف، أمسكتُ العقدة بيدي وبدأتُ أجُرّ، لكن لم تتحرك سفينة واحدة من مكانها، لأنها كانت مربوطة ربطًا محكمًا بالمراسي. وهكذا بقي أمامي أخطر جزء في مغامرتي. لهذا أفْلَتُّ الحبلَ تاركًا الخطاطيف مربوطة بالسفن، ورحت أقطع بهمة وإصرار جميع الحبال التي تربط السفن بمراسيها، وتعرضتُ خلال هذا العمل لأكثر من مائتي سهم في وجهي ويديّ. بعد ذلك أمسكتُ العقدة التي تلتقي فيها حبال الخطاطيف وجررتُ ورائي وبكل سهولة خمسين من أكبر بوارج العدو الحربية[1].

لم يكن لدى أهل **بْليفُسْكو** أية فكرة عما أنوي عمله، وأصابتهم المفاجأة والدهشة بالذهول. لقد رَأَوْني أقطع حبال المراسي، وظنوا أن هدفي لا يتجاوز ترك السفن تطفو على غير هدى أو جعلها تصطدم بعضها بالبعض الآخر. ولكنهم حين رَأَوْا الأسطول بكامله يسير بانتظام، ورَأَوْني أجُرُّه خلفي، انطلقَتْ من حناجرهم صيحات الحزن واليأس التي يعجز الوصف عن شرحها. وحين أصبحتُ في منأى عن الخطر، توقفتُ برهة ريثما أنزع السهام المنغرزة في يديّ ووجهي، وأفرك أماكن الإصابة بالمرهم نفسه الذي أُعطِيَ لي يوم وصولي إلى **ليليبوت** كما ذكرت في حينه. ثم خلعتُ نظارتي وانتظرت حوالي ساعة حتى تراجع المدّ قليلاً، واستأنفتُ السير عبر منتصف القنال جارًّا ورائي حمولتي، ووصلتُ سالمًا إلى الميناء الملكي في **ليليبوت**.

كان الامبراطور ورجال حاشيته كلهم يقفون على الشاطئ في انتظار ما تتمخض عنه هذه المغامرة العظيمة. رَأَوْا السفن تتحرك على شكل هلالٍ كبير[2]، ولم يستطيعوا رؤيتي لأن الماء كان يغمرني حتى أعلى صدري. وحين تقدمتُ إلى منتصف القنال ازداد ألمهم وفزعهم، لأن الماء كان يغمرني حتى عنقي. واستنتج الملك أنني قد غرقتُ، وأن أسطول الأعداء كان يقترب بأسلوب مُعادٍ. ولكن سرعان ما تبددتْ مخاوفه، لأن ماء القنال كان يزداد ضحالة بعد كل خطوة أخطوها، بحيث أصبحتُ بعد وقت قصير على مرأى منهم ومسمع. ورفعتُ في يدي العقدة التي تلتقي فيها الحبال التي تَجُرّ سفن الأسطول، وصِحْتُ بصوت عال: **يعيش أقوى أباطرة ليليبوت**. واستقبلني هذا

الأمير العظيم لدى وصولي للبر بكل ألوان المديح الممكنة، وأنعم عليَّ على الفور بلقب **ناردك**[٣]، وهو أعلى لقب لديهم.

وطلب مني جلالته أن أنتهز فرصة أخرى لإحضار كل ما تبقّى من سفن الأعداء إلى موانئه. وبهذا أثبت لي أن طموح الأمراء بلا حدود. ويبدو أنه لم يكن يطمح إلى أقل من تحطيم مكانة **بليفسكو**، وتحويل تلك الامبراطورية بكاملها إلى مقاطعة يحكمها نائب له[٤]، وتحطيم جميع المعارضين من أتباع مَذْهب الطرف الكبير للبيضة، وإرغام أولئك القوم على كسر البيض من طرفه الأصغر، وبهذا يصبح الملك الأوحد في العالم كله. لكني حاولتُ أن أثنيه عن هذه الخطة بمناقشات تستند إلى أصول السياسة ومبادئ العدل. وأعلنتُ بوضوح أنني لن أكون أداة في تحويل شعب من الأحرار الأباة إلى شعب من العبيد. وحين نوقش هذا الموضوع في مجلس الامبراطور، كان العقلاء من الوزراء من رأيي.

وكان هذا الإعلان الجريء الصريح متعارضًا كل التعارض مع خِطَط جلالته وسياساته، ولهذا فإنه لم يستطع قط أن يغفره لي. وقد ذَكَرهُ بأسلوب ماكر في مجلسه. وقد قيل لي إن بعض العقلاء في مجلسه كانوا من رأيي وظهر ذلك على الأقل في صمتهم، ولكن آخرين ممن كانوا أعدائي في الخفاء، لم يمتنعوا عن التَفوُّه ببعض العبارات التي تنطوي على التعريض بي والإساءة إليَّ. ومنذ هذا الوقت بدأتْ بين الملك وعصبة من الوزراء الحاقدين عليّ والمُصِرّين على معاداتي، مؤامرة ظهرت علائمها في أقل من شهرين وكادت تؤدي إلى القضاء عليَّ قضاء مبرمًا. إن أعظم الخدمات التي تُؤَدَّى للملوك تصبح بلا قيمة إذا وُضِعَتْ في الميزان مقابل الامتناع عن إرضاء أهوائهم.

بعد ثلاثة أسابيع من هذه المأثرة والعمل الجليل، وصل وفد مهيب كبير من **بليفسكو** يحمل عروضًا لعقد معاهدة سلام. وقد تم عقد هذه المعاهدة بشروط مفيدة ومرضية لامبراطورنا، ولن أثقل على القارئ بتفاصيلها. كان في الوفد ستّة سفراء مع حاشية تضم حوالي خمسمائة شخص، وكان دخولهم يتفق في روعته مع عَظَمة قَدْرِ مولاهم وأهمية مهمتهم. وبعد أن انتهوا من عقد المعاهدة، التي خَدَمْتُهم فيها عدة خدمات جليلة بفضل ما كان لي، أو ظننتُ أنه كان لي من مكانة في القصر. وقد قاموا سعادتهم، وكانوا قد علموا سرًّا بمقدار صداقتي لهم، بزيارة رسمية لي. بدأوا بالثناء على شجاعتي والاكبار من كرمي، ثم دَعَوْني باسم مولاهم الامبراطور لزيارة مملكتهم، ورَجَوْني أن أُرِيَهُم بعض مظاهر قوتي الخارقة التي كانوا قد سمعوا عنها أعاجيب كثيرة، وقد أكْرَمْتُهم بتلبية رجائهم، ولكني لن أثقل على القارئ بالتفاصيل.

وبعد أن أكرمتُ أصحاب السعادة السفراء بما أرضاهم غاية الرضا وبما أذهلهم بلا حدود، طلبتُ منهم أن يقدموا نيابة عني آيات الاحترام لمولاهم الامبراطور الذي طَبَّقَتْ شهرةُ مناقِبِهِ الآفاق

والذي استحقَّ إعجاب العالم كله، وأن يبلغوه أنني عازم على التشرف بالمثول بين يدي شخصه الملكي قبل أن أعود إلى بلادي. وبناء عليه، فإنني حين تشرفت برؤية امبراطورنا رَجَوْتُ منه أن يأذن لي بزيارة ملك **بليفسكو**. وقد تكرم بمنحي هذا الإذن، وكان واضحًا لي أنه فعل ذلك ببرود شديد. لكني لم أعرف لذلك البرود سببًا حتى همس في أُذُني شخص معيّن بأن **فْليمناپْ وبُلْغُلام** صوَّرا له تعامُلي مع أولئك السفراء بأنه علامة سخط وعدم ولاء(٥)، مع أنني متأكد أن قلبي كان بريئًا من ذلك تمامًا. وكانت هذه أول مرة أبدأ فيها بتكوين فكرة يشـوبها النقص عن القصـور والوزراء.

ومن الجدير بالملاحظة أن السفراء كانوا يكلمونني بواسطة مترجم، لأن لُغَتَيْ الامبراطوريتين تختلفان إحداهما عن الأخرى كما تختلف أية لغتين في أوروبا. وكل أمة تعتز بقِدَم لغتها وجمالها وقدرتها، وتحتقر لغة جيرانها. ومع ذلك، فإن امبراطورنا استغلَّ كونَه في مركز قوة، لأنه أسر أسطولهم وأجبر السفراء على تقديم أوراق اعتمادهم وإلقاء خُطَبهم بلغة **ليليبوت**. ولا بد من التوضيح أن هناك بعضًا من عِلْية القوم والتجار والبحارة الذين يعيشون في المناطق الساحلية، يستطيعون التحدث باللغتين، وذلك بفضل الاتصالات التجارية والمهنية بين المملكتين، وبسبب الترحيب الدائم الذي تمنحه كل منها للمنفيين من الأخرى، وبفضل العادة المتبعة في كل منها لـدى النبلاء والأثرياء، والمتمثلة في إرسال أبنائهم الشباب إلى البلد الآخر لكي يصقلوا أنفسهم برؤية الدنيا وفهم الناس والعادات. وهذا ما اكتشفتُه بعد بضعة أسابيع حين أحاطتْ بي المصـائب بسبب حقد أعدائي، وذهبتُ إلى تقديم آيات الاحترام لامبراطور **بليفسكو**. في هذه المناسبة كانت معرفة أهل **بليفسكو** بلغة **ليليبوت** مصدر عون عظيم لي كما سأبين في الوقت المناسب.

يذكر القارئ أنني حين وَقَّعْتُ على الوثيقة التي نِلْتُ بموجبها حريتي، كان فيها بعض المواد التي كَرِهْتُها لما فيها من عبودية وإذلال، ولولا الضرورة القصوى لما خضعتُ لها وقبلتُ بها. وحين أُنعِمَ عليَّ بلقب ناردك، وصرتُ أنتمي إلى أعلى مرتبة وطبقة في تلك الامبراطورية، صار مما لا يليق بكرامتي أن أُؤدّي تلك الخدمات التي تنص عليها الوثيقة. وللإنصاف اقول إن الامبراطور لم يُذَكِّرْني قط بتلك الخدمات. على كل حال لم يمض وقت طويل حتى أُتيحتْ لي فرصة تأدية خدمة جليلة جدًا ـ على الأقل هذا ما ظننته حينذاك. ذات ليلة، عند منتصف الليل، أفْزَعتْني صرخات المئات من الناس عند بابي، أيقظَتْني تلك الصرخات فجأة وشعرتُ بشيء من الرعب. سمعتُ كلمة بيرغلوم تتكرر باستمرار، وشقَّ عدد من رجال القصر طريقهم بين الجمهور، وتوسلوا إليَّ أن أَحْضُرَ إلى القصر في الحال، لأن جناح جلالتها يحترق بسبب إهمال إحدى الوصيفات التي غَفَتْ وهي تقرأ قصة غرامية(٦). نهضتُ في الحال. ولما صَدَرَتِ الأوامر للناس بإخلاء الطريق أمامي وكانت الليل مقمرة فقد تدبرتُ أمر الوصول إلى القصر دون أن أدوس على أحد من الناس. وجَدْتُهُم قد وضعوا

السلالم على جدران الجناح المحترق وتزودوا بدلاء الماء، لكن الماء كان بعيدًا وكانت الدّلاء لا تزيد في سعتها عن الكشتبان. ورغم أن المساكين بذلوا كل ما في وُسْعِهم لتزويدي بهذه الدِّلاء بأسرع ما يستطيعون، فإن النار كانت تزداد عنفًا واشتعالاً ولم تُجْدِ دِلاؤهم نفعًا. كان يمكن وبسهولة أن أُخْمِد النار بمعطفي، ولكني لسوء الحظ كنتُ قد نسيتُه بسبب السرعة، ولم أُحْضُر إلا في سترتي الجلدية. وبدا لي الأمر كارثة محزنة ميئوس من تلافيها، وأن هذا القصر العظيم الرائع سيحترق لا محالة حتى يصبح ركامًا على الأرض، لكن فجأت خطرت لذهني خاطرة بِحَلٍّ مناسب - وهذا أمرٌ غير عادي فيّ. فقد شربتُ في ذلك المساء كمية كبيرة من نبيذ لذيذ المذاق اسمه **جْليم جْريمْ** ويسميه أهل **بليفسكو فلونيك**، ولكن نبيذنا يعتبر أفضل من نبيذهم. وكانت صُدفة من أعظم الصُّدف في العالم، أنني لم أكن قد أفرغتُ أو أفرزتُ شيئًا منه بعد. لكن حرارة النار التي كنت قريبًا منها، والجهود التي بذلتُها لإخماد تلك النار جعلتِ النبيذ يتحول في جسمي إلى بَوْل تَبَوَّلْتُهُ بكميات كبيرة، وصوَّبْتُه تصويبًا جيدًا إلى الأماكن الملتهبة، مما أخمد الحريق كله في ثلاث دقائق(٧)، وأنقذ بقية ذلك المبنى العظيم، الذي استغرق تشييده أجيالًا، من الدمار.

هنا كان ضوء النهار قد انبلج، فعُدْتُ إلى بيتي دون أن أنتظر التهاني من الامبراطور. فرَغْمَ أني أدَّيْتُ خدمة جليلة، لم أكن أعرف إلى أي مدى يبلغ غضبه حين يعلم بالطريقة التي أنجزتُ بها تلك الخدمة، لأنه طبقًا للقوانين الأصولية في تلك المملكة، يُعْتَبَر التبول في فناء القصر جناية كبرى، أيًّا كان شخص البائل وأيًّا كانت مكانته. ولكنني أحسستُ بشيء من الراحة حين وصلتني رسالة من جلالته تقول إنه سيصدر أوامره إلى السلطة القضائية العليا لإصدار عفوٍ رسمي. ولكني رغم هذا لم أحصل على هذا العفو. وقد أكد لي مصدر خاص أن الامبراطورة اعتبرتْ ما فعلتُه عملاً كريهًا مقيتًا، وانتقلَتْ إلى أبعد جانب عن الجناح المحترق، وقررتْ بإصرار أن لا يتم إصلاح تلك المباني أبدًا لكي تستعملها هي، ولم تتورع عن التهديد بالانتقام، وذلك بحضور أصدقائها الموثوقين.

الفصل السادس

وصف لسكان ليليبوت[1]. علومهم وقوانينهم وعاداتهم، والطريق التي يُرَبُّون بها أبناءهم. أسلوب حياة المؤلف في تلك البلاد. دفاعه لِتبرئة سيدة عظيمة.

رغم أنني أنوي أن أترك وصف الامبراطورية لرسالة خاصة، أكتفي في هذه الأثناء بإرضاء فضول القارئ ببعض الأفكار العامة. بما أن الطول الشائع لأبناء ليليبوت الأصليين أقل قليلاً من ست بوصات، كذلك فإن طول الحيوانات والنباتات والأشجار متناسب بدقة مع طول البشر. وعلى سبيل المثال، فإن طول أكبر الجياد والثيران يتراوح بين أربع وخمس بوصات، وطول الغنم حوالي بوصة ونصف. وحجم الإِوَزَّة عندهم هو كحجم عصفور الدّوري عندنا، وهكذا تتدرج حجوم الأشياء هبوطًا حتى نصل إلى أصغرها، وهذه بالنسبة لعينيّ كادت تكون غير مرئية. لكن الطبيعة عَدَّلَتْ عيون أهل ليليبوت، بحيث جعلتها متناسقة مع حجوم الأشياء التي يحتاجون رؤيتها. فهم يَرَوْن الأشياء بدقة، لكن بصرهم لا يصل مسافات بعيدة. ولكَيْ أوضّح جِدّة بصرهم تجاه الأشياء القريبة أذْكُرُ أنني كثيرًا ما سَعِدْتُ برؤية طباخ ينتف ريش قُبَّرَةٍ لا يبلغ حجمها حجم ذبابة عادية عندنا، أو فتاة تُدْخِل خيطًا حريريًا لا أراه، في سُمِّ إبرة لا أراها. وأطول أشجارهم لا يزيد ارتفاعها عن سبعة أقدام. أقصد بذلك بعض تلك الأشجار الموجودة في حديقة الملك الكبيرة، والتي كنت أصل إلى قممها بقبضتي المغلقة. ونجد التناسب نفسه في حجم النباتات والخضراوات، لكني أترك هذا الموضوع لخيال القارئ.

لن أذكر في الوقت الحاضر سوى القليل عن علومهم التي كانت مزدهرة في مختلف الفروع منذ عصور عديدة. لكن أسلوبهم في الكتابة[2] غريب جدًا، فهم لا يكتبون من اليسار لليمين كما يفعل الأوروبيون، ولا من اليمين لليسار كما يفعل العرب، ولا من الأعلى للأسفل كما يفعل الصينيون، ولا من الأسفل للأعلى كما يفعل الغاسكاحيون، ولكن بشكل مائل من زاوية الورقة إلى الزاوية المقابلة كما تفعل السيدات في إنجلترا.

وهم حين يدفنون موتاهم يضعون رأس الميت في الأسفل[3] لأنهم يعتقدون أن جميع الموتى سيُبْعثون أحياء بعد أحد عشر ألف قمر، وفي هذه الفترة ستنقلب الأرض، التي يعتقدون أنها

مسطحة، بحيث يصبح سافلها عاليها. وهكذا فإن الموتى سيجدون أنفسهم يوم البعث واقفين على أقدامهم. ويعترف المتعلمون منهم بسخف هذا الاعتقاد. ولكن دفن الموتى بالطريقة التي ذكرناها مستمرة، مجاراة لمعتقدات العامة والسوقة.

وهناك بعض القوانين والعادات الغريبة في هذه الامبراطورية. ولولا أنها تتعارض تعارضًا مباشرًا مع قوانين وعادات بلادي الغالية، لحاولتُ أن أقول شيئًا دفاعًا عنها. وكل ما أتمناه أنها كانت تُنَفَّذ جيدًا. أول قانون سأذكره يتعلق بالمُخْبِرين. كل الجرائم ضد الدولة تعاقَب هنا بقسوة بالغة. لكن إذا استطاع المتهم أثناء المحاكمة أن يُثْبِت براءته، فإن المخبر الواشي يُعْدَم على الفور ويموت ميتة مشينة، ويعَوَّض الشخص البريء، من أموال الواشي وعقاراته، أربعة أضعاف عن خسارة وقته، وعن الخطر الذي تعرض له، وعن مشاق السجن، وعن التكاليف التي تكبدها لإعداد دفاعه وإثبات براءته. وإذا كانت أموال الواشي لا تكفي، يتكفل الامبراطور بالتعويض بسخاء. أضف إلى هذا أن الامبراطور يُنْعِم على المتهم البريء بشكلٍ عَلَنِيّ، ويطلق مناديًا يعلن براءته في جميع أنحاء المدينة.

كذلك فإن الدجل والاحتيال جريمة أكبر في نظرهم من السرقة(٤)، ولهذا ندر أن يعاقبوا هذه الجريمة بأقل من الموت. وهم يرون أن الحرص واليقظة، مع قدر عادي من الفهم، تحمي للإنسان أشياءه من اللصوص، ولكن ليس للأمانة ما يحصنها ضد المكر الغادر والدَّجَل الذكي. وبما أنه من الضروري أن يستمر التعامل بالبيع والشراء، وعلى أساسٍ من الثقة والأمانة، فأن السماح بالاحتيال أو التهاون فيه أو غياب القانون الرادع له، يؤدي دائمًا إلى تدمير الشرفاء والأمناء وفوز المحتالين والدجالين بالخيرات، وأذكر أنني تشفعتُ ذات مرة عند الملك لمجرم كان قد احتال على سيده بمبلغ ضخم من النقود استلمه منه بأمر رسمي وهرب به. وصدف أن قلتُ للملك، بقصد التخفيف من خطورة الجريمة، إن الأمر لا يعدو كونه نقضًا للأمانة. فاستفظع الامبراطور هذا الدفاع، واعتبره عذرًا أقبح من الذنب. والحق أنه لم يكن لديَّ ما أردّ به سوى الردّ المألوف بأن للشعوب المختلفة عادات مختلفة. وأعترفُ أني يومذاك خجلتُ من نفسي كل الخجل.

ومع أننا في العادة نعتبر الثواب والعقاب المحورين اللذين يقوم عليهما الحكم(٥)، فإنني لم أرَ هذا المبدأ مطبَّقًا لدى أي شعب سوى شعب ليليبوت(٦). هناك، كل من يقدم دليلًا كافيًا على التزامه الكامل بقوانين بلاده طيلة ثلاثة وسبعين قمرًا، يصبح له الحق في بعض الامتيازات التي تتناسب مع رتبته ومكانته في الحياة، وفي مبلغ مناسب من النقود من صندوقٍ مُخَصَّصٍ لهذه الغاية. كذلك فإنه يكتسب لقب سْنِلْبَالْ أي الملتزم بالقانون، وهو لقب يضاف إلى اسمه، لكن لا ترثه ذريته. وحين أخبرت هؤلاء القوم أن القانون في بلادنا لا يُطَبَّق إلا العقوبات فقط، وليس فيه ذكر

للمكافآت، اعتبروا ذلك عيبًا كبيرًا ونقصًا خطيرًا في سياستنا. ولهذا السبب فإن لتمثال العدالة في محاكمهم القضائية عيون ستة، اثنتان في الأمام، واثنتان في الخلف وواحدة في كل جانب، وذلك للدلالة على تمام الحذر وكمال الحيطة، وفي اليد اليمنى لذلك التمثال كيس مفتوح مليء بالذهب، وفي يده اليسرى سيف مغمود، وذلك للدلالة على أن العدالة أَمْيَلُ إلى مَنْحِ الثواب منها إلى إنزال العقاب.

وعند اختيار أشخاص لشغل الوظائف، يفضلون ذوي الأخلاق الحميدة على ذوي الكفاءات العظيمة. وبما أن الحكم ضروري للبشر، فإنهم يؤمنون أن قدرات الناس العاديين على الفهم تتناسب مع هذه الوظيفة أو تلك، وأن العناية الإلهية لم تقصد أبدًا أن تكون إدارة الشؤون العامة لغزًا لا تفهمه إلا القلة من ذوي النبوغ العظيم الذين قلما يولد منهم في العصر الواحد أكثر من ثلاثة. وهم يعتقدون كذلك أن الصدق والعدل والاعتدال وما إليها من أمور، يقدر عليها كل إنسان، وأن ممارسة هذه الفضائل، بالإضافة إلى الخبرة والنيّة الطيبة، تؤهِّل كل إنسان لخدمة بلاده، إلا حيث يتطلب الأمر قدرًا من الدراسة والعلم. ولكنهم يعتقدون أن غياب الفضائل الأخلاقية، لا يمكن التعويض عنه بالمواهب العقلية المتفوقة، وأنه لا يمكن وضع الوظائف في الأيدي الخطيرة التي لها مثل هذه الصفات. على الأقل، إن الأخطاء التي يرتكبها عن جَهْلٍ ذو طبع فاضل، لن تكون ذات عواقب وخيمة بالنسبة للمصلحة العامة، مثل مناورات وألاعيب مَنْ يقوده طبعه إلى الفساد، وتتوفر لديه قدرات هائلة لارتكاب الفساد وزيادته والدفاع عنه.

كذلك فإنّ الكفر بوجود عناية إلهية يجعل المرء غير مؤهل لشغل أية وظيفة عامة(٧). وبما أن الملوك يدّعون أنهم نواب العناية الإلهية، فإن أهل ليلييوت لا يرون شيئًا أكثر خطرًا وضلالاً من أن يستخدم الملك أشخاصًا يكفرون بتلك السلطة الإلهية التي يحكم هو في ظلها ونيابة عنها.

ولدى وصفي لهذه وغيرها من القوانين والمؤسسات، أرجو أن أنبه القارئ إلى أنني أعني القوانين والمؤسسات الأولى الأصلية، وليس الفساد والمخالفات والتجاوزات الفاضحة جدًا التي يرتكبها هؤلاء القوم بسبب الطبيعة الفاسدة للإنسان. أما بالنسبة إلى الأسلوب المفضوح في الحصول على المناصب العالية عن طريق الرقص على الحبال، أو على أوسمة التميُّز والتقدير عن طريق القفز من فوق العصيّ أو الزحف من تحتها، فإنني أرجو القارئ أن يلاحظ أنّ هذه الممارسات أوجدها لأول مرة جدّ الامبراطور الذي يحكم حاليًا(٨)، وأنها زادت إلى هذا القدر بسبب ازدياد التحزب والانقسام.

نكران الجميل عندهم جريمة كبرى(٩)، كما نقرأ أنها كذلك في بعض البلدان الأخرى. وهم يبررون ذلك بما يلي: من يسيء لمن يحسن إليه، لا بد أن يكون عدوًا لبقية البشر الذين لا يدين لهم

بأي فضل، ولهذا فإن هذا الإنسان غير جدير بأن يعيش.

لكن أفكارهم عن واجبات الآباء تختلف اختلافًا شديدًا عن أفكارنا، بما أن اقتران الذكر والأنثى يقوم على قانون الطبيعة العظيم، لكي يتناسل الجنس البشري ويكثر ويستمر، فإن أهل ليليبوت يُصِرّون على القول بأن الرجال يجتمعون بالنساء كما تفعل الحيوانات بدوافع الشهوة، وأن حدبهم على صغارهم يصدر عن مصدر طبيعي مماثل. ولهذا السبب لا يعترفون أبدًا أن الطفل مدين بالفضل لأبيه، لأنه أنجبه أو لأمه لأنها جاءت به إلى هذا العالم. ولو أخذنا بعين الاعتبار ما في هذا العالم من تعاسة بشرية، فإن إنجاب الطفل لهذا العالم الشقي ليس مفيدًا في حد ذاته، ولم يكن مقصودًا كذلك من ناحية الوالدين اللذَيْن كانت أفكارهما خلال لقاءاتها الغرامية منصبّة على أشياء أخرى. لهذه الأسباب وأمثالها يرى أهل ليليبوت أن الوالدين هما آخر من ينبغي أن يُعْهَدَ إليهما بتربية أطفالهما[١٠]. ولهذا فإن لديهم في كل بلدة دور حضانة يُفْرَض على جميع الآباء، ما عدا الفلاحين والعمال، أن يرسلوا أطفالهم من الجنسين إليها حين تبلغ أعمارهم عشرين قمرًا، لكي تقوم بتنشئتهم وتربيتهم، إذ يُفْتَرَض أنهم في هذه السنّ تتوفر فيهم بداية الرغبة في التعلم. وهذه المدارس أنواع متعددة تناسب مختلف الطبقات كما تناسب الجنسين. وفي هذه المدارس معلمون مدرَّبون تدريبًا جيدًا لإعداد الأطفال لتلك المراكز والأوضاع الحياتية التي تتناسب مع رتبة آبائهم وطبقتهم، كما تتناسب مع قدراتهم وميولهم. وسأبدأ بذكر بعض الأمور عن مدارس الذكور ثم عن مدارس الإناث.

مدارس الذكور من أصل نبيل أو رفيع، مزوّدة بأساتذة وقورين واسعي العلم، ومساعديهم الكثيرين. ملابس الأطفال وطعامهم عادي وبسيط. وهم يُرَبَّوْن على مبادئ الشرف والعدل والشجاعة والتواضع، والاعتدال والرأفة، والدين وحب الوطن. وهم دائمًا يُشْغَلون بعملٍ ما[١١]، إلا في أوقات الأكل والنوم التي هي قصيرة جدًا، وفي الساعتين المخصصتين للتسلية التي تتكون من تدريبات جسدية. ويقوم رجال بإلباسهم ثيابهم حتى يبلغوا الرابعة، وبعد ذلك يُفْرَض عليهم مهما عَظُمَتْ مكانتهم وطبقتهم أن يرتدوا ثيابهم بأنفسهم. أما الخادمات من النساء، فتبلغ أعمارهن ما يساوي أعمار نسائنا في سن الخمسين، ولا يقمن إلا بالأعمال الوضيعة الشاقة. ولا يُسْمَح للأطفال هنا بالتحدث مع الخدم أبدًا. وهم يذهبون إلى رياضاتهم وتدريباتهم في جماعات صغيرة أو كبيرة ودائمًا في حضور أستاذ أو أحد مساعديه، وبهذا يتجنبون تلك الانطباعات المبكرة عن الحماقات والرذائل التي يُبْتَلَى بها أطفالنا. ولا يُسْمَح لوالديهم أن يروهم إلا مرّتين في العام، ولا تدوم الزيارة الواحدة أكثر من ساعة واحدة، ويُسْمَح لهما بتقبيل الطفل عند اللقاء وعند الوداع. ولكن الأستاذ الذي يحضر دائمًا هذه اللقاءات لن يسمح لهما بالهمس والوشوشة أو باستخدام عبارات التدليل أو بإحضار أية هدايا كالألعاب والدمى والحلويات أو ما إلى ذلك[١٢].

وتدفع كل أسرة رسومًا دورية مقابل تربية أطفالهم وتسليتهم. وإذا تأخرت أسرة عن دفع الرسوم يقوم رجال الامبراطور بجبايتها منهم.

أما مدارس أطفال السادة العاديين والتجار والحرفيين فتُدار بالأسلوب نفسه، وبشكل يتناسب مع أوضاع آبائهم، فيما عدا أبناء الحِرَفيين الذين يتركون المدرسة وهم في سن السابعة لكي يتدربوا على حِرْفة. أما أبناء الأشخاص ذوي المكانة الأعلى، فيستمر تعليمهم وتدريبهم حتى سن الخامسة عشرة، وهو يساوي عندنا سن الحادية والعشرين.

في مدارس الإناث يتم تعليم البنات بشكل مشابه كثيرًا لتعليم البنين، لكن تُلْبِسهن ثيابهن ممرضات خاضعات لنظام صارم، ودائمًا بحضور أستاذٍ أو مساعِدِه، وحين يبلغن الخامسة يُفْرَضُ عليهن أن يرتدين ملابسهن بأنفسهن. وإذا ضُبِطَتْ هؤلاء الممرضات وهن يتجرأن على تسلية البنات بقصص مخيفة أو حمقاء[١٣]، أو على اقتراف الحماقات التي تقترفها خادمات غرف النوم عندنا، فإنهن يُجْلَدْنَ علنًا ثلاث مرات في أنحاء المدينة، ثم يوضَعْنَ في السجن لمدة عام، ثم يُنْفَيْنَ مدى الحياة إلى أتعس جزء في البلاد، ولهذا فإن السيدات الصغيرات هناك يخجلن، كما يفعل الرجال، من أية تصرفات تدل على الجبن أو الحماقة، ويحتقرن كل أنواع الزينة الشخصية[١٤] خارج حدود الحشمة والنظافة. ولم ألاحظ أي اختلاف أو فرق في تعليمهن[١٥] بسبب اختلاف جنسهن، سوى أن تدريبات الإناث أقلّ شدة وعنفًا، وأنهن يُعْطَيْن التعليمات والقواعد الخاصة بالحياة المنزلية، وأن كمية المعلومات المطلوبة منهن أقلّ. فهم يرون أن على الزوجة في الطبقة الرفيعة أن تكون رفيقة ودودة وعاقلة، لأنها لا تستطيع أن تظل جميلة. وحين تصبح البنت في الثانية عشرة، وهو سن الزواج عندهم، يأخذها والدها أو الوصي عليها إلى البيت، معترفًا بالفضل الكبير للأساتذة. وقلما يتم هذا دون ذرف للدموع من السيدة الصغيرة ورفيقاتها.

وفي مدارس الإناث من الطبقات الأدنى، تُدَرَّب الطفلات على جميع أنواع الأعمال المناسبة لجنسهن وطبقاتهن. ومن كانت مكتوبًا لها أن تتدرب على حِرْفة، تترك المدرسة في سن السابعة، أما الأخريات فيبقين حتى سن الحادية عشرة.

العائلات الأدنى التي لها أطفال في هذه المدارس، يُفْرَض عليها دفع الرسوم السنوية المخَفَّضة إلى أقصى حد ممكن، وتَقديم جزءٍ صغيرٍ من إنتاجها في كل شهر إلى مدير المدرسة للانفاق على إعالة الطفل. وهكذا فإن كل الآباء ملزمون قانونًا بنفقات أطفالهم. ويرى أهل ليليبوت أنه ليس هناك ظلم أكبر من أن يستجيب الناس لشهواتهم فينجبون أطفالًا ثم يتركون عبء إعالتهم على المجتمع. أما بالنسبة للآباء من الطبقات الراقية، فإن عليهم أن يخصصوا لكل طفل من أطفالهم

مبلغًا من المال يناسب طبقتهم ومكانتهم. وتُدار هذه الأموال بأسلوب اقتصادي سليم ويُنْفق منها بالعدل والقسطاس.

أما الفلاحون والعمال فإن أطفالهم يَبْقَوْن معهم لأن عملهم في الحياة ينحصر في فلاحة الأرض واستثمارها، لأن تعليمهم في المدارس لا جدوى منه للمجتمع. أما المسنون والعجزة منهم، فتعولهم المؤسسات والملاجئ الخيرية، لأن التسول والشحاذة حرفة غير معروفة في هذه الامبراطورية.

وهنا ربما يكون من الممتع بالنسبة للقارئ الفضولي. أن أقدم له وصفًا لحياتي المنزلية وأسلوب معيشتي في هذه البلاد، خلال إقامة امتدت تسعة شهور وثلاثة عشر يومًا. أنا ذو عقلية عملية، وأميل إلى صُنْعِ الأشياء بيدي. لهذا، وبدافع الحاجة، صنعتُ لنفسي طاولة وكرسيًا مناسبين، وذلك من أكبر الأشجار في الحديقة الملكية. وقد استُخْدِمَتْ مائتا خياطة لصناعة قمصان لي وملايات وأغطية لفراشي وطاولتي، وذلك من أقوى وأخشن الأقمشة عندهم. ولأن أسمَكَ قماش عندهم أرقّ من الشاش الشفاف عندنا، فقد اضطُرَّتِ الخياطات إلى أن يضعن طبقات منه فوق بعضها، ثم يدرزنها عرضًا وطولًا. عرضُ لَفَّة القماش عندهم ثلاث بوصات، وطولها ثلاثة أقدام. كانت الخياطات يأخذن مقاسي وأنا مستلقٍ على الأرض، فتقف واحدة منهن على عنقي وثانية فوق وسط ساقي، وبينهن حبل قوي تمسك كل منهما بطرف منه، بينما كانت ثالثة تقيس طول الحبل بمسطرة طولها بوصة واحدة. ثم كن يقسن محيط إبهامي الأيمن ويكتفين بذلك. وحسب معادلات رياضية مثل، ضعفا محيط الابهام يساويان محيط الرسغ، وهكذا بالنسبة للعنق والخصر، وبالاستعانة بقميصي القديم الذي كنت قد بسطته على الأرض أمامهن كنموذج، تمكّنت الخياطات من صنع قمصان على مقاسي تمامًا. كذلك استُخْدِمَ ثلاثمائة خياط لعمل ملابسي، واتبعوا أساليب مماثلة في كل شيء، ما عدا طريقة أَخْذِ القياس، فإن لهم طريقة أخرى. كنت أركع، ويضعون سلمًا يصل إلى رقبتي، ويصعد عليه واحد منهم حتى يصل إلى عنقي، ومن هناك يُسْقِطُ خيطًا عاموديًا من ياقتي إلى الأرض، وكانوا يعتبرون طول هذا الخيط مساويًا لطول معطفي. أما مقاس خصري وذراعي، فكنت آخذه بنفسي. وقد تم عمل القمصان والملابس كلها في بيتي، لأنه ليس عندهم بيت يتسع لتلك الأعداد. وحين انتهت ملابسي بدت مثل المرقَّعات التي تصنعهن السيدات بانجلترا ـ الفرق الوحيد هو أن مرقّعاتي كانت كلها بلون واحد.

وكان لديّ ثلاثمائة طباخ لإعداد طعامي. كانوا هُم وعائلاتهم يعيشون في أكواخ مناسبة بُنِيَتْ لهم حول مسكني. وكان كل طباخ منهم يُعِدّ لي طبقين. كنت أحمل عشرين من خدم المائدة في يدي وأضعهم على الطاولة، وكان مائة آخرون يقفون على الأرض بعضهم يحمل أطباق اللحم والبعض الآخر يحملون على أكتافهم براميل النبيذ أو السوائل الأخرى. وكان الذين على الطاولة يحضرون لي

ما أطلبه بطريقة بارعة جدًا، إذ كان بأيديهم حبال في طرف كل حبل سلة يوضع فيها الطبق أو البرميل، فيسحبونه إلى أعلى كما نفعل في أوروبا حين نسحب دلوًا من بئر. كان طبق اللحم يساوي لقمة جيدة، وبرميل النبيذ جرعة معقولة. لحم خرافهم أقل جودة من لحم خرافنا، ولكن لحم عجولهم ممتاز. وأحيانًا كانوا يأتونني بقطعة كبيرة جدًا من لحم العجل فأضطر إلى تقطيعها إلى ثلاث لقمات. ولكن هذا كان نادر الحدوث. وكان خدمي يذهلون إذ يرونني آكل العظم مع اللحم، كما نفعل في بلادنا حين نأكل فخذ قُبَّرة. وكنتُ آكُلُ إوزَّتهم أو ديكهم الرومي في لقمة واحدة. ولا بدَّ أن أعترف أن إوَزَّهم وديوكهم أطيب وألذُّ منها عندنا. أما بالنسبة لطيورهم الصُّغرى فكنت أحمل عشرين أو ثلاثين منها على طرف سكيني.

بعد أن علم جلالة الامبراطور بطريقة معيشتي، رغب ذات يوم أن يشرفني بحضوره شخصيًا، ترافقه زوجته الامبراطورة وأولادهما الأمراء والأميرات لكي يسعدوا (هكذا أَحَبَّ أن يصف الأمر) بتناول طعامهم معي. وقد حضروا بالفعل، فرفعْتُهم وأَجْلَسْتُهم على كراسي ملكية فوق طاولتي وفي مواجهتي، وحولهم حراسهم. وكذلك جاء فُليمْنابْ، وزير الخزانة ومعه عصاه الرسمية البيضاء(١٦). وقد لاحظتُ أنه كان يُكْثِر من النظر إليَّ بوجه عابس متجهم، ولكني تظاهرتُ بتجاهل نظراته، وأكلتُ أكثر من عادتي تكريمًا لبلادي الغالية وحرصًا على إثارة إعجاب الامبراطور وحاشيته. وقد توفرتْ لديَّ أسباب خاصة تحملني على الاعتقاد أنَّ هذه الزيارة التي قام بها جلالته أعطت فْليمْنابْ فرصة للإساءة إليّ عند سيده. لقد كان هذا الوزير يُضْمِر لي العداء دائمًا، مع أنه كان يلاطفني في الظاهر ملاطفةً لا تتفق مع نَكَدِ طبعه. فقد صور للامبراطور سوء أحوال الخزينة، وأنه اضطر لاقتراض الأموال بفوائد ربوية عالية، وأن سندات الدولة التي يصدرها لا يشتريها الناس إلا بعد خصم أكثر من ٩٪ من قيمتها، وبيَّن لجلالة الامبراطور أن نفقات إعالتي زادت على المليون ونصف المليون سْبْروجْ (وهي أكبر مسكوكة ذهبية عندهم بحجم حبة البرق)، وملخص الأمر أنه يرى من الأفضل أن ينتهز جلالته أول فرصة مواتية للتخلص مني.

وهنا أجد لزامًا عليّ أن أبرِّئ ساحة سيدة عظيمة(١٧) كانت ضحية بريئة بسببي. فقد تهيأ لوزير الخزانة أن يشعر بالغيرة على زوجته بسبب الألسنة الشريرة الحاقدة التي أخبرته أن صاحبة السعادة زوجته متيمة بحبي، وتهيم غرامًا بشخصي. وقد تداولتْ ألسنة الناس في القصر هذه الفضيحة، إذ زعموا أنها زارتني سرًّا في مسكني. وأنني أعلن بكل حزم أن هذه فِرْيَة لئيمة، ولا أساس لها سوى أن سعادتها كانت تعاملني بلطف ومودة بريئة. أعترف أنها جاءت مرارًا إلى بيتي، ولكن ذلك كان يتم علنًا. وهي لم تزرني قط إلا ومعها في العربة ثلاث رفيقات، هن أختها وبنتها وواحدة من معارفها. ولكن هذا ما كانت تفعله أيضًا سيدات أخريات من القصر. وليسألوا خَدَمي المحيطين بي الذين كانوا يعرفون كل من يكون في العربات التي تأتي إلى بابي. وفي هذه المناسبات

كنت أنهض حالما يخبرني الخدم، وأذهب إلى الباب، وبعد أن أقدم كل آيات الاحترام والترحاب، أحمل العربة وحصانين بين يديّ بكل عناية ورفق (وحين يكون هناك ستة جياد كان السائق يُخْلي سبيل أربعة منها)، ثم أضعها فوق الطاولة التي كنت قد وضعت على حوافها حاجزًا بارتفاع خمس بوصات منعًا للحوادث. وكثيرًا ما كان يجتمع عندي على الطاولة دفعة واحدة، أربع عربات بجيادها وكل من في داخلها من الزوار، فأجلس على الكرسي وأميل بوجهي نحوهم. وحينما كنت أنشغل مع مجموعة منهم، كان سائقو العربات يسوقون عرباتهم بمن فيها من المجموعات الأخرى في نزهة حول الطاولة. وما أكثر الأمسيات التي قضيتها في أحاديث شيقة من هذا النوع. وأتحدى وزير الخزانة أو جاسوسَيْهِ (وسأذكر اسميهما هنا وليفعلا ما يشاءان)، وهما **كْلُسْتْرِلْ ودْرُنْلُو**[١٨]، أن يثبتا أن أحدًا زارني قط متخفيًا أو مجهول الهوية[١٩]، فيما عدا وكيل الوزارة **ريلدريسال**، الذي أُرْسِل إليَّ بأمر صريح من جلالة الامبراطور، كما ذكرتُ من قبل. وما كنتُ لأتوقف طويلًا عند هذه الحادثة، لولا أنها تمس شرف سيدة عظيمة مَسًّا خطيرًا، بل وتمسّ شرفي وسمعتي أيضًا، رغم كوني أتشرف بحمل لقب **نارداك** الذي لا يحمله هو- فكل الدنيا تعرف أنه ليس سوى **كْلُومْ جْلُوم** وهو لقب يقل درجة عن لقبي[٢٠]، كما يقل لقب ماركيز عن لقب دوق في إنجلترا- ورغم ذلك أَعْتَرِفُ أنه أعلى مني مَنْصِبًا. على كل حال، كانت هذه المعلومات الكاذبة، التي علمتُ بها فيما بعد عن طريق صدفة لا يليق أن أذكرها، قد جعلَتْ وزير الخزانة يلقى زوجته بتجهم لبعض الوقت، ويلقاني بعبوس أكثر تجهمًا. ومع أن الحقيقة بانت له آخر الأمر، فتصالح مع زوجته، إلا أن معاداته لي ظلت مستمرة. كما وجدتُ أن علاقتي مع الامبراطور نفسه راحت تتدهور بسرعة، لأنه كان يتأثر تأثرًا قويًا حقًّا برأي ذلك الوزير المقرب إليه.

الفصل السابع

المؤلف يعلم بمؤامرة لاتهامه بالخيانة العظمى فيهرب إلى بْليفُسْكو. وصْفٌ لاستقباله هناك.

قبل أن أبدأ بشرح كيفية مغادرتي لهذه المملكة، قد يكون مناسبًا أن أُطْلِعَ القارئ على مؤامرة سرية كانت تحاك ضدي منذ شهرين.

كنتُ طيلة حياتي وحتى الآن غريبًا على القصور الملكية التي لم أكن مؤهلًا لها بسبب وضاعة أصلي وطبقتي الاجتماعية. وكنتُ في الحقيقة قد سمعتُ وقرأتُ الكثير عن طباع الأمراء والوزراء العظام. ولكني لم أتوقع قط أن أجد مثل أعمالهم المروعة في بلاد تبعد كل هذا البعد[1]، وتحكمها، كما ظننتُ، مبادئ تختلف في تلك التي تحكم أوروبا.

عندما كنتُ أتأهب لزيارة امبراطور بْليفُسْكو والمثول بين يديه، جاءني في الليل وبشكل سِرّيّ وداخل مَحَفّة مغلقة، شخص مرموق في القصر[2] (وكنت قد خدمتُه خدمات جليلة حينما كان مغضوبًا عليه من قبل صاحب الجلالة الامبراطور)، وطلب مقابلتي دون أن يذكر اسمه. وبعد أن صرفنا حمّالي المحفّة، وضعتُ المحفة، وسيادته داخلها، في جيب معطفي. وبعد أن أصدرتُ الأوامر لخادم موثوق أن يقول إنني مريض ونائم، أغلقتُ باب منزلي ووضعتُ المحفة على الطاولة كما كنتُ أفعل دائمًا وجلستُ أمامها. وبعد أن انتهينا من التحيات المعتادة لاحظتُ أن وجْهَ سيادته مُفْعَم بالهمّ والقلق. واستفسرت عن سبب ذلك، فطلب مني أن أصغي إليه في صبر، لأن الموضوع يخصّ شرفي وحياتي. وفيما يلي فَحْوى ما قال، لأنني سجلتُ أهم ما قاله حالما انصرف.

قال: عليك أن تعلم أنه قد عُقِدَتْ في الآونة الأخيرة عدة جلسات وبشكل سِرّي جدًا بسببك، ومنذ يومين فقط توصل جلالته إلى القرار الأخير.

أنت تدرك أن سُكايريش بُلْغُلام، ـ وهو الـ غالْبِتْ أو وزير البحرية ـ كان عدوك اللدود منذ وصولك تقريبًا. ولست أعرف الأسباب الأصلية لعدائه، لكن كرهه لك ازداد كثيرًا بعد انتصارك العظيم على بليفُسْكو مما أفقده هيبته وطمس أمجاده كأمير للبحر. وقد قام هذا اللورد بالتعاون مع

فْليمْناب وزير المالية الذي عُرِف بعداوته لك بسبب زوجته، **وليتْموكْ** القائد، **ولَلْكُنْ** الحاجب، **وبَالْموفْ** رئيس المحكمة العليا(٣)، بإعداد لائحة اتهام ضدك، يتهمونك فيها بالخيانة العظمى وجنايات كبرى أخرى.

هذه المقدمة جعلتني أفقد صبري إذ كنتُ متأكدًا من براءتي وفضائلي وحسناتي، وأحاول مقاطعته. لكنه توسل إليّ أن أَصْمُتَ وأُصغي. واستأنف كلامه قائلًا:

واعترافًا بأفضالك عَليَّ ومآثرك عندي، فقد حصلتُ لك على معلومات عن جميع الإجراءات ونسخة من لائحة الاتهام، وبهذا جازفتُ برأسي من أجلك.

لائحة الاتهامات(٤) ضد **كوينبُسْ فليسْترِنْ: الرجل - الجبل.**

مادة أولى

ينص القانون الصادر في عهد صاحب الجلالة الامبراطور **كالِينْ ديفّارْ بْلُونْ**، على ما يلي: كل من يتبول في منطقة القصر الملكي، يعرض نفسه لآلام وعقوبات الخيانة العظمى. وبالرغم من ذلك فإن الرجل - الجبل المذكور، قد اقترف خرقًا صريحًا للقانون المذكور، زاعمًا أنه يطفئ النار المشتعلة في جناح زوجة جلالة الامبراطور الغالية، إذ قام بدوافع الحقد والخيانة والعبث الشيطاني بتفريغ بوله على النار المذكورة المشتعلة في الجناح المذكور، والواقع والكائن داخل منطقة القصر الملكي المذكور، وبهذا خالف القانون الذي ينص على هذه الحالة... الخ كما خالف الواجب... الخ.

مادة ثانية

إن الرجل - الجبل المذكور، بعد أن أحضر الأسطول الامبراطوري لِـ **بْليفُسْكو**، إلى الميناء الملكي، أمره صاحب الجلالة الامبراطور بعد ذلك أن يأسر جميع سفن امبراطورية **بْليفسْكو** المذكورة لكي تتحول تلك الامبراطورية إلى مقاطعة يحكمها نائب - ملك من هنا، وأن يحطم ويعدم ليس فقط جميع المنفيين أَتْباع مذهب طرف البيضة الكبير، بل وجميع رعايا تلك الامبراطورية الذين يرفضون التخلي فورًا عن بدعة طرف البيضة الكبير. لكن الرجل - الجبل، وهو الخائن الغادر لصاحب الجلالة الامبراطور صاحب العهد الميمون، التمس أن يُعْفَى من المهمة المذكورة، وزَعَمَ أنه لا يرغب في الاعتداء على ضمائر شعب بريء أو تدمير حرياته وحياته.

مادة ثالثة

حين وصل بعض السفراء من بلاط **بْليفُسْكو** ينشدون السلام في قصر جلالته. قام الرجل - الجبل، وهو الخائن الغادر، بمساعدة السفراء المذكورين، وتحريضهم، ومواساتهم والترويح عنهم،

رغم أنه كان يعلم أنهم أتْباع أميرٍ كان حتى عهد قريب، عَدوًّا واضحًا لصاحب الجلالة الامبراطور، وفي حرب علنية ضد صاحب الجلالة المذكور.

مادة رابعة

إن الرجل ـ الجبل المذكور يتهيأ الآن، على عكس ما يتطلبه الواجب من مواطن مخلص، للسفر إلى بلاط وامبراطورية بْليفُسْكو بعد أن حصل على ترخيص شفهي فقط بذلك من صاحب الجلالة الامبراطور. وهو ينوي، متسترًا بالترخيص المذكور، أن يقوم بتلك الرحلة غدرًا وخيانةً، ليساعد ويواسي ويحرض امبراطور بْليفُسْكو، الذي كان حتى عهد قريب عَدوًّا وفي حرب علنية ضد صاحب الجلالة الامبراطور.

وهناك مواد أخرى، لكن المواد التي قرأتُ لك ملخصها هي أهم المواد.

ولا بد من الاعتراف أن جلالته، خلال المناقشات العديدة حول وثيقة الاتهام هـذه، قد أعطى دلائل كثيرة على رأفته ولينه. فقد أشار مرارًا إلى الخدمات التي أدَّيْتَها له، وحاول أكثر من مرة أن يخفف من خطورة جرائمك. وقد أصَرَّ وزيرا الحربية والبحرية على وجوب إعدامك بطريقة مؤلمة ومشينة، بإشعال النار ليلًا في بيتك، في حين يحيط به الجنرال وعشرون ألفًا مسلحون بسهام مسمومة ليطلقوها على وجهك ويديك، أو بإصدار أوامر سرية إلى خدمك، لكي يرشّوا سائلًا سامًّا على قمصانك(٥) وفراشك مما سيجعلك بعد فترة وجيزة، تمزق لحمك بنفسك من الألم، وتموت في عذاب شديد. وقد وافق الجنرال على الرأي نفسه. ولفترة طويلة كانت الأكثرية ضدك. لكن جلالته كان قد قرر الإبقاء على حياتك، واستطاع أخيرًا أن يجعل الحاجب في صَفِّه.

وهنا أمر الامبراطور، وزير الدولة والشؤون الخاصة، ريلْدْرِسالْ، الذي كان دائمًا يعدُّ نفسه صديقك الصادق، أن يدلي برأيه. وقد أطاع ونفذ الأمر، وكان رأيه مصداقًا لحسن ظنك به. قال إنه يعترف أن جرائمك عظيمة، ولكن ما زال هناك مجال للرحمة التي هي أعظم فضيلة يوصف بها أمير، والتي اشتهر جلالته عن جدارة بها. وقال إن العالم كله يعرف ما بينه وبينك من صداقة، ولذلك ربما يظنّ المجلس، وكلّ مجلس شريف، أنه متحيز في صفك. وعلى كل حال، وتنفيذًا للأمر الذي تلقّاه، سيعرض موقفه بصراحة، وهو أن يتكرم الملك، تقديرًا لخدماتك، وانطلاقًا من طبعه الرحيم، بالإبقاء على حياتك، والاكتفاء بإصدار حُكْمٍ بفَقْءِ عينيك(٦). وفي رأيه المتواضع أنه بهذه الطريقة يمكن إرضاء العدالة إلى حد ما، وسيتغنى العالم برأفة الامبراطور ولينه، وإثبات سلامة وكرم الاجراءات التي قام بها من يتشرفون بعملهم معه كمستشارين. أما بالنسبة لفَقْدِ عينيك، فذلك لن يعطل قوتك الجسدية(٧) التي يمكنك بها أن تظل ذا نفع لجلالتـه، وإن العمى يزيـد

الشجاعة إذ يخفي عنا الأخطار، وإن خوفك على عينيك كان الصعوبة الكبرى التي واجَهَتْكَ في اقتناص أسطول الأعداء، وإنه سيكفيك أن ترى بعيون خدمك، فهكذا يفعل أعظم الأمراء[٨].

وقد قوبل هذا الاقتراح بأقصى الاستهجان والرفض من قِبَلِ أعضاء المجلس كلهم. ولم يستطع أمير البحر أن يحتفظ بهدوئه، بل نهض وهو يتأجج غضبًا وقال، إنه يعجب كيف يجرؤ وكيل الوزارة على إعطاء رأيٍ بالإبقاء على حياة خائن، وإن الخدمات التي قَدَّمْتها، لو نُظِر إليها من زاوية أمْن الدولة ومصالحها، لزادَتْ من خطورة جرائمك، لأنك إذا استطعتَ أن تُخْمِد النار بتفريغ بَوْلِكَ على جناح جلالتها (وقد ذكر هذا برُعْبٍ واشمئزاز) فإنك تستطيع في وقت آخر وبنفس الوسيلة أن تُحْدِثَ فيضانًا يُغْرِقُ القصر كله، وإن القوة التي مَكَّنَتْكَ من أَسْرِ أسطول الأعداء، تُمَكِّنك، إذا ما غضبتَ مِنّا وسخطتَ علينا، أن تعيده، وإن لديه من الأسباب ما يجعله يعتقد أنك، في قلبك، من أتباع مذهب طرف البيضة الكبير، وإن الخيانة تبدأ في القلب قبل أن تظهر في العمل العلني، ولهذا فهو يَتَّهمك بالخيانة على هذا الأساس ولذلك يُصِرّ على إعدامك.

وكان لوزير المالية الرأي نفسه، فقد شرح الضائقات المالية التي تتعرض لها خزينة جلالته بسبب تكاليف إعالتك والإنفاق عليك، وقال إن هذه التكاليف سرعان ما ستصبح غير محتملة، وإن اقتراح وزير الدولة بفَقْءِ عينيك ليس علاجًا لهذه المشكلة بل هو شر يزيدها تفاقمًا. فمن الواضح من الممارسات الشائعة في فَقْءِ عيون بعض الطيور، أنه يزداد أكْلها سرعةً على إثْر ذلك، وتصبح سمينة في وقت قصير، وإن جلالته المقدسة وأعضاء المجلس - الذين هم قُضاتُك - مقتنعون تمامًا في ضمائرهم بجريمتك، وهذا في حد ذاته حجة كافية للحكم بإعدامك دون الحاجة إلى تقديم أدلةٍ رسميةٍ كما يتطلب النص الحرفي للقانون.

لكن جلالته كان مُصِرًّا كل الإصرار ضد العقوبة القصوى، وتكرم بقوله إنه بما أن المجلس يرى أن فَقْأَ العينين عقوبة خفيفة جدًا، فإنه يمكن إنزال عقوبة أخرى فيما بعد. والتمس صديقك وزير الدولة أن يستمعوا له مرةً أخرى لِيُعَلِّق على اعتراض وزير الخزانة بالنسبة للنفقات الباهظة التي يتحملها جلالته في إعالتك، وقال إن سعادة الوزير الذي بيده وحده التصرف بأموال الامبراطور، يستطيع بسهولة أن يحتاط ضد هذا الأذى عن طريق التخفيض التدريجي لطعامك وشرابك، حتى يُؤدّي نقص الطعام إلى هزالك ونحولك وفقدانك للشهية، وبالتالي تتدهور صحتك وتهلك في بضعة أشهر، ولن تكون رائحة جيفتك خطيرة جدًا حينذاك، لأنها ستكون قد نقصت إلى النصف، وإنه حالما تموت سيكون في إمكان خمسة أو ستة آلاف من رعايا جلالته تقطيع لحمك عن عظمك وحَمْله في عربات نقل، ودَفْنِهِ في أماكن بعيدة مَنْعًا للأوبئة. أما هيكلك العظميّ فسيظل نصبًا تتفرج عليه وتتعجب منه الأجيال القادمة.

وهكذا فإن صداقة وزير الدولة العظيمة لك ساعَدت في التوصل إلى حلٍّ وسَطٍ للمشكلة. لكنه تم الاتفاق على أن يبقى مشروع تجويعك بالتدريج سرًّا دفينًا لا يسجّله ولا يتفوّه به أحد، أما الحكم بِفَقْءِ عينيك فقد تمَّت كتابته في السجلات، ولم يمتنع عن الرضا بهذا الاتفاق سوى بُلْغُلام أمير البحر الذي هو صنيعة الامبراطورة التي كانت تحرضه على الدوام لكي يُصِرّ على إعدامك، لأنها حملت لك في قلبها غِلاً دائمًا بسبب الطريقة الشائنة وغير القانونية التي استخدمتَها في إطفاء الحريق في جناحها.

وفي ثلاثة أيام سيُؤْمَر صديقك وزير الدولة بالمجيء إلى منزلك ليقرأ أمامك لائحة الاتهام، ثم ليشرح لك أهمية رأفة الملك ومجلسه بك، وفضلهم عليك المتمثل في أنهم حكموا عليك بفَقْءِ عينيك فقط - وهو حكم لا يشكُّ جلالته أنك ستخضع له وتقبل به بامتنان. وسيأتي إليك عشرون من جراحي الملك حرصًا على التأكد من تنفيذ الحكم جيدًا، وذلك بإطلاق سهامٍ ذات رؤوسٍ دقيقة وثاقبةٍ في بُؤْبُؤَيْ عينيك وأنت مُسْتَلْقٍ على الأرض.

والآن أَتْرُكُ لحكمتك أن تحدد الخطوات التي ستتخذها. ولكي أتجنب الشكوك لا بدَّ أن أعود في الحال بالأسلوب السرّي نفسه الذي جئت به إليك.

وفعل سيادته ذلك، وبقيتُ وحدي تعْتَوِرُني المخاوف والشكوك وحيرة الذهن.

من بين العادات التي ابتدعها هذا الأمير وَوزراؤه (وهي تختلف، كما أكد لي الكثيرون عن الممارسات السابقة) أنه بعد أن يُصْدِر مجلسهم حكمًا قاسيًا بالإعدام، إما ليتّقي غضب الملك أو ليشفي غِلّ أحد المقرَّبين إليه، يُلْقي الامبراطور على مجلسه كله خطابًا يتحدث فيه عن رأفته العظيمة ورِقَّته البالغة، باعتبارهما صفتين يعرفها فيه ويشهد له بهما العالم كله. وكان هذا الخطاب يُنْشَر على الفور في جميع أنحاء المملكة. ولم يكن يُرْعِب الناس شيء بقدر ما كانت تُرْعبهم هذه المدائح عن رأفة جلالته ورحمته[٩]، لأنه كان ملحوظًا لديهم أنه بِقَدْرِ ما يزيد الإسهاب في هذه المدائح والإصرار عليها، تكون العقوبة أشدّ قسوة والضحية أكثر براءة. ومع ذلك، فإنه بالنسبة لي لا بُدّ أن أعترفَ أنني غير مؤهل أبدًا، نَسَبًا أو تربية، لأكون من رجال الحاشية أو القصور، ولهذا لم أعرف كيف أَزِنُ الأمور وأُقَيِّمها، ولم أستطع أن أرى رحمة أو فضلًا في الحكم الصادر عليَّ، بل تصورتُه (وربما أكون مخطئًا) حكمًا قاسيًا وليس خفيفًا. فكرتُ أحيانًا أن أستأنف الحكم، فمع أنني لم أكن أستطيع أن أُنْكِرَ الوقائع المذكورة في المواد المتعددة في لائحة الاتهام، فقد كنتُ آمل أنها قابلة للتفسير والشرح بطريقة تخفف خطورتها. لكني كنتُ قد قرأتُ في حياتي كثيرًا من محاكمات الدولة ولاحظتُ دائمًا أنها تنتهي كما يشاء لها القاضي. ولم أجرؤ على الاعتماد على قرارٍ بهذه الخطورة، في

ظرف بهذا الحَرَج، وضد خصوم بهذه القوة[١٠]. وتهيأ لي ذات مرة أنني مصمم على المقاومة لأنني، ما دُمْتُ حُرًّا، لا تستطيع كل قوة تلك الامبراطورية أن تتغلب عليّ، وبإمكاني بسهولة أن أدُكَّ العاصمة برَجْمِها بالحجارة. ولكني سرعان ما رفضتُ هذا المشروع وأنا أشعر برعب من شيطان نفسي، إذْ تذكرتُ اليمين الذي أقسمتُه للامبراطور، وأفضالَهُ عليَّ، ولقب نارداك الرفيع الذي أنعم به عليّ. ولم أكن قد تعلمتُ بسرعة أسلوب رجال الحاشية في العِرْفان بالجميل، لأُقْنِعَ نفسي أن قسوة جلالته عليّ في الحاضر تعفيني من كل عهودي والتزاماتي التي قطعتُها له في الماضي.

وأخيرًا استقر رأيي على قرار قد يَجُرّ عليَّ بعض النقد واللوم، وهو نقد ليس دون وجه حق. أعترفُ أنني مدين بالاحتفاظ بعينيّ وبالتالي بحريتي لتَسَرُّعي وطيشي وقلة خبرتي، لأنني لو كنتُ حينذاك أعرف طبائع الأمراء والوزراء التي درستُها فيما بعد في قصورٍ أخرى كثيرة، ولو كنتُ أعرف طرقهم وأساليبهم في معاملة المجرمين الذين هم أقل شرًّا مني، لَخَضَعْتُ برضًا وابتهاج عظيمين لتلك العقوبة الخفيفة جدًا. لكن تَهَوُّر الشباب، وترخيص صاحب الجلالة الامبراطور لي بالمثول بين يديّ امبراطور **بليفسكو**، دفعاني إلى اغتنام هذه الفرصة قبل أن تنقضي الأيام الثلاثة، فأرسلتُ خطابًا إلى صديقي وزير الدولة، أخبره بعزمي على الذهاب في ذلك الصباح إلى **بليفسكو** طبقًا للترخيص الذي كنتُ قد حصلتُ عليه. ودون أن أنتظر ردًّا، ذهبتُ إلى ذلك الجانب من الجزيرة الذي يرسو فيه أسطولنا. أمسكتُ بارجة حربية كبيرة، وربطتُ حبلًا بمقدمتها، ورفعتُ مرساتها، وتعرَّيْتُ، ووضعتُ ملابسي (مع غطائي الذي كنت أحمله تحت ذراعي) في السفينة، وجررتُ السفينة خلفي، ورحتُ أخوض الماء تارة، وأسبح أخرى، حتى وصلتُ إلى الميناء الملكي في **بليفسكو** حيث كان الناس يتوقعون وصولي منذ مدة طويلة. وقد أعاروني مرشِدَيْنِ ليقوداني إلى العاصمة التي تحمل اسم البلاد نفسها. وقد حملتُهما في يدي حتى وصلتُ على بعد مائتي ياردة من البوّابة، ثم طلبتُ منهما أن يخبرا أحد الوزراء بوصولي، وأن يُعْلِماه أنني سأظل في مكاني في انتظار أوامر الامبراطور. وقد جاءني الجواب في حوالي ساعة، أن جلالته، ترافقه العائلة الملكية وكبار موظفي القصر، كان قد خرج لاستقبالي. تقدمتُ مائة ياردة، وترجَّل الامبراطور وحاشيته عن خيولهم ونزلَتِ الامبراطورة والسيدات من عرباتهن، ولم ألاحظ فيهم أي شيء يدل على الخوف أو القلق. واضطجعتُ على الأرض لأقبِّل يدَ جلالته ويَد الامبراطورة. وقلتُ لجلالته إني قَدِمتُ تنفيذًا لوعدي، وبترخيصٍ من مولاي الامبراطور، لأتشرَّف بمشاهدة ملكٍ عظيم مثله، ولأعرضَ على جلالته أية خدمة أستطيعها ولا تتعارض مع واجبي نحو أميري. ولم أذكر كلمة واحدة عن سقوط قَدْري وما حَلّ بي، لأنني لم أكن حتى الآن قد استلمتُ خبرًا رسميًا عما حصل، وبإمكاني أن أعتبر نفسي جاهلًا تمامًا به. وقد قدَّرْتُ أنه من غير المعقول أن يكشف امبراطور **ليليبوت** السرّ وأنا خارج حدود نفوذه وسلطاته. لكن سرعان ما ظهر أنني كنتُ مخدوعًا بهذا التقدير.

ولن أزعج القارئ بتقرير مفصل عن استقبالي في هذا القصر، وهو استقبال يتفق مع كرم أمير عظيم مثله. كما لن أزعج القارئ بالصعوبات التي واجهتُها إذ فقدتُ المسكن والفراش واضطررتُ إلى النوم على الأرض متلفعًا بغطائي.

الفصل الثامن

بِصُدْفةٍ سعيدةٍ يعثر المؤلف على وسيلة يغادر بها بليفسكو وبعد بعض الصعوبات يصل سالمًا إلى بلاده ووطنه.

بعد ثلاثة أيام من وصولي كنت أتمشّى بدافع الفضول إلى الساحل الشرقي ـ الشمالي من الجزيرة، ولاحظتُ على بعد نصف فرسخ في البحر، شيئًا بدا لي كأنه قارب مقلوب. خلعتُ نعلي وجَوربيَّ، وبعد أن خضتُ في البحر مسافة مائتين أو ثلاثمائة ياردة وجدتُ ذلك الشيء يقترب مدفوعًا بقوة المَدّ، ثم رأيتُ بوضوح أنه قارب حقيقي، وافترضتُ أن عاصفة قد تكون قَذَفَتْه بعيدًا عن سفينة. عند ذاك عدتُ على الفور نحو المدينة، وطلبتُ من جلالة الامبراطور أن يعيرني عشرين من أكبر سفنه التي بَقِيَتْ له بعد أن فقد أسطوله، وثلاثة آلاف بحار تحت إمرة نائب أمير البحر. وحين أبحر هذا الأسطول رجعتُ أنا من أقصر طريق إلى الساحل حيث اكتشفتُ القارب، ووجدتُ أن المدَّ كان قد قرَّبه أكثر. كان جميع البحارة مزودين بالحبال التي كنتُ قد جَدَلْتُها حتى أصبحتْ قوية بدرجة كافية. وحين وَصَلَتِ السفن، خلعتُ ملابسي وخضتُ في البحر حتى أصبحتُ على بعد مائة ياردة من القارب، وبعد ذلك كان عليَّ أن أسبح حتى وصلتُ إليه. ورمى لي البحارة طرف الحبل فربطتُهُ في ثُقْبٍ في مقدمة القارب كما ربطتُ الطرف الثاني ببارجة حربية. ولكني اكتشفتُ أن كل جهدي لا يجدي. فقد كان البحر هنا عميقًا لا تصل قدماي قعره، ولم أستطع أن أعمل. في هذه الورطة، اضطررتُ للسباحة إلى خلف القارب، ثم إلى دَفْعِه مرة تلو الأخرى بإحدى يديَّ. وقد ساعدني المَدُّ فتقدمتُ حتى وصلتُ إلى منطقة يغمرني الماء فيها حتى ذقني. واسترحتُ دقيقتين أو ثلاثًا ثم دفعتُ القارب دفعة أخرى، وهكذا حتى لم يعد البحر يصل إلى أعلى من إبطي. وهنا بدأتِ المرحلة الأكثر مشقة. أخرجتُ حبالي الأخرى التي كانت موضوعة في إحدى السفن، وربطتُها بالقارب أولًا، ثم بتسعٍ من السفن التي كانت ترافقني. كانت الريح مواتية والبحارة يشدّون وأنا أدفع حتى وصلنا إلى مسافة أربعين ياردة عن الشاطئ. ثم انتظرنا حتى انحسر المَدّ، وحينذاك، وبمساعدة أَلْفَيْ رجل، استطعتُ بواسطة الحبال، والعتلات أن أقلب القارب حتى أستقرَّ على قَعْرِه، ووجدتُ أن التلف فيه بسيط.

ولن أُثقِل على القارئ بذكر الصعوبات التي واجهتُها لنقل قاربي، بمساعدة بعض المجاديف

التي استغرق صُنْعُها عشرة أيام، إلى الميناء الملكي في **بليفسكو**، حيث ظهر عند وصولي جمهور غفير من الناس وعلى وجوههم الدهشة لرؤية هذه السفينة الهائلة. وقلتُ للامبراطور أن حظّي الطيب قد ألقى هذا القارب في طريقي ليحملني إلى مكان ما، أستطيع منه أن أعود إلى وطني، ورجوتُه أن يُصْدِرَ أوامره بتزويدي بالمواد اللازمة لإصلاحه وتجهيزه، وأن يأذن لي بعد ذلك بالمغادرة. وقد تكرم، بعد بعض الاعتراضات الوُدِّيّة، بمَنْحي ما طلبتُ.

وقد استغربتُ كثيرًا أنني طيلة هذا الوقت، لم أسمع بقدوم رسولٍ من امبراطورنا ليسأل عني في بلاد **بليفسكو**. لكن فهمتُ سرًّا فيما بعد أن صاحب الجلالة امبراطور **ليليبوت** لم يخطر بخياله أنني علمتُ بما دبَّره لي، واعتقدَ أنني إنما ذهبتُ إلى **بليفسكو** تنفيذًا لوعدي وطبقًا للترخيص الذي منحه لي، وهو أمر معروف تمامًا في بلاطنا، وأنني سأعود بعد بضعة أيام، حين تنتهي زيارة المجاملة تلك، لكنه انزعج أخيرًا من غيابي الطويل، وبعد أن تشاور مع وزير خزانته وبقية تلك العصابة، أرسل شخصية مرموقة[1] تحمل معها نسخة من وثيقة الاتهام والإدانة، وكانت تعليمات هذا المبعوث أن يصور لملك **بليفسكو**، الرأفة العظيمة التي يتحلّى بها مولاه، مما جعله يكتفي بمعاقبتي بما لا يتجاوز قلع عينيَّ، وأن يبين له أنني هارب من العدالة، وأنني إن لم أرجع في خلال ساعتين سأُجَرَّد من لقب **نارداك** وأُعْتَبَر خائنًا. وأضاف المبعوث أنه لكي يصان السلام والوئام بين الامبراطوريتين، فإن سيده ينتظر من أخيه في **بليفسكو** أن يأمر بإعادتي إلى **ليليبوت** مقيد اليدين والقدمين، لكي أعاقَب كخائن.

وقد استمهله امبراطور **بليفسكو** ثلاثة أيام للتشاور، وردّ بعدها برسالة تتألف من المجاملات والأعذار العديدة، وقال فيها إنه بالنسبة لإعادتي مقيدًا فإن أخاه يعلم أن هذا مستحيل، وأنه رغم أني جردتُه من أسطوله، إلا أنه مدين لي بواجبات كبيرة مقابل الخدمات الطيبة العديدة التي قدمتُها له خلال عقد معاهدة السلام، وأنه على كل حال سيستريح مني كلاهما بعد وقت قصير، لأنني عثرتُ عند الشاطئ على مركب ضخم كفيل بحَمْلي في البحر، وأنه أمر بتجهيز وإعداد هذا المركب بمساعدتي وإشرافي، وأنه يأمل أن تتحرر الامبراطوريتان بعد بضعة أسابيع من هذا العبء الذي لا طاقة لهما به.

وبعد أن عاد المبعوث إلى **ليليبوت** بهذا الجواب، قصَّ عليَّ ملك **بليفسكو**، كل ما جرى، وعرض عليَّ في الوقت نفسه (ولكن بسرية تامة) حمايته الكريمة إن رغبتُ في الاستمرار في خدمته. ومع أنني آمنت بإخلاصه، فقد قررتُ أن لا أضع ثقتي بعد اليوم في الأمراء والوزراء ما أمكنني ذلك. ولهذا، ومع اعترافي بنواياه الطيبة رجوتُه أن يعفيني، وقُلْتُ، بما أنّ الحظّ، خَيْرًا كان أم شرًّا، قد ألقى مركبًا في طريقي، فإني عقدتُ العزم أن أجازف بركوب البحر على أن أكون مصدر

نزاع بين ملكين عظيمين مثلهما. ولا أظن أن جوابي ساء الامبراطور، بل لقد اكتشفتُ بالصدفة أنه كان سعيدًا جدًا بقراري هذا[٢]، وكذلك كان معظم وزرائه.

هذه الاعتبارات دفعتْني لأن أعجّل برحيلي بأسرع مما كنتُ أنوي. وقد ساهم في ذلك أهل القصر الذين كانوا راغبين في سرعة رحيلي. استُخْدِمَ خمسمائة عامل في عمل شراعين لمركبي طِبْقًا لإرشاداتي، وذلك بِوَضْع ثلاث عشرة طبقة من أقوى قماشهم فوق بعضها ثم دَرْزِها. وقد تعبتُ كثيرًا في صنع الخيوط والحبال، وذلك بواسطة جَدْلِ عشرة أو عشرين أو ثلاثين حبلًا من أثْخَن وأقوى حبالهم. وبعد بحثٍ طويل على الشاطئ عثرتُ على حَجَر ضخم استخدمتُه كمرساة. وجمعتُ شحوم ثلاثمائة بقرةٍ واستعملتُها في تشحيم قاربي ولأغراض أخرى. وتعبتُ تعبًا لا يُصَدَّق في قطع بعض أكبر الأشجار وتحويل خشبها إلى مجاديف وصواري، رغم أنني حظيتُ بمساعدات جَمّة من نَجّاري السفن من رعايا جلالته. فقد ساعدني هؤلاء في تنعيم هذه المجاذيف والصواري وجَعْلها ملساء بعد أن قمتُ بالعمل الشاق الخاص بقَطعها وتهذيبها.

بعد حوالي شهر، كان كل شيء جاهزًا. وحينذاك طلبتُ أن يزودني جلالته بأوامره، وأن يمنحني إذنًا بالرحيل. وخرج الامبراطور والعائلة الملكية من القصر. وانبطحتُ على الأرض لأقَبِّلَ يده التي تفضل بإعطائها لي، وهكذا فعلت الامبراطورة وأبناؤهما الأمراء. وقد أهداني جلالته خمسين كيسًا من الذهب في كل كيس مائتاسْبْروجْ، كما أهداني صورة كاملة له، فوضعتُها على الفور في أحد قفازيَّ خوفًا عليها من التلف. وكانت مجاملات الوداع والرحيل كثيرة جدًا، ولا داعي لإزعاج القارئ بها في هذا الوقت.

وضعتُ في القارب مائة ثور وثلاثمائة غنمة كلها مذبوحة ومسلوخة، وكمية مناسبة من الخبز والشراب، ومثلها من اللحم المطبوخ الذي استطاع أربعمائة طباخ أن يزودوني به. وأخذتُ معي ست بقرات وثورين، ومثلهما من النعاج والكُبُوش، كلها حية بقصد أن أحملها جميعًا إلى بلدي وأجعلها تتناسل وتتكاثر[٣]. ووضعتُ في القارب حزمة كبيرة من التبن وكيسًا من الذرة لإطعامها. وكان بوُدّي أن آخذ معي دستة من الأقزام، لكن الامبراطور لم يسمح قط بهذا، وأمر بتفتيش جيوبي تفتيشًا دقيقًا، ثم جعلني أتعهد بشرفي أن لا أحمل معي أحدًا من رعاياه ولو كان ذلك برضاهم ورغبتهم.

وهكذا بعد أن أعددتُ كل الأشياء بأفضل ما أستطيع، أبحَرْتُ في اليوم الرابع والعشرين من سبتمبر عام ١٧٠١، في السادسة صباحًا. وبعد أن قطعتُ حوالي أربعة فراسخ نحو الشمال، وكانت الريح شرقية جنوبية، أبصرتُ في السادسة مساء جزيرة صغيرة على بعد نصف فرسخ إلى الغرب الشمالي. تقدمتُ إلى الأمام، وألقيتُ مرساتي على جانب الجزيرة الذي تهب نحوه الريح. وبَدَتِ الجزيرة غير مأهولة. ثم تناولتُ بعض الطعام والشراب وأَخْلَدْتُ للراحة. ونمتُ نومًا عميقًا امتدّ،

حسب تقديري، ست ساعات على الأقل، لأن ضوء النهار بدأ يبزغ بعد أن استيقظتُ بساعتين. كانت ليلة هادئة. تناولتُ فطوري قبل أن تبزغ الشمس، ثم رفعتُ المرساة وسرتُ مع الريح المواتية في الاتجاه الذي سرتُ فيه بالأمس، مسترشدًا بالبوصلة التي في جيبي. كان هدفي الوصول، إن أمكن، إلى واحدة من تلك الجزر التي كنت أعتقد أنها تقع إلى الشرق - الشمالي من بلاد **ڤان ديمن**. ولم أكتشف شيئًا طيلة ذلك النهار، ولكني في اليوم التالي، حوالى الثالثة عصرًا، وكنتُ طبقًا لحساباتي قد قطعتُ أربعة وعشرين فرسخًا من **بليفسكو**، رأيتُ من بعيد شراعًا متجهًا إلى الشرق الجنوبي. وكانت طريقي تتجه شرقًا. وقد وَجَّهْتُ لها تحية، وناديتُ عليها ولم أستطع أن أتلقى جوابًا. ورغم ذلك فقد وجدتُني أقترب منها بسبب سكون الريح. رفعتُ كل ما عندي من أشرعة، وبعد نصف ساعة رأتني تلك السفينة فرفَعَتْ علمها وأطلقَتْ من مدفعها طلقة. وليس من السهل أن أصف السرور الذي ملأ قلبي حين عاودني ما لم أكن أتوقعه من أمَلٍ بالعودة مرة أخرى إلى بلادي الحبيبة، ورؤية أعِزَّائي الذين كنت قد تركتهم فيها. أبطأَتِ السفينة سيْرها، فلحقتُ بها، ووصلتُ إليها بين الخامسة والسادسة من مساء السادس والعشرين من سبتمبر. وقد رقص قلبي فرحًا حين رأيتُ أعلامها انجليزية. وضعتُ بقراتي وغنماتي في جيب معطفي وصعدتُ إليها حاملًا كل ما كان معي من حمولة. كانت السفينة سفينة تجارية انجليزية عائدة من **اليابان** عن طريق المحيط الهادى (الباسيفيكي). أما القبطان فهو السيد جون **بِدِلْ** من **ديتْفورْدْ**، وهو رجل غاية في الأدب وبحار عظيم. كنا الآن عند خط عرض ٣٠ جنوبًا، وكان على متن السفينة خمسون رجلًا بينهم صديق قديم لي اسمه **بيتر وِلْيامْزْ**، وقد أطراني وأعطى عني صورة طيبة للقبطان الذي عاملني بلطف وطيبة، وسألني من أين جئتُ وإلى أين أقصد الذهاب، فأجبته بإيجاز. لكنه ظن أنني كنتُ أهذي وأن المخاطر التي واجهتُها قد أثَّرَتْ على عقلي. وحينذاك أخرجتُ البقر والغنم من جيبي، فاقتنع بعد ما أذْهلَتْهُ الدهشة بصحة أقوالي(٤). ثم أرَيْتُهُ الذهب الذي أهداه لي ملك **بليفسكو**، والصورة الكاملة لجلالته، وأشياء نادرة أخرى من تلك البلاد، ثم أهديتُه اثنين من أكياس الذهب، في كل واحد منها مائتا **سبروج**، ووعدتُه أن أهديه، بعد أن نصل إلى انجلترا، بقرة وغنمة حاملتين.

ولن أزعج القارئ بوصف تفاصيل هذه الرحلة التي كانت موفقة جدًا في معظمها. وقد رَسَوْنا في ميناء **دَاوْنْزْ** في ١٣ أبريل ١٧٠٢. ولم يحدث ما يعكر صفوي سوى مرة واحدة، وذلك حينما أكلتْ فئران السفينة واحدة من غنماتي، وقد وجدتُ عظامها في أحد الثقوب بعد أن نزعَتِ الفئران عنها كل اللحم. أما بقية البقر والغنم فقد وصلتْ سالمة معي، وقد تركتُها ترعى في مَرْجٍ لِلُعْبة البولِنْج في **جْرينِتْش** حيث راق لها العشب الصغير، فأكلت منه بشهية، مع أنني كنت أخشى أن يحدث العكس. وما كان بإمكاني أن أحافظ عليها في تلك الرحلة الطويلة، لو لم يتكرم القبطان بإعطائي بعضًا من أحسن البسكوت عنده. وكان هذا البسكوت، بعد أن أفركه وأحوله إلى مسحوق ثم أخلطه بالماء،

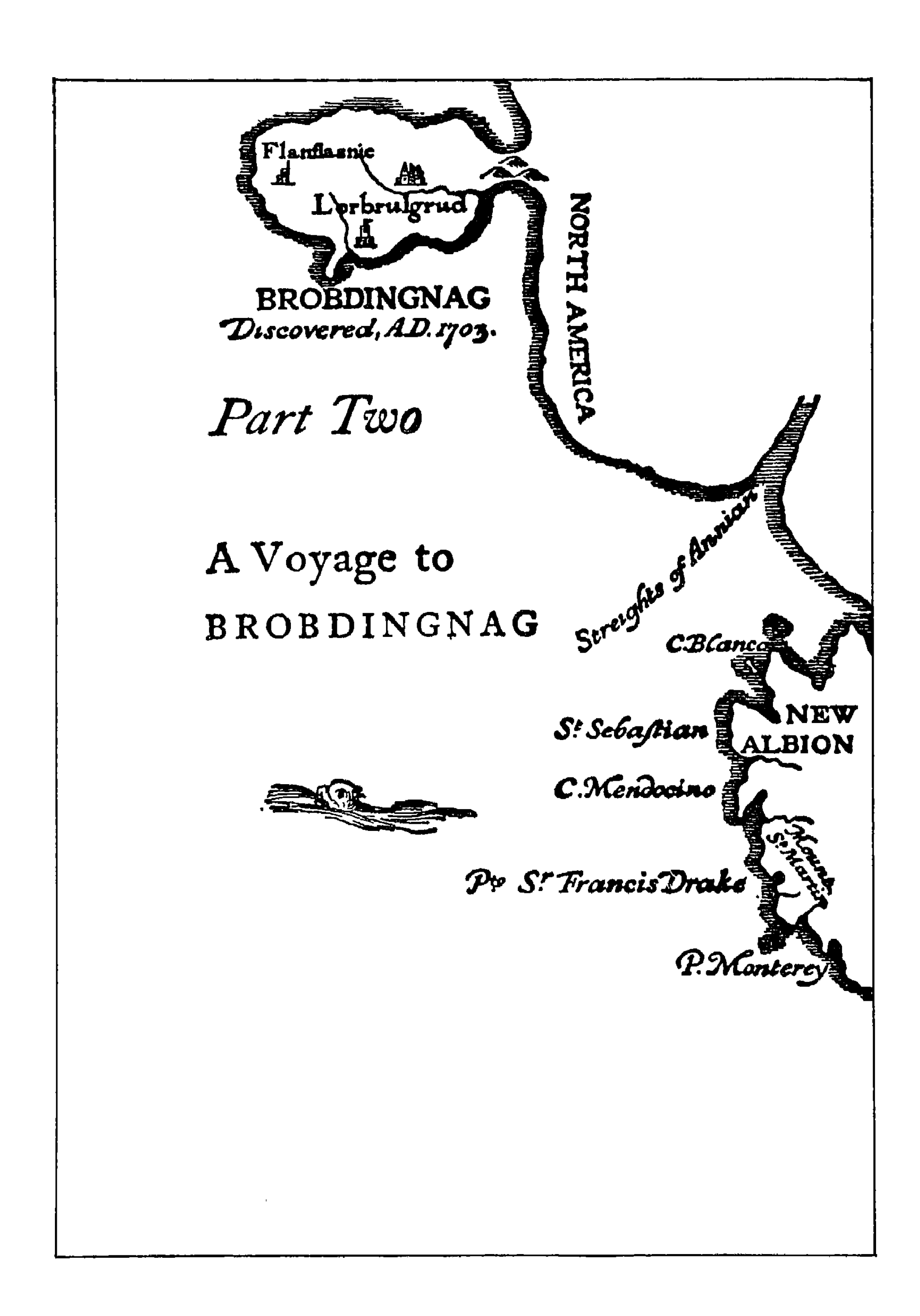
طعامها الدائم. وفي الفترة القصيرة التي قضيتُها في **انجلترا**، كسبتُ أرباحًا كثيرة[٥] عن طريق عرضها على أشخاص من علية القوم وغيرهم. وقبل أن أبدأ رحلتي الثانية بِعْتُها بمبلغ ستمائة بَاوْنْدْ. وعند عودتي الأخيرة وجدتُ ذريتها قد زادت زيادة كبيرة، الغنم على الأخصّ. وأرجو أن تكون مفيدة لصناعة الصوف، لأن صوف فروها ناعم جدًّا.

لم أبقَ مع زوجتي وعائلتي أكثر من شهرين، لأن رغبتي التي لا تشبع في رؤية بلاد أجنبية[٦]، لم تسمح لي بالبقاء مدة أطول. تركتُ ألفًا وخمسمائة بَاوْنْدْ مع زوجتي وأَسْكَنْتُها في مسكن جيد في **رِدْريف**، أما ما تبقى من مدخراتي، فقد حملتُه معي على شكل نَقْدٍ أو بضائع، على أمل أن أُكَبِّر ثروتي. كان عمي الكبير، **جون**، قد أورثني قطعة من الأرض في **إِيبْنْجْ** تغلّ ثلاثين باوْنْدًا في السنة، كما كنتُ قد استأجرتُ لسنوات عديدة فندق **بْلاكْ بُلْ**[٧] في شارع **فيتر لين**، وكان يغلّ مبلغًا مماثلاً. وهكذا لم يكن هناك خطر في أن أترك عائلتي تعيش على الصدقات. وكان ولدي **جوني** الذي حمل اسم عمه، في المدرسة المتوسطة، ويبشر بالنجاح. أما ابنتي (التي هي متزوجة الآن ولها أطفال) فكانت حينذاك تتعلم التطريز. وقد ودعتُ زوجتي وابني وابنتي والدموع تملأ مآقينا جميعًا، وركبتُ السفينة **أَدْفِنْتْشَر**[٨]، وهي سفينة تجارية حمولتها ثلاثمائة طن، كانت ذاهبة إلى **سورات** بقيادة القبطان **جون نيقولاس** من **ليفربول**. لكن لا بدّ من تأجيل وصفي لهذه الرحلة إلى الجزء الثاني من رحلاتي.

رحلات جَلِڤَرْ

الجزء الثاني

رحلة إلى بْرُوبْدِ نْجْناجْ[1]



Part Two

A Voyage to BROBDINGNAG

الفصل الأول

وَصْف لعاصفة عظيمة. إرسال الزورق الطويل لإحضار ماء. المؤلف يذهب في الزورق لاكتشاف البلاد. يُتْرَك على الشاطئ، ويَقْبِض عليه واحد من أبناء البلاد ويحمله إلى بيت مزارع. استقباله هناك والحوادث العديدة التي جَرَتْ له. وصفٌ للسكان.

لقد حكمتِ الطبيعة والقدر أن أعيش حياة مليئة بالحركة وعدم الاستقرار. بعد شهرين من عودتي تركتُ مسقط رأسي مرةثانية، وركبتُ البحر من ميناء **داونْزْ** في العشرين من يونيو ١٧٠٢، في مركب يحمل اسم **أَدْفِنْتْشَرْ** يقوده القبطان **جون نيقولاس**، وهو رجل من **كورْنْوُول**، ووِجْهَتُه **سورات**. وقد واتَتْنَا الرياح حتى وصلنا **رأس الرجاء الصالح** حيث رسونا لنتزود بالماء العذب. لكننا اكتشفنا في السفينة شقًا يتسرب الماء منه، فأنزَلْنا البضائع عن المركب وشَتَّيْنا هناك لأن القبطان أصيب بمرض الملاريا، ولم نستطع الرحيل عن **الرأس** إلاّ عند نهاية شهر مارس. حينذاك أقلعنا وحظينا برحلة طيبة حتى وصلنا مضائق **مدغشقر**. وحين وصلنا شمال تلك الجزيرة، حوالي خط العرض خمسة جنوبًا، كانت الرياح التي تهب في تلك البحار بسرعة ثابتة بين الشمال والغرب، ومن بداية سبتمبر إلى بداية مايو، قد بدأتْ في ١٩ أبريل تهبّ باتجاه الغرب بعنف أشد بكثير أكثر مما هو مألوف، واستمرتْ على هذا الحال طيلة عشرين يومًا متواصلة. وفي هذه الأثناء ساقتنا الرياح إلى القرب من شرقي جزر **مولكا**، حوالي خط العرض ثلاثة شمالي الخط الاستوائي، حسبما وجد القبطان من قياسات قام بها في الثاني من مايو. في هذا الوقت سَكَنَتِ الريح، وكان البحر هادئًا تمامًا وفرحتُ بهذا فرحًا غير قليل. لكن القبطان الذي كان متمرسًا تمامًا بالسفر في تلك البحار، أَمَرَنا جميعًا أن نتأهب لمواجهة عاصفة. وقد هَبَّتْ هذه العاصفة بالفعل في اليوم التالي، لأن رياحًا جنوبية اسمها رياح **المونسون** كانت قد بدأتْ تتحرك.

حين وَجَدْنا أنه من المحتمل أن تصبح الريح هوجاء عاصفة[٢]، أَنْزَلْنا الشراع المنشور وتهيأنا لنَلُفّ الشراع الأمامي. لكن حين واجَهْنا ريحًا شديدة ثَبَّتْنا المدافع كلها في مكانها، ولَفَفْنا شراع صاري المؤخرة. وانطلقتِ السفينة بسرعة مع الريح. ورأينا أن من الأفضل أن نتركها منطلقة مع الريح على أن نُغَيِّر اتجاهها لتَخِفّ سرعتها أو نطوي كل أشرعتها. طَوَيْنا الشراع الأمامي جزئيًا

وثَبَّتْناه، وثَبَّتْنا الحبل المربوط بالجهة المحمية من الريح في الشراع الأمامي. وكانت الدَّفَّة في الجانب العاصف، لكن السفينة ظلَّت منطلقة بثبات. ربطنا الحبل المربوط بالشراع الأمامي، لكن الشراع تمزق فأنزلْناهُ وفَكَكْنا عنه كل ما كان مربوطًا به. لقد كانت عاصفة هوجاء، وكان البحر مضطربًا أيما اضطراب. ورُحْنا نساعد الرجل الذي يمسك الدفة بواسطة شَدِّ حبلٍ قصير مربوط بها. لم نُنْزِل الشراع المثبت في قمة الصاري الرئيسي، بل تركناه على حاله لأن السفينة كانت تندفع كالسهم أمام الريح، وكنا نعلم أنه ما دام هذا الشراع مرفوعًا، تظل السفينة ثابتة في اتجاهها وفي سرعتها، ولا سيما أنه لم يكن في البحر أمامها أية عوائق. وحين انتهتِ العاصفة نشرنا الشراع الأمامي والشراع الرئيسي، وأوقفنا السفينة عن الحركة. ثم نشرنا شراع الصاري في المؤخرة، والشراع الصغير في قمة الصاري الرئيسي وقمة الصاري الأمامي. وكان خط سيرنا في الاتجاه الشرقي والشرقي الشمالي كما كانت الريح تأتينا من الاتجاه الغربي الجنوبي. رَبَطْنا في الميمنة الحبال المتصلة بالأشرعة، وأرْخَيْنا قليلًا الحبال الواصلة بين أطراف الأشرعة وزواياها من جهة، وجانب السفينة المحجوب عن الريح من جهة أخرى، ثم قَصَّرْنا مداها وشَدَدْنا للأمام الحبال المربوطة في الأشرعة المربعة الشكل في الجهة المواجهة للريح، ثم ربطناها ربطًا محكمًا. ثم شددنا الحبل المربوط بشراع صاري المؤخرة بحيث يتجاوب مع اتجاه الريح، ثم أبقينا السفينة سائرة بحيث تتلقى دفع الرياح وتسير باتجاهها.

أثناء هذه العاصفة التي تَبِعَتْها ريح قوية غربية وغربية جنوبية، دَفَعَتْنا الرياح طبقًا لحساباتي، حوالي خمسمائة فرسخ نحو الشرق، حتى أكبر البحارة سِنًّا على ظهر المركب، لم يستطيعوا أن يحددوا في أي مكان من العالم كنّا. كانت المؤن كافية، والسفينة قوية وصامدة، وبحارتنا جميعًا بصحة جيدة، لكن كان ينقصنا الماء لدرجة خطيرة جدًا. وقَدَّرْنا أنه من الأفضل أن نَبْقى على خط السير نفسه على أن نغيره باتجاه الشمال أكثر، لأنّ هذا ربما يوصلنا إلى الأجزاء الغربية الشمالية من بلاد التتار الواسعة(٢) ويدخلنا في المحيط المتجمد.

وفي اليوم السادس عشر من يونيو ١٧٠٣، شاهد أحد الفِتْيان البَرَّ من قمة الصاري الرئيسي. وفي اليوم السابع عشر رأيْنا بوضوح جزيرة كبيرة أو قارة (لأننا لم نعرف إن كانت جزيرة أو قارة) على الجانب الجنوبي حيث كان شريط صغير من البر داخلًا في البحر، كما كان يوجد خليج صغير ضحل لا يحمل مركبًا حمولته أكثر من مائة طن. وألقينا مرساتنا على بُعد فرسخ من هذا الخليج، وأرسل القبطان في قارب طويل دَسْتَةً من رجاله مُسَلَّحين جيدًا إلى البَرّ، ومعهم أوعية لملئها بالماء إن وُجِد. واستأذنتُه أن يسمح لي بمرافقتهم لأرى البلاد، وأكتشف ما يمكنني أن أكتشفه فيها. وحين وصلنا البرَّ لم نَرَ نهرًا أو نبع ماء، كما لم نجد أثرًا لوجود سكان. ولهذا راح الرجال يتجولون على الشاطئ لعلهم يجدون ماءً للشرب قرب البحر. ومشيتُ قرابة ميلٍ وحدي على الجانب الآخر حيث لاحظتُ أن البلاد جرداء صخرية. ثم بدأتُ أشعر بالتعب، وإذ لم أجد شيئًا يثير فضولي، عُدتُ

أدراجي على مهل نحو الخليج. وحين صار البحر واضحًا أمامي، رأيتُ رجالنا قد ركبوا القارب وراحوا يجدفون بسرعة نحو السفينة نجاةً بحياتهم. وإذ هَمَمْتُ أن أناديهم بأعلى صوتي مع أنهم كانوا بعيدين بحيث لا يُجْدي النداء، رأيتُ مخلوقًا عملاقًا يطاردهم في البحر(٤) بأسرع ما يستطيع. كان الماء وهو يخوض فيه لا يصل إلى أعلى رُكْبَتِه وكانت خطواته هائلة في اتساعها. لكن رجالنا كانوا قد سبقوه بمسافة نصف فرسخ، وكان البحر هناك مليئًا بصخور مدببة حادة، ولذا لم يستطع ذلك الوحش اللحاق بالقارب. وقد قيل هذا لي فيما بعد، لأنني لم أجرؤ على البقاء حتى أرى نهاية تلك المغامرة، بل رُحْتُ أعدو بأسرع ما أستطيع في الطريق التي سرتُ فيها أولًا، ثم تسلقتُ تلّةً شديدة الانحدار، ومن على قمتها أخذتُ لمحة عن تلك البلاد، ورأيتُها مستثمرة ومزروعة، لكن الشيء الذي جذب انتباهي أول الأمر كان ارتفاع العشب الذي كان أعلى من عشرين قدمًا في تلك الأرض التي يبدو أنها كانت مخصصة لزراعة العشب.

وجَدْتُ نفسي أسير في طريق للسفر كما تصورتُ، مع أنه لم يكن بالنسبة للسكان أكثر من ممَرّ للمشاة عبر حقل مزروع بالشعير. سِرْتُ في هذا الطريق بعض الوقت، ولكن لم أرَ إلا القليل على أي من الجانبين، فقد كان الوقت قريبًا من موسم الحصاد، وكانت سيقان الشعير ترتفع إلى ما لا يقل عن أربعين قدمًا. وقضيتُ ساعة في الوصول إلى نهاية هذا الحقل الذي كان محاطًا بسور من الشجيرات يبلغ ارتفاعه مائة وعشرين قدمًا على الأقل. وكانت الأشجار عالية جدًا بحيث لم أستطع أن أُقدِّرَ مدى ارتفاعها. وكان هناك مَعْبَر للمرور من هذا الحقل إلى الحقل المجاور، يتكون من أربع درجات، وحَجَرٍ عليك أن تعبر من فوقه بعد أن تصل إلى الدرجة العليا. واستحال عَليّ أن أتسلق هذا المعبر لأن ارتفاع الدرجة الواحدة كان ستة أقدام، أما الحَجَر العُلْوي فارتفاعه أكثر من عشرين قدمًا. وبينما كنتُ أحاول العثور على فتحةٍ في السياج النباتي، اكتشفتُ واحدًا من السكان في الحقل المجاور يتقدم نحو المعبر، وحجمه مثل حجم العملاق الذي رأيتُه في البحر يطارد زورقنا. كان يبدو عاليًا وكأنه قمة برج كنيسة، وكان في الخطوة الواحدة يقطع عشر ياردات تقريبًا(٥)، كما استط تُ أن أُخَمِّن. وقد أصابني فزع شديد وذهول بالغ، فعدوتُ لأختبيء بين سيقان الشعير. ومن هناك رأيته يقف على قمة المعبر، وينظر خلفه إلى الحقل المجاور عن يمينه، وسمعتُه ينادي بصوت أعلى بعدة درجات من بوقٍ ناطق. ولكن ضجيج الصوت كان عاليًا جدًا في الجو، لدرجة أنني اعتقدتُ أنه صوت رعد. وعلى إثْرِ ذلك جاء نحوه سبعة من الوحوش على شاكلته يحملون في أيديهم مناجل، كل منجل منها بحجم ستة مناجل. ولم تكن ملابسهم في جودة ملابس الأول، وكان يبدو أنهم من خَدَمِه أو عُمّاله، لأنهم بعد أن نطق ببعض الكلمات، انطلقوا يحصدون الشعير في الحقل الذي كنت مختبئًا فيه. وابتعدتُ عنهم إلى أقصى مسافة أستطيعها. لكني لم أكن أستطيع التحرك إلا بصعوبة بالغة، لأن سيقان الشعير كانت أحيانًا لا تبعد عن بعضها أكثر من قدم واحد،

ولهذا قلما كنتُ أستطيع أن أنفذ بجسدي من بينها. رغم ذلك تدبرتُ أمري، وتقدمتُ للأمام حتى وصلتُ إلى جزء من الحقل، كانت سيقان الشعير فيه قد مالت على بعضها بسبب المطر والريح، فاستحال عليَّ أن أتقدم خطوة واحدة، لأن السيقان كانت متشابكة فلم أستطع الزحف بينها، كما كان حَسَكُ السنابل الساقطة قويًا ومدببًا كالإبَرِ، لدرجة أنه اخترق ملابسي وانغرز في لحمي. في الوقت نفسه سمعتُ الحصادين على مسافة لا تزيد عن مائة ياردة خلفي. كان التعب قد هَدَّ قوتي، والفزع واليأس قد حطما معنوياتي، فاستلقيتُ بين حافَتَيْ أخدود، وتمنيتُ من قلبي لو تنتهي أيامي هناك. ورحتُ أنوح على زوجتي التي ستترمل، وأطفالي الذين سيصبحون أيتامًا، كما رحتُ أندبُ حماقتي وعنادي اللذين دفعاني للقيام برحلة ثانية رغم نُصْح كل أصدقائي وأقاربي. ولم أستطع وأنا في هذه الحالة الذهنية المضطربة، إلا أن أفكِّر في ليليبوت التي كان سكانها يعتبرونني أكبر معجزة خارقة ظهرت في العالم، وحيث تمكنتُ أن أجُرَّ أسطولًا امبراطوريًا بيدي، وأن أقوم بتلك الأعمال الأخرى التي ستسجَّل إلى الأبد في السجلات التاريخية لتلك الامبراطورية، والتي قد لا تصدقها الأجيال اللاحقة رغم تأكيد الملايين لها. وتأملتُ ضخامة الذل والهوان الذي لا بُدّ أن أعانيه وأنا أبدو صغيرًا وتافهًا في عيون هؤلاء القوم، كما لو أنني واحد من أهل ليليبوت يعيش بيننا. لكن هذا كما تصورتُ ليس إلا أقل مصائبي أهمية. وإذا كان من المعروف أن وحشية المخلوقات البشرية وقسوتها تتناسب طرديًا مع حجمها(٦)، فماذا أتوقع غير أن أكون لقمة في فم أول من يقبض عليَّ من هؤلاء البرابرة ذوي الأحجام الهائلة؟ لا شك أن الفلاسفة على صواب(٧) حين يقولون لنا إنه لا شيء يكون كبيرًا أو صغيرًا إلاّ بالمقارنة. ولرُبَّما يسُرّ القَدَرَ أن يتيح لأهل ليليبوت فرصة العثور على قوم يكون أبناؤه صغيرين بالنسبة لهم، كما كانوا هم صغيرين بالنسبة لي. ومن يدري، فلعل هذا الجنس الضخم العملاق من أبناء الفناء، يجد جنسًا آخر يفوقه حجمًا بنفس القدر في مكانٍ ما بعيد في هذا العالم، مكان لم نكتشف وجوده بعد.

ومع أنني كنت مفزوعًا ومضطرب الذهن فإنني لم أستطع أن أمتنع عن الانسياق مع هذه التأملات، حتى رأيتُ واحدًا من الحصادين يقترب إلى مسافة عشر ياردات من الحافة التي كنتُ مستلقيًا عندها. وخشيتُ حينذاك أنه بِخُطْوتِه التالية سيسحقني تحت قدمه فأَموت، أو يَشُقّني إلى نصفين بمنجله. ولهذا، عندما كان على وشك أن يتحرك، صرختُ أعلى صرخةٍ يمكن أن يُحْدثها الفزع. وحينذاك تَسَمّرَ المخلوق الضخم مكانه، وراح ينظر إلى الأسفل فيما حوله حتى أبصرني وأنا مستلقٍ على الأرض، وفكَّر مليًا وراح يلتزم الحذر كَمَنْ يحاول أن يمسك حيوانًا صغيرًا خطيرًا بطريقة تجعل الحيوان عاجزًا عن خَدْشِه أو عَضِّه. وأخيرًا تجاسر وأمسكني من ظهري بين إبهامه وسَبّابته ورفعني حتى وصل بي إلى مسافة ثلاثة ياردات من عينيه، حتى يتمكن من رؤية شكلي بوضوح أكثر. وفهمتُ قصده. وقد منحني حظي السعيد قدرًا كافيًا من حضور البديهة، ولهذا قررتُ أن لا

أقاوم البتة وهو يحملني في الهواء على ارتفاع ستين قدمًا عن الأرض، رغم أنّ ضَغْطَ أصابعه على جنبيَّ كان مؤلّمًا، وذلك مخافة أن أَزْلِق من بين أصابعه. كل ما تجاسرتُ على فِعْله هو أن أرفع عينيَّ نحو الشمس، وأن أضم يَدَيَّ في وضع توسُّل، وأن أنطق بعض الكلمات بنغمة ذليلة حزينة تناسب الحالة التي كنتُ فيها. فقد كنتُ أخشى في كل لحظة، أن يقذفني بعنف إلى الأرض كما نفعل عادة مع أي حيوان صغير كريه يخطر لنا أن نحطمه. لكن طالعي السعيد قدَّر لي أن يبدو العملاق مسرورًا بصَوْتي وحركاتي، وأن يبدأ النظر إليَّ كشيء طريف، وأن يشعر بالعجب وهو يسمعني أتلفّظ بكلمات ذات معنى، رغم أنه لم يستطع أن يفهمها. في هذه الأثناء لم يكن بوسعي إلا أن أتـأوّه وأذرف الدموع، وأن أشير برأسي إلى جوانبي، لكي أُعَرِّفَه بقدر ما أستطيع، أن ضغط إبهامه وسبّابته يؤلمني أقسى الألم. وبدا أنه فَهِم قصدي، لأنه رفع طرف معطفه ووضعني عليه بكل رفق، ثم راح على الفور يعدو بي إلى سيده الذي كان مزارعًا غنيًا، وهو الشخص نفسه الذي كان أول من رأيتُه في الحقل.

بعد أن استمع المزارع، كما بدا لي من حديثهم، إلى ما قاله خادمه عني، تناول أجزاء من قشة صغيرة بحجم عصا المشي عندنا، وراح يرفع بها أطرافَ معطفي الذي ظنه كما يبدو نوعًا من الغطاء زَوَّدَتْني به الطبيعة. ثم نفخ على شعري وأَبْعده جانبًا ليرى وجهي بشكل أفضل. ثم نادى عماله وسألهم (كما علمتُ فيما بعد) إن كانوا رَأَوْا من قبل في الحقول مخلوقًا صغيرًا يشبهني. ثم وضَعَني بِرِفْق على الأرض على يديّ ورجليّ، ولكني وقفتُ على الفور ورحتُ أمشي جيئة وذهابًا لكي أُثَبِّتَ لأولئك القوم أنه ليس لديَّ نية في الهرب. وجلسوا حولي متحلقين ليروا حركاتي بوضوح أكبر. ورفعتُ قبعتي تحية، وانحنيت احترامًا للمزارع. ثم ركعتُ على ركبتيّ ورفعت يديّ وعينيّ ونطقتُ بالعديد من الكلمات بأعلى ما أستطيع. ثم أخرجْتُ من جيبي كيسًا من الذهب وقدمتُه له هدية، فوضعه في راحة يده، ورفعه قريبًا من عينيه ليعرف ما هو، ثم قَلَّبَهُ عدة مرات برأس دبوس سحبه من كُمِّه، ولكنه لم يستطع أن يعرف ما هو، عند ذاك أشرتُ له أن يضع يده على الأرض، وأخذتُ منها الكيس وفتحتُه، ودلقتُ الذهب في راحة يده. كان الذهب يتألف من ست قطع أسبانية تساوي كل منها أربعة پِسْتوليسْ، وحوالي عشرين أو ثلاثين سبيكة أخرى أصغر حجمًا. ورأيته يبلّ طرف بنصره بلسانه، ويرفع به واحدة من السبائك الكبيرة ثم أخرى، ولكن بدا أنه يجهل ماهيتها كل الجهل. وأشار لي أن أعيد السبائك إلى الكيس، والكيس إلى جيبي، لكني بعد أن عرضتُ عليه الكيس عدة مرات، رأيتُ من الأفضل أن أعيده إلى جيبي.

عند هذا تأكد المزارع أنني مخلوق عاقل. كلمني عدة مرات، لكن صوته خرق أذني وكأنه صوت شلال هادر، ومع ذلك كانت كلماته واضحة. ورددتُ عليه بأعلى صوتي وبعـدة لغات. وكثيرًا ما قرَّب أذنيه حتى مسافة ياردتين مني، ولكن دون جدوى، إذْ لم يفهم أحدنا الآخر. حينذاك

أمر خَدَمَهُ أن يعودوا إلى أعمالهم. ثم أخرج منديله من جيبه وطواه طيتين، وفَرَدَهُ على يده التي بسطها على الأرض وراحَتُها إلى أعلى، وأشار إليَّ أن أصعد وأدخل فيها. وقد فعلتُ ذلك بسهولة لأن سماكة يده لم تكن تزيد على قدم. ورأيتُ أنه لا بد لي أن أطيع. وقد تمددتُ بطولي كلّه فوق المنديل خشية أن أقع. ولمزيد من الأمان لفَّني هو بِحَوافّ المنديل، وحملني وانطلق بي إلى بيته. وهناك نادى زوجته وأراني لها. لكنها صرختْ وتراجعتْ عدْوًا كما تفعل السيدات في انجلترا حين يَرَيْنَ ضفدعًا أو عنكبًا. وبعد أن رأتْ تصرفاتي، ولاحظتْ أنني أفهم إشارات زوجها وأمتثل جيدًا لها، أَلِفَتْني ورَضِيَتْ عني وبالتدريج أصبحتْ شديدة العطف عليّ.

كان الوقت قد قارب الثانية عشرة ظهرًا حين أدْخَلَ الخادم طعام الغذاء الذي لم يتعدَّ طبخة ضخمة من اللحم (تناسب بساطة حياة المزارعين) في طَبَق قطره أربعة وعشرون قدمًا. وكانت العائلة تضمّ المزارع وزوجته وأطفاله الثلاثة وجدةٌ عجوز. حين جلسوا حول المائدة، وضعني المزارع على مقربة منه على الطاولة التي ترتفع ثلاثين قدمًا عن أرض الغرفة. وكنتُ في فزع شديد، وابتعدتُ بقدر ما أستطيع عن الحافَة خشية أن أسقط. فرَمَتِ الزوجةُ قطعة من اللحم، وفَتَّفَتَتْ قطعة من الخبز على صينية خشبية، ووضعتِ الطعام أمامي. انحنيتُ لها احترامًا وتقديرًا ثم أخرجتُ سكيني وشوكتي ورحتُ آكُلُ، وسرَّهُم ذلك غاية السرور. وأمرتِ السيدة خادمتها بإحضار قدح صغير يتسع لحوالي جالونين وملأتْه بالشراب. وقد تناولتُ هذا الوعاء بكِلْتي يديّ وبصعوبة بالغة، وشربتُ نخب سيادتها باحترام بالغ وبكلمات انجليزية نَطَقْتُها بأعلى صوتي. وقد جعلهم هذا يضحكون ويقهقهون من قلوبهم، لكن صوت قهقهاتهم كاد يصيبني بالصمم. كان للشراب طعمُ عصير التفاح ولم يكن سيئًا. ثم أشار إليَّ الزوج أن أذهب نحو صحنه فمشيتُ على الطاولة وأنا في ذعر شديد. ويمكن للقارئ المتفهم أن يتصور حالتي ويعذرني. وبينما أنا أمشي مذعورًا تعثرتُ بقطعة من فُتات الخبز، فوقعتُ منبطحًا على وجهي، لكني لم أُصَبْ بأذى. نهضتُ واقفًا على الفور، ولاحظتُ أن أولئك القوم الطيبين قد خافوا عليَّ كثيرًا، فأمسكتُ قبعتي (التي كنتُ أحملها تحت إبطي تأدبًا) ولَوَّحْتُ بها فوق رأسي، وهتفتُ ثلاث هتافات سعيدة لأبيّن لهم أنني لم أُصَبْ بسوء من سقطتي. ولكن حين تقدمتُ نحو سيدي (هكذا سأدعوه بعد الآن) أمسكني من رِجْلي ابنُه الصغير الذي كان جالسًا بجانبه، وهو غلامٌ خبيث يقارب عمره عشر سنوات، ورفعني عاليًا في الهواء حتى ارتجف كلّ عضوٍ فيَّ رعبًا. لكن أباه خطفني منه وفي الوقت نفسه صفعه على خده الأيسر صفعة كفيلة بصعق كتيبة من الفرسان في أوروبا، ثم أمره أن يغادر المائدة. لكني خشيتُ أن يحقد الغلام عليَّ، وتذكرتُ مدى خبث الأطفال عندنا، وميلهم الفطري لإيقاع الأذى بالعصافير والأرانب والقطيطات الصغيرة والجِراء، فركعتُ على ركبتي، وأفهمتُ سيدي بقدر ما أستطيع، وأنا أشير إلى الغلام، أنني أرجوه أن يصفح عن ابنه. ووافق الأب وعاد الصبيّ إلى مقعده، وحينذاك ذهبتُ إليه وقبلتُ يده،

فتناول الأب يَدَ ولده وجعله يُرَبّتُ عليّ بها في رِفْق.

أثناء تناوُل الغداء جاءت القطة المفضَّلة لدى سيدتي وقفزت إلى حضنها. وسمعتُ خلفي صوتًا شبيهًا بصوت اثني عشر آلة حياكة للجوارب، وحين أَدَرْتُ رأسي اكتشفتُ أن هذا الصوت صادر عن هرهرة تلك القطة التي بدا حجمها أكبر من حجم ثلاثة ثيران، كما قدَّرْتُ من حجم رأسها ومخلبها أثناء قيام سيدتها بإطعامها والتربيت عليها. وقد أفزعتْني الشراسة البادية في وجه تلك المخلوقة رغم أني كنتُ أقفُ على الطرف البعيد من الطاولة على بُعْد خمسين قدمًا، ورغم أن سيدتي كانت تمسك القطة بقوة، خشية أن تقفز هذه عليّ وتمسكني بين مخالبها. ولكني كنتُ في مأمن من الخطر لأن القطة لم تأبه لي حين وضعني سيدي على الطاولة على مسافة ثلاث ياردات منها. وكما قيل لي دائمًا وأكَّدَتْ خبراتي في رحلاتي صحة هذا القول، فإنك إن هربتَ أو أبديتَ خوفًا أمام حيوان شرس فإن هذا يدفعه إلى مطاردتك أو الهجوم عليك. ولهذا قررتُ في هذه الورطة الخطيرة أن لا أُظْهِرَ أي خوف أو قلق، ورحتُ أتمشى ببسالة خمس أو ست مرات أمام رأس القطة، بل وصلتُ إلى مسافة نصف ياردة منها، مما جعلها تبتعد عني وكأنها خافت منّي أكثر مما خِفْتُ منها. وكان خوفي من الكلاب أقل. وقد دخل الغرفة ثلاثة أو أربعة منها، وهو أمر مألوف في بيوت المزارعين. وكان أحدها كلب حراسة يساوي في حجمه أربعة أفيال[٨]، وكان آخَرُ كلب صيد سلوقي أعلى قليلاً من كلب الحراسة لكنه ليس في ضخامته.

وحين كاد الغداء ينتهي دَخَلَتِ المربية تحمل على ذراعيها طفلًا عمره سنة. وقد رآني هذا الطفل على الفور، وبدأ صراخًا يصل من دمشق إلى حلب، وهو الأسلوب الخطابي المألوف لدى الأطفال، مطالبًا بي كدمية يلعب بها. وبدافع التدليل رفعتني الأمّ ووضعتني في مواجهة الطفل، فما كان منه إلا أن أمسكَ بي من وسطي في الحال ووَضَعَ رأسي داخل فمه، فزأرتُ زئيرًا مدويًا أرهبَ ذلك الطفل اللعين فأفلتني وهَوَيْتُ، وكان من المحتم أن تُدَقّ عنقي لولا أن الأم سارَعَتْ وتلقتني في مريلتها. ولكي تُسْكِتَ الطفلَ استخدمَتِ المربية خشخيشة، وهي عبارة عن وعاء أجوف في داخله بعض الحجارة الكبيرة ومربوط إلى وسط الطفل بحبل. لكن ذلك كان دون جدوى. فاضطرَّتْ إلى اللجوء للعلاج الأخير وهو إرضاعه. ولا بد أن أعترف أنه لم يُثِرْ اشمئزازي قط شيء بقدر ما أثاره منظر ثديها الضخم الذي لا أعرف بماذا أقارنه لكي أعطي القارئ الفضولي فكرة عن حجمه وشكله ولونه. فقد برز ثابتًا على امتداد ستة أقدام وما كان محيطه يقل عن ستة عشر قدمًا. وكانت حَلَمَتُه بقدر نصف رأسي، كما كان لون الحلمة والثدي ممزوجًا بالبُقَع والدمامل والنَّمَش بحيث لا يمكن أن يظهر ما هو مقرف أكثر. وقد رأيتُها عن كثب، لأن المرضعة كانت جالسة وهي تُرْضِعُ وكنتُ واقفًا على الطاولة. وقد جعلني هذا الموقف أفكر في البشرة الجميلة لسيداتنا الانجليزيات اللواتي لا نراهنّ جميلات إلا لأنهن من حجمنا، ولأن عيوبهن لا تُرى إلا من خلال

عدسات مكبرة حيث نجد بالتجربة أن أنعم البشرات وأكثرها بياضًا تبدو فظة وخشنة وقبيحة الألوان.

وأذكر حين كنتُ في ليليبوت، أن ألوان بشرة أولئك القوم كانت تبدو لي أجمل ما في الدنيا. ولدى الحديث عن هذا الموضوع مع شخص واسع العلم والثقافة هناك، وكان صديقًا حميمًا لي، قال لي إن وجهي كان يبدو له وهو ينظر إليه من الأرض أجمل وأنعم مما كان يبدو له وهو يراه عن كثب، حين كنتُ أرفعه بيدي وأقرّبه من وجهي. وقد اعترف لي بأن منظر وجهي عن كثب كان مشهدًا مُنَفِّرًا حقًا، وقال إنه استطاع أن يكتشف ثقوبًا في بشرتي، وأن جذوع شعر لحيتي كانت أقوى عشر مرات من الشعر الخشن للخنزير، وأن لون بشرتي كان خليطًا منفرًا من عدة ألوان. هذا رغم أني أرجو أن تسمحوا لي بالقول إن جمال بشرتي لا يقلّ عن جمال بشرة معظم الرجال في بلادي، وإنه لم تلوّحه أو تغيّره الشمس في كل رحلاتي. من ناحية أخرى، ولَدى الحديث معه عن السيدات في قصر امبراطور ليليبوت كان يقول إنه في وجه إحداهن نمش، وإن فم أخرى واسع جدًا، وإن أنف ثالثة كبير جدًا، في حين أني لم أكن أستطيع أن أميّز شيئًا من ذلك. وأعترف أن هذه فكرة واضحة ومألوفة، لكن لم يسعني إلا أن أذكرها كيلا يظنّ القارئ أن تلك المخلوقات الضخمة كانت مشوَّهة فعلاً. ولكي أكون منصفًا لا بدّ من القول إنهم شعب وسيم، وعلى الأخص قسمات وجه سيدي التي بَدَتْ لي متناسقة حين رأيتُه على ارتفاع ستين قدمًا رغم أنه ليس سوى فلاح.

حين انتهوا من تناول الغداء، خرج سيدي إلى أعماله بعد أن أوصى زوجته بحزم، كما اكتشفتُ من صوته وحركاته، أن تحرص عليَّ وتعتني بي. كنت منهكًا وبحاجة للنوم. وحين لاحَظَتْ سيدتي ذلك وضعتْني على فراشها وغطَّتْني بمنديل أبيض نظيف، لكنه كان أكبر وأخشن من الشراع الرئيسي في بارجة حربية.

نِمْتُ حوالي ساعتين، وحلمتُ أنني كنتُ في بيتي مع زوجتي وأطفالي، وهذا زاد أحزاني حينما استيقظتُ ووجدتُ نفسي في غرفة مترامية الأطراف، عرضها يتراوح بين مائتين وثلاثمائة قدم وارتفاعها أكثر من مائتين، وعلى فراشٍ عرضه عشرين ياردة. كانت سيدتي قد أقفلتْ عليَّ الباب وذهبتْ لتتابع شئون بيتها، وكان السرير على ارتفاع ثمانية ياردات عن الأرض. وقد أَلَحَّتْ عليَّ بعض الحاجات الطبيعية تدعوني للنزول عن السرير. ولم أجرؤ على مناداة أحد، ولو فعلتُ لكان ذلك بلا جدوى، بصوت مثل صوتي، في مكان تبعد الغرفة التي أنا فيها عن المطبخ الذي تجلس فيه العائلة مسافة شاسعة. وبينما كنتُ أعاني من هذه الظروف القاسية، تسلق فأران الستارة وراحا يركضان جيئة وذهابًا على السرير وهما يَشُمّان ما حَوْلَهُما. وقد صَعد عليَّ أحدُهما حتى كاد يصل إلى وجهي، فنهضتُ مفزوعًا وامتشقتُ حسامي للدفاع عن نفسي. وقد بلغتْ جرأة هذين الحيوانين

الفظيعين أنهما هجما عليَّ من الجانبين ، وأحدهما وضع قدميه الأماميين على ياقتي ، ولكن الحَظَّ ساعدني فبقَرتُ كَرْشَه بسيفي قبل أن يصيبني بأي أذى. وحين رأى الآخر ما حلّ بصاحبه ولّى هاربًا، لكنه لم يَنْجُ من جرحٍ في ظهره أصبتُه به وهو يهربُ ونُقَط الدم تتساقط منه. بعد هذه المعركة العظيمة رحتُ أمشي بهدوء جيئة وذهابًا على السرير ، حتى أستعيد أنفاسي ومعنوياتي. كان كل من هـذَيْن المخلوقين بحجم كلب حراسة كبير، لكن أسرع منه حركة وأشد شراسة إلى حد بعيد. ولو كنتُ نزعتُ عني حزامي قبل أن أنام، لكنتُ قد هَلَكْتُ لا محالة، ولَمزَّقني الفأران إربًا والتهماني. وقد قِسْتُ طول ذلك الفأر القتيل فوجدته ياردتين إلا بوصة واحدة. وقد كادَتْ معدتي تنقلب وأنا أجرّه فوق السرير ودمه لا يزال ينزف. وحين لاحظتُ أنه ما زال فيه حياة هَوَيْتُ على عنقه بضربة قاتلة وأجهزتُ عليه تمامًا.

بعد ذلك ببرهة وجيزة دخَلَتْ سيدتي الغرفة. وحين رأتني مغطى بالدم رَكَضَتْ نحوي وحَمَلَتْني في يدها. وأشرتُ إلى الفأر القتيل وأنا أبتسم وأقوم بإشارات أخرى لأبيّن لها أنني لم أُصَبْ بأذى، فسَعِدَتْ بذلك غاية السعادة، ونادَتِ الخادمة لترفع الفأر المَيِّتَ بملقط وترميه للخارج من النافذة. ثم وضعتْني على الطاولة حيثُ أَرَيْتُها سيفي ملطخًا بالدم، ومَسَحَتْه بطرف معطفي وأعدتُه إلى غمده. لكني كنتُ محتاجًا جدًا لأن أقوم بأشياء لا يستطيع شخص آخر أن يقوم بها نيابة عني. وحاولتُ لذلك أن أُفْهِمَ سيدتي بأني أرغب أن أوضع على الأرض. وبعد أن حققتْ لي رغبتي، منعني خجلي من أن أُفْصِح عن حاجتي بأكثر من الإشارة إلى الباب والانحناء عدة مرات. وقد أدركتِ المرأة الطيبة أخيرًا، وبصعوبة شديدة، ما كنتُ أودّ أن أفعل، فحملتْني مرة ثانية في يدها وسارتْ بي إلى الحديقة حيث أنزلتْني على الأرض. فانْحَنَيْتُ جانبًا ومشيتُ مسافة تقارب المائتي ياردة، وأشرتُ لها أن لا تنظر إليّ أو تتبعني، ثم اختبأتُ بين ورقتين من أوراق نبات الحمّيض، وأفرغتُ ضرورات الطبيعة.

وإني لأرجو أن يعذرني القارئ الطيب على الوقوف عند هذه التفاصيل وأمثالها. فهي وإن بَدَتْ تافهة لذوي العقول السوقية القذرة، إلا أنها قَطْعًا تساعد الفيلسوف على توسيع أفكاره وإثراء خياله، وتسخيرها لخدمة الحياة العامة والحياة الخاصة أيضًا، وهذا هو هدفي الوحيد من نشر هذا التقرير وتقارير أخرى عن رحلاتي في العالم[٩]، والتي حرصتُ فيها كل الحرص على ذكر الحقيقة دون تَصَنُّع المعرفة بالعلوم ، ودون تَكَلُّف المحسِّنات الأسلوبية[١٠]. لكن مشهد هذه الرحلة كله ترك في ذهني انطباعًا قويًا، وثبت في ذاكرتي ثباتًا لا ينمحي ، حتى أنني لدى كتابة وصف له على الورق لم أحذف منه أيًّا من التفاصيل الهامة. غير أني لدى مراجعته مراجعة حازمة حَذَفْتُ من النسخة الأولى كثيرًا من النصوص القليلة الأهمية خشية أن أُلامَ على الحَشْوِ المُمِلّ والاهتمام بالتفاصيل التافهة، كما وُجِّه هذا اللوم عدة مرات، وربما بوجه حق، إلى كُتّاب الرحلات.

الفصل الثاني

وصف ابنة المزارع. المؤلف يُحْمَل إلى مدينة ويُعْرَض فيها ثم يُؤْخَذ إلى العاصمة. تفاصيل رحلته.

كان لسيدتي ابنة عمرها تسع سنوات، لكن قدراتها كانت أكبر من عمرها إذْ كانت ماهرة جدًا في أعمال الإبرة كما في العناية بدميتها. وقد تعاونَتْ هي وأمها على تجهيز سرير الدمية ليكون سريرًا أنام عليه في الليل. وقد وُضِعَ المهدُ في دُرْجٍ صغير في الدولاب كما وُضِعَ الدُّرْجُ على رَفّ معلّق خَوفًا من الفئران. وطيلة المدة التي أقمتُها مع هؤلاء القوم كان هذا السرير سريرًا لي، وقد أصبح بالتدريج مناسبًا ومريحًا، ولا سيما بعد أن بدأتُ أتعلم لغتهم وأُفْصِحُ بها عن حاجاتي. كانت هذه الفتاة الصغيرة بارعة جدًا في استخدام يديها، وبعد أن رَأَتْني مرة أو اثنتين أخلع ملابسي أمامها، صارت قادرة على القيام بإلباسي ملابسي أو نَزْعِها عني[1]، رغم أني لم أكن أُزْعِجُها بذلك حين تسمح لي بالقيام بذلك بنفسي. وقد صَنَعَتْ لي سبعة قمصان وبعض الملابس الأخرى من أنْعَم قماشٍ أمكنها الحصول عليه، ولكنه بالنسبة لي كان بخشونة قماش الخيش. وكانت دائمًا تغسل لي هذه الملابس بيديها. كذلك كانت هذه الفتاة معلّمتي التي علمتني اللغة: إذْ كلما كنتُ أشير إلى شيء كانت تنطق لي اسمه بلغتهم، ولهذا استطعتُ في بضعة أيام أن أطلب ما كان يَعِنُّ لي أن أطلبه. وكانت دمثة الطبع ولم يكن طولُها ليزيد على أربعين قدمًا إذ كانت صغيرة الحجم بالنسبة لعمرها. وقد أسْمَتني **جْريلدْريغ**[2] فالتقطَتِ الأسرةُ هذا الاسم ثم التقطَتْهُ المملكة كلها بعد ذلك. وتدلّ هذه الكلمة على ما يُسَمَّى باللاتينية **نانون كولوس** وبالإيطالية **هومونْ تْشليتينو** وبالانجليزية **مانيكين**. وأنا مدين لها بالبقاء على قيد الحياة في تلك البلاد. ونحن لم نفترق قط حين كنتُ هناك وكنتُ أُسَمّيها **جْلَمْ دالْ كْليتشْ**[3]، أي مربيتي الصغيرة. وأكون ناكرًا للجميل لو حذفتُ هذا الذكر الأمين لعنايتها بي وحبّها لي، وأتمنى من كل قلبي لو كان بإمكاني أن أكافئها بما تستحق بدلاً من أن أكون الإنسان التعيس البريء الذي سبب لها ـ دون أن يعلم أو يقصد ـ العار والخزي.

أصبح الآن معروفًا لدى جيران سيدي المزارع أنه وَجَد في الحقل حيوانًا غريبًا، وصاروا يتناقلون أخباري، أنّ لي حجم ال **سْبْلاكْنوك**، وأنّ شكلي يشبه في كل شيء شكل مخلوق بشري،

وأني أيضًا أقلد الإنسان في كل أفعاله، وأنني أتكلم كما يبدو لغة صغيرة خاصة بي(٣)، وأنني قد تعلمتُ عدة كلمات من لغتهم، وأمشي منتصبًا على ساقين، وأنني أليف ولطيف، وألبي النداء إذا نوديتُ وأفعل ما أومر به، وأنّ لي أجمل الأعضاء في الدنيا، وأن بشرتي أجمل وأنْعم من بشرة ابنة نبيل في الثالثة من عمرها. وقد قام مزارع كان يعيش بجوارنا، وكان صديقًا حميمًا لسيدي، بزيارة خاصة بقصد أن يستفسر عن صِدْق هذه الأخبار. وقد أحضروني على الفور ووضعوني على طاولة حيث رحتُ أسير كما أُمِرْتُ، وسَلَلْتُ سيفي ثم أغمدتُه، وقدمتُ آيات الاحترام لضيف سيدي، وسألتُه بلغته عن حاله ورحبتُ به، تمامًا كما عَلَّمَتْني مربيتي الصغيرة. وكان هذا الرجل عجوزًا وخابي البصر، فلَبِس نظارته لكي يراني بوضوح، وعِنْد ذاك لم أستطع الامتناع عن الضحك الشديد لأنّ عينيه كانتا تشبهان بَدْرًا يضيء حجرةً من نافذتين. وقد عرفتِ الأسرة التي أقيم معها سبب ضحكي فشاركوني في الضحك، وعندها بَلَغَتِ الحماقة بالعجوز أنه غَضِبَ وعَبَس. وقد كان معروفًا عنه البخل الشديد وحب المال، ولسوء حظي أثبتَ أنه يستحق هذه السمعة بالنصيحة الملعونة التي قدَّمها لسيدي، وهي أن يَعْرِضَني على الناس مقابل أَجْرٍ في يوم سوقٍ في المدينة المجاورة التي كانت تبعد اثنين وعشرين ميلًا عن بيتنا ويتم الوصول إليها على ظهور الخيل في نصف ساعة. وقد أدْرَكْتُ أن شرًّا يُدَبَّر لي حين لاحظتُ سيدي وصديقه يتهامسان ويؤشران نحوي أحيانًا. وقد هَيَّأَتْ لي مخاوفي أنني سمعتُ وفهمتُ بعض كلماتهما. ولكن في الصباح التالي أَطْلَعَتْني جْلَمْ دالْ كليتشْ مربيتي الصغيرة على الموضوع بِرُمَّتِهِ كما الْتَقَطَتْهُ بِدَهاءٍ من أمها. وقد وضعتْني الفتاة المسكينة على صدرها وراحت تبكي حُزْنًا وخِزْيًا. كانت تخشى أن ينالني أذى من رُوّاد السوق المعروفين بخشونتهم وفظاظتهم، والذي قد يعصرونني حتى الموت أو يكسرون أحد أعضائي حين يحملونني في أيديهم. فقد كانت تعرف رِقّة جسمي وحِرْصي على كرامتي، وأنّ عَرْضي مقابل نقود على جمهور من سَفَلة الناس وغوغائهم(٤) سيكون في نظري إهانة بالغة. وقالتْ إن أباها وأمها كانا قد وَعداها أن يكون جْريلْدْريجْ لها وحدها، ولكنها وَجَدَتِ الآن أنهما سيفعلان معها ما فعلاه في السنة الماضية حين أعطياها حَمَلاً وَزَعَما أنه لها، ولكن حالما سَمِنَ الحَمَلُ وكَبُرَ باعاه لأحد القصابين. من ناحيتي يمكن أن أؤكد صادقًا أنني كنتُ أقلّ قلقًا من مربيتي. كان لديَّ أمل قوي لا يفارقني بأنني لا بد أن أنال حريتي ذات يوم. أما بالنسبة لعَرْضي على الناس بوصفي حيوانًا عجيبًا فقد اعتبرتُ نفسي شخصًا غريبًا على تلك البلاد، وأنني لو عُدْتُ إلى انجلترا فلن يلومني أحد على حدوث هذه المصيبة لي، إذ لو كان ملك بريطانيا العظمى نفسه مكاني(٥) وفي وضعي لأصابه ما حَلّ بي.

وطبقًا لنصيحة صديقه حَمَلني سيدي في صندوقٍ(٦) في أول موسم السوق في المدينة المجاورة وحَمَل معه على سَرْجٍ إضافي خلفه ابنته الصغيرة مربيتي. كان الصندوق مغلقًا من كل جهة. وفيه باب صغير لأخرج أو أدخل منه، كما كان فيه بعض الثقوب لِدخول الهواء. وقد بلغ حِرْصُ الفتاة

على راحتي أنها وضعت في الصندوق لحاف دُمْيتها لكي أستلقي عليه. ومع ذلك فقد تعرَّضْتُ في هذه الرحلة لهزّاتٍ وخَضّاتٍ مزعجة جدًا رغم أن الرحلة لم تستمر أكثر من نصف ساعة. ذلك أن خُطْوة الحصان الواحد كانت تقطع حوالي أربعين قدمًا وترفعنا إلى عُلُوّ كبير بحيث كانت حركتنا المضطربة تشبه صعود السفينة وهبوطها في عاصفة شديدة، لكن صعودنا وهبوطنا كان أكثر تكرارًا. وكانت رحلتنا أبعد قليلًا من عشرين ميلاً(٧). ونزل سيدي في فندق كان يزوره كثيرًا. وبعد أن تشاور مع صاحب الفندق وأجرى معه الترتيبات اللازمة استأجَرَ مناديًا لِيُعْلن في أنحاء المدينة(٨) عن وجود مخلوق عجيب سيُعْرَض في فندق **النسر الأخضر**، وهو أصغر من الحيوان **سْبْلاكْنوكْ** ـ وهو حيوان في تلك البلاد جميل التقاطيع وطوله حوالي ستة أقدام ـ لكن كل جزء في جسمه يشبه الإنسان، ويستطيع أن ينطق ببعض الكلمات وأن يقوم ببعض الحركات البشرية المسلية.

وُضِعْتُ على طاولةٍ في أكبر قاعة بالفندق مربعة الشكل يُقَدَّر طول ضلعها بثلاثمائة قدم. وقفَتْ مربيتي الصغيرة على مقعد منخفض قرب الطاولة لتَعْتَنِيَ بي وتُرْشِدَني إلى ما يجب أن أفعله. ولكي يتجنب التزاحم لم يسمح سيدي لأكثر من ثلاثين شخصا بالدخول في المرة الواحدة. وكنتُ أتمشّى على الطاولة كما تأمرني الفتاة. وكانت تسألني أسئلة تَعْلَمُ أن معرفتي باللغة تمكّنني من فَهْمِها فأجيب عليها بأعلى صوتي. وكنتُ أدور على المشاهدين عدة مرات وأقدّم لهم آيات الاحترام وأرحب بهم وأُلْقي بَعْضَ الخُطَب التي كنتُ قد لُقِّنْتُها. وكنتُ أرفع كشتبانًا مملوءًا بالشراب، وكانت جُلَمْ دالْ كْليتشْ قد أعطته لي بدل كأس، وأشربُ نخب صحتهم. وكنتُ أستَلّ سيفي وألوّح به كما يفعل المتبارزون في انجلترا. وكانت مربيتي قد أعطتني قشّة لأستعملها كَرُمْحٍ، وقد كنتُ في شبابي قد تعلمتُ فنّ القتال بالرماح. وفي ذلك اليوم عُرِضْتُ على اثنتي عشرة مجموعة وأُجْبِرْتُ على القيام بكل تلك الحركات السخيفة أمام كل مجموعة، حتى بلغ بي الإرهاق والانزعاج حدّ الهلاك. الذين رأَوْني نقلوا لغيرهم تقارير مثيرة عنّي شوَّقَتْهم لرؤيتي، فتدافعوا على الدخول حتى كادوا يكسرون الباب. ولكي يحافظ سيدي على مصالحه لم يسمح لأحد سوى مربيتي أن يلمسني. ولكي يتقي الخطر، وضع مقاعد المتفرجين على مسافة بعيدة تجعلني بعيدًا عن متناول أحد، لكن تلميذًا متعوسًا صَوَّبَ حبة بندق وقذفها على رأسي فأخطأتني(٩)، لكنها جاءت بسرعة عنيفة بحيث أنها لو أصابتني لَفَلَقَتْ رأسي وطيَّرَتْ دماغي، لأنها كانت بحجم يقطينة صغيرة. ولَكَمْ أسعدني أن أرى ذلك الشاب الخبيث يُضْرَبُ ويُطْرَد من القاعة.

وقد أذاع سيدي أنه سيعرضني في موسم السوق التالي، وفي هذه الأثناء جَهَّزَ صندوقًا مريحًا أكثر ليحملني فيه، وكان فطينًا إذْ فعل ذلك، لأن ما عانيتُه من تَعَبٍ في رحلتي الأولى، بالإضافة إلى قيامي بعروض ممتعة للمتفرجين طيلة ثماني ساعات متواصلة كان قد جعلني عاجزًا عن الوقوف

على قدميّ وعاجزًا عن نُطْقِ كلمة واحدة. ولم أسترجع قواي إلا بعد مدة لا تقل عن ثلاثة أيام. لكني لم أسترح في المنزل أيضًا، ذلك أن العائلات في المنطقة المجاورة وعلى مسافة مائة ميل، سَمِعَتْ بشُهرتي فراحتْ تتقاطر إلى منزل سيدي لرؤيتي. ولم يَخْلُ البيتُ من مجموعات تقلّ عن ثلاثين شخصًا مع زوجاتهم وأطفالهم، ذلك أن تلك البلاد كثيفة السكان. وكان سيدي لا يقبل أجرًا أقلّ من رسوم قاعةٍ مليئةٍ كلما عرضني في منزله، حتى ولو كان المتفرجون لا يزيدون عن عائلة واحدة. لهذا لم يكن يتيسر لي في أي يوم من أيام الأسبوع (سوى الأربعاء وهو يوم الراحة عندهم)[١٠] أن أستريح كفايتي، هذا برغم أني لم أُحْمَل إلى المدينة.

وحين وجد سيدي أنني يمكن أن أعود عليه بربحٍ طائلٍ، قرر أن يحملني ويعرضني في كبريات مدن المملكة. وبعد أن تزود بكل الأشياء اللازمة لرحلة طويلة، ورتّب شؤون بيته، ودَّع زوجته، وانطلق بي يوم السابع عشر من أغسطس، ١٧٠٣، أي بعد حوالي شهرين من وصولي، في رحلة طويلة إلى العاصمة التي تقع في منتصف تلك الامبراطورية، وتبعد عن بيتنا قرابة ثلاثة آلاف ميل. وقد أرْكَبَ سيدي خلفه ابنته جُلَمْ دالْ كْليتشْ، وكانت هي تحملني على حِضْنها في صندوق مربوط بِخَصْرِها. وكانت قد بطَّنَتْ جميع الجوانب الداخلية للصندوق بأنْعم القماش المتاح بعد أن حَشَتْهُ وضَرَّبَتْهُ، كما كانت قد أثَّثَتْهُ بفراش الدمية وجَهَّزَتْ لي الملابس واللوازم الأخرى، وجعلَتْ كل شيء مريحًا قدر استطاعتها. ولم يرافقنا أحد سوى فتى من خدم المنزل كان يركب حصانًا خَلْفَنا ويحمل متاعنا.

كانت خطة سيدي أن يعرضني في كل البلدان التي في طريقنا. وكان يخرج عن الطريق الرئيسي لمسافة خمسين أو مائة ميل، لكي يعرضني في أية قرية أو أي منزل لشخصية مرموقة تدفع له مبلغًا مجزيًا. وقد كنا نقوم برحلات سهلة لا تزيد عن مائة وأربعين أو مائة وستين ميلًا في اليوم الواحد، لأن جُلَمْ دالْ كليتشْ كانت تَدّعي أنها تعبَتْ من خَبَب الحصان. وكانت تتعمَّد ذلك لكي تجنِّبني الارهاق. وكثيرًا ما كانت تُخْرِجُني من الصندوق نزولًا عند طلبي لكي أشمّ الهواء ولكي تُرِيَني البلاد. ولكنها كانت دائمًا تمسكني بحزم بحبال كالحبال التي تمسك الأم بها طفلها كي لا يتوه عنها. ومررنا في رحلتنا بخمسة أو ستة أنهار أعمق وأعرض كثيرًا من نهر النيل أو نهر الغانج، وقلما صادفْنا جدولًا أو نُهَيْرًا أصغر من نهر التيمز. واستغرقَتْنا تلك الرحلة عشرة أسابيع، عُرِضْتُ خلالها في ثماني عشرة مدينة كبيرة، بالإضافة إلى الكثير من القُرى وبيوت بعض العائلات.

وفي السادس والعشرين من اكتوبر وصلنا إلى العاصمة التي تسمى بلغتهم لورْ بْرولْ جْرود[١١] أو مفخرة الكون. استأجر سيدي مسكنًا في الشارع الرئيسي في المدينة، ليس بعيدًا عن القصر الملكي، وعلق إعلانات بالأسلوب المتبع، فيها وصف دقيق لشخصي وأجزائي. واستأجر

قاعة ضخمة عَرْضُها بين ثلاثمائة وأربعمائة قدم، ووضع فيها طاولة قطرها ستون قدمًا لكي ألعب عليها دوري، وثَبَّتَ عليها حواجز على بعد ثلاثة أقدام من حافَتها وعلى ارتفاع ثلاثة أقدام كيلا أسقط من فوقها. وكان يَعْرِضُني عشر مرات في النهار، مما أثار عَجَب كل الناس وحاز على رضاهم. وكنتُ في هذه الآونة أتكلم لغتهم بطريقة لا بأس بها، وأفهم كل كلمة تُوَجَّه إليّ. أضف إلى هذا أنني كنتُ قد تعلمتُ أبجديتهم وأصبحَ بإمكاني أن أقرأ وأترجم جملة هنا وأخرى هناك، وذلك لأن جْلَمْ دالْ كْليتشْ كانت تعلمني ونحن في المنزل وفي ساعات الفراغ خلال رحلتنا. كانت تحمل في جيبها كتابًا صغيرًا، ليس أكبر كثيرًا من أطلس سانسون[١٢] عندنا. كان هذا كتابًا شائعًا موجَّهًا للبنات الصغيرات، ليعلمهن دينهن. ومن هذا الكتاب كانت تعلّمني حروف الهجاء وتفسّر لي الكلمات.

الفصل الثالث

القصر يرسل في طلب المؤلف. الملكة تشتريه من سيده المزارع وتهديه للملك. يختلف مع كبار علماء جلالته. يخصّص للمؤلف جناح في القصر. يحظى بمكانة عالية لدى الملكة. يدافع عن شرف بلاده. منازعاته مع قزم الملكة.

الأعمال الشاقة المتكررة التي أُجْبِرتُ على القيام بها يوميًا، أثرت على صِحّتي تأثيرًا ملموسًا في بضعة أسابيع. وكلما زادت مكاسب سيدي من عَرْضِه لي على الناس، زادت مطامعه بلا حدود. وقد فقدتُ شهيتي للطعام، وهَزُل جسدي حتى كِدْتُ أتحول إلى هيكل عظمي. وقد لاحظ المزارع ذلك. وظنًّا منه أنني سأموت عن قريب، قرر أن يكسب من جودي أقصى ما يستطيع من مال. وبينما كان يقلب الأمور في ذهنه على هذا الشكل، جاء رسول من القصر وأمر سيدي أن يحملني معه على الفور إلى القصر لتسلية الملكة ووصيفاتها اللواتي كان بعضهن قد رأينني من قبل وَنَقَلْنَ أخبارًا غريبة عن جمالي وسلوكي وذكائي، وقد سُرَّت جلالتها واللواتي كن بصحبتها برؤيتي وبسلوكي سرورًا يتجاوز الوصف. فقد ركعتُ على ركبتي ورجوتُ أن تمنحني شرف تقبيل قدمها الملكية، لكن هذه الأميرة الجليلة مدت لي بنصرها (بعد أن وُضِعْتُ فوق الطاولة) فاحتضَنْتُه بين ذراعيّ ووضعت طرفه باحترام شديد على شفتي. ووجهَتْ إليَّ بعض الأسئلة العامة عن بلادي ورحلاتي، وأجبتُ بكل الوضوح الذي أستطيعه وبكل الكلمات القليلة التي أعرفها. وسألَتْني إن كنتُ أرضى بالعيش في القصر فانحنيتُ حتى خشبَ الطاولة وأجبتُ بتواضع أنني عبدٌ لسيدي، وأنني لو كنتُ أملك أمر نفسي لكنتُ أعتز بتكريس حياتي لخدمة جلالتها. ثم سألَتْ سيدي إن كان مستعدًا لبيعي مقابل سعر طيب. ولأنه كان يظن أنني لن أعيش أكثر من شهر فقد كان في كامل الاستعداد للتخلص مني، وطلب ثمنًا لي ألف قطعة ذهبية، فأَمَرَتْ بدفعها له على الفور، وكانتْ كل قطعة تساوي في حجمها حجم ثمانمائة (مويدوريس). ولكن إذا أخذنا في الحسبان نِسَبَ الأشياء في تلك البلاد إليها في أوروبا، وارتفاع أسعار الذهب عندهم، فإن الألف قطعة ذهبية التي طلبها لم تكن أكثر من ألف جنية في انجلترا. حينذاك قلتُ للملكة إنه بما أنني قد أصبحتُ الآن خادمها المطيع وتابعها، المخلص فلا بد أن أرجوها أن تُسْدي إليَّ معروفًا، وهو أن تأمر بضَمّ جُلَمْ دالْ كْليتشْ، التي كانت دائمًا ترعاني بكل حرص وحنان، وتعرف كيف تفعل ذلك جيدًا، إلى خَدَمِها، وأن تُبْقيَها مربية ومعلمة لي. وقد

وافَقَتْ جلالتها على التماسي هذا وحصلَتْ بسهولة على موافقة المزارع الذي سرَّهُ أن تصبح ابنته ذات حظوة في القصر. أما الفتاة المسكينة فلم تستطع أن تخفي سعادتها. وهكذا انسحب من كان سيدي، وتمنى لي التوفيق وقال إنه يتركني في أيد أمينة. لكني لم أرد عليه بكلمة واحدة، واكتفيتُ بأن أنحني له انحناءة طفيفة.

وقد لاحظتِ الملكة برودي. وحين خرج المزارع من جناحها سألَتْني عن السبب. وقد تجاسرتُ فأخبرتُ جلالتها أني لستُ مدينًا لسيدي ذاك بشيء سوى أنه لم يَقتُل مخلوقًا مسكينًا مسالمًا وجده بالصدفة في حقله، وأنه قد عُوِّضَ عن ذلك الدين بسخاء، عن طريق المكاسب التي ربحها من عَرْضي على الناس في كل مكان في نصف المملكة، والنقود التي باعني بها الآن، وأن الحياة التي عِشْتها عنده كانت مليئة بالعمل الشاق الكفيل بقتل حيوان له عشرة أضعاف قوتي، وأن صحتي تضررت بالغ الضرر من الكدّ والجهد المتواصل الذي كنت أبذله في تسلية رعاع الناس في كل ساعات النهار، وأنه لو لم يكن سيدي يظن أن حياتي في خطر لما حصلَتْ جلالتها عليَّ بمثل ذلك الثمن البخس. ولكن بما أنني الآن لم أعُد أخشى المعاملة السيئة ما دمتُ في حماية امبراطورةٍ هي مثال العظمة والطيبة، وزينة الطبيعة ودُرَّة العالم ومحبوبة الشعب ونادرة المثال بين المخلوقات، فإن ظنون من كان سيدي بالنسبة لموتي الوشيك ستصبح بلا أساس، لأنني أجد أن معنوياتي قد ارتفعت بالفعل بتأثير محضرها المهيب.

هذه خلاصة خطابي الذي ألقيتُه بتردد وتلعثم وأخطاء لغوية كثيرة. وكان الجزء الأخير منه مصوغًا بالأسلوب الخاص لأولئك القوم، والذي تعلمتُ بعض عباراته من جْلَمْ دالْ كْليتشْ ونحن في طريقنا إلى القصر.

ورغم أخطائي في اللغة والنطق، فقد دهشَتِ الملكة دهشة بالغة بذلك القدر العظيم من الذكاء، والفكر السليم في حيوانٍ في مثل ضآلتي، وقد حملَتْني في يدها وذهبَتْ بي إلى الملك الذي كان حينذاك يستريح في حجرته الخاصة. وكان جلالته أميرًا ذا وقار عظيم ووجه صارم(١). ولما لم يُلاحِظْ شَكْلي جيدًا في النظرة الأولى، سأل الملكة بشيء من البرود، منذ متى صارت مغرمةً بحيوان الـ(سْبْلاكْنوكْ)، لأنه ظنّ أني كذلك حين رآني منبطحًا على صدري في اليد اليمنى لجلالتها. لكن هذه الأميرة التي كانت على قدر عظيم من الفِطنة والظرف(٢)، وضعَتْني برفقٍ على قَدَمَيّ فوق طاولة المكتب وأمَرَتْني أن أقدم لجلالته تقريرًا عن نفسي. ففعلتُ ذلك بإيجاز شديد. وحين سُمِحَ لمربيتي، التي كانت تقف عند باب الحجرة ولا تطيق أن أغيب عن بصرها، بالدخول أكدّتْ صحة ما قلتُه عما حدث معي منذ وصولي إلى بيت أبيها.

ورغم أن الملك لم يكن يَقِلّ عِلْمًا عن أي شخص في بلاده، وكان قد درس الفلسفة وعلوم

الرياضة بشكل خاص، فإنه حين تفحص شكلي بدقة ورآني أقف منتصبًا، وقبل أن أبدأ بالكلام، تصوَّر أنني آلة شبيهة بالساعة(٣) (وصناعة الساعات كانت عندهم قد بلغت درجة عظيمة من الكمال) من صنع فنان بارع. لكنه حين سمع صوتي ووجد أن ما قُلْتُه منطقيّ ومعقول، لم يستطع أن يخفي دهشته. لكنه لم يقتنع بما رَوَيْتُه له عن كيفية مجيئي إلى مملكته، بل ظنَّ أن ما قلتُه هو قصة لَفَّقَتْها جْلَمْ دالْ كْليتش وأبوها اللذَيْن عَلَّماني مجموعة من الكلمات لكَيْ يبيعاني بسعر أعلى. وطبقًا لهذا التصور وجَّه إليَّ أسئلة عديدة ولكنه تلقّى أجوبة منطقية لا عيب فيها سوى اللُّكْنة الأعجمية والمعرفة غير الكاملة باللغة، وبعض العبارات الفلاّحية التي كنتُ قد تعلمتُها في بيت المزارع ولا تتفق مع رقة أسلوب أهل القصر.

وأرسل جلالته في طلب ثلاثة من كبار العلماء الذين كانوا حينذاك يقومون بزيارتهم الأسبوعية (تبعًا لعادتهم في تلك البلاد)، وبعد أن تفحص هؤلاء السادة شكلي بتمعن كبير، انتهَوْا إلى آراء مختلفة بشأني. فقد أجمعوا أنني لا يمكن أكون من إنتاج القوانين المألوفة في الطبيعة(٤)، لأنني مكوّن بطريقة لا تمنحني القدرة على المحافظة على حياتي، سواء من ناحية السرعة أو تسلق الأشجار أو حَفْرِ ثقوب في الأرض. واستنتجوا من دراستهم لأسناني التي تفحصوها بدقة، أنني حيوان لاحِمٌ، لكن لأن معظم ذوات الأربع تتفوق عليَّ فلا أقدر على اقتناصها، ولأن فئران الحقول وغيرها أسرع من أن ألحق بها وأمسكها، فإنهم لا يستطيعون أن يتخيلوا طريقة أخرى أعول بها نفسي سوى أن أقتات بالحلزونات والحشرات الأخرى، لكنهم حاولوا أن يثبتوا بأساليب علمية عديدة أنه ليس بوسعي أن أفعل ذلك. وتصوّر أحدهم أنني قد أكون جنينًا أو مولودًا ناقص النمو. لكن العالِمَيْن الآخرين رفضا هذا الرأي لأنهما لاحظا أن أعضائي كلها كاملة النمو، وأنني أعيش منذ سنوات عديدة كما هو واضح من نُمُوّ لحيتي التي رأوا بقايا شعراتها بوضوح بعدسات مكبرة. ولم يقبلوا القول بأنني قزم لأن ضآلة حجمي لا تقارَنُ بأية ضآلة في حجم أي قزم عندهم، ذلك لأن القزم المفضَّل عند الملكة، وهو أصغر قزم عرفَتْه تلك المملكة، يقارب طوله الثلاثين قدمًا. وبعد جَدَلٍ كثير انتهَوْا بالإجمال إلى أنني لستُ سوى (ريلْبْلوم سْكالْكاتْ)، وهذا يعني حرفيًا **فلتة من فلتات الطبيعة**، وهذا قرار يناسب الفلسفة الحديثة في أوروبا(٥) التي يحتقر فلاسفتُها التفسيرت الهروبية التي تزعم وجود **أسباب خفية**، والتي يلجأ إليها أتْباع أرسطو في محاولة غير مجدية لإخفاء جهلهم. وقد اخترع أصحاب الفلسفة الحديثة هذا الحلّ الرائع لكل ما يصعب فهمه، مما أحدث تقدمًا رائعًا في مجال المعرفة البشرية.

بعد هذا القرار الحاسم رجوتُ أن يُسْمَحَ لي بكلمة أو اثنتين. وجهتُ كلامي إلى الملك وأكدتُ لجلالته أنني آتٍ من بلاد تعج بالملايين من أمثالي، من الذكور والإناث الذين هم في مثل قامتي وحجمي، وفيها حيوانات وأشجار وبيوت تتناسب مع أحجامنا، وحيث أستطيع تبعًا لذلك أن أحمي نفسي وأجد ما أقتات به كما يفعل أي واحد من رعاياه هنا. وقلتُ إن هذا هو رَدّي

الكامل على أقوال أولئك السادة العلماء. لكن رَدّهم لم يتجاوز ابتسامة احتقار[٦] مشفوعة بقولهم إن المزارع قد أحسن تعليمي وأجاد في تلقيني دروسي. لكن الملك الذي كان أحسن منهم فهمًا وأوسع إدراكًا، صرفهم وأرسل في طلب المزارع الذي لم يكن، لحسن الحظ، قد غادر المدينة. وبعد أن استجوبه وحده، وواجهه بي وبابنته الصغيرة، بدأ جلالته يعتقد أن ما قلناه له قد يكون صحيحًا. وطلب من الملكة أن تأمر بأن يُعْنَى بي عناية خاصة، ورأى أنه ينبغي أن تستمر **جْلَمْ دالْ كْليتشْ** في القيام برعايتي وخدمتي، لأنه لاحظ أن كُلاًّ مِنّا يُكِنّ للآخر وُدًّا عظيمًا. وخُصِّصَ لها جناح مناسب في القصر كما عُيِّنَتْ مربية للقيام بتعليمها وتربيتها، وخادمة لتعدّ لها ملابسها، وخادمتين للقيام بالأعمال والخدمات اليدوية الدنيا. أما العناية بي، فقد كانت مسؤوليتها وحدها. وأَمَرَتِ الملكة نَجّارها الخاص أن يصنع علبة تصلح غرفة نومٍ لي حسب النموذج الذي نوافق عليه أنا و**جْلَمْ دالْ كْليتشْ**. وكان هذا النجّار فنانًا بارعًا، واستطاع في ثلاثة أسابيع أن يصنع حسب تعليماتي، غرفة خشبية مربعة الشكل طول ضلعها ستة عشر قدمًا وارتفاعها اثنا عشر، وفيها نوافذ وباب وخزانتين كما في غرفة نومٍ في **لندن**. وكان خشب السقف قابلًا للرفع والخفض بواسطة رَزَّتَيْن، وذلك لإدخال سرير كان المُنَجِّد الخاص لجلالتها قد صنعه وجهزه. وكانت **جْلَمْ دالْ كْليتشْ** تُخْرِج هذا السرير كل يوم لتهويته، ثم تُرَتّبه بيديها وتعيده في الليل ثم تقفل السقف من فوقي. كذلك قام نجّار فنان آخر مشهور بصناعة التحف الصغيرة العجيبة بصناعة كرسيين لي. لكل منهما ظَهْر ومساند من مادة لا تختلف عن العاج، كما صنع لي طاولتين ودولابًا لأضع حاجاتي فيه. وكانت حجرتي مُنَجَّدَة من كل الجوانب، بما في ذلك أرضيتها وسقفها، وذلك لمنع أي حادث قد ينجم عن إهمال من يحملونني ولتخفيف أثر الرّجّات لدى نَقْلي في عربة. وقد طلبتُ قفلًا لبابي لمنع الجرذان والفئران من الدخول، فصنع الحداد، بعد محاولات عديدة، أصغر قفل رآه الناس في تلك البلاد، لأنني رأيت أكبر منه في بوابة بيت أحد السادة في انجلترا. وقد احتفظتُ بالمفتاح في أحد جيوبي لأنني كنتُ أخشى أن تفقده **جْلَمْ دالْ كْليتشْ**. وقد أمرَتِ الملكة أيضًا بإحضار أرقّ حرير يمكن العثور عليه لتُصْنَع منه ملابسي، ولم يكن أَسْمَكَ كثيرًا من بطانية انجليزية، وكان ثقيلًا ومزعجًا جدًا إلى أن تعودتُ عليه. وكانت ملابسي تُصْنَع بزيّ تلك البلاد الذي يشبه في جزء منه الزي الفارسي وفي جزء آخر الزي الصيني، لكنها كانت ملابس وقورة جدًا ومحتشمة جدًا.

أصبحت الملكة شديدة الشغف بصحبتي، حتى أنها لم تعد تطيق تناول طعامها دون وجودي. وكان لي مائدة توضع فوق المائدة التي تأكل عليها جلالتها بالقرب من كرسيها الأيسر، وكرسي أجلس عليه. وكانت **جْلَمْ دالْ كْليتش** تقف فوق كرسي منخفض على الأرض بالقرب من مائدتي لتساعدني وتعتني بي. وكان لي طقم كامل من الصحون والأطباق والأشياء الضرورية الأخرى التي هي بالنسبة لطقم الملكة ليست أكبر من تلك التي كنتُ أراها في إحدى حوانيت الدمى في **لندن**

كأثاث لبيت دمية. وكانت مربيتي الصغيرة تحتفظ بهذا الطقم في علبة تضعها في جيبها وتناولني عند الوجبات ما أطلبه منه. وكانت دائمًا تنظفه بنفسها. ولم يكن يتناول الطعام مع الملكة سوى الأميرتين الملكيتين اللتين كانت كبراهما تبلغ السادسة عشرة، وصغراهما ثلاثة عشر عامًا وشهراً واحدًا. وكانت جلالتها تضع في صحني قطعة من اللحم أُقَطِّع منها ما أشاء لنفسي، وتُمَتِّع نفسها برؤيتي وأنا آكل. أما الملكة التي كانت شهيتها ضعيفة، فكانت تأكل في اللقمة الواحدة ما يأكله اثنا عشر فلاحًا انجليزيًا في وجبة كاملة. وكان ذلك بالنسبة لي منظرًا مقززًا لفترة طويلة. كانت تقرش بين أسنانها جناح قُبَّرةٍ، بلحمه وعظمه، مع أن ذلك الجناح كان بحجم تسعة أجنحة لديكٍ روميٍّ كامل النمو، كما كانت تضع في فمها كسرة من الخبز، حجمها يساوي حجم اثني عشر رغيفًا كبيرًا. وكانت تشرب من قدح ذهبي أكثر من ملْء برميل عندنا في الجرعة الواحدة. وكان نَصْلُ سكينها بطول نَصْلَيْ منجلين إذا وضعا بخط مستقيم فوق المقبض. وكانت الملاعق والشوك والأدوات الأخرى كلها ضخمة بالنسبة نفسها. وأذكر أن جْلَمْ دالْ كْليتشْ حملتني ذات يوم بدافع الفضول إلى مائدة في القصر، حيث كانت عشرة أو اثنتا عشرة من هذه السكاكين والشوكات الضخمة تُرْفَع معًا، فخُيِّل إليَّ حينذاك أنني لم أشاهد من قبل منظرًا بهذه الفظاعة.

جرت العادة هنا في كل أربعاء (وهو يوم عطلتهم الأسبوعية كما ذكرت من قبل)، أن يتناول الملك والملكة وذُرِّيتُهما من الجنسين طعام العشاء معًا في جناح جلالته. وكنت حينئذٍ قد أصبحتُ مقربًا من الملك، وفي هذه المناسبات كانت مائدتي وكرسيي يوضعان على المائدة إلى يساره أمام المملحة. وكان هذا الأمير يَسْعَد بالحديث معي، فيسألني عن آداب السلوك، والدين، والقوانين، والحكم والعلوم في أوروبا، فأجيبه بأفضل ما أستطيع. وكان ذكاؤه واضحًا ورأيه مصيبًا حين كان يقوم بذكر بعض التعليقات والملاحظات على كل ما أقول. وأعترف أنني ذات يوم أسهبتُ كثيرًا في الحديث عن بلادي الحبيبة - عن تجارتنا، وحروبنا في البر والبحر، وانقساماتنا الدينية، وأحزابنا السياسية. لكن تعصبات نشأته وتعليمه كانت تسيطر عليه، لدرجة أنه لم يمتنع عن حَمْلي بيده اليُمنى والتَّربيت عليَّ برفقٍ بيده الأخرى، وسؤالي بعد نوبة من الضحك إنْ كُنْتُ من حزب الأحرار أو حزب المحافظين[٧]. ثم التفتَ إلى وزيره الأول الذي كان واقفًا خلفه ويحمل عصا بيضاء طويلة بطول الصاري الرئيسي في السفينة المسماة **ملكة البحار**،[٨] وقال: ما أحقر عظمة البشر وفخامتهم التي يمكن أن تقلدها حشراتٌ صغيرة مثلي. وأضاف، أراهِنُ أن تلك المخلوقات لها ألقاب وأوسمةُ شرفٍ، وأنها تبني أعشاشًا وجحورًا تسميها بيوتًا ومدنًا[٩]، وأنها تتباهى بما لديها من لباس ورياش وحاشية، وأنها تحب، وتحارب، وتخاصم، وتخادع، وتخون. واستمر يتحدث بهذا الأسلوب، ولوني يَصْفَرُّ ويَحْمَرُّ عدة مرات استنكارًا لما أسمعه من استخفافٍ واحتقارٍ لبلادي النبيلة، سيدة الفنون والآداب والحروب. والسُّوط الذي ترهبه **فرنسا**، وصاحبة الكلمة المسموعة في **أوروبا**، ومقر

الفضيلة والدين والشرف والحق، ومفخرة العالم التي يَجْسِدُها ويغار منها الآخرون.

لكنني لم أكن في وضع يسمح لي بِرَدّ الإهانة أو استنكارها. لهذا، وبعد تفكير راشد، بدأتُ أشكُّ أن إهانة قد وُجِّهتْ لي. ذلك أنني بعد أن تعودتُ عدّة أشهر على رؤية هؤلاء القوم والتحدث معهم، ورأيتُ أن كل ما تقع عليه عيني يتناسب مع حجمهم، ذهب عنّي الرعب الذي كان قد ركبني من حجمهم ومظهرهم، وأَلِفْتُهُم بحيث لو رأيتُ حينذاك مجموعة من اللوردات الانجليز ونسائهم في أفخر حُلِيِّهم وأجمل ملابسهم، وكل منهم يقوم بدوره بأروع أساليب القصور في الاختيال والتبختر والانحناء والهذر، لشَعَرْتُ برغبة قوية في الضحك منهم بقدر ما ضحك هذا المارد وكبار دولته مني. وفي الحقيقة، ما كنتُ أستطيع منع نفسي عن الضحك من نفسي حين كانت الملكة تضعني على يدها، وتحملني أمام المرآة حيث كنتُ أرى شَخْصَيْنا معًا، وكنتُ بالمقارنة بها أسخف ما أكون ـ بل إني بدأتُ أتصور أنني أصبحتُ أصغر من حجمي العادي بمقدار كبير.

لكن لم يكن يغضبني ويؤذي مشاعري شيء بقدر ما كان يفعل قزم الملكة[١٠] الذي كان أقصر مَن وُجِدَ في البلاد قامةً (وأعتقد حقًا أن طوله لم يبلغ الثلاثين قدمًا) فهو حين رأى من هو أدنى منه بكثير بلغتْ به الوقاحة أن صار يختال ويتعاظم كلما رآني في غرفة انتظار الملكة أقف على طاولة وأتحدث مع اللوردات أو السيدات من الحاشية. وقلَّما فاته أن يرمي كلمة أو اثنتين يسخر بهما من صغر حجمي. ولم يكن بوسعي أن أنتقم لنفسي منه سوى بتسميته أخي، أو بدعوته للمصارعة، وغير ذلك من المداعبات اللفظية المألوفة على ألسنة غِلْمان القصر. وذات يوم، أثناء تناول العشاء، اغتاظ هذا الثعلب الصغير اللئيم من شيءٍ قُلْتُه له، فرفع نفسه على مسند كرسي صاحبة الجلالة. وأمسك بي من وسطي وأنا جالس ومطمئن، وأسقطني في زبدية فضية كبيرة ملأى بالحليب وفَرَّ بأقصى سرعة. وسقطتُ برأسي لأسفل، ولو لم أكن سباحًا ماهرًا لكانت نهايتي أليمة ومؤكدة، لأن جْلَمْ دالْ كْليتشْ كانت في الطرف الآخر من القاعة، وقد سيطر الفزع على الملكة فلم تعد تعرف كيف تساعدني. لكن مربيتي الصغيرة هَرَعَتْ لنجدتي، وأخرجتني بعد أن كنتُ قد بلَعْتُ قدرًا كبيرًا من الحليب. ثم وضعوني في الفراش ونِمْتُ. وعلى كل حال، لم يُصِبْني من الأذى أكثر من خسارة البدلة التي كنتُ ألبسها، إذ لم تعد صالحة على الإطلاق. أما القزم فقد ضُرِبَ بالسياط ضربًا مبرحًا، ثم أُنْزِلَتْ به عقوبة أخرى: إذ أجبروه على شُرْب كل ما في الزبدية التي أوقعني فيها. زيادةً على ذلك فقدَ حُظْوَتَه تمامًا عند الملكة التي وَهَبَتْهُ بعد فترة قصيرة إلى سيدةٍ رفيعة المقام، فلم أَعُدْ أراه. وقد أسعدني هذا كثيرًا، لأنني لم أكن أعرف المدى الذي سيتوقف عنده هذا القزم الخبيث في إيقاع الأذى بي بدافع من حقده عليّ.

وكان قد سبق له أن لَعِبَ معي لعبة حقيرة أثارتْ ضحك الملكة وفي الوقت نفسه أزْعَجَتْها

غاية الإزعاج لدرجة أنها كانت ستطرده من وظيفته على الفور لو لم أشفع لـه بدافـع من كرمي المفرط. وملخص الحادثة أن صاحبة الجلالة كانت قد وضعت في صحنها عظمة نخاعية، وبعد أن أخرجَتْ النخاع من العظمة أعادتْ وضعها بشكل عامودي في الصحن كما كانت من قبل. انتهز القزم فرصة ذهاب جْلَمْ دالْ كْليتشْ إلى الخوان (البوفيه)، وصعد المقعد الذي تجلس عليه لِتَعْتَني بي أثناء الوجبات، وأمسكني بكلتي يديه، وضم قدميَّ إلى بعضهما بقوة، ثم دقَّها كما يُدَقّ الاسفين داخل العظمة النخاعية حتى أُدْخِلْتُ فيها إلى خَصْري، وبقيتُ في العظمة بعض الوقت، وكان شكلي مضحكًا جدًا. وأعتقد أنني بقيتُ على هذا الوضع لمدة دقيقة قبل أن يفطن أحد لما حدث لي. ذلك أنني خجلتُ من الصياح وطلب النجدة. ولكن بما أن الملوك قلما يأكلون اللحم ساخنًا، فإن ساقيَّ لم تُسْمَطا. أما جواربي وبنطالي فقد صارت جميعًا في حالة يُرْثَى لها. وبناء على توسلاتي وشفاعتي لم يعاقَبْ القزم بأكثر من عَلْقةٍ ساخنة.

وكثيرًا ما كانت الملكة تمازحني وتضحك من خوفي الشديد، وتسألني إن كان أبناء بلدي جبناء جدًا مثلي. وسبب ذلك أن المملكة مبتلاة بكثرة الذباب في الصيف. وكانت هذه الحشرات الكريهة التي يبلغ حجم الواحدة منها حجم قُبَّرةٍ كبيرة، قلما تترك لي فرصة لتناول طعامي بهدوء، إذ تظل تهمهم وترنّ حول أذنيّ. وكانت أحيانًا تحُطُّ على طعامي، وتُخَلِّفُ وراءها برازها المقرف أو بيضها النتن الذي كان بالنسبة لي مرئيًا رؤيا العين، بينما لم يكن كذلك بالنسبة لأهل تلك البلاد الذين لم تكن عيونهم الكبيرة حادة البصر كعيوني، وبالتالي لا ترى الأشياء الصغـيرة. وأحيانًـا كانت تلك الحشرات تَحُطّ على أنفي أو جبيني وتلصق به وتلدغني فيه لدغات تصل حتى العظم، وتزكم أنفي بروائحتها. وكنتُ أرى بسهولة تلك المادة اللزجة التي تساعدها، كما يخبرنا علماء الطبيعة عندنا، أن تسير بجسمها مُدَلّى من أرجلها على السقوف. وكنتُ أعاني عناء كبيرًا في الدفاع عن نفسي ضد هذه الحيوانات المقيتة، ولم يكن بوسعي إلاّ أن أجفل حين تأتي نحو وجهي. وكان يَلَذّ للقزم أن يمسك عددًا من هذه الحشرات داخل يده، كما يفعل أولاد المدارس عندنا، ثم فجأة يفتح يده ويطلقها تحت أنفي بقصد أن يرعبني ويُضْحِك الملكة. وكان علاجي لهذه الحالة هو أن أقطعها إربًا بسكيني وهي طائرة في الجو، وبهذا كنتُ أُدَلِّلُ على مهارتي التي تحظى بالكثير من الإعجاب.

وأذكر ذات صباح أن وضعتني جْلَمْ دالْ كْلتشْ وأنا في علبتي على حافة النافذة، وكان من عادتها أن تفعل هذا في الأيام الصافية لأشمّ الهواء، لأنني لم أكن أجسر على تركها تعلق العلبة على مسمار خارج النافذة كما نفعل بالأقفاص في انجلترا. بعد أن فتحتُ زجاج النـافذة وجلستُ إلى المائدة لأفطر على قطعة من كعك حلو، أقبل عليَّ أكثر من عشرين دبورًا تجذبها رائحة الطعام. ودخلتْ حجرتي وهي تهمهم بصوت أعلى من صوت عدد مماثل من القِرَب الموسيقية، وانقضَّ بعضها على كعكتي ثم طاروا بها قطعًا صغـيرة، وراح بعضها الآخـر يحوم حـول رأسي ووجهي

فأذهلتني بضجيجها وأزعجني الخوف من أن تَخِزَني بإبَرها. لكني مع ذلك أَسْعَفَتْني شجاعتي، فسللتُ سيفي وهجمتُ عليها وهي طائرة، فقتلتُ أربعة منها ولاذت البقية بالفرار. ثم أغلقتُ نافذتي على الفور. كان كل دبور منها بحجم الحَجَل. وقد أخرجتُ إبَرها فوجدتُ أن طول الواحدة يبلغ بوصة ونصف البوصة، وأن رأسها حاد كرأس الإبرة. وقد احتفظتُ بها جميعًا وعرضتُّها مع أشياء غريبة أخرى في عدة أماكن من **أوروبا**. ولدى عودتي إلى انجلترا أهديتُ ثلاثة منها إلى **كلية جريشام**(١١) واحتفظتُ بالرابعة لنفسي.

الفصل الرابع

وصف للبلاد. اقتراح لتصحيح الخرائط الحديثة. قصر الملك وبعض أوصاف العاصمة. طريقة المؤلف في الترحال. وصف للمعبد الرئيسي.

أنوي الآن أن أعطي القارئ وصفًا موجزًا لهذه البلاد يغطي المناطق التي زرتُها، وهي لا تتعدى أَلْفَيْ ميل حول لورْبْرولْ جْرودْ العاصمة، لأن الملكة التي كنتُ أسافر في ركابها لم تكن تذهب إلى أبعد من ذلك حين ترافق الملك في رحلاته، بل كانت تتوقف عند ذلك البُعْد، وتنتظر الملك حتى يعود من تَفَقُّد حدوده. وتمتد بلاد هذا الأمير حوالي ستة آلاف ميل طولًا ومن ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف عرضًا[1]. ولهذا لا بدّ أن أستنتج أن علماء الجغرافيا في أوروبا يخطئون خطأ فادحًا حين يفترضون أنه لا يوجد سوى البحر بين اليابان وكاليفورنيا. وقد كان رأيي دائمًا أنه لا بد أن يكون هناك قَدْر كبير من البرّ يعادل القارة الكبيرة لبلاد التتار، ولهذا فإن على الجغرافيين أن يصححوا خرائطهم ورسوماتهم الجغرافية عن طريق ضَمّ هذا الشريط البرّي الشاسع إلى الأجزاء الغربية الشمالية من أمريكا، وإني على استعداد للمساعدة في هذا المضمار.

المملكة شبه جزيرة[2] يحدّها في الشرق الشمالي سلسلة من الجبال التي ترتفع ثلاثين ميلًا والتي لا يمكن عبورها أبدًا بسبب البراكين في قممها. ولا يعرف حتى المتعلمون أي جنس من البشر يسكن خلف تلك الجبال، أو إذا كان هناك من يسكنها. في الجوانب الثلاثة الأخرى يحيط بالمملكة بحر واسع لكن لا يوجد في المملكة كلها ميناء بحريّ واحد، لأن تلك المناطق من الساحل التي تصب فيها الأنهار مليئة جدًا بالصخور المدببة، والبحر عندها هائج جدًا بحيث أنه لا يتجاسر أحد على دخوله ولو بأصغر المراكب. لهذا فإنّ هؤلاء القوم مقطوعو الصلة كليًا ببقية العالم. لكن الأنهار الكبيرة مليئة بالمراكب وتكثر فيها الأسماك الممتازة. وهُمْ قلما يحصلون على سَمَك بحري، لأن حجوم أسماك البحر هناك هي مثل حجومها في أوروبا، وبالتالي فهي لا تستحق عندهم عناء الصيد. ويتضح من هذا أن عمل الطبيعة في إنتاج نباتات وحيوانات ذات حجوم ضخمة خارقة للعادة مقصور على هذه القارة. أما أسباب ذلك فأتركُ البحث فيها للفلاسفة. لكن يصدف من حين لآخر أن يرمي البحر حوتًا على صخورهم، فيتمتع بأكله عامة الناس. وهذه الحيتان التي عرفتُها

ضخمة الحجم جدًا بحيث لا يستطيع أحد من العمالقة أن يحمله على كتفيه، وأحيانًا تُحْمَل في سلال إلى العاصمة للفُرْجَة. وقد رأيتُ أحدها مطبوخًا على مائدة الملك، باعتباره طبخة نادرة. لكني لم ألاحظ أن الملك يحب أكله، لأنه في الحقيقة يَقْرَفُ من الأشياء الضخمة، مع أنني رأيت حوتًا أكبر منه قليلًا في جرينلاند.

البلاد عامرة بالسكان لأنها تحتوي على إحدى وخمسين مدينة[٣]، وحوالي مائة بلدة مُسَوَّرة وعدد كبير من القرى. ولكي أُشْبع فضول القارىء، قد يكفي أن أصف له لورْبْرولْ جْرود[٤] العاصمة. تنقسم هذه المدينة إلى قسمين متساويين يقعان على ضفتَيْ النهر الذي يعبرها، وفيها حوالي ثمانية آلاف منزل. ويبلغ طولها حوالي مائة واثنين وستين ميلًا انجليزيًا كما يبلغ عرضها مائة وخمسة وثلاثين ميلًا، هذا حسب قياسي لها بنفسي على الخارطة الملكية التي عُمِلَتْ بأمر الملك، وكانت قد فُرِدَتْ على الأرض خصيصًا من أجلي وغَطَّتْ مئة قدم. وقد قِسْتُ قطرها ومحيطها بقدميّ العاريين ثم حسبتها على أساس نسبة القياس، وجاءت نتيجة قياسي دقيقة إلى حد بعيد.

أما قصر الملك فليس بناء منتظمًا، بل كومة من البنايات في محيط سبعة أميال. القاعات الرئيسية هي عمومًا بارتفاع مائتين وأربعين قدمًا، وطولها وعرضها يتناسبان مع ارتفاعها. كانت هناك عربة مخصصة لي ولمربيتي جْلَمْ دالْ كْليتشْ. وكانت مربيتها كثيرًا ما تخرج معها للتفرج على المدينة أو للتبضع في الأسواق، وكنت دائمًا أرافقهما محمولًا في علبتي. وكانت الفتاة كثيرًا ما تخرجني، بناء على رغبتي، وتحملني في يدها، كي أرى بوضوح البيوت والناس خلال سيرنا في الشوارع. وأظن أن عربتنا كانت بسِعَة قاعة وستمنستر، لكن ليس بارتفاعها. لكني لا أدَّعي الدقة هنا. وذات يوم أَمَرَتِ المربية سائق العربة أن يقف أمام عدة حوانيت حيث يكثر المتسولون[٥] وينتهزون كل فرصة. وقد تجمهروا حول جوانب العربة، وكان مشهدهم أفظع ما رأته عين أوروبية قط. كان بينهم متسولة انتشر السرطان في ثديها، فتورّم ورمًا هائلاً مليئًا بالثقوب، ومن بينها ثقبان أو ثلاثة يمكن أن أغوص في الواحد منها بكامل جسدي. وكان في رقبة متسولٍ كيسٌ دهنيّ أكبر من خمسة أكياس صوف. وكان لآخر ساقان خشبيتان ارتفاع الواحدة منهما عشرون قدمًا. لكن أبشع مشهدٍ كان مشهدُ القَمْلِ وهو يزحف على ثيابهم. وكنتُ أرى أعضاء هذه الحشرات بعيني المجردة أحسن من رؤيتي لأعضاء مثيلاتها الأوروبيات من خلال مجهر. كما رأيتُ أبوازها التي تمدُّها بحثًا عن النفايات كأنها أبواز الخنازير. كان هذا القَمْلُ أول قملٍ أشاهده في تلك البلاد، ولو كانت معي أدوات التشريح المناسبة (وكنت لسوء الحظ قد تركتُ أدواتي في السفينة) لَدَفَعَني الفضول إلى تشريح إحداها. رغم أن مرآها كان مقرفًا جدًا لدرجة قَلَبَتْ معدتي.

بالإضافة إلى العلبة التي كنتُ أُحْمَل فيها، أَمَرَتِ الملكة بِصُنْع علبة مربعة أخرى لي. طول

ضلعها اثنا عشر قدمًا وارتفاعها عشرة أقدام لكي تُسْتَعْمل في السفر، لأن العلبة الأولى كانت كبيرة على حضْنِ جْلَمْ دالْ كليتشْ ومزعجة في العربة. وقد قام بِصُنعها الفنان نفسه الذي كنت أشْرف عليه وأوجهه خلال قيامه بصنعها. كانت العلبة السفرية مربعة تمامًا وفي ثلاثة أضلاع منها نافذة في وسط كل ضلع وعليها شَبَكٌ من حديد منعًا للحوادث في الرحلات الطويلة. أما الضلع الرابع فقد ثُبِّتَتْ عليه رزَّتان قويتان يَدْخُل فيهما حزام جِلْدي. وحينما كنت أرغب في السفر على ظهر حصان، كان الخادم الذي يحملني يربط حزام علبة السفر هذه حول وسطه. وكانت هذه الوظيفة تناط بخادم موثوق وَقورٍ أستطيع أن أطمئن إليه، سواء كنت أسافر في ركاب الملك والملكة في رحلاتهما، أو أرغب في التفرج على الحدائق، أو زيارة سيدة من علية القوم، أو زيارة أحد الوزراء في القصر، وذلك حين تكون جْلَمْ دالْ كْليتشْ متوعكة. ذلك أنني سرعان ما أصبحتُ معروفًا ومحترمًا لدى أصحاب المناصب الرفيعة. وذلك في ظني كان كرمًا ولطفًا منهم أكثر منه حقًا لي. وفي الرحلات الطويلة، حين كنتُ أتعب من العربة، كان أحد الخدم الراكبين على الخيل يربط العلبة حول وسطه ويضعها فوق الحصان على وسادة أمامه، ومن هناك كان يتاحُ لي أن أرى البلاد كلها من نوافذي الثلاثة. وكان معي في علبة السفر هذه فراش سَفَري، وأرجوحة معلقة في السقف، وكرسيان وطاولة مثبتة جميعها بأرضية العلبة، وقايةً لي من السقوط كلما صعد الحصان أو هبط أو كلما اهتزَّتْ العربة. لكني لم أكن أنزعج كثيرًا من تلك الاهتزازات لأنني متعود منذ عهد طويل على الرحلات البحرية.

وكلما كان يَعِنّ لي أن أتفرج على المدينة، كنت أفعل ذلك دائمًا وأنا في علبة السفر هذه التي كانت جْلَمْ دالْ كْليتشْ تضعها في حجرها وهي راكبة في مَحَفّة مفتوحة كما هي عادة أهل البلاد. وكان يحمل المحفّة أربعة رجال ويتبعها رجلان آخران، وكلهم يلبسون الملابس الرسمية لأتباع الملكة. وكان الناس الذين سمعوا كثيرًا عني يتجمهرون بدافع الفضول حول المحفّة. وبدافع اللطف والكياسة كانت جْلَمْ دالْ كْليتشْ تأمر الرجال بالتوقف، ثم تحملني في يدها لكي يراني الناس بوضوح.

كنتُ أتوق لرؤية المعبد الرئيسي، وعلى الأخص البرج التابع له والذي يعتبرونه أعلى برج في المملكة. ولهذا حملتني مربيتي ذات يوم وذَهَبتْ بي هناك. ويمكنني أن أقول بحق إنني عدتُ مخيَّب الظن، لأن ارتفاع البرج لم يكن يزيد على ثلاثة آلاف قدم، إذا حسبناه من الأرض حتى أعلى قمة فيه. وهذا، إذا أخذنا في الاعتبار الفرق بين حجم أولئك القوم وحجمنا في أوروبا، ليس عُلوًّا جديرًا بالاعجاب الشديد، وليس مساويًا في نسبة علوه (إذا كان تَذَكُّري دقيقًا) لبرج ساليزبري[٦]. ولستُ بهذا أحطّ من قدر أُمَّةٍ سأظل ما حييت أعترف لها بالفضل العظيم والامتنان الكبير. ولا بد من الاعتراف أن كل ما ينقص هذا البرج الشهير من حيث الارتفاع قد عُوِّض عنه بسخاء من

وهكذا نرى أن «سويفت» حين جعل «جلفر» يتشبه باليوناني «سينون» أراد أن ينبهنا إلى أن قصة «جلفر» عن الخيول الناطقة هي قصة كاذبة مثل قصة «سينون»، وأن تصديق «جلفر» يؤدي إلى الخراب والدمار. انظر: (C. Winton, SR, Lxviii, 1960, 32).

(٥) **فرديناندو كورتيز**: هو هيرناندو كورتيز (١٤٨٥ - ١٥٤٧)، القائد الإسباني الذي استطاع بوحشيته وقسوته التي رَوَّعتِ السكان أن يحتل المكسيك في أقل من عامين ونصف العام (٤ مارس ١٥١٩ إلى ١٣ أغسطس ١٥٢١).

(٦) **عدالة الملوك في الحرص على الحقوق...**: المقصود هنا هو حقوق أبناء البلاد المفتوحة مقابل حقوق الفاتحين.

(٧) **مجموعة من القراصنة**: أوائل المستعمرين الإسبان في أمريكا كانوا من المغامرين الذين كان همّهم الأول هو العثور على كنوز الذهب، وقد اشتهروا بقسوتهم على أهل البلاد الأصليين وبالمذابح والفظائع التي ارتكبوها ضدهم.

(٨) **يُعَذِّب أمراؤهم... ذهب**:

من أمثلة ذلك ما فعله «كورتيز» بملك المكسيك «مونتيزوما» الثاني، إذ قيده بالسلاسل عام ١٥١٩ إلى أن سلَّمه ما قيمته حينذاك ٤٠٠ ألف جنيه من الذهب الخالص وكمية ضخمة من الجواهر والحجارة الكريمة.

(٩) **وهدايته إلى المسيحية**: في عام ١٥٣٣ قَتَل القائد الإسباني «بيزارو» آخِر ملوك الإنكا في بيرو، واسمه «أتاهُوَالْبا»، رغم أنه أخذ منه فدية باهظة من الذهب والفضة. وقد حكم «بيزارو» عليه بالموت حَرْقاً، لكنه حين أعلن «أتاهُوَالْبا» إيمانه بالمسيحية، غيَّر الحكم بالحرق إلى حكمٍ بالإعدام على خازوق.

(١٠) **هذا الوصف لا ينطبق.... على الأمة البريطانية**:

قارن تهكم «سويفت» الشديد هنا بتهكم «توماس مور» في **يوتوبيا** على الدبلوماسية الأوروبية. انظر: (**يوتوبيا**: ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان، ص ص ١٩٨ - ٢٠٠).

(١١) **ولهذا فإنني أرجو... عدم الظهور أمامي**:

لاحظ أن كتاب **رحلات جلفر** ينتهي بموعظة ضد رذيلة الكبرياء والغرور، وهي شبيهة بالموعظة التي نجدها في **يوتوبيا** (ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان ص ٢٣٠) ضد الكبرياء.

لكن هذه الجملة الأخيرة في كتاب **رحلات جلفر** توضح أن أكبر مثال يُجَسِّد رذيلة الكبرياء هو «جلفر» نفسه.

حيث الجمال والقوة. فسماكةُ الجدران تبلغ حوالي مائة قدم، وهي مبنية من الحجارة المنحوتة التي يبلغ ضلع الواحد منها حوالي أربعين قدمًا. كما أن المعبد مزين في جميع جوانبه بتماثيل للآلهة والأباطرة مصنوعة من المرمر وموضوعة في كُوى عديدة، وكل تمثال منها أكبر من الشخص الذي يمثله حين كان الشخص حيًا. فقد قُمْتُ بقياس إصبع صغير كان قد وقع من أحد هذه التماثيل وظل بين الحطام لا يلحظه أحد، فوجدتُ طوله يبلغ أربعة أقدام وبوصة واحدة(٧). وقد لَفَّتْهُ جلم دال كليتش بمنديل وحملته في جيبها إلى البيت لتحتفظ به مع الحُلِيّ والأشياء التافهة الأخرى التي كانت مغرمة بها، كما هو حال الأطفال من أترابها.

أما مطبخ الملك فهو بناء نبيل حقًا تعلوه قُبّة يبلغ ارتفاعها ستمائة قدم. أما الفُرْن الكبير فيقل اتساعه بعشر خطوات عن قبة كنيسة **سانت بول**(٨)، لأنني تعمدتُ بعد عودتي أن أقيس هذه القبة. ولو وصفتُ موقد المطبخ، والقدور، وغلايات الماء، وقطع اللحم التي تُقَلَّب على الأسياخ، وتفاصيل أخرى كثيرة، فقد لا يصدقني أحد(٩)، وقد يظن أحد النقاد المتزمتين أنني بالغتُ قليلًا، كما يُتَّهم الرحالون كثيرًا بالمبالغة(١٠). ولكي أتجنب هذه التهمة أظن أنني انحرفتُ كثيرًا في الاتجاه المعاكس، وأنه لو تُرْجِم هذا الكتاب إلى لغة أهل **بْرُوبْدِ نْجْناجْ**، فهذا هو الاسم المألوف لتلك المملكة، ونُقِلَتْ هذه الترجمة هناك، فإنه سيتوفر للملك وشعبه سببٌ للشكوى بأنني أَسَأْتُ إليهم إذْ صوَّرْتُهم أصغر مما هم عليه.

ولا يحتفظ الملك في اسطبلاته بأقل من ستمائة جواد، وطول هذه الجياد يتراوح بين أربعة وخمسين قدمًا وستين قدمًا. لكنه حين يخرج في أيام الأعياد المقدسة يرافقه حرس من الميليشيا عددهم خمسمائة فارس، وكان ذلك في ظني من أجمل وأروع المشاهد التي رأيتُها في حياتي، حتى شاهدتُ جزءًا من جيشه وهو مستعد للمعركة، ولكني سأجدُ مناسبة أخرى للحديث عن ذلك.

الفصل الخامس

أحداثٌ جديدة تحدثُ للمؤلف. إعدام مجرم. المؤلف يُثْبِتُ مهارته في قيادة مركب بحري.

كنتُ سأعيش حياة سعيدة حقًّا في تلك البلاد لو لم يُعَرِّضني صِغَر حجمي لحوادث مضحكة وسخيفة ومزعجة معًا. وسأروي بعضها هنا. كانت جْلَمْ دالْ كْليتْشْ تحملني أحيانًا إلى حـدائق القصر في العلبة السفَرية. وأحيانًا كانت تُخْرِجني من العلبة وتَحملني في يدها أو تَضَعُني على الأرض لأتمشّى. وأذكر أن القزم قبل أنِ تطرده الملكة، تَبِعَنا ذات يوم إلى تلك الحدائق. وكانت مربيتي قد وَضَعَتْني على الأرض، وكنت وإياه قريبين معًا من شجيرات تفاح قزمة. وأبى عليَّ طولُ لساني إلا أن أذكر نكتة سخيفة تربط ما بين قزميته وقزمية شجرات التفاح. وعند ذاك انتهز ذلك الوغد اللئيم فرصة سَيْري تحت إحدى تلك الشجرات وهَزَّها بقوة فتساقَطَتْ من حولي دستة من التفاحات التي يبلغ حجم الواحدة منها حجم البرميل. وقد أصابَتْ إحداها ظهري وأنـا مُنْحَنٍ فطَرَحَتْني عـلى وجهي على الأرض. لكني لم أُصَبْ بأذى، وعُفِيَ عن القزم بناء على رغبتي لأنني أنا الذي اسْتَثَرْتُ غضبه.

وفي يوم آخر تَركَتْني جْلَمْ دالْ كْليتشْ على بقعةٍ ناعمة العشب لأُسلِّيَ نفسي، بينما راحت هي تتمشّى مع مربيتها على مسافة مني. في هذه الأثناء انهمر البَرَدُ فجأة وبعنف على الأرض فطرحتني قوته أرضًا على الفور، وراحَتْ حبّات البرَد تضربني ضربات قاسية على كل أنحاء جسمي وكأن أحـدًا كان يـرجمني بكُـرات التنس الأرضي. وبـذلتُ جُهـدي لأزحف عـلى أربعتي وأحمي نفسي بالانبطاح على وجهي على الجانب المَحْمِيّ خلف شجيرة زعتر، ولكنّ جسمي من رأسي إلى قدمي أصيب بالرضوض حتى أنني لم أتمكن بعدها من الخروج طيلة أيام عشرة. وليس في هذا ما يثير العجب، لأن الطبيعة في تلك البلاد تحافظ على مبدأ تناسب حجوم الأشياء في كل مـظاهرهـا، ولذلك فإنّ حجم حبة البَرَدِ فيها يساوي ألفًا وثمانمائة ضعف من حجم حبة البَرَد في أوروبا[1]. وهذا ما قمتُ بإثباته فعلاً إذْ دفعني فضولي إلى وزنها وقياسها.

لكن حدث لي حادث أخطر في الحديقة نفسها. كانت مربيتي الصغيرة تعتقد أنها وَضَعَتْني في

مكان أمين كنت كثيرًا ما أرجوها أن تضعني فيه، لكي أخلوَ لنفسي، وأعيش مع أفكاري الخاصة، كما كانت قد تَرَكَتْ علبتي في القصر كي تستريح من عناء حَملها، وذهبَتْ إلى جزء آخر من الحديقة مع مربيتها وبعض السيدات من معارفها. وبينما كانت غائبة وبعيدة عن سماع صوتي، صدف أنّ كَلْبًا تابعًا لأحد رؤساء البستنة دخل الحديقة بالصدفة وراح يتجول قرب المكان الذي كنتُ مضطجعًا فيه. وحين اشتَمَّ رائحتي جاء مباشرة إليَّ وحملني في فمه وراح يعدو بي إلى سيده وهو يُلَوّحُ بذيله، ووضعني أمامه برفقٍ على الأرض. ولحسن الحظ كان هذا الكلب مدربًا أحسن تدريب حيث أنه حملني بين أسنانه دون أن يُلْحِقَ بي أذى، بل ودون أن يمزق ملابسي. لكن البستاني المسكين الذي كان يعرفني جيدًا ويُكِنّ لي مودةً بالغة فزع فزعًا شديدًا وحملني بين يديه وراح يسألني عن حالي. لكني كنتُ مقطوع الأنفاس ومذهولًا أشد الذهول بحيث لم أستطع أن أتفوه بكلمة واحدة. وبعد بضعة دقائق ثُبْتُ إلى رشدي فحملني سالًما إلى مربيتي الصغيرة التي كانت في هذه الأثناء قد عادت إلى المكان الذي تركتني فيه، وأصابها رعب شديد حين لم أظهر، ولم أُجِبْ حين نادت عليّ. وقد أَنَّبَتِ البستاني تأنيبًا قاسيًا بسبب كَلبه. وعلى كل حال، فقد تَكَتَّمْنا على هذا الحادث ولم يسمع به أحد في القصر، وذلك لأن الفتاة كانت تخشى غضب الملكة، أما أنا فقد رأيتُ أنه ليس من صالحي أن تشيع عني قصة كهذه.

هذه الحادثة جعلتِ جْلَمْ دالْ كْليتشْ تُصَمِّم أن لا تتركني قط لنفسي، وأن لا أغيب أبدًا عن بصرها. ولطالما خشيتُ قرارها هذا، ولهذا كنتُ أخفي عنها بعض المغامرات المنكودة الطفيفة التي وقعتُ فيها في المرات التي تركَتْني فيها وحدي. ذات مرة كان عُقاب يحوم حول الحديقة فرآني وانقضّ عليّ ولوْ لم أَسْتَلّ حسامي على الفور وأختبئ تحت شجرة معرّشة، لأَمْسَكَني بين مخالبه وطار بي. ومرة أخرى كنتُ أمشي فوق تلة جديدة لحيوان الخلد، فسَقَطْتُ حتى عنقي في الحفرة التي رمى ذلك الحيوان منها التراب. وقد لَفَّقْتُ كذبة لا تستحق الذكر لأُعْفِي نفسي من التأنيب على اتساخ ملابسي. وفي مرة ثالثة كِدتُ أكسر عظم ساقي الأيمن حين تَعَثَّرت بصدَفَة حلزون بينما كنت أسير وحدي وأفكر بإنجلترا المسكينة.

ولستُ أدري إن كان سرَّني أو آلمني أن ألاحظ أثناء تلك المشاوير التي كنت أسير فيها وحدي أن الطيور الصغيرة لم يَظهر عليها أي خوف مني[٢]، بل كانت تُنَطْنِطُ من حولي على بُعْد ياردة تبحث عن ديدان وطعام آخر بكل أَمْن دون اكتراث، كأنه لا يوجد أي مخلوق بالقرب منها. وأذكر أن طائرًا بلغَتْ به الثقة حدًّا جعله يخطف بمنقاره من يدي قطعة كعك كانت جْلَمْ دالْ كْليتشْ قد أَعْطَتْها لي لأفطر عليها. وحين كُنْتُ أحاول أن أمسك أيًّا من هذه الطيور، فإنها كانت تَرْتَدّ بجرأة إليَّ، وتحاول أن تنقر أصابعي التي كنتُ لا أجرؤ أن أقرّبها منها، ثم تمضي عني، وهي تنطّ دون وجل، بحثًا عن الديدان أو الحلزونيات كما كانت تفعل من قبل. لكني ذات يوم تناولتُ هراوة

غليظة، وقذفتُها بكل قوتي على طيرٍ مُغَرِّدٍ، ولحُسْن الحظ أصبتُه وطرحتُه أرضًا، وقبضتُ على عنقه بكِلْتي يدي، ورحتُ أعدو به بفرحة المنتصر إلى مربيتي. لكن هذا الطائر كان دائخًا ومصعوقًا أول الأمر، وحين استعاد وَعْيَه ضربني بجناحَيْه ضربات عديدة على جانِبَيْ رأسي وجسمي. ورغم أني كنتُ أحمله بأبعد ما تمتدّ ذراعي، وكنتُ بعيدًا عن مخالبه، إلا أنّ مقاومته جَعَلَتْني أفكر عشرين مرة في إطلاق سراحه. ولكن سرعان ما جاءَتني النجدة من أحد خدمنا الذي أخذه مني وقطع رقبته. وقد أكلتُه في عشاء اليوم التالي بأمر الملكة. وبقدر ما أذكر، كان هذا الطائر أكبر قليلاً من البجعة الانجليزية.

كثيرًا ما كانت وصيفات الشرف[٣] يَدْعِينَ جْلَمْ دالْ كليتشْ إلى أجنحتهن ويطلبن منها أن تُحْضِرني معها بقصد أن يستمتعن برؤيتي وتَلمّسي. وكثيرًا ما كُنّ يُعَرّينني من ملابسي من الرأس إلى القدم ثم يَضَعْنَني بكامل طولي على صدورهن. وكان هذا يثير اشمئزازي، لأن رائحة كريهة جدًّا كانت تصدر من بشرتهن. ولست أذكر هذا لأُسيء إلى تِلْكُم السيدات الراقيات اللواتي أُكِنُّ لهن كل آيات الاحترام. ولكني أظن أن قوة حاسة الشم لدَيّ تتناسب عكسيًا مع صِغَر حجمي، وأن تِلْكُم السيدات العظيمات لم يَكُنّ أبدًا مُنَفِّرات بالنسبة لعشاقهن أو لبعضهن البعض، كما هو الحال بين أناس من نفس الطبقة في إنجلترا. وفوق هذا، فقد وجدتُ أن رائحتهن الطبيعية محتملةٌ أكثر منها حين تكون ممزوجة برائحة العطور. تحت تأثير هذه الرائحة المُعَطَّرة كان يُغْمى عليَّ على الفور. ولا أستطيع أن أنسى أن واحدًا من أصدقائي المقربين في ليليبوت تجرأ ذات يوم حار، بعد أن قُمْتُ بتمرينات جسدية شاقة، على التذمر من الرائحة الكريهة القوية التي تصدر عنّي، مع أنني لست مُنَفِّرًا من هذه الناحية كمعظم أبناء جنسي، لكنني أظن أن حاسة الشم عنده كانت قوية بالنسبة لرائحتي كما هي عندي بالنسبة لرائحة هؤلاء القوم. ولا يمكنني، بالنسبة لهذه النقطة، إلّا أن أُنْصِفَ سيدتي الملكة، ومُرَبيتي جْلَمْ دال كْليتشْ، فإن جسديهما زكيا الرائحة كجسد أية سيدة راقية في إنجلترا.

لكن أشدّ ما كان يزعجني من وصيفات الشرف هؤلاء حين تأخذني مربيتي لزيارتهن، هو معاملتهن لي دون أي أدبٍ أو حياءٍ، وكأنني مخلوق لا أهمية له البتة. فقد كن يَتَعَرَّيْنَ كلية ثم يلبسن ثيابهن الفضفاضة وأنا موضوع على التواليت أمام أجسادهن العارية مباشرة. وإني أؤكد لكم أنها لم تكن بالنسبة لي مشهدًا مغريًا أو مثيرًا لأية مشاعر سوى الشعور بالقرف والرعب. فقد كانت بشرتهن خشنة وغير مستوية، وذات ألوان متعددة حين رأيتها من قرب، وعليها شامة هنا أو هناك بعَرْض الصينية، وتتدلى منها شعرات أغلظ من خيوط القنب، ولا أودّ ذِكْر المزيد عن بقية أجسادهن. وحين كنتُ بينهن لم يتورعن عن التخلص من ما كُنَّ قد شَرِبْنَه فيتبوَّلْنَ كمية من البول تملأ برميلين في وعاء يتسع لأكثر من ثلاثة أطنان[٤].

وكانت أجمل هذه الوصيفات، وهي فتاة في السادسة عشرة تحب العبث والضحك والمزاح، تُرْكِبني أحيانًا فوق حَلَمة ثديها، وتداعبني مداعبات أخرى أرجو القارئ أن يعفيني من ذِكْر تفاصيلها. ولكني بلغ بي الانزعاج حَدًّا لا يطاق بحيث طلبتُ من مربيتي أن تختلق الأعذار لكي لا نرى تلك الوصيفة الشابة مرة أخرى.

وذات يوم جاء شاب هو ابن أخت مربية مربيتي، وحثهما على الذهاب معه للتفرج على إعدام مجرم. كان المجرم قد اغتال أحد الأصدقاء الحميمين للشاب. ورغم أنّ جْلَمْ دلْ كْليتشْ ذات قلب حنون بالفطرة ولا تميل إلى رؤية الدماء، إلا أنها أذْعَنَتْ وقبلت الذهاب. أما بالنسبة لي فقد كنتُ أكره مثل هذا المشهد، إلا أن فضولي أغراني بالذهاب لرؤية مشهد اعتقدتُ أنه لا بدّ أن يكون خارقًا للعادة. رُبِطَ المجرم على كرسيٍّ فوق منصةٍ نُصِبَتْ لهذه الغاية، وقُطِعَ رأسه بضربة واحدة من سيفٍ طوله حوالي أربعين قدمًا، فنفر الدم من عروقه وشرايينه بكميات هائلة وإلى عُلُوٍّ كبيرٍ جدًّا يفوق العلو الذي يصل إليه الماء في النافورة الكبرى بحدائق ڤِرْسايْ(٥). أما الرأس فقد أحدث لدى سقوطه على أرضية المقصلة خبطة داوية جعلتني أجفل رعبًا، رغم أنني كنت أَبْعُد عنها أكثر من ميل انجليزي.

كانت الملكة قد سَمِعَتني مرارًا أتحدث عن رحلاتي البحرية كما كانت تنتهز كل فرصة لتُسَرِّي عني حين أكون محزونًا ومهمومًا. سألتني ذات يوم إن كنتُ أعرف كيف أستعمل شراعًا أو مجدافًا، وإن كان شيء من رياضة التجديف سيفيد صحتي، فأَجَبْتُها أني أجيد استعمال الشراع والمجداف، ورغم أن وظيفتي الفعلية كانت جراحًا أو طبيبًا في سفينة، فإنني في الحالات الطارئة، كثيرًا ما أُجْبِرْتُ على العمل كَبحّارٍ عاديّ. لكني لا أرى سبيلًا لذلك في بلادهم حيث أن حجم أصغر قارب عندهم يساوي حجم أكبر البوارج الحربية عندنا، وأن القارب الذي يتناسب مع حجمي لن تُكْتَبَ له النجاة في أنهارهم. فقالت صاحبة الجلالة إنني إن كنتُ أرغب في تصميم زورق، فإنّ نجّارها سيصنعه وستقوم هي بتأمين مكان مناسب للإبحار بزورقي فيه. وكان نجارها حِرَفيًّا بارعًا واستطاع في غضون عشرة أيام، وحسب توجيهاتي، أن يصنع زورقًا للنزهة بكامل عدته، ويتسع بشكل مريح لثمانية أوروبيين. وحين صُنِعَ هذا الزورق فرحتْ به الملكة فرحًا شديدًا، وحملته في حجرها وراحت تعدو به إلى الملك الذي أمر بوضعه وأنا فيه في صهريجٍ مليء بالماء وذلك على سبيل التجربة. لكن الصهريج لم يتسع لاستعمال المجدافين. وكانت الملكة قد أعدّتْ من قبل مشروعًا آخر وأمرتْ نجّارها الخاص أن يصنع حوضًا خشبيًا طوله ثلاثمائة قدم وعرضه خمسون قدمًا وعمقه ثمانية أقدام. وبعد أن صنعه النجار طُلِيَ بالقار لمنع تسرب الماء، ووُضِعَ فوق البلاط بمحاذاة الجدار في قاعة من القاعات الخارجية في القصر. وكانت في قعر الحوض حنفية لإخراج الماء حين يصبح آسنًا، كما كان بإمكان خادمين أن يملآه في نصف ساعة. وهنا كنتُ كثيرًا ما أجدف بزورقي لأُسَرِّيَ عن نفسي

وعن الملكة ورفيقاتها اللواتي كنَّ يعتقدن أنهن يستمتعن كثيرًا بمشاهدة مهارتي وخفة حركتي. أحيانًا كنتُ أنشر شراعي ولا يبقى عليّ سوى إدارة الدفة لأن السيدات كُنَّ يصْنَعْنَ لي ريحًا مواتية بمراوحهن، فإذا ما تَعِبْنَ قام الغِلمان بالنفخ في شراعي في حين كنت أُظْهِر براعتي في قيادة الدفة إلى الميمنة أو إلى الميسرة كما أشاء. وحين كنتُ أنتهي من ذلك كانت جْلَمْ دالْ كْريتشْ دائمًا تحمل زورقي إلى غرفتها الخاصة وتعلقه على مسمارٍ كَيْ يجِفّ.

وذات مرة واجهتُ خلال ممارسة هذه الرياضة حادثًا كاد يكلفني حياتي. كان أحد الغلمان قد وضع زورقي في الحوض. وتطوعَتْ مربية جْلَمْ دالْ كْليتشْ بحملي لكي تضعني داخل الزورق. وفجأة انْزَلَقْتُ من بين أصابعها، وكان لا بد أن أقع على البلاط من ارتفاع أربعين قدمًا لولا أن صُدْفَةً سعيدة مَنَعَتْ ذلك، إذ اصطدمتُ خلال سقوطي بدبّوس كبير في حزام تلك السيدة الطبية، ودخل رأس ذلك الدبوس بين قميصي وحزام بنطالي، وهكذا صرتُ معلقًا في الهواء حتى هَرَعَتْ جْلَمْ دالْ كْليتشْ لإنقاذي.

وفي مرة أخرى كان أحد الخدم المكلفين بمَلْء الحوض كل ثلاثة أيام بماء جديد، قد غفل عن رؤية ضفدع كبير في سطل الماء، فدَلّق الماء ومعه الضفدع في الحوض. وكَمَن الضفدع حتى وُضِعْتُ في زورقي. حينذاك تعلق الضفدع بالزورق وجعله يميل ميلًا كبيرًا إلى ناحيته مما اضطرني إلى موازنته بالذهاب إلى الناحية الأخرى كي لا ينقلب. ولما وصل الضفدع إلى داخل الزورق نَطَّ في الحال نطةً أَوْصَلَتْهُ إلى منتصفه، ثم راح ينطّ من فوق رأسي جيئة وذهابًا ولطخ وجهي وملابسي بِوَحْله ودَبَقه الكريه. ولقد جعلته ملامحه الضخمة يبدو أشوه حيوان يخطر على البال. لكني طلبتُ من جْلَمْ دال كْليتشْ أن تتركني أصارعه وحدي. ورُحْتُ أخبطه بواحد من مجدافيّ حتى اضطررته في آخر الأمر أن يغادر الزورق قفزًا.

لكن الخطر الأكبر الذي تعرضتُ له في تلك المملكة كان مصدره قردًا يملكه أحد الكَتَبة في المطبخ. كانت جْلَمْ دالْ كليتشْ قد وضَعَتْني في غرفتها الخاصة، وأقفلتْ عليَّ، وذهبتْ إلى مكانٍ ما للقيام بعمل أو زيارة. ولأنّ الجو كان حارًا، تركَتْ نافذة الغرفة مفتوحة، وكذلك نافذة علبتي الكبيرة وبابها. وقد كنتُ أفضِّل العيش في هذه العلبة الكبيرة لاتساعها المناسب. وبينما كنتُ جالسًا إلى طاولتي أفكر في هدوء، سمعتُ شيئًا يدخلُ الغرفة من النافذة ويقفز من جانب إلى آخر فيها. وعند ذاك، ورغم أنني ذُعِرْتُ ذعرًا شديدًا، تجاسَرْتُ على النظر خارج علبتي دون أن أغادر مقعدي، فرأيتُ هذا الحيوان اللعوب العابث يقفز وينُطّ للأعلى والأسفل حتى وصل إلى علبتي التي بدا عليه أنه ينظر إليها بسرورٍ وفضول، وراح يَبُصّ في الداخل من الباب ومن كُلّ نافذة. وتراجعتُ إلى زاوية في غرفتي، أو علبتي. ولكن بصبصة القرد من كل جوانب الغرفة أرعبتني

لدرجة أنني فقدتُ القدرة على التصرف السليم السريع وإخفاء نفسي تحت السرير، وهو عمل كان بإمكاني أن أقوم به بسهولة. وبعد أن قضى القردُ بعض الوقت في البصبصة والتكسير والثرثرة وقعَتْ عينُهُ عليَّ في آخر الأمر، فأدخل أحد مخالبه من الباب، كما تفعل القطة حين تداعب فأرًا. ومع أني انتقلتُ من مكاني لأتجنبه، إلا أنه أمسك أخيرًا بطرف معطفي (الذي كان مصنوعًا من حرير تلك البلاد وكان سميكًا وقويًا)، وجَرَّني خارج العلبة. ثم حملني في قدمه الأمامية اليمنى وأمسكني كما تمسك المرضعة طفلًا تريد أن ترضعه، أو كما رأيتُ النوع نفسه من المخلوقات يفعل مع قطة صغيرة في أوروبا. وحين حاولتُ المقاومة، ضَمَّني ذلك القرد بقوة حتى كاد يخنقني، فرأيتُ من الحكمة أن أُذْعِنَ له، وتوفَّرتْ لديَّ أسباب تحملني على الاعتقاد بأنه ظنني طفلًا من أطفال جنسه، إذ راح يُربِّتُ على وجهي برفقٍ وتكرارٍ بمخلبه الآخر. وبينما هو يداعبني سمع ضجيجًا عند باب الحجرة كما لو أن شخصًا كان يفتح بابها. وعند ذاك قفز فجأة خارج النافذة التي دخل منها، وصعد من هناك إلى الميازيب والسطوح، وهو يسير على ثلاثة أرجل ويمسكني بالرابعة، حتى وصل إلى سطحٍ مجاورٍ لسطحنا(٦). وسمعتُ صرخة فَزَعٍ تطلقها جْلَمْ دالْ كْليتش في اللحظة التي كان القرد يخرج بي. كادت الفتاة المسكينة تفقد عقلها، وفزع كل من كان في تلك الجهة من القصر، وهرع الخدم يحملون السلالم، وشوهد القردُ من قِبَل المئات في القصر وهو يجلس على قمة سطح أحد المباني ويحملني وكأنني طفل في أحد مخالبه الأمامية، ويطعمني بمخلبه الثاني عن طريق مَلْءِ فمي ببعض الطعام الذي كان يخرجه من كيس معلق بطرف فَكَّيْه، ويُربِّتُ عليَّ حين أمتنع عن الأكل، مما أضحك الكثيرين من الرعاع المتفرجين. وليس من الإنصاف أن ألومهم لأن المشهد كان بلا ريب مضحكًا جدًا للجميع ما عدايَ. بعض الناس رجموا القرد بالحجارة لعلهم يضطرونه للنزول، ولكنهم مُنِعُوا بحزم من فِعل ذلك خشية أن يصيبني حَجر منها في رأسي ويُطيِّر دماغي.

حين وُضِعَتِ السلالم وصعد عليها عدد من الرجال، ولاحظ القرد ذلك، وأدرك أنه سيصبح محاصرًا، وأنه لا يستطيع الفرار بسرعة كافية على ثلاثة أرجل، فإنه أسقطني على قرميدة من قرميدات حافة السطح وفرَّ هاربًا. ووجدتُ نفسي جالسًا على ارتفاع خمسمائة ياردة من الأرض، متوقعًا أن يوقعني هبوب الريح أو الدُّوار في رأسي فأَسْقُطَ متدحرجًا عن قمة السطح المائل إلى حوافه. لكن صبيًا طيبًا من خدم مربيتي صعد إليَّ ووضعني في جيب بنطاله ونزل بي سالمًا.

كنتُ أكاد أختنق بالطعام القذر الذي حشاه القردُ في حلقي، لكن مربيتي الصغيرة راحتْ تخرج هذا الطعام من فمي بإبرة صغيرة حتى تقيأتُ وشعرتُ بعد ذلك بالراحة. ولكني كنتُ أعاني من الوَهَن والرضوض المؤلمة في خاصرتي، بسبب الضغوط التي أنزلها بي ذلك الحيوان المقيت، مما اضطرني إلى أن ألزم الفراش أسبوعين. وفي كل يوم كان الملك والملكة وكل من في القصر يسألون

عن صحتي. وأكْرَمَتْني صاحبة الجلالة بزياراتها المتكررة. بعد ذلك أُعْدِمَ القردُ وصدر أمرٌ بعَدَم اقتناء حيوان كهذا في منطقة القصر.

وحين زرتُ الملك بعد شفائي لأقدِّم له الشكر على أفضاله، سرَّه أن يُكْثِر من ممازحتي والسخرية مني بسبب هذه الحادثة. سألني عن أفكاري وتأملاتي وأنا مستلقٍ في مخلب القرد، وعن مدى تلذذي بالطعام الذي أعطاه القرد لي، وعن مدى استمتاعي بالطريقة التي أطعمني بها، وعن مدى انفتاح شهيتي وأنا أستمتع بالهواء النقي على سطح المبنى، كما رغب في معرفة ما كنتُ سأفعله في مناسبةٍ مماثلةٍ في بلادي. وأخبرتُ جلالته أنه ليس عندنا قرود في أوروبا، سوى تلك التي يُؤْتَى بها من بلاد أخرى للفرجة، وهذه صغيرة جدًا لدرجة أنني أستطيع أن أتغلب على دستةٍ منها مجتمعة لو تَجَرَّأَتْ على مهاجمتي. وأما بالنسبة لذلك الوحش الهائل الذي تورطتُ معه أخيرًا (وكان بالفعل بحجم الفيل)، فإنني لَوْ لم يَشُلّ الرعبُ حركتي، ولو فكرتُ باستعمال سيفي (وهنا تظاهرتُ بالغضب الشديد وخبطتُ يدي على مقبض سيفي) حين أَدْخَلَ مخلبه إلى حجرتي، لجَرَحْتُه جُرْحًا يجعله يَسْعَد بإخراج مخلبه بأسرع مما أَدْخَلَه. وقلتُ هذا القول بنبرة حازمة كَمَنْ يخشى أن يَشُكَّ أحد بشجاعته. لكن خطابي لم يُنْتِجْ سوى ضحكة مدوية من الملك ومَن حوله الذين لم تستطع هيبة الملك أن تمنعهم عن إطلاقها. وهذا جعلني أُذَكِّر نفسي بعَبَثِيَّة محاولة الإنسان الاعتزاز بشجاعته، وتعظيم قَدْر نفسه بين قوم يفوقونه قوة ومكانة بمقدار عظيم لا يترك مجالاً لمقارنته بهم. ومنذ عودتي إلى إنجلترا رأيتُ مرارًا عَبَثِيَّة مثل هذه المحاولة، حين يتجرَّأ حقير، بلا نَسَبٍ أو حَسَبٍ أو شخصيةٍ أو فِطْنَةٍ أو فَهْمٍ، على اعتبار نفسه إنسانًا مهمًا ونِدًّا لأهَمّ الشخصيات في المملكة.

وهكذا كان القصر يتزوَّد في كل يوم بقصةٍ مضحكة عني. ومع أن جْلَمْ دالْ كْليتشْ كانت تحبني حُبًّا مفرطًا، فقد بلغ بها الخُبْثُ أنها كانت تخبر الملكة بكل عمل سخيف أرتكبه إذا اعتقدَتْ أن جلالتها تُسَرّ بسماعه. من ذلك مثلاً أن الفتاة تَوَعَّكَتْ ذات يوم، فأخذتها مربيتها لتغيير الهواء إلى مكان بعيد مسافة ساعة، أو ثلاثين ميلًا عن المدينة، ونزلنا من العربة بالقرب من طريق للمشاة في أحد الحقول، وأَنْزَلَتْني جْلَمْ دالْ كْليتشْ ووضعتْني في علبتي السفَرية على الأرض. وخَرَجْتُ من علبتي لأتمشّى. واعترضَتْ طريقي كومة من رَوْث البقر[7]، وأَبَيْتُ إلا أن أجرب قدرتي على القفز بمحاولة القفز من فوق الكومة. عدوتُ مسافة وقفزتُ، ولسوء الحظ كانت قفزتي قصيرة، ووجدتُ نفسي أقع في وسط الكومة، وأغوص في الروث حتى ركبتي. وبشيء من الصعوبة خُضْتُ في الروث حتى خرجْتُ. وراح أحد الخدم يمسحُ الروث عني بمنديله، ونَظَّفَني قدر الإمكان لأنني كنتُ ملوثًا أقذر تلويث، مما اضطر مربيتي أن تحبسني في عُلْبَتي حتى عُدْنا للمنزل، وأَخْبَرَتِ الملكة بما حدث. ونشر الخادم القصة في أرجاء القصر، فضحك أهل القصر على حسابي عدة أيام.

الفصل السادس

المؤلف يقوم بعدد من الاختراعات لإدخال السرور على الملك والملكة، ويُظْهر براعته في الموسيقى. الملك يستفسر عن أحوال أوروبا فيصفها المؤلف له. ملاحظات الملك وتعليقاته.

كنت أحْضُرُ المجالسَ الصباحية للملك مرة أو اثنتين أسبوعيًا، وكثيرًا ما رأيتُه تحت يد الحلاق. وكان هذا المشهد في أول الأمر مُرْعِبًا، لأن موسى الحلاق كان بطول منجلين عاديين. وتبعًا لعادة تلك البلاد، كان يُحْلَق لجلالته مرتين فقط في الأسبوع. وقد أقنعتُ الحلاق ذات مرة أن يعطيني بعض رغوة صابون الحلاقة. وأخرجتُ من هذه الرغوة أربعين أو خمسين من بقايا شعر لحية الملك. ثم أحْضَرْتُ قطعة رقيقة من الخشب، وجعلتُها كَظَهْرِمِشْطٍ، ثم حفرتُ فيها عددًا من الثقوب على مسافات متساوية، وذلك بواسطة أصغر إبرة وجدتُها عند جْلَمْ دالْ كْليتشْ، ثم ثَبَّتُّ الشعرات في الثقوب ببراعة، ثم كَشَطْتُ كل شعرة بسكيني بحيثُ جعلتُها تنْحُفُ وتميلُ باتجاه رأسها. وبهذا صَنَعْتُ مشطًا مقبولًا. وجاء هذا المشط في وقته المناسب كبديل لمشطي الذي كان معظم أسنانه قد تكسَّرَتْ وأصبح غير نافع. ولم أعرف في تلك البلاد فَنّانًا له من البراعة والدقة ما يمكّنه من صنع مشط بديل لي.

وهذا يذكرني بتسليةٍ أخرى قضيتُ فيها الكثير من ساعات فراغي. فقد طلبْتُ من ماشطة الملكة أن تجمع لي ما يسقط من شعر الملكة. وبعد فترةٍ تجمعَتْ لديَّ كمية منه لا بأس بها. وبعد أن تشاوَرْتُ مع صديقي نجّار الملكة الذي كان قد أُمِرَ بعمل كل ما أطلبه منه من خدمات، طلبتُ منه أن يصنع لي إطارين لكُرْسيَّيْن بحجم الكرسيين اللذين كانا عندي في علبتي، وأن يحفر ثقوبًا صغيرة بمثقاب صغير في تلك الأجزاء من الإطار التي أَرَدْتُها أن تكون مقعديْنِ وظَهْرينِ. وعَبْرَ هذه الثقوب عملتُ نسيجًا من أقوى الشعرات التي توفرتْ لديّ، تمامًا كما يفعل صناع كراسي الخيزران أو القش في إنجلترا. وحين أَنْهَيْتُهما أَهْدَيْتُهُما للملكة التي احتفظتْ بهما في حجرتها وكانت تريهما للآخرين كَتُحَفٍ غريبة نادرة. وقد كانا حقًّا موضع إعجاب كل من رآهما. وقد طَلَبَتْ مني الملكة أن أجلس على واحد منهما. ورفضتُ رفضًا مطلقًا أن أطيعها قائلًا إنني أُفَضّل أن أموتَ ألف ميتة على أن أضَعَ جزءًا غير مُشَرِّفٍ من جسدي فوق تلك الشعرات الغالية التي كانت تزين رأس

جلالتها. ولأنني أتمتع بموهبة ميكانيكية، فقد صَنَعْتُ من هذه الشعرات أيضًا كيس نقود طوله خمسة أقدام وعليه اسم جلالتها منسوجًا بحروف ذهبية، وأهديْتُهُ إلى جْلَمْ دالْ كْليتشْ بعد موافقة الملكة. وفي الحقيقة كان هذا الكيس للزينة أكثر منه للاستعمال، إذ لم يكن من المتانة بحيث يتحمل ثقل القطع النقدية الكبيرة، وبهذا لم تَضَعْ فيه مربيتي شيئًا سوى بعض التحف الصغيرة التي تحبها الفتيات.

وكان الملك يحب الموسيقى، ولذلك كانت تُقام حفلات موسيقية في القصر، وكنتُ أُحْمَل إليها أحيانًا فأوضع في علبتي على طاولة لأسمعها. لكن الصوت كان عاليًا وصاخبًا بحيث لم أكن أُمَيِّز لحنًا من آخر. وإني متأكد أنه لو دُقَّتْ جميع طبول الجيش الملكي الانجليزي ونُفِخَ في كل أبواقه، بحيث تكون جميعها عند أذنيك، لما عادل صَخبُها صَخَبَ حفلةٍ موسيقية هنا. ما كنتُ أفعله هنا هو أن أطلبَ إبعاد عُلْبتي عن مكان جلوس العازفين إلى أقصى مسافة ممكنة، وأن أُغْلِق أبواب العلبة ونوافذها، وأن أُنْزِلَ ستائر النوافذ، وبعد ذلك أجد أن موسيقاهم ليست مزعجة[1].

وكنت في شبابي قد تعلمتُ شيئًا من العزف على بيانو صغير. وكانت مربيتي تحتفظ بواحدٍ صغير في حجرتها، إذ كان مدرسُ موسيقى يحضر مرتين في الأسبوع ليعلمها. وأنا أُسَمّي آلتها بيانو صغيرًا لأنها تشبهه بعض الشبه ويُعْزَف عليها بالأسلوب نفسه. وقد خطر لي أن أمتع الملك والملكة بِعَزْف لحْنٍ انجليزي على تلك الآلة. ولكن هذا بدا في غاية الصعوبة لأن طول هذه الآلة يبلغ ستين قدمًا، وعَرْضُ كل مفتاح فيها يقارب قدمًا واحدًا، ولو فَرَدْتُ ذراعيَّ لما وصلتُ إلى أكثر من خمسة مفاتيح، كما أن ضغط هذه المفاتيح، يتطلبُ خبطة قوية جدًا بقبضتي، وهذا جُهْدٌ ضخم لا طائل من ورائه. لكن الطريقة التي اخترعتُها كانت كما يلي: أَعْدَدْتُ عصاتين كل منهما بحجم الهراوة العادية، وأحد طرفيها أَثْخَنُ من الآخر. وغطيتُ الطرفَ الأثخن بقطعة من جلد فأرٍ لكي لا أُخَرِّبَ رؤوس المفاتيح ولا أقطع الصوت حين أضرب به المفاتيح. ووُضِعَ كرسي أمام البيانو الصغير منخفض عن المفاتيح مسافة أربعة أقدام، ثم وُضِعْتُ فوق الكرسي. وكنتُ أضرب المفاتيح بالعصاتين على هذا الجانب ثم على ذاك بأسرع ما أستطيع، وبهذا تمكنتُ من عزف لحنٍ راقص سُرَّ به صاحبا الجلالة سرورًا كبيرًا، لكنه كان أعنف وأشقّ عمل قمتُ به في حياتي. ورغم ذلك لم أتمكن من ضرب أكثر من ستة عشر مفتاحًا، وبالتالي لم أتمكن من عزف المفاتيح ذات الصوت العميق الخفيض أو ذات الأصوات من الطبقة العالية كما يفعل بعض العازفين، وكان هذا نقصًا كبيرًا في عزفي.

كان الملك، كما ذكرتُ من قبل، أميرًا ذا ذكاء رائع. وكان كثيرًا ما يأمر بإحضاري في علبتي ووَضْعي على طاولة في غرفته الخاصة، ثم يأمرني بإخراج كرسيّ من علبتي والجلوس عليه على مسافة

ثلاث ياردات فوق العلبة بحيث أصبح في مستوى وجهه. وعلى هذا النحو جرت بيننا محادثات عديدة. وذات يوم تجرأتُ وقلتُ لجلالته، إن ما كشف عنه من احتقار **لأوروبا** وبقية **العالم** لا يبدو متفقًا مع القدرات العقلية الرائعة التي يَتَحلّى بها، وإن العقل لا يتسع دائمًا باتساع الجسم. وعلى العكس فقد لاحظنا في بلادنا أن أكبر الناس حجمًا هم في العادة أقلهم عقلًا، وأنه بين الحيوانات الأخرى، يشتهر النحل والنمل بأنهما أكثر مثابرة وفنًا وحكمة من الأجناس الأكبر منها حجمًا، وأنني أرجو، رغم أني صغير وتافه كما يعتبرني، أن أعيش حتى أؤدي لجلالته خدمة عظيمة. وأصغى لي الملك بانتباهٍ وبدأ يكوّن عني رأيًا أحسن من ذي قبل. ورغب إليَّ أن أعطيه أدق وصف أستطيعُه عن نظام الحكم في **إنجلترا**، لأنه برغم أن الملوك عامة يفضّلون عاداتهم الخاصة ويعتزون بها (كما افْتَرَض من أحاديث سابقة لي)، فإنه يسره أن يسمع عن أي شيء يستحق التقليد.

ويمكنك أن تصور لنفسك أيها القارئ الكريم مقدار ما تمنيتُ أن يكون لي لسان (**ديموستين**) أو فصاحة (**شيشيرون**) كي أتغنى بمَدْح بلادي الغالية بالأسلوب اللائق بعظمتها ومزاياها وما فيها من هناء وسعادة.

بدأتُ حديثي بإخبار جلالته أن بلادنا تتكون من جزيرتين، وأن فيها ثلاث ممالك عظيمة[٢] يحكمها جميعًا حاكم واحد، بالإضافة إلى مستعمراتنا في أمريكا. أسهبتُ كثيرًا في الحديث عن خصوبة أراضينا واعتدال مناخنا. ثم تحدثتُ بصورة عامة عن دستور البرلمان الانجليزي الذي يتألف جزء منه من مجموعة مهيبة من الأعضاء تسمَّى مجلس اللوردات، وكل عضو فيها ذو أصل نبيل وإرثٍ قديم وعظيم. ووصفتُ العناية البالغة التي تُبْذَل في تعليمهم[٣] فنون الحياة في السلم والحرب ليصبحوا مؤهلين للعمل كمستشارين بالوراثة للملك والملكة وليساهموا في التشريع، وليصبحوا أعضاء في المحكمة العليا التي تكون أحكامها مبرمة وقاطعة[٤]، ويكونوا أبطالًا مستعدين دائمًا للذود عن أميرهم وبلادهم بما لديهم من قوة وقيادة وإخلاص، وأن هؤلاء الأشخاص هم زينة المملكة وحصنها المنيع، وأنهم الخَلَفُ الصالح للسلف العظيم الذين جاءت أمجادهم تتويجًا لفضائلهم، والذين لم ينحرف أحفادهم قط عن الصلاح[٥]. وينضم إلى هؤلاء في عضوية مجلس اللوردات عدد من رجال الدين يحملون لقب أساقفة، وعملهم الأساسي الحرص على الدِّين وعلى من يُعَلِّمون الدين للناس. وهؤلاء يختارهم الأمير وخيرة مستشاريه حكمةً بعد أن يبحثوا عنهم في جميع أنحاء البلاد وبين رجال الدين فيها، ويتقصّوا أخبارهم ويتأكدوا أنهم يتميزون بالعفة والطهارة في حياتهم وبالسعة والعمق في علمهم، وأنهم بالفعل آباء روحيون لرجال الدين وللشعب[٦].

أما الجزء الآخر من البرلمان فيتكون من مجلس يدعى مجلس العموم، وأعضاؤه سادة عظام يختارهم الشعب نفسه بكامل حريته على أساس مواهبهم وقدراتهم وحبهم لبلادهم، لكي يمثلوا

حِكْمة الأمة كلها. وهذان المجلسان يكوّنان معًا أكثر البرلمانات هيبة في أوروبا، ويُعْهَد إليهما بالتعاون مع الملك في أمور التشريع كلها.

ثم انحدرتُ إلى المحاكم التي يترأسها القضاة الذين هم الحكماء المحترمون والمتفقهون في تفسير القانون، وذلك لتحديد الحقوق والعقارات والأملاك التي يتنازع عليها الناس، ولمعاقبة الرذيلة وحماية الأبرياء. كما ذكرتُ الإدارة الحكيمة للشؤون المالية، وشجاعة قواتنا وإنجازاتها في البر والبحر. وحسبتُ له عدد السكان عندنا على أساس عدد الملايين في كل طائفة دينية أو حزب سياسي عندنا. ولم أنس وصف ألعابنا ووسائل اللهو عندنا، أو أي من التفاصيل التي اعتقدتُ أن ذِكْرها يساهم في رفع قَدْر بلادي. وختمتُ أحاديثي بإعطاء وصف موجز للشؤون والأحداث التاريخية في إنجلترا خلال المائة سنة المنصرمة.

ولم ينتهِ حديثي هذا إلا بعد خمس جلسات، امتدَّتْ كلٌّ منها عدة ساعات. واستمع الملك إلى كل ما قلتُ بانتباه شديد، وكان كثيرًا ما يدوّن ملاحظاته على أقوالي أو يسجل مذكرات بالأسئلة التي ينوي أن يوجهها لي.

وعندما ختمتُ هذه الأحاديث الطويلة راح جلالته في الجلسة السادسة يرجع إلى ملاحظاته، ويشير إلى الكثير من الشكوك والاستفسارات والاعتراضات حول كل موضوع. سأل: أي وسائل تُسْتَخدم في تنمية عقول الشباب الصغار من أبناء النبلاء وفي تنمية أجسامهم؟ وفي أي الأعمال يقضون الجزء الأول من حياتهم حين تتوفر لديهم القابلية للتعلم؟ وأية طريقة تُسْتَخْدم في سد النقص في مجلس اللوردات حين تنقرض عائلة نبيلة؟ وأية صفات ينبغي أن تتوفر في من يُنْعَم عليه بلقب لورد؟ أو إن كان مزاج الأمير وهواه، أو مبلغ من المال يُقَدَّم لإحدى السيدات في القصر أو لرئيس الوزراء، أو مؤامرة لتقوية حزب على حساب المصلحة العامة، تلعب دورًا في هذه الإنعامات والترقيات؟ وما هو مقدار معرفة هؤلاء اللوردات بقوانين بلادهم؟ وكيف حصلوا على هذه المعرفة ليتمكنوا في آخر الأمر من تقرير حقوق إخوانهم من الرعية؟ وهل هم دائمًا بريئون من الطمع والهوى والفاقة، بحيث لا تجد الرشوة أو أمور الفساد الأخرى طريقها إليهم؟ وهل لوردات الكنيسة الذين تحدثتُ عنهم يصلون إلى مرتبتهم على أساس تفقههم في أمور الدين وطهارة حياتهم دون أن يكونوا قطّ من منافقي رؤسائهم يوم كانوا رجال دين عاديين، ودون أن يكونوا قط تذللوا لأحد النبلاء[٧] حين عَيَّنهم في كنيسةٍ تابعةٍ له وأصبحوا كالعبيد له يرددون آراءه حتى بعد أن ينضموا إلى مجلس اللوردات؟

ثم أراد أن يعرف الفنون المتبعة في اختيار من سميتُهم أعضاء مجلس العموم، أو إن كان من غير الممكن لغريبٍ ذي كيس منتفخ أن يؤثّر على الناخبين من السوقة، ليختاروه بدلًا من سيدهم

وصاحب أرضهم، أو بدلًا من خيرة السادة في منطقتهم. وكيف يحدث أن يرغب الناس رغبة قوية إلى هذا الحد في الوصول إلى عضوية هذا المجلس(٨)، الذي اعترفتُ أن الوصول إليها متعب جدًا ومكلّف جدًا، لدرجة قد تدمر حياة أُسَرِهم، دون أن يكون لهذه العضوية راتب أو تعويض؟ فهذا يبدو لجلالته نوعًا ساميًا جدًا من حُبّ الخير وحُبّ خدمة المجتمع لدرجة أنه يشك أنه قد لا يكون دائمًا حُبًّا مخلصًا ومُنزّهًا عن الغاية. وقد رغب جلالته أن يعرف إن كان لدى هؤلاء السادة المتحمسين أية خِطَطٍ لتعويض أنفسهم عن الأموال والمتاعب التي تكلفوها، مثلًا، عن طريق التضحية بالمصلحة العامة لتمرير مؤامرات مَلِكٍ حقيرٍ ضعيفٍ بالتضامن مع وزارةٍ فاسدة. وقد ضاعف أسئلته وغَرْبَلَني غَرْبَلَةً كاملة في كل جزء من هذا الموضوع، وذكر استفسارات واعتراضات لا حَصْرَ لها، ولا أظن من الحكمة أن أكررها هنا.

وبالنسبة لما قلتُه عن المحاكم، رغب جلالته أن أوضح له عدة نقاط. وقد كنتُ قادرًا على التوضيح لأنني كنتُ فيما سبق قد أوشكتُ على الإفلاس بسبب قضيةٍ في المحكمة العليا استغرقَتْ زمنًا طويلاً، وحُكِمَ فيها لصالحي مع دفع التكاليف. سأل: ما هي المدة اللازمة في العادة للفصل بين الصواب والخطأ؟ وما مقدار تكاليف ذلك؟ وهل للمحامين والخطباء حرية الترافع عن قضايا يعرفون بوضوح أنها غير عادلة ومزعجة وظالمة؟ وهل للتحزب الديني أو السياسي تأثير على ميزان العدالة؟ وهل يتفقّه أولئك الخطباء المترافعون في العلوم العامة، الخاصة بمبادئ العدل والإنصاف والضمير، أم إنهم يتعلمون فقط العادات القومية والمحلية؟ وهل يلعبون هم أو القضاة دورًا في تَحْبير تلك القوانين التي يزعمون أنهم أحرار في تفسيرها والتعليق عليها كما يرغبون؟ وهل قاموا قط، في مرات مختلفة، بالترافع عَنْ وضدّ القضية نفسها، واستشهدوا بسوابق قانونية ليبرهنوا على صحة رأيَيْن متعارضَيْن؟ وهل رجال القضاء والقانون مؤسسة غنية أو فقيرة؟ وهل يتقاضون مكافآت مالية مقابل ترافعهم أو مقابل إعطاء فتوى قانونية؟ وسأل بشكل خاص، هل يصبح أحد منهم عضوًا في مجلس العموم؟

ثم انتقل إلى إدارة الشؤون المالية، وقال إنه يظن أن ذاكرتي قد خانتني لأنني قدَّرْتُ أنّ ضرائبنا تبلغ خمسة أو ستة ملايين في السنة، وحين جئتُ لِذِكْر المصروفات وجَد أنها أحيانًا تبلغ أكثر من الضعف. وقال إن الملاحظات التي دوَّنَها دقيقة في هذه النقطة لأنه كان يأمل أن يستفيد من أسلوبنا في إدارة الشؤون المالية، ولذلك لا يمكن أن يكون قد أخطأ في حساباته. وأضاف أنه إذا كان ما قلتُه له صحيحًا، فإنه لا يفهم كيف تنفق الدولة أكثر من مواردها(٩) مثل الأشخاص العاديين؟ وسأل: من هم دائنوها؟ وأين كنا نجد النقود لنسدد ديوننا لهم؟ وتعجّب لدى سماعي أتحدث عن حروبٍ باهظة التكاليف وطويلة الأمد، وقال إننا لا بُدّ أن نكون شعبًا محبًا للخصام والقتال أو إننا نعيش بين جيران سيئين، وإن جنرالاتِنا لا بُدّ أن يكونوا أغنى من ملوكنا(١٠).

وسأل، أية مصالح لنا خارج جُزُرنا، اللهمّ إلا إذا كنّا نحارب لمصلحة تجارية أو دفاعًا عمَّن بيننا وبينهم معاهدة، أو دفاعًا عن سواحلنا بأسطولنا؟ وتعجب غاية العجب من حديثي عن جيش دائم من المرتزقة[١١] في أيام السلم وفي شعبٍ حُرٍّ. وقال إذا كنا نُحْكَمُ برضانا من قِبَل ممثلينا، فإنه لا يستطيع أن يتصور ممَّن نخاف أو ضدّ من نحارب. وسألني عن رأيي: مَنْ يدافع دفاعًا أفضل عن منزل المرء، المرء نفسه مع أبنائه وعائلته أم حفنة من السَفَلة والمجرمين يلتقطهم من الشوارع مقابل أجرٍ زهيدٍ، مع أن بِوُسْعِهِم أن يكسبوا ضعفه مائة مرة بقطع عنقه وأعناق أهله؟

وضحك من طريقتي الغريبة في الحساب (كما أحَبَّ أن يسميها) حين قدَّرتُ أعداد أمّتِنا على أساس الأرقام المأخوذة من الطوائف العديدة عندنا في الدين والسياسة. وقال إنه لا يعرف سببًا لإجبار مَن يحملون آراء ضارة للناس على تغيير آرائهم، أو لعدم إجبارهم على إخفاء تلك الآراء. فكما أن إجبار الناس على تغيير معتقداتهم استبدادٌ وطغيانٌ، كذلك فإن عدم إجبارهم على إخفائها ضعفٌ وهوانٌ[١٢]. فإنه قد يجوز أن يُسْمَح للمرء بالاحتفاظ بالسّمّ في منزله، لكن لا يجوز أن يُسْمَحَ له ببَيْع ذلك السّمّ على أنه دواء.

ولاحظ أنني ذكرتُ المقامرة بين أساليب اللهو لدى النبلاء والسادة بيننا، ورَغِبَ أن يعرف في أيّ سنٍّ يتمّ تعلُّم هذه التسلية وممارستها؟ ومتى يتم طرحها والاستغناء عنها؟ وكم من الوقت تستهلك؟ وهل تسيطر قط على الناس بحيث تؤثر على مصائرهم وثرواتهم؟ ألا يتوصل بعض السفهاء اللئام عن طريق براعتهم فيها إلى جمع ثروات طائلة، وأحيانًا يجعلون النبلاء بيننا عالة عليهم، ويعوّدونهم على مخالطة الأشرار، ويبعدونهم كليًا عن تهذيب عقولهم، ويجبرونهم عن طريق الخسائر التي يُمْنَوْنَ بها إلى تعلّم فنون المقامرة السيئة الذكر وممارستها ضد الآخرين؟.

كذلك أدهشه دهشة بالغة التقرير التاريخي الذي قَدَّمتُه له عن شؤوننا خلال القرن الأخير، واحتجَّ أنه ليس في هذا التقرير سوى سلسلة من المؤامرات، والتمرد على السلطان، والاغتيالات، والمذابح، والثورات، وأعمال النفي والتشريد، وكلها من أسوأ النتائج التي ينجبها الجشع، والتحزب، والنفاق، والخيانة، والقسوة، والغضب، والجنون، والكراهية، والحسد، والحقد، والطموح.

وفي جلسة أخرى بذل جلالته جهدًا كبيرًا في تلخيص كل ما كنتُ قد قلتُه، وقارن الأسئلة التي وجهها لي بالأجوبة التي قدمتُها له. ثم حملني في يَدَيْه وربَّتَ عليَّ برفْقٍ، وعَبَّر عن رأيه بهذه الكلمات التي لن أنساها ولن أنسى اللهجة التي قالها بها. قال: يا صديقي الصغير جْرِيلدْرِيغْ، لقد أدَّيْتَ مديحًا لبلادك يثير العجب حقًا. فقد بَرْهَنْتَ بوضوح أن الجهل والكسل، والخمول والرذيلة هي العناصر المناسبة لتأهيل المرء لوظيفة المشرّع، وأن أحسن من يشرحون القوانين ويفسرونها ويطبقونها

هم الذين تتمثل مصالحهم وكفاءاتهم في تحريفها وتشويهها، وإرباكها والتهرب منها. إنني ألمح بين ظهرانيكم آثارًا لنظام ما ربما كان في أصله جيدًا ومقبولًا، ولكن نصف هذه الآثار شبه مُمْحُوٍّ، والباقي شوهه الفساد أو أزاله كله. ولا يظهر من كل ما قلتَه أن الكمال مطلوب للحصول على أي مركز بينكم، ولستُ أرى أن الناس يُنْعَم عليهم بلقب نبيل بسبب فضيلتهم، أو أن رجال الدين يُرَقَّوْنَ لتمسكهم بالدين أو لِعِلْمِهم، أو الجنود بسبب سلوكهم وشجاعتهم، أو القضاة بفضل استقامتهم وأمانتهم، أو أعضاء مجلس الأمة بفضل حبهم لبلادهم، أو المستشارون بفضل حكمتهم. ثم أكْمَلَ جلالته، أما بالنسبة لك أنت الذي قضيتَ معظم حياتك في السفر والترحال، فإنني مستعد لأن أرجو أن تكون حتى الآن قد نَجَوْتَ من كثيرٍ من رذائل بلادك. لكن ما فهمتُه من أقوالك ومن الأجوبة التي اعْتصَرْتُها مِنْكَ بعد تعب وجهد، لا يترك لي مجالًا إلا للاستنتاج بأن معظم أبناء جلدتك هم أخبث سلالة من الحشرات المؤذية البغيضة التي سَمَحَتْ لها الطبيعة بالزحف على وجه الأرض.

الفصل السابع

حب المؤلف لبلاده. يقدم اقتراحًا ذا نفع كبير للملك ويُرْفَض الاقتراح. جهل الملك في شؤون السياسة. علوم تلك البلاد محدودة وغير كاملة. قوانينهم وشؤونهم العسكرية والأطراف المتصارعة في الدولة.

لا شيء سوى حبي الشديد للصدق يمنعني من حَجْب هذا الجزء من قصتي. كان من العبث أن أكْشِف اعتراضاتي واحتجاجاتي لأنها كانت دائمًا تؤدي إلى السخرية منّي. وقد اضطررتُ أن أتحلى بالصبر، بينما كانت بلادي النبيلة المحبوبة توصف بهذه الأوصاف المؤذية جدًا. وأنا متأسف من أعماقي كما يمكن لأيّ من قُرّائي أن يكون، على ظهور هذه المناسبة لحَيّز الوجود. لكن هذا الملك كان شديد الفضول وكثير الأسئلة بالنسبة لكل صغيرة، وليس مما يتفق مع العرفان بالجميل أو مع آداب السلوك أن أمتنع عن إرضاء فضوله والإجابة على أسئلته بأحسن ما أستطيع. ولكن أرجو أن يُسْمَحَ لي بقول ما يلي تبريرًا لسلوكي وتبرئةً لنفسي: لقد تفنّنْتُ في التملُّص من كثير من أسئلته وأعطيتُ لكل نقطة جوابًا أفضل بكثير من الجواب الذي تمليه الحقيقة، ويسمح به الصدق الصارم. ذلك أنني أحمل لبلادي ذلك التحيُّز أو التعصب المحمود، والذي يوصي به، وبحكمة بالغة، **ديونيسيوس هاليكار ناسينسيس**[1] كُلَّ مؤرخ. سأُخفي عيوبَ أمّي السياسية وأتستر على نقائصها، وأضع فضائلها ومكارمها تحت أفضل الأضواء. كانت هذه هي محاولتي المخلصة في تلك الأحاديث العديدة مع ذلك الملك، ولكنها لسوء الحظ فَشِلَتْ في تحقيق النجاح.

لكن علينا أن نتسامح كثيرًا مع ملِكٍ يعيش معزولًا تمام العزلة عن بقية العالم، ولهذا لا بدّ أن يكون جاهلًا كل الجهل بالأخلاق وآداب السلوك والعادات السائدة لدى معظم الأمم. والنقص في هذه المعرفة ينجب دائمًا أحكامًا كثيرة مبنية على هوى النفس، كما ينجب قَدْرًا من **ضيق الأفق الفكري** الذي أصبحنا، نحن الانجليز والبلدان الأرقى في أوروبا، في مأمن تام منه. ولو عُرِضَتْ أفكار هذا الملك البعيد ومفاهيمه عن الفضيلة والرذيلة لتكون قدوة ومثالًا يحتذيه كل البشر، لَثَقُل ذلك على الناس.

ولأؤكد ما قلتُه الآن وأزيد توضيح النتائج التعيسة **للتعليم المحدود**، سأُدْخِل هنا نصًّا قلما

يحظى بالتصديق. كنت آملُ أن أزيد من حُظْوَتي لدى صاحب الجلالة، فحدثتُه عن اختراع اكتُشِفَ قبل ثلاثمائة أو أربعمائة سنة[٢] يتعلق بصناعة مسحوقٍ، تستطيع أصغر شرارة نارٍ إذا مسَّته أن تشعل النار فيه كله مهما بلغت كميّته، حتى لو كانت كبيرة كالجبل، وأن تجعله يتطاير في الهواء مصحوبًا بصوتٍ صاخبٍ أعلى من صوت الرعد. وأخبرتُه أنه إذا حُشِيَتْ كمية مناسبة من هذا المسحوق في أنبوب مُجَوَّفٍ من النحاس أو الحديد، وذلك تبعًا لكِبَرِ الكمية، فإنها تستطيع أن تقذف كرة من الحديد أو الرصاص بسرعة وقوة شديدتين، بحيث لا يستطيع شيء أن يتحمل قوتها أو يصمد في وجهها، وأن الكرات الكبيرة التي تُقْذَف بهذه الطريقة، لا تحطم فقط فِرَقًا كاملة في الجيش على الفور، ولكنها تهدم أقوى الأسوار وتُسَوّيها بالأرض، وتُغْرِق سفنًا إلى أعماق البحر، ولو كان على الواحدة منها ألف راكب. وإذا رُبِطَتْ بعض هذه الكُرات بسلسلةٍ، فإنها أثناء انطلاقها تُمَزِّق الأشرعة والحبال، وتَشْطُر مئات الأجساد البشرية كلا إلى شطرين، وتدمر كل ما يكون في طريقها، وأننا كثيرًا ما وَضَعْنا هذا المسحوق في كُراتٍ حديدية كبيرة مجوّفة، ثم قذفناها بآلةٍ على مدينةٍ كنا نحاصرها فاقتلعَتِ الأرصفة فيها، ومزقت البيوت إربًا حتى تطايرت شظاياها في كل اتجاه، وطَيَّرَتْ أدْمِغَة كل من كانوا قريبين منها. وقلتُ له إنني أعرف العناصر المكوّنة لهذا المسحوق، وإنها رخيصة ومتوفرة، وإنني أفهم طريقة خَلْطها، وإنني أستطيع أن أشرح لعُمّاله كيفية صناعة تلك الأنابيب بحجوم تتناسب مع حُجُوم الأشياء في مملكته، وإن أكبر تلك الأنابيب لن يكون أكثر من مائتي قدم طولًا، وإن عشرين أو ثلاثين من هذه الأنابيب، إذا حُشِيَتْ بالكمية المناسبة من المسحوق والكرات، تكفي لِهَدْم أسْوار أَمْنَع المدن في مملكته في بضع ساعات، ولتدمير العاصمة كلها لو تجرأتْ على إنكار سلطته المطلقة عليها. وقد قدمتُ لجلالته هذا العرض كَرَمْزٍ صغير لتقديري واحترامي لجلالته واعترافًا بالنعم الكثيرة التي نِلْتُها بفضل عطفه الملكي وحمايته.

وقد أصيب الملك بالهلع من وصفي لتلك الآلات الفظيعة، ومن العَرْض الذي قدمتُه له. وقد أذهله أن تستطيع حشرة ذليلة عاجزة مثلي (كانت هذه كلماته) أن تُضْمِرَ مثل هذه الأفكار اللاإنسانية، وبِمِثْل هذه البساطة بحيث أبدو وكأني لا أتأثر أو أنزعج البتة من كل مشاهد الدم والخراب التي صَوّرتُها على أنها نتائج معروفة لتلك الآلات المدمرة التي قال إن مخترعها الأول لا بد أنه كان عبقريًّا شريرًا وعدوًّا للبشرية. أما بالنسبة له بالذات، ورغم أنه لا يسرُّه ويسعده شيء بقدر ما تَسُرُّه الاكتشافات الجديدة في الفن أو في الطبيعة، إلا أنه يفضل أن يخسر نصف مملكته على أن يَطَّلِعَ على سرٍّ كهذا. وأمرني، إن كنتُ أحرص على حياتي، أن لا أعود لذكره قط.

هذه هي النتيجة الغريبة **للمبادئ الضيقة الأفق والتفكير المحدود الهزيل**. فهذا ملك تتوفر فيه كل الصفات التي تجعله يستحق الاحترام والحب والتقدير، ويتمتع بمواهب عظيمة وحكمةٍ بالغةٍ

وعِلْمٍ واسعٍ وكفاءةٍ في الحكم تثير الإعجاب، وحُبٍّ من رَعِيّته يكاد يبلغ العبادة، ومع ذلك فهو من أجل وسواس دقيق لا ضرورة له، ولا يوجد لدينا في **أوروبا** أية فكرة عنه، يترك فرصةً عظيمةً كهذه تُفْلِتُ منه بعد أن وُضِعَتْ في يديه، فرصة كانت ستجعله الحاكم المطلق على حياة أبناء شعبه وحريتهم ومصائرهم. ولست أقول هذا بِنِيَّة التقليل من المزايا والفضائل العديدة لذلك الملك العظيم، مع أنني أعرف أن مكانته في رأي القارئ الانجليزي ستقلّ كثيرًا بسبب هذه القصة. لكني أرى أن هذا العَيْبَ فيهم ناجم عن جهلهم وفشلهم حتى الآن في تحويل السياسة إلى عِلْمٍ[٤] كما فعل المفكرون الكبار في **أوروبا**. وأذكر جيدًا أنني قلتُ أثناء إحدى محادثاتي مع الملك إنه يوجد لدينا آلاف الكتب حول فنّ الحكم، فأعطاه هذا، على عكس ما بغيتُ، فكرة سيئة عن ذكائنا وقدراتنا العقلية. وأَعْلَنَ أنه يمقت ويحتقر الألغاز والغموض، والمبالغة في التطوير والتحسين، والخداع والتآمر، سواء كانت هذه في أمير أو وزير، وأنه لا يستطيع أن يفهم ما أعنيه بعبارة أسرار الدولة، إذا كانت لا تتعلق بعدُوّ أو أمة منافسة. وقال إنّ فنّ الحكم ينحصر عنده في حدود ضيقة، هي التعقل والتفكير السليم، والعدل والرحمة، والحسم السريع للقضايا المدنية والجنائية، وأمور أخرى عادية وواضحة ولا تستحق الذكر. وقال إنّ مِنْ رأيه أنّ من يستطيع أن ينتج سنبلتين[٥] من القمح أو نبتتين من العشب في أرض لم تكن تنتج من قبل إلا واحدة يستحق من البشر ثناءً أكبر، ويقدم لبلاده خدمة أجَلّ مما يقدمه جنس السياسيين كلهم مجتمعين.

علوم هؤلاء القوم تعاني نقصًا شديدًا، فهي لا تتعدى علوم الأخلاق والتاريخ والشعر وعلوم الرياضة. ولا بد من الاعتراف لهم بالتفوق في هذه المجالات. لكن علومهم الرياضية موجهة بكاملها إلى ما هو نافع في الحياة[٦]، كتحسين الزراعة وكل الفنون الميكانيكية، ولهذا فهي عندنا لا تحظى إلا بالقليل من التقدير. أما بالنسبة للمثل العليا[٧]، وأصول الكائنات والأشياء، والتجريدات وما فوق الطبيعة فهم لا يفقهون شيئًا منها[٨] ولم أستطع أن أُدْخِل إلى أذهانهم أيًّا منها.

ولا يجوز أن تتجاوز كلمات أي نص قانونيّ عندهم عدد حروفهم الهجائية[٩] التي تبلغ اثنين وعشرين حرفًا فقط. وفي الحقيقة، قليل من قوانينهم يصل عدد كلماتها هذا القدر. وهي مصوغة بأوضح وأبسط الألفاظ، وليس لديهم ذلك التَّحَذْلُق والتفذلك الذي يجعلهم يجدون أكثر من تفسير واحد لها. وكتابة تعليق على أي قانون تعتبر عندهم جناية كبرى. وأما بالنسبة للحكم في القضايا المدنية أو للإجراءات الخاصة بالمجرمين، فإن السوابق عندهم نادرة، ولهذا فليس لديهم ما يدعو إلى التباهي ببراعة خارقة في أي من هذين المجالين.

فن الطباعة موجود عندهم، كما عند الصينيين، منذ أقدم العصور، لكن مكتباتهم ليست

كبيرة جدًا، ومكتبة الملك التي تعتبر أكبرها لا تحتوي على أكثر من ألف كتاب، موضوعة في قاعة طولها ألف ومائتا قدم. وقد سُمِح لي بأن أستعير منها أي كُتُب أشاء. وكان نَجَّار الملكة قد صنع لي في إحدى الغرف بجناح جُلَمْ دالْ كْليتشْ آلة خشبية ارتفاعها خمسة وعشرون قدمًا، على هيئة سُلَّم ثابت، طول الدرجة الواحدة فيه خمسون قدمًا. وقد كان في الحقيقة يتكون من دَرَجَيْنِ متحركين، وطرفه السفلي موضوع على بُعد عشرة أقدام من جدار الغرفة. الكتاب الذي كنتُ أرغب في قراءته كان يوضع مستندًا على الجدار وكنت أصعد للدرجة العليا من السلم ووجهي نحو الكتاب وأبدأ القراءة من أعلى الصفحة، وأسير إلى اليمين وإلى اليسار حوالي ثماني أو عشر خطوات حسب طول السطر حتى يصبح السطر الذي أصل إليه أدنى من مستوى عينيّ، فأنزل بالتدريج، وهكذا حتى أصل إلى أسفل الصفحة. بعد ذلك أصعد إلى أعلى السُّلَّم لأقرأ الصفحة الأخرى بالأسلوب نفسه، ثم أقلب الورقة. وكنت أفعل ذلك بيديّ الاثنتين بسهولة لأن الورقة الواحدة كانت سميكة وجامدة مثل لوحة الاعلانات عندنا. وفي أكبر المجلدات لم يكن طول الورقة الواحدة يزيد على ثمانية عشر أو عشرين قدمًا.

أسلوبهم في الكتابة واضح وقوي وسَلِس، لكنه ليس منمقًا أو مزخرفًا. فهم لا يتجنبون شيئًا بقدر ما يتجنبون الإكثار من الكلمات غير الضرورية وتنويع التعبيرات. وقد قرأتُ كثيرًا من كُتبهم، وعلى الأخص كتب التاريخ والأخلاق، ومن بين الكتب في الأخلاق استمتعتُ كثيرًا برسالةٍ قديمة صغيرة الحجم كانت دائمًا موضوعة في غرفة نـوم جُلَمْ دالْ كْليتشْ وكانت تخص مـربيتها، تلك السيدة العجوز الوقورة التي كانت تهتم بكتب الأخلاق والتقوى. كان ذلك الكتيِّب يعالج موضوع ضعف الجنس البشري ولا يحظى بالتقدير إلا لدى النساء والعامة. على أية حال، دَفعني الفضول إلى التعرف على ما يقوله مؤلفٌ من تلك البلاد عن موضوع كهذا. وقد ذكر هذا الكـاتب كل الموضوعات العادية التي يعالجها فلاسفة الأخلاق الأوروبيون، وبيَّن مدى صغر الإنسان بفطرته، ومدى حقارته وعجزه - فهو عاجز عن حماية نفسه من قسوة الأجواء والأنواء، ومن ضراوة الحيوانات المتوحشة. كذلك فإن بعض المخلوقات تتفوق على الإنسان في القوة، وأخرى في السرعة، وثالثة في التبصر وحسن التدبير، ورابعة في القدرة على العمل والمثابرة. وأضاف هذا الكاتب أن الطبيعة قد انحدرتْ نحو الأسوأ[١٠] في عصور الانحطاط هذه من عُمْر العالم، وأنها الآن لا تُنْجِبُ إلا مواليد ناقصي النمو بالقياس إلى من كانت تنجبهم في العصور القديمة. وقال إنه من المعقول أن نعتقد أن جنس البشر كان في الأصل أكبر حجمًا، لا بل كان هناك عمالقة في العصور السـالفة كـما يؤكد التاريخ وتؤكد المعتقدات الشائعة، وكما تؤكد العظام والجماجم الضخمة التي يُعْثَر عليها أثناء الحَفْر في أجزاء متعددة من المملكة، والتي تفوق بكثير حجم الإنسان العادي الضئيل في أيامنا. وهو يجادل بأن قوانين الطبيعة ذاتها تقضي بشكل مطلق أن نكون في البداية قد خُلِقْنا بحجم أكبر وأقوى بحيث

لا نتعرض للهلاك من كل حادث بسيط تافه كسقوط قرميدة أو آجرّة من منزل، أو حجر ترميه يد صبي، أو الغرق في جدول ماء صغير. وبهذا الأسلوب في المناقشة توصل المؤلف إلى عدد من التطبيقات الأخلاقية المفيدة في تصريف شؤون الحياة ولكن لا حاجة لتكرارها هنا. ومن ناحيتي لم يسعني إلا أن أتعجب من سعَة انتشار المَيْل لإعطاء محاضرات في الأخلاق أو الميل للضيق والتبرم الناجم عن انتقادنا للطبيعة. وأعتقد أنه لدى البحث الدقيق يمكن إثبات أن هذه الانتقادات للطبيعة هي عندنا كما هي عندهم غير قائمة على أسس صحيحة.

أما بالنسبة لشؤونهم العسكرية، فهم يتباهون أن جيش الملك يتكون من مائة وستة وسبعين ألفًا من المشاة واثنين وثلاثين ألفًا من الفرسان. هذا إذا صحَّ أن نطلق كلمة جيش على أناس من الحِرَفيين[١١] في المدن العديدة، والفلاحين في الأرياف يقودهم رجال من النبلاء والسادة، يأتون جميعًا للخدمة العسكرية دون رواتب أو مكافآت. والحقيقة أن تدريبهم كاف وانتظامهم جيد جدًا. لكني لا أجد هذا أمرًا عجيبًا، إذ كيف لا يكونون مدرَّبين وملتزمين بالنظام حين يكون كل فلاح تحت إمرة مالك أرضه، وكل ابن مدينة تحت إمرة الوجهاء والمسؤولين في مدينته، الذين يتم اختيارهم، كما يحدث في مدينة البندقية، بالاقتراع السري؟

وكثيرًا ما رأيتُ الحرس الوطني (الميليشيا) للعاصمة لورْ بْرولْ جْرودْ يصْطَفّون للتدريب في حقل فسيح بالقرب من المدينة، تبلغ مساحته عشرين ميلًا مربعًا. وكان عددهم لا يزيد على خمسة وعشرين ألفًا من المشاة وستة آلاف من الفرسان. ولكن يستحيل عليَّ أن أحصي عددهم بسبب اتساع الأرض التي كانوا يقفون عليها. وارتفاع الفارس ممتطيًا جواده قد يبلغ حوالي تسعين قدمًا. وقد رأيتُ فرسان فرقة الخيالة يستلّون سيوفهم فور صدور الأمر بذلك ويُلَوِّحون بها في الهواء. ويعجز الخيال عن وصف شيء بهذه الفخامة وهذه الصورة المفاجئة المذهلة. لقد بدا الأمر وكأن عشرة آلاف وَمْضَةِ بَرْقٍ لَمعَت في وقت واحد في كل أرجاء السماء.

ودفعني الفضول للسؤال عن سبب تفكير هذا الملك بالجيوش، وسبب تعليم الشعب كيفية الانخراط في النظام العسكري وممارسة الحياة العسكرية، في حين أنه لا يمكن لشعب آخر أن يصل إلى بلاده. ولكن سرعان ما عرفتُ الأسباب عن طريق الأحاديث وعن طريق قراءة تواريخهم. ذلك أنه خلال عصور عديدة كانوا يعانون من العِلَل ذاتها التي يعاني منها الجنس البشري كله، ألا وهي نزوع النبلاء إلى الاستيلاء على السلطة، والعامة إلى الفوز بالحرية، والملك إلى الانفراد بالسلطة المطلقة. ومع أن قوانين تلك البلاد تهذب تلك النزوعات وتوفق بينها بشكلٍ يُسْعِدُ الجميع، إلا أن الأطراف الثلاثة أحيانًا تخرق هذه القوانين وتتجاوزها مما أدى أكثر من مرة إلى نشوب حروب أهلية، كانت الأخيرة منها قد أُنْهِيَتْ في عهد جدّ الملك الحالي بالتوصل إلى اتفاق يرضى عنه الجميع، وبإنشاء الحرس الوطني الذي ظل، بموافقة الجميع، يقوم بواجباته في حزم منذ ذلك الحين.

الفصل الثامن

الملك والملكة يقومان برحلة نحو الحدود. المؤلف يذهب برفقتهم. وصف مفصل لطريقة مغادرته البلاد وعودته إلى انجلترا.

كان لديّ دائمًا إحساس قوي أنني لا بد أن أستعيد حريتي يومًا ما. لكن كان يستحيل أن أتنبأ بالوسيلة التي تتيح لي ذلك، أو أن أرسم لذلك خطة فيها قدر ضئيل من الأمل بالنجاح. فقد كانت السفينة التي وصلتُ فيها، أول سفينة في تاريخهم وَصَلَتْ في مرمى البصر من ذلك الساحل. وكان الملك قد أصدر أوامر مشددة أنه إذا ظهرتْ سفينة أخرى في أي وقت، فلا بد من جَرِّها إلى الشاطئ، وإحضار كل مَنْ فيها من بحارة وركاب في عربة مغلقة إلى العاصمة **لورْبْرولْ جْرود**. فقد كان عاقدًا العزم على أن يحصل لي على امرأة من جنسي وحجمي، لعلّي أنْجِب منها ذرية مثلي[1]. وأعتقد أنني أفضِّل أن أموت على أن أرتكب عملًا مُشينًا كهذا، وأخلّف ذرية من صُلْبي توضع في الأقفاص كطيور الكناري المُدَجَّنة[2]، وربما بمرور الوقت تباع في أنحاء المملكة لأبناء الطبقة الراقية كمخلوقات غريبة نادرة. صحيح أنهم كانوا يعاملونني بعطف كبير، وأنني كنتُ ذا حظوة عند ملك وملكةٍ عظيمين، وكنت مصدر سرور لكل من في القصر، ولكن ذلك كله كان مبنيًا على أساس سيّئ لا يليق بكرامة البشر. لم أستطع قط أن أنسى أهلي وأبنائي الذين خَلّفتُهم ورائي. وكنت أريد أن أكون بين قوم أستطيع أن أتحدث معهم بنِدْية، وأن أتمشى في الشوارع والحقول دون خوف من أن أُسْحَق تحت الأقدام كما تُسْحَقُ الضفادع أو الجِراء الصغيرة. لكن خلاصي جاء أسرع مما توقعتُ، وبطريقة ليست مألوفة. وسأروي لكم قصة ذلك بحذافيرها.

كان قد مضى على وجودي في هذه البلاد عامان. وحول بداية السنة الثالثة ذهبتُ أنا **وجْلَمْ دالْ كْليتشْ** في مَعِيَّة الملك والملكة في رحلة إلى الساحل الجنوبي من المملكة. كنتُ محمولاً كالعادة في علبتي السفرية التي كانت، كما وصفتُها من قبل، حُجَيْرة مناسبة جدًا، عَرْضها اثنا عشر قدمًا. وكنت قد أَمَرْتُ بتثبيت أرجوحة بحبال حريرية في الزوايا الأربع للسقف، لأستلقي عليها وأخفف بذلك تأثير الهزات عليَّ حين يحملني خادم أمامه على ظهر جواد، كما كنتُ أطلب أحيانًا. كذلك كنتُ قد أَمَرْتُ النجار أن يجعل في سقف حُجَيرتي فتحة مربعة الشكل، طول ضلعها قدم واحد بحيث لا

تكون هذه الفتحة فوق منتصف الأرجوحة. وكانت هذه الفتحة تسمح للهواء بالدخول أثناء نومي حين يكون الجو حارًا. وكنت أغلق هذه الفتحة حين أشاء بلوح خشبي ينسحب إلى الخلف وإلى الأمام في أخدود في خشب السقف.

وحين وصلنا إلى نهاية رحلتنا، ارتأى الملك أن نقضي بضعة أيام في قصرٍ له بالقرب من **فْلانْ فْلاسْنِكْ**، وهي مدينة على بعد ثمانية عشر ميلًا انجليزيًا عن شاطئ البحر. كانت **جْلَمْ دالْ كْليتشْ** متعبة جدًا، وكنتُ مصابًا برشح طفيف، أما الفتاة المسكينة، فقد بلغ بها المرض حدًّا جعلها تلزم غرفتها. وتشوقتُ لرؤية المحيط الذي لا بدَّ أن يكون المكان الوحيد لنجاتي إن كُتِبَتْ لي النجاة، وزعمتُ أن مرضي أقوى مما كان بالفعل، ورجوتُ أن يُؤْذَنَ لي باستنشاق هواء البحر النقي برفقة غلامٍ كنت أعزه كثيرًا وكان أحيانًا يُعْهَد بي إليه. ولن أنسى قط التمنُّع أو عدم الرضا الذي أبدته **جْلَمْ دالْ كْليتشْ** قبل أن توافق، ولا أوامرها المشددة للغلام بأن يحرص عليّ ويرعاني، ولا بكاءها المُرّ ودموعها الغزيرة التي رافقت ذلك، وكأنَّ هاجسًا أنذرها بما كان سيحدث. وخرج بي الغلام وأنا محمول في علبتي، وسار بي مسافة نصف ساعة عن القصر باتجاه الصخور على الشاطئ، أمرتُه أن يُنْزِلَني على الأرض، ورفعتُ زجاج أحد النوافذ، ورحتُ أتطلع إلى البحر بنظرات الشوق الحزين(٣). وشعرتُ أني لستُ على ما يرام، وأخبرتُ الغلام أنني أرغب في غفوة قصيرة في الأرجوحة لعل ذلك ينفعني. ثم دخلتُ الأرجوحة، وأحْكَمَ الغلام إغلاق النافذة ليمنع عنّي البرد. وبعد وقت قصير غَفَوْتُ، وكل ما أستطيع أن أخمنه هو أنه بينما كنتُ نائمًا، ظنَّ الفتى أنني في مأمَنٍ من الخطر فذهب يبحث عن بيض العصافير بين الصخور - وقد رأيتُه من قبل من نافذتي ينظر حواليه ويلتقط بيضة أو اثنتين من الشقوق. أيًّا كان الأمر، فقد وجدتُ نفسي أستيقظ فجأة على شدَّةٍ عنيفة للحلقة المثبتة في أعلى الصندوق لتسهيل حَمْلِهِ. وشعرتُ بالصندوق يُرْفَع إلى عُلُوٍّ شاهق في الجَوّ، ثم يُحْمَل إلى أمام بسرعة هائلة. الهزة الأولى كانت قوية وكادت توقعني من أرجوحتي ولكن الحركة كانت بعد ذلك سهلة مريحة. وناديتُ مستنجدًا عدة مرات وبأعلى صوتي، لكن دون جدوى. ونظرتُ باتجاه نوافذي فلم أرَ شيئًا سوى الغيوم والسماء. وسمعتُ فوق رأسي مباشرة صوتًا شبيهًا بخفق الأجنحة، ثم بدأتُ أدرك الحالة المحزنة التي كنتُ فيها، وهي أن نسرًا كان يحمل حلقة الصندوق في منقاره(٤) بقصد أن يُسْقِط الصندوق على صخرةٍ كما يفعل بالسلحفاة البحرية(٥) المحمية بصدَفَةٍ، وحين يتحطم الصندوق يلتقط جسدي ويلتهمه. ذلك أن ذكاء هذا الطائر الجارح، وقوة حاسة الشمّ لديه، يتيحان له أن يكتشف فريسته من مسافة بعيدة، رغم كون الفريسة مخفية في مخبأ أحسن من مخبأي الذي يتكون من لوحات خشبية سُمْكُها بوصتان.

بعد فترة وجيزة لاحظتُ أن الصوت وَخَفْقَ الأجنحة يزدادان بسرعة كبيرة، وكانت علبتي تتأرجح للأعلى والأسفل وكأنها لوحة إعلان في يوم عاصف. وسمعتُ عدة ضربات وخبطات، كما

ظننتُ، موجهةً إلى النسر (فقد كنتُ متأكدًا أن الذي يحمل حلقة صندوقي في منقاره لا بد أن يكون نسرًا) ثم فجأة شعرتُ بنفسي أهوي عاموديًا لمدة تزيد على الدقيقة، ولكن بسرعة هائلة كدتُ معها أفقد القدرة على التنفس. وانتهى سقوطي بصوت طرطشةٍ مخيفةٍ بدَتْ بالنسبة لأذنيّ أعلى من صوت شلالات نْياغارَا. بعد ذلك كنتُ في ظلام دامس لمدة دقيقة أخرى، ثم بدأَتْ علبتي ترتفع عاليًا حتى استطعتُ أن أرى نورًا من الجزء العلوي في النوافذ. وأدركتُ حينئذٍ أنني قد سقطتُ في البحر[٦]. كانت علبتي، بسبب ثقل جسدي، وثقل الأشياء التي فيها، وثقل الصفائح الحديدية العريضة المثبتة في الزوايا الأربع في أعلاها وأسفلها بقصد زيادة متانتها وتماسكها، قد طَفَتْ على الماء الذي غمر خمسة أقدام منها وظل الباقي طافيًا. اعتقدتُ حينذاك، ولا زلتُ أعتقد، أن النسر الذي طار بِعُلْبَتي كان يطارده نسران أو ثلاثة آخرون، فاضطر إلى إسقاطي لكي يدافع عن نفسه ضد النسور الأخرى التي كانت تطمع أن تشارك في الفريسة. وكانت صفائح الحديد المثبتة في أسفل العلبة (وكانت أقوى الصفائح) قد حافظت على توازنها أثناء سقوطها، وحَمَتْها من التحطم لدى ارتطامها بسطح الماء. كانت مفاصل العلبة متداخلة جيدًا في بعضها، كما كان الباب غير مغلق بِرَزّات بل كان يُفْتَح رَفْعًا وخَفْضًا كزجاج النافذة، ولهذا كانت العلبة متماسكة ومحكمة التركيب، بحيث لم يتسرب إلى داخلها سوى القليل من الماء. ونزلتُ من الأرجوحة بصعوبة كبيرة بعد أن قمتُ أولًا بسَحْب خشبة الفتحة في السقف، التي ذكرتها من قبل، والتي كان الغرض منها إدخال الهواء. ولولا تلك الفتحة لكنتُ قد اختنقْتُ.

كم تمنيتُ حينذاك لو كنتُ مع عزيزتي جْلَمْ دالْ كْليتشْ التي فصلتني عنها حتى الآن ساعة واحدة. ويمكنني أن أقول بصدق، إنني وأنا في وسط محنتي، لم أستطع إلّا أن أرثي لمربيتي المسكينة، وأتألم للحزن الذي ستعانيه بسبب فقدها لي، وبسبب غضب الملكة عليها وخراب مستقبلها. وربما لم يواجه الكثيرون من الرحالين أكثر مما واجهتُه من صعوبات وشدائد في هذه المحنة، حين كنتُ أتوقع في كل لحظة أن يتحطم صندوقي ويتحول إلى شظايا، أو على الأقل أن ينقلب بفعل هبة ريح عاصفة أو موجة صاعدة. ولو حدث شرخ في لوحٍ واحدٍ من ألواح الزجاج لسبَّبَ لي ذلك هلاكًا سريعًا. ولم يحفظ الشبابيك من الانكسار سوى أسلاك الشَّبَك القوية المثبتة حولها لحمايتها من الحوادث أثناء السفر. ورأيت الماء ينزّ إلى الداخل من عدة شقوق، لكن الماء المتسرب لم يكن كثيرًا. وقد حاولتُ أن أسُدَّ تلك الشقوق بقدر ما أستطيع. ولم أستطع أن أرفع سقف علبتي، وإلّا لفَعَلْتُ ذلك وجَلَسْتُ على أعلى العلبة، وبهذا قد أحمي نفسي من البقاء حبيس جدرانها، وكأنني حبيس في بطن سفينة. ولو نجوتُ من هذه المخاطر لمدة يوم أو اثنين فماذا كنتُ أتوقع غير الموت التعيس بَرْدًا وجوعًا؟ وقد بقيتُ في ظل هذه الظروف المخيفة أربع ساعات، أتوقع، لا بل أتمنى أن تكون كل لحظة هي الأخيرة.

سبق أن أخبرتُ القارئ أنه كان مثبتًا في الجانب الخالي من النوافذ من صندوقي، رزّتان قويتان جدًا، يُدخل فيهما الخادم الذي كان يحملني على ظهر جوادٍ، حزامًا جلديًا، ثم يربطه حول وسطه. وقد سمعتُ وأنا في هذه الحالة البائسة، أو خُيِّل لي أنني سمعتُ، صوتًا كصوت الاحتكاك في الجانب المثبتة فيه الرزّتان، وبعد وقت قصير بدأتُ أتصور أن الصندوق يُسْحَب أو يُجَرّ في البحر، لأنني شعرتُ من حين لآخر بحركة شدٍّ قويةٍ، مما جعل الأمواج ترتفع حتى أعلى النوافذ، فتتركني في ما يشبه الظلام. وهذا منحني بصيص أمل في النجاة، مع أنني لم أكن أستطيع أن أتصور كيفية تحقيق ذلك. وجازفتُ بفكّ واحدٍ من الكرسيين المثبتين في أرضية العلبة، ثم استطعتُ بمشقة أن أُثَبِّته مرة ثانية تحت الفتحة التي في السقف، والتي كنتُ قد أزحتُ غطاءها من قبل. ثم تسلقتُ هذا الكرسي وقرَّبْتُ فمي من تلك الفتحة بقدر ما أستطيع، ورحتُ أصرخ طالبًا النجدة بصوت عال وبكل اللغات التي أعرفها. ثم ربطتُ منديلي بعصا كنتُ معتادًا على حملها، وأخرجتُ العصا حتى برزَتْ فوق الفتحة، ولوحتُ بها في الهواء عدة مرات، بحيث لو كان بالقرب مني قارب أو سفينة، فقد يُدْرِكُ البحارة أن أحد التعساء من بني البشر محبوس في تلك العلبة.

ولم أجِد نتيجة لكل ما فعلت. لكني أدركتُ بوضوح أن علبتي تُسْحَب. وبعد ساعة أو أكثر أحسستُ أن الجانب الخالي من النوافذ والمثبتة عليه الرزّتان، قد ارتطم بشيء صلب. وخشيتُ أن يكون ذلك صخرة. ووجدتُني أُهَزّ هَزًّا أعنف من أي وقت. وسمعتُ بوضوح صوتًا فوق غطاء العلبة يشبه صوت حَبْلٍ، كما سمعتُ صوت احتكاكه وهو يمر داخل الحلقة. ثم وجدتُ نفسي أُرْفَع بالتدريج إلى ما لا يقل عن ثلاثة أقدام. وعند ذاك رفعتُ عصاي ومنديلي خارج الفتحة، ورحتُ أصرخ طالبًا النجدة حتى بُحَّ صوتي. وسمعتُ كَرَدٍّ على صراخي، صيحةً عظيمةً تكررتْ ثلاث مرات، جعلتني أكاد أطير فرحًا وسرورًا لا يمكن أن يتصورهما إلا من شعر بمثلهما. وسمعتُ الآن خبط أقدام فوق رأسي، ومناداة شخص بصوت عال من خلال الفتحة وباللغة الانجليزية: إن كان أحد موجودًا تحتنا في الصندوق فليتكلم، وأجبتُ أنني انجليزي جَرَّهُ سوء الحظ إلى أكبر مصيبة عرفها أي مخلوق، وتوسلتُ، بقدر ما تمكنتُ من توسل مؤثر، أن يخلصوني من الزنزانة التي كنتُ فيها. وأجابني صاحب الصوت أنني في أمان، وأن صندوقي مربوط بسفينتهم، وأن النجار سيأتي على الفور وينشر في الغطاء فتحة تكفي لإخراجي. وأجبتُ أن ذلك ليس ضروريًا ويستغرق وقتًا كبيرًا، وأن كل ما عليهم أن يفعلوه هو أن يضع واحد من البحارة إصبعه في الحلقة ويخرج الصندوق من البحر ويضعه في السفينة، ثم يأخذه إلى كابينة القبطان. وحين سمعوني أتكلم بهذا الشكل غير المعقول ظن بعضهم أنني مجنون، وضحك الآخرون. وفي الحقيقة لم يخطر على بالي قط أني الآن بين أناس من حجمي وقوتي. وجاء النجار ونشر في بضع دقائق فتحة مربعة، طول ضلعها أربعة أقدام، ثم أَنْزلَ سُلّمًا صغيرًا صعدتُ عليه، ومن هناك حُمِلْتُ إلى السفينة وأنا في إعياء شديد.

ودهش البحارة غاية الدهشة وسألوني ألف سؤال لم أشعر برغبة في الإجابة عليها. فقد كنتُ مندهشًا بالقدر نفسه لدى رؤية هذا العدد الكبير من الأقزام. هكذا ظَنَنْتهم بعد أن كانت عينايَ قد تعودتا منذ فترة طويلة على رؤية تلك الأشياء الهائلة الحجم التي خَلَّفْتُها ورائي. لكن القبطان السيد توماسْ ويلْكوكْسْ، وهو إنسان طيب ومحترم من شْروبْشايَرْ، لاحظ أنني أكاد يُغْمى عليّ، فأخذني إلى كابينته، وسقاني شرابًا منعشًا ومهدئًا، وجعلني أنام على سريره ونصحني بأخذ قسطٍ من الراحة، وكنتُ بحاجة شديدة لها. وقبل أن أغفو أفهمتُه أن لديَّ في صندوقي بعض الأثاث الثمين الذي لا يجوز أن يضيع، من ذلك أرجوحة قوية وفراش سفر أنيق، وكرسيان وطاولة ودولاب، وأن جميع جوانب حجرتي مغطاة، وبالأحرى مُنَجَّدَة بالحرير والقطن، وأنه لو أمر واحدًا من بحارته بإحضار حجرتي إلى كابينته فسأفتحها أمامه وأريه أغراضي. وحين سمعني أتفوه بهذه السخافات تأكد القبطان أنني أهذي لكنه، لكي يُهَدِّئَني كما أظن، وعد أن يأمر بفِعْل ما طَلَبْتُه. ولدى خروجه إلى سطح السفينة أنزل بعض رجاله إلى داخل صندوقي، حيث أخرجوا (كما وجدتُ فيما بعد) كل أغراضي، ونزعوا التنجيد، أما الكرسيّان والدولاب والسرير التي كانت مثبتة في أرض الصندوق، فقد أتلفها جهل البحارة الذين نزعوها من مكانها بالقوة، ثم فَكّوا بعض الألواح الخشبية لاستعمال السفينة. وعندما أخذوا كل ما رغبوا فيه، تركوا هيكل الصندوق يسقط في البحر، وبسبب الشقوق والمزوق التي أصابت قعره وجوانبه فقد غاص بأكمله وغرق. وقد سرني أنني لم أشاهد ما أحدثوه فيه من عبث وتخريب، لأنني واثق أن ذلك كان سيحزنني كثيرًا، لأنه سيذكرني بأحداثٍ سابقةٍ أفضِّلُ أن أنساها.

ونمتُ بضع ساعات كانت تزعجني خلالها أحلام بالمكان الذي تركتُه والأخطار التي نجوتُ منها. على كل حال، عندما استيقظتُ وجدتُ أنني قد تحسنتُ كثيرًا. كانت الساعة الآن حوالي الثامنة مساء، وأمر القبطان على الفور بإحضار طعام العشاء، ظنًا منه أنني قد جُعْتُ طويلًا. وراح يؤانسني بلطف عظيم، ولاحظ أنني لم أَعُدْ أبدو مذهولًا ولم أعُدْ أتفوه بكلام غير معقول. وعندما أصبحنا وحدنا طلب مني أن أَقُصَّ عليه ما حدث لي في رحلاتي، وأن أوضح له ظروف وجودي هائمًا في البحر في ذلك الصندوق الخشبي القبيح. وقال إنه في حوالي الساعة الثانية عشرة ظُهْرًا بينما كان يتفحص الأفق بمنظاره، شاهد الصندوق من بعيد، وظنه مركبًا، فقرر الوصول إليه، لأن ذلك لن يبعده عن طريقه المرسوم، ولأنه كان يأمل أن يشتري منه بعض البسكوت، لأن البسكوت في سفينته كان قد بدأ يقل عن المطلوب. لكنه لدى الاقتراب من الصندوق واكتشاف خطأ ظنه، أرسل قاربه الطويل ليكشف ماهية الصندوق، فعاد إليه رجاله مذعورين، وأقسموا أنهم قد رأوا بيتًا عائمًا، فضحك من سخف أقوالهم وجاء بنفسه في القارب بعد أن أمر رجاله أن يحضروا معهم حبلاً متينًا. ولما كان الطقس هادئًا، فقد دار بقاربه حول الصندوق عدة مرات، ولاحظ ما فيه من نوافذ وما حول

النوافذ من شَبَكٍ من الأسلاك لحمايتها. ثم اكتشف الرزّتين المثبتتين في أحد الجوانب الذي كان يتألف كله من ألواح خشبية، وليس فيه ما يسمح بعبور النور. ثم أمر رجاله بالاقتراب بالقارب من ذلك الجانب، وربط حبلًا بإحدى الرزّتين، وأمر رجاله أن يقطروا الصندوق (كما أسماه) نحو السفينة. وحين وصلوا السفينة أعطى أمرًا برَبْط حبلٍ آخر بالحلقة المثبتة في غطاء الصندوق، ثم برَفْع الصندوق بواسطة بكرات، فلم يستطع البحارة رفعه أكثر من قدمين أو ثلاثة أقدام، وقال إنهم رأوا عصاي ومنديلي يخرجان من الفتحة الصغيرة، فاستنتجوا أن إنسانًا بائسًا محبوس في ذلك الجُحْر. وسألتُه إن كان هو أو البحارة قد رأوا طيورًا ضخمة في الجو حينما اكتشفني أول الأمر، فأجاب أنه ناقش هذا الموضوع مع البحارة أثناء نومي، وأن أحدهم قال، إنه كان قد لاحظ ثلاثة نسور طائرة باتجاه الشمال، لكنه لم يذكر شيئًا عن كونها أكبر من الحجم المألوف. وأظن أنه يمكن تعليل هذا بِعُلُوّها الشاهق أثناء طيرانها. ولم يفطن القبطان إلى سبب سؤالي هذا. ثم سألتُ القبطان كم يعتقد أننا بعيدون عن البرّ، فأجاب أنه طبقًا لأحسن تقديراته وحساباته، فإننا نبعد عن البر مائة فرسخ على الأقل. وأكدتُ له أنه لا بد قد أخطأ بمقدار النصف، لأنني قبل أن أسقط في البحر لم أكن قد قضيتُ أكثر من ساعتين بعد مغادرة البلاد التي جئتُ منها. وعند ذلك بدأ مرة ثانية يظن أن عقلي مشوش ولَمّح إلى ذلك، ونصحني أن أذهب للنوم في كابينة كان قد أعدها. وطمْأنْتُه أنني قد استرحتُ تمامًا بمؤانسته ورِفْقَته، وأن عقلي وتفكيري على أحسن ما كانا عليه في حياتي. وحينذاك أصبح جادًا، وطلب أن يسألني بكل صراحة إن كان تفكيري مضطربًا بسبب جريمة ارتكبتُها، وعاقبني عليها أمير أو حاكم ما بِوَضْعي في ذلك الصندوق وتعريضي للهلاك، ذلك أن عُتاة المجرمين في بلاد أخرى يُرْمَوْن في البحر في أوعية يتسرب إليها الماء ودون مؤونة. وقال، مع أنه يُؤْسِفه جدًا أن يكون مَنْ أنقذه وأدخله سفينته رجلًا شريرًا، إلا أنه يتعهد بشرفه أن ينزلني سالمًا إلى البحر في أول ميناء نصل إليه. وأضاف أن شكوكه قد زادت كثيرًا بسبب بعض الأقوال السخيفة التي قلتُها للبحارة في أول الأمر، ثم له بعد ذلك، بخصوص حجرتي أو صندوقي، وبسبب نظراتي وسلوكي الغريبين أثناء تناول العشاء.

ورجوتُه أن يتكرم عليَّ بالصبر حتى يستمع إلى قصتي التي رويتُها له بتفاصيلها منذ أن غادرتُ إنجلترا آخر مرة حتى اللحظة التي عثر عليَّ فيها. وبما أن الحقيقة تفرض نفسها وتشق طريقها إلى العقول المفكرة، فإن هذا السيد الطيب المحترم الذي يتمتع بشيء من العلم وبالكثير من الذكاء، اقتنع على الفور بصدقي وصحة كلامي. ولكن لكي أضاعف تأكيد صحة ما قلته، رجوتُه أن يأمر بإحضار خزانتي التي كنتُ أحتفظ بمفتاحها في جيبي (وكان قد سبق أن أخبرني كيف أغرق البحارة صندوقي). وفتحتُ الخزانة في حضوره وأريتُه مجموعتي الصغيرة من الأشياء النادرة التي حصلت عليها في البلاد التي نجوتُ منها بهذه الصورة الغريبة. كان من بينها المشط الذي صنعتُه من شعرات

لحية الملك، ومشط آخر من الشعرات نفسها، ولكنها هنا مثبتة في قلامة من ظفر إبهام الملكة، فأصبحتِ القلامة فيه هي ظهر المشط. وكان في المجموعة عدد من الإبَر والدبابيس تتراوح أطوالها بين قدم ونصف ياردة، وأربع زبانات للدبابير تشبه المسامير الصغيرة عند النجارين، وبعض الشعرات التي سَقَطتْ من شعر الملكة أثناء التمشيط، وخاتمًا ذهبيًا كانت الملكة قد أَهْدَتْهُ لي ذات يوم بطريقة لطيفة جدًا ـ إذْ خَلَعَتْه من بُنْصُرها ورَمَتْه فوق رأسي كالطوق. وقد رجوتُ القبطان أن يتكرم بقبول هذا الخاتم مقابل مكارمه وأفضاله، فرفض قبوله رفضًا مطلقًا. وأَرَيْتُه مسمارَ قدمٍ كنت قد قطعتُه بيدي من إصبع القدم الكبير لإحدى وصيفات الشرف، وكان بحجم تفاحة من تفاح كِنْتْ وأصبح صلبًا قاسيًا، بحيث أنني لّما عدتُ إلى إنجلترا، جَوَّفْتُه حتى صار قدحًا وغطيتُه بالفضة. وأخيرًا طلبتُ منه أن يتأمل البنطال الذي كان عليّ حينذاك، والمصنوع من جلد فأر.

ولم أفْلِح في جَعله يقبل شيئًا مني سوى سنّ أحد الخدم، فقد لاحظتُ أنه يتأمله بفضول كبير ووجدتُ أنه قد أُعْجِب به. وقد أخذه مني وهو يلهج بالجزيل من الشكر الذي لا يستحقه هذا الشيء التافه. كان هذا السنّ قد خلعه بالخطأ جراح أسنانٍ تنقصه المهارة، من واحد من خدم جْلَمْدالْ كْليتشْ كان يعاني من وجع الأسنان، ولكن السنَّ كان سليمًا كأيّ سنٍّ آخر في رأسه. وقد أَمَرْتُ بتنظيف هذا السنّ ثم احتفظتُ به في خزانتي. كان طوله قدمًا واحدًا وقطره أربع بوصات.

وقد رَضِيَ القبطان كل الرضا عن هذه القصة العادية التي رويتُها له، وقال إنه يأمل حين نعود إلى إنجلترا أن أتفضل على الدنيا بكتابتها على الورق ونشرها على الملأ. وكان جوابي أنني أعتقد أنه قد أصبح لدينا فائض من كُتُب الرحلات، وأنه لا شيء يحظى هذه الأيام بإقبال القراء، إن لم يكن غريبًا وخارقًا، وأنني أظن أن مؤلفي هذه الكتب الرائجة لا يهتمون بالصدق والحقيقة بقدر ما يهتمون بمصلحتهم وشهرتهم الخاصة أو بتسلية قُرَّاءٍ جَهَلَةٍ، وأن قصتي لا تحوي سوى أحداث عادية، وتخلو من تلك الأوصاف المنمّقة عن نباتات وأشجار وطيور وحيوانات أخرى غريبة أو عن عادات وعبادات وثنية لشعوب همجية ـ وهي أوصاف يُكْثِرُ منها معظم الكُتاب ـ على أية حال، شكرتُه على حسن ظنه، ووعدتُ أن أفكر في الأمر.

وقال إنه يعجب عجبًا كبيرًا من شيء واحد، وهو أن يسمعني أتكلم بصوت عال جدًا، وسأل إن كان ملك وملكة تلك البلاد ثقيلَيْ السمع، فأخبرته أن هذا الصوت العالي هو ما تعودتُه منذ أكثر من سنتين، وأنني أعجب مثل عجبه من صوته هو وأصوات رجاله، إذ يخيل لي أنهم يهمسون همسًا فقط، ومع ذلك فإني أسمعهم بوضوح. لكني حين كنتُ أتكلم في تلك البلاد، كنتُ كرجلٍ في الشارع يخاطب آخر يُطِلّ عليه من قمة برج كنيسة، إلا إذا كنتُ جالسًا فوق طاولة أو محمولًا في يد شخص. وأخبرتُه أنني لاحظتُ شيئًا آخر أيضًا، أنني حين دخلتُ سفينته لأول مرة وكان جميع

البحارة واقفين حولي، خُيِّل لي أنهم أصغر وأحقر مخلوقات شاهدتها في حياتي. والحقيقة، أنني حين كنتُ في بلاد ذلك الأمير، لم أكن أطيق أن أنظر في المرآة بعد أن تعودَتْ عيناي على رؤية أشياء ضخمة جدًا، لأن المقارنة كانت تعطيني فكرة حقيرة عن ذاتي. وقال القبطان إننا بينما كنا نتناول العشاء لاحظ أني أنظر إلى كل شيء بنوع من الدهشة والاستغرب، ولم يستطع أن يجد لذلك تفسيرًا سوى اعتباره نتيجة لشيء من اضطراب الفكر وتشويش الذهن. وأجبتُه أنه كان على صواب. فقد كنتُ عاجزًا عن منع نفسي من الاستغراب حين رأيتُ أطباق الطعام عنده بحجم قطعة نقدية فضية صغيرة، وأن فَخْذَ الخنزير لا تكفي لقمة واحدة، وأن قَدَحَ الشراب أصغر من قشرة اللوز، وبهذا الأسلوب تابعتُ وصف ما تبقى من أثاثه وموجودات منزله ومُؤَنِهِ. ومع أن الملكة كانت قد أمرتْ بصناعة كل الأغراض التي تلزمني بحجمٍ صغيرٍ حين كنتُ في خدمتها، إلا أن أفكاري كانت متعودة على ما أراه حولي أينما ذهبتُ، وكنتُ أتحاشى تذكُّر حجمي الصغير كما يتحاشى الإنسان تذكر عيوبه. وقد قابل القبطانُ دعاباتي هذه باستحسان، وأجاب ممازحًا بالَمثَل الانجليزي القديم قائلًا إنه يظنّ عيناي أكبر من معدتي، فهو لم يلاحظ أن شهيتي للأكل كانت مفتوحة، مع أنني لم آكل طيلة النهار. واستمرّ في مزاحه قائلًا إنه كان مستعدًا لدفع مائة بَاوْنْد مقابل أن يرى حجرتي وهي معلقة في منقار النسر، وبعد ذلك وهي تهوي من ذلك العلوّ الشاهق في البحر، لأنه من المؤكد أن هذه مشاهد مدهشة حقًا، وأنها تستحق أن توصف للأجيال القادمة وتُنْقَل إلى عصور المستقبل. ومن الواضح أنها تشبه قصة سقوط فَيْتُونْ[٧] ولهذا لم يستطع إلا أن يقارن قصة سقوطي بها. لكني لم تعجبني هذه الفكرة.

بعد أن مرّ بمدينة تونكين[٨] كان القبطان في طريق العودة إلى إنجلترا، مدفوعًا بريح شرقية شمالية إلى خط العرض ٤٤ وخط الطول ١٤٣، ولكنا قابلنا ريحًا تجارية بعد يومين من وصولي إلى السفينة، فأبحرنا جنوبًا لفترة طويلة. وبعد أن مررنا بسواحل نْيُوهولانْدْ (هولندا الجديدة) سِرْنا باتجاه الغرب والغرب الجنوبي، ثم باتجاه الجنوب والغرب الجنوبي حتى تجاوزنا رأس الرجاء الصالح. وكانت رحلتنا موفقة، لكني لن أثقل على القارئ بتفاصيلها. كان القبطان قد ألقى مرساته في ميناء أو اثنين، وأرسل القارب الطويل للتزود بالمؤن والماء، لكني لم أغادر السفينة قط إلى أن وصلنا إلى ميناء داونْزْ في الثالث من يونيو عام ١٧٠٦، بعد نجاتي من بلاد العمالقة بحوالي تسعة أشهر. عرضتُ على القبطان أن أُبْقِيَ أغراضي عنده كرهينة حتى أدفع له أجرة حَمْلي في سفينته، لكنه أصرّ أن لا يأخذ مني أية أجرة على الإطلاق. وودع كل منا الآخر بحرارة وتركتُه بعد أن جعلته يَعِدُ بزيارتي في بيتي في ريدريف، ثم استأجرتُ حصانًا ودليلًا مقابل خمسة شلنات اقترضتُها من القبطان.

وبينما كنتُ في الطريق، ولاحظتُ صغر حجم البيوت والأشجار والماشية والناس، بدأتُ أظن نفسي في ليليبوت، وخفتُ أن أدوس على كل مسافر أقابله، وكثيرًا ما صرختُ عليهم طالبًا منهم أن

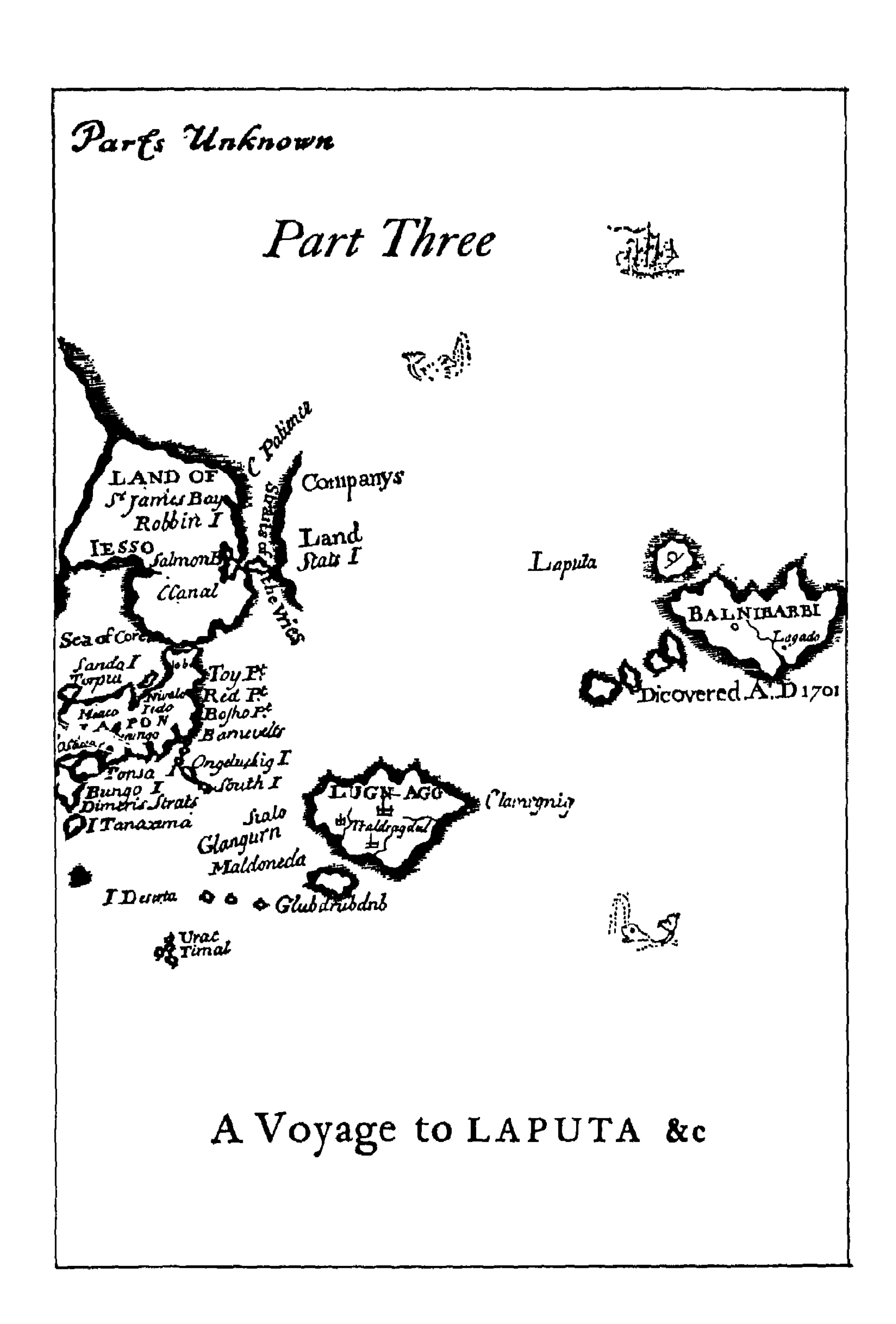
يُخْلوا الطريق لي، وكان من المحتمل أن أصابَ بضربة أو اثنتين على رأسي لقاء وقاحتي.

وحين وصلتُ إلى بيتي الذي اضطررتُ أن أسأل عنه، وفتح أحد الخدم الباب، انحنيتُ لكي أستطيع الدخول (مثل الإوزة حين تدخل من تحت بوابة) ظنًّا مني أن رأسي سيصطدم بسقف الباب. وجاءت زوجتي تركض لكي تحتضنني وتُقَبِّلني، فانحنيتُ حتى دون ركبتيها ظنًّا مني أنها بغير ذلك لن تستطيع الوصول إلى فمي. وركعَتْ ابنتي أمامي لكي أباركها، فلم أستطع أن أراها حتى نَهَضَتْ، ذلك أنني تعودتُ لفترة طوية أن أقف ورأسي وعيناي شاخصتان للأعلى لمسافة أكثر من ستين قدمًا. وحين نهضَتِ ابنتي، حاولتُ أن أحملها بيد واحدة من وسطها. ونظرتُ إلى الخدم وإلى صديقٍ أو اثنين كانا في المنزل من علٍ، وكأنهم أقزام وأنا عملاق. وقلتُ لزوجتي إنها كانت تُقَتِّر تقتيرًا شديدًا حتى جَوَّعَتْ نفسها وجَوَّعَتْ ابنتها حتى نَحَل جسداهما. وباختصار كان سلوكي غريبًا وعجيبًا لدرجة أنهم جميعًا كانوا من رأي القبطان حين رآني وسمعني أول مرة، واعتقدوا أنني فقدتُ عقلي. إنني أذكر هذا كمثال على قوة تأثير العادة والتربية.

بعد فترة وجيزة توصلنا أنا وأفراد عائلتي والأصدقاء، إلى فهم بعضنا فهمًا سليمًا وصحيحًا. وقالت زوجتي إنها لن تسمح لي بعد ذلك بركوب البحر. لكن قَدَري المنكود كان قد كتب لي السفر وما كان في مقدورها أن تمنع ذلك كما سيعرف القارئ فيما بعد. وهنا أختم الجزء الثاني من رحلاتي التعيسة.

الجزء الثالث

رحلة إلى لابوتا[1]، وَبالْنِبيَارْبي، ولوجْنَاجْ، وجْلوبْ دُوبْ دْرِبْ، واليابان.


Parts Unknown
Part Three
LAND OF
St James Bay
Robbin I
IESSO
Salmon B
Canal
Companys
Land
Stats I
Straits of the Vries
Sea of Corea
Sanda I
Toy Pt
Red Pt
Bosho Pt
Banuvelt
Tonsa I
South I
Bungo I
I Tanaxama
Glanguen
Maldoneda
Glubdrubdrib
LUGGNAGG
Clumegnig
Laputa
BALNIBARBI
Lagado
Dicovered A.D 1701
A Voyage to LAPUTA &c

الفصل الأول

المؤلف يشرع في رحلته الثالثة. يأسره القراصنة. حِقْد أحد الهولنديين. وصوله إلى جزيرة. استقباله في لابوتا.

قبل أن تنقضي عشرة أيام من إقامتي مع أسرتي، زارني القبطان وِلْيَمْ روبِنْسون، وهو من كورْنْوولْ، وقائد سفينة اسمها هوبْ وِلْ[٢]، وهي سفينة قوية، حمولتها ثلاثمائة طن. كنتُ سابقًا جراحًا في سفينة أخرى كان هو قائدها ومالكًا لِرُبْعها، وذلك في رحلة قمنا بها معًا إلى بلاد المشرق. وكان دائمًا يعاملني كأخ له أكثر مما يعاملني كضابط تحت إمرته. حين سمع بوصولي تكرَّم بزيارتي بدافع الصداقة فقط كما فهمتُ، لأننا لم نتطرق في حديثنا إلا إلى ما هو عادي بين صديقين افترقا طويلًا. ولكن بعد أن تكررتْ زياراته، وعبَّر عن سروره لأنه وجدني بصحة جيدة، سأل إن كنتُ أزمع الاستقرار الآن وحتى بقية عمري، وأضاف أنه ينوي القيام برحلة إلى جزر الهند الشرقية بعد شهرين، وكشف عن هدفه بوضوح، ودعاني بشيء من الاعتذار أن أكون الجراح الرئيسي في السفينة. قال إنه سيكون تحت إمْرتي جراح آخر بالإضافة إلى مساعِدَيْن، وإن راتبي سيكون ضعف الراتب العادي، وإنه بعد أن خَبَرَ معرفتي بشؤون البحر ووجد أنها لا تقلّ عن معرفته، يتعهد أن يتبع مشورتي وكأنني شريك في قيادة السفينة.

قال أشياء لطيفة كثيرة أخرى. وكنت أعلم أنه إنسان شريف وأمين، فلم أستطع أن أرفض ما عَرَضَه عليّ. وكانت لهفتي على رؤية العالم رغم مصائبي السابقة، عنيفة كما كانت دائمًا[٣]. العقبة الوحيدة التي بقيت أمامي هي أن أقنع زوجتي. وقد حصلتُ آخر الأمر على موافقتها بعد أن صورتُ لها الفوائد الكبيرة التي ستعود على أبنائها.

بدأنا الرحلة في اليوم الخامس من أغسطس ١٧٠٦ ووصلنا إلى قلعة سانْ جورج[٤] في اليوم الحادي عشر من ابريل ١٧٠٧، ومكثنا فيها ثلاثة أسابيع حتى تتحسن صحة البحارة الذين كان الكثيرون منهم قد أصيبوا بالمرض. من هناك ذهبنا إلى تونْكينْ حيث قرر القبطان أن يبقى بعض الوقت، لأن كثيرًا من البضائع التي كان ينوي شراءها لم تكن جاهزة، ولم يتوقع أنه يحصل عليها قبل بضعة أشهر. لهذا، وعلى أمل أن يغطي بعض نفقات إقامتنا، اشترى مركبًا شراعيًا صغيرًا (من

نوع وحيد الصاري)، وملأه بأنواع عديدة من البضائع التي يتاجر بها أهل **تونْكينْ** مع **أهالي** الجزر المجاورة، ووضع فيه أربعة عشر بحارًا، ثلاثة منهم من أبناء تلك البلاد، وعَيَّنني **قائـدًا** للمركب وفوّضني أن أتاجر كما أرى مناسبًا، بينما يتابع هو مصالحنا في **تونكين**.

لم نُبْحر أكثر من ثلاثة أيام حتى هبت عاصفة قويـة وساقتنـا طيلة خمسة أيـام إلى الشمال والشرق ـ الشمالي، ثم إلى الشرق. بعد ذلك أصبح الجوّلطيفًا، لكن كانت لا تزال هناك ريح قوية بعض الشيء آتية من الغرب. في اليوم العاشر طارَدَتْنا سفينتان من سفن القراصنة، وسرعان مـا لحِقَتْ بنا لأن مركبي كان ثقيل الحمل ويسير سيرًا بطيئًا، ولم نكن في وضع يتيح لنا أن ندافع عن أنفسنا.

داهَمَتْنا السفينتان في وقت واحد وانقضّ رجالهما علينا، يتقدمهم زعيماهم، انقضاض العاصفة الهوجاء. لكنهم وجدونا جميعًا منبطحين على وجوهنا (وهذا ما أمرتُ رجالي به). فقيَّدونا بحبالٍ متينة ووضعوا حَرَسًا علينا وانطلقوا يفتشون المركب.

لاحظتُ وجود رجل هولندي بينهم. كان يبدو ذا نفوذ، لكنه لم يكن قائدًا لأيّ من السفينتين. عرف هو من سِحْناتنا أننا إنجليز، فراح يَرْطُنُ معنا بلغته، وأقسم أننا سنُرْبَط ظهرًا لِظَهْر ثم يُلْقى بنا في البحر. كنت أعرف اللغة الهولندية معرفة لا بأس بها، فأخبرته مَن نكون، وتوسلتُ إليه باسم الدين المسيحي البروتستانتي الذي يجمعنا الإيمان به، وبِكَوْننا من بلدين متجاورَيْن ومتحالفَيْن(٥)، أن يُؤَثِّر على القبطانَيْن لكي يُشفقا علينا ويَرْفُقا بنا. لكن تَوَسُّلاتي أَلْهَبَتْ غضبه، فكـرر تهديـداته والتفتَ إلى رفاقه، وراح يتكلم بعصبية وعنف شديدين، باللغة اليابـانية حسبـما أظنّ، وأكثر من استعمال كلمة «كريستيانوس» [أي مسيحيون].

الكبرى من سفينتَيْ القراصنة كانت بقيادة قبطان ياباني يعرف اللغة الهولندية معرفة بسيطة، ويتكلمها بشكل غير سليم. جاء هذا القبطان إليّ، وبعـد أن سألني عـدة أسئلة وأَجَبْتُ عليها بتواضع عظيم، قال إننا لن نُقْتَل. وشكرتُه بانحناءة كبيرة، ثم التفتُّ إلى الهولندي وقلتُ إنني أتأسف إذْ أجد في شخص كافر رحمة أكبر من التي وجدتها في أخ مسيحي. لكني سرعان ما نَدِمْتُ على هذه الكلمات الحمقاء، لأن ذلك الرَّفَضِيّ الحقود، بعد أن فشلتْ محاولاته الكثيرة لإقناع القبطانَيْن برَمْيي في البحر (ذلك أنهما رفضا أن يسمعا له بعد الوعد الذي أُعْطِي لي بأننا لن نُقْتَل)، استطاع أن يؤثر عليهما ويجعلهما يعاقبانيَ بما هو في نظر البشر أقسى من الموت نفسه. أما رجالي فقد قُسِموا بالتساوي وأُرْسِلوا أسرى إلى السفينتين، وأما المركب فقد جهزوه ببحارة من عندهم. أما بالنسبة لي فقد تقرر أن أوضع في زورق صغير بمجدافين وشراع ومؤونة أربعة أيام، ضاعفها القبطان الياباني من مخازنه الخاصة كرَمًا منه وعطفًا، ومنع أي شخص من تفتيشي، كما تقرر أن يتركوني هكذا لرحمة البحر

والرياح. وحين وضعوني في القارب، وقف الهولندي على سطح المركب وراح يصب عليَّ كل ما في لُغَتِه من لعنات وشتائم بذيئة.

قبل ساعة من رؤيتنا للقراصنة كنتُ قد رَصَدْتُ موقِعنا، فوجدتُ أننا في خط العرض ٤٦ شمالًا وخط الطول ١٨٣[٦]. وحين ابتعدتُ عن القراصنة اكتشفتُ بمنظاري عدة جزر في الجنوب الشرقي. نصبتُ شراعي، وكانت الريح مواتية، وعزمتُ أن أصل إلى أقرب تلك الجزر، وهذا ما استطعتُ تحقيقه في حوالي ثلاث ساعات. كانت الجزيرة صخرية كلها. على كل حال، عثرتُ على الكثير من بيض الطيور، فأشعلتُ نارًا ورميتُ فوقها بعض الأعشاب البرية والأعشاب البحرية الجافّة وشويتُ فيها بعض البيض، وكان هذا كل عشائي، إذ كنتُ قد قررتُ أن أوفر مؤونتي أطول مدة ممكنة. وقضيتُ الليل ملتجئًا بصخرة بعد أن فرشتُ تحتي بعض العشب ونمتُ نومًا مريحًا نسبيًا.

في اليوم التالي أبحرتُ إلى جزيرة ثانية ومن ثمَّ إلى ثالثة ورابعة. وكنتُ أستعمل الشراع أحيانًا والمجدافين أحيانًا أخرى. ولكيلا أُثْقِلَ على القارئ بتقرير مفصل عن متاعبي وهمومي، يكفي أن أقول إنني في اليوم الخامس وصلتُ إلى آخر جزيرة وقع عليها بصري، وكانت إلى الجنوب والجنوب الشرقي من الجزيرة السابقة.

وكانت هذه الجزيرة أبعد مما توقعتُ، ولم أَصِلْ إليها في أقل من خمس ساعات. وقد دُرْتُ حولها كلها تقريبًا قبل أن أعثر على مكان مناسب أرسو فيه، وكان هذا خليجًا صغيرًا عَرْضه ثلاثة أضعاف عرض زورقي. وقد وجدتُ الجزيرة كلها صخرية جَرْداء إلّا من بعض الأعشاب ذات الرائحة الزكية. أخرجتُ مؤونتي القليلة، وبعد أن تناولتُ منها ما يسُدّ رمقي، خبأتُ ما تبقى في أحد الكهوف الموجودة بكثرة هناك. وجمعتُ الكثير من البيض الموجود بين الصخور، وكوَّمْتُ بعض الأعشاب البحرية الجافة وبعض العشب الجاف، بقصد أن أشعل النار فيها في اليوم التالي وأشوي فيها بعض البيض بقدر ما أستطيع (وقد كان معي حَجَر قَدْحٍ وقطعة فولاذ وكبريت وزجاجة مُحَدَّبة لإشعال نار). ونِمْتُ طيلة الليل في الكهف الذي وضعتُ فيه مؤونتي، وكان فراشي كومة القش نفسها التي جمعتُها لأجعل منها وقودًا. ولم أَنَم كثيرًا لأن انشغال فكري وقلقي النفسي تغلبا على شعوري بالتعب والإرهاق وأبقياني مستيقظًا. فكرتُ باستحالة المحافظة على حياتي في مكان مُقْفِرٍ كهذا، وبالنهاية التعيسة التي لا بُدَّ أن أَصِلَ إليها. ووجدتُ نفسي أعاني من قلق نفسيّ ويائس، جَعلاَني لا أرغب في النهوض. وقبل أن أتمكن من رفع معنوياتي وأزحف خارج كهفي، كان النهار قد طلع منذ مدة. وسِرْتُ فترة بين الصخور، وكانت السماء صافية تمامًا، والشمس حارة لدرجة أنني اضطررتُ لإدارة وجهي عنها. ثم فجأة احتجَبَتِ الشمس بطريقة مختلفة، كما أحسستُ، عَمَّا يحدث

عندما تعترضها غيمة. التفتُّ إلى الوراء فرأيتُ جسمًا[٧] ضخمًا كامِدًا ومُعْتِمًا بيني وبين الشمس يتحرك للأمام نحو الجزيرة. وبدا أن ارتفاع الجسم يبلغ ميلين تقريبًا. وقد حجب عنّي الشمس لمدّة ست أو سبع دقائق، لكني لم ألاحظ أن الهواء قد ابترد أو أن السماء قد أَعْتَمَتْ أكثر ما يحصل حين أقِفُ في ظلّ جبل. وحين اقترب هذا الجسم فوق المكان الذي كنتُ فيه، تبيّن أنه يتألف من مادة صلبة، وله قعر مستوٍ أملس وشديد اللمعان[٨] بسبب انعكاس البحر من تحته. كنتُ واقفًا على مرتفع يبعد حوالي مائتي ياردة من الشاطئ، ورأيتُ هذا الجسم ينزل حتى كاد يصبح موازيًا لي على بعدٍ لا يزيد عن ميلٍ إنجليزي. أخرجتُ منظاري ونظرتُ فيه، واكتشفتُ بوضوح عددًا من الناس يصعدون أو يهبطون على جوانب الجسم التي اتضح أنها مائلة. لكني لم أستطع أن أميز ما كان يفعله أولئك القوم.

حُبُّ الحياة الطبيعي حَرَّك في داخلي مشاعر الفرح، وبرز لديَّ أمل بأن هذا الحادث العَرَضي قد يساعد بطريقة أو بأخرى على تخليصي من المكان والوضع البائسين اللذين كنتُ فيهما. لكن في الوقت نفسه قد لا يستطيع القارئ أن يتصور دهشتي لدى مشاهدة جزيرةٍ في الجو، يسكنها بَشَر قادرون، كما يبدو، على رَفْعِها وإنزالها وتحريكها للأمام كما يشاءون[٩]. لكني لم أكن في ذلك الوقت ميالًا إلى التفلسف بخصوص هذه الظاهرة، واخترتُ بدلًا من ذلك أن ألاحظ خطّ السير الذي ستسير فيه، لأنها بَدَتْ لي واقفة ساكنة بعض الوقت. ومع ذلك فإنها سرعان ما تقدمتْ وأصبحتْ أكثر قربًا مني، واستطعتُ أن أرى جوانبها محاطة بعِدّة طبقات من الأروقة والسلالم الموزعة على مسافات معينة لكي تُسْتَعْمَل في النزول والصعود من طبقة لأخرى. وشاهدتُ في الرواق السفلي بعض الناس يصطادون السمك بعِصيّ صَيْدٍ طويلة وآخرين يتفرجون. لوَّحتُ بقلنسوتي (ذلك أن قبعتي كانت قد بَلِيَتْ منذ مدة طويلة) وبمنديلي نحو هذه الجزيرة، وعندما اقتربَتْ أكثر ناديتُ وصرختُ بأعلى صوتي. ثم نظرتُ بحذر واحتراس، فشاهدتُ جمهورًا يتجمع على الجهة التي كانت واضحة أمام بصري. واكتشفتُ من إشاراتهم نحوي وإلى بعضهم بعضًا، أنه من الواضح أنهم اكتشفوني رغم أنهم لم يردّوا أبدًا على صراخي. لكني رأيتُ أربعة أو خمسة منهم يصعدون السلالم بسرعة كبيرة نحو قمة الجزيرة ثم يختفون. وقد خَمَّنْتُ، وكان تخميني صائبًا، أنهم أُرْسِلوا ليُطْلِعوا شخصًا مسؤولًا وذَا سلطة على ما حصل، وليأخذوا تعليماته بهذا الخصوص.

وتزايد الناس. وفي أقلّ من نصف ساعة حُرِّكَت الجزيرة ورُفِعَتْ، بحيث صار الرواق السفلي في خَطّ موازٍ لمسافة تقل عن مائة ياردة عن المرتفع الذي كنتُ أقف عليه. حينذاك اتخذتُ وَضْعَ المستعْطِف، وتكلمتُ بلهجة المتوسل والرجاء، ولكني لم أتلَقَّ ردًّا. الأشخاصُ الواقفون أقرب ما يكون مني بَدَوْا، كما افترضتُ من ملابسهم، أشخاصًا مُهمّين. كانوا يتشاورون بشكل جادّ فيما بينهم،

وأثناء تشاورهم كانوا كثيرًا ما ينظرون إليّ. وأخيرًا نادى أحدهم بلهجة واضحة مهذبة وناعمة لا يختلف الصوتُ فيها كثيرًا عن **الإيطالية**، ولهذا أَجَبْتُهم بتلك اللغة راجيًا، على الأقل، أن يروق إيقاع الكلام وتنغيمه لآذانهم. ومع أنه لم يفهم أي منّا الآخر، إلا أن مقصدي كان واضحًا، فقد أدرك القوم المحنة التي كنتُ فيها.

وطلبوا مني بالإشارات أن أنزل عن الصخرة وأذهب إلى الشاطئ، ففَعَلْتُ ما أُمِرْتُ به. ثم رُفِعَتِ الجزيرة الطائرة إلى عُلُوّ مناسب حتى أصبحتْ حافَتها فوقي، ودُلِّيَتْ سلسلة من الـرواق السفلي مثبت بأسفلها مقعد. رَبَطْتُ نفسي في المقعد ثم سُحِبْتُ للأعلى بواسطة بَكَرات.

الفصل الثاني

وصف للأطوار الغريبة والتصرفات العجيبة لأهْل لابوتا. تقرير عن علومهم، وعن الملك وحاشيته. استقبال المؤلف هناك. السكان يعانون من المخاوف وحالات القلق. وصْف للنساء.

عندما نزلتُ أحاط بيَ جمهور من الناس، وأقربهم مني كانوا كما يبدو أعلاهم منزلة. وكانوا ينظرون إليّ وعليهم كل علامات الدهشة والاستغراب. وفي الحقيقة لم أكن أقل منهم دهشة واستغرابًا، لأنني لم أرَ حتى تلك اللحظة جِنْسًا من البشر في غرابة أشكالهم وملابسهم وسِحَنهم[١]. كانت رؤوسهم جميعًا مائلة إما إلى اليمين أو إلى اليسار، وإحدى عيونهم موجهة للداخل والأخرى شاخصة إلى قبة السماء[٢]، وملابسهم الخارجية مزينة بأشكال شموس وأقمار ونجوم منسوجة ومتداخلة مع أشكال كمنجات، و(فلوتات)، وقيثارات، وأبواق، وجيتارات، وآلات موسيقية أخرى كثيرة غير معروفة في أوروبا. ولاحظتُ هنا وهناك كثيرين في ملابس خدم، يحمل كل منهم في يده عصا قصيرة مثبت في طرفها كيس منفوخ كأنه مِضْرَب، وفي الكيس حَبّات حُمُصٍ جافة أو حصوات صغيرة (كما قيل لي فيما بعد). وكانوا من حين لآخر يمسحون أو يلمسون بهذه الأكياس أفواه وآذان أولئك الواقفين بالقرب منهم. لكني لم أستطع أن أتصور معنى هذا العمل. ويبدو أن عقول هؤلاء القوم مستغرقة استغراقًا شديدًا في التفكيروالتأملات، لدرجة أنهم لا يستطيعون أن يتكلموا أو يصغوا لأحاديث الآخرين إلا إذا نُبِّهوا لذلك عن طريق لمسةٍ من شيء خارجي على أعضاء النطق والسمع لديهم. ولهذا السبب، فإن الموسرين منهم يحتفظون في بيوتهم بموظف اسمه **المسَّاح أو اللمّاس** [الاسم الأصلي هو كْليمينولْ]، كواحدٍ من خَدَمِهِمْ، ولا يخرجون من بيوتهم أو يقومون بزياراتهم دون أن يكون معهم. وعَمَلُ هذا الموظف هو أنه حين يجتمع شخصان أو ثلاثة أشخاص، فإنه بالكيس الذي معه يلمس برفق فمَ مَن يأتي دَوْره في الكلام، والأذن اليمنى للشخص الموجَّه إليه الكلام. كذلك فإن هذا **اللمّاس** يرافق سيده في مشاويره لكي يلمسه برفق على عينيه كلما دَعَتْ الضرورة لذلك، لأن السيد يكون مستغرقًا دائمًا في التفكير[٣] بحيث يكون معرضًا لخطر السقوط في كل حفرة أو لِصَدْم رأسه بكل عَمود، وفي الشارع يتعرض للاصطدام بالآخرين أو لاصطدام الآخرين به أو لوقوعه في بالوعة مجاري.

لقد كان من الضروري أن أقدّم للقارئ هذه المعلومات، لأنه إذا جَهلها سيعجز، كما عجزتُ، عن فهم إجراءات هؤلاء القوم حين صعدوا معي السلالم إلى قمة الجزيرة، ومن هناك إلى القصر الملكي. وبينما كنّا صاعدين، نَسُوا عدة مرات ما هم بِصَدده حتى نُبِّهَتْ ذاكراتهم بواسطة لَماسيهم، لأنهم بَدَوْا غير متأثرين البتة بملابسي ووجهي الغريبين، أو بصياح العامة والسوقة الذين كانت أفكارهم وعقولهم أكثر تحررًا.

وأخيرًا دخلنا القصر وتقدمنا إلى قاعة العرش، حيث رأيتُ الملك جالسًا على عرشه، وحوله من كل جانب أشخاص ذَوُو منزلة عالية. وأمام العرش كانت توجد طاولة كبيرة عليها كُرات جغرافية وكرات سماوية فلكية ترمز للكواكب والنجوم والمجرّات، وأدوات هندسية من كل الأنواع[٤]. ولم يُبْدِ جلالته أي اهتمام بنا، رغم أن دخولنا لم يكن دون ضجة كافية صادرة عن احتشاد كل من يعملون في القصر. لكنه كان حينذاك مستغرقًا في مشكلة، وانتظرنا ما لا يقلّ عن ساعة قبل أن يستطيع حَلّها. كان يقف على كل جانب من جانبيه فتى يافع في يده **جهاز اللمس**، وحين رأوا أنه قد فرغ من حلّ مشكلته لَمس أحدهما فمه برفق، ولمس الثاني أذنه اليمنى، وحينذاك أجفل كَمَنْ أوقظ فجأة، وحين نظر باتجاهي وباتجاه المجموعة التي كنتُ فيها، تذكر سبب مجيئنا الذي كان قد ذُكِرَ له من قبل، ونطق ببعض الكلمات، وعلى الفور جاء إلى جانبي شاب يحمل **جهاز** لمس، ولمسني برفق على أذني اليمنى، لكني أوضحتُ لهم بالإشارة أنني لستُ بحاجة إلى هذا الجهاز. وقد اكتشفتُ فيما بعد أن ما فعلتُه أعطى جلالته وكل حاشيته انطباعًا سيئًا جدًا عن ذكائي وقدراتي العقلية. وبقدر ما استطعت أن أُخَمِّن، سألني الملك عدة أسئلة وأجبتُه بكل اللغات التي أعرفها، وحين وُجِد أنني لا أَفْهم ولا أُفَهِّمْ، اقتادوني حسب أمره إلى جناح في قصره (كان هذا الأمير متميزًا عن كل أسلافه بكرم ضيافته للغرباء)[٥]، حيثُ عُيِّن خادمان للسهر على راحتي. وأُحْضِر طعام العشاء، وجاء أربعة أشخاص ذوي منزلة رفيعة، وأذكر أني رأيتهم قريبين جدًا من شخص الملك، وأكرموني بتناول العشاء معي. وتناولنا وجبتين، في كل واحدة منهما ثلاثة أطباق. كان في الوجبة الأولى كتف خروف مقطوع على شكل مثلث معقوف الأطراف، وقطعة من لحم البقر على شكل معيَّن، وفطيرة على شكل دائرة. أما الوجبة الثانية فكان فيها بطّتان مربوطتان على شكل كَمَنْجة، ونقانق وفطائر تشبه الفلوتات والمزامير، وصدْرُ عِجْلٍ على شكل قيثارة. أما الخبز فقد قطَّعه الخدم إلى أكواز مخروطية، وأسطوانات، ومتوازيات أضلاع، وعدة أشكال هندسية أخرى.

وتجرأتُ خلال تناول العشاء فسألتُ عن أسماء أشياء عديدة بلُغتهم، وسَعِدَ أولئك الأشخاص النبلاء بإعطائي الأجوبة، بمساعدة لَماسيهم، آملين أن يزيدوا إعجابي بقدراتهم العظيمة لو أمكن أن أتحدث معهم. بعد فترة وجيزة كنتُ أستطيع أن أطلب خبزًا وشرابًا، أو أيّ شيء آخر أحتاجُه.

بعد العشاء انسحب ضيوفي. وأُرْسِل إليّ شخص بأمر الملك وبرفقته لماس. أحضر معه قلمًا وحبرًا وورقًا وثلاثة أو أربعة كتب، وأفهمني بالإشارات أنه أُرْسِلَ ليعلمني اللغة. وجلستُ معه أربع ساعات كتبتُ خلالها عددًا كبيرًا من الكلمات عاموديًا وكتبتُ تَرْجَمَتها أمامها. كذلك استطعتُ أن أتعلم عدة جُمَل قصيرة. فقد كان معلمي يأمر واحدًا من الخدم أن يحضر شيئًا، أو أن يدور حول نفسه أو أن ينحني أو يجلس أو يقف أو يمشي وما إلى ذلك. وكنتُ أدوّن الجُمَل كتابة. وفتح أحد كتبه وأراني أشكال الشمس والقمر والنجوم ودائرة البروج، والمدارَيْن، والدائرتين القطبيتين مع أسماء كثير من الأشكال المستوية والجامدات. ثم أعطاني أسماء وأوصاف كل الآلات الموسيقية والتعبيرات الفنية للعزف على كل منها. وبعد أن تركني، رتَّبْتُ كل الكلمات وتفسيراتها ترتيبًا أبجديًا. وهكذا استطعتُ في بضعة أيام، وبمساعدة ذاكرةٍ لا تخذلني، أن أتوصل إلى بعض الفَهْمِ للُغَتِهِم.

الكلمة التي معناها **الجزيرة الطائرة أو الطافية**[٦] هي في لغتهم **لابوتا**، وهي كلمة لم أستطع قط أن أتعرف على أصلها واشتقاقها. فالمقطع **لاب** في لغتهم القديمة البائدة تعني **عالي**، **وأونتو** تعني حاكم، ومنهما معًا، وبواسطة التحريف الذي يحدث في النطق اشتُقَّت **لابوتا** من **لابونتو**. لكني لم أستصوب هذا الاشتقاق الذي يبدو أن فيه شيئًا من الالتواء، واقترحتُ على المتعلمين بينهم اشتقاقًا من حَدْسي أنا وهو أن **لابوتا** أصلها **كواسي لاب أوْتِدْ**، إذ أن معنى **لاب** الصحيح هو تراقص أشعة الشمس في البحر، **وأوْتِدْ** تعني جناح. لكني على أية حال لا أريد أن أتطفل وأفرض رأيي، وأترك الموضوع للقارئ الحصيف.

أولئك الذين وضعني الملك تحت رعايتهم لاحظوا أن ملابسي غيرمناسبة، فأمروا خياطًا أن يحضر في الصباح التالي لكي يأخذ مقاساتي ويخيط لي بدلة. وقام هذا الخياط بعمله بطريقة تختلف عن طريقة أبناء مهنته في أوروبا، أولًا قاس طولي برُبعية، ثم أخذ أبعاد جسدي كله ومحيطاته بشريط للقياس وفرجار، وسجل هذا كله على ورق، وبعد ستة أيام أحضر لي ملابس سيئة التفصيل والخياطة وغير مناسبة لجسمي، لأنه أخطأ في أحد أرقام قياساته[٧]، لكن عزائي كان أنني لاحظتُ أن مثل هذا الخطأ متكرر كثيرًا وقلما يؤبه له.

وخلال بقائي في المنزل لعدم وجود ملابس، وبسبب وعكة أَبْقَتْني في المنزل أيامًا أخرى، وسَّعتُ قاموسي كثيرًا. وفي المرة التالية التي ذهبتُ فيها إلى القصر استطعتُ أن أفهم الكثير مما قاله الملك وأن أقدم بعض الأجوبة. كان جلالته قد أصدر أوامر بتسيير الجزيرة إلى الشرق الشمالي والشرق، حتى تقف في نقطة عامودية فوق **لاجادو**[٨]، عاصمة المملكة كلها على الأرض الثابتة، كانت العاصمة تبعد حوالي تسعين فرسخًا، واستغرقتْ رحلتنا أربعة أيام ونصف، لكني لم أشعر

أبدًا أن الجزيرة تتحرك إلى الأمام وهي في الجو. في الصباح الثاني وفي حوالي الساعة الحادية عشرة كان الملك شخصيًا، يرافقه النبلاء وأفراد حاشيته وموظفوه، قد أعدُّوا كل آلاتهم الموسيقية[٩] وراحوا يعزفون عليها لمدة ثلاث ساعات دون انقطاع ودون فترة راحة. وقد دوَّخني الضجيج تمامًا ولم أستطع أن أفهم القصد من هذا العمل حتى أعلمني به معلمي. قال إن أهل الجزيرة قد هيأوا آذانهم لسماع موسيقى النجوم[١٠] التي تعزف دائمًا في فترات معينة، وإن القصر قد أصبح الآن مستعدًا ليلعب كل مَن فيه دوره بالآلة التي يتقن العزف عليها.

أثناء رحلتنا إلى لاجادو العاصمة، أمر جلالته بإيقاف الجزيرة فوق بعض البلدان والقرى لكي يستلم من رعاياه فيها طلباتهم والتماساتهم. من أجل هذا كانت تُدَلّى خيوط عديدة من القنب[١١] مربوط في أسفلها أثقال صغيرة، وكان الناس يعلقون طلباتهم والتماساتهم على هذه الخيوط، فتصعد في الحال مثل قصاصات الورق التي يعلقها أبناء المدارس في طرف الخيط الذي يحمل طائراتهم الورقية. وفي بعض الأحيان كان يصلنا من الاسفل نبيذ ومأكولات فتُسْحب للأعلى بواسطة بكرات.

معرفتي بالهندسة والرياضيات ساعدتني كثيرًا في اكتساب عباراتهم التي كانت تعتمد كثيرًا على ذلك العلم وعلى الموسيقى، ولم أكن غير ماهرٍ في الموسيقى. وهم باستمرار يعبرون عن أفكارهم بالخطوط والأشكال، فإن رغبوا مثلًا في مدح جمال امرأة، أو أي حيوان آخر، فإنهم يصفونه بالعين، أو الدائرة، أو متوازي الأضلاع، أو القطع الناقص، أو أية لفظة هندسية، أو يصفونه بكلمات فنية في الموسيقى، ولا حاجة لتكرارها هنا. وقد لاحظتُ أن في مطبخ الملك كل أنواع الأدوات الموسيقية والهندسية ويقوم الطهاة بتقطيع الطعام الذي يقدَّم على مائدة الملك حسب أشكالها.

بيوتهم مبنية بناء سيئًا، والجدران مائلة وليس بينها زوايا قائمة في أي جناح، وهذا العيب ناجم عن احتقارهم للهندسة التطبيقية التي يعتبرونها علمًا ميكانيكيًا سوقيًا، وعن كون التعليمات التي يعطونها أعلى من مستوى القدرات العقلية للعمال، فينجم عن هذا أخطاء دائمة. ومع أن هؤلاء القوم بارعون على الورق وفي استعمال المسطرة وقلم الرصاص وفرجار التقسيم، إلا أنهم في الأعمال العادية وفي تصريف شؤون الحياة، أكثر الناس بُعْدًا عن الإتقان، وأكثرهم ارتباكًا وأقلهم حيلة. كذلك فإنهم أكثر الناس بُطْئًا وحيرة في تفهم كل شؤون الحياة باستثناء علوم الرياضة والموسيقى. وهم سيئون في النقاش ومقارعة الحجّة بالحجّة، ومحبون للمعارضة والاختلاف في الرأي، خصوصًا حين يصدف أن يكونوا على حق، وهذا أمر نادر الوقوع. كذلك فإن الخيال والذوق الرفيع والاختراع أشياء غريبة عليهم تمامًا، وليس في لغتهم كلمات تعبِّر عن هذه المفاهيم. إن دائرة عقولهم

وتفكيرهم مغلقة كليًا أمام أي علم أو فكر عدا العِلْمَيْن المذكورين سالفًا.

معظمهم، ولا سيما الذين يهتمون بعلم الفلك، يؤمنون إيمانًا قويًا بالتنجيم[١٢]، رغم أنهم يخجلون من الاعتراف بذلك علنًا، لكن أكثر ما عجبتُ منه واعتبرتُه أمرًا غير قابل للتفسير، هو ميلهم الشديد للأخبار والقضايا السياسية، فهم على الدوام يتحدثون في الشؤون العامة ويصدرون أحكامهم في أمور الدولة، وبشدة وحماس يفندون كل صغيرة في رأي الطرف الآخر. وفي الحقيقة لاحظتُ هذا الميل نفسه لدى معظم علماء الرياضة[١٣] الذين عرفتُهم في أوروبا، مع أنني لم أستطع قط أن أكتشف أدنى شبه بين العِلْمَيْن، إلا إذا كان أولئك القوم يعتبرون الأمر كما يلي: بما أن أصغر دائرة تحتوي على العدد نفسه من الدرجات الموجودة في أكبر دائرة، إذن فإن تنظيم العالم وإدارة شؤونه لا يتطلب مقدرات أكثر من تلك التي يتطلبها التعامل مع كرة جغرافية، وجَعْلها تدور حول نفسها. لكني أرى أن هذا الطبع ينبع من عيب شائع جدًا في الطبيعة البشرية يجعلنا فضوليين وذوي آراء متصلبة في القضايا التي لا تهمنا في شيء، والتي لسنا مهيئين لها بالدراسة أو الفطرة.

ويعيش هؤلاء القوم في اضطرابات نفسية مستمرة، ولا يستمتعون قط بدقيقة واحدة من راحة البال وهدوء النفس. واضطراباتهم ناجمة عن أسباب قلما تؤثر على باقي البشر، ذلك أن مخاوفهم تنجم عن التغيرات العديدة التي يخشون حدوثها في الأجرام السماوية؛ مثلًا، إن الأرض إذ تقترب الشمس منها باستمرار لا بدّ بمرور الزمن أن تمتصها الشمس وتبلعها[١٤]؛ أو إن سطح الشمس ستغلفه بالتدريج الحِمَم التي تقذفها براكينها فلا تعود تنير العالم؛[١٥] أو إن الأرض لو لم تنجُ بأعجوبة من اصطدام ذيل المذنب الأخير[١٦] بها، لكان من المؤكد أن تتحول إلى رماد؛ أو إن مجيء هذا المذنب في المرة التالية، وقد قدَّروا أن ذلك سيتم بعد إحدى وثلاثين سنة من الآن، قد يحطمنا[١٧]، لأنه إذا اقترب هذا المذنب، في مرحلة حضيضه الشمسي، من الشمس حتى نقطة معينة (وهذا ما كانوا يخشون حدوثه طبقًا لحساباتهم)، فإنه سَيَسْخُن سخونة أكبر من سخونة حديد ملتهب متوهج لدرجة الاحمرار بعشرة آلاف ضِعْف، ولدى ابتعاده عن الشمس سيجرّ وراءه ذيلًا ملتهبًا طوله ألف ألفٍ وأربعة عشر ميلًا. وإذا مرت الأرض على مسافة مائة ألف ميل من قلب هذا المذنب، أو نواته، فلا بد أنها ستشتعل وتتحول إلى رماد؛ أو إن الشمس التي تطلق أشعتها كل يوم دون أن يكون هناك ما يعوضها عنها، ستستهلك نفسها كليًا في آخر الأمر وتختفي[١٨]، ولا بد أن يتبع ذلك دمار هذه الكرة الأرضية وكل الكواكب التي تتلقى نورها من الشمس.

إنهم دائمًا في حالة ذعر بسبب هذه وغيرها من الأخطار الوشيكة الحدوث، لدرجة أنهم لا ينعمون بالنوم في فراشهم ولا يستمتعون بمتع الحياة العادية ولذائذها. وكانوا إذا التقى أحدهم بالآخر في الصباح فإن أول سؤال يسأله يكون عن صحة الشمس عند غروبها وشروقها، وعن الأمل

في النجاة من ضربة المذنّب القادمة. وهم يستمتعون بمثل هذه الأحاديث كما يستمتع الصبيان بسماع قصص مرعبة عن الجنّ والأشباح والغيلان التي يُصْغُون لها دون شبع منها، ولا يستطيعون النوم بعد ذلك خوفًا ورعبًا.

نساء الجزيرة كثيرات المرح والحيوية. وهنّ يزدرين أزواجهن ويهِمْنَ غرامًا بالغرباء الذين يوجد منهم دائمًا عدد كبير من أبناء القارة التي تحكمها الجزيرة، والذين يأتون إلى القصر إما في مهمات خاصة بشؤون البلدان والمجالس البلدية العديدة، أو في مهمات تتعلق بمصالحهم الشخصية. ولكن هؤلاء الغرباء يُحْتَقَرون كثيرًا لافتقارهم إلى القدرات العقلية التي يتميز بها رجال الجزيرة. وتتخيَّر السيدات عشاقهن من هؤلاء الغرباء. لكن الشيء الغريب هو أنَّهنَّ يفعلن ذلك براحة واطمئنان كبيرين، لأن الزوج مستغرق دائمًا في تأملاته لدرجة أن السيدة وعشيقها قد يُقْدِمان على ممارسة أقصى مظاهر قلة الأدب والحرية الجنسية أمام عينيه، وعلى الأخص إذا توفر له الورق والأدوات الأخرى، وإذا لم يكُنْ اللمّاس بجانبه.

وتشكو الزوجات وبناتهن مُرّ الشكوى من احتجازهن في الجزيرة، مع أنني أعتقد أنها أجمل وأشهر بقعة أرضٍ في العالم، ومع أنهن يعِشْنَ هنا في رخاء عظيم وترف بالغ، ويُسمح لهن بفعل كل ما يحلو لهنّ، لكنهن يرغبْنَ في رؤية الدنيا والفوز بمُتَع العاصمة، وهذا ما لا يُسمَح لهن به إلا بعد الحصول على ترخيص خاص من الملك، وهو ترخيص ليس من السهل الحصول عليه، لأن علية القوم يعرفون من خبراتهم المتكررة، مدى صعوبة إقناع حريمهم بالعودة من تحت. وقد قيل لي إن سيدة مرموقة من نساء القصر، كان لها عدة أطفال، وكانت متزوجة من رئيس الوزراء[١٩] الذي كان أغنى شخص بين رعايا المملكة، كما كان غاية في الرقة واللطف معها وفي حبه لها، ويعيش في أجمل قصر في الجزيرة، نزلَتْ إلى لاجادو متذرعة بدواعي صحية، وأخفَتْ نفسها شهورًا عديدة حتى أرسل الملك مذكرة بضرورة البحث عنها، فوُجِدَتْ في مطعم مغمور وفي ملابس رثة بعد أن رَهَنَتْ كل ملابسها لتعول خادمًا عجوزًا مشوهًا كان يضربها كل يوم، فأُبْعِدَتْ عنه رغمًا عنها وضد إرادتها. ومع أن زوجها استقبلها بكل ما يمكن من عطف ودون أن يوجّه لها أي لوم أو تأنيب، إلا أنها سرعان ما استطاعت أن تنسلّ إلى تحت مرة ثانية، آخذةً معها كل جواهرها إلى الحبيب نفسه، ولم يُسْمَع عنها شيء منذ ذلك الحين.

وقد يظن القارئ أن هذه أقرب إلى قصة أوروبية أو إنجليزية منها إلى قصة في بلد بعيد هذا البعد. لكني أرجوه أن يذكر أن نزوات النساء وتقلباتهن ليست مقصورة على أي مناخ أو أية أمة، وأنهن متشابهات أكثر مما يتصور بكثير.

بعد حوالي شهر من الزمن تقدمتُ تقدمًا معقولًا في إتقان لغتهم، وأصبحتُ قادرًا على الإجابة على

معظم أسئلة الملك حين كان يتاح لي شرف المثول بين يديه. ولم يُبْدِ جلالته أي فضول أو رغبة في الاستفسار عن قوانين البلاد التي عشتُ فيها، أو عن أنظمة الحكم فيها، أو عن تاريخها أو دينها أو أخلاقها وآداب السلوك فيها. ولكنه قَصَّرَ أسئلته على أحوال علوم الرياضة، واستقبل التقرير الذي قدمته له باحتقار شديد وعدم اكتراث، رغم وجود لَماس في كل جانب ينبههُ لكي يصغي لكلامي.

الفصل الثالث

ظاهرة تشرحها الفلسفة الحديثة وعلم الفلك الحديث. ما أنجزه أهل لابوتا من تقدم واكتشافات في علم الفلك. طريقة الملك في إخماد الثورات.

رغبتُ أن يأذن لي الملك برؤية الأشياء الغريبة النادرة في الجزيرة، فتكرم بمنحي هذا الإذْن وأمر معلمي أن يرافقني. كان أهم ما أردتُ معرفته هو الأسباب الصناعية أو الطبيعية التي تنجب الحركات العديدة للجزيرة. والآن سأقدم للقارئ شرحًا فلسفيًا لتلك الأسباب.

الجزيرة الطائرة أو الطافية دائرية تمامًا وقطرها ٧٨٣٧ ياردة، أو حوالي أربعة أميال ونصف[١]، وبالتالي فإنها تحتوي على عشرة آلاف فدان. وسُمْكها ثلاثمائة ياردة. القعر، أو السطح السفلي الذي يبين لِمَنْ يَرَوْنه من تحت، هو صفيحة مستوية منتظمة من الأدَمَنْت (حجر صلب يشبه الألماس)، سُمْكُها حوالي مائتي ياردة، وتوجد فوقها معادن عديدة بنظامها المألوف، وفوق كل شيء توجد طبقة من التراب الخصب، عمقها عشرة أو اثنا عشر قدمًا. انحدار السطح العلوي من المحيط نحو المركز يجعل الندى والأمطار التي تنزل على الجزيرة تجري في نُهيرات صغيرة نحو الوسط حيث تصب في أربع برَك كبيرة، محيط كل واحدة منها حوالي نصف ميل، وتقع على بُعْد مائتي ياردة من المركز. من هذه البرك يتبخر الماء باستمرار بسبب الشمس في النهار، وهذا في النهاية يمنع الماء من أن يطفح ويفيض، وبالإضافة إلى ذلك، بإمكان الملك أن يرفع الجزيرة فوق منطقة الغيوم والأبخرة، وبهذا يمنع سقوط الأمطار والندى كلما شاء، لأن أعلى الغيوم لا ترتفع أكثر من ميلين، كما يتفق علماء الطبيعة[٢]، على الأقل، لم يُعْرَفْ عنها أنها ارتفعت فوق ذلك في تلك البلاد.

يوجد في مركز الجزيرة فجوة قطرها حوالي خمسين ياردة، ومن هنا ينزل الفلكيون إلى داخل قبة كبيرة تُدعى بسبب ذلك **فْلانْدونا جانْيولي** أو **كهف الفلكيين**[٣] الذي يقع على عمق مئة ياردة تحت السطح العلوي لصفيحة الأَدَمَنْت. ويوجد في هذا الكهف عشرون مصباحًا دائمة الاشتعال، ومن انعكاساتها يضاء كل جزء في الكهف بنور قوي. والمكان عامر بتشكيلة كبيرة من السُدْسيات والرُّبعيات والتلسكوبات والأسطُرلابات وأجهزة فلكية أخرى. لكن أعجب شيء، وهو الشيء الذي يعتمد عليه مصير الجزيرة، هو حجر مغناطيسي ذو حجم هائل يشبه في شكله مكّوك الحائك[٤]،

طوله ست ياردات وأثخن مكان فيه لا يقل سُمْكُه عن ثلاث ياردات. هذا المغناطيس معلق على محور قوي من حجر الأدَمَنْت يمر في وسطه، فيتحرك المغناطيس عليه ويتوازن بشكل دقيق جدًا بحيث تستطيع أضعف يدٍ أن تحركه وتديره، وهو مُطَوَّق بأسطوانة مجوفة من حجر الأَدَمَنْت، عمقها أربعة أقدام وسُمْكُها مثل ذلك من الأقدام وقُطْرها اثنا عشر قدمًا، وهي محمولة بشكل أفقي على ثمانية ركائز من حجر الأَدَمَنْت، ارتفاع كل ركيزة منها ست ياردات. ويوجد في وسط الجانب المقعَّر أخدود عمقه اثنا عشر إنْشًا، تستقر فيه أطراف المحور وتُدار حسب الطلب.

ولا يمكن لأية قوة أن تنقل حجر المغناطيس هذا من مكانه لأن الطوق الأسطواني وركائزه هي جميعًا قطعة واحدة متصلة بتلك الصفيحة من حجر الأدمنت التي يتكون منها قعر الجزيرة.

وبواسطة حجر المغناطيس هذا يمكن رَفْع الجزيرة وإنزالها والانتقال بها من مكان لآخر، إذ بالنسبة لذلك الجزء من الأرض الذي يستقر فوقه الملك، يوجد في أحد طرفي الحجر قوة جاذبة وفي الطرف الآخر قوة طاردة. فإذا وُضِع الحجر عاموديًا بطرفه الجاذب نحو الأرض تنزل الجزيرة، ولكن إذا كان الطرف الطارد موجهًا للأسفل تصعد الجزيرة للأعلى. وحين يكون وضع الحجر مائلاً تصبح حركة الجزيرة مائلة كذلك، لأن قوى هذا المغناطيس تتحرك دائمًا في خطوط موازية لاتجاهه[٥].

وبهذه الحركة المائلة تُحْمَل الجزيرة إلى أجزاء مختلفة من الأراضي الخاضعة للملك. ولتوضيح طريقة سير الجزيرة نفترض أن AB يمثلان خطًا يقطع أراضي بالْنيبارْبي، وأن cd يمثلان الحجر المغناطيسي بحيث يمثل d طرفه الطارد ويمثل c طرفه الجاذب. إذا وُضِع الحجر في cd بطرفه الطارد للأسفل، حينذاك تتجه الجزيرة للأعلى بشكل مائل نحو D. وحين تصل إلى D ندير الحجر على محوره حتى يتجه طرفه الجاذب نحو E، وحينذاك تُحمل الجزيرة بشكل مائل نحو E. وهنا إذا أُدير الحجر مرة ثانية على محوره حتى يصبح في وَضْع EF وطرفه الطارد للأسفل، فستصعد الجزيرة بشكل مائل نحو F. وهنا إذا وجهنا الطرف الجاذب نحو G تُحْمَل الجزيرة إلى G، ومن G إلى H بإدارة الحجر بحيث يصبح طرفه الطارد موجهًا للأسفل. وهكذا، بِتَغيير وَضْع الحجر حسبما تدعو الحاجة تُرْفَع الجزيرة وتنزَّل بالتتالي وفي اتجاه مائل. وبهذه الرفعات والتنزيلات المتتالية (التي لا يكون المَيَلان فيها كبيرًا)، تُنْقَل الجزيرة من جزء إلى آخر من أراضي الملك.

لكن لا بد من التوضيح بأن هذه الجزيرة لا تستطيع أن تتجاوز حدود الأراضي التي تحتها كما لا تستطيع أن تصعد إلى عُلُوّ أكثر من أربعة أميال، وينسب الفلكيون (الذين كتبوا أبحاثًا كبيرة حول الحجر) هذا إلى السبب التالي: إن قوة المغناطيس لا تصل إلى أبعد من أربعة أميال، وإن المعدن الذي يؤثر على الحجر من باطن البرّ، ومن باطن البحر إلى مسافة ست فراسخ عن الشاطئ لا

ليس منتشرًا في جميع أنحاء الأرض، ولكن وجوده ينتهي عند حدود الأراضي الخاضعة للملك. وقد كان من الميزات العظيمة لهذا الوضع أن يستطيع الأمير أن يُخضع لحكمه كل بَلَد يقع ضمن مجال الجاذبية لذلك الحجر المغناطيسي.

وحين يكون الحجر موازيًا لمستوى الأفق تقف الجزيرة ساكنة[٦]، ففي هذه الحالة يكون الطرفان على مسافة متساوية من الأرض ويعملان بقوة متساوية. أحدهما يجذب للأسفل والآخر يدفع للأعلى وبالتالي لا ينجم عن ذلك أية حركة.

يقوم بالإشراف على هذا الحجر المغناطيسي بعض الفلكيين الذين يُغَيّرون وَضْعه من حين لآخر كما يوجههم الملك. وهم يقضون جزءًا كبيرًا من حياتهم في ملاحظة الأجرام السماوية، ويفعلون ذلك بمساعدة عدسات ومناظير تفوق كثيرًا في جودتها ما عندنا منها. ورغم أن أكبر مناظيرهم وتلسكوباتهم لا تزيد على ثلاثة أقدام، إلا أنها تكبِّر الأشياء أكثر مما تفعل تلسكوباتنا ذات المئة، وتبيّن النجوم بوضوح أكبر[٧]. وقد مكّنتهم هذه الميزة من توسيع اكتشافاتهم أكثر بكثير مما فعل الفلكيون عندنا في أوروبا. وقد جمعوا قائمة بعشرة آلاف نجم ثابت[٨]، في حين أن أكبر قائمة عندنا لا تحوي أكثر من ثلث ذلك العدد. كذلك فإنهم اكتشفوا نجمين أصغر حجمًا، أو قمرين يدوران حول المريخ[٩]، أقربهما إليه يبعد عن مركز الكوكب الرئيسي مسافة تبلغ بالضبط ثلاثة أضعاف قطره، أما أبعدهما فيبعد خمسة أضعاف. ويدور الأول حول نفسه مرة كل عشر ساعات بينما يفعل الثاني ذلك في إحدى وعشرين ساعة ونصف، بحيث تكون مربعات فترتيهما الدوريتين قريبة جدًا من النسبة نفسها بين مكعبات بعديهما عن مركز المريخ، وهذا يبيّن بوضوح أنهما محكومان بقانون الجاذبية نفسه الذي يؤثر على الأجرام السماوية الأخرى.

لقد لاحظوا ودرسوا ثلاثة وتسعين مُذَنّبًا مختلفًا[١٠]، وحسبوا فتراتها ودورانها بدقة عظيمة. وإذا كان هذا صحيحًا (وهم يؤكدون ذلك بثقة كبيرة)، فإنه من المرجو أن تُعْلَن ملاحظاتهم على الملأ، عسى أن يؤدي ذلك إلى تصحيح نظرية المذنَّبات، التي هي الآن نظرية عوجاء ناقصة، بحيث تصبح بمستوى الكمال المتوفر في المجالات الأخرى من علم الفلك.

كان يمكن للملك أن يصبح ذا سلطة مطلقة، أكثر من أي أمير آخر في العالم، لَوْ استطاع أن يقنع وزراءه بتأييده. لكن لأن لهؤلاء الوزراء أملاكًا وعقارات في القارة التي تحت الجزيرة، ولأن وظيفة المقرَّب إلى الملك ليست مضمونة الاستمرار، فإنهم لم يوافقوا قط على استعباد بلادهم.

حين تتورط مدينة في تمرد أو ثورة على السلطات، أو حين تمزقها نزاعات حزبية حادة وعنيفة، أو حين ترفض دفع الضريبة أو الإتاوة العادية، فإن لدى الملك طريقتين لإرغامها على الطاعة. الطريقة الأولى والأخَفّ هي إبقاء الجزيرة ساكنة فوق مدينة كهذه وفوق الأراضي التي حولها، وبذلك

يحرمها من الاستفادة من أشعة الشمس[١١] ومن المطر، وبهذا يبتلي السكان بالقحط والأمراض. وإذا كانت جريمتهم تستحق عقوبة أكبر، فإنهم في الوقت نفسه يُرْجَمون من فوقهم بحجارة كبيرة لا يستطيعون لها دفعًا، ولا مجال لديهم لحماية أنفسهم منها سوى باللجوء زحفًا إلى الأقبية والكهوف، بينما تُدَك سطوح منازلهم حتى تصبح ركامًا. ولكن إذا استمروا في عنادهم وشرعوا في مقاومات مسلحة، فإن الملك يلجأ إلى العلاج الأخير، وهو أن يهبط بالجزيرة فوق رؤوسهم مباشرة، مما يؤدي إلى الخراب والتدمير اللذين يشملان المنازل والبشر. وعلى كل حال، هذا إجراء ممعن في القسوة ونادرًا ما يضطر الملك إليه، كما أنه في الحقيقة لا يرغَبُ في وضعه موضع التنفيذ. كذلك لا يجرؤ الوزراء أن يشيروا عليه بمثل هذا العمل الذي سيجعلهم مكروهين لدى الناس، ويُلْحِق أذى كبيرًا بعقاراتهم الموجودة كلها تحت الجزيرة ـ ذلك أن الجزيرة مِلْكٌ للمَلِك وحده.

لكن هناك سبب أكثر أهمية حقًا يجعل الملك يَنْفِر دائمًا من تنفيذ هذا العقاب المروع، إلا إذا كانت هناك ضرورة قصوى. ذلك أنه إذا كان في المدينة المراد تحطيمها صخور عالية، وهذا ما يحدث عمومًا في المدن الكبيرة التي ربما يتم اختيار مَوْقعها في الأصل بقصد منع كارثة كهذه، أو إذا كان فيها أبراج وأعمدة حجرية عالية، فإن نزول الجزيرة الفجائي عليها قد يعرض للخطر قعر الجزيرة أو سطحها السفلي. فَبِرغم أنه يتكوّن، كما أَسْلَفْتُ، من قطعة واحدة من حجر الأَدَمَنْت الصلب الذي يبلغ سُمْكه مائتي ياردة، فإنه قد يتصدع أو ينشق إذا كانت صدْمة الارتطام قوية جدًا، أو قد ينفجر لدى اقترابه كثيرًا من نيران المنازل تحته كما يحدث للدعامات الحديدية والحجرية في مداخننا. ويعرف أهل المدن كل هذا معرفة جيدة، ويدركون الحد الذي ينبغي أن يتوقف عنادهم عنده حين يتعلق الأمر بحرياتهم أو عقاراتهم. أما الملك فهو حين يبلغ غضبه مداه ويستقرّ عزمه على تحويل مدينة إلى ركام، فإنه يأمر بإنزال الجزيرة برفق شديد، زاعمًا أن ما يدفعه لذلك هو إشفاقه على شعبه، وحقيقة الأمر أنه يفعل ذلك خوفًا على قعر الجزيرة الأَدَمَنْتي[١٢] من التصدّع. ويرى فلاسفتهم أن ذلك لو حدث فسيفقد الحجر المغناطيسي قدرته على رفع الجزيرة وتسقط كلها على الأرض.

وقبل وصولي بينهم بحوالي ثلاث سنوات[١٣]، وبينما كان الملك يطير بجزيرته فوق أراضي بلاده، وقع حادث خطير جدًا كاد يضع حدًا لمصير تلك المملكة. على الأقل كان سينهي النظام القائم فيها الآن. كانت أول مدينة زارها الملك هي مدينة ليندالينو[١٤]، وهي المدينة الثانية في المملكة من حيث أهميتها، وبعد مغادرته لها بثلاثة أيام، قام سكانها، الذين طالما اشتكوا من مظالم خطيرة، بإغلاق بوابات المدينة، وقبضوا على الحاكم، وبجهد خارق وسرعة عظيمة شيّدوا أربعة أبراج ضخمة[١٥]، كل برج في زاوية (كانت المدينة على شكل مربع)، وكل واحد منها مُساوٍ في الارتفاع لصخرة قوية مدببة[١٦] تقع في مركز المدينة مباشرة. ووضعوا في قمة كل برج، كما في قمة

الصخرة، حجرًا مغناطيسيًا كبيرًا. كذلك تزودوا بكميات هائلة من الوقود الشديد **الانفجار**[١٧] بقصد أن يفجّروا به قعر الجزيرة الأدَمَنْتي إذا فشل مشروع الحجارة المغناطيسية.

مَضَتْ ثمانية شهور قبل أن يعلم الملك أن أهل **ليندالينو** قد أعلنوا التمرد على السلطة. حينذاك أمر الملك بتحريك الجزيرة حتى تصبح فوق المدينة. كان أهل المدينة متفقين بالإجماع على المقاومة، معتمدين على ما خزنوه من مؤن، وعلى النهر الكبير الذي يمر وسط المدينة. وحَوَّم الملك فوقهم عدة أيام ليمنع عنهم الشمس والمطر، وأمر بأن تُدَلّى من الجزيرة خيوط كثيرة، لكن لم يتقدم أحد بالتماس. بدلًا من ذلك بعث الأهالي طلبات جريئة، برفع كل مظاهر الظلم والضيم عنهم، وبإعفاءات هامة لهم[١٨]، والاعتراف بحقهم في اختيار حاكمهم[١٩]، وطلبات أخرى هامة وخطيرة. عند ذلك أمر الملك كل سكان الجزيرة أن يقذفوا حجارة كبيرة من الرواق السفلي على داخل المدينة. لكن أبناء المدينة كانوا قد استعدوا لمواجهة هذا الأذى بالاختباء في الأبراج الأربعة، وفي بنايات قوية أخرى وفي أقبية تحت الأرض.

حينذاك صمم الملك على إخضاع هذا الشعب المتكبّر، وأمر بإنزال الجزيرة برفق إلى مسافة أربعين ياردة من قمم الأبراج والصخرة، ونُفِّذ الأمر. لكن الموظفين المسؤولين عن هذا العمل، لاحظوا أن نزول الجزيرة يتم بأسرع مما هو مألوف، ولدى تدوير حجر المغناطيس، واجهوا صعوبة بالغة في إبقائه في مركز ثابت، ووجدوا أن الجزيرة تميل إلى الهبوط. وعلى الفور أرسلوا إلى الملك بنبأ هذا الحادث المذهل، ورَجَوْا جلالته أن يأذن لهم برفع الجزيرة إلى وضع أعلى. ووافق الملك، ثم دعا لاجتماع عامّ وأمر موظفي الحجر المغناطيسي أن يحضروا الاجتماع. وحصل أكبر هؤلاء سنًا وأكثرهم خبرة على إذن بإجراء تجربة. أخذ حبلًا قويًا طوله مائة ياردة، ولأن الجزيرة كانت قد رُفِعَتْ فوق المدينة حتى ابتعدت عن القوة الجاذبة التي كانوا قد أحسوا بها، فقد رَبَطَ بطرف حبله حجرًا من الأدَمَنْت المخلوط بمعدن الحديد وله نفس طبيعة المواد التي يتكون منها القعر أو السطح السفلي للجزيرة، وأنزل هذا الحبل ببطء من الرواق السفلي فوق قِمَم الأبراج. وقبل أن ينزل حجر الأدمنت مسافة أربع ياردات أحس الموظف بالحجر يُجْذَب بقوة إلى أسفل ووجَد صعوبة كبيرة في جَرّه إلى أعلى. بعد ذلك رمى قطعًا صغيرة من حجر الأدمنت ولاحظ أنها تُجْذَب بعنف نحو قمة البرج. وأعيدت التجربة فوق الأبراج الثلاثة الأخرى وفوق الصخرة، فحدثت النتيجة نفسها.

هذا الحادث أوقف كل إجراءات الملك (ولا داعي للتوقف عند الظروف والتفاصيل الأخرى)، واضطر الملك للاستجابة لطلبات أهل المدينة.

وقد أكد لي وزير كبير أنه لو اقتربت الجزيرة في هبوطها فوق المدينة إلى وضعٍ لا تستطيع عنده رَفْعَ نفسها، فإن أهل المدينة كانوا مصممين على تثبيتها هناك إلى الأبد، وعلى قتل الملك

وجميع موظفيه وخدمه، وعلى تغيير نظام الحكم كليًا.

وطبقًا لقانون أساسي[٢٠] في هذه المملكة، لا يُسْمح للملك أو لأي من ولديه الأكبر سنًا أن يغادر الجزيرة، كذلك لا يُسْمَح للملكة بذلك حتى تهرم وتصبح غير قادرة على الحمل والإنجاب.

الفصل الرابع

المؤلف يغادر لابوتا، ويُنْقَل إلى بالْنيبارْبي، ويصل إلى العاصمة. وصف للعاصمة والريف المجاور لها. المؤلف يحظى بكرم الوفادة عند سيد عظيم. حديثه مع ذلك اللورد.

مع أني لا أستطيع أن أقول أنه أُسيئت معاملتي في هذه الجزيرة، فإني لا بدَّ أن أعترف أنني أحسستُ أنني أُهْمِلْتُ كثيرًا، وعوملتُ بشيء من الاحتقار والازدراء. وذلك لأنه لم يظهر من الملك أو السكان أي اهتمام بأي ميدان من ميادين المعرفة سوى علمي الرياضة والموسيقى، وفي هذين المجالين كنتُ دونهم معرفة، ولذلك لم أحظ إلا بالقليل من الاهتمام.

من ناحية أخرى، حين شاهدتُ كل الأشياء الغريبة في الجزيرة، رغبتُ في الرحيل عنها لأنني ضجرتُ حتى أعماقي من سكانها. لقد كانوا متفوقين حقًا في علمين أكنّ لهما احترامًا كبيرًا ولم أكن جاهلاً بهما، لكنهم كانوا في الوقت نفسه كثيري الشرود والاستغراق في التأمل لدرجة أنني لم أقابل مَنْ هُمْ أسوأ منهم صُحْبَةً. وكنتُ أتحدث فقط مع النساء والتجار والحرفيين واللمّاسين وغلمان القصر، وذلك خلال الشهرين اللذين قضيتُهما هناك. ولهذا أصبحتُ محتقرًا للغاية. ولكن كان هؤلاء الناس هم الوحيدون الذين كنت أستطيع أن أحصل منهم على جواب معقول.

بالدراسة الشاقة الجادة استطعتُ أن أبلغ درجة جيدة من معرفة لغتهم. لكنني مَلَلْتُ من البقاء محجوزًا في جزيرة لا أجد فيها ترحيبًا وتشجيعًا، فقررتُ أن أرحل عنها في أول فرصة.

وكان في القصر سيد عظيم، له شبه قرابة مع الملك، ولهذا السبب وحده كان يعامَلُ باحترام. كان يُعْتَبَر بينهم أكثر الناس جَهْلًا وغباءً. كان قد قَدَّمَ للعرش خدمات جليلة كثيرة، وكان فيه صفات عظيمة، فطرية ومكتسبة، تزيّنها جميعًا أمانته واستقامته وشرفه. لكن لم يكن له أذن موسيقية، وكان أعداؤه والذين يحطّون من قَدْرِه يُشيعون أنه كثيرًا ما كان يضرب النغمة في غير مكانها أو دقتها. كذلك لم يكن معلموه يستطيعون تعليمه البرهنة على أبسط الفرضيات في الرياضة إلا بصعوبة بالغة. وقد حَلا لهذا الرجل أن يتكرم عليَّ بمكرمات وأفضال كثيرة، وأن يشرفني بأكثر من زيارة حيث كان يَطْلُبُ أن أحدثه عن شؤون أوروبا وعن القوانين والعادات وآداب السلوك والعلوم

في البلدان العديدة التي وصلتُها في رحلاتي. وكان يصغي إليّ بانتباهٍ شديد ويذكر بعض الملاحظات الحكيمة حول كل ما أقول. كان عنده ّلماسان اثنان يرافقانه احترامًا لشكليات المظهر، ولكنه لم يكن يستخدمهما إلا في القصر وفي زيارات المجاملات الرسمية. وكان دائمًا يأمرهما بالانسحاب حين نكون معًا وحدنا.

وقد رجوتُ هذا السيد الجليل أن يتوسط لي عند صاحب الجلالة ليرخّص لي بالرحيل، ففعل ذلك ولكنْ، كما سرّه أن يقول، هو نادم على فراقي. وفي الحقيقة كان قد عرض عليَّ عروضًا عديدة ذات مزايا عظيمة، لكني رغم ذلك اعتذرتُ عن رفضها بعبارات تنم عن الشكر الصادق، والاعتراف المخلص بالفضل.

وفي السادس عشر من فبراير ودَّعْتُ الملك ورجال القصر. أهداني الملك هدية تبلغ قيمتها مائتي باوند انجليزي، وأهداني صديقي، قريبُه، هدية ذات قيمة مماثلة مع رسالة توصية إلى صديق له في لاجادو العاصمة. كانت الجزيرة حينذاك تحوم فوق جبل على بعد ميلين من العاصمة، وأُنْزِلْتُ إلى الأرض من الرواق السفلي بالطريقة نفسها التي رُفِعْتُ بها.

القارة الخاضعة لملك الجزيرة الطائرة تُعْرَف عمومًا باسم **بالْنيبارْبي** والعاصمة تُدْعى، كما قلتُ من قبل، **لاجادو**، وقد أحسستُ بشيء من الرضا والسرور حين وجدتُ نفسي فوق أرضٍ ثابتة، ورحتُ أسير نحو المدينة دون أي قلق، لأني كنت أرتدي ملابسَ كملابس أهل البلاد، وأعرف من لغتهم ما يكفي للتحدث معهم. بعد وقت قصير اهتديتُ لبيت الرجل الذي أحمل له رسالة توصية، وقدمتُ له رسالة صديقه ذي المكانة المرموقة على الجزيرة، فاستقبلني بلطف وترحاب عظيمين. وأمر هذا اللورد العظيم، واسمه مونودي[١]، بإعداد جناح لي في بيته، فأقمتُ فيه طيلة وجودي هناك، ونعمتُ بكرم وفادةٍ غاية في الجود والسخاء.

وفي الصباح التالي بعد وصولي، أخذني في عربته للتفرج على المدينة التي تبلغ مساحتها نصف مساحة لندن، ولكن بيوتها غريبة البناء ومعظمها بحاجة إلى إصلاح وترميم. وكان الناس في الشوارع يسيرون بسرعة، كان منظرهم غريبًا وعيونهم جامدة وملابسهم على العموم رثة وبالية. وخرجنا عبر إحدى بوابات المدينة ووصلنا إلى مسافة ثلاثة أميال في الريف حيث رأيتُ عمالًا كثيرين يعملون في الأرض بأنواع عديدة من الأدوات، لكن صاحبي لم يعرف ما كانوا يصنعون. ومن ناحيتي لم ألاحظ ما ينبئ بنُمُوّ قمحٍ أوعشبٍ، رغم أن التربة كانت تبدو خصبة جدًا. ولم أستطع إلا أن أتعجب من هذه الظواهر الغريبة في كلٍّ من المدينة والريف، فتجرأتُ على أن أطلب من صاحبي ومرشدي أن يتكرم فيشرح لي معنى أن تكون كل هذه الرؤوس والأيدي والوجوه الكثيرة في الشوارع والحقول مشغولة جدًا، مع أنني لم أكتشف لعملهم هذا أية نتائج جيدة، ولكني على

العكس، لم أعرف في حياتي أرضًا بهذا القدر من سوء الاستغلال، أو بيوتًا بهذا القدر من سوء التخطيط والخراب، ولم أرَ قط شعبًا تعبِّر سِحَنُ أبنائه وثيابهم عن مثل هذا القدر من البؤس والفقر[٢].

هذا اللورد **مونودي** كان من ذوي المراكز العليا. كان حاكمًا عدة سنوات لمدينة **لاجادو**، ولكن الوزراء كادوا له وتآمروا عليه حتى طُرِدَ من منصبه لعدم الكفاءة. لكن الملك عامله بعطف واعتبره إنسانًا حسن النية، لكنه قليل الذكاء والفطنة لدرجة تدعو إلى الاحتقار.

حين انتقدتُ البلاد وأهلها بصراحة لم يَرُدّ عليَّ بأكثر من قوله إنني لم أَعِشْ بينهم مدة تكفي لإصدار حكم، وإنّ لشعوب العالم المختلفة عادات مختلفة، وأشياء عامة أخرى تؤدي نفس المعنى. لكن حينما عدنا إلى قصره سألني عن رأيي في المبنى، وعن الأشياء الغريبة السخيفة التي ألاحظها، وعن انتقاداتي لثياب خدمه ومظاهرهم. لكنه كان يسأل وهو في مأمن من النقد، لأن كل شيء حوله كان رائعًا ومنظمًا وأنيقًا. وأَجَبْتُ أن حِكْمة سعادته، ومكانته الاجتماعية وثروته، تعفيه من تلك النقائص والعيوب التي تنجبها الحماقة والفقر لدى الآخرين. وقال إذا كنتُ أرغب في الذهاب معه إلى بيته الريفي الذي يبعد حوالي عشرين ميلًا وحيث تقع أملاكه، سيكون لدينا فرصة أفضل لهذا النوع من الحديث. وقلتُ لسعادته إنني تحت تصرفه ورهن إشارته. وفي الصباح التالي كنا في الطريق إلى هناك.

وأثناء رحلتنا طلب مني أن ألاحظ الطرق والأساليب العديدة التي يستعملها المزارعون في إدارة أراضيهم، وقد بَدَتْ لي هذه الطرق غير معقولة وغير قابلة للتعليل، لأنني لم أكتشف سنبلة قمح أو نبتة عشب إلا في أماكن قليلة جدًا، لكن بعد ثلاث ساعات من السفر تغير المشهد تغيرًا كليًا. فقد دخلنا ريفًا من أجمل الأرياف، تقع بيوت الفلاحين فيه على مسافات قصيرة من بعضها، وكانت ذات بناء مرتب، كما كانت الحقول مسوَّرة وتحوي كروم عنب وحقول قمح ومروجًا. ولا أذكر أنني رأيتُ مشهدًا أمتع من ذلك المشهد. وقد لاحظ سعادته أن وجهي قد انشرح، فأخبرني وهو يتنهد، ان هذه هي أملاكه، وأنها ستظل على هذا النحو حتى نصل إلى منزله؛ وأن أهل بلده يسخرون منه ويحتقرونه لأنه لا يدير شؤونه بشكل أفضل، ولأنه يعطي قدوة سيئة لأهل المملكة، لكنه قدوة لا يحذو حذوها سوى القليلين جدًا من كبار السن العنيدين الضعفاء من أمثاله.

وأخيرًا وصلنا إلى منزله الذي كان مبنى نبيلًا حقًا، مبنيًا طِبْقًا لأحسن القواعد في فن المعمار القديم. كانت النوافير والحدائق والممرات والطرقات المشجرة والبساتين مخططة بفكر سليم دقيق وذوق رائع. وأثنيتُ على كل شيء رأيتُه بما يستحقه من ثناء، لكن سعادته لم يُبْدِ اهتمامًا بذلك حتى انتهينا من تناول العشاء وبقينا نحن الاثنين وحدنا دون ثالث حولنا. حينذاك قال لي بوجه محزون

إنه يظن أنه سيهدم بيوته في المدينة والريف لكي يعيد بناءها حَسَبَ الأسلوب الحالي السائد، ويخرّب كل مزارعه ليعيد تشكيلها كما تقضي الأساليب الحديثة (المودِرْنْ)، وأنه سيُصْدِر التعليمات نفسها إلى فلاحيه، وإلاّ فإنه يُعرِّض نفسه لاتهامات مثل التكبّر والتعالي والتفرّد والتصنع والجهل والنزوائية، وربما يزيد ذلك استياء الملك منه.

كما قال إن التعجب والاستغراب الذي يظهر عليّ، سينتهي أو يقل حينما يخبرني ببعض التفاصيل التي ربما لم أسمع بها قط في القصر، لأن الناس هناك مستغرقون في تأملاتهم الخاصة بحيث أنهم لا يأبهون لما يجري هنا.

وكان ملخص حديثه ما يلي. منذ حوالي أربعين سنة[٣] صعد بعض الأشخاص إلى **لابوتا**، إما للعمل أو للترفيه والتسلية، وبعد أن قضوا فيها خمسة شهور مستمرة، عادوا بمعرفة سطحية جدًا في العلوم الرياضية، مصحوبة بروح متوثبة ومعنويات متفجرة اكتسبوها من تلك المنطقة الهوائية المتعجرفة. ولدى عودتهم بدأوا يتبرمون بإدارة كل شيء هنا، وراحوا يخططون لتجديد وتطوير الفنون والعلوم واللغات والأمور التقنية. ولتحقيق هذه الغاية حصلوا على ترخيص ملكي بإنشاء **أكاديمية المخترعين**[٤] في **لاجادو**. وانتشرت هذه النزوة والحماس بين الناس حتى لم تبق مدينة دون أكاديمية مماثلة. وفي هذه الكليات، يخترع الأساتذة قواعد ومناهج جديدة في الزراعة والبناء، وآلاتٍ وأدواتٍ لكل أصحاب الحرف والصناعات، زاعمين أن الرجل بهذه التجديدات سيقوم بعمل عشرة رجال، وأن القصر سيُبْنَى في أسبوع وبمواد لا تبلى ولا تحتاج لإصلاح، وأن خيرات الأرض سيمكن إنتاجها وإنضاجها في أيّ فصل أو موسم نريد[٥]، ومضاعفتها مائة مرة عما هي عليه الآن، ومزاعم أخرى مسْعِدة لا تُعَدّ. الشيء المزعج الوحيد أنه لم يتم حتى الآن الوصول بهذه المشاريع إلى درجة الكمال. وفي هذه الأثناء أَجْدَبَتِ البلادُ جَدْبًا تعيسًا، وأصبحت البيوت خرابات، وأصبح الناس بلا مأكل أو ملبس. وكل هذا لم يثبط عزائمهم، بل زاد حماسهم وإصرارهم خمسين ضعفًا عما كان عليه للاستمرار في متابعة خططهم ومشاريعهم، يدفعهم الأمل بقدر ما يسوطهم الخوف من الفشل. أما بالنسبة له، فإنه ليس ذا طبع مغامر، وقد قَنِعَ بالاستمرار بالأساليب والطرق القديمة، والعيش في البيوت التي بناها أسلافه، والعمل كما كانوا يعملون في كل شؤون الحياة دون تجديد أو ابتكار. وقد فعل الشيء نفسه أشخاص قلائل من علية القوم ومن ملاكي الأراضي، فصار يُنْظَر إليهم جميعًا بنظرات الاحتقار واللؤم، واعتُبِروا أعداء للفنّ، وجَهَلة، ومواطنين سيئين يفضلون الراحة والخمول على تطوير بلادهم وتحسين أحوالها.

وأضاف سيادته أنه لا يريد، بذكر المزيد من التفاصيل، أن يُفْسِدَ عليَّ متعة مشاهدة الأكاديمية العظيمة التي كان مصممًا أن أذهب إليها. وقد طلب مني فقط أن ألاحظ مبنى مدمرًا على سفح

جبلٍ يبعد ثلاثة أميال، وأعطاني وصفًا له. لقد كانت له طاحونة جيدة جدًا على بُعْد نصف ميل من بيته، يديرها تيارٌ مائي من نهر كبير، وكانت تكفي لسَدّ حاجات أهله وقسم كبير من فلاحيه. وقبل حوالي سبع سنوات، جاءته عصبة من أولئك المخططين والمخترعين يحملون اقتراحات بهدم هذه الطاحونة وبناء أخرى على سفح ذلك الجبل، حيث يجب أن تُشَق قناة طويلة لملء خزان من الماء الذي ستنقله أنابيب وآلات لإدارة الطاحونة، لأن الرياح والهواء على مرتفع مثير الماء وتجعله أصلح للحركة، ولأن الماء المنحدر من هُوَّةٍ سيدير الطاحونة بنصف تيار النهر الذي يكون أعلى من مستواه. ووافق على الاقتراح لأنه لم يكن حينذاك مَرْضِيًّا عنه في القصر[٦]، ولأن كثيرين من أصدقائه ألحُّوا عليه أن يوافق. وبعد تشغيل مائتي شخص لمدة عامين، فشل المشروع، وانصرف المخترعون عنه وهم يلقون اللوم كله عليه، وراحوا يجرِّحونه ويسيئون إليه منذ ذلك الحين. وأغرَوا آخرين بالقيام بالتجربة نفسها، بوعود معسولة مماثلة بالنجاح وبنتائج مماثلة في الفشل.

وبعد بضعة أيام عدنا إلى المدينة. لكن سيادته لم يذهب بنفسه معي إلى الأكاديمية، لأنه مكروه هناك، وأوصى صديقًا له أن يرافقني، وقدمني له باعتباري شديد الإعجاب بالمخترعات وشديد الفضول حول كل جديد، وسريع التصديق لما يُقال. ولم يكن هذا في الحقيقة دون أساس من الصدق، إذ كنتُ في أيام شبابي مخترِعًا إلى حَدٍّ ما.

الفصل الخامس

يُسمَح للمؤلف بمشاهدة الأكاديمية العظيمة في لاجادو. وصف مفصل للأكاديمية. الفنون والمواضيع التي يَشغَل الأساتذة أنفسهم بها.

ليست هذه الأكاديمية مبنى كاملًا واحدًا، ولكنها سلسلة متصلة من بيوت عديدة على جانبي شارعٍ، كانت قد خلت من السُّكان فاشْتُرِيَتْ واستُعْمِلَت لأغراض الأكاديمية.

استقبلني القَيِّم بلطف بالغ وذهبتُ إلى الأكاديمية أيامًا كثيرة، كان في كل غرفة مخترع أو أكثر، وأعتقد أنني زرتُ ما لا يقل عن خمسمائة غرفة[١].

كان أول شخص قابلتُه ذا مظهر نحيل، ووجهٍ ويدين ملوثة بالسخام، وشعر رأسه ولحيته طويل أشعث مشعوط بالنار في أماكن عديدة، وملابسه وقميصه وجلده كلها بلون السُّخام. كان قد قضى ثماني سنوات في مشروع لاستخراج أشعة الشمس من الخيار[٢]، ثم تعبئتها في قوارير مختومة محكمة الغَلْق، من حيث يمكن إخراجها واستخدامها لتدفئة الهواء في أيام الصيف العاصفة الجافة. وقال إنه لا يشك أنه خلال ثماني سنوات أخرى، سيصبح بإمكانه أن يُزَوِّد حدائق الحكام بأشعة الشمس بسعرٍ معقول. لكنه اشتكى أن مخصصاته قليلة، وتوسل إليّ أن أمنحه شيئًا تشجيعًا للإبداع، ولا سيما أن سعر الخيار في هذا الموسم غالٍ جدًا. وقد نفحتُه مبلغًا بسيطًا، لأنّ مضيفي اللورد كان قد زوَّدني ببعض النقود لهذه الغاية، لأنه كان يعرف طريقتهم في الاستجداء[٣] من كل من يذهب لمشاهدتهم.

ودخلتُ غرفة أخرى وكُدْتُ أسارع بالعودة إذ دَهَمَتْني رائحة كريهة فظيعة[٤]. لكن مُرْشدي دفعني إلى الأمام وحذّرني همسًا أن لا أفعل شيئًا يجرح مشاعر أحد، لأن ذلك سيُقابَل باستهجان واستنكار شديدين. ولهذا لم أجرؤ حتى على إغلاق أنفي، كان المخترع في هذا الجُحْر أقدم طالب في الأكاديمية. كان لون وجهه ولحيته أصفر شاحبًا، كما كانت يداه وملابسه ملوثة بالقذارات. حين قدَّموني له ضمني ضمة العاشق الولهان (وهذه تحية كنت أعذره لو أغفلها). كان عمله منذ أن دخل الأكاديمية ينحصر في عملية تحويل البراز البشري إلى الأغذية التي تكوَّن منها في الأصل، وذلك عن طريق فَصْل عناصره العديدة، وإزالة اللون الذي جاءه من المرارة، والتخلص من رائحته بإطلاقها

في الهواء، وكَشْطِ ما علق به من لُعاب. وكانت الجمعية تمنحه حصة أسبوعية تتكون من وعاء مملوء بالغائط البشري، سِعَتُه كَسِعة برميل من بْريستول.

ورأيتُ مخترعًا آخر يعمل في تكليس الثلج وتحويله إلى مسحوق بارود. هو أيضًا أراني بحثًا ألَّفه حول قابلية النار للطرْق والتمديد(٥)، وينْوي أن ينشره.

وكان هناك مهندس معماري عبقريّ اخترع طريقة جديدة لبناءالبيوت، تبدأمن السقف وتنزل حتى تصل للأساس. وقد برَّر ذلك بما تمارسه تلكما الحشرتان الحكيمتان، النحلة والعنكبوت.

وكان هناك أستاذ كفيفٌ منذ ولادته(٦) وتحت إمرته صبيان متدربون، في مثل حالته، يعملون في خلط الألوان للرّسّامين. وكان أستاذهم يعلّمهم تمييز الألوان عن طريق اللمس والشمّ. وكان من سوء حظي حقًّا أن أجدهم في ذلك الوقت غير متفوقين جدًا فيدروسهم، وأن أجد أستاذهم نفسه يخطئ بشكل عام. وهذا الفنان يحظى بالتشجيع البالغ والتقدير العظيم لدى شِلّة الجمعية كلها.

وفي جناح آخر سرَّني أن أقابل مخترعًا كان قد اكتشف طريقة لحرث الأرض بالخنازير(٧) ليوفر بذلك تكاليف المحاريث والجواميس والعمال. وطريقته هي ما يلي: ادفِنْ في فدان من الأرض ثمار البلوط والتمور والكستناء أو الخضراوات التي تحبها الخنازير، وذلك في حُفَر عمقها ثماني بوصات وبُعْدها عن بعضها ست بوصات. ثم أدْخِل ستمائة أو أكثر من هذه الحيوانات إلى هذا الفدان، وفي بضعة أيام ستقلب لك الأرض بحثًا عن غذائها، وتجعلها صالحة لبذر البذور، وفي الوقت نفسه تسمّده برَوْثها. وعندما وضعوا هذه التجربة موضع التنفيذ وجدوها باهظة التكاليف والمشقّات ولم يجنوا منها محصولًا. لكنهم لا يشكّون أن هذا الاختراع قابل للتحسين.

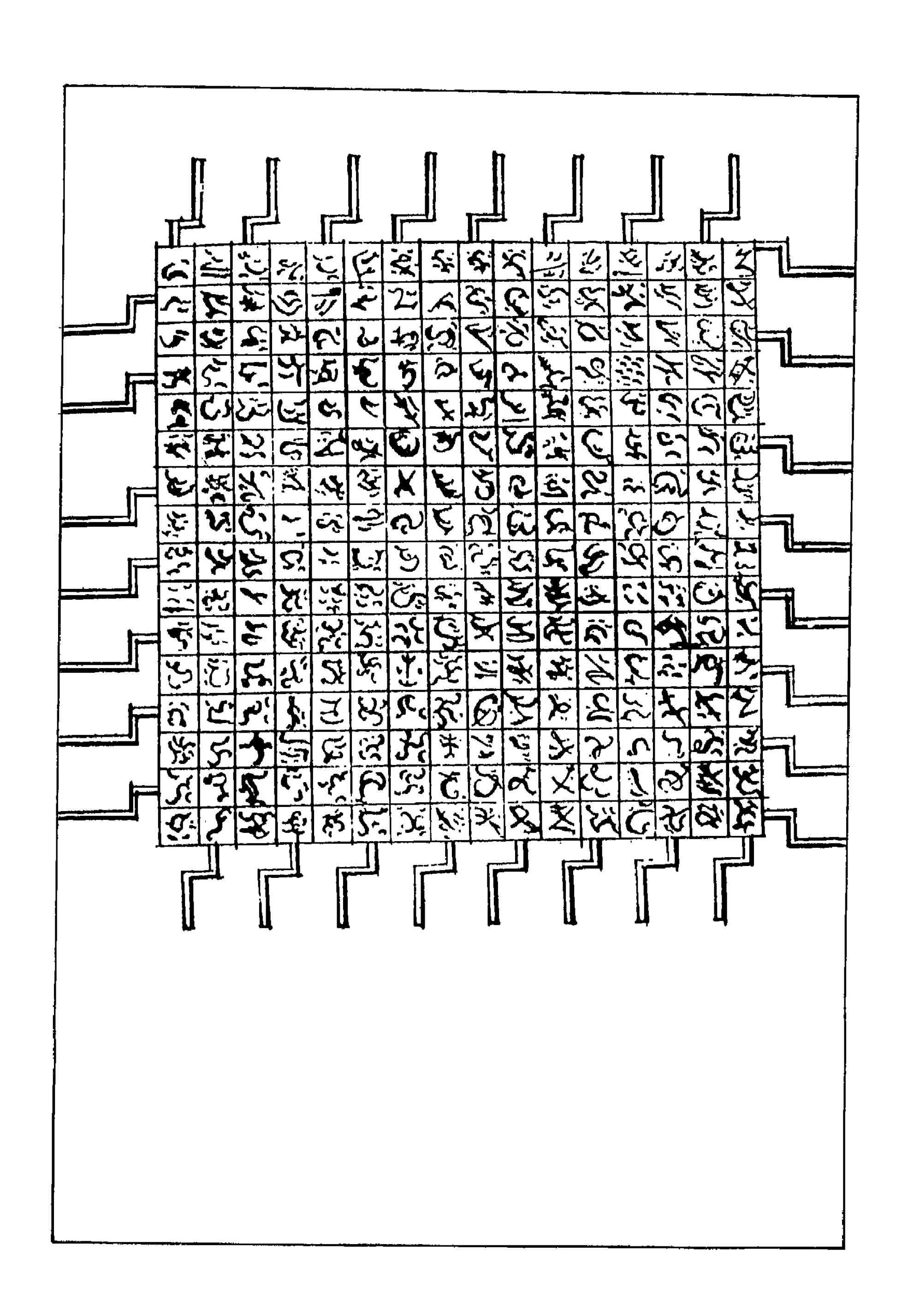
ودخلتُ غرفة أخرى فوجدتُ شِباكَ العناكب تغطي وتتدلّى من السقف وجميع الجدران، وليس فيها سوى ممّرّ ضيق لدخول المخترع الفنان(٨) وخروجه. ولدى دخولي صاح بي هذا الفنان كي لا أخرّب شِباكه. وراح يشكو مُرّ الشكوى من الخطأ الذي وقع فيه العالَم منذ زمن طويل باستعمال ديدان القزّ، في حين أن لدينا هذه الوفرة الهائلة من الحشرات المنزلية التي تتفوّق على ديدان القز تفوقًا لا حدود له لأنها تعرف كيف تنسج وكيف تغزل أيضًا. وقد زَعَمَ زيادة على ذلك أننا باستخدام العناكب سنوفّر كل تكاليف صبغ المنسوجات الحريرية. وقد اقْتَنَعْتُ كل الاقتناع حين أراني مجموعة هائلة من الذباب الملون بأجمل الألوان، والذي يغذي به العناكب، مؤكـدًا لنا أن الشِّباك ستأخذ لون الذباب. وزَعَمَ أنه حين يتوفر لديه ذبابٍ من كل الألوان، سيُنْتِجُ ما يُرْضي جميع الأذواق حالما يجد الطعام المناسب للذباب، أي طعامًا يحتوي على مواد صمغية، وزيوتًا ومواد لزجة أخرى ليعطي الخيوط متانة وألوانًا ثابتة.

وكان هناك فلكي تعَهَّد أن يضع ساعة شمسية على ديك الرياح[٩] (مؤشر اتجاه الرياح) فوق مبنى البلدية بواسطة تعديل حركات الشمس والأرض السنوية واليومية لكي تتماشى مع كل التغيرات العَرَضية والمفاجئة في اتجاه الرياح.

كنتُ أشكو من نوبة خفيفة من المَغَص القولوني. عند ذاك أخذني مُرْشِدي إلى غرفةٍ يقيم فيها طبيب عظيم مشهور بعلاج ذلك المرض بعمليات مضادة من الأداة نفسها. كان عنده منفاخان كبيران[١٠] لهما فوهة رفيعة طويلة من العاج. كان يُدْخل هذه الفوهة لمسافة ثماني بوصات داخل الشرج ويسحب الهواء، وبذلك كان يستطيع كما أكد لنا، أن يجعل الأمعاء هزيلة وسَبْطَة (أي غير جَعْدَة) كالمثاني المجففة. ولكنه إذا كان المرض عنيدًا وعنيفًا، فإنه كان يُدْخِل الفوهة والمنفاخان مليئان بالهواء، ويدفع الهواء إلى داخل جسم المريض، ثم يسحب الفوهة ليعيد ملء المنفاخين بالهواء، ويسدّ فوهة الشرج بإبهامه. وحين يكرر هذه العملية ثلاث أو أربع مرات يندفع الهواء خارج الجسم ومعه المواد المؤذية للصحة (كالماء حين يوضع في مضخة) وبهذا يشفى المريض. وقد رأيتُه يجري العمليتين على كَلْب، ولكني لم ألاحظ أي تأثير للعملية الأولى. بعد العملية الثانية، كان الكلب على وشك أن ينفجر حين انطلقت منه بعنف أشياء كريهة جدًا بالنسبة لي ولرفاقي. ومات الكلب في مكانه، وتركنا الطبيب وهو يحاول أن يعيده إلى الحياة بالعملية نفسها.

كنت حتى الآن قد رأيتُ جانبًا واحدًا من الأكاديمية، أما الجانب الآخر فهو مخصص لأنصار العلوم النظرية التأملية الذين سأذكر عنهم شيئًا بعد أن أذكر شخصًا آخر مُهمًّا يُعْرَف بينهم باسم **الفنان العلاّمة العالميّ**[١١]. قال لنا هذا الفنان إنه قضى ثلاثين سنة، سخّرخلالها فكره لتحسين الحياة البشرية. وكان لديه غرفتان مليئتان بالأشياء الغريبة، وخمسون موظفًا يعملون بإشرافه. بعضهم كانوا يحولون الهواء إلى مادة صلبة جافة باستخلاص نترات الصوديوم منه، وتقطير الجزيئات السائلة أو المائية. وآخرون كانوا ينعّمون المرمر والرخام لتحويله إلى وسائد وقطع اسفنجية لِغَرْز الإبَر فيها، وآخرون يحولون حوافر حصان حيّ إلى مادة حجرية لكي لا تصاب بالعَرَج. أما الفنان نفسه فكان في ذلك الوقت مشغولًا بمشروعين عظيمين: الأول، أن يبذر القَشّ (بدل البذور) في الأرض[١٢] مؤكدًا أن القدرة على التكاثر والاستنبات موجودة في القش وليس في البذور، كما أثبت ذلك في عدة تجارب. لكني لم أستطع فَهْمَ هذه التجارب لنقصٍ في ذكائي. أما المشروع الثاني فهو العمل بواسطة خلطة من الأصباغ والمعادن والخضراوات توضع على جلد حَمَلَيْن (أي خروفين صغيرين) من الخارج لتمنع نُمُوّ الصوف عليه. وكان يأمل أنه سيستطيع بعد مدة معقولة أن ينتج سلالة من الخِراف عارية من الصوف[١٣] وينشرها في جميع أنحاء المملكة.

عَبَرْنا الطريق إلى الجزء الآخر من الأكاديمية حيث يقيم، كما أسلفتُ، أنصار العلوم النظرية التأملية.



أول أستاذ رأيته كان في قاعة واسعة جدًّا وحوله أربعون تلميذًا. بعد التحية لاحظ أنني أنظر باهتمام إلى إطارٍ احتل الجزء الأكبر من عرض القاعة وطولها(١٤)، فقال أنني قد أتعجب إذْ أراه يستخدم أشياء عملية وميكانيكية في مشروع لتحسين المعرفة النظرية، ولكن العالَم سيدرك فوائد هذا المشروع بعد وقت قصير، وأنه يستطيع أن يهنئ نفسه بالقول أن هذه الفكرة السامية النبيلة لم تولد قَطّ في رأس أي إنسان آخر. فالكل يعرف أن الطريقة العادية في اكتساب الفنون والآداب والعلوم تتطلب مشقّة كبيرة ومعاناة عظيمة في حين أن اختراعه هذا سيتيح لأكثر الناس جَهْلًا، وبتكاليف معقولة، وبتعب جسمي بسيط، أن يؤلف كُتُبًا في الفلسفة والشعر والسياسة والقانون وعلوم الرياضة وعلوم الدين، دون أن يحتاج إلى أدنى مساعدة من العبقرية أو الدراسة(١٥). ثم قادني إلى الإطار الذي كان طلابه يقفون على جوانبه في صفوف. كان هذا الإطار مربعًا، طول ضلعه عشرون قدمًا، وموضوعًا في وسط القاعة. وكان سطحه يتألف من قطع عديدة من الخشب، كل قطعة بحجم حبة النَّرْد، لكن بعضها أكبر من البعض الآخر، وكلها موصولة ببعضها بواسطة أسلاك رفيعة. وكان كل وجه من الوجوه الستة المربعة في كل حبة مغطى بورقة ملصوقة عليه. وعلى هذه الورقات كُتِبت كل كلمات لغتهم حسب ترتيبها. ثم طلب مني الأستاذ أن ألاحظ ما يحدث لأنه سيشغِّل آلته. ألقى أمرًا لتلاميذه فأمسك كل واحد منهم يدًا حديدية، وكانت هناك أربعون يدًا على جوانب الإطار، حين أدار الطلاب هذه الأيدي فجأة تغير ترتيب الكلمات كله. ثم أَمَرَ ستة وثلاثين من الطلاب أن يقرأوا بصمت السطور كما تظهر على سطح الإطار، وحينما يجدون ثلاث أو أربع كلمات معًا يمكن أن تكوِّن جزءًا من جملة، يُمْلُونها على الطلاب الأربعة الباقين الذين كانوا نَسَّاخين وكَتَبَة. وكُرِّرَت هذه العملية ثلاث أو أربع مرات، وفي كل دورة كانت الآلة مصممة بطريقة تجعل الكلمات تنتقل إلى أماكن جديدة نتيجة تحرك القطع الخشبية بحيث يصبح عاليها أسفلها.

كان الطُّلاّب يُشَغِّلون في هذا العمل ست ساعات يوميًا. وأراني الأستاذ عدة مجلدات ذات ورق بحجم كبير مليئة بأجزاء متناثرة من الجُمَل جُمِعَتْ بهذه الطريقة حتى الآن. وقال إنه ينوي أن يضم أجزاء الجُمَل إلى بعضها، ومن هذه المواد الغنية سيمنح العالم مجلدات كاملة تحوي كل الفنون والآداب والعلوم. وأضاف أن هذه العملية ما تزال قابلة للتحسين، ويمكن أن تصبح أسرع كثيرًا إذا تبرع الجمهور بأموال تكفي لصنع واستخدام خمسمائة إطار كهذا الإطار في **لاجادو**، وإذا أُجْبِر المدراء أن يساهموا مجتمعين.

وأكّد لي الأستاذ أن هذا الاختراع شغل فكره منذ شبابه، وأنه فرّغ كل مفردات اللغة في هذا الإطار، وعمل أدق الإحصاءات بالنسبة العامة في الكتب بين أعداد الحروف والأفعال والأسماء وأجزاء الكلام الأخرى.

وقدمتُ لهذا الشخص اللامع اعترافي المتواضع بأهمية اختراعه وشكري على شرحه العظيم، ووعدتُه إن ساعدني الحظ بالعودة إلى بلادي أنني سأُنصِفُه وأعطيه حقه بأنه المخترع الوحيد لهذه الآلة الرائعة التي أخذتُ منه إذْنًا بنقل شكلها وتصميمها على الورق كما هو مُوَضّح في الشكل الملحق هنا. وقلتُ له، رغم أن العادة أن يَسْرِق علماؤنا الاختراعات بعْضُهُم من بعض[١٦]، مما أدى على الأقل إلى الفائدة التالية: وهي قيام جدل حول أيهم المالك الحقيقي، لكني سأُرَتّب الأمر بحذر وحيطة بحيث يبقى شرف الاختراع كله له وحده ودون منافِس.

بعد ذلك ذهبنا إلى مدرسة اللغات[١٧] حيث كان يجلس ثلاثة أساتذة يتشاورون في كيفية قيام كل واحد منهم بتحسين لغة بلاده.

كان المشروع الأول هو اختصار الكلام[١٨] عن طريق اختصار مقاطع الكلمة ذات المقاطع المتعددة إلى مقطع واحد، وحَذْف الأفعال ومشتقاتها، لأن كل الأشياء التي يمكن تخيلها ليست في الحقيقة سوى أسماء.

أما المشروع الثاني فهو خطة لإلغاء الكلمات كلها. وقيل، تشجيعًا لاتّباع هذه الخطة، إن لها فائدة عظيمة من حيث الصحة والإيجاز، لأنه من الواضح أن كل كلمةٍ نطقها هي إلى حد ما تصغير للرئتين عن طريق الاحتكاك والحتّ[١٩]، وتؤدي بالتالي إلى تقصير أعمارنا. ولهذا عُرِض الحل التالي: بما أن الكلمات ليست سوى أسماء **لأشياء**[٢٠]، فمن المناسب أكثر لكل الناس أن يحملوا معهم الأشياء الضرورية للتعبير عن الحاجات الخاصة التي يريدون التحدث بشأنها. وكان من المؤكد أن يوضَعَ هذا الاختراع موضع التنفيذ، مما كان سيريح الناس ويحفظ لهم صحتهم، لولا أن النِّسْوة ومعهن السَّفَلة والجهلة هددوا بالقيام بثورة إن لم يُسْمَح لهم بحرية استعمال أَلْسِنتهم، على طريقة أسلافهم. وهكذا يظل العامة من الناس أعداء تدودين دائمين للعلم. على أية حال، فإن الكثيرين من أكثر الناس عِلْمًا وحكمة يلتزمون بهذه الخطة الجديدة في التعبير عن أنفسهم **بالأشياء** رغم العيب الوحيد الموجود فيها[٢١]، وهو أنه إذا كانت حاجات المرء مهمة ومتعددة الأنواع فإن عليه أن يحمل على ظهره رزمة أكبر بنسبة أهمية حاجاته وتعددها، إلا إذا كان لديه قدرة على استئجار خادم أو اثنين ليرافقاه ويحملا الرزمة عنه. وكثيرًا ما شاهدتُ اثنين من أولئك الحكماء يكادون يقعون تحت ثقل حملهم، كالباعة المتجولين عندنا. وكان هذان الاثنان عندما يلتقيان في الشارع يضعان حمليهما على الأرض، ويفتحان كيسيهما، ويتحدثان طيلة ساعة معًا، ثم يعيدان الأشياء إلى الكيسين. ثم يساعد أحدهما الآخر في وضع الكيس على ظهره، ويودعان أحدهما الآخر.

لكن يمكن للمرء، في المحادثات القصيرة، أن يحمل من الأدوات في جيبه وتحت إبطه ما يؤدي الغرض. أما حين يكون في بيته فلن يُغْلَب، ولهذا فإن الغرفة التي يتلاقى فيها الناس الذين

يمارسون الكلام بهذه الطريقة تكون مليئة بالأشياء التي تكون في متناول اليد وتكون أساسية للموضوع الذي يتم الحديث عنه بهذا الأسلوب المبتكر.

ومن الفوائد العظيمة التي تُنْسَبُ لهذا الاختراع هو أنه يمكن استعماله كلغة عالمية[٢٢] تفهمها كل الشعوب المتحضرة التي تكون أشياؤها وأدواتها من النوع نفسه عمومًا، أو قريبة الشبه ببعضها بحيث يكون من السهل فَهْم استعمالاتها. وبهذا يصبح السفراء مؤهلين للتعامل مع الملوك ووزراء الدولة الأجانب رغم كونهم غرباء عن لغة أولئك الملوك والوزراء.

وقد ذهبتُ أيضًا إلى مدرسة العلوم الرياضية حيث كان الأستاذ يعلم تلاميذه بطريقة لا يمكن لنا في أوروبا أن نتصورها. فقد كانت الفَرَضية والإثبات تكتبان على رقاقة بسكويت بحبر مصنوع من دواء الرأس. وكان على الطالب أن يبلع هذه الرقاقة على معدة فارغة، ويبقى بعد ذلك دون خبز وماء طيلة ثلاثة أيام. وحين تُهضَم الرقاقة، يصعد دواء الرأس إلى الدماغ حاملًا معه الفرضية والإثبات. لكن نجاح هذه الطريقة لم يتم حتى الآن، ومَرَدُّ ذلك قد يكون خطأ في كمية الدواء أو تركيبته، كما قد يكون عناد الأولاد ومشاكستهم، إذ أنهم يكرهون هذه المضغة ويشمئزون منها بحيث ينتحون جانبًا خِفيةً ويبصقونها قبل أن تفعل فعلها. ولم يتم إقناعهم بعد بالامتناع طويلًا عن الأكل والشرب كما تتطلب المضغة.

الفصل السادس

استكمالٌ لوصف الأكاديمية. المؤلف يقترح بعض التحسينات ويلاقي اقتراحه قبولًا حسنًا.

في مدرسة المخترعين السياسيين لم أجد ما يَسُرُّني. فقد خُيِّل إليّ أن الأساتذة قد فقدوا عقولهم، وهذا مشهد يحزنني على الدوام. كان هؤلاء المتاعيس يقترحون خططًا لإقناع الملوك باختيار المقربين إليهم على أساس ما يتحلون به من حكمة ومقدرة وفضيلة، وتعليم الوزراء الاهتمام بالمصلحة العامة، ومكافأة ذوي الجدارة والمقدرة والخدمات الجليلة، وتربية الأمراء على إدراك أن مصلحتهم الحقيقية هي مصلحة شعوبهم وتقوم وإياها على الأساس نفسه، ووضع الرجل المناسب في الوظيفة المناسبة، وما إلى ذلك من التخريفات المجنونة المستحيلة التي لم تخطر قط على بال إنسان. وهذا أكد لي ما لاحظتُه من قبل، وهو أنه لا يوجد شيء بمثل هذا التهور والتطرف واللامعقولية إلا ويزعم بعض الفلاسفة أنه حق وصواب.

لكني لا بدّ أن أُنصِف هذا الجزء من الأكاديمية وأعترف أن فلاسفته ليسوا جميعًا حالمين وغير عمليين بهذا القدر. فقد كان هناك دكتور متميز ببراعته وضليع، كما ظهر لي، في طبيعة الحكم وأنظمته. وقد كرّس هذا الشخص المشهور دراساته لأمور مفيدة، كإيجاد علاجات ناجعة لكل أنواع المرض والفساد التي تصيب الإدارات العامة نتيجة للرذائل وألوان الوهن والنقائص فيمن يَحْكُمون، وألوان الانحلال والفسق فيمن يطيعون. ذلك أن كل المفكرين والكُتّاب يتفقون أن هناك توازيًا شاملًا بين الجسد الطبيعي والجسد السياسي(1). وبناء عليه فإنه يجب الحفاظ على صِحَّتَيْهما معًا كما يمكن شفاؤهما بالعلاجات نفسها. فمن المسلَّم به أن البرلمانات والمجالس الهامة، كثيرًا ما تعاني من تنافر العناصر الداخلة في تكوينها أو عدم تجانسها(2)، كأن يَكْثُر عنصر أكثر من الحاجة إليه، أو تكثر العناصر الملتهبة أو العناصر الكئيبة السقيمة، أو التي تعاني من عِلَل كثيرة في الرأس أو عِلَل أكثر في القلب، أو من تشنجات حادة أو توترات خطيرة في أعصاب وعضلات اليدين، وعلى الأخص اليد اليمنى، أو من علة في الطحال وما ينجم عنها من نكد وكآبة، أو من كثرة الريح، أو من الدوخان وحالات الهذيان، أو من الأورام المليئة بمواد حديدية كريهة الرائحة، أو من تجشؤات تخرج منها مادة

حامضة راغية، أو من جوعات مسعورة، أو من هضم عسير، أو من عِلَل أخرى كثيرة لا حاجة لذكرها. ولهذا يقترح هذا الدكتور أنه عندما يجتمع مجلس أمة، فإنه يجب أن يحضر أطباء معينون جلسات الأيام الثلاثة الأولى، وبعد انتهاء النقاشات والمجادلات في كل يوم، يقيسون نبض كل عضو، وبعد ذلك يجتمع الأطباء معًا ويدرسون طبيعة الأمراض ويتشاورون في وسائل شفائها، ثم يعودون في اليوم الرابع إلى مبنى مجلس الأمة يحملون معهم الأدوية المناسبة. وقبل أن يأخذ أعضاء المجلس مقاعدهم يُعْطى لكل واحد منهم ما تتطلبه حالته من عقاقير مهدئة للأعصاب أو ملينات أو مطهرات أو مواد كاوية، أو مهدئة للأمعاء، أو مسكنات أو مُسْهِلات أو مضادة للصداع أو مضادة للصفراء أو مضادة للبلغم والخمول أو شافية من الصمم. فإذا أعطت هذه الأدوية النتائج المرغوبة تُكرر في الجلسات التالية، وإلا فإنها تُسْتَبْدَل بدواء آخر أو تُلْغى.

ولا أعتقد أن هذا المشروع سيكلف الشعب كثيرًا، وستكون له، في رأيي المتواضع، فائدة عظيمة في إنجاز الأعمال في تلك البلدان التي يشارك فيها المجلس في السلطة التشريعية، إذ أنه سينجب اتفاق الآراء، ويُقَصِّر المناقشات ويفتح أفواهًا هي الآن مغلقة، ويغلق الكثير من الأفواه التي هي الآن مفتوحة، ويحدّ من تهوّر الشباب ومن تصلّب الشيوخ، وينشّط الكسالى والأغبياء ويهدّئ المتفجرين بالنشاط والذكاء.

ولأن المقربين من الملوك والأمراء يعانون من ضعف الذاكرة أو قِصَرها، يقترح هذا الدكتور نفسه على من كانت له حاجة عند رئيس للوزراء، أولًا أن يذكر حاجته له بإيجاز ووضوح، ثم لدى انصرافه يقرص أنف هذا الوزير، أو يرفسه في كَرْشِه، أو يدوس على مِسْمار إصبعه، أو يشدّ أذنيه، أو يغزّ دبوسًا في عجيزته (إلْيَته)، أو يقرص ذراعه حتى يَزْرَقّ ويَسْوَدّ، وذلك كي لا ينسى الوزير حاجته عنده. وفي كل استقبالات هذا الوزير للناس يعيد العمل نفسه، حتى تُقْضَى حاجته أو تُرْفَض.

كذلك يقترح هذا الدكتور أن يقوم كل عضو في مجلس الأمة، بعد أن يعرض رأيه ويدافع عنه، بالتصويت ضده، لأنه لو فعل كل عضو ذلك لكانت النتيجة النهائية حتمًا في صالح الشعب.

وحين يكون في الدولة حزبان متعارضان بعنف، فإن هذا الدكتور يعرض اختراعًا عظيمًا للتوفيق بينهما، وفيما يلي الطريقة: خذ مئة من رؤساء كل حزب وكوِّن أزواجًا من الحزبين بحيث يكون الرأسان في كل زوج متساويين بأكبر قدر ممكن في حجم الرأس، ثم اجعل عاملين يقومان بنشر الجزء الخلفي من الرأسين بحيث يُقْسَم الدماغ في كل رأس إلى قسمين متساويين، واجعل الشخصين المتعارضين يتبادلان هذا الجزء الخلفي من رأسيهما. ويبدو أن هذا العمل يتطلب حقًا بعض الدقة، ولكن الأستاذ الدكتور أكد لنا أنه لو أُنْجِزَتْ هذه العملية بمهارة وبراعة، فإن الشفاء

من الخلافات الحزبية سيكون أمرًا محتومًا. فهو يناقش الأمر كما يلي: إن نِصْفَي الدماغين إذا ما تُرِكا لمناقشة الأمر مع بعضهما داخل جمجمة واحدة، فإنهما سيتوصلان بسرعة إلى التفاهم وما ينجم منه من اعتدال في الرأي وانتظام في الفكر. وهذا أمر نتمنى لو يحصل في رؤوس مَنْ يتصورون أنهم ما جاءوا إلى الدنيا إلا ليرقبوا حركتها ويتحكموا في خط سيرها. أما بالنسبة إلى اختلاف الأدمغة كمًّا أو كَيْفًا لدى من يديرون التعصب الحزبي، فقد أكد لنا الدكتور، بناء على معرفته الخاصة بالموضوع، أنه ليس إلا أمرًا بسيطًا.

وقد سمعتُ نقاشًا حاميًا بين أستاذين حول أحسن الوسائل وأنجع الطرق لجمع المال للدولة دون إرهاق الرعية. وقد أصرَّ الأول على أن أعدل طريقة هي فرض ضريبة محددة على الرذائل والحماقات. وأن المبلغ الذي يُفْرَض على كل إنسان يتم تحديده بطريقة منصفة من قِبَل هيئة من جيرانه. لكن الأستاذ الثاني كان له رأي معارض تمامًا، وهو فرض ضريبة على تلك المزايا الجسدية أو العقلية التي يُقيِّم الناس أنفسهم على أساسها، على أن يكون مبلغ الضريبة متفقًا مع درجة تفوقهم في تلك المزايا، وعلى أن يُتْرَك تقدير درجة التفوق للأشخاص المعنيين وحدهم. ويجب أن تكون أعلى ضريبة على أولئك الذين يجدون حظوة كبرى عند الجنس الآخر ويتم تقديرها حسب عدد وطبيعة الخدمات والهبات التي ينالونها كما يقررونها هُمْ. كذلك فإن الذكاء، والألمعية، والشجاعة، والتهذيب تُجْبى عليها ضرائب كبيرة تُقَدَّر قيمتها بالأسلوب نفسه وحسب الكمية التي يزعمها كل شخص لنفسه من هذه الصفات. أما بالنسبة للشرف والعدل والحكمة والعلم فلا تُفْرَض عليها أية ضريبة، لأنها صفات من نوع خاص لا يعترف أحد بوجودها في جيرانه، ولا يهمه أن تكون متوفرة فيه.

أما النساء فتُفْرَض عليهن الضرائب تبعًا لجمالهن وأناقة ملابسهن، ولهنّ هنا ما للرجال من امتياز، وهو أن تكون المرأة هي التي تحدد مقدار هاتين الصفتين فيها. أما الإخلاص والطهر والفكر السليم والطبيعة الخيرة، فهذه تُعْفَى من الضرائب لأنها لن تغطي نفقات جبايتها.

ولكي يبقى أعضاء مجلس الأمة مخلصين للتاج اقتُرِح أن يُجْرُوا قرعة على الوظائف، على أن يُقْسِم كل منهم، ويقدم كفالة، على أن يصوِّت للعرش سواء فاز أم لم يفز. بعد ذلك يكون للخاسرين حرية الدخول في القُرْعة على الوظيفة الشاغرة التالية. وبهذا يبقى الأمل بالفوز حَيًّا، ولن يتذمر أحد من وعود لم تُنَفَّذ، ولكن ينسبون خيبات آمالهم إلى الحظ الذي هو ذو منكبين أعرض وأقوى من منكبي الوزارة.

وأراني أستاذ آخر بحثًا كبيرًا يحتوي على تعليمات حول كيفية اكتشاف المكائد والمؤامرات ضد الحكومة، فهو ينصح كبار رجال الدولة أن يفحصوا أنواع الطعام الذي يأكله المشبوهون، والأوقات

التي يأكلون فيها، والجنب الذي ينامون عليه، واليد التي يمسحون بها قفاهم، وأن يفحصوا كذلك برازهم فحصًا دقيقًا: لونه، ورائحته، وطعمه، ودرجة تماسكه، ودرجة هضمه، ومن ذلك كله يتوصلون إلى حكم خاص بأفكارهم وخططهم، لأن الناس قلما يكونون جادّين وذوي تفكير عميق ومركّز بقدر ما يفعلون ذلك وهم على كرسي المرحاض. وادعى الأستاذ أنه اكتشف ذلك بعد تجارب متكررة، إذ أنه اكتشف أنه حين يفكر، على سبيل التجربة، باغتيال ملك، يكون لون برازه أخضر، ولكن اللون يختلف حين يفكر فقط في خلق تمرد على السلطات أو في حرق العاصمة.

كان البحث مكتوبًا بذكاء بالغ ويحتوي على ملاحظات عديدة غريبة ومفيدة للسياسيين، ولكنه، كما تهيأ لي، لم يكن كاملًا. وقلتُ هذا للمؤلف وعرضتُ عليه أن أزوّده، إن رغب، ببعض الإضافات. واستقبل عَرْضي بِرِضًا لم نتعوده من الكُتّاب، لا سيما المخترعين منهم، وقال إنه يسعده أن يحظى بمعلومات أخرى.

وأخبرتُه أن الشعب في مملكة طيربانيا[٣] التي يسمّيها أهلها **ارتلجنا**، والتي أقمتُ فيها طويلًا، يتألف في معظمه من مكتشفين، ومخبرين، ومتهمين، ووكلاء نيابة، وشهود زور، وتابعيهم ومن لفّ لفّهم، وكلهم تحت إمرة وتوجيه وتمويل وزراء ونوابهم. المؤامرات في تلك المملكة تحاك[٤] من قِبَل من يريدون أن يبنوا لأنفسهم شهرة بأنهم سياسيون دُهاة، أو أن ينفخوا قوة جديدة في إدارة مجنونة، أو أن يخنقوا أصوات أصحاب التظلمات، أو أن يلهوا الناس عن تظلماتهم، أو أن يملؤوا خزائنهم بالأموال المصادرة من المتهمين، أو أن يرفعوا أو يخفضوا قيمة السندات الحكومية حسبما يخدم ذلك مصالحهم الخاصة. فهم أولًا يقررون ويتفقون على أسماء المشبوهين الذين سَيُلْصِقون بهم تهمة التآمر، ثم يتخذون كل الإجراءات الكفيلة بإحراز رسائلهم وأوراقهم الأخرى، ثم يضعونهم في السلاسل. ثم تُعطى تلك الأوراق إلى مجموعة من الفنانين المتخصصين في اكتشاف المعاني الغامضة والخفية للكلمات والمقاطع والحروف. وعلى سبيل المثال، فإن عبارة «مرحاض مغلق» تعني عند هؤلاء المتخصصين «مجلس الشورى»، و«سِرْب من الإوَزّ» تعني «مجلس الأمة»، و«كلب أعرج» تعني «العدو الغازي»، و«الصقر الحوام»[٥] تعني «وزير»، و«مرض النقرس» تعني «رجل دين ذا مرتبة عالية»[٦]، و«القرد» تعني «وزير دولة»، و«مِبْوَلة غرفة النوم» تعني «لجنة من الكبار»، و«الغربال»[٧] تعني «سيدة من سيدات القصر»، و«مكنسة» تعني «ثورة»، و«مصيدة فئران» تعني «وظيفة»[٨]، و«حفرة بلا قرار» تعني «وزارة الخزانة»، و«بالوعة» تعني «القصر»، و«قبعة وأجراس» تعني «أحد المقربين» أو «أحد أصحاب الحظوة»، و«عصا مكسورة» تعني «المحكمة»، و«برميل خمر» تعني «جنرال»، و«عاهة مستديمة» تعني «الإدارة».

وإذا فشلَتْ هذه الطريقة، فإن لديهم طريقتين غيرها أكثر فعالية وجدوى. الأولى، أن يجدوا

للحروف الأولى في الكلمات معاني سياسية. فمثلاً حرف «ن» يعني «مؤامرة»، وحرف «ب» يعني فرقة فرسان، وحرف «ل» يعني «أسطولاً في البحر». الثانية أن يغيروا مواقع الحروف في أية ورقة مشبوهة، وبهذا يكشفون خفايا خطط الحزب المعادي. وعلى سبيل المثال، لو كتب شخص لصديقه: الحَجَّةُ امرأة **مُناوِر قاوَمَتْ**، فإن شخصًا ماهرًا في هذا الفن سيكتشف أن حروف هذه الجملة يمكن بتغيير مواقعها أن تؤلف الجملة التالية: **قاوموا. المؤامرة ناجحة ـ تور**[٩]. وهذه هي طريقة تغيير مواقع الحروف.

وشكرني الأستاذ كثيرًا على تزويده بهذه الملاحظات، ووعد أن يذكرني ذكرًا حميدًا في بحثه.

ولم أرَ في هذه البلاد ما يدعوني لإطالة إقامتي فيها، فبدأتُ أفكر بالعودة إلى إنجلترا.

الفصل السابع

المؤلف يغادر لاجادو ويصل إلى مالدونادا[1]. لا يجد سفينة جاهزة للسفر فيقوم برحلة قصيرة إلى جْلُوبْ دُوبْ دْرِبْ[2]. استقبال الحاكم له.

القارة التي تحتل هذه المملكة جزءًا منها، تمتد، كما أعتقد، شرقًا إلى ذلك الجزء المجهول من أمريكا الذي يقع غربي كاليفورنيا، وشمالاً نحو المحيط الهادي، والذي لا يبعد أكثر من مائة وخمسين ميلًا عن **لاجادو**، ويوجد فيه ميناء عامر وتجارة نشطة مع جزيرة **لوجناج**[3] الكبيرة الواقعة إلى الشمال الغربي عند خط العرض ٢٩ شمالاً وخط الطول ١٤٠. وجزيرة **لوجناج** هذه تقع إلى الشرق الجنوبي من **اليابان** وعلى بعد مائة فرسخ منها. وثمة تحالف قوي بين **الامبراطور الياباني** وملك **لوجناج**، مما يتيح الفرصة للسفر المتكرر بحرًا من إحدى الجزيرتين إلى الأخرى. ولهذا قررتُ السير في هذا الطريق كي أعود إلى أوروبا. استأجرتُ بغلين ومرشدًا ليَدُلّني على الطريق ويحمل أمتعتي القليلة. وودَّعتُ مضيفي النبيل الذي كان قد أكرمني غاية الإكرام وأهداني عند سفري هدية سخية.

ولم يحدث في رحلتي أية حوادث أو مخاطر تستحق الذكر. وحين وصلتُ إلى ميناء **مالدونادا** (هكذا يسمونه) لم يكن فيه سفينة متجهة إلى **لوجناج**، وكان من غير المحتمل أن تتوفر سفينة كهذه إلا بعد بعض الوقت. حجم هذه المدينة كحجم **بورتسماوث في إنجلترا**. وسرعان ما التقيتُ ببعض المعارف الذين استقبلوني استقبالاً كريمًا. وقال لي شخص مرموق، بما أن السفن المتوجهة إلى **لوجناج** لن تتوفر قبل أقل من شهر، فقد يكون من الممتع أن أقوم بزيارة إلى جزيرة **جْلُوبْ دُوبْ دْرِبْ** الصغيرة التي تقع على بعد خمسة فراسخ إلى الغرب الجنوبي، وعَرَض أن يذهب معي برفقة صديق آخر وأن يزودني بقارب صغير مناسب لهذه الرحلة.

جْلُوبْ دُوبْ دْرِبْ، بقدر ما أستطيع أن أفسِّر الكلمة، تعني **جزيرة السحرة والمشعوذين**. مساحتها تعادل تقريبًا ثُلْث مساحة جزيرة **وايْتْ** في إنجلترا، وهي خصبة جدًا ويحكمها رئيس قبيلة من السحرة. أبناء هذه القبيلة لا يتزوجون إلا من القبيلة، وأكبرهم سنًا هو الأمير أو الحاكم، وله قصر عظيم وحديقة من ثلاثة آلاف فدان محاطة بسورٍ من الحجر المنقوش ارتفاعه عشرون قدمًا.

وفي الحديقة مناطق مُسَوَّرة مُخَصّصة للأنعام، وأخرى لزراعة الحبوب، وثالثة للبساتين.

يقوم بخدمة الحاكم وأسرته خَدَمٌ غير عاديين، فهو بما لَهُ من مهارة في السحر يستطيع أن يُحْضِر من يشاء من الأموات ويأمرهم بخدمته أربعًا وعشرين ساعة، ولكن ليس أطول من ذلك؛ كما لا يستطيع أن يُحْضِر الأشخاص أنفسهم مرة ثانية قبل مرور ثلاثة أشهر إلا في مناسبات غير عادية.

حين وصلنا إلى الجزيرة في حوالي الحادية عشرة صباحًا، ذهب إلى الحاكم واحد من السيدين المرافقين لي وطلب الإذن بالمثول بين يدي سموه لشخص غريب جاء خصيصًا لنيل هذا الشرف. وتمت الموافقة على هذا الطلب، فورًا فدخلنا نحن الثلاثة من بوابة القصر وسِرْنا بين صفين من الحرس يلبسون زيًا غريبًا، وكان في سِحَنهم شيء اقْشَعَرَّ منه بدني خوفًا ورعبًا يجلاّن عن الوصف. ومَرَرْنا بأجنحة عديدة في القصر وبين خَدَمٍ من النوع نفسه مصطفين على الجانبين حتى وصلنا إلى قاعة الاستقبال. وبعد انحناءات احترام ثلاثة، وبعض الأسئلة العامة سُمِحَ لنا بالجلوس على ثلاثة كراسي بلا ظَهْـر عند الدرجة السفلى من الدرج المؤدي لعَرْش سموه. وكان يفهم لغة بالنيباربي مع أنها تختلف عن لغة جزيرته. وطلب مني أن أحدثه عن رحلاتي. ولكي يُفْهِمني أنه سيعاملني دون تكلف أو رسميات صرف الخدم والمرافقين بإشارة من إصبعه. وأصابني الذهول حين رأيتهم يختفون في لمحة، وكأنهم صُوَر من حلم تختفي فجأة حالما نستيقظ. وبقيتُ فترة لا أتمالك نفسي حتى طمأنني الحاكم أنني لن أُصاب بأي أذى. وحين لاحظتُ أن رفيقيَّ اللذين كانا قد استُقْبلا عدة مرات بالأسلوب نفسه مطمئنان، بدأتُ أتشجع وسرَدْتُ لسُمُوّه تاريخًا موجزًا عن رحلاتي العديدة، ولكن بشيء من التردد. وكثيرًا مـا نَظَرْتُ خلفي إلى المكـان الذي رأيتُ فيـه أولئك الخـدم الأشباح. وتشرفتُ بتناول العشاء مع الحاكم وكان يقدم لنا الطعام ويخدمنا على المائدة مجموعة جديدة من الأشباح. ولاحظتُ أنني الآن أقل رُعْبًا مما كنتُ عليه في الصباح. ومكثتُ حتى غروب الشمس ولكني رَجَوْتُ سموه أن يعفيني من قبول دعوته للإقامة في القصر. وأقمتُ مع صديقيَّ في بيت خاص في المدينة المجاورة التي هي عاصمة هذه الجزيرة الصغيرة، وعُدْنا في الصباح التالي تأدية لواجبنا نحو الحاكم، كما أمرنا.

وبقينا في الجزيرة عشرة أيام قضيناها بالأسلوب نفسه: نقضي النهار مع الحاكم ونعود في الليل إلى محل إقامتنا في المدينة. وسرعان ما أَلِفْتُ مشهد الأرواح والأشباح. في المرة الثالثة أو الرابعة لم أشعر بأي خوف منها، أو تغلَّب فضولي على ما تبقى من مخاوفي. ذلك أن سموّ الحاكم أمرني أن أستدعي من أشاء من الأموات[٤]، أيًّا كان عددهم، ومن بداية العالم حتى عصرنا. وكان يأمرهم أن يجيبوا على أية أسئلة أوجهها لهم، شريطة أن تقتصر الأسئلة على العصور التي عاشوا فيها. وقال

الحاكم إنني يمكن أن أطمئن إلى أنهم لا بد أن يخبروني بالحقيقة، لأن الكذب أمر لا يجدي في العالم السفلي.

وقدمتُ آيات الشكر لسموه على هذه المكرمة العظيمة. كنَّا في قاعة تطل على مكان واسع من الحديقة. ولأن أول رغبة لي كانت أن أمتع نفسي بمشاهد تتجلى فيها مظاهر العظمة والفخامة، فقد طلبتُ أن أشاهد **الاسكندر** العظيم على رأس جيشه بُعَيْد معركة **أَرْبيلا**(٥). وبحركة من إصبع الحاكم ظهر هذا المشهد في ميدان واسع تحت النافذة التي كنا نقف عندها. ودُعِي **الاسكندر** لدخول القاعة. وبصعوبة شديدة فهمتُ لغته اليونانية، فأنا لم أكن أعرف منها إلا القليل. وأكد لي بشرفه أنه لم يَمُتْ مسمومًا، ولكنه مات من حُمّى ونتيجة الإفراط في احتساء الخمور(٦).

بعد ذلك رأيتُ **هانيبال** يعبر جبال **الألب** وأخبرني أنه لم يكن لدى جيشه نقطة واحدة من الخَلّ(٧).

ورأيتُ **قيصر وبومبي** على رأس جيشيهما قُبَيل اشتباكهما(٨). ورأيتُ أولهما في انتصاره العظيم الأخير(٩). وطلبتُ أن أرى مجلس الشيوخ في روما في إحدى القاعات، ومثيلًا له معاصِرًا في قاعة مقابلة. بدا لي الأول مجلس أبطالٍ وأنصاف آلهة، بينما تَبيّن أن الثاني لا يضم سوى عصابة من الباعة والنشالين وقطاع الطرق وحُماة العاهرات.

وبناء على رغبتي طلب الحاكم من **قيصر** و **بروتوس**(١٠) أن يتقدما نحونا. وغمرني إحساس بالإجلال العميق لدى رؤية **بروتوس**، إذ اكتشفتُ بوضوح في كل ملمح من ملامح وجهه أمارات الفضيلة الكاملة، والبسالة العظيمة، والرأي السديد الحازم، وحب البلاد الصادق، وحب الخير للبشر قاطبة. وقد سرّني أن أرى هاتين الشخصيتين على وفاق تام مع بعضهما. وقد اعترف لي **قيصر** بمحض إرادته أن أعظم أعمال حياته أدنى في أهميتها وعظمتها بكثير من العمل المجيد الذي قام به **بروتوس** حين أنهى حياة **قيصر**. وتشرفتُ بحديث طويل مع **بروتوس**، أخبرني فيه أنه يحيا على الدوام في مجموعة تضم ستة من أعظم عظماء التاريخ، تضمه هو، وجدّه **يونيوس**، **وسقراط**(١١)، **وإيبامينونداس**(١٢)، **وكاتو** الابن(١٣)، والسير **توماس مور**(١٤)، ولا تستطيع كل العصور في العالم أن تضيف لهم سابعًا له مثل عظمتهم.

وقد يَمَلّ القارئ لو أزعجتُه بتلك الأعداد الضخمة من الشخصيات الشهيرة التي أُمِرَتْ بالظهور، لإرضاء نهمي الذي لا يشبع لرؤية العالم في العصور القديمة وهو يمرّ أمام ناظري. ولقد مَتَّعْتُ بصري بمشاهدة من حطموا الطغاة وقضوا على المغتصبين، ومَنْ أعادوا للأُمَم المضطهدة حقوقها وللشعوب المظلومة حريتها. لكن من المستحيل أن أعبِّر للقراء عن سعادة نفسي ورضا خاطري بذلك، بأسلوب يمتعهم وينال رضاهم.

الفصل الثامن

تكملة لوصف جْلوبْ دوبْ دْرِبْ. تصحيحٌ للتاريخ القديم والحديث.

تعمدتُ تخصيص يوم لمشاهدة القدماء الذين حازوا على شهرة عظيمة بفضل ذكائهم وفطنتهم وعلمهم. وطلبتُ أن أرى **هوميروس**[١] **وأرسطو طاليس** على رأس من قاموا بنقدهما وتفسيرهما والتعليق عليهما، وكان هؤلاء من الكثرة بحيث ظهر منهم المئات وملأوا جميع حجرات القصر. لكني استطعتُ من أول نظرة أن أميز البطلين من جمهور النقاد، وأحدهما من الآخر. كان **هوميروس** الأطول والأوسم، إذ كان يسير منتصب القامة رغم كِبَر سنه، وكانت عيناه من أشد العيون التي رأيتُها سرعة وقوة ونفاذًا[٣]. أما **أرسطو** فكان مقوس الظهر ويتوكأ على عصا، كما كان وجهه نحيلًا، وشعره سبطًا وخفيفًا وصوته أجوف. وسرعان ما اكتشفتُ أنهم غرباء تمامًا على بقية المجموعة ولم يريا أحدًا منهم أو يسمعا به. وقد همس لي أحد الأشباح[٣]، الذي سوف لا أذكر اسمه، أن هؤلاء المعلقين والمفسرين يحرصون دائمًا على البقاء بعيدًا عن هذين المؤلفين العظيمين في العالم السفلي، إحساسًا بالذنب والخجل لأنهم أساءوا فهمهما وفَسَّروهما للأجيال اللاحقة تفسيرات خاطئة جدًا. وقدمتُ إلى **هوميروس** المفسِّرَيْن **دايديموس**[٤] **ويوستاثيوس**[٥] وأقنعتُه أن يعاملهما بأحسن مما يستحقان. لأنه سرعان ما اكتشف أنهما تنقصهما العبقرية اللازمة لفهم شاعر[٦]. أما **أرسطو** فقد ضاق ذرعًا بما حدثته عن **سْكوتَس**[٧] **وراموس**[٨] وأنا أقدمهما له. وسألهما إن كانت قبيلة الشرَّاح والمفسرين كلها أغبياء ومغفلين مثلهما.

ثم طلبتُ من الحاكم أن يستدعي **ديكارت**[٩] **وغاسِنْدي**[١٠] اللذين أقنعتُهما أن يشرحا فلسفتهما **لأرسطو**. واعترف هذا الفيلسوف العظيم دون تردد بأخطائه في الفلسفة الطبيعية. لأنه كان في أمور كثيرة يحكم تخمينًا كما لا بد أن يفعل كل الناس. ووجد أن فلسفة **غاسندي**، التي رَوَّجَتْ لفلسفة **أبيقور** في الطبيعة، وفلسفة **ديكارت** قد ثبت بطلانهما. وتنبأ بالمصير نفسه **لنظرية الجاذبية**[١١]، التي يتحمس لها ويؤكد صحتها المفكرون الحديثون. وقال إن النظريات الحديثة حول الطبيعة ليست سوى أنماط جديدة تتغير في كل عصر، وإنه حتى أولئك الذين يزعمون أنهم أقاموا

نظرياتهم على المبادئ الرياضية[١٢] سيزدهرون لفترةٍ قصيرةٍ من الزمن ثم يختفون بعد أن تنتهي فترة ازدهارهم.

وقضيتُ خمسة أيام في الحديث مع الكثيرين الآخرين من المفكرين القدماء. ورأيت معظم الأباطرة الرومانيين الأوائل. وأقنعتُ الحاكم أن يستدعي طباخي **إيليوغابالوس**[١٣] ليطهوا لنا عشاءً، لكنهم لم يستطيعوا أن يُرونا مهارتهم في الطبخ لعدم توفر المواد. وقد أعدّ لنا أحد خدم **أجيسيلوس** طبقًا من المرق الاسبارطي[١٠]، لكني لم أستطع أن أبتلع ملعقة ثانية منه.

كان السيدان اللذان جاءا معي إلى الجزيرة مضطرَّيْن للعودة بعد ثلاثة أيام لمتابعة مصالحهم، فكرستُ هذه الأيام لمشاهدة بعض الأموات الحديثين من الذين ذاع لهم صيت في المائتي سنة أو الثلاثمائة سنة الماضية في بلدنا وفي البلدان الأوروبية الأخرى. ولأنني معجب أيما إعجاب بالعائلات المشهورة العريقة، فقد طلبتُ من الحاكم أن يستدعي دستة أو اثنتين من الملوك، مع أسلافهم حتى الجيل الثامن أو التاسع. لكن خيبة أملي كانت محزنة وغير متوقعة. ذلك أنني لم أجد صفًا طويلاً من الرؤوس المتوجة بتاج المُلك في كل عائلة. ففي إحدى العائلات رأيت اثنين من عازفي الكمان المعروفين بلهوهم وعبثهم، وثلاثة من رجال الحاشية مشهورين بأناقتهم، ومُطْران **إيطالي**؛ وفي عائلة أخرى رأيت حلاقًا ورئيس دير الرهبان واثنين من الكرادلة[١٥]. لكن احترامي الشديد للرؤوس المتوجة يمنعني من الوقوف طويلًا عند هذا الموضوع الحساس. أما بالنسبة لذوي الألقاب ممن يحملون لقب **كونط**، أو **ماركيز** أو **دوق** أو **إيرلْ** فالأمر مختلف. وأعترف أنني شعرتُ بشيء من السرور حين وجدتُ نفسي قادرًا على معرفة أصول الملامح الخاصة التي تتميز بها بعض العائلات. فقد اكتشفتُ بوضوح المصدر الذي أخذت منه إحدى العائلات ذقنًا طويلًا، ولماذا كَثُر الأوغاد والمدلّسون في عائلة أخرى لمدة جيلين كما كَثُر فيها الحمقى والمغفلون جيلَيْن آخرين، ولماذا يكثر المخبولون في عائلة ثالثة، والمقامرون والنصّابون في رابعة. كذلك عرفتُ مصدر ما قاله **بوليدور فيرجيل** في إحدى العائلات الشهيرة: «ليس فيها رجل شجاع ولا امرأة فاضلة»[١٦]، وعرفتُ كيف أصبح اللؤم أو الغدْر أو الجبن صفات تُعرف بها بعض العائلات كما تُعْرَف بشعارها في الحروب. وعرفتُ من أدخل لأول مرة مرض الزُّهري في إحدى العائلات النبيلة، فتحول في الذُّرِّية والخَلَفِ إلى أورام خبيثة. وزال عني العجَبُ حين رأيتُ الأنساب تصبح مزيفة، فيختلط دم العائلات بدم الغلمان والخدم، والخياطين وسائقي العربات، والمقامرين والموسيقيين العابثين، والممثلين والضباط والنشالين.

لكن أشد ما أثار اشمئزازي هو التاريخ الحديث. ذلك أنني حين تفحصتُ ودققتُ في الأشخاص ذوي الأسماء اللامعة في قصور الأمراء خلال المائة عام المنصرمة، اكتشفتُ مدى التضليل الذي يمارسه المؤرخون المأجورون على الناس، حين ينسبون الأعمال البطولية في الحروب إلى جبناء،

والآراء السديدة إلى مجانين، والإخلاص إلى مدّاحين منافقين، والتدين والتقى إلى ملحدين، والطهر والعفة إلى بني سدوم، والصدق إلى المخبرين الكاذبين؛ وكم من إنسان عظيم بريء حُكِم عليه بالإعدام أو النفي، بسبب استغلال الوزراء الكبار لنفوذهم، وفساد القضاة ومكر الأحزاب؛ وكم من مجرم سافل ارتقى إلى أعلى مراكز الثقة والسلطة والاحترام والكسب. كذلك اكتشفتُ التأثير الكبير الذي يمارسه أصحاب المواخير والمومسات والعاهرات، والقوادون والطفيليون والمهرّجون على تحركات وقرارات المحاكم، ومجالس الأمة ومجالس الشيوخ. ولكم شعرتُ بالاحتقار للحكمة والكرامة البشرية، حين عرفتُ المصادر والدوافع الحقيقية للأعمال الكبيرة والثورات العظيمة في العالم، وعرفتُ الصُّدَف التافهة الحقيرة التي أدَّتْ إلى نجاح تلك الأعمال والثورات[١٧].

وهنا أيضًا اكتشفتُ مدى خُبث وجهل أولئك الذين يزعمون أنهم إنما يكتبون **قصصًا وطرائف، أو تاريخًا سِرّيًا**[١٨]، فيرسلون ملوكًا كثيرين إلى قبورهم بكأس مسموم، ويسجلون حديثًا دار بين أمير ووزيره دون أن يكون معهما ثالث، ويكشفون النقاب عن أفكار وأسرار السفراء ووزراء الخارجية، ودائمًا يقعون في الخطأ. وهنا اكتشفتُ الأسباب الحقيقية لأحداثٍ عظيمة كثيرة أذهلت العالم: كيف أن عاهرة ماهرة في الأساليب الملتوية مارست نفوذًا على مجلس الأمة، وهذا بدوره على مجلس الشيوخ. وقد اعترف أحد القواد أمامي أنه كسب نصرًا بسبب الجبن وسوء القيادة، كما اعترف أحد أمراء البحر أنه هزم العدو الذي كان ينوي أن يسلم أسطوله له [أي للعدو]، لأن معلومات العدوّ كانت ناقصة[١٩]. وأكد لي ثلاثة من الملوك [٢٠] أنهم طيلة حكمهم لم يقوموا قط بترقية شخص يستحق الترقية، إلا إذا حدث ذلك خطأ أو بسبب خيانة وزير موثوق، وأنهم لن يفعلوا ذلك لو عادوا إلى الحياة مرة أخرى، وأثبتوا لي بالحجة القوية أنه لا يَدْعَم العروش سوى الفساد، لأن ذلك الطبع العملي الواثق العنيد الذي تنجبه الفضيلة في الإنسان، ليس سوى عقبة دائمة في تسيير المصالح العامة.

ودفعني الفضول أن أسأل بشكل خاص عن الطرق التي حصل بها الكثيرون على ألقاب رفيعة وأملاك واسعة، وقصرتُ أسئلتي على عصرٍ حديث جدًا، دون أن ألمز الزمان الحالي، لأنني لا أرغب أبدًا أن أسيء حتى للأجانب (وأرجو أن لا يكون القارئ بحاجة لأن أؤكد له أنني بما أقوله حول هذا الموضوع لا أقصد بلادي). وقد استُدعيَ عدد من الأشخاص المعنيين، ولدى توجيه بعض الأسئلة لهم، اكتشفتُ أمورًا مخزية وشائنة جدًا لدرجة أنني حين أفكر فيها أشعر بقلق بالغ. كان حَلْفُ الأيمان الكاذبة، والظلم، والتحريض على الشر، والنصب والتدليس، والقوادة، وأمثالها من النقائص من بين ما اضطروا إلى ذكره، وهي أمور قد يمكن أن ألتمس لها العذر. لكن بعضهم اعترفوا أنهم نالوا مراكزهم وألقابهم وثرواتهم عن طريق اللواط أو الزنا، وآخرون عن طريق تعهير زوجاتهم وبناتهم، وآخرون عن طريق

خيانة بلادهم أو أميرهم، وبعضهم بواسطة دسّ السمّ للآخرين، وأكثر منهم عن طريق تضليل العدالة أو تحريفها للقضاء على الأبرياء. وآمل أن أكون معذورًا إذا جعلتني هذه الاكتشافات أميل إلى تقليل الاحترام العميق الذي أكنّه بفطرتي لأصحاب الألقاب الرفيعة والرتب العالية الذين ينبغي أن ينالوا أعظم الاحترام اللائق بمقامهم السامي منا نحن الأدنى منهم.

وكثيرًا ما سمعتُ عن بعض الخدمات الجليلة التي تؤدَّى للأمراء والدُّوَل، ورغبتُ أن أرى الأشخاص الذين قدموا هذه الخدمات. ولدى الاستفسار عنهم قيل لي إن أسماءهم ليست موجودة في أي سجلّ، فيما عدا القليلين الذين صورهم التاريخ على أنهم أحقر الخونة وأعتى المجرمين. أما الآخرون فلم أسمع قط لهم ذكرًا. وقد ظهروا جميعًا أمامي بنظرات كسيرة وملابس رثة حقيرة، ومعظمهم قالوا لي إنهم ماتوا في فقر وخِزْي، أما الباقون فماتوا على مقصلة أو مشنقة.

ومن بين هؤلاء شخص بدا لي أن قصته غريبة(٢١)، وكان يقف إلى جانبه ابن له في الثامنة عشرة. قال لي إنه كان قائدًا لسفينةٍ عدة سنوات، وإنه في معركة **أكْتيوم**(٢٢) البحرية ساعده حسن الحظ، فاخترق خطوط الأعداء وأغرق ثلاثًا من سفنهم الرئيسية وأسر الرابعة، فكان ذلك هو السبب الوحيد لهرب **أنطونيو**(٢٣) وإحراز النصر. وقال إن الشاب الواقف بجانبه هو ابنه الوحيد الذي قُتِلَ في المعركة. وأضاف أنه لدى انتهاء الحرب، ذهب إلى روما، وبناء على إنجازاته في الميدان، التمس في بلاط الامبراطور **أغسطس** أن يُرَقّى لقيادة سفينة أكبر، كان قائدها قد قُتِل. لكن خدماته أُهْمِلت، وأُعْطِيَت قيادة هذه السفينة إلى صبيّ لم يَرَ البحر في حياته، وهو ابن امرأة اسمها **ليبرْتينا**(٢٤) كانت خادمة لواحدة من خليلات الامبراطور. وحين عاد هذا الشخص إلى سفينته، اتُّهم بإهمال واجبه، وأُعْطِيت سفينته لأحد الغلمان المقرّبين من **بَبْليكولا**(٢٥)، نائب أمير البحر المهزوم. عند ذاك تركَ الخدمة في البحرية وعاش في مزرعة صغيرة على مسافة بعيدة عن روما وأنهى حياته هناك. ودفعني الفضول للتأكد من صدق قصته، فطلبتُ استدعاء **أَجْرِبّيا**(٢٦) الذي كان أمير البحر في تلك المعركة. وحين ظهر هذا أكّد صدق القصة كلها، وأضاف أشياء أخرى لصالح القائد الذي دفعه تواضعه لإخفاء جزء كبير من جدارته وعظيم إنجازاته.

وقد أذهلني أن أجد الفساد يستشري وينتشر في تلك الامبراطورية بسبب ما طرأ عليها من ثراء ورفاه. وهذا قلّل استغرابي من ظهور حالات مشابهة كثيرة في بلدان أخرى حيث سادت الرذائل من كل نوع لمدة أطول، وحيث احتكر الفضل والمديح والغنائم فيها القائد الرئيسي الذي ربما كان أقل الناس استحقاقًا لأي منها(٢٧).

وبما أن كل مَن ظهروا أمامي كانوا بنفس الأشكال والحجوم التي كانت لهم في حياتهم، فقد أحزنني أن ألاحظ مقدار تدهور الجنس البشري وانحطاطه في المئة سنة الأخيرة. أمراض الجدري

والـزهري ومـا ينجم عنهما من عِلّلٍ متعـددة الأعراض والأسـماء، غيرَتْ كـل مـلامـح السَّحَن **الانجليزية**، وقصَّرت طول الأجسام، وصغَّـرتْ حجمها، وأضعفت الأعصـاب، وأرْخَتِ الأوتار والعضلات، وجعلَتْ لون البشرة شاحبًا، كما جعلَتِ اللحم متهدلًا وزَنِخ الرائحة.

وقد انحدرتُ في المستوى الاجتماعي للأموات الـذين طلبتُ مشاهـدتهم، إذ طلبتُ بعض الفلاحين الانجليز من صغار المُلّاك من النمط القديم، الذين كانوا معروفـين ببساطـة أساليبهم وغذائهم وملابسهم، وبالعدل والإنصاف في تعاملهم، وبروحهم المتوثبة للحرية، وببسالتهم وحبهم لبلادهم، وقد تأثرتُ كثيرًا حين قارنتُ الأموات بالأحياء، ووجدتُ الأحياء قد ضحُّوا بفضـائل أسلافهم مقابل بعض القطع من النقود، وباعوا أصواتهم، واكتسبوا بالرشوة والنفاق كل أنـواع الرذيلة والفساد التي يمكن تعلّمها في القصور.

الفصل التاسع

عودة المؤلف إلى مالدونادا. يُبْحِرُ إلى مملكة لوجناج. حَجْزُ المؤلف. يُطْلَب حضوره للقصر. طريقة مثوله بين يدي الملك. رأفة الملك برعيته.

حين جاء موعد رحيلنا، أخذتُ الإذن بالرحيل من صاحب السمو حاكم **جْلوبْ دُوبْ دْرِبْ**، وعدتُ مع رفيقيَّ إلى **مالدونادا**. وبعد أسبوعين من الانتظار كانت هناك سفينة على وشك الإقلاع إلى **لوجناج**. وتكرَّم السيدان وآخرون بتزويدي بالمؤن وتوديعي. واستغرَقَتِ الرحلة شهرًا. واجَهْنا عاصفة هائجة فاضطررنا إلى التوجّه غربًا حتى وصلنا إلى منطقة الرياح التجارية التي تمتد إلى ما يزيد عن ستين فرسخًا. وفي الحادي والعشرين من ابريل ١٧٠٨ أبحرنا في نهر **كلوميجنيج**، وهذا اسم المدينة الميناء الواقعة في الجهة الشرقية الجنوبية من **لوجناج**. ألقينا مرساتنا على بعد فرسخ من المدينة وأعطينا إشارة لطلب مرشد بحري. بعد أقل من نصف ساعة جاء مرشدان بحريان وقادانا بين المياه الضحلة والصخور الخطرة في ذلك الممر، المائي حتى أوصلانا إلى حوض كبير يتسع لأسطول، يقع على بُعد حوالي مائتي متر من سور المدينة.

بعضُ بحارتنا أخبروا المرشِدَيْن، عن خطأ أو بدافع الخيانة، أنني شخص غريب كثير الأسفار، وقام هذان بإخبار ضابط الجمرك بالأمر، فقام هذا باستجوابي استجوابًا دقيقًا. كان يكلمني بلغة **بالنيباربي** التي يفهمها أهل تلك المدينة، ولا سيما البحارة وموظفو الجمارك، بسبب تجارتهم الكبيرة مع **بالنيباربي**. أخبرتُه ببعض التفاصيل وجعلتُ قصتي معقولة ومقبولة بقدر ما أستطيع، لكني اعتقدتُ أنه من الضروري أن أخفي اسم بلادي وأن أزعم أنني **هولندي** لأنني كنت أنوي الذهاب إلى **اليابان**، وكنت أعلم أن الهولنديين هم الأوروبيون الوحيدون المسموح لهم بدخول تلك المملكة[1]. لهذا أخبرتُ الضابط أن سفينتي تحطمتْ على ساحل **بالنيباربي**، وأنني نجوتُ عند صخرةٍ التقطتني عندها الجزيرة الطائرة **لابوتا** (وكان قد سمع عنها مرارًا)، وأنني أحاول الآن أن أصل إلى **اليابان** حيث يمكن أن أجد طريقة مناسبة للعودة إلى بلادي. وقال الضابط إنه لا بد من حجزي حتى تصله أوامر بشأني من القصر الذي سيكتب له على الفور، ويأمل أن يصله الردّ في أسبوعين. ثم وُضِعْتُ في مسكنٍ حيث كان يقف حارس على الباب، لكن كان لي حرية التجول

في حديقة كبيرة، وعوملتُ معاملة لا بأس بها، وكانت نفقات إقامتي وإطعامي على حساب الملك. زارني عدة أشخاص بدافع الفضول، لأنه أذيع أنني جئت من بلاد بعيدة جدًا لم يسمعوا عنها قط.

استأجرتُ شابًا كان معنا في السفينة نفسها ليكون ترجمانًا. وكان من أبناء لوجناج، لكنه عاش عدة سنوات في مالدونادا وصار متمكنًا تمامًا في اللغتين. وهكذا استطعتُ بمساعدته أن أجري حديثًا مع من كانوا يزورونني، ولكن الحديث كان يقتصر على أسئلة منهم وأجوبة مني.

وجاء ردّ القصر في الوقت المتوقَّع، وكان يحتوي على أمر بنقلي مع حاشيتي إلى تْرالْ دْراجْ دُوب أو تْريل دْروج دْريب[٢] (إذْ كانت تُنْطَق بالطريقتين حسبما أذكر) برفقة عشرة من الفرسان. كانت كل حاشيتي ذلك الشاب المسكين الترجمان الذي أقنعتُه بالعمل في خدمتي. وطلبتُ في تواضع أن يُسْمَح لكل منّا بركوب بغل. وسبقنا رسول بمسافة نصف يوم ليبلغ الملك بوصولي، ويرجوه أن يتكرّم بتعيين اليوم والساعة التي سيتفضل جلالته بمنحي الشرف بِلَمْس التراب[٣] من أمام كرسيّ قدمه. هذا هو أسلوب القصر. وقد اكتشفتُ أن الأمر ليس مجرد تعبير رسمي شكلي، إذ عندما سُمِح لي بعد يومين من وصولي، بالمثول بين يدي الملك، أُمِرْتُ أن أزحف على بطني، وألحس البلاط في طريقي. لكن لأنني من الغرباء، فقد نظَّفوا البلاط بحيث لم يكن الغبار مؤذيًا. وعلى كل حال كان هذا تكريم خاص لا يُسمح به إلا لَمنْ هم في أعلى المراتب حين يَطْلبون المثول بين يدي جلالته. أحيانًا يُرَشّ التراب على البلاط عن عمد إذا صدف أن كان للشخص المسموح له بالمثول أعداء أقوياء في القصر. وقد رأيتُ فم أحد اللوردات يمتلئ بالتراب لدرجة أنه حين وصل بزحفه إلى البعد المناسب عن العرش عجز عن أن ينطق كلمة واحدة. ولم يكن هناك علاج أو مخرج من هذه الورطة لأن بَصْق التراب أو مسحه عن الفم في حضرة جلالته كان يعتبر جريمة كبرى. والحقيقة أنه كان هناك عادة أخرى لا أستطيع أن أُحَبِّذها أبدًا. حين كان الملك يرغب في إعدام أيٍّ من نبلائه بأسلوب رقيق متسامح، كان يأمر برشّ مسحوق بُنّيّ ذي تركيبة قاتلة على البلاط، فإذا ما لحسه النبيل، فإنه يموت لا محالة خلال أربع وعشرين ساعة. ولكن إنصافًا للرأفة البالغة التي يتحلّى بها هذا الملك، وحرصه على حياة رعاياه، (ويا ليت ملوك أوروبا يقلّدونه في هذا) لا بد أن نذكر لجلالته أنه يصدر أوامر صارمة بعد كل إعدام من هذا النوع، بغَسْلِ كل جزء من البلاط وصَلَ إليه السّمّ غَسْلًا جيدًا، وإذا أهمل خدمه هذا الأمر فإنهم يتعرّضون لسخطه الملكي. وقد سمعتُه بنفسي يعطي تعليمات بضرورة جَلْد واحد من غلمانه كان مطلوبًا منه أن يخبر الخدم بضرورة غسل البلاط بعد حالة إعدام، لكنه غفل عن فعل ذلك بدافع خبيث، وبسبب هذا الإهمال، لقي شاب طموح من اللوردات، حين سُمِح له بالمثول بين يدي جلالته، مصرعه مسمومًا، مع أن الملك في ذلك الوقت لم يكن ينوي التخلّص منه. لكن هذا الأمير الطيّب تلطف وأعفى الغلام من الجلد بعد أن أخذ عليه عهدًا أن لا يفعل ما فعل دون أوامر خاصة بذلك.

ونكتفي بهذا الاستطراد ونعود إلى قصتنا. بعد أن زَحَفْتُ إلى مسافة أربع ياردات من العرش، رفعتُ نفسي برفقٍ على ركبتيّ، ثم ضَرَبْتُ الأرضَ بجبيني سبع مرات، ثم نطقْتُ الكلمات التالية كما علموني إيّاها في الليلة السابقة: **إيك بلينج جْلوفْ تْروب سْكُوُون سيروم بْلِيوبْ مْلاشْنالْت زْوِين تْنُورْ بالْكْجُوف سْلِيوفَاد جُورْدْلُوبْ آسْتْ**. هذه هي التحية التي تنصّ عليها قوانين تلك البلاد والتي يقولها كل شخص يُسمَح له بالمثول بين يدي الملك. ويمكن ترجمتها إلى ما يلي: **أرجو أن تعيش يا صاحب الجلالة السماوية أكثر من الشمس بأحد عشر قمرًا ونصف**. وقَدْ أجاب الملك على هذه التحية بكلام لم أفهمه، ولكني أجبتُ، كما علّموني بما يلي: **فْلُوفْت دْرينْ يالِيريكْ دْوُ لْدومْ بْراسْتْرادْ ميرْبْلوشْ**، وهي كلمات تعني: إن لساني في فم صديقي. وهذه العبارة تعني أنني أطلب الإذن لإحضار ترجماني. عند ذاك أحضروا الشاب الذي ذكرتُه من قبل، وعن طريقه أجبتُ على كل الأسئلة التي طرحها عليَّ الملك في أكثر من ساعة. كنت أتكلّم باللسان **البالنيباربيّ**، فيشرح ترجماني المعاني إلى لغة **لوجناج**.

وقد سُرَّ الملك كثيرًا برِفْقَتي، وأمر كبير الحجَّاب لديه أن يهيء مسكنًا في القصر لي ولترجماني، وأن يقدم لنا مخصصات يومية لطعامنا، وأن يصرف لي كيسًا كبيرًا من الذهب لنفقاتي العادية.

وبقيتُ في هذه البلاد ثلاثة أشهر انصياعًا لأوامر الملك الذي أسعده كثيرًا أن يكرمني ويعرض عليَّ عروضًا مغرية. لكني رأيتُ من العدل والحكمة والحصافة أن أقضي بقية أيامي مع زوجتي وعائلتي.

الفصل العاشر

مَدْحُ أهل لوجناج. وصف خاص للخالدين (سْترُولْدْ بْرُوجْزْ)[1]، وأحاديث عديدة بين المؤلف وبعض الشخصيات المرموقة حول موضوع الخالدين.

سكان **لوجناج** أناس يتمتّعون بالكرم والتهذيب، رغم أنهم لا يخلُون من شيء من الكبرياء الذي تتميّز به البلاد الشرقية؛ ومع ذلك فهم ذوي أدب جَمّ مع الغرباء ولا سيما أولئك الذين يرضى عنهم القصر. وقد كان لي معارف كثيرون من شخصيات الطبقة الراقية. وإذْ كان ترجماني يرافقني على الدوام، فإن الحديث معهم لم يكن مزعجًا.

ذات يوم كنت مع مجموعة طيّبة من هؤلاء القوم، وسألني شخص مرموق إن كنتُ قد رأيت أحدًا من **الخالدين**، فأجبتُ بالنفي وطلبتُ منه أن يوضح لي ما يقصده بهذه التسمية حين يطلقها على بشر من أبناء الفناء، فأخبرني أنه يصدف أحيانًا، ولكن نادرًا جدًا، أن تنجب عائلة ما طفلاً له بقعة حمراء مستديرة في جبينه، وفوق حاجبه الأيسر مباشرة، وأن هذه البقعة علامة أكيدة أن الطفل لن يموت. وحسب وصفه، لا تزيد مساحة هذه البقعة عن مساحة قطعة نَقْد فِضّية بمبلغ ثلاثة بنسات، لكنها تكبر بمرور الأيام ويتغيّر لونها. ففي الثانية عشرة تصبح خضراء وتستمر كذلك حتى سن الخامسة والعشرين حين تتحول إلى اللون الأزرق الغامق. وفي الخامسة والأربعين تصبح سوداء بلون الفحم وبمساحة الشِّلْن الانجليزي، وبعد ذلك لا يحدث فيها أي تغيير. وقال إن هذه الولادات نادرة الحدوث، وإنه يعتقد أنه لا يوجد في المملكة كلها أكثر من ألف ومائة من هؤلاء من الجنسين، عَدَّ منهم حوالي خمسين في العاصمة، ومنهم طفلة وُلِدت منذ ثلاث سنوات. كما قال إن هذه الإنجابات ليست مقتصرة على عائلات دون غيرها، ولكنها تحدث بمحض الصدفة. كما أن أبناء الخالدين أنفسهم يموتون كغيرهم من الناس.

وأعترف أنني حين سمعتُ حديثه هذا أحسستُ بسرور لا يمكن التعبير عنه. وكان الشخص الذي أسمعني هذا الحديث يفهم لغة **بالنيباربي** التي كنت أتقنها تمامًا. وقد سمعني أنطق بعبارات ربما كانت تنطوي على شيء من التهوّر، إذْ صِحْتُ بنشوة غامرة: ما أسعد الأمة التي قد ينال كل طفل يولد فيها فرصة الخلود، وما أسعد الشعب الذي يتمتع بهذه الأمثلة الحية الكثيرة للفضائل

القديمة، والذي يحظى بوجود حكماء يعلمونه حكمة العصور السالفة كلها. لكن ليس ثمّة سعادة تقارَنُ بسعادة أولئك الخالدين الرائعين الذين يولدون وقد أُعْفُوا من تلك المصيبة العامة التي تخضع لها الطبيعة البشرية، وقد تحررتْ عقولهم من المخاوف، وتحررتْ أرواحهم من عبء الهموم التي ينجبها الخوف الدائم من الموت. وأبديتُ استغرابي لأنني لم ألاحظ وجود أي من هؤلاء الأشخاص الشهيرين في القصر، وخصوصًا أن البقعة السوداء في جباههم، وهي علامة مميزة، تجعل من غير السهل عليَّ أن أغفل عن وجودهم، كما أنه من المستحيل أن يغفل جلالته، وهو الأمير المعروف بحكمته البالغة، عن إحاطة نفسه بعدد من هؤلاء المستشارين الحكماء. لكن ربما كان فضيلة هؤلاء الشيوخ الأجلاء تجعلهم ينأون بأنفسهم عن الفساد والانحلال في حياة القصور. وكم كَشفتْ لنا الخبرة أنّ تَصَلُّبَ الشباب في الرأي، وخلوهم من الهموم، وسرعة تقلبهم، تحول بينهم وبين الاسترشاد بما تمليه حكمة الشيوخ الرصينة. على أية حال، ما دام الملك قد أكرمني بالسماح لي بحضور مجلسه الملكي، فقد صممتُ على أن أنتهز أول فرصة لأعبّر له عن رأيي حول هذا الموضوع بمساعدة ترجماني، وسواء تكرّم بقبول نصيحتي أو رفضها فقد كنتُ مصمّمًا على أمر واحد: ما دام جلالته قد عرض عليَّ مرارًا البقاء في بلاده، فسأقبل هذه المكرمة مع الشكر الجزيل، وأقضي حياتي هنا في التحدث إلى هؤلاء الخالدين الرفيعي القدر، إذا تكرّموا بالسماح لي بذلك.

السيد الذي وجهتُ له حديثي لأنه كان، كما أسلفتُ، يفهم لغة بالنيباربي، قال لي بابتسامة من يُشْفِق على جاهل، أنه سيسُرّه أن تتيسر لي فرصة للبقاء معهم، وطلب إذني أن يشرح للحاضرين ما قلتُه. وفعل ذلك. وراحوا يتحدثون معًا بلغتهم لبعض الوقت، لكني لم أفهم كلمة واحدة من حديثهم ولم أعرف من ملامح وجوههم وَقْعَ حديثي عليهم. بعد صمت قصير أخبرني السيد نفسه أن أصدقاءه وأصدقائي (هكذا عبر عن نفسه) مسرورون جدًا من الملاحظات الحكيمة التي أبديتُها بخصوص فوائد الحياة الخالدة، وأنهم يودّون أن يعرفوا بشكل خاص طريقة الحياة التي أرسمها لنفسي لو قدِّر لي أن أولد كواحد من الخالدين.

أَجَبْتُ أنه من السهل أن يتحدث المرء بحماس وإسهاب حول موضوع مُسْعِد كهذا، ولا سيما بالنسبة لشخص مثلي لأنني كثيرًا ما أسلّيَ نفسي بالأحلام عما كنتُ سأفعله لو كنتُ ملكًا أو قائدًا أو سيدًا ذا نفوذ كبير. وبالنسبة لهذا الموضوع بالذات فإنني كثيرًا ما رسمتُ نظامًا كاملاً لطريقة استغلال قدراتي ومواهبي ووقتي لو كنتُ سأعيش إلى الأبد.

قلتُ: لو كان من حسن طالعي أن آتي إلى الدنيا كشخص خالد، فإنني حالما أدرك مدى سعادتي بعد إدراك الفرق بين الحياة والموت، أسعى في المقام الأول، وبكل الوسائل والطرق، إلى اكتساب ثروة وتنميتها بحيثُ أصبح في مدةٍ معقولة، وفي حوالي مائتي عام، أغنى إنسان في المملكة.

وثانيًا، سأجتهد من أول شبابي في دراسة الآداب والفنون والعلوم بحيث أتفوق مع الأيام على الجميع في ميدان المعرفة. وأخيرًا. سأسجل بكل دقة، كل حَدَثٍ هام في حياة الأمة والمجتمع، وأرسم بموضوعية ودون تحيّز أو تحامل، تتابع الأمراء وكبار الوزراء في مراكز السلطة، وأدوّن ملاحظاتي الخاصة حول كل موضوع، وأسجّل بدقة التغييرات العديدة في العادات واللغة، وأزياء الملابس وطرق التغذية، وأساليب الترفيه، وبهذا كله سأكون كنزًا حيًّا للمعرفة ونبعًا للحكمة، ولهذا لا بد أن أصبح مستشار الأمة ومصدر الوحي فيها.

ولن أتزوج بعد سن الستين. وسأكون مضيافًا دون تبذير، وستكون تسليتي هي تثقيف وتوجيه عقول الشباب الطموحين، وسأقنعهم بواسطة ذكرياتي وخبرتي، وملاحظاتي المدعمة بالأمثلة العديدة بمزايا الفضيلة وفوائدها في الحياة العامة والخاصة. ولكن رفاقي المفضلين الدائمين سيكونون مجموعة من إخواني الخالدين، وسأختار من بينهم اثني عشر شخصًا بعضهم من أطول الخالدين عمرًا وبعضهم من المعاصرين لي. وإذا كان بعض هؤلاء فقراء فسأُسْكِنهم في مساكن مناسبة حول قصري وأملاكي، وأُبْقي بعضهم رفاقَ مائدة دائمين. أما الناس العاديون الفانون، فسأختلط ببعض أفضلهم وأحسنهم، لكن فَقْدَهم لن يحزنني كثيرًا، وقد لا يحزنني البتة، إذ سيكون طول العمر قد جعلني قاسيًا، وسيكون موقفي منهم كموقف المرء من ورود القرنفل وأزهار التوليب في حديقته، إذ لا يأسف على فقده لتلك التي ذبلت في السنة الماضية.

ومع الأيام سنتبادل أنا والخالدون الذكريات والملاحظات والسجلات، ونلاحظ كيفية تسلّل الفساد تدريجيًا إلى العالم، ونقاومه في كل خطوة عن طريق تحذير الناس وتعليمهم. فإذا أضيف هذا إلى تأثير القدوة الصالحة المتمثلة فينا، فإننا قد نمنع ذلك التدهور المستمر في الطبيعة البشرية الذي يشكو منه الناس، وبحق، في كل العصور.

بالإضافة إلى كل هذا، هناك متعةُ مشاهدة التحولات المتنوعة في الدول والامبراطوريات، والتغيرات في الأرض والسماء، والمدن العامرة وهي تصبح خرابًا، والقرى المغمورة وهي تتحول إلى عواصم ومقرات ملوك، والأنهار العظيمة وهي تتحول إلى جداول ضحلة، والمحيط وهو يجف على ساحلٍ ويفيض على آخر، واكتشاف أقطار كثيرة مجهولة حتى الآن، ورؤية شعوبٍ بربرية همجية تهزمُ وتحكم شعوبًا، راقية متحضرة، والبرابرة يتحضرون، وحينذاك سأرى اكتشاف **خطوط الطول**[2]، **والحركة الأبدية**[3] **والدواء الكوني الكامل**[4] واختراعات أخرى كثيرة وهي تصل إلى أعلى درجات الكمال والإتقان.

وسنتوصل إلى اكتشافات عظيمة في الفلك، ونرى تنبؤاتنا تتحقق ونعيش بعد تحقّقها، ونرى ظهور المذنّبات واختفاءها وعودتها، كما نرى التغيرات في حركات الشمس والقمر والنجوم.

وأسهبتُ في الحديث عن مواضيع أخرى عديدة أَوْحَتْ لي بها الرغبة الفطرية في حياة أبدية وسعادة دنيوية. وحين انتهيتُ من حديثي تُرْجِم موجَز منه للحاضرين، كما حدث من قبل، وتبع ذلك كلام كثير فيما بينهم بلغة تلك البلاد، وبعض الضحك عليَّ. وأخيرًا قال السيد نفسه الذي كان يترجم لي ولهم، إنهم طلبوا منه أن يصحح لي بعض الأخطاء التي وقعتُ فيها بسبب التواء فطري في الطبيعة البشرية، ولذلك فهم يتجاوزون عنها ولا يلومونني عليها. أولًا: إن هذه الذرية من **الخالدين** (**سْترولْدْ بروجْ**) لا توجد إلّا في بلادهم، ولا يوجد مثلها في **بالنيباربي** أو في **اليابان** حيث كان سيادته سفيرًا لصاحب الجلالة، ووجد أن الناس فيهما لا يصـدقون أن وجـود أناس خالدين أمر ممكن. وقد ظهر من اندهاشي لدى سماعي بهذا الأمر أول مرة، أن مـوضوع وجـود خالدين جديد كل الجدة، وغير قابل للتصديق. كذلك فإنه لاحظ أثناء إقامته كسفير في المملكتين، ومن خلال لقاءاته وأحاديثه الكثيرة مع الناس، أن طول العمر أمنية يتمنّاها كل البشر، وأن كل من كانت إحدى رجليه في القبر، يحرص بكل قوته على إبقاء الثانية خارج القبر، وأن أكبر الناس سنًّا يأملون أن يبقوا أحياء ولو لمدة يوم واحد، وينظرون إلى الموت كأنه شر مستطير يتحاشونـه دائمًا بالفطرة، وأن أهل هذه الجزيرة **لوجناج** وحدهم يتميّزون بأن شهوة الحياة لديهم ليست بهذه القوة، وذلك بسبب وجود **الخالدين** أمام أعينهم باستمرار.

ثانيًا: إن نظام الحياة الذي رسمتُه غير ممكن وغيرمعقول، لأنه مبني على افتراض دوام الشباب والصحة والقوة، وهو افتراض لا يمكن لأي عاقل مهما بلغ طموحه أن يأمل في حدوثه. ولهذا فإن القضية ليست في أن يختار الإنسان دوام الشباب والازدهار والصحة، بل هي في كيفية الاستمرار في حياة أبدية رغم كل ما يجلبه العمر الطويل معه من عِلَل وهرم وعجز ونقائص، ومع أن القليلين جدًا يرغبون في الخلود في ظل هذه الظروف القاسية، إلا أنه لاحظ خلال وجـوده في **بالنيبـاربي** و**اليابان** أن كل إنسان يرغب في تأجيل الموت بعض الوقت مهما جاء متأخرًا، وقلما سمع بإنسانٍ مات بإرادته إلا إذا دفعه لذلك حزن شديد أو ألم فظيع. وسألني إن كنتُ لاحظتُ هذه الأمور نفسها في بلدي وفي البلدان التي زرتُها.

بعد هذه المقدمة، أعطاني تقريرًا مفصلًا عن أوضاع وحياة **الخالدين** بينهم. قال إنهم عمومًا يتصرفون كما يتصرف الناس العاديون حتى سن الثلاثين. بعد ذلك يسيطر عليهم بالتدريج الغم والكآبة، وتزداد كآبتهم وهمومهم حتى تبلغ أوجها في سن الثمانين. وقد عُرِف هذا من اعترافاتهم، لأنه لا يولد منهم في الجيل الواحد أكثر من اثنين أو ثلاثة، كما أنهم قليلون جدًا بحيث لا يمكن من ملاحظة سلوكهم إصدار أحكام عامة بشأنهم. وحين يصلون سن الثمانين، وهو أكبر سن يصل إليه الناس العاديون في هذه البلاد، لا تجد فيهم فقط كل مظاهر الضعف والتخريف التي تصيب الناس العاديين، بل تجد أيضًا صفات كريهة أخرى تنجم عن إدراكهم لقَدَرِهِم الفظيع المتمثل في كونهم لا

يموتون. فهم لا يصيرون عنيدين ومشاكسين وحسودين وكئيبين ومغرورين وثرثارين فحسب، بل يفقدون أيضًا القدرة على الإحساس بمشاعر الودّ والصداقة، وتموت فيهم عواصف المحبة الفطرية للأهل، إذ لا تتجاوز هذه العواطف أحفادهم. وتسيطر عليهم عاطفتان دون غيرهما، وهما الحسد والشهوات العاجزة. ويتوجه حسدهم بشكل رئيسي إلى شيئين، هما رذائل الصغار وموت الكبار. حين يفكرون في الأولى يجدون أنفسهم عاجزين كليًا عن الاستمتاع بممارستها. وكلما يرون جنازة يحسدون من يصلون إلى ميناء يستريحون فيه من عواطف الحياة، ويندبون حظهم الذي يحرمهم من الوصول إلى ميناء مثله. وهم لا يذكرون من أمسهم إلا ما تعلّموه ولاحظوه في شبابهم ومنتصف عمرهم. حتى هذه الذكريات تصبح مضطربة وناقصة. أما بالنسبة لتفاصيل أية واقعة أو حادثة، فمن الأصح الاعتماد على المصادر التقليدية للمعلومات، بدلاً من الاعتماد على ذكرياتهم هم. ويبدو أن أقل هؤلاء الخالدين تعاسة هم أولئك الذين يصيبهم الخرف ويفقدون الذاكرة كليًا. هؤلاء يحظون بالعطف والمساعدة لأنهم يفقدون صفات كريهة كثيرة تتوفر في الخالدين الآخرين.

وإذا تزوج أحد الخالدين قرينة من جنسه، فإن هذا الزواج يصبح بطبيعة الحال وحسب قوانين المملكة لاغيًا حين يصل أصغر الزوجين سن الثمانين. ويعتبر القانون هذا الإلغاء تساهلاً محمودًا ومعقولاً، لأن مَن يُبْتَلَوْن، دون ذنبٍ اقترفوه، بالحياة الأبدية في هذا العالم، يجب أن لا تُزاد تعاستهم بتحميلهم عبء زوجة.

وحالما يصل هؤلاء سن الثمانين، يصبحون في نظر القانون أمواتًا. وعلى الفور يرث الوارثون ما لهم من أموال وعقارات، ولا يبقى لهم إلا ما يكفي لإعالتهم. أما الفقراء منهم، فتكون إعالتهم على نفقة الدولة. بعد هذه السن أيضًا يُعْتَبر الخالدون غير صالحين للوظائف التي تتطلب قدرات عقلية موثوقة، أو تنطوي على ربح وخسارة، ولا يُسمَح لهم بشراء أراض أو تأجير عقارات، ولا تُقْبَل شهادتهم في أية قضية، مدنية كانت أو جنائية، أو حتى عقارية تختص برسْم الحدود التي تفصل عقارًا عن آخر.

في سن التسعين(٥) يفقد الخالدون أسنانهم وشعرهم، كما يفقدون القدرة على التذوق وتمييز طعام من آخر، ويأكلون ويشربون كل ما يحصلون عليه دون اشتهاء أو استمتاع. كذلك فإن الأمراض التي كانوا يعانون منها، تستمر فيهم دون زيادة أو نقصان. وحين يتحدثون ينسون الأسماء العادية المألوفة للأشياء، كما ينسون أسماء الأشخاص بمن فيهم أقرب أقربائهم وأعز أصدقائهم. وللسبب نفسه لا يستطيعون أن يمتعوا أنفسهم بالقراءة، لأن ضعف ذاكرتهم يجعلهم ينسون بداية الجملة قبل أن يصلوا إلى نهايتها. وبهذا الضعف يُحْرَمون من التسلية الوحيدة التي كان يمكن أن يقدروا عليها.

وبما أن لغة أهل هذه البلاد في حالة تطور مستمر وصيرورة دائمة، فإن الخالدين من جيل ما، لا يفهمون لغة أمثالهم من جيل آخر. وحين يصبح عمرهم مائتي عام، يصبحون عاجزين عن التحدث، إلا بكلمات عامة قليلة، مع جيرانهم من الناس العاديين، وهكذا تضاف إلى تعاساتهم تعاسة العيش غرباء في بلدهم.

هذا هو ما أتذكره من التقرير الذي سمعته عن الخالدين، وقد رأيتُ بعد ذلك خمسة أو ستة منهم، ذوي أعمار متنوعة، لكن أصغرهم لم يكن يقل عن مائتي سنة، وكان بعض أصدقائي قد أحضروهم لي في مرات متعددة. ومع أنه قيل لهم إنني رحالة عظيم، وإنني رأيتُ كل الدنيا، فإن ذلك لم يُثِرْ فضولهم قط. وهم لم يوجّهوا لي أيّة أسئلة. كل ما طلبوه مني هو أن أعطيهم سْلَمْسْ كوداسْكْ، أو رمزًا للذكرى، وهي طريقة ملتوية في الاستجداء لتجنب مخالفة القانون الذي يحظر عليهم الاستجداء، لأن الدولة تقدم لهم ما يحتاجون، رغم أن ما يُعْطى لهم ضئيل حقًا.

كل الناس هنا يكرهون الخالدين ويحتقرونهم، وتُعْتَبر ولادة الواحد منهم علامة شؤم، وتُسَجَّل بدقة متناهية بحيث يمكن معرفة عمرهم بالرجوع إلى السجل العام، لكن عمر هذا السجل لا يزيد عن الألف سنة الماضية، أو أنه كان قد أتلفه الزمن أو الاضطرابات العامة. والطريقة المألوفة لحساب عمرهم هو سؤالهم عن الملوك أو العظماء الذين يستطيعون تذكرهم. ودائمًا لا يكون آخر أمير يذكرونه قد بدأ حكمه بعد بلوغهم سن الثمانين.

وكان منظرهم أبشع منظر رأيته في حياتي، ومنظر النساء كان أبشع من منظر الرجال. فبالإضافة إلى التشويهات المألوفة في ذوي الأعمار الكبيرة جدًا، يكتسب الخالدون بشاعات وتشويهات تتزايد مع تقدمهم في السنين، وهي تشويهات تعجز الكلمات عن تصويرها. وحين رأيتُ نصف دستة منهم، استطعت أن أميّز أكبرهم سنًا، مع أن فارق العمر بين الواحد والآخر لم يكن يزيد عن قرن أو اثنين.

وهكذا يمكن للقارئ أن يصدقني بسهولة إذا قلتُ، إن ما سمعتُه ورأيتُه أضعف كثيرًا شهوتي القوية إلى حياة مديدة، وخجلتُ حتى أعماقي من تلك الأوهام السعيدة التي صورتُها لنفسي. وليس بوسع أي طاغية أن يخترع ميتة لا أهرب إليها بسرور من عيشة كعيشة الخالدين. وقد سمع الملك بكل ما دار بيني وبين أصدقائي حول هذا الموضوع، وداعبني بشأنه مداعبات لطيفة. وتمنيتُ لو أُرْسِل اثنين من هؤلاء الخالدين إلى بلادي لكي أُحَصِّن قومي ضدّ الخوف من الموت. لكن هذا عمل محظور حسب القوانين الأساسية[في المملكة]. ولولا ذلك لرضيتُ بتحمل كل الأعباء والنفقات لحملهما إلى بلادي.

ولم يكن ممكنًا إلا أن أوافق على أن قوانين تلك المملكة الخاصة بالخالدين مبنية على أقوى

الأسباب والمبررات التي يمكن لأي بلد أن تأخذ بها وتطبقها في أوضاع مماثلة. وبما أن الجشع طبيعة ملازمة لطول العمر، فإن أولئك الخالدين قد يملكون مع الأيام كل شيء في البلاد، وبالتالي يحتكرون السلطة المدنية فيها. وبما أنه ليس لديهم القدرة لإدارة الأمور إدارة حكيمة، فإن اتساع ملكهم وزيادة سلطانهم سيؤديان إلى خراب البلاد.

الفصل الحادي عشر

المؤلف يغادر لوجناج ويُبْحر إلى اليابان، ومن هناك يعود في سفينة هولندية إلى أمستردام، ومنها إلى انجلترا.

أعتقد أن هذا التقرير عن الخالدين قد يكون ممتعًا للقارئ لأنه يبدو غريبًا وغير عادي. على الأقل لا أذكر أنني صادفت مثيلًا له في أي من كتب الرحلات[1] التي وقعَتْ في يدي. وإذا كنتُ مخطئًا، فعذري لا بد أن يكون أن الرحالين الذين يصفون بلدًا واحدًا قد يتفقون في الاهتمام بالتفاصيل نفسها، والوقوف عندها في تقاريرهم دون أن يستحقوا تهمة الاستعارة أو النقل ممَّنْ كتبوا قبلهم.

ثمة تجارة مستمرة بين هذه المملكة وامبراطورية اليابان العظيمة، وإنه لأمر كبير الاحتمال أن يكون المؤلفون اليابانيون قد كتبوا بعض التقارير عن الخالدين. لكن إقامتي في اليابان كانت قصيرة جدًا، كما كنت أجهل لغتها جهلًا مطلقًا بحيث لم أكن مؤهلًا للقيام بأي بحوث أو استفسارات. لكن أرجو حين يعلم الهولنديون بهذا الأمر[2]، أن يكون لديهم الفضول والقدرة الكافيين لعمل ما لم أستطع عمله.

بعد أن حَثني جلالة الملك أن أقبل وظيفة في ديوانه الملكي، ووجدني مصممًا تصميمًا قاطعًا على العودة إلى بلادي، تكرَّم ومنحني الإذن بالرحيل، وشرَّفني برسالة توصية بخط يده إلى امبراطور اليابان، وأهداني أربعمئة وأربعًا وأربعين قطعة ذهبية (هذه الأمة تحب الأرقام الزوجية) وقطعة من الألماس الأحمر[3] بعتُها في إنجلترا بألف ومئة باونْدْ.

في اليوم السادس من مايو ١٧٠٩ ودعتُ جلالته وأصدقائي وداعًا رسميًا، وتفضل هذا الأمير فأمر فرقة من الحرس أن ترافقني إلى (جْلانْجِنْ ستالْدْ)، وهي ميناء ملكي في الجزء الغربي - الجنوبي من الجزيرة. بعد ستة أيام وجدتُ مركبًا حملني إلى اليابان في رحلة استغرقَتْ خمسة عشر يومًا. ورسا مركبنا في ميناء بلدة صغيرة اسمها زاموشي، واقعة على الجزء الشرقي الجنوبي من اليابان، أما البلدة فتقع إلى الغرب من الميناء حيث يوجد مضيق ضيق يتجه نحو الشمال في ذراع بحري طويل، تقع على جزئه الغربي الشمالي مدينة ييدو[4] العاصمة. ولدى نزولنا إلى البرّ أطلعتُ ضباط الجمرك

على رسالة ملك **لوجناج** إلى صاحب الجلالة الامبراطور. وكانوا يعرفون الختم جيدًا إذ كان بحجم الكفّ. كان ردّ فعلهم: **ملك يرفع مقام شحاذ أعرج من الحضيض**. وحين سمع وجهاء المدينة بالرسالة استقبلوني استقبال الوزراء، وزوّدوني بالعربات والخدم، وتكفلوا بنفقات سفري إلى **ييدو** حيث مثلتُ بين يدي الامبراطور، وسلمتُ رسالتي وتم فتحها بإجلال عظيم، وفسّرها مترجم للامبراطور، ثم أخبرني هذا المترجم نفسه أن صاحب الجلالة يأمر أن أذكر طلبي، وأيًا كان هذا الطلب فإنه يأمر بتلبيته من أجل أخيه صاحب الجلالة ملك **لوجناج**. كان عمل هذا المترجم الإشراف على الصفقات التجارية مع الهولنديين. وسرعان ما عرف من ملامح وجهي، أنني أوروبي، ولهذا شرح أمر جلالة الامبراطور مرة ثانية باللغة الهولندية التي كان يتكلمها جيدًا. أجبته (كما قررتُ من قبل) أنني تاجر هولندي تحطمتْ سفينته في بلاد بعيدة جدًا، وسافرت منها بعد ذلك برًا وبحرًا حتى لوجناج، ومنها أبحرت إلى اليابان التي أعلم أن أبناء بلدي يتاجرون معها، وأنني آمل أن أجد لدى هؤلاء فرصة للعودة إلى أوروبا. ولهذا فإنني أرجو أن يتكرّم صاحب الجلالة بإعطاء أمر بنقلي سالمًا إلى **نانغازاك**[٥]. وأضفتُ إلى هذا التماسًا آخر، وهو أنه إكرامًا لمولاي ملك **لوجناج**، يتفضل عليّ جلالته بإعفائي من الإجراء الرسمي المفروض على أبناء بلدي، المتمثل في **الدوس بالقدم على الصليب**[٦]، لأن مصائبي هي التي أوْصَلَتْني إلى مملكته، ولأنني لم آتِ للتجارة. وحين تُرْجِمَ هذا الالتماس الأخير للامبراطور بدت عليه الدهشة، وقال إنه يعتقد أنني أول واحد من أبناء بلدي يبدي تحرجًا من هذا الأمر، وأنه يخامره الشك في كوني هولنديًا، وأنه يظن أنني لا بد أن أكون مسيحيًا[٧]، وعلى كل حال فإنه للأسباب التي ذكرتُها، وعلى الأخص إكرامًا للملك لوجناج، فإنه سيلبّي طلبي الغريب هذا. وهذه مكرمة غير عادية من جلالته، لكنه أضاف أن هذا الإعفاء يجب أن يتم بذكاء، وسيأمر ضباطه أن يسمحوا لي بالمرور وأن يتظاهروا بالنسيان. وأكّد لي أنه لو اكتشف أبناء بلدي، **الهولنديون**، سرّ هذا الإعفاء، فإنهم سيذبحونني في رحلة العودة. وشكرتُ جلالته، بواسطة المترجم، على هذه المكرمة العظيمة غير العادية. وكانت هناك فرقة متأهبة حينذاك للذهاب إلى **نانغازاك**، فأمر الامبراطور قائدها بحملي سالمًا إلى هناك، وزوده بتعليمات خاصة بشأن قضية **الصليب**.

في التاسع من يونيو ١٧٠٩ وصلتُ إلى **نانغازاك** بعد رحلة شاقة وطويلة جدًا. وبعد فترة قصيرة التقيتُ بمجموعة من البحارة الهولنديين يعملون في سفينة اسمها **أمبويْنا**[٨] من **أمستردام**، وهي سفينة كبيرة حمولتها ٤٥٠ طنًا. كنت قد عشتُ في **هولندا** مدة طويلة لمتابعة دراستي في **ليدِنْ**، وكنت أتكلم اللغة الهولندية بطلاقة. وسرعان ما عرف البحارة من أين جئت آخر مرة، ودفعهم الفضول إلى السؤال عن رحلاتي وعن مسيرة حياتي، ولَفَّقْتُ لهم قصة قصيرة ومقبولة، وأخفيت عنهم الجزء الأكبر من قصة حياتي. كنت أعرف أشخاصًا كثيرين في هولندا، واخترعتُ اسميْن

لوالديَّ وزعمتُ أنهما شخصين مغمورين من مقاطعة جِلدَرْلانْدْ. وكنتُ مستعـدًا لإعطاء القبطان (ويدعى **ثيودور ڤان جرولت**) ما يحلو له أن يطلبه لقاء حملي معه إلى هولندا، لكنه حين عرف أنني طبيب جراح قَنِع بأخذ نصف الأجر العادي، بشرط أن أمارس مهنتي في سفينته. وقَبل أن نبحر سألني البحارة أكثر من مرة إن كنتُ قمتُ بالإجراء الرسمي الذي ذكرته من قبل، وكنت أتجنب إعطاء الجواب الصحيح، واكتفيت بالقول إنني حُزْتُ على رضا الامبراطور والقصر في كل التفاصيل. لكن بحارًا لئيمًا ذهب إلى ضابط ياباني وأخبره، وهو يشير إليّ، أنني لم أَدُسْ على **الصليب**. لكن الضابط كان قد تسلم تعليمات خاصة بالسماح لي بالمرور، فضرب البحار الواشي اللئيم عشرين ضربة على كتفيه بعصا خيزران. بعد ذلك لم يزعجني أحد بمثل هذه الأسئلة.

لم يحدث في هذه الرحلة شيء يستحق الذكر. كانت الريح مـواتيةً حتى وصلنـا إلى **رأس الرجاء الصالح** حيث توقفنا حتى تزوّدنا بالماء. وفي السادس من ابريل وصلنا سالمين إلى **أمستردام**، بعد أن فقدنا ثلاثة من البحارة بسبب المرض، ورابعًا كان قد سقط من الصاري الأمامي في البحر، على مسافة ليست بعيدة من ساحل **غينيا**. ومن **أمستردامَ** أبحرتُ مباشرة إلى **إنجلترا** في مركب تابع لتلك المدينة.

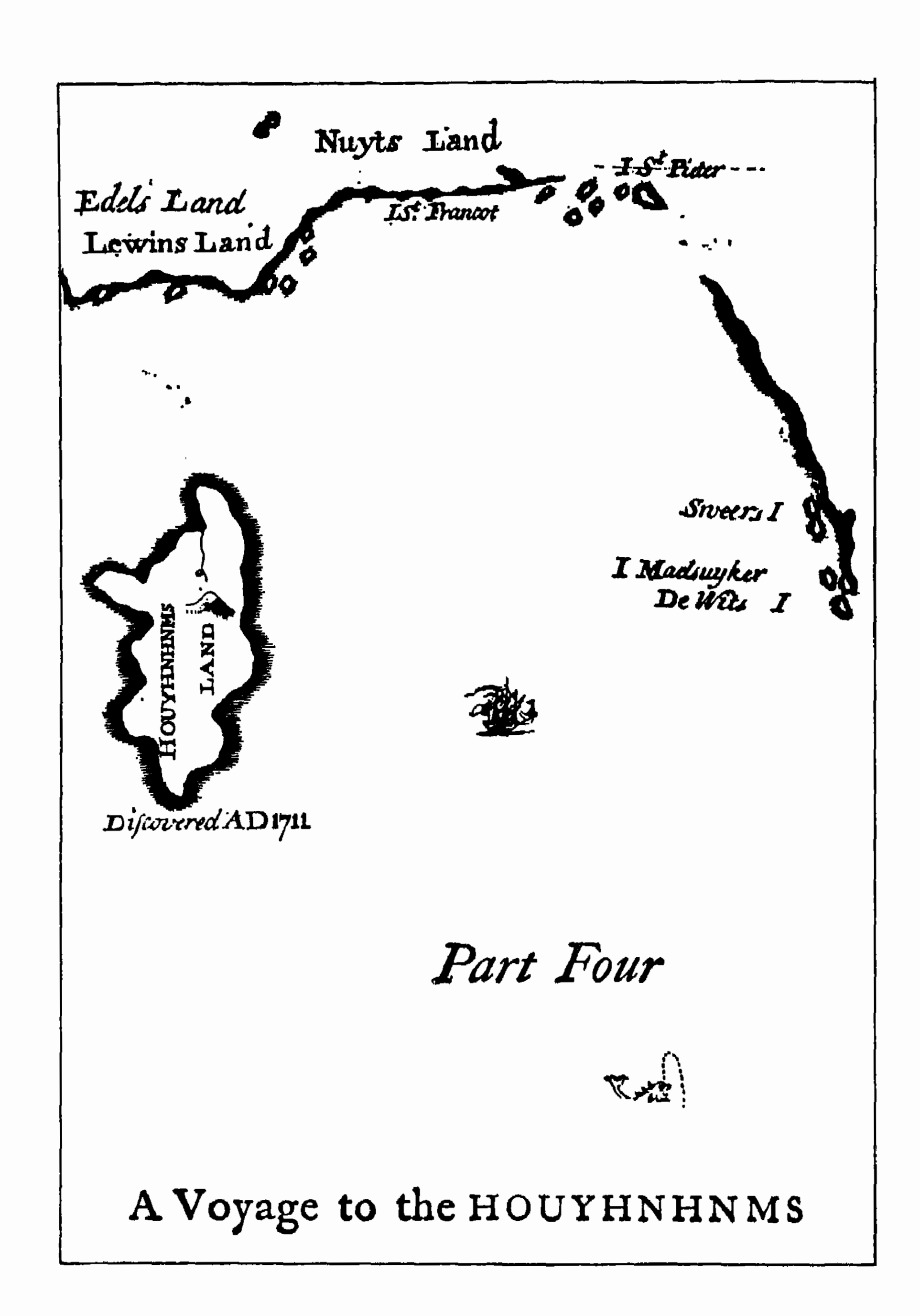
في العاشر من أبريل ١٧١٠ رسونا في ميناء (داوْنْز)، ونزلتُ إلى البر في صباح اليوم التالي، وشاهدتُ مرة أخرى أرض بلادي بعد غياب استمر خمس سنـوات وستة أشهـر كاملة. وذهبتُ مباشرة إلى ريدْريفْ ووصلتُها في اليوم نفسه في الساعة الثانية عصرًا. ووجدتُ زوجتي وأسرتي في صحة جيدة.

نهاية الجزء الثالث

رحلات جلفر

الجزء الرابع

رحلة إلى بلاد الهْوِينْهْنْمْ(١)



Part Four

A Voyage to the HOUYHNHNMS

الفصل الأول

المؤلف يبحر بصفة قبطانٍ لسفينة. رجاله يتآمرون عليه ويحجزونه فترة طويلة في كابينته، ثم يضعونه على البرّ في أرض مجهولة. يسير نحو داخل البلاد. وصْفٌ لبني الياهو[٢]، وهُم نوع من الحيوانات الغريبة. المؤلف يلتقي باثنين من بني الهْوينْهْمْ.

بقيتُ في منزلي بين زوجتي وأطفالي حوالي خمسة أشهر في سعادة عامرة، لكني لم أكن قد تعلمتُ أن أعرف أنني سعيد حين أكون سعيدًا. تركتُ زوجتي وهي حامل، وقَبِلْتُ عرضًا مغريًا بأن أكون قبطانًا لسفينة تحمل اسم **أدْفِنْتشَر**[٣]، وهي سفينة تجارية قوية حمولتها ٣٥٠ طنًا. ذلك أنني كنتُ أتقن فن الملاحة البحرية جيدًا، وكنتُ قد مللتُ وظيفة جرّاح في البحر، رغم أنني كنت أمارس الطب حين تدعو الحاجة لذلك. وأخذتُ معي في السفينة طبيبًا شابًا ماهرًا اسمه **روبرت پْيورْفُويْ**[٤]. أبحرنا من بُورْتْسموث في السابع من سبتمبر ١٧١٠. وفي الرابع عشر التقينا بالقبطان **بوكوك**[٥] من **بريستول** في **تيناريف**، وكان في طريقه إلى خليج **كامبيشي** لقطع خشب البَقَّم. وفي السادس عشر فرّقتْ بيننا عاصفة. وسمعتُ بعد عودتي أن سفينته غرقتْ ولم ينجُ منها أحد سوى خادم في الكابينة. وقد كان رجلاً شريفًا وبحارًا ماهرًا، لكنه كان متعصبًا تعصبًا عنيدًا لآرائه[٦] وكان هذا سببًا في تدميره كما هو بالنسبة لآخرين كثيرين، لأنه لو اتبع نصيحتي لكان من الممكن أن يكون الآن حيًا وسالمًا في منزله ومع أسرته مثلي.

وقد تُوُفِّي عدد من رجالي بالحمّى، ولهذا اضطررتُ أن أستأجر بعض البحارة من **بَرْبادوس** ومن جُزُر **ليوارد** التي مررتُ بها بناء على تعليمات التجار الذين يستخدمونني. لكني سرعان ما توفرتْ لديّ أسباب كثيرة للندم، لأنني اكتشفتُ فيما بعد أن معظمهم كانوا قراصنة. كان معي في السفينة خمسون بحارًا وكانت أوامري أن أتاجر مع الهنود في بحر الجنوب، وأن أكتشف ما أستطيع اكتشافه. وقد استطاع هؤلاء السفلة[٧] الذين استأجرتُهم أن يفسدوا عليَّ رجالي الآخرين، واتفقوا جميعًا على مؤامرةٍ باختطاف السفينة والإجهاز عليَّ، وهذا ما فعلوه ذات صباح حين اقتحموا كابينتي وقيّدوا يديَّ وقدميَّ وهدّدوا برَمْيي في البحر إنْ حاولتُ أن أتحرك. وأخبرتهم أنني سجينهم وسأخضع لهم. وجعلوني أُقْسِم على ذلك ثم فكّوا قيودي وأبْقوا واحدًا من ساقيَّ مربوطًا إلى الفراش بسلسلة، ووضعوا حارسًا على بابي يحمل بندقية محشوة، وأمروه بإطلاق النار عليّ إذا حاولتُ

نيل حريتي. وراحوا يرسلون لي الطعام والشراب. لكنهم تـولّوا قيـادة السفينة بـأنفسهم. كانت خطتهم أن يتحولوا إلى قراصنة وأن يَسْطوا على الإسبانيين. لكن لم يكن بوُسعهم أن يفعلوا ذلك إلّا إذا كان معهم المزيد من الرجال. وقرروا أولًا أن يبيعوا بضاعة السفينة ثم يذهبوا بعد ذلك إلى مدغشقر(٨) ليجنّدوا المزيد من البحارة، وخصوصًا لأن الكثيرين منهم ماتوا خلال حَبْسي. وقـد قضوا في البحر عدة أسابيع، وتاجروا مع الهنود، لكني لم أعرف أي طريق سلكوا لأنهم أبقوني سجينًا في كابينتي، ولم أتوقع منهم أقلّ من اغتيالي كما هددوا مرارًا.

في التاسع من مايو ١٧١١ جاء إلى كابينتي بحار اسمه **جيمس وِلْش** وقال إن لديه أوامر من القبطان بإنزالي إلى البرّ. حاولتُ أن أجادله وأعترض، لكن دون جدوى، بل إنه لم يخبرني باسم قبطانهم الجديد. أرغموني على النزول إلى زورق النجاة، وسمحوا لي أن ألبس أحسن بزّة عندي، وكانت كالجديدة، وأن أحمل معي رزمة من الثياب، لكنهم لم يسمحوا لي بحَمْـل سلاح سـوى سيفي. وكان أدبًا منهم أنهم لم يفتشوا جيوبي التي وضعتُ فيهـا ما كـان معي من نقود وبعض الأغراض الضرورية الأخرى. جدفوا بالزورق إلى مسافة فرسخ تقريبًا ثم أنزلوني على شـاطئ. وطلبتُ منهم أن يخبروني باسم هذه البلاد لكنهم أقسموا جميعًا أنهم لا يعرفون أكثر مما أعرف، ولكنهم قالوا إن القبطان (كما سمُّوه) كان مصمّمًا بعد أن باعوا حمولة السفينة على التخلص مني في أول مكان يكتشفون فيه برًّا. وابتعدوا على الفور بعد أن نصحوني بالإسراع إلى البرّ قبل أن يغمرني المدّ، وتمنّوا لي حظًّا سعيدًا.

في هذا الوضع البائس سرتُ للأمام وسرعان ما وصلتُ لليابسة، حيث جلستُ على حافة البحر لأستريح وأفكر فيما عساني أفعله. وحين استرحتُ قليلًا مشيتُ نحو داخل البلاد وأنا عازم على تسليم نفسي لأول من ألتقي بهم من المتوحشـين، وأن أشتري حيـاتي منهم ببعض الأساور والخواتم الزجاجية وأدوات زينة تافهة أخرى مما يتزود به البحارة في تلك الرحلات، والتي كان معي شيء منها. كانت الأرض مُقسّمة بصفوف طويلة من الأشجار التي لم تكن مزروعة بانتظام، ولكنها كانت نامية بالفطرة. وكان فيها الكثير من الأعشاب وبضعة حقول مزروعة بالشوفان. وسرتُ بحذر شديد خشية أن يفاجئني أحد أو أن أُقْذَف بسهم من الخلف أو من الجانبين. ووجدتُ نفسي في مَمَرّ مطروق حيث شاهدتُ آثارًا لأقدام بشرية، أو لأظلاف بقر. ومعظمها كان آثارًا لحوافر خيـل. وأخيرًا شاهدتُ عددًا من الحيوانات في حقل(٩)، وواحدًا أو اثنين من الجنس نفسه جالسين على شجر. كان منظرها غريبًا ومُشَوَّهًا، مما أقلقني قليلًا. ولهذا استلقيتُ خلف كومة من الشجيرات لكي ألاحظها في هدوء وعن كثب. كان بعضها قادمًا نحو المكان الذي استلقيتُ فيه، وهذا أتاح لي فرصة التعرف على شكلها بوضوح. كانت رؤوسها وصدورها مغطاة بشعر كثيف، بعضها شعرها سَبْط وأخرى شعرها جَعْد. وكان لها لحَى كلحية الماعز، وخط طويل من الشعر على ظهورها وعلى

الأجزاء الأمامية من سيقانها وأقدامها، لكن بقية أجسامها كانت عارية بحيث رأيتُ جلودها التي كانت ذات لون أصفر بني. ولم يكن لها ذيول أو شعر على أردافها فيما عدا منطقة السُرج التي أظن أن الطبيعة حَمَتْها بالشعر، لأن هذه الحيوانات تجلس على الأرض فوق أعجازها. فهي تتخذ هذا الوضع أو تستلقي على ظهرها وكثيراً ما تقف على أرجلها الخلفية. وكانت هذه الحيوانات تتسلق الشجر بخفة السناجب، إذ كان لها مخالب قوية طويلة في الأمام والخلف، وكانت هذه المخالب معقوفة وتنتهي برؤوس مدببة[١٠]. وكانت كثيرًا ما تَنُطّ وتقفز بخفة هائلة. ولم تكن الإناث بحجم الذكور، وكان لهُنّ فوق رؤوسهن شعر سبط طويل، ونوع من الزغب على باقي أجسادهن فيما عدا منطقتي الشرج والفرج. وكانت أثداؤهن تتدلّى بين أقدامهن الأمامية، وكثيرًا ما كانت تكاد تصل إلى الأرض حين يمشين[١١]. وكان شعر الجنسين من ألوان عديدة: بُنّي، وأحمر، وأسود، وأصفر، وعلى العموم، لم أشاهد قَطّ في جميع رحلاتي حيوانًا منفرًا إلى هذا الحد، أو حيوانًا شعرتُ تجاهه، وبالغريزة، بهذا القدر من الكراهية والاشمئزاز. وبعد أن ظننتُ أنني رأيتُ ما يكفي وامتلأتُ تقززًا وكراهية، نهضتُ من مكاني وتابعتُ السير في الممر المطروق، على أمل أن يؤدي بي إلى أكواخ بعض الهنود. ولم أسِرْ طويلًا حتى التقيتُ بواحد من هذه المخلوقات يعترض طريقي ويسير مباشرة باتجاهي. وحين رآني هذا الوحش البشع، راح يُشَوّه بأساليب عديدة كل ملامح سحنته، ويحملق فيَّ وكأنني شيء لم يرَ مثله قطّ من قبل. ثم اقترب مني ورفع مخلبه الأمامي، ولم أستطع أن أعرف إن كان ذلك بدافع الفضول أو إلحاق الأذى، لكني سللتُ سيفي وضربتُه ضربة قوية بِعَرض النصل، إذ لم أجرؤ على ضربه بحافة السيف الحادة خشية أن يثير ذلك السكان عليَّ إذا علموا أنني قتلتُ أو آذيتُ واحدًا من قطعانهم. وحين شعر هذا الحيوان بالألم تراجع وصاح صيحة مدوية فتقاطر نحوي وأحاط بي قطيع لا يقلّ عدده عن أربعين جاءت من الحقل المجاور، هي تعوي وتنظر إليّ بوجوه غاضبة مقيتة. هربتُ نحو جذع شجرة وأسندتُ ظهري إليه ورحتُ أدفعها عن نفسي بالتلويح بالسيف. لكن العديد من حيوانات هذه السلالة الملعونة أمسكتْ ببعض الأغصان من خلفي، وقفزتْ إلى داخل الشجرة، وراحت من هناك تقذف برازها فوق رأسي[١٢]، وعلى أية حال، تمكنتُ من النجاة بالبقاء لصْقَ جذع الشجرة، لكني كِدْتُ أختنق بقذاراتها التي كانت تتساقط حولي من كل جانب.

في أثناء هذه المِحْنَة لاحظتُ أنها جميعًا تهرب فجأة وبأسرع ما تستطيع. وعند ذاك غامرتُ بالابتعاد عن الشجرة ومتابعة السير في الطريق وأنا أتساءل عن السبب الذي أخافها وجعلها تهرب. وحين التفتُ نحو جانبي الأيسر رأيتُ حصانًا يسير بهدوء في الحقل. ويبدو أن أعدائي قد اكتشفوا وجوده قبلي وكان ذلك هو سبب هروبها. جَفَل الحصان قليلًا حين صار قريبًا مني، لكنه استعاد هدوءه بسرعة وراح ينظر في وجهي وعليه أمارات تعجب واضحة. وتمعّن يدَيَّ وقَدَمَيَّ وهو يدور

حولي عدة مرات. وكنتُ سأستأنف سيري لولا أنه اعترض طريقي بشكلٍ مباشر. ومع ذلك كان يبدو وديع الملامح ولم تَبْدُرْ منه أيّة بادرة للعنف. وقَفنا بعض الوقت وكلٌّ منا يحملق في الآخر، وأخيرًا تجرأتُ ومَدَدْتُ يدي نحو عنقه بقَصْد أن أربت عليه، مستعملاً الأسلوب والصفير المألوفين لدى سائسي الخيل حين يتعاملون مع جواد غريب. لكن بدا على هذا الحيوان أنه يستقبل ملاطفاتي هذه باحتقار، إذ هزّ رأسه وقطّب حاجبيه ورفع حافره الأمامي بلطف لِيُبْعِدَ يدي عنه، ثم صَهَلَ ثلاث أو أربع مرات، ولكن بإيقاع غير مألوفٍ لدرجة أنني كِدْتُ أظن أنه يكلم نفسه بلغة خاصة به.

وبينما كنّا، هو وأنا، في هذا الموقف جاء نحونا حصان آخر واقترب من الحصان الأول بطريقة رسمية جدًا إذ تلامس حافراهما الأماميّان الأيمنان، وصهلا عدة مرات كلٌّ بدوره وبأصوات متنوعة بحيث خُيِّل إليّ أنهما يتكلمان معًا. ابتعدا عني بضع خطوات وكأنهما يتشاوران، وراحا يسيران جنبًا إلى جنب، جيئة وذهابًا، وكأنهما شخصان يتناقشان في موضوع مهم، ولكنهما كانا يكرران النظر باتجاهي وكأنهما يريدان التأكد أنني لن أهرب. وقد أدهشتني هذه التصرفات وهذا السلوك في حيوانين، وقلت لنفسي، إذا كان سكان هذه البلاد موهوبين بدرجة عالية من العقل والذكاء متناسبة مع درجة الذكاء عند حيواناتهم هذه، فإنهم لا بد أن يكونوا أحكم وأعقل شعب في العالم. وقد ارْتَحْتُ لهذه الفكرة كثيرًا، فقررتُ أن أتقدم في سيري حتى أكتشف بيتًا أو قرية أو ألتقي بواحد من الأهالي، وأن أترك الحصانين يتحدثان ما طاب لهما الحديث. لكن الحصان الأول الأشهب، ذي اللون الرمادي الأرقط رآني أنْسَلّ فَصَهَل بنغمة معبِّرة جَعَلتني أظن أنني فهمتُ ما يريد. عند ذاك رجعتُ واقتربتُ منه وانتظرتُ أوامره وأنا أخفي مخاوفي بقدر ما أستطيع، لأنني بدأتُ أشعر بشيء من القلق والخوف مما قد تنتهي إليه هذه المحنة. وليس من الصعب على القارئ أن يصدّق أنني لم أكن مرتاحًا لوضعي الحالي.

واقترب الجوادان مني وهما يتمعنان وجهي ويديّ باهتمام شديد. حَكَّ الحصان الأشهب قبعتي من كل الجوانب بحافره الأمامي الأيمن، وحركها من مكانها مما اضطرني إلى تعديل وضعها عن طريق رفعها عن رأسي ثم وضعها عليه مرة ثانية. وظهرتْ على الحصان الأشهب ورفيقه (وكان جوادًا كُمَيْتًا كستنائي اللون) علامات الدهشة البالغة، وتحسس الجواد الثاني طرف معطفي، وحين وجده متدليًا حولي ظهرت على الاثنين علامات استغراب جديدة. ربّتَ على يدي اليمنى وكأنه يتعجّب من نعومتها ولونها. ثم ضغطها بشدة بين حافره ورُسْغِه مما اضطرني إلى الصراخ، بعد ذلك راحا يتلمسانني بأقصى درجات الرفق. وقد بانت عليهما الحيرة البالغة وهما يتفحصان حذائي وجوربيّ، وراحا يتبادلان الصهيل والإشارات المتنوعة التي تشبه إشارات الفيلسوف وهو يحاول فهم ظاهرة جديدة وغريبة ومعقدة.

وعلى العموم، كان سلوك هذين الحيوانَيْن عقلانيًا ومنظمًا وذكيًا وحكيمًا لدرجة جَعَلَتْني أظن أنهما لا بد أن يكونا ساحِرَيْن غَيَّرا شكْلَيْهما[١٣] لغاية في نَفْسَيْهما، وحين رأيا شخصًا غريبًا في طريقهما قررا أن يُمَتِّعا نَفْسَيْهما بمداعبته، أو ربما كانا مندهشَيْن حقًا لرؤية شخص مختلف في ملابسه وملامحه ولون بشرته عن أولئك الناس المقيمين في هذه البلاد النائية. وبناء على هذا الظنّ خاطَبْتُهما بالشكل التالي: أيها السيدين، إن كنتما من السحرة كما أعتقد، فإنكما تستطيعان أن تفهما أية لغة. ولهذا يمكنني أن أخبركما أنني انجليزي مسكين في محنة، ساقه سوء حظه إلى ساحل بلادكم. وإنني أرجو واحدًا منكما أن يُرْكِبَني على ظهره، وكأنه حصان حقيقي، ويوصلني إلى أحد البيوت أو القرى التي يمكن أن تستضيفني. ومقابل هذا المعروف سأقدم لكما هذا السكين وهذه الأسوِرة هدية (وهنا أخرجتُ السكين والأسوِرة من جيبي)، ووقف المخلوقان صامتين أثناء كلامي، وكأنهما يصغيان بانتباه شديد. وحين أَنْهَيْت كلامي، راحا يصهلان كلٌ للآخر وكأنهما يتناقشان نقاشًا جادًا. ولاحظتُ بوضوح أن لغتهما تعبّر عن المشاعر بقوّة، وأن كلماتها يمكن بشيء من الجهد والتعب أن تُكْتَب بالحروف بشكل أسهل من كتابة **اللغة الصينية**.

واستطعتُ أن أميّز من كلامهما لفظة **ياهو** التي كررها كل منهما عدة مرات. ومع أنه كان من المستحيل عليَّ أن أستنتج معناها، فإنني حاولتُ أثناء انشغالهما بالحديث أن أتمرن على نُطْق هذه الكلمة. وحالما خيم الصمتُ نطقتُها بجرأة وبصوتٍ عالٍ محاولاً في الوقت نفسه وبقدر ما أستطيع أن أقلد صهيل الخيل. وظهرتْ عليهما الدهشة[١٤]، وكرَّر الحصان الأشهب الكلمة مرتين وكأنه يريد أن يُعَلِّمني طريقة النطق والنبر الصحيحة، فنطقتُها بعده بأحسن ما أستطيع، ووجدتُ أنني أتحسن بشكل واضح في كل مرة، لكني بقيتُ بعيدًا عن الوصول إلى النطق السليم الكامل. وامتحنني الكميتُ الكستنائي في اللون بكلمة ثانية أصعب على النطق من الأولى، ولكن إذا حاولنا كتابتها بالحروف العربية* فإنه يمكن كتابتها هكذا: **هْوِينْهْمْ**. ولم أوفّق في نُطْق هذه الكلمة كما وفقت في نُطْقِ الأولى، ولكني بعد مزيد من المحاولات حظيتُ بنجاح أفضل. وظهر عليهما التعجب من قدرتي هذه.

وبعد مزيد من النقاش الذي اعتقدتُ أنه يتعلق بي، افترق الصديقان بعد أن حَيَّا أحدهما الآخر بالتحية نفسها عن طريق ضرب الحافر بالحافر، وأشار لي الحصان الأشهب أن أمشي أمامه، ورأيتُ أن من الحكمة أن أطيعه حتى أجد دليلاً ومرشدًا أحسن. وحين كنتُ أتباطأ في خطاي كان يصيح هْهُوون. هْهُوون، وحزرتُ قصده، فأفهمتُه بقدر ما أستطيع أنني مُرْهَق وغير قادر على السير بسرعة أكبر. حينذاك توقف قليلاً ريثما أستريح.

الفصل الثاني

الحصان يقود المؤلف إلى منزله. وصفٌ لمنزل الحصان. استقباله للمؤلف. طعام بني الهْوينْهْمْ. المؤلف متضايق من عدم وجود اللحم، لكنه يجد مخرجًا. طريقته في التغذي في تلك البلاد.

بعد أن سِرْنا قرابة ثلاثة أميال وصلنا إلى بيت طويل من أخشاب مغروزة في الأرض والفراغ بينها معبّأ بأغصان مجدولة، وكان السقف منخفضًا ومغطى بالقش. بدأت الآن أشعر بشيء من الارتياح، وأخرجتُ بعض الألعاب والدمى والأشياء الصغيرة التي يحملها الرحالون عادةً كهدايا للهنود المتوحشين في أمريكا والبلدان الأخرى، على أمل أن يُسَرَّ بها أصحاب البيت ويستقبلوني بلطف. أشار لي الحصان أن أدخل قبله، فدخلتُ حجرة واسعة أرضِيَّتُها من الطين الأملس، وفيها رفّ خشبي ومِعْلَف يمتد بمحاذاة الجدار بطوله كله في أحد الجوانب. كان هناك ثلاثة من الجياد الهرمة، وفرَسان شابّتان. لم تكن الخيل تأكل، وبعضها كانت جالسة على أفخاذها، وهو أمر تعجبتُ منه كثيرًا. لكن ما تعجبتُ منه أكثر هو أن أرى بقية الخيل مشغولة بأعمال منزلية، وكانت هذه تبدو خيولاً عادية غير أصيلة. هذا المشهد كله أكّد في ذهني الانطباع الأول، وهو أن شعبًا يستطيع أن يُمَدِّن الحيوانات العجماء غير الناطقة، لا بدّ أن يكون متفوقًا في الحكمة على كل شعوب الأرض. ودخل الحصان الأشهب بعدي مباشرة، وبهذا منع سوء المعاملة التي كان يمكن أن ألقاها من الفراس الأخرى. صهَل لها عدة مرات بأسلوب الآمر الناهي، واستجابت الفراس لأمْرِه.

كان بعد هذه الحجرة ثلاث حجرات أخرى على امتداد طول البيت، ويتم الوصول إليها عبر أبواب ثلاثة مقابلة لبعضها البعض في ممّر واحد طويل. عبَرْنا الغرفة الثانية ومنها إلى الثالثة، وهنا دخل الحصان الأشهب قبلي وأشار إليّ أن أنتظر. وانتظرتُ في الغرفة الثانية ورحتُ أهيِّئ هداياي لربّ البيت وربّته. وهذه الهدايا هي سِكّينتان، وثلاث أساور من اللؤلؤ الزائف، ومرآة صغيرة، وعقد من الخرز. صَهَل الحصان ثلاث أو أربع مرات وانتظرتُ سماع بعض الأجوبة بصوتٍ بشري، لكني لم أسمع إلا استجابةً بالصهيل نفسه، ولكن بصوت أرفع قليلاً. وبدأتُ أظن أن هذا البيت لِشَخْصٍ ذي مرتبة عالية، لأنه ظهر أن هناك رسميات كثيرة قبل أن يُسْمَح لي بالدخول. لكني لم أستطع أن أفهم لماذا يكون خَدَم شخصية مرموقة كلهم من الخيل. وخشيتُ أن يكون بي مَسّ من

جنون نتيجة لِما أَلَمَّ بي من مصائب وما عانيتُه من أهوال. حاولتُ أن أستردّ عقلانيتي - ونظرتُ إلى ما حولي في الحجرة. كانت مجهزة كالحجرة الأولى ولكن بشكل أرقى. فركْتُ عينيَّ عدة مرات، ولكني لم أرَ سوى الأشياء نفسها. رحتُ أقرص ذراعي وجانبيَّ لكي أستيقظ، وعلى أمل أن يكون هذا كله يحدث في حلم. ثم توصلتُ أخيرًا إلى أن كل هذه المظاهر ليست سوى سحر وشعوذة. ولكن لم يتيسر لي الوقت لمتابعة هذه الأفكار، لأن الحصان الأشهب ظهر عند الباب وأشار لي أن أدخل وراءه إلى الحجرة الثالثة. وهناك رأيتُ فرسًا جميلة جدًا ومعها مُهْر صبي وآخر حديث الولادة، وكلهم جالسون على أعجازهم فوق حُصُر من القش، مرتبة ونظيفة ولا تخلو صناعتها من فَنّ.

عند دخولي نهضتِ الفرس عن حصيرتها واقتربَتْ مني. وبعد أن أمعنتِ النظر في يديَّ ووجهي، غَطَّتْ وجهها أماراتُ الاحتقار، ثم التَفَتَتْ إلى الحصان، وسمعتُ كلمة **ياهو** تتكرر منها عدة مرات. وحينذاك لم أستطع أن أفهم تلك الكلمة رغم أنها كانت أول كلمة تعلمتُ نُطْقَها. لكني عرفتُ معناها بعد وقت قصير، وأَصْبَحَتْ معرفتها مصدر خِزْي وعار أَبَدِيّ بالنسبة لي. ذلك أن الحصان أشار لي برأسه وهو يكرر كلمة **هْهُوُون، هْهُوون** كما فعل حين كنا في الطريق. وفهمتُ أنه يريد أن ألحق به. وقادني إلى باحةٍ في الخارج حيث كان يوجد مبنى آخر على مسافةٍ من البيت. دخلنا هذا المبنى ورأيتُ ثلاثة من تلك المخلوقات المقيتة التي كانت أول مَنْ قابلتُ بعد وصولي إلى البرّ. كانت الآن تتغذى على جذورٍ ولحمٍ بعض الحيوانات، واكتشفتُ فيما بعد أنه لحم حمير وكلاب، ومن حين لآخر لحم جيفة بقرةٍ قتلها حادث أو مرض، وكان في رقبة كل واحد منها رَسَنٌ قويّ مربوط بعارضة خشبية. كانت تمسك الأكل بين مخالب أقدامها الأمامية وتمزقه بأسنانها.

وأمر السيد الحصان حصانًا أسمر، وهو واحد من خدمه، بأن يَفُكّ رباط أكبر تلك الحيوانات حجمًا ويأخذه إلى الباحة. ثم وضعونا أنا وهذا الحيوان جنبًا إلى جنب، وقورِنَ وجهانا بدقة من قِبل السيد وخادمه اللذين كررا عدة مرات كلمة **ياهو**. ولا يمكن للكلمات أن تصف ما أصابني من ذهول ورعبٍ حين اكتشفتُ أن لهذا الحيوان المقيت شكلًا بشريًا كاملًا. صحيح أن وجهه كان مسطحًا وعريضًا، وأنفه أفطس، وشفتاه غليظتان، وفمه واسع، ولكن هذه الاختلافات شائعة لدى كل الشعوب البدائية حيث تتشوه قسمات الوجوه، لأن الأهل هناك يتركون الأطفال منبطحين على وجوههم فوق الأرض أو تحملهم الأمهات على ظهورهن ووجوههم وأنوفهم مضغوطة على أكتافهن، والأقدام الأمامية في **الياهو** لا تختلف عن يديّ في شيء سوى طول الأظافر، وخشونة الكفَّيْن وسَمارُهُما. والشعر فوق ظهرهما. وكانت هناك نفس التشابهات والاختلافات في القدمين. وكنتُ أعرف هذا جيدًا، في حين لم تكن الخيول تعرفه بسبب حذائي وجوربيّ. والشيء نفسه ينطبق على كل جزء من جسدينا، فيما عدا كثرة الشعر ولون الجلد.

الصعوبة التي واجهت الحصانين هي أنهما رأيا بقية جسمي تختلف كثيرًا عن بقية جسم **الياهو**. وأنا مدين بهذا الاختلاف لملابسي التي لم يكن لدى الحصانين أية فكرة عنها[1]. وقدم لي الحصان الأسمر جذرًا كان يمسكه (حسب أسلوب الخيل الذي سأصفه في المكان المناسب) بين حافره ورسغه. تناولتُ الجذر بيدي، وبعد أن شمَمْتُه أعَدْتُه له بأدب. ثم جلب لي من وِجارِ **الياهو** قطعة من لحم حمار، لكن رائحتها كانت منفرة لدرجة أنني ابتعدتُ عنها متقززًا. بعد ذلك رماها إلى **الياهو** فالتهمها هذا بنهم وشراهة. ثم أراني بعض التبن وشيئًا من الشوفان، فهززتُ رأسي لأشرح له أنه لا شيء من هذه الأشياء يصلح طعامًا لي. وفي الحقيقة، بدأتُ الآن أخشى أن أموت جوعًا إن لم أصلْ لأحَدٍ من جنسي من البشر. أما بالنسبة لبَني **الياهو** أولئك، فرغم أنه قلَّ أن وُجِدَ حينذاك من كان يحب الجنس البشري أكثر مني، إلا أنني أعترف أنني لم أرَ قط كائنات عاقلة أحقر منهم من كل النواحي. وطيلة إقامتي في تلك البلاد كانت تزداد كراهيتي لهم وتقززي منهم بازدياد معرفتي لهم. وقد أدرك الحصان السيد من سلوكي، هذا النفور، فأعاد **الياهو** إلى وِجارِهِ. بعد ذلك وضع الحصان حافره على فمه، وأثار هذا استغرابي رغم أنه عمله بسهولة ويسر وبحركة بَـدَتْ طبيعية تمامًا، وعمل إشارات أخرى ليعرف نوع الطعام الذي آكُلُه. لكني لم أستطع أن أعطيه جوابًا يفهمه، وحتى لو فَهِمَ جوابي فقد خُيِّل إلي أنه ليست هناك طريقة لتدبير طعام لي. وبينما كنا مشغولين بهذا الموضوع، رأيتُ بقرة تمر أمامنا. حينذاك أشرتُ إليها وعبَّرتُ عن رغبتي في أن يُسْمَح لي بحَلْبِها. وكان لهذا أثره الفوري، لأن الحصان السيد أعادني معه إلى البيت، وأمر فرسًا من الخدم أن تفتح حجرة كانت فيها كمية وافرة من الحليب في أوعية فخارية وخشبية نظيفة ومرتبة. وأعطتني الفرس وعاء كبيرًا مجوفًا مليئًا بالحليب، فشربتُ منه حتى ارتويتُ، وشعرتُ أنني أنتعش وأحسستُ بارتياح بالغ.

عند الظهر رأيتُ عربة تشبه الزلاجة قادمة نحو البيت يجرها أربعة من **بني الياهو**، وكان فيها حصان عجوز يبدو عليه أنه من عِلْية القوم. وقد نزل بقدميه الخلفيتين أولًا لأن حادثًا كان قد وقع له فأصاب بالأذى قدمه الأمامية اليسرى. وقد جاء لتناول العشاء مع سيدي الحصان الذي استقبله بترحاب كبير. وقد تناولوا العشاء في الحجرة الكبرى، وكان عشاؤهم من شوفان مغلي في الحليب، تناوله الحصان العجوز ساخنًا وتناوله الآخرون باردًا. وكانت معالفهم مرتبة على شكل دائري في وسط الغرفة، وكل معلف مقسم عدة أقسام. جلسوا على أكوام من القش كلٌّ أمام معلفه. وكان في الوسط رَفّ كبير ذو زوايا بعدد أقسام المعالف، بحيث يتناول كل حصان التبن وطبخة الشوفان والحليب الخاصة به بأدب وحشمة ونظام. وكان سلوك المهرَيْن الصغيرين في غاية الأدب. أما ربّ البيت وربَّته فكانت تصرفاتهما تنم عن سرور وترحيب بالغين بالضيف. أمرني الحصان الأشهب بالوقوف بجانبه، وجرى بينه وبين صديقه حديث طويل بشأني، إذ كان الضيف يُكثر من النظر إليّ

وكانا يكرران كلمة ياهو.

وصدف أنني لبستُ قفازيّ. وحين لاحظ السيد الأشهب ذلك، ظهرت عليه الحيرة مما فعلتُه بقدميَّ الأماميتين. ووضع حافره عليهما ثلاث أو أربع مرات وكأنه يطلب مني أن أعيدهما إلى شكلهما السابق، ففعلتُ ذلك على الفور إذ خلعتُ القفازين ووضَعْتُهما في جيبي. وقد أدى هذا لمزيد من الحديث، ووجدت أنهم مسرورون من سلوكي، وكان لهذا آثاره الطيّبة. أُمِرْتُ أن أنطق الكلمات القليلة التي أفهمها. وبينما كانوا يتناولون العشاء راح السيد يعلمني أسماء الشوفان والحليب والنار والماء وأشياء أخرى، وكنتُ أنطقها بعده بسهولة، إذ كنتُ منذ حداثتي أتعلم اللغات بسهولة ويُسْر.

حين انتهى العشاء انتحى بي الحصان السيد جانبًا، وأفهمني بالإشارات والكلمات أنه قلقٌ بشأن إيجاد طعام مناسب لي. الشوفان بِلُغتهم اسمه هَلُونْهْ. نَطَقْتُ هذه الكلمة مرتين أو ثلاثًا. ومع أنني رفضتُه أول الأمر، فإنني بعد إعادة التفكير رأيتُ أنه يمكنني أن أصنع منه نوعًا من الخبز آكله مع الحليب فأقيم بذلك أودي إلى أن أتمكن من النجاة إلى بلاد أخرى فيها مخلوقات من البشر. وعلى الفور أمر الحصان السيد فرسًا بيضاء من خدم أسرته أن تحضر لي كمية كبيرة من الشوفان في وعاء خشبي. وقد حَمَّصْتُ هذا الشوفان على النار ثم فَرَكْتُه حتى انفصلَتْ عنه قشرته، ثم تَدَبَّرتُ أمر تَذْرِيَته لكي أعزل الحبّ عن القشر، ثم طحنتُ الحبّ بين حَجَرَيْن، ثم عجنته بالماء وخبزته على النار وأكلتُه ساخنًا مع الحليب. وكانت وجْبَةً لا لَذَّة فيها ولا طعم لها، مع أنها طعام شائع في أجزاء كثيرة من أوروبا. لكنها بمرور الوقت أصبحت طعامًا سائغًا مقبولاً. ولأنني كثيرًا ما عِشْتُ على الكفاف في حياتي، لم تكن هذه هي التجربة الأولى التي أثبتُّ بها سهولة إشباع حاجات الإنسان[٢]. ويمكنني أن ألاحظ هنا أنني لم أمرض ساعة واحدة طيلة إقامتي في هذه الجزيرة، أحيانًا كنتُ أنصب شباكًا مصنوعة من شعر بني الياهو فأصيد بها أرنبًا أو طيرًا. وكثيرًا ما كنتُ أجمع أعشابًا مغذية وأسلقها أو أصنع منها سلطة آكلها مع الخبز. ومن حين لآخر كنتُ أصنع شيئًا من الزُّبْد أمتع نفسي به وأشرب الحليب خالي الدسم. وكنتُ في أول الأمر متضايقًا من غياب الملح لكني تعودتُ على العيش دون ملح. وإنني واثق أن كثرة استعمال الملح عندنا هي نتيجة الترف، وأنه استُعْمِل أول الأمر ليزيد الشهية إلى الشراب[٣]، إلا حين يكون ضروريًا لحفظ اللحم سليمًا في الرحلات الطويلة أو في الأماكن البعيدة جدًا عن الأسواق الكبيرة. ونحن نلاحظ أن الإنسان وحده، دون الحيوانات، مغرم بالملح[٤]. وبالنسبة لنفسي، حينما تركتُ هذه البلاد قضيتُ فترة طويلة لا أطيق فيها طعم الملح في أي شيء آكله.

وأكتفي بهذا القول بالنسبة لموضوع الطعام الذي يملأ به الرحالون الآخرون كتبهم وكأن

القراء مهتمون شخصيًا بما نكون فيه من خير أو شر. وعلى كل حال، كان من الضروري أن أذكر هذا الموضوع كيلا يظن الناس أنه كان من المستحيل أن أجد طعامًا طيلة ثلاث سنوات في بلد كهذا وبين سكان كهؤلاء.

حين حَلّ المساء، أمر الحصان السيد بإعداد مكان لأقيم فيه. وكان هذا المكان بعيدًا مسافة ست ياردات عن البيت ومعزولاً عن اسطبل بني الياهو. وضعتُ بعض القش في هـذا المكان وغطيتُ نفسي بملابسي ونمتُ نومًا عميقًا. ولكني بعد وقت قصير حظيتُ بمهجع أفضل كما سيعلم القارئ فيما بعد حين أتحدث بالتفصيل عن أسلوب حياتي هنا.

الفصل الثالث

المؤلف يبذل جهدًا كبيرًا في تعلُّم اللغة بمساعدة سيده الحصان. وصفٌ للُّغة. كثيرون من علية القوم من بني الهُوينْهُمْ يأتون بدافع الفضول لرؤية المؤلف. المؤلف يقدم لسيده تقريرًا موجزًا عن رحلته.

كان همّي الأول أن أتعلم اللغة، وكان سيدي (هكذا سأسميه بعد الآن) وأطفاله وكل الخدم في المنزل يرغبون في تعليمي. كان أمراً خارقًا بالنسبة لهم أن تظهر في حيوان أعجم مثلي ملامح وميزات المخلوق العاقل. كنتُ أشير إلى الشيء وأسأل عن اسمه وأسجله في مذكراتي حين أكون وحدي، وكنت أصحح أخطائي في النطق بأن أطلب من أحد الموجودين في البيت أن ينطق الكلمة عدة مرات وكان الحصان الأسمر، وهو من أدنى الخدم عندهم، على استعداد دائم لمساعدتي.

إنهم ينطقون الكلام من الأنف والحلق، ولغتهم أقرب شبهًا باللغة الهولندية أو الألمانية منها بأية لغة أخرى في أوروبا، ولكنها أجمل وأقوى تعبيرًا. وقد أبدى الامبراطور شارل الخامس ملاحظة بهذا المعنى حين قال أنه لو كان مطلوبًا منه أن يخاطب حصانه لخاطبه بالألمانية[1].

وقد بلغ الحماس والفضول بسيّدي أنه كان يقضي ساعات كثيرة من وقت فراغه في تعليمي. لقد كان مقتنعًا (كما قال لي فيما بعد) أنني لا بدّ أن أكون من **بني الياهو**، لكن ما كان يدهشه هو قابليتي للتعليم وأدبي ونظافتي، فهذه صفات تتعارض تمامًا مع صفات **بني الياهو**. لكن الأمر الذي كان يحيّره جدًا هو ملابسي، وكان يظنّ أحيانًا أنها جزء من جسدي. والحقيقة أنني لم أكن أخلع ملابسي إلا بعد أن تنام الأسرة كلها وألبسها قبل أن يستيقظ أحد منهم في الصباح. وكان سيد تواقًا لمعرفة من أين جئتُ، وكيف اكتسبتُ تلك المظاهر العقلانية التي كانت واضحة في كل تصرفاتي، على أن يعرف ذلك كله مني. وكان يأمل أن يتم ذلك قريبًا، ولا سيما بعد أن لاحظ تقدمي السريع في تعلُّم ونطق الكلمات والجُمَل. ولكي أساعد ذاكرتي، كنتُ أكتب كل ما أتعلمه بالانجليزية وأرتبه حسب الألفباء الانجليزية وأكتب أمام كل كلمة ترجمة لها. وبعد فترة كنت أقوم بهذا العمل أمام سيدي. لكني وجدت مشقة كبيرة في شرح عملي له، لأنه ليس لدى **بني الهوينهم** أدنى فكرة عن الكتب أو الأدب[2].

في حوالي عشرة أسابيع صرتُ أفهم معظم أسئلته. وبعد ثلاثة أشهر كنتُ أستطيع أن أعطيه أجوبة مقبولة. كان تواقًا جدًا لمعرفة من أي جزء من البلاد جئتُ وكيف تعلمتُ أن أقلد المخلوقات العاقلة، لأنه كان معروفًا عندهم أن بني الياهو (الذين تأكد بنفسه أنني أشبههم تمامًا في الرأس واليدين والوجه، وهي الأجزاء المرئية مباشرة من جسدي) هم أشد الحيوانات العجماء عصيانًا على التعليم، رغم ما فيهم من دهاء وخبث وميل قوي إلى الشرور. وأجبتُه أنني جئت عبر البحر من مكان بعيد جدًا يعج بالكثيرين من أمثالي، في مركب كبير مجوف مصنوع من خشب الأشجار، وأن رفاقي أجبروني على النزول على هذا البرّ وتركوني لأتدبر شؤون نفسي. ولم أستطع أن أشرح له هذه الأمور إلا بشيء من الصعوبة وبالاستعانة بإشارات كثيرة. قال إنني لا بد أن أكون مخطئًا أو إنني قلتُ الشيء الذي لم يكن (ليس في لغتهم كلمة تعبّر عن الكذب أو التزييف). فهو يعلم أنه من المستحيل أن توجد بلاد وراء البحر[3] أو أن تستطيع مجموعة من الحيوانات العجماء أن تحرك مركبًا خشبيًا فوق الماء أينما تشاء. وهو متأكد أنه لم يستطع أحد من بني الهوينهم قط أن يصنع مركبًا كهذا أو أنه سُمِحَ لبني الياهو أن يفعلوا ذلك.

كلمة هوينهم في لغتهم تدل على حصان، لكن أصلها اللغوي يعني كمال الطبيعة[4]. قلتُ لسيدي إنني لا أستطيع التعبير عما في ذهني، لكني سأتعلم بأسرع ما أستطيع وآمل أن أستطيع بعد فترة وجيزة أن أخبره بأشياء عجيبة. وقد تكرّم فأعطى توجيهات لزوجته الفرس، ومُهْرَيْه، وخَدَم العائلة أن ينتهزوا كل الفرص لتعليمي. وكان هو نفسه يكرّس ساعتين أو ثلاثًا من كل يوم للعمل نفسه، وكان الكثيرون من جياد وفراس الطبقة الراقية من جيراننا يأتون مرارًا إلى بيتنا بعد ما سمعوا أن هناك واحدًا من بني الياهو يستطيع أن يتكلم لغة الهوينهم وتكشف كلماته وأعماله عن قدرته على التفكير واستعمال العقل. وكان هؤلاء يسْعَدون بالتحدث معي، ويسألونني عدة أسئلة ويتلقّون ما أستطيع التعبير عنه من أجوبة. وقد أحرزتُ تقدمًا كبيرًا في تعلم اللغة بحيث استطعتُ بعد خمسة أشهر من وصولي أن أفهم كل ما يُقال لي وأن أعبّر عن نفسي بقدر معقول جدًا.

ولم يُصَدّق بنو الهوينهم الذين كانوا يأتون لزيارة سيدي بقصد مشاهدتي والتحدث معي أنني ياهو حقيقي، لأن جسدي مغطى بشكل يختلف عن أجساد الآخرين[5]. فقد أدهشهم أنهم لم يَرَوْا فيَّ الشعر والجلد المألوفين في الآخرين، فيما عدا رأسي ووجهي ويديّ. لكني كَشَفْتُ سرّ هذا الاختلاف لسيدي بعد حادث وقع قبل أسبوعين.

سبق أن أخبرتُ القارئ أنه كان من عادتي كل ليلة، بعد أن تنام الأسرة، أن أتعرى وأغطي نفسي بملابسي. وصدف ذات صباح باكر أن أرسل سيدي خادمه الحصان الأسود إليّ ليستدعيني، وحين جاء هذا الخادم كنتُ غارقًا في النوم، وكانت ملابسي قد سقطت عن جسدي فيما عدا قميصي

الذي كان فوق خصري. استيقظتُ على صوت حركته ولاحظتُ أنه يُسْمِعني أمر سيده بشيء من الاضطراب. بعد ذلك ذهب إلى سيدي، وقدم له وهو يرتعد خوفًا وَصْفًا مغلوطًا جدًا عمّا رآه. وقد اكتشفتُ هذا الأمر في الحال. لأنني بعد أن لبستُ ملابسي وذهبتُ مباشرة لأمْثُل بين يدي سيدي سألني عن معنى ما قاله خادمه: إن شكلي وأنا نائم يختلف عنه في الأوقات الأخرى، وإن بعض أجزاء جسدي، كما أكد له الخادم، بيضاء، وبعضها صفراء أو على الأقل ليست بنفس الدرجة من البياض، وبعضها سمراء.

حتى الآن كنتُ قد أخفيتُ سرّ ملابسي لكي أتميّز بقدر الإمكان من ذلك الجنس اللعين من بني الياهو. لكني اكتشفتُ الآن أنه لا جدوى من هذا الإخفاء بعد اليوم. أضف إلى ذلك أنني قدَّرتُ أن حذائي وملابسي ستبلى عن قريب، بل إنها بدأت فعلًا تهترئ وتتمزق، ولا بد من إيجاد بديل لها أصْنَعُهُ من جلود بني الياهو[٦] أو غيرهم من الحيوانات، وحينذاك سينكشف السِّرّ. لهذا أخبرتُ سيدي أن أمثالي في البلاد التي جئتُ منها يُغَطّون أجسادهم دائمًا بملابس مصنوعة من شعر حيوانات معينة، وذلك لدواعي الحشمة من ناحية واتقاء لتقلبات الجو من حر وبَرْد. وأما بالنسبة لنفسي فأنا على استعداد لأن أثبت له ذلك على الفور إذا أمرني، مع رجائي أن يعفيني من تعرية تلك الأجزاء التي علمتنا الطبيعة أن نغطيها. قال إن حديثي غريب جدًا، ولا سيما الجزء الأخير منه، لأنه لا يستطيع أن يفهم لماذا تعلمنا الطبيعة أن نغطي ما أعطته لنا الطبيعة[٧]، وأنه لا هو ولا أسرته يخجلون من أي أجزاء في أجسادهم، لكنه سمح لي بأن أفعل ما يحلو لي. عند ذاك فكَكْتُ أزرار معطفي ثم خلعتُه. وفعلتُ الشيء نفسه مع صدريتي. ثم خلعتُ حذائي وجوربيّ وبنطالي. وأنزلتُ قميصي حتى وسطي ورفعتُ بنطال بيجامتي وربطته كالحزام حول وسطي لأخفي عورتي.

وراقب سيدي كل هذا العمل بفضول وتعجب. وأمسك كل ملابسي بسنبكه، قطعة بعد قطعة، وتفحصها بدقة. بعد ذلك تحسس جسدي برفق شديد ونظر حولي عدة مرات، وقال بعد ذلك إنه من الواضح أنني ياهو حقيقي وكامل، ولكني أختلف عن بني جنسي ببياض الجلد ونعومته، وبغياب الشعر عن أجزاء عديدة من جسدي، وبشكل مخالبي وقِصَرها في الأقدام الأمامية والخلفية، وباصطناعي الدائم للسير على قدميّ الخلفيتين. ولم يرغب في رؤية المزيد، وأذِنَ لي بارتداء ملابسي لأنني كنت أرجف من شدّة البرد.

وعَبَّرتُ له عن انزعاجي من اعتباري واحدًا من بني الياهو وتسميت باسمهم، وهم الحيوانات البغيضة التي أكرهها غاية الكره وأحتقرها كل الاحتقار. وتوسلتُ إليه أن يُمْسِك عن إطلاق اسمهم عليَّ، وأن يأمر بذلك أهله وأصدقاءه الذين يسمح لهم برؤيتي. وطلبتُ أيضًا أن لا يعرف أحد سواه سرّ الغطاء الزائف لجسدي، على الأقل حتى يبلى هذا الغطاء. أما بالنسبة لما رآه

خادمه الحصان الأسمر فقد رجوتُه أن يأمر الخادم بالصمت.

وقد تكرّم سيدي بتلبية كل طلباتي(٨)، وهكذا بقي السرّ مجهولًا حتى بدأَتْ ملابسي تهترئ وتبلى، وأصبحتُ مضطرًا لاستبدالها بعدة تدابير سأذكرها فيما بعد. في الوقت نفسه طلب مني أن أثابر على بذل كل جهدي لتعلّم لغتهم لأنه مندهش من قدرتي على الكلام والتفكير أكثر من دهشته من جسدي، عاريًا كان أم مستورًا. وأضاف أنه ينتظر بفارغ الصبر سماع تلك الأعاجيب التي وعدتُ أن أحدثه عنها.

ومنذ ذلك اليوم ضاعف سيدي الجهود التي كان يبذلها في تعليمي، وجعلني أختلط بكل مَنْ يزورهم أو يزورونه، وجعلهم يعاملونني بلطف وأدب لأن هذا، كما قال لهم، سَيُطَيِّب خاطري ويشرح صدري ويجعل صُحْبَتي ممتعة.

وبالإضافة إلى ما كان يبذله في تعليمي، كان سيدي يسألني كل يوم عدة أسئلة عن نفسي فأجيبه بقدر ما أستطيع. وبهذه الوسيلة استطاع أن يحصل على بعض المعلومات العامة عني، لكنها كانت معلومات تنقصها الدقة. ولو رَوَيْتُ الخطوات العديدة التي أحرزتُ بها بعض التقدم نحو تبادل الحديث بشكل منظم، فربما تكون روايتي مملة. لكن أول تقرير منظم وطويل قدمتُه عن نفسي لسيدي كان كما يلي:

إنني جئت من بلاد بعيدة جدًا، كما حاولتُ أن أخبره من قبل، ومعي خمسون رجلًا من بني جنسي، وإننا سافرنا بحرًا في مركب كبير مجوف ومصنوع من الخشب وحجمه أكبر من بيت سيادته. ووصفتُ له السفينة بقدر ما أستطيع وشرحتُ له بالاستعانة بمنديلي كيف كانت الرياح تسوقها، وإن بحارتي تآمروا عليَّ ووضعوني على ساحل بلاده حيث رحتُ أسير على غير هدى لا أدري أين أذهب، حتى جاء سيادته وأنقذني مما كنتُ أتعرض له من اضطهاد على أيدي تلك المخلوقات المقيتة بني **الياهو**. وسألني، مَن صَنَع السفينة، وكيف يمكن أن يَسْمَحَ بني الهوينهم في بلادي بِتَرْك إدارة أمر كهذا بين يدي بهائم عجماء؟ فأجبتُ أنني لا أجرؤ على شرح المزيد إلا إذا وعدني سيادته بشرفه أنه لن يغضب، فإذا فعل فإنني سأحدثه بالأعاجيب التي طالما وعدتُه بها. وقد وَعَد. وحينذاك أكّدْتُ له أن السفينة صَنَعَتْها مخلوقات مثلي، وأن هذه المخلوقات هي الحيوانات العاقلة الوحيدة المهيمنة في كل البلاد التي زرتُها وفي بلادي أيضًا، وأنني لدى وصولي هنا دهشتُ من رؤية بني **الهوينهم** يتصرفون مثل الكائنات العاقلة بقدر ما دهش هو وأصدقاؤه حين وجدوا بعض ملامح العقل في مخلوقٍ يسمونه ياهو، وهو مخلوق أعترف أنني أشبهه في كل شيء، لكني لا أستطيع أن أفهم سرّ انحطاطه وبهيميته. وأَضَفْتُ، إذا شاء لي حسنُ الطالع أن أعود إلى بلادي، وأن أروي ما رأيتُ في رحلتي هنا، وهو أمر لا بدّ أن أفعله، فإن الناس في بلادي سيعتقدون أنني **قلتُ الشيء**

الذي لم يكن، وأنني اخترعتُ القصة من نسج خيالي. ومع احترامي لسيادته ولأسرته ولأصدقائه، وعلى أساس وعْدِه لي بأن لا يغضب، فإنني أقول إن أهل بلادي لا يصدقون أن بني الهوينهم يمكن أن يكونوا المخلوقات المهيمنة والحاكمة في بَلَدٍ ما، وإن بني الياهو يمكن أن يكونوا البهائم المحكومة.

الفصل الرابع

مفهوم بني الهوينْهْمْ عن الصدق والكذب والتزييف. حديث المؤلف يقابَل بالاستنكار من قِبَل سيده. المؤلف يقدم تقريرًا فيه تفاصيل أكثر عن نفسه وعن أحداث رحلته.

أصغى لي سيدي ومظاهر عدم الارتياح بادية على وجهه، لأن الشك وعدم التصديق غير معروفين في هذه البلاد، ولا يعرف السكان كيف يتصرفون في مواجهة حالات كهذه. وأذكر خلال أحاديثي المتكررة مع سيدي الحصان عن طبيعة البشر في الأماكن الأخرى من العالم، أنه حين كان الحديث يدور عن **الكذب وتزييف الحقائق**، كان سيدي لا يفهم ما أعني إلا بصعوبة بالغة، مع أنه في المواضيع الأخرى كان سريع الفهم وسديد الرأي. ورأيه يتلخص فيما يلي: إن الغاية من الكلام هي أن يفهم أحدنا الآخر وأن يستقبل معلومات عن وقائع. أما حين يُقْدِم أي شخص على **قول الشيء الذي لم يكن**، فإن الغاية من الكلام لا تتحقق لأنني لا يمكن أن أقول بحق إنني فهمته ولا أستقبل معلومات منه، بل هو يتركني في حال أسوأ من الجهل، إذ يجعلني أعتقد أن الشيء أسْود في حين أنه أبيض، أو أنه قصير في حين أنه طويل. وكان هذا كل ما كان سيدي يعرفه ويفهمه عن مَلكة **الكذب** التي يفهمها بنو البشر جيدًا ويمارسونها على أوسع نطاق.

بعد هذا الاستطراد نعود إلى موضوعنا. بعد أن أكّدتُ لسيدي الحصان أن **بني الياهو** هم الحيوانات المهيمنة الوحيدة في بلادي، قال إن هذا وضع يعجز عن تصوره وإدراكه، وسأل هل يوجد بيننا خيل من **بني الهوينهم**؟ وما هو عملهم عندنا؟ وأجبته أن عندنا أعداد كبيرة منها، وأنها في الصيف ترعى في الحقول، وفي الشتاء تبقى في البيوت حيث يُوَفّر لها التبن والشوفان وحيث يقوم على خدمتها خَدَم من **بني الياهو**، فيغسلون ويملسون جلودها، ويمشطون أعرافها، وينظفون أقدامها، ويأتون لها بطعامها، ويمهدون لها فراشها. وقال سيدي: إنني **أفهمك** جيدًا. واضح مما تقول أنه أيًّا كان نصيب **بني الياهو** عندكم من العقل، فإن **بني الهوينهم** هم سادتكم[1]، وأتمنى من كل قلبي لو كان **بني الياهو** عندنا طيعين مثلهم عندكم. وهنا رجوتُ من سيادته أن يعفيني من الاستمرار في الحديث، لأنني متأكد أن التقرير الذي يرغب في سماعه مني سيزعجه غاية الإزعاج.

لكنه أصَرّ وأمرني أن أكشف له عن كل ما أعرف، شرًّا كان أو خيرًا. قلتُ له: لك الأمر وعليَّ الطاعة. اعلمْ أن بني الهوينهم التي عندنا تُسمّى جيادًا أو خيلًا، وهي أكرم وأجمل الحيوانات عندنا، وتتميز من غيرها أيضًا بالقوة والسرعة. وعندما تكون مِلكًا لأشخاص من علية القوم تُستخدَم في السفر والسباق وجرّ العربات، وتُعامَل بعطف ولطف، وتنال الرعاية البالغة حتى تصيبها الأمراض والعِلَل في أجسادها أو أقدامها. حينذاك تُباع وتستخدم في العديد من الأعمال الشاقة حتى تموت. بعد ذلك تُسلَخ جلودها وتباع بأبخس الأثمان وتُترَك أجسادها لتنهشها الكلاب أو الطيور الجارحة. أما الخيول العادية فإنها أقل حَظًّا ونعيمًا، إذ يقتنيها الفلاحون والحمالون ومن إليهم من عامة الناس، ويهلكونها بالأعمال الشاقة ولا يقدمون لها سوى الطعام الرديء. ثم وصفتُ بقدر ما أستطيع طريقتنا في ركوب الخيل، وشكل اللجام واستخداماته، والسرج، والمهماز، والسوط، وعُدّة الخيل، والعربات، وأضفتُ أننا نضع في أسفل أقدامها أحذية من مادة صلبة تسمى الحديد لنحمي حوافرها من الكسر حين نسافر عليها فوق طرق حجرية وعرة.

وبعد أن صَهل سيدي بعبارات الاستهجان الشديد والاستنكار الغاضب سأل كيف نجرؤ على امتطاء ظهور الخيل؟ فهو على يقين أن أضعف وأهزل حصان من الخدم في بيته، يستطيع أن يتغلب على أقوى ياهو فيرميه عن ظهره، أو يستلقي ويتقلب على ظهره حتى يهْرُس ذلك البهيم ويكتم أنفاسه. وأجبتُ أن الخيول عندنا تُدَرَّب منذ السنة الثالثة أو الرابعة على الأعمال العديدة التي نختارها أو نقررها لها، فإذا أظهر أحدها تمردًا لئيمًا فإننا نستخدمه في أحَطّ الأعمال وأشقّها مثل جَرّ العربات؛ وإنها تُضْرَب في صغرها ضربًا مبرحًا حين تحرن أو تقوم بعمل مؤذ. أما الذكور التي نريدها للركوب أو لجَرّ العربات والمحاريث فإننا نخصيها بعد سنتين من ولادتها وبهذا نسلبها فحولتها لكي نجعلها أكثر طاعة وهدوءًا وأسلس قيادًا. وقلتُ إن الخيل عندنا تدرك معنى المكافآت والعقوبات، ولكني رجوتُ سيدي الحصان أن يصدّق أن الخيل عندنا، مثل بني الياهو عندهم، ليس لديها أدنى قدر من العقل.

وقد اضطررتُ إلى الإسهاب أو الإطناب أو الدوران حول المعنى لأعطي سيدي فكرة صحيحة وواضحة عما أقول، ذلك أن لغتهم محدودة الكلمات وخالية من التنوع في المفردات لأن حاجاتهم وشهواتهم أقل منها عندنا(٢). ومن المستحيل أن أشرح غضبه واستنكاره النبيل للمعاملة الوحشية التي نعامل بها بني الهوينهم عندنا، وعلى الأخص غضبه حين شرحتُ له طريقة وأسباب خصي ذكور الخيل عندنا، منعًا لها من التناسل والتكاثر وإمعانًا في تطويعها وإذلالها. وقال سيدي، لو كان من الممكن أن يوجد بلد ليس فيها حيوانات عاقلة سوى بني الياهو، فمن المؤكد أن بني الياهو سيكونون الحكام المهيمنين فيها، لأن العقل في آخر الأمر يتغلب على القوة البدنية البهيمية. لكن لو أخذنا في الاعتبار تركيبة أجسادنا، وعلى الأخص تركيبة جسدي، فإنه لا يظن أن هناك

مخلوقاً مساويًا لنا في الحجم له مثل تركيبنا الجسدي السيء الذي لا يتيح للعقل أن يقوم بوظائفه الحياتية على خير وَجْه. وقد سألني سيدي، هل الناس الذين أعيش بينهم يشبهونني أم يشبهون **بني الياهو** في بلده؟ وطَمْأنْتُه أن جسدي شبيه في تركيبته الجيدة بأجساد من هُم في سنّي، لكن الإناث والأصغر سنًّا من الذكور عندنا فَهُمْ أنعم وأطرى عودًا، وأن بشرة الإناث عندنا بيضاء كالحليب. وقال إنني في الحقيقة أختلف عن **بني الياهو** عندهم لأنني أكثر منهم نظافة وأقل تشويهًا، لكن هذا الاختلاف يجعلني من حيث الفائدة العملية أسوأ. ذلك أن أظافر أقدامي الأمامية والخلفية ليست ذات جدوى. أما قدماي الأماميتان فهو لا يستطيع بحق أن يسميها أقدامًا لأنه لم يَرَني قط أمشي بها على الأرض كما أن نعومتها تجعلها لا تحتمل ذلك. وهو يراني أسير بها دون غطاء، وأن الغطاء الذي أضعه على قدميّ الخلفيتين. كذلك فإنني لا أستطيع أن أمشي وأنا آمِنٌ تمامًا، ذلك أنه إذا زَلَقَتْ إحدى قدميّ الخلفيتين فإنني أقع لا محالة. ثم راح يعدّد الأخطاء والعيوب في الأجزاء الأخرى من جسدي، ومن هذه أن وجهي مُسَطَّح، وأنفي بارز، وعينيّ موضوعتان في الجهة الأمامية فقط بحيث لا أستطيع أن أرى ما على الجانبين إلا إذا أدرتُ رأسي، وأنني لا أستطيع أن أطعم نفسي إلا إذا رَفَعْتُ إحدى قدميّ الأماميتين إلى فمي، وأن الطبيعة قد وضعت في قدميّ الأماميتين تلك المفاصل والوصلات العديدة تلبية لهذه الحاجة. لكنه لا يعرف الفائدة من تلك الشقوق والتقسيمات العديدة في قدميّ الخلفيتين، وأن هذين القدمين ناعمتين وطريتين جدًا ولا تتحملان صلابة الصخور أو حِدّتها دون غطاء مصنوع من جلد البهائم الأخرى، وأن جسدي كله يحتاج إلى غطاء يحميه من الحرّ ويقيه من البرد، وهو غطاء نلبسه ونخلعه كل يوم مما يسبب لنا رهقًا مزعجًا. وأخيرًا، إنه يرى أن الحيوانات كلها في بلاده تمقت **بني الياهو** الضعيفة منها تتجنبهم والقوية تبتعد عنهم. ولو افترضنا أن لدى **بني الياهو**، موهبة العقل، فهو لا يرى سبيلاً لإنهاء تلك الكراهية الفطرية التي يكنّها كل مخلوق لنا وبالتالي، فإنه لا يرى كيف يمكننا أن ندجّن تلك المخلوقات التي تمقتنا ونجعلها تخدمنا. لكنه على كل حال لن يتابع النقاش في هذا الموضوع، لأنه إنما يرغب فقط في معرفة قصتي، وبلادي التي ولدتُ فيها، والأعمال والأحداث التي ملأَتْ حياتي قبل أن أصل إلى بلاده.

وأكَّدْتُ له أنني شديد الرغبة في أن أشرح له كل ما يريد معرفته. لكني أشك كثيرًا في قدرتي على شرح الموضوعات العديدة التي لم تخطر له على بال، لأنني لا أجد في بلاده ما يمكن أن أشبهها به، لكني على كل حال سأبذل كل جهدي لأشرح الأمور عن طريق تشبيهها بأمثالها، ورجوته أن يساعدني حين تعوزني الكلمات المناسبة، فوعد أن يفعل ذلك بكل سرور.

قلتُ إنني وُلِدْتُ لأبوين شريفين في جزيرة تدعى **إنجلترا** تبعد عن بلاده مسافة تساوي المسافة التي قد يقطعها أقوى حصان من خدم سيادته خلال الدورة السنوية للشمس؛ وأنني تعلمتُ

مهنة الطب والجراحة، وهي مهنة تشفي جراح الجسد وآلامه التي تصيبه بالصدفة أو من جراء العنف؛ وأنه تحكم بلادي إنسان أنثى، نسميها **ملكة**، وأنني تركتُ بلادي لأجمع ثروة أعول بها نفسي وأسرتي حينما أعود[٣]؛ وأنني في رحلتي الأخيرة كنتُ قائد السفينة وكان تحت إمرتي خمسون من بني **الياهو**، مات كثيرون منهم في البحر فاضطررتُ للتعويض عنهم بآخرين من شعوب متعددة؛ وأن سفينتي تعرضت للغرق مرتين، أولهما بسبب عاصفة جائحة والثانية بالاصطدام بصخرة. وهنا قاطعني سيدي وسألني كيف استطعتُ أن أقنع غرباء من بلاد مختلفة بالمجازفة بالعمل معي بعد الخسائر التي منيتُ بها والأخطار التي تعرضت لها. فأجبته أنهم أشخاص ذَوُو حظوظ بائسة، اضطُّروا بسبب فقرهم أو جرائمهم للفرار من البلاد التي أنجبتهم. بعضهم دَمَّرته المحاكم والقانون وبعضهم افتقر بسبب الإدمان على المسكرات أو الفسق مع العاهرات أو المقامرة؛ وبعضهم هرب بسبب الخيانة، والكثيرون فرّوا بسبب ارتكابهم لجرائم القتل أو السرقة أو دسّ السمّ للآخرين أو قطع الطريق أو شهادة الزور أو التزييف أو سكّ نقود مزيفة، أو جرائم الاغتصاب أو اللوطية، أو الفرار من الجيش أو الانضمام لصفوف الأعداء، والكثيرون منهم هربوا من السجون. وليس بين هؤلاء من كان يجرؤ على العودة إلى بلده خوفًا من الشنق أو الموت جوعًا في السجون، ولهذا قد اضطرّوا إلى البحث عن رزقهم في أماكن أخرى[٤].

خلال هذا الحديث كان سيدي يكثر من «مقاطعتي». وقد لجأتُ إلى العديد من التشبيهات والإسهابات لكي أشرح له طبيعة العديد من الجرائم التي اضطر بحارتنا بسببها إلى الفرار من بلادهم. وقد استغرقني هذا العلم أيامًا عديدة من الحديث والشرح قبل أن يستطيع سيدي أن يستوعب أو يفهم ما أقول. فقد كان عاجزًا عن معرفة الفائدة من ممارسة تلك الرذائل أو الضرورات الداعية إلى ارتكابها. ولكي أوضح هذا الأمر حاولتُ جاهدًا أن أشرح له بعض الأفكار عن شهوة السلطة وشهوة الثراء، وعن النتائج الفظيعة للشبق الجنسي والشهوات العارمة والحقد والحسد. ولكي أعرِّف هذه المفاهيم وأصفها لجأتُ إلى رواية حالات محددة وإلى اختراع افتراضات متنوعة. بعد ذلك كان سيدي، كمن يسمع ويرى أشياء لم تخطر قط على باله، يرفع عينيه ذهولًا واستغرابًا واستنكارًا. ذلك أن مفاهيم السلطة، والحكم، والحرب، والقانون، وألْفٍ غيرها ليس لها في لغتهم ألفاظ تعبّر عنها، وهذا جعل مهمة شرحها لسيدي أمرًا يكاد يكون مستحيلًا. لكن سيدي كان ذا ذكاء حاد صَقَلَهُ التأمل والحديث، ولهذا تمكن آخر الأمر من التوصل إلى معرفة جيدة بما تستطيع الطبيعة البشرية في بلادنا أن تجترحه وتفعله. وهكذا طلب مني أن أقدم له تقريرًا مفصّلًا عن البلاد التي نسميها أوروبا، وعن بلادي بوجه خاص.

الفصل الخامس

المؤلف يمتثل لأمر سيده ويخبره عن الأحوال في انجلترا، وعن أسباب الحروب بين أمراء أوروبا، ويشرع في شرح الدستور الانجليزي.

أرجو من القارئ أن يلاحظ أن ما يلي ليس سوى مقتطفات من محادثاتي مع سيدي، ويحوي ملخصًا لأهم النقاط التي تكلمنا فيها وأهم المواضيع التي تطرقنا لها في مناسبات عديدة خلال عامَيْن. كلما كنتُ أزداد إتقانًا للغة الهوينهم كان سيدي يعاود سؤالي عن موضوع ما، لكي يفهمه فهمًا أحسن. كنتُ قد شرحتُ له بقدر ما أستطيع أحوال أوروبا كلها: حدثْتُه عن التجارة والصناعة، والفنون والعلوم. وكانت الأجوبة التي أردّ بها على الأسئلة التي تخطر له خلال الحديث عن الموضوعات المتعددة، فيضًا لا ينقطع، لكني سأدوّن هنا فقط زبدة ما دار بيننا من أحاديث عن بلادي بعد أن نظمتها بأحسن ما أستطيع، دون اهتمام بزمان كل حديث أو الظروف التي أدَّتْ إليه. لكني الْتَزَمْتُ التزامًا صارمًا بقول الصدق والحقيقة. الشيء الوحيد الذي أخشاه هو أنني غير قادر تمامًا على تصوير حجج سيدي القوية وتعبيراته البليغة تصويرًا منصفًا بسبب ضعفي في لغته ومحاولتي ترجمة كلامه إلى لغتنا الانجليزية الهمجية.

امتثالًا لأوامر سيادته حدثته عن الثورة في عهد أمير أورانج، وعن الحرب الطويلة مع فرنسا[1] التي بدأها الأمير المذكور واستمرتْ فيها من خلفتْه على العرش، الملكة الحالية، والتي تورطتْ فيها كل الدول المسيحية، والتي هي ما زالت مستمرة، وبناء على طلب سيدي حسبتُ الخسائر في هذه الحرب، فقلتُ إنه قُتِل فيها حوالي مليون من بني الياهو، وإنه سقط فيها أكثر من مائة مدينة، وإن خمسة أمثال هذا العدد من السفن غَرِق أو أُحْرِق.

وسألني: ما هي الأسباب أو الدوافع التي تجعل بلدًا يتحارب مع بلد آخر؟ فأجبتُ أن الأسباب لا تُحصى، ولكني سأكتفي بذكر عددٍ من أهمها. أحيانًا يكون السبب طمع حاكم لا يكتفي بما لديه من بلاد ومَن تحت حكمه من عباد[2]، أو أحيانًا يكون فساد الوزراء الذين يورّطون مَلِكهم في الحرب لكي يحولوا الأنظار عن تظلم الرعية من فساد حكمهم وشرور إدارتهم. وأحيانًا يكون اختلاف الرأي سببًا في هلاك الملايين، ومن أمثلة ذلك الاختلاف حول ما إذا كان اللحم خبز أو

الخبز لحمًا[٣]. أو حول ما إذا كان الصغير شرًا أم خيرًا[٤]، أو حول ما ينبغي فعله بقطعة من الخشب: تقبيلها أو حرقها[٥]، أو حول أفضل لون للملابس[٦]: أهو الأسود أم الأبيض أم الأحمر أم الرمادي، أو حول طول الملابس أو قصرها، أو حول ضيقها أو اتساخها، أو حول اتساخها أو نظافتها، أو حول أمور أخرى كثيرة. وقلتُ له إن أعنف الحروب وأكثرها دموية، وأطولها مدة واستمرارًا، هي تلك التي تنجم عن اختلاف الرأي، ولا سيما حول الأمور التافهة.

وأحيانًا تقوم الحرب بين أميرين يتسابقان على اغتصاب بلاد أمير ثالث لا حقَّ لأيّ منهما فيها[٧] وأحيانًا يهاجم ملكٌ ملكًا ثانيًا لكي لا يبدأ الثاني بالهجوم. وأحيانًا يدخل أحدهم الحرب لأن العدو قوي جدًا أو ضعيف جدًا. وأحيانًا يطمع جيراننا فيما عندنا أو يكون عندهم ما نطمع فيه، فنتحارب حتى يأخذوا ما عندنا أو يعطونا ما عندهم. ومن المبررات المقبولة أن تغزو بلدًا أنهكَتْ شعبه المجاعة أو الأوبئة أو الخصومات الحزبية. كما أنه من المقبول أن نشن الحرب على أخْلص حليف لنا إن كان موقع أحد مدنه يناسبنا أو إن كانت قطعة من أراضيه تكمل أراضينا. وإذا أرسل أمير قواده إلى بلد شعب جاهل أو فقير، فإنه يحق له شرعًا أن يقتل نصف أبنائه ويستعبد النصف الآخر لكي يحضّرهم وينقذهم من طريقتهم البربرية في العيش، وإن من الممارسات الملكية الشريفة والمتكررة أنه إذا استنجد أمير بأمير ثان لكي يساعده في صدّ غزو، فإن الأمير الثاني يقوم بعد صدّ الغزاة باحتلال الأراضي وضَمّها إلى ملكه، ويقتل أو يسجن أو ينفي الأمير الذي جاء لنجدته. كذلك فإن قرابة الدم أو المصاهرة هي سبب كاف لقيام الحروب بين الأمراء، وكلما قويت صلة القربى كان الميل إلى القتال أشد. الشعوب الفقيرة جائعة والغنية متكبّرة متجبرة، والجوع على خلاف دائم مع الكبرياء والتجبّر. لهذه الأسباب كلها فإن حرفة الجندي هي أشرف الحرف، ذلك أن الجندي هو واحد من بني الياهو يستأجرونه ليقتل ببرودة وبضمير مستريح أكبر عدد من بني جنسه يستطيع قتلهم، دون أن يتسبب المقتولون في أي أذى أو إزعاج له.

كذلك هناك نوع من الأمراء المرتزقة في أوروبا لا يقومون بشن الحروب بأنفسهم، لكنهم يؤجرون قواتهم للشعوب الأغنى مقابل مبلغ يوميّ معين لكلِ واحد من جنودهم، ويأخذون ثلاثة أرباع هذا المبلغ لأنفسهم ويكون هذا أهم مصدر رزق لهم. وهذا ما يمارسه الأمراء في كثير من الأجزاء الشمالية من أوروبا.

وقال سيدي: إن ما تقوله عن موضوع الحرب يكشف بحق وبشكل واضح نتائج ذلك العقل الذي تزعمونه لأنفسكم. وعلى كل حال، فإنه من حسن الطالع أن مخازيكم أكثر من خطركم، وأن الطبيعة جَعَلَتْكم عاجزين عن إحداث الأذى الكثير. فأفواهكم غير بارزة من وجوهكم ولا تستطيعون أن يَعُضّ أحدكم الآخرين عضًا بالغ الأذى إلا إذا اتفقتم على ذلك. وأما بالنسبة

للمخالب في أقدامكم الأمامية والخلفية فإنها قصيرة وليّنة وليست ذات خطر، ويستطيع واحد من بني الياهو عندنا أن يسوق أمامه دستة منكم. ولهذا فإنني أعتقد أنك لدى ذكر عدد الذين قتلوا في المعركة قلتَ الشيء الذي لم يكن.

ولم أستطع إلا أن أهُزّ رأسي وأبتسم بسبب جهله، ولأنني لستُ غريبًا على أمور الحرب وفنون القتال، فقد وصفتُ له المدافع القصيرة، والمدافع الطويلة، والبنادق الطويلة والقصيرة، والمسدسات، والرصاص، ومسحوق البارود، والسيوف، والحراب، وأنواع الحصار، وأساليب الكرّ والفرّ، والخنادق والسراديب، ودكّ القلاع بالقذائف، والمعارك البحرية، والسفن التي تغرق وعليها ألف إنسان، وعشرين ألفًا يُقْتَلون من كل من الطرفين المتحاربين، وأنين المحتضرين، والأطراف التي تتطاير في الجو، والدخان، والصراخ، والفوضى، والذين تدوسهم وتقتلهم سنابك الخيل، والهروب، والمطاردات والانتصارات، وميادين القتال التي تبقى فيها جثث القتلى طعامًا للكلاب والذئاب والطيور الجارحة، والسلب والنهب، وتعرية الناس من ملابسهم، وتجريدهم من حُليّهم، وحالات الاغتصاب والحرق والتدمير. ولكي أعتز ببسالة وشجاعة أبناء بلادي الأعزاء، أكدتُ لسيدي الحصان أنني رأيتهم في حصار المدن ينسفون مائة من الأعداء دفعة واحدة، وينسفون مثلهم في سفينة، ورأيتُ الأجساد تتساقط قطعًا من الغيوم، مما جعلها منظرًا ممتعًا للغاية لدى كل المتفرجين.

وكنت سأسرد مزيدًا من التفاصيل لولا أن أمَرني سيدي بالسكوت وقال: كل من يفهم طبيعة بني الياهو يمكن أن يصدق أنه من الممكن لحيوانات بمثل هذه الحقارة أن ترتكب كل عمل من الأعمال التي ذكرتها لو كانت قوتها ودهاؤها تماثل حقدها ولؤمها. وقد زاد حديثي كراهيته وبغضه لجنس بني الياهو كله، لكنه في الوقت نفسه أحدث في ذهنه تشويشًا أو اضطرابًا لم يعرفه قط من قبل. وهو يرى أنه إذا تعودت أذناه على مثل هذه الألفاظ الفظيعة، فإنها بالتدريج قد تستمع لها باستهجان أقل. وقال: رغم أنه يكره بني الياهو الموجودين في بلده، إلا أنه لا يلومهم على طباعهم البغيضة كما لا يلوم الطير الجارح على قسوته ولا يلوم الحجر الحاد حين يجرح حافره. لكن حين يزعم مخلوق أنه عاقل ويقترف مثل هذه الأعمال الفظيعة، فإنه يخشى أن يكون فساد العقل أسوأ من الوحشية البهيمية. وهو لهذا يميل إلى الاعتقاد بأن ما لدينا من قدرة على التفكير ليست هي العقل، بل هي مَلَكَةٌ تساعدنا على زيادة وتضخيم شرورنا ورذائلنا الفطرية، وهي تشبه الماء المضطرب الذي يعكس لنا صور الأشياء مضخمة ومشوهة.

وأضاف أنه سمع أكثر مما يريد عن موضوع الحرب في هذا الحديث وما سبقه من أحاديث. لكنه يريد الآن أن يستفسر عن موضوع يحيّره ولا يفهمه جيدًا. كنتُ قد أخبرتُه أن بعض بحارتنا

يتركون بلادهم لأنهم دمرتهم **المحاكم والقانون**. وقال سيدي إنني قد شرحتُ له معنى كلمة القانون وكلمة المحاكم، لكنه لا يفهم كيف يحدث أن يكون القانون الذي يُقْصَد به الحفاظ على الناس وحقوقهم سببًا في تدمير الإنسان، ولذلك فهو يرجو أن أقدم له مـزيدًا من الشرح عما أقصده بكلمة **القانون**، وعمَّن يطبقونه، طبقاً للممارسات الحالية في بلادي، لأنه يعتقد أن الطبيعة والعقل بالنسبة لنا، باعتبارنا مخلوقات عاقلة كما نزعم، مرشدان كافيان لتعريفنا بما ينبغي أن نفعله وما يجب أن نتجنبه.

وأكَّدتُ لسيادته أن **القانون** عِلْمٌ ليس لي به علاقة أكثر من كوني استخدمتُ محامين، دون جدوى، في قضية كنتُ فيها مـظلومًا. ومع ذلك، فسأشرح له الأمر بقدر ما أستطيع.

قلتُ إن بيننا جماعة من المتخصصين، تدربوا منذ حداثتهم على استخدام كلمات كثيرة لإثبات أن **الأبيض أسود، والأسود أبيض** حسب المبالغ المالية التي تُدْفَع لهم، وإن بقية الناس هم عبيد لهذه الجماعة.

وعلى سبيل المثال، لو خطر لجاري أن يأخذ بقرتي مني، فإنه يستأجر محـاميًا ليثبت أنه يجب أن يأخذ بقرتي مني. وحينذاك يتوجب عليّ أن أستأجر محاميًا آخر ليدافع عن حقي، لأن كل مبادئ القانون تنص على أنه لا يجوز للمرء أن يتكلم دفاعًا عن نفسه(٨). في هذه القضية أُصْبح أنا، المالك الحقيقي، في مواجهة ضررين عظيمين: أولهما أن محاميَّ المتدرب منذ نعـومة أظفـاره على الدفاع عن الباطل يجد نفسه كمدافع عن قضية عادلة خارج بيئته الطبيعية، ولهذا يتعثر في دفاعه عن عجز أو عن سوء نية. والضرر الثاني هو أن على محاميَّ أن يسير في دفاعه عن حقي بحذر شديد أو يتعرض للتوبيخ من القضاة وللكراهية من زملاء المهنة، لأنه بدفاعه عن الحق يسيء إلى سلوكيات المهنة وآليات القضاء. ولهذا لا يكون أمامي للاحتفاظ ببقرتي سوى طريقين: الأول، أن أدفع لمحامي خصمي ضعف ما دفعه له الخصم لكي يخون موكله ويلمِّح إلى أن العدل في جانبه. أما الطريق الثاني فهو أن يبذل محاميَّ جهده ليجعل قضيتي تبدو ظالمة عن طريق الاعتراف بأن البقرة تخص خصمي، وهذا بالتأكيد سيكسبني عطف القضاة.

والآن يجب عـلى سيادتـك أن تعلم أن هؤلاء القضـاة أشخاص، وظيفتهم أن يفصلوا في المنازعات حول الملكية وفي القضايا الجنائية. ويتم اختيارهم من بين أمهر المحامين بعد أن يشيخوا أو يصبحـوا كسالى. ولأنهم كـانوا طيلة حيـاتهم أعداء للحق والعـدل، فإنهم مضـطرون بحكم طبيعتهم ودُرْبَتهم إلى ممالأة النصب والاحتيال وشهادة الزور والظلم، بل إنني أعـرف أن بعضهم رفضوا رشوات كبيرة من الطرف صاحب الحق لكي لا يسيئوا إلى آليات المهنة ولكي لا يقترفوا ما لا يتفق مع طباعهم أو طبيعة عملهم.

ومن المبادئ السائدة لدى هؤلاء المحامين أن ما عُمِلَ من قبل، يمكن قانونًا أن يُعْمَل مرة ثانية. ولهذا فهم يحرصون كل الحرص على تسجيل كل القرارات والأحكام السابقة المنافية لروح العدل ومنطق العقل. وهم يسمُّون هذه القرارات الظالمة والأحكام الجائرة سوابق، ويستندون إليها لتبرير آرائهم الظالمة. ولم يمتنع القضاة قط عن إصدار أحكام مطابقة لتلك الآراء والسوابق.

وأثناء الترافع، يتحاشى المحامون الدخول في صلب الموضوع، لكنهم تعلو أصواتهم ويزداد حماسهم عند الوقوف على التفاصيل المملة التي لا علاقة لها بالموضوع. ولنأخذ مثالاً على ذلك قضية البقرة. فهم لا يسألون عما عند خصمي من مستندات قانونية تؤيد مطالبته ببقرتي، بل يسألون، هل البقرة موضوع النزاع حمراء أو سوداء، وهل هي طويلة أو قصيرة القرنين، وهل المكان الذي ترعى فيه مستدير أو مربع، وهل تحلب في المنزل أو خارجه، وما الأمراض التي تتعرض لها، وما إلى ذلك من أسئلة. وبعد هذا كله يرجعون إلى السوابق القانونية، ثم يؤجلون القضية، ويعيدون تأجيلها مرة بعد أخرى، وبعد عشر سنوات أو عشرين أو ثلاثين يصدر الحكم.

ومن الملاحظ أيضًا أن لهذه الجماعة لغة ورطانة خاصة لا يفهمها أحد من البشر غير أعضائها. وبهذه اللغة تُكْتَب كل قوانينهم التي يحرصون على زيادتها وتعقيدها بحيث يختلط فيها الحق بالباطل والصواب بالخطأ. وبحيث يحتاجون إلى ثلاثين سنة ليقرروا إن كانت أرضي التي ورثتُها عن أجدادي عبر ستة أجيال هي أرضي أم أرض شخص غريب يعيش على بعد ثلاثمائة ميل.

أما محاكمة الأشخاص المهتمين بجرائم ضد الدولة، فإنها تأخذ وقتًا أقصر وتتبع أسلوبًا أفضل يستحق التقدير: أولاً، يرسل القاضي من يتعرف على رغبة ذوي النفوذ وهوى أصحاب السلطة، وبعد ذلك يَسْهُلُ عليه شنق المجرم أو تبرئته، وطبعًا مع الحرص الشديد على شكليات القانون.

وهنا قاطعني سيدي قائلاً إنه من المؤسف أن لا تُشجَّع مخلوقات تتمتع بهذه القدرات العقلية الفذَّة كالمحامين، حسب وصفي لهم، على أن تكون قدوة ومعلمًا للآخرين في أمور الحكمة والمعرفة، وفي جوابي على هذا القول، أكدتُ لسيدي أن هؤلاء المحامين هم، خارج نطاق مهنتهم، أكثر الناس جهلاً وأشدهم غباء وأحقرهم حديثًا في الأمور العادية، فهم خصوم ألداء للعلم والتعليم، وهم ميالون إلى إفساد العقل البشري وتضليله في كل مواضيع الحديث، كما يفعلون في إطار مهنتهم.

الفصل السادس

استمرار الحديث عن أحوال إنجلترا في عهد الملكة آنْ. شخصية رئيس الوزراء في قصور ملوك أوروبا.

حتى الآن لم يفهم سيدي الدوافع التي تُغْري طائفة المحامين هذه بإرهاق، وإزعاج، وبلبلة أنفسهم عن طريق الانضمام إلى تحالف الظلم والبغي الذي يسعى إلى إيذاء إخوانهم من الحيوانات، كما أنه لم يدرك ما أعنيه بقولي إنهم يفعلون ذلك مقابل أَجْر. عند ذاك اضطررتُ أن أجهد نفسي لكي أشرح له فوائد النقود، والمواد التي تُصْنَع منها النقود، وقيَم المعادن[1]. قلتُ إنه حين يتوفر لواحد من بني الياهو قدراً كبيرًا من هذه المادة الثمينة، فإنه يستطيع شراء كل ما يرغب فيه: أحسن الملابس وأرقى البيوت وأراض واسعة وأغلى اللحوم والمأكولات والمشروبات، كما يتاح له أن يختار من يشاء من أجمل الجميلات. وبما أن النقود وحدها تيسِّر كل هذه الإنجازات العظيمة، فإن بني الياهو لن يقنعوا قط بما يتوفر لهم منها مهما عَظُم مقدار ما ينفقونه أو يدخرونه، حسبما يجدون أنفسهم ميالين بالفطرة إلى الإسراف والتبذير أو البخل والتقتير. كذلك فإن الغني يتمتع بثمرات كفاح الفقير، مع أن تعب الفقير أكبر مائة مرة من تعب الغني، وأكثر الناس يعيشون في بؤس وشقاء إذْ يكِدّون كل يوم ساعات طويلة بأجور زهيدة لكي تعيش قلة من الناس في بحبوحة ورخاء[2]. وقد أسهبتُ وأطنبتُ كثيرًا في هذا وما شابهه من مواضيع ووصلتُ إلى النتيجة نفسها وهي أن سيدي لم يفهم بعد. ذلك أن فكره قائم على افتراض بديهيّ هو أن لكل حيوان حق ونصيب معلوم في خيرات الأرض، وخاصة أولئك الذين يرأسون الآخرين. لهذا طلب مني أن أوضح له ماهية هذه اللحوم والأطعمة الباهظة التكاليف وكيف يحتاجها أي منا. عند ذاك رُحْتُ أعدِّد له كل ما خطر على بالي منها، والطرق المتنوعة في تجهيزها وطبخها، وهي وسائل لا يتيسر القيام بها إلّا بإرسال مراكبنا في البحر إلى كل أنحاء العالم لكي تعود لنا بالمشروبات والبهارات والصلصات وما لا يحصيه عدد من المقبّلات. وأكّدتُ لسيادته أنه لا بد من الدوران حول الكرة الأرضية ثلاث مرات لكي تستطيع واحدة من نساء الياهو الراقيات أن تتناول فطورها من الصحون الصينية التي يوضَع فيها فطورها. وقال: البلد الذي لا ينتج لسكانه ما يكفيهم من طعام هو بلد تعيس حقًا. لكن الشيء الذي تعجَّب منه غاية العجب هو كيف يمكن لأراض واسعة وبلاد

شاسعة، كما وصفتُ بلادي، أن تخلو من ماء للشرب مما يضطر أهلها إلى جلب المشروبات من وراء البحار؟ وأجبتُه أن إنجلترا (مسقط رأسي العزيز) تنتج من الطعام ثلاثة أضعاف ما يمكن لأهلها أن يستهلكوه، كما تنتج من المشروبات التي تستخلص من الحبوب أو تُعْصر من ثمار بعض الأشجار أحسن أنواع الشراب. والنسبة نفسها تنطبق على ضرورات الحياة الأخرى. لكننا لكي نُشْبِع شراهة الذكور وحبهم للرفاه ولكي نرضي غرور الإناث، نصدر الجزء الأكبر من الأشياء الضرورية لنا إلى بلاد أخرى ونستورد منها مواد تجلب الأمراض وتنجب الحماقات والرذائل، وننشرها فيما بيننا. وينجم عن هذا بالضرورة أن تضطر أعداد هائلة من شعبنا إلى كسب رزقها بالشحاذة، وقطع الطرق، والسرقة، والغش، والقوادة، وحَلْف الأيمان كذبًا، والتملق، والتحريض على الشر، والتزوير، والمقامرة، والكذب، والتزلّف، والتغطرس، والتصويت، والكتابة، والتنجيم، والتسميم، والفسق والدعارة، والشعوذة والتظاهر بالتقوى، والتشهير ونهش الأعراض، والانحلال الفكري والإلحاد، وما إلى ذلك من ممارسات. وقد وجدتُ صعوبة بالغة في تفهيمه معاني كل واحدة من هذه الألفاظ.

قلتُ إننا لا نستورد الخمر من بلاد أجنبية لنسُدّ به حاجتنا إلى الماء أو غيره من أنواع الشراب، ولكن لأنه نوع من السوائل يولّد فينا السرور بتخدير حواسنا، ويلهينا عن همومنا، وينجب في دماغنا خيالات جامحة، ويحْيي فينا الآمال ويطرد عنا المخاوف، ويعطّل نشاط عقلنا ويشلّ حركة أعضائنا حتى نغرق في سبات عميق. لكننا نفيق دائمًا من سباتنا مرضى وفاقدي الهمة. إن تناول الخمر يخلّف فينا الأمراض وينكد عيشنا ويقصر أعمارنا(٣).

وبالإضافة إلى كل هذا، فإن معظم أفراد أمتنا يعولون أنفسهم عن طريق تأمين ضروريات الحياة وكمالياتها للأغنياء ولبعضهم البعض. وعلى سبيل المثال، حين أكون في بيتي ومتلفعًا بثيابي، فإنني أحمل على جسدي نتاج عمل مائة من الحِرَفيين، كما أن بناء البيت وتأثيثه يشغّل عددًا مماثلًا من أصحاب الحرف، لكن تزيين زوجتي يشغل خمسة أضعاف هذا العدد(٤).

وكنتُ سأحدث سيدي عن طائفة أخرى من الناس الذين يكسبون قوتهم من رعاية المرضى. وكنتُ قد أخبرتُه في بعض المناسبات أن الكثيرين من بحارتي ماتوا بسبب الأمراض. وهنا واجهتُ صعوبة بالغة في تفهيمه ما أعني. كان يستطيع أن يفهم بسهولة أن بني الهوينهم يضعف جسدهم وتثقل حركتهم قبل الموت ببضعة أيام، أو يصيب الأذى بعض أعضائهم بسبب حادث عارض، لكنه كان يعتقد أن الطبيعة التي تخلق كل شيء كاملًا لا تسمح مطلقًا بتكاثر العلل والآلام في أجسادنا، ورغب أن أشرح له أسباب هذه العلة التي لا يرى لها مبررًا. فقلتُ له إننا نأكل ألف شيء يناقض بعضها البعض الآخر، ونأكل حين لا نشعر جوعًا ونشرب حين لا نحس عطشًا، وإننا

نقضي ليالي بطولها نشرب مُسْكرات قوية دون أن نأكل شيئًا، مما يؤدي بنا إلى الخمول، ويهيج أجسادنا، ويعجّل الهضم فينا أو يعطله. وإن البغايا من إناث الياهو يصيبهن مَرَضٌ معين يؤدي إلى تلف عظام مَن يقعون في أحضانهن، وإن هذا وأمراض أخرى كثيرة يورثها الأب للأبناء بحيث يولد هؤلاء مثْقلين بالأمراض المعقدة، وإن قائمة الأمراض التي تصيب الأجساد البشرية لا نهاية لها، فهي لا تقل عن خمسمائة أو ستمائة علة تتوزع على كل عضو وطرف ومفصل. وباختصار، كل جزء في الجسم، خارجيًا كان أو داخليًا أو معويًا له أمراض مخصصة له. ولعلاج هذه الأمراض يوجد بيننا طائفة من الناس يتدربون على مهنة شفاء المرضى أو التظاهر بشفائهم. ولأنني أتمتع ببعض الخبرة في هذه المهنة، فإنه يسعدني، اعترافًا بفضل سيادته، أن أطلعه على أسرار المهنة كلها وعلى الطريقة التي يسلكها الأطباء.

قاعدتهم الأساسية هي أن كل الأمراض تنجم عن الامتلاء، ولهذا يقررون أنه لا بد من تفريغ الجسد عبر ممرات التفريغ الطبيعية أو عَبْر الفم. وخطوتهم التالية هي أن يَصْنعوا خَلْطات ومركبات من الأعشاب والأملاح، والمعادن، والأصباغ، والزيوت، والصدفيات، وأنواع العصير، والأعشاب البحرية، وأنواع البراز والنفايات، وقشور الاشجار، والثعابين، والضفادع، والعناكب، ولحوم جيف البشر وعظامها، والطيور، والحيوانات، والأسماك، بحيث يكون لهذه المركبات والخلطات رائحة كريهة وطعم مقرف، فتعافها المعدة وترفضها على الفور. وهذه يسمونها المُقَيِّئات، أو يصنعون من المواد نفسها، مع إضافة بعض المواد السامة أو المقرفة، أدوية مزعجة ومقرفة للأمعاء، ويأمروننا بتناولها من فتحات الجسد العليا أو السفلى (حسب هوى الطبيب حينذاك)، فيعمل هذا الدواء المقرف على تخدير البطن ويدفع كل ما فيه إلى الأسفل. وهذه يسمونها المسْهِلات أو أدوية الحقن الشرجية. ويزعم الأطباء أن الطبيعة خلقت الفتحة الأمامية الفوقية فقط لإدخال الجوامد والسوائل كما خلقت الفتحة الخلفية التحتية فقط لإخراجها. ويعتبر هؤلاء الفنانون أن الأمراض ترغم الطبيعة على الخروج عن طريقها المرسوم، لهذا ولكي تُعاد الطبيعة إلى الطريق الصحيح يجب معاملة الجسد بطريقة تتعارض مباشرة مع طريقة عمله العادية عن طريق تبديل خدمات الفتحتين، أي عن طريق إدخال الجوامد والسوائل من الشرج وإخراجها من الفم.

وإلى جانب الأمراض الحقيقية تصيبنا عِلَل وهمية اخترع لها الأطباء أدوية وهمية. ولهذه العِلَل وأدويتها أسماء عديدة، وهي أمراض وأدوية منتشرة دائمًا بين إناث الياهو.

وتشتهر طائفة الأطباء بمهارتهم في التنبؤ الذي قلما يخطئون فيه. وتنبّؤاتهم في الأمراض الحقيقية التي تصل مرحلة خطيرة هي عمومًا الموت، وهو تنبّؤ يقدرون على تحقيقه، لكنهم لا يستطيعون التنبُّؤ بالشفاء وتحقيقه، ولهذا فإنهم إذا تنبأوا بالموت، وظهرت على المريض علامات التحسن

وأمارات الشفاء، فإنهم يعرفون كيف يثبتون للدنيا صواب رأيهم[٥] بجرعة مناسبة وبهذا يتجنبون تهمة النبوءات الكاذبة.

ويمكن للأطباء أيضًا أن يؤدّوا خدمات جليلة للزوجات أو الأزواج الـذين يملّون أقرانهم، وكذلك لكبار الأبناء وكبار الوزراء، وأحيانًا كثيرة للأمراء.

وكنتُ في إحدى المناسبات قد حدثتُ سيدي عن طبيعة الحكومة والحكم بشكل عام، وعلى الأخص عن دستورنا العظيم الذي هو بحق موضع إعجاب العالم وحَسَده. لكني ذكرتُ بالصدفة عبارة وزير الدولة، فطلب مني في مناسبة أخرى أن أشرح له ما أعنيه بهذه التسمية، وعلى أي جنس من الياهو نطلق هذا الاسم.

وأخبرتُه أن رئيس الوزراء الذي أنوي أن أصفه له كان مخلوقًا لا يعرف السرور أو الحزن، ولا الحب أو الكراهية، ولا العطف أو الغضب، ولا يمارس أية عاطفة سوى الشهوة العارمة إلى الثراء والسلطة والألقاب؛ وهو يستعمل الكلمات لكل الأغراض ما عدا الدلالة على ما في ذهنه من مقاصد ونوايا. فهو لا يروي حقيقة إلا وفي نيته أن نعتبرها كذبة، ولا كذبة إلا بقصد أن نعتقدها حقيقة، وأن مَنْ يذمّهم في غيابهم هم في طريقهم إلى الترقية الأكيدة، فإذا مَدحك في وجهك أو أمام الآخرين فإنك تصبح من الخاسرين. وإذا قطع لك وعدًا فاعلم أن ذلك نذير سوء، وإذا شفع الوعد بالقَسَم فإن من الحكمة أن تنصرف عنه وتتخلّى عن كل آمالك.

وهناك سبل ثلاثة يرقى بها المرء إلى مرتبة رئيس للوزراء. أولاها أن يعرف كيف يَهَب أو يوزع أو يتخلص بحكمة من زوجة أو بنتٍ أو أختٍ؛ وثانيتها أن يخون سلفه أو يحفر له؛ وثالثتها أن يحمل في الاجتماعات العامة حملة شعواء على الفساد في القصر، لكن الأمير الحكيم يفضل أن يستخدم من يمارسون الثالثة من هذه السبل، لأن هؤلاء يصبحون دائمًا أكثر الـوزراء خضوعًا وأشدهم خنوعًا لإرادة سيدهم وأهوائه. وبما أن تصريف الخدمات وتوزيع المناصب تصبح رهن إشارتهم، فإنهم يظلون في السلطة عن طريق شراء ذمم غالبية الأعضاء في مجالس الحكم العليا، وأخيرًا يحتالون حتى يستصدروا مرسوم الحصانة[٦] (الذي شرحتُه لسيدي من قبل) ويَحْتَمُون به من المساءلة عن أفعالهم فيما بعد، ثم ينسحبون من الحياة العامة وهم محملون بالغنائم والسلائب التي نهبوها من الأمة.

ويُعْتَبَر قصر رئيس الوزراء بؤرة أو مدرسة لتربية الآخرين على ممـارسة صفـاته وأسـاليبه. فالغلمان والخدم والبوابون يقلدون سيدهم ويصبحون وزراء كل في تخصصه ويتفوقون في المؤهلات الرئيسية الثلاث لمنصب الوزارة وهي الوقاحة والكذب والرشوة، ولهذا يخطب ودهم أشخاص في أعلى المناصب ومن أرقى الطبقات. وأحيانًا يترقى بعضهم بقوة براعتهم وبجاحتهم، وبالتدريج،

حتى يخلفوا سيدهم في منصبه.

ويسيطر عليه في العادة خليلة فاسقة فاسدة أو خادم مقرّب محبوب، وهؤلاء هم المسارب التي تصل إليه من خلالها الإنعامات والمكارم، ويمكن في آخر الأمر أن نعتبرهم بحق حكام المملكة.

وذات يوم، حين سمعني سيدي أتحدث عن **طبقة النبلاء** في بلادي، أحب أن يُطْريني بإطراء لا أستطيع أن أزعم أنني أستحقه. قال إنه متأكد أنني سليل عـائلة نبيلة لأنني أتفوّق كثيرًا في الشكل واللون والنظافة على كل **بني الياهو** في بلاده، مع أنني أبدو أقل منهم قوة ونشاطًا، وهذا لا بدّ أن يُنْسَبَ إلى طريقتي في العيش المختلفة عن طريقة تلك البهائم، بالإضافة إلى ذلك، فأنا أتميز عنهم ليس فقط بالقدرة على الكلام، ولكن ببعض ملامح العقل لدرجة أنني أصبحتُ في نظر كل معارفه فَلْتةً من فلتات الطبيعة ومخلوقًا عبقريًا.

وقد طلب مني أن ألاحظ أن **بني الهوينْهْمْ** ينقسمون أيضًا إلى طبقات حسب لونهم، **فالبيضاء والسوداء وذات اللون الرمادي ـ الحديدي** ليست مثل ذات **اللون الكستنائي أو الرمادي ـ الأرقط (المنقط)** أو **السوداء**، سواء في الشكل أو في المواهب العقلية أو في المقدرة على تنمية تلك المواهب، ولهذا تبقى دائمًا في طبقة الخدم، ولا تطمح أبدًا إلى الزواج من خـارج طبقتها، ذلـك أن هذا الطموح يعتبر في بلدهم همجية غير طبيعية.

وقدَّمْتُ لسيادته جزيل الشكر وعظيم الامتنان على حُسْن ظنّه بي، لكني أكدتُ له في الوقت نفسه أنني ولدتُ في طبقة دنيا، من أَبَوَيْن عاديين شريفين لم يستطيعا إلا بشق الأنفس أن يعلماني تعليمًا عاديًا، وأن مفهوم كلمة **النبلاء** عندنا يختلف كليًا عن المفهوم الذي لديه، وأن **أولاد النبلاء** ينشأون منذ طفولتهم على الخمول والترف، وأنهم حالما يسمح سنّهم بذلـك يستهلكون طـاقتهم وقوتهم في معاشرة الإناث الفاجرات ويصابون من جراء ذلـك بأمـراض خبيثة، وحينـما يبدّدون ثرواتهم يتزوجون امرأة ثرية ذات شخصية سيئة المعاشرة ومعتلة الصحة، فقط من أجل المال الذي يكرهونه ويحتقرونه، وأن نتاج هذه الزيجات من ذرية يكونون في الغالب أطفالاً ملوثـين أخلاقيًا ومعتلين أو مشوهين جسديًا، ولهذا فإن العائلة قلما تعمر أكثر من ثلاثة أجيال ثم تنقرض، إلا إذا دبَّرت الزوجة أبًا قويًا معافى من أحد جيرانها أو من خَدَمها وذلك لتحسين الذريـة وإبقاء اسم العائلة؛ وأن الجسم الضعيف المرروض، والوجه النحيل الهزيل، واللون الشاحب هي العلامات الأكيدة **لذوي الدم النبيل الأصيل**. أما إذا كان **النبيل** ذا بنية قوية وصحة جيدة فإن هذه صفات تشينه وتغري الآخرين على الاستنتاج بأن أباه الحقيقي كان من سائسي الخيل أو سائقي العربات. هذا وإن علل الجسد في **النبلاء** تصحبها وتوازيها عِلَل ذهنية ونفسية تختلط فيهـا الكآبـة والنكد والبلادة والجهل، والنزوائية والتقلب والشهوانية والفسق والغرور.

ودون موافقة مجلس اللوردات المكون من هؤلاء النبلاء العظام، لا يمكن لقانون أن يُسَنّ أو يُلْغى أو يُعَدَّل أو يُغَيَّر. وبيد هؤلاء النبلاء سلطة التصرف بكل ممتلكاتنا، وليس لقرارهم ردّ أو استئناف.

الفصل السابع

حب المؤلف لبلاده ومسقط رأسه. ملاحظات سيده حول دستور إنجلترا وإدارتها كما وصفها له المؤلف مع إيراد حالات موازية وعقد مقارنات. ملاحظات سيده على الطبيعة البشرية.

قد يشعر القارئ بالعجب مني لأنني سمحتُ لنفسي بتقديم وصف صادق لبني جنسي إلى جنس من المخلوقات، لديه سلفًا أسوأ الأفكار عن الجنس البشري بسبب التطابق الكامل بيني وبين بني الياهو عندهم. ولا بدّ أن أعترف بكل صراحة أن الفضائل الحميدة العديدة في تلك المخلوقات الرائعة التي تسير على أربع، حين وضعت أمامي في مواجهة رذائل الإنسان وشروره، قد فتحتْ عيني ووسّعتْ مداركي بحيث صِرْتُ أرى أعمال الإنسان وشهواته في ضوء مختلف، وصرتُ أعتبر شرف بني جلدي أو سمعتهم لا تستحق الدفاع عنها أو إخفاء حقيقتها. وقد أصبح التستّر على عيوب البشر أمرًا لا أستطيع القيام به أمام شخص نافذ البصيرة سديد الرأي كسيدي الجواد الذي كان يوضح لي في كل يوم ألفًا من الأخطاء والعيوب التي توجد فيَّ دون أن أراها أو أدركها والتي لا يمكن عندنا أن تُعْتَبر ضمن الأخطاء البشرية. كذلك كنتُ قد تعلمتُ من الاقتداء بسيدي كراهية كل أنواع الزيف ومقت كل أشكال التزييف، وصارت الحقيقة عندي جميلة وعزيزة لدرجة أنني قررتُ أن أضحي من أجلها بكل شيء[1].

وسأكون أكثر صراحة مع القارئ، وأعترف له بأنه توفر لديّ حينذاك دافع قوي آخر جعلني لا أتحرج من شيء، وأتحرر من كل الاعتبارات في وصف الأشياء على حقيقتها. ذلك أنه لم تمض سنة على إقامتي في هذه البلاد حتى شغفني حبها وملكني احترام أهلها فاتخذتُ قرارًا حاسمًا ألاّ أعود إلى الحياة مع البشر وأن أقضي بقية عمري مع هذه الخيول الرائعة، حيث أتأمل كل الفضائل وأمارسها، وحيث تختفي كل الرذائل وكل الأسباب الداعية إليها. ولكنّ الحظ الذي يعاديني على الدوام قد كتب أن لا تكون هذه السعادة العظيمة من نصيبي. وعلى أية حال، إنه لِمَّا يمنحني بعض العزاء أن أذكر أنني في ما قلتُه عن أبناء بلدي خَفَّفتُ ولطفْتُ عيوبهم بقدر ما تجرأتُ أمام فاحص مدقق، وغلّفتُ كل عيب منها بغلاف براق بقدر ما تسمح به طبيعته. وللحقيقة أسأل: أين هو الإنسان الحي الذي لا يؤثر فيه تعصبه لبلده وتحيّزه لمسقط رأسه؟

لقد دوّنتُ هنا أهم ما ورد في محادثاتي العديدة مع سيدي خلال الجزء الأكبر من الفترة التي تشرفتُ خلالها بخدمته، ولكني من أجل الإيجاز حذفتُ أكثر مما هو مدوّن هنا.

حين أجبتُ على كل أسئلته وبدا أنني أرضيت فضوله، أرسل إليّ ذات صباح باكر، وبعد أن أمرني بالجلوس على مسافة منه (وهذا شرف لم يسبق قط أن أنعم به عليّ)، قال إنه قد قلّب فكره في كل ما قصصتُه عليه مما يتعلق بي وببلادي، وإنه بناء على ذلك يعتبرنا نوعًا من الحيوانات التي حظيت ـ كيف، لا يدري ـ بمقدار ضئيل من العقل أو القدرة على التفكير، وإننا لم نستخدم هذا العقل إلا لتضخيم وزيادة سيئاتنا وشرورنا الفطرية ولاكتساب شرور ورذائل جديدة لم تخلقها فينا الطبيعة. وإننا جَرَّدنا أنفسنا من تلك القدرات القليلة التي منحتها الطبيعة لنا، وإننا نجحنا نجاحًا كبيرًا في مضاعفة حاجاتنا الأصلية، ويبدو أننا نقضي حياتنا كلها في محاولات فاشلة لتلبية تلك الحاجات بواسطة اختراعاتنا. وأما بالنسبة لي فمن الواضح أنني لا أتمتع بقوة الياهو العاديين وخفة حركتهم، وأنني أسير على قدميّ الخلفيتين سيرًا غير ثابت، وأنني اكتشفتُ طريقة لجَعْل مخالبي غير صالحة للاستعمال أو الدفاع، وطريقة أخرى لإزالة الشعر عن ذقني وهو شعر قصدتْ به الطبيعة أن يحمي الذقن من الشمس وتقلبات الجو، وأخيرًا أنني لا أستطيع أن أعدو بسرعة أو أن أتسلق الأشجار كما يفعل إخواني (هكذا سمّاهم) من بني الياهو في هذه البلاد.

وقال أيضًا إنه من الواضح أن مؤسسات الحكم والقانون عندنا هي وليدة نقائصنا الكبيرة في العقل والتفكير وبالتالي في الخير والفضيلة، لأن العقل وحده كافٍ لهداية وإرشاد الإنسان العاقل، وهذه صفة ليس لنا الحق أن ندعيها لأنفسنا، وهو يبني حكمه هذا على التقرير الذي قدمتُه عن شعبي وأمتي، رغم أنه أدرك بوضوح أنني لكي أخدمهم وأمدحهم أخفيتُ كثيرًا من التفاصيل وقلتُ الشيء الذي لم يكن.

وقد زاد تأكيد هذا الرأي لأنه لاحظ أنني كما أشبه بني الياهو في كل جزء من جسمي ولا أختلف عنها إلا في السرعة وخفّة الحركة وقصر المخالب وبعض التفاصيل الأخرى التي ليست فطرية، كذلك فإننا نشبهها في طباعنا وميولنا الفكرية، كما وجد من الأوصاف التي ذكرتُها له عن حياتنا وأخلاقنا وسلوكنا وأعمالنا. قال، معروف عن بني الياهو أنهم يكرهون بعضهم بعضًا أكثر مما يكرهون أي جنس آخر مختلف من الحيوانات، والسبب الذي كانوا يفسرون به ذلك هو بشاعة أشكالهم، وهي بشاعة يراها كل واحد منهم في الآخرين ولا يراها في نفسه. ولهذا فقد بدأ يظن أننا نُحْسِنُ صنعًا إذ نستر أجسادنا بالملابس، فنُخْفي ما فينا من تشوهات كل عن الآخرين وإلا لكانت هذه البشاعات والتشويهات لا تُحْتَمَل. ولكنه الآن اكتشف أن ظنه كان خاطئًا، لأن كراهية تلك البهائم الياهوية في بلاده بعضها لبعض ناجمة عن الأسباب نفسها التي تجعلنا نكره بعضنا

بعضًا، كما وصفتها له، وقال، لأننا لو رمينا لخمسة من بني **الياهو** طعامًا يكفي لخمسين فإنهم بدلاً من أن يأكلوا في هدوء وسلام، يهاجم كل منهم الآخرين ويودّ لو **يستأثر دونهم جميعًا بالطعام كله**. لهذا نستخدم خادمًا ليراقبها وهي تأكل خارج البيوت ويمنعها من إيذاء بعضها، أما التي تأكل في البيت فإننا نربطها بحيث نترك مسافة بين الواحد والآخر. لو ماتت بقرة هَرَمًـا أو بحادث عارض أو قبل أن يأخذها أحد **الهوينهم** إلى بهائم **الياهو** التي عنده، تأتي بهائم **الياهو** من المناطق المجاورة في جماعات كالقطعان لتفوز بها، ثم تنشب بين القطعان معركة كالمعارك التي وصفتُها، ويُنزِل كل قطيع بالقطعان الأخرى جراحًا فظيعة بمخالبهم، لكنهم قلما يقتل أحدهم الآخرين لأنه ليس لديهم أدوات القتل التي اخترعناها. وأحيانًا أخرى تنشب بين قطعان **الياهو** معارك مماثلة دون أسباب واضحة: وكل قطيع في منطقة ما يتحيّن الفرص لمهاجمة القطيع في المنطقة المجاورة قبل أن يستعد. لكن إذا وجد المهاجمون أن هجومهم قد فشل، فإنهم يعودون إلى منطقتهم حيث لا يجدون عدوًا خارجيًا، ولهذا يحارب بعضهم بعضًا ويدخلون في ما سميتُه **حربًا أهلية**.

وقال إنه يوجد في بعض الحقول في بلاده **حجارة برّاقة** ذات ألوان متعددة، وإن **بني الياهو** يشغفون بها شغفًا عنيفًا، فإذا ما كانت بعض هذه **الحجارة** ثابتة في الأرض، فإن **بني الياهو** ينبشون الأرض من حولها أيامًا بكاملها لكي يقلعوها ويحملوها ويخبئوها أكوامًا في زرائبهم وهم يتطلعون حولهم بحذر وريبة خشية أن يكشف أحد من رفاقهم مكان كنزهم. وقال سيدي إنه لم يتعرف قط على سبب لهذه الشهوة غير الطبيعية(٢)، ولا يفهم كيف يمكن أن تكون هذه **الحجارة** ذات نفع لأي واحد من **بني الياهو**. لكنه يعتقد الآن أن هذه الشهوة تنجم عن غريزة **الجشع** نفسها التي نسبتُها للجنس البشري. وقال سيدي إنه قام ذات مرة، سرًا وعلى سبيل التجربة، بنقل كومة من هذه **الحجارة** من المكان الذي كان واحد من **بني الياهو** عنده قد خبأها فيه(٣)، وحين فقد هذا **الياهو** البخيل كنزه، راح يولول بأعلى صوته حتى تجمع حوله قطيع من **بني الياهو**، ثم راح يعوي ويندب حظه، ثم راح يعضّ الآخرين ويضربهم، ثم بدأ يهزل ويذوي، وامتنع عن الأكل والنوم والشغل حتى أمر سيدي أحد خدمه بأن يعيد الحجارة إلى مكانها نفسه ويخفيها كما كانت من قبل. وحين وجدها صاحبها **الياهو**، رُدَّت إليه روحه وارتفعت معنوياته وعادت إليه حيويته وانشراحه، لكنه حرص أن ينقلها إلى مخبأ أفضل، وأصبح منذ ذلك اليوم حيوانًا طيّبًا خدومًا.

وأكد لي سيدي، كما لاحظتُ ذلك بنفسي، أنه في الحقول التي تكثر فيها هذه **الحجارة البرّاقة** تنشب أكثر المعارك وأعنفها بسبب الغارات المتكررة التي تشنّها قطعان **الياهو** المجاورة.

وقال إنه من الأمور المألوفة أنه إذا اكتشف اثنان من **الياهو حجرًا** في حقل واختصما حول من يأخذه، ينتهز ثالث فرصة انشغالهما بالخصام ويأخذ الحجر منهما. وزعم سيدي أن هذا يشبه ما

يحدث في **الدعاوى القانونية** عندنا. ولم أشأ أن أشرح له بالضبط ما يحدث في محاكمنا، حرصًا على سمعتنا، ولأن النهاية التي ذكرها، فيها من العدل أكثر مما نجده في أحكام القضاء عندنا، ففي القصة التي ذكرها لم يفقد المتخاصمان شيئًا سوى **الحجر** الذي اختصما على ملكيته، في حين أن **محاكم العدل** عندنا لن تنهي القضية إلّا بعد أن يخسر المتخاصمان ليس فقط ما يختصمان حوله، بل كل ما يملكان.

واستمر سيدي في حديثه فقال إنه ليس في **بني الياهو** ما يميزهم بالحقارة والفظاعة أكثر من نهمهم الذي لا يعفّ عن شيء[٤]. فهم يلتهمون كل ما يكون في طريقهم من أعشاب أو جذور أو أعناب أو لحوم متعفنة أو جيف أو كلها معًا. ومما يتميزون به هو أنهم أكثر شغفًا بما ينالونه عن طريق النهب أو السرقة ومن مسافات أبعد من الطعام الأفضل الذي يُقدَّم لهم في المنازل. وإذا توفرت لديهم فريسة كبيرة، فإنهم يظلون يأكلون منها دون توقف حتى تكاد بطونهم تنفجر، وبعد ذلك يستدلون بالفطرة على جذر معين يأكلونه فيصيبهم الإسهال ويفرّغوا ما في بطونهم.

وهناك نوع آخر من **الجذور** كثير العصارة، لكنه نادر ويصعب الحصول عليه. ويبحث عنه **بني الياهو** جهدهم وبرغبة شديدة، وحين يجدونه يستحلبونه ويسعدون به غاية السعادة. وهو يترك فيهم الآثار نفسها التي تخلفها فينا الخمور، إذ يجعلهم يحضنون بعضهم بعضًا، أو يمزقون بعضهم بعضًا، ويكثرون من العواء والضحك والثرثرة، ثم يدوخون ويصيبهم دوار ويتعثرون ويسقطون ثم ينامون نومًا عميقًا في الوحل.

وفي الحقيقة لاحظتُ أن **بني الياهو** هم الحيوانات الوحيدة التي تتعرض للأمراض في هذه البلاد، لكن أمراضهم أقل كثيرًا من أمراض الخيل عندنا. وهم لا يصابون بالأمراض بسبب سوء المعاملة، ولكن بسبب قذارتهم وجشعهم. وليس في لغة الخيل سوى تسمية عامة لتلك العلل التي تصيب **بني الياهو**، وهي تسمية مشتقة من اسم تلك البهيمة، وهي **هْنِيا ياهو** أو **المرض الياهُوِي**. والعلاج الموصوف لهذا المرض هو مزيج من براز **الياهو وبَوْلهم**، وهو مزيج يُسقَى لهم عُنْوَةً، لكني لاحظتُ مرارًا أنه يعطي النتائج المطلوبة ويشفيهم من المرض. لهذا، وحرصًا مني على المصلحة العامة، فإنني أوصي أبناء بلادي باستعمال علاج مثله، فهو دواء ناجع ضد كل العلل التي تنجم عن التخمة.

أما بالنسبة للعلوم والحكم والفنون والصناعات وما إلى ذلك، فقد اعترف سيدي أنه لم يجد شبهًا بين **بني الياهو** في بلاده وأمثالهم عندنا. وقال إنه إنما كان يبحث عن أوجه الشبه بين طباعنا وإنه في الحقيقة سمع أحد بني **الهوينهم** الفضوليين يقول إنه لاحظ أنه يوجد في كل قطيع **ياهو** زعيمًا (كما يوجد عمومًا بيننا في كل حديقةٍ وغْلٌ رئيسي) هو دائمًا يتميز عن الآخرين في قطيعه **ببشاعة**

شكله وشراسة طبعه، وأن لهذا الزعيم في العادة شخصًا مقربًا ومفضلاً على الآ-
الآخرين شبهًا بسيّده، وأن وظيفة هذا المقرَّب هي أن يلحس قدمي سيده ودبره وأ
إلى زريبته، فيكافأ على خدماته من حين لآخر بقطعة من جيفة حمار. وهذا المق
القطيع كله، ولهذا يظل ملازمًا لشخص زعيمه حماية لنفسه، ويبقى محتفظًا بوظيف
مَن هو أسوأ منه. وفي اللحظة التي ينبذه فيها زعيمه يأتي خَلَفُه مصحوبًا بكل ياه
صغير أو كبير، ويقذفون عليه برازهم حتى يُغَطّوه من رأسه إلى قدمه، لكن إلى
تطبيق هذا على رجال البلاط، والمقرَّبين، والوزراء عندنا؟ قال سيدي أنني أَخْبَرُ

ولم أجرؤ على الردّ على هذا التلميح الخبيث الذي يضع المدارك البشرية في
مرتبة إدراك الكلب العادي الذي لديه من البصيرة ما يميّز به صيحة أقدر كلب في
بها دون أن يخطئ.

وقال سيدي إن هناك بعض الخصائص الملحوظة في بني الياهو ولم يسمعني
أشير إليها لدى وصفي للجنس البشري. قال إن تلك البهائم، شأنها شأن البهائم
الإناث مشاعًا للجميع(٥)، ولكنها تختلف عن بقية البهائم في أن الياهو الإناث
بمعاشرتها وهي حامل، وأن الياهو الذكور يتعاركون مع الإناث كما يتعاركون فيما
والفظاظة نفسها، وأن هاتين الخصلتين هما انحطاط في البهيمية والهمجية لم يصل
مخلوق حسّاس آخر.

والخصلة الثالثة التي يتعجب سيدي منها في سلوك بني الياهو هو ميلهم الغريب
والأوساخ، في حين أن كل الحيوانات الأخرى لديها ميل فطري للنظافة. أما بال
الأولى والثانية، فقد آثرتُ أن لا أجيب على اتهاماته، لأنه لم يكن عندي كلمة واحدة
بني جنسي، وإلا لفعلتُ ذلك بالتأكيد بدافعٍ ذاتي. لكن كان يمكن بسهولة أ
البشري من تهمة الانفراد بحب القاذورات والأوساخ، لو كانت الخنازير تعيش
(ولسوء الحظ لا يوجد فيها خنازير). فمع أن هذه الحيوانات أحسن طباعًا من بني ا
تستطيع أن تزعم بحق أنها أكثر نظافة. ولو رأى سيدي طريقتها القذرة في تناول الط
الخوض في الوحل والنوم فيه لاعترفَ بصحة قولي ودفاعي.

كذلك ذكر سيدي خصلة أخرى اكتشفها خدمه في عدد من بني الياهو وك
تفسيرًا. قال إنه قد يحلو للواحد من جنس الياهو أن ينزوي عن الآخرين، ويستلـ
ويئن، ويطرد باحتقار كل من يقتربون منه، رغم أنه يكون فَتِيًّا وقويًا ولا ينقصه ط
ولا يستطيع أحد أن يعرف ما جرى له وما يؤلمه أو يزعجه. وقد وُجِد أن العلاج

لهذه الحالة هو تكليفه بالعمل الشاق المتواصل. بعد ذلك يثوب دائمًا إلى رشده. ولم أعلق على هذه الحالة لأنني أحب بني جنسي، ومع ذلك فقد اكتشفتُ هنا بوضوح المصادر الحقيقية **للاكتئاب النفسي** الذي لا يصيب سوى **الكسالى، والمترفين المنعّمين والأثرياء**، ولو أرْغِم هؤلاء على الخضوع **للعلاج نفسه**، فإنني كفيل بشفائهم.

بالإضافة إلى كل ما سبق، لاحظ سيدي أن **أنثى الياهو**[٦] كثيرًا ما تقف خلف كومة أو شجيرة لتتفرس في الذكور المارّين هناك، ثم تظهر وتختفي وتقوم بالكثير من الإشارات والحركات الغريبة. كما لاحظ أنها في هذه الحالات تكون **ذات رائحة منفرة جدًا**. وإذا ما تقدم نحوها أحد الذكور، فإنها تنسحب ببطء وهي تنظر إلى الخلف من حين لآخر، وتتظاهر بالخوف ثم تركض نحو مكان مناسب تعرف أن الذكر سيتبعها إليه.

وإذا جاءت أنثى غريبة، فإن ثلاثًا أو أربعًا من بنات جنسها يتحلّقن حولها، ويتفحصنها بعيونهن، ويثرثرن، ويَعْبِسْنَ، ويتفحصن رائحة كل جزء فيها، ثم ينصرفن عنها بحركات تدل على الاحتقار والازدراء.

وربما بالغ سيدي قليلاً في هذه الملاحظات والأفكار التي توصَّل إليها مما لاحظه بنفسه أو مما قاله له الآخرون. وعلى كل حال، لم يسعني إلا أن أفكر بشيء من الاستغراب وكثير من الأسى أن تكون بدايات **الفجور والعبث الجنسي والفضائح** موجودة بالغريزة في جنس النساء.

وكنتُ أتوقع في كل لحظة أن يتهم سيدي **بني الياهو** بتلك الشهوات المنحرفة في كلا الجنسين الشائعة فيما بيننا، ولكن يبدو أن الطبيعة ليستْ معلمة خبيرة بكل الأمور، وأن هذه المتع الحضارية جميعها هي من إنتاج الفن والعقل في البلاد التي نعيش فيها[٧].

الفصل الثامن

المؤلف يروي تفاصيل عديدة عن بني الياهو. الفضائل العظيمة عند بني الهوينهم. تعليم أبنائهم وتدريبهم. جلسات مجلس الأمة عندهم.

بما أنني أفهم الطبيعة البشرية أكثر مما يفهمها سيدي، فقد كان من السهل أن أطبق ما قاله عن **بني الياهو** على نفسي وعلى بني بلدي، واعتقدتُ أنني أستطيع العثور على مزيد من الاكتشافات إذا لاحظتُ **بني الياهو** بنفسي. ولهذا كنتُ كثيرًا ما أطلب من سيدي أن يسمح لي بالتجول بين قطعان **الياهو** في المنطقة المجاورة، وكان دائمًا يتكرّم بالموافقة لأنه مقتنع كل الاقتناع أن كراهيتي لتلك البهائم ستحميني من الانجراف معها في الفساد. كذلك أمر سيدي واحدًا من خدمه، وهو حصان أشهب قوي، وأمين جدًا وذو طبع دمث، أن يحرسني. ولولا حمايته ما كنتُ أجرؤ على مثل هذه المغامرات المقيتة في أول يوم من وصولي. كذلك نجوتُ بأعجوبة من الوقوع في براثنها ثلاث أو أربع مرات بعد ذلك، وذلك حين كنتُ أضِلّ الطريق ولا يكون معي سيفي. ولديّ ما يجعلني أعتقد أنها كانت تتصوّر أنني من بني جنسها. بل ساعدتُ أنا نفسي على ظهور هذه الفكرة لدى **بني الياهو** عندما كنتُ أرفع أكمامي وأُعرّي ذراعيّ وصدري على مرأى منها. لكن كان حارسي معي، وكانت تلك الحيوانات تقترب مني بقدر ما تجرؤ، وتقلد أفعالي كما تفعل القرود، وعلى وجهها علامات كراهية شديدة، وكأنني غراب داجن يلبس قبعة وجوارب وتضطهده الغربان البرية إذا ما وقع بينها.

بني الياهو سريعو الحركة منذ طفولتهم. وقد أمسكتُ ذات مرة صبيًا منهم عمره ثلاث سنوات، وجَرَّبْتُ معه كل مظاهر العطف واللطف لكي يهدأ، لكن العفريت الصغير راح يصرخ ويخمش ويَعضّ بعنف شديد حتى اضطررتُ إلى إخلاء سبيله. وقد فعلتُ ذلك في اللحظة المناسبة، إذ جذب صياحه فرقة كاملة من كبار **الياهو**، لكنها حين وجَدَتِ الصبي سالمًا (وكان قد فرّ راكضًا)، وَوَجَدَتِ الحصان الأشهب يحرسني لم تجرؤ على الاقتراب مني. وقد لاحظتُ أن للصبي رائحة نتنة كرائحة ابن عرس أو ابن آوى، ولكنها أشد نتنًا. وقد نسيتُ أمرًا آخر (وقد يعذرني القارئ لو حذفتُ هذا الأمر)، وهو أنه بينما كان الصبي بين يديّ فرّغ على ملابسي برازه القذر ذي

المادة السائلة الصفراء، ولحسن الحظ حدث ذلك بالقرب من جدول ماء، فنظفتُ نفسي فيه بقدر المستطاع، ولم أجرؤ على المثول في حضرة سيدي حتى جفف الهواء ملابسي وذهبَت الرائحة عني.

لكن ما استطعتُ اكتشافه هو أن بني الياهو هم أقل الحيوانات قابلية للتعلم، وأنهم لا يصلحون لشيء سوى جرّ الأثقال أو حملها. وأرى أن هذا العيب فيهم ناجم عن طبعهم الحرون الشرس. وطبيعتهم الفاسدة الشريرة. فهم ماكرون مقودون خوانون نزّاعون للانتقام. وهم ذَوُو قوة ووقاحة لكنهم خوافون جبناء، ونتيجة لذلك فهم متغطرسون خسيسون وغليظو القلوب. ومن الملاحظ أن ذوي وذوات الشعر الأحمر[1] فيهم هم أشدهم فسقًا وفجورًا وعبثًا وأذى، كما أنهم أشدهم قوة وأكثرهم نشاطًا.

ويحتفظ الهوينهم ببعض الياهو للخدمة المباشرة في أكواخ ليست بعيدة عن بيوتهم، ويُرسلون من تبقى منهم إلى الحقول لينبشوا الأرض ويقتاتوا على ما يجدونه فيها من جذوريات، أو ليأكلوا الأعشاب أو ما يجدونه من جِيَفٍ وفطائس أو ما يصطادونه من ابن عرس أو فئران برية يلتهمونها بنهم. وقد تعلموا بالفطرة أن يحفروا لأنفسهم جحورًا على سفوح المرتفعات ينامون أو يستريحون فيها، لكن جحور الإناث أكبر لكي تتسع لاثنين أو ثلاثة من أطفالهن.

وهم يسبحون في الماء منذ طفولتهم كالضفادع، ويستطيعون البقاء طويلاً تحت سطح الماء حيث يصطادون الأسماك التي تحملها الإناث لصغارهن. وبهذه المناسبة أرجو القارئ أن يسمح لي برواية حادثة سخيفة.

كنت ذات يوم في الخارج مع حارسي الحصان الأشهب. وكان الجو حارًا جدًا، فرجوته أن يسمح لي بالاستحمام في نهر قريب. وحالما سمح لي بذلك تعريتُ من كل ملابسي ونزلتُ ببطء إلى ماء النهر، وصدف أن أنثى ياهو كانت واقفة خلف كومة[2]، ورأتني وأنا أتعرى وأنزل في الماء، فهاجت بها الشهوة، كما فهمتُ أنا وحارسي الحصان، ورَمَتْ بنفسها في الماء على بعد خمس ياردات مني، ولم أشعر في حياتي كلها بما شعرتُ به حينذاك من رعب شديد. كان حارسي الحصان يرعى على مسافة بعيدة ولم يخطر بباله أنني أتعرض للأذى. وراحت الفتاة تعانقني وتحتضنني بشبق شديد، ورحتُ أصرخ بأعلى صوتي، وقَدِمَ الحصان يُربع نحوي، وحين رأته أرختْ عني ذراعيها مرغمة وقفزتْ إلى ضفة النهر المقابلة ووقفتْ هناك تحملق فيّ وتعوي طيلة قيامي بارتداء ملابسي.

وكانت هذه الحادثة موضوعًا تندّر به وضحك منه سيدي وعائلته، لكنه كان مصدر خزي وعار لي. الآن لم يعد بإمكاني أن أنكر أنني ياهو حقيقي بكل أعضائي وملامحي، وبرهان ذلك أن إناث الياهو يمِلْن إليّ بالفطرة ويعتبرنني واحدًا من طينتهن. ولم يكن شَعْرُ تلك البهيمة ذا لون أحمر (فربما كان هذا يبرر شهوتها العارمة)، ولكنه كان أسود داكنًا، ولم يكن وجهها كله منفرًا كوجوه

الأخريات من طينتها، لأنها، كما أظن، لم تكن تتجاوز الحادية عشرة من عمرها[٣].

ولأنني عشتُ ثلاث سنوات في هذه البلاد، فإنني أفترض أن القارئ يتوقع أن أقدم له، كما يفعل الرحالون الآخرون، وصفًا لسكانها وعاداتهم وأخلاقهم، وهذه أمور حرصتُ على دراستها وتعلمها.

لقد وهبت الطبيعة هؤلاء **الهوينهم** الأماجد ميلًا عامًا إلى كل الفضائل، وليس لديهم أي مفهوم أو أية أفكار عن ماهية الشر في المخلوق العاقل. ومبدؤهم الرئيسي العظيم هو استخدام **العقل** والانصياع لأحكامه[٤]. وليس **العقل** عندهم موضوعًا قابلًا للنقاش والجدل كما هو عندنا حيث يستطيع الناس أن يدافعوا عن الشيء وضده في المسألة الواحدة بمعقولية ومنطق، بل هو عندهم مُقْنِعٌ على الفور[٥]، كما لا بد أن يكون عندما لا يشوبه أو يخفيه أو يلوّنه الهوى أو المصلحة. وأذكر أنني وجدتُ صعوبة كبيرة في إفهام سيدي معنى لفظة **رأي**، أو كيف يمكن لنقطة أن تقبل الجدل، لأن **العقل** يعلمنا أن نقبل أو نرفض فقط عندما نكون على يقين[٦]، فإذا كنّا نجهل فإننا لا نستطيع القبول أو الرفض، ولهذا فإن المجادلات والتنازع في الآراء والمخاصمات، والإصرار على رأي زائف أو مشكوك في صحته هي شرور غير معروفة عند بني **الهوينهم**. وبالأسلوب نفسه كان سيدي يضحك حين أشرح له أنظمتنا المتعددة في **الفلسفة الطبيعية**، وسبب ضحكه هو أن يعتز مخلوق يدعي لنفسه **العقل** بمعرفة تخمينات الآخرين حول أشياء لا جدوى من معرفتها حتى لو كانت المعرفة أكيدة. وبهذا فهو يتفق كليًا مع أحكام **سقراط**[٧] كما عبّر عنها **أفلاطون**، وأنا أذكر هذا باعتباره أعظم مديح يمكن أن أقدمه لأمير الفلاسفة ذاك. ومنذ ذلك اليوم كثيرًا ما فكرتُ بالدمار الذي ستلحقه هذه العقيدة بالمكتبات في **أوروبا**، وبأبواب الشهرة التي ستغلقها في دنيا المتعلمين والمفكرين.

الصداقة وحب الخير[٨] هما الفضيلتان الرئيسيتان عند بني **الهوينهم**. وليستا مقصورتين على أشياء خاصة أو أشخاص بعينهم، ولكنهما تشملان الجميع. فالغريب، ولو جاء من أقصى الأرض، يعامَل كأقرب جار، وأينما ذهب فهو في بيته[٩]. وهم يلتزمون **بالحشمة وآداب السلوك والكياسة** إلى أقصى درجة، لكنهم لا يعرفون **المجاملات الشكلية**[١٠]، وهم غير مولعين بأطفالهم وصبيانهم، ولكن حرصهم على تعليمهم يقوم كله على ما يمليه ويحكم به **العقل**. وقد رأيت سيدي يحب أبناء جاره كما يحب أبناءه[١١]. وهم يقولون إن **الطبيعة** تعلمهم أن يحبوا جنسهم كله على قدم المساواة[١٢]، وعلى أساس **العقل** وحده يتميز الأشخاص بما لديهم من درجة عالية في الفضل والفضائل.

وحينما تنجب أمهات الهوينهم ذكرًا وأنثى لا يَعُدنَ إلى الانفراد بأزواجهن[١٣] إلا إذا فُقِد الذكر أو الأنثى بحادث، وهذا قلما يحدث. في حال كهذه يجتمع الزوج بالزوجة. كذلك إذا كان

الزوجان كبيرين في السن ولا ينجبان وفقدا بحادث مماثل أحد ولديهما، فإن زوجين آخرين شابين يمنحان العجوزين واحدًا من ولديهما، ثم يترافقان حتى تحمل الزوجة. وهذه الإجراءات تعتبر ضرورية كيلا تصبح الأعداد الكبيرة عبئًا على البلاد[١٤]. لكن خيول الطبقة الدنيا التي تعمل خدمًا عند أسيادها، فإن تناسلها لا يخضع لنفس القيود ويُسمَح لها بإنجاب ثلاثة من الذكور ومثلهم من الإناث لتعمل جميعًا في خدمة العائلات النبيلة.

وعند الزواج يحرصون حرصًا بالغًا على تخيُّر الألوان بحيث لا تحدث تهجينات مزعجة واختلاطات في السلالات[١٥]. وتُفضَّل القوة في الذكور والجمال في الإناث. ولا يتم الزواج على أساس الحب، وإنما بقصد حماية الجنس من الانحطاط. وإذا كانت الأنثى تتميز بالقوة يُخْتار لها ذكر يتميز بالجَمال. أما الغزل والحب والهدايا والمهور، فليس لها وجود في أفكارهم كما ليس لها ألفاظ في لغتهم. يلتقي الزوجان ويجمع بينهما رباط الزوجية على أساس ما يقرره الآباء والأصدقاء، وهذا ما يرونه متبعًا كل يوم، ويعتبرون الزواج عملًا من الأعمال الضرورية للكائن العاقل[١٦]. لكن نقض الزواج أو الخيانة الزوجية فأمور لم يسمع بها ولم يرها أحد[١٧]. ويقضي الزوجان حياتهما بروح الصداقة وحب الخير التي يحملانها لكل أبناء جنسهما، دون غيرة أو هيام أو خصام أو إحساس بالتعاسة.

أسلوبهم في تعليم الشباب من الجنسين أسلوب رائع وجدير بالتقليد. فهم لا يسمحون للناشئة بأكل الشوفان إلا في أيام محددة حتى يبلغوا سن الثامنة عشرة. ولا يشربون الحليب إلا نادرًا. وفي الصيف يسمحون لهم بالرعي ساعتين صباحًا ومثلهما مساء، ويلتزم آباؤهم بالأوقات نفسها في رَعْيهم. أما الخدم فلا يسمح لهم بأكثر من نصف هذا الوقت. وهم يجلبون قسمًا كبيرًا من عشبهم إلى المنازل، ويأكلونه في ساعات مناسبة بعد أن يفرغوا من عملهم.

الاعتدال والمثابرة ورياضة الأبدان ونظافتها هي الدروس التي تُعطى لأبنائهم من الجنسين. ويعتقد سيدي أننا نخطئ خطأ كبيرًا حين نعطي الإناث تعليمًا مختلفًا عن تعليم الذكور[١٨] إلا في أمور التدبير المنزلي، لأننا بذلك نجعلهن غير صالحات لشيء سوى الإنجاب. وإن إناطة رعاية الأطفال بأمهات من هذا النوع هو خطأ فاحش آخر.

ويدرب الهوينهم شبابهم على اكتساب القوة والسرعة وتحمل المشاق والجَلد، ويمرنونهم بسباقات على صعود التلال والنزول عنها أو على الركض فوق أراض صخرية، وحين يتصببُ عرقهم يؤمرون بالقفز داخل بركة ماء أو في نهر. ويجتمع شباب مناطق معينة أربع مرات في العام ليظهروا كفاءتهم في العَدْو والقفز والأعمال الأخرى التي تتطلب قوة وسرعة، ويكافأ الفائز بنشيد يتغنى ببطولته أو بطولتها. وفي هذا الاحتفال تسوق الخدم من الجياد قطيعًا من الياهو محملًا بالتبن

والشوفان والحليب ليطْعَمَ به بنو **الهوينهم**. وبعد أن يُنَزِّل **الياهو** أحمالهم يساقون بعيدًا عن المكان ليتخلص المحتفلون من ضوضائهم وضجيجهم.

كل أربع سنوات، وفي يوم الاعتدال الربيعي (٢١ مارس)، ينعقد مجلس ممثلي الأمة كلها في مَرْجٍ يقع على بعد عشرين ميلاً من بيتنا، ويستمر منعقدًا لمدة خمسة أو ستة أيام. في هذا المجلس تُدْرَس أحوال المناطق التي تكون فيها وفرة أو نقص في التبن أو الشوفان أو البقر أو بني **الياهو**، وحيثما تكون منطقة بحاجة إلى أي من هذه الأشياء (وهذا قلما يحدث) فإنها تُزَوَّد على الفور بما ينقصها، وذلك باتفاق الجميع ومساهمتهم. وهنا أيضًا يتم توزيع الأطفال، فمن كان عنده طفلان ذكران يتبادل أحدهما مع من عنده طفلتان؛ ومن فقد أحد طفليه بحادث وكانت امرأته قد شاخت ولا تنجب، فإن المجلس يحدد الأسرة التي ستنجب مولودًا يعوضه عن الطفل المفقود.

الفصل التاسع

نقاش جاد في مجلس بني الهوينهم. علوم الهوينهم، ومبانيهم، وأسلوبهم في دفن الموتى، ونواحي التقصير والضعف في لغتهم.

لقد عُقِد مجلسهم مرة أثناء إقامتي بينهم، وكان ذلك قبل مغادرتي لبلادهم بثلاثة شهور. وقد حضر سيدي جلسات هذا المجلس ممثلاً عن منطقتنا. وقد استأنفوا في هذه الجلسات مناقشة الموضوع الوحيد الذي يتناقشون حوله دائمًا في بلادهم. وقد شرح لي سيدي عند عودته هذا الموضوع بالتفصيل.

موضوع النقاش هو: هل يجب إبادة **بني الياهو**[1] من على وجه الأرض؟ أحد **الأعضاء** من الذين يقولون نعم ذلك واجب، قدم عدة حجج لها قوتها ووزنها. فقد ادّعى أن **بني الياهو** هم أكثر الحيوانات التي أنجبتها الطبيعة قذارة وضجيجًا وبشاعة، وأنهم أيضًا أكثرها شراسة وتمردًا وأذى ولؤمًا، وأقلها قابلية للتدجين والتعليم. وإذا غفَلَتْ عنهم أعين الرقباء فإنهم يرضعون الحليب من حَلَمات بقر **بني الهوينهم** خلسة، ويقتلون قططهم ويلتهمونها، ويدوسون عشبهم وشوفانهم، ويرتكبون **ألفًا** من الأعمال المتهورة والهدامة. وذكّر الحاضرين باعتقاد شائع تتناقله أجيال **بني الهوينهم** وهو أن **بني الياهو** دخيلين على البلاد، وأن اثنين من هذه البهائم ظهرا على جبل[2] منذ أجيال عديدة، ولم يعرف أحد من أين جاءا وكيف نشآ: سواء من تأثير حرارة الشمس على الصلصال الآسن والطين الموحل[3]، أو من سبخات البحر وَزَبَده؛ وأن هذين الاثنين تناسلا وتكاثرا، وفي وقت قصير ازداد عدد ذريتهما لدرجة أنهم اجتاحوا البلاد وكانوا وبالاً على الخلق، وأن **بني الهوينهم** اضطروا، للتخلص من شرهم وأذاهم، أن يقاتلوهم حتى حاصروا القطيع كله وقتلوا الكبار وأبقوا على الأطفال وأخذ كل واحد من بني **الهوينهم** طفلين منهم ووضعهما في زريبة حيث تألّفهما ورباهما على الطاعة بقدر ما يمكن لحيوان ذي طبيعة شرسة متوحشة أن يتقبل الألفة والتدجين، واستعملهما في حمل الأثقال أو جرّها. وقال إنه يبدو أن في هذا الاعتقاد شيء من الصواب (الاعتقاد بأن بني **الياهو** ليسوا من السكان الأصليين في البلاد) لأن كل بني **الهوينهم** وجميع الحيوانات الأخرى تكرههم كرهًا عنيفًا. ومع أن طباعهم الخبيثة تستحق هذه الكراهية، فإنهم لو كانوا أصليين لما

بلغت كراهية المخلوقات لهم هذه الدرجة من العنف، أو لكانوا قد أبيدوا منذ زمن بعيد. وقال إن السكان حين حلا لهم استخدام بني الياهو، أهملوا استخدام ذرية الحمير(٤)، وكان هذا خطأ قائمًا على عدم الحكمة وعدم التبصر بعواقب الأمور، ذلك أن الحمار حيوان وسيم، سهل الاقتناء، وأسهل تدجينًا وترويضًا، وليس له رائحة كريهة، وصبور على العمل الشاق، وإن كان أثقل همة وأبطأ حركة من الياهو. وإذا كان نهيق الحمار صوتًا منكرًا إلا أنه أهون شرًا من الصراخ المزعج والعواء المروع لبني الياهو.

وأعلن الكثيرون عن مواقف وعواطف مشابهة، بعد ذلك تكلم سيدي واقترح حلاً استعاره من فكرةٍ كنتُ قد ذكرتُها له. قال إنه يوافق على الاعتقاد الشائع الذي ذكره زميله العضو المحترم في كلامه السابق. لكنه قال إنه يؤكد أن الياهو الاثنين اللذَيْن شوهدا أول مرة في هذه البلاد قد جاءا عن طريق البحر، وأنهما حين وصلا إلى البرّ بعد أن هجرهما رفاقهما وتخلوا عنهما لجآ إلى الجبال، وانحطت طباعهما بالتدريج حتى أصبحا بمرور الزمن أكثر وحشية وأشد همجية من بني جنسهما في البلد الذي جاءا منه. ودليله على هذا القول أن في حوزته الآن ياهو رائع (يقصدني أنا)، سمع عنه معظمهم ورآه الكثيرون منهم. ثم قصَّ عليهم كيف وجدني أول مرة وأخبرهم أن جسمي كان مغطى بغطاء مصنوع من جلود الحيوانات الأخرى وشعرها، وأنني أتكلم لغة خاصة بي كما أنني تعلمتُ لغتهم وأتقنتها، وأنني قصصتُ عليه كل الأحداث التي انتهت بي إلى بلادهم، وأنه حين رآني عاريًا من ملابسي اكتشف أنني ياهو بحق وفي كل شيء سوى أن لوني أكثر بياضًا وشعري أقل ومخالبي أقصر. وأضاف أنني حاولتُ جاهدًا أن أقنعه أن بني الياهو في بلادي وفي بلاد أخرى هم الحيوانات العاقلة المهيمنة وأن بني الهوينهم خدم لهم؛ وأنه لاحظ فيَّ كل صفات الياهو، إلا أنني أكثر تحضرًا لأن فيَّ شيئًا من العقل، لكن الفارق بين عقلي وعقل بني الهوينهم الأرقى هو كالفارق بين عقل ياهو بلادهم وعقلي؛ وأنني ذكرتُ له ضمن أشياء أخرى عادتنا في خصي الخيول وهي صغيرة السن لكي نجعلها أكثر طاعة وأسهل ترويضًا، وأن عملية الخصي سهلة ومأمونة، وأنه ليس عيبًا أن نتعلم الحكمة من الدواب، فالنمل تعلمنا المثابرة على العمل، والطيور تعلمنا البناء، وأن هذا الاختراع يمكن ممارسته مع صغار بني الياهو عندهم، وبهذا يجعلونها أسهل قيادًا وأفضل خدمة ويؤدي بعد جيل إلى انقراض جنس الياهو دون اللجوء إلى قتلهم. وحتى ينقرض جنس الياهو، فإنه ينصح إخوانه بني الهوينهم أن يُكْثروا من نَسْل الحمير التي هي في كل الأمور دواب تفضل بني الياهو، إلى جانب أنها تصبح صالحة للخدمة في سن الخامسة بينما لا يصلح جنس الياهو للخدمة قبل سن الثانية عشرة.

هذا هو كل ما ارتأى سيدي حينذاك أن يخبرني به عما تم في جلسات المجلس، وطاب له أن يخفي عني قرارًا واحدًا يتعلق بي شخصيًا، وكان له نتائج تعيسة على حياتي كما سأخبر القارئ حين

يحين الوقت المناسب. ومنذ صدور ذلك القرار تلاحقتِ المصائب في حياتي.

لا يعرف بنو الهوينهم الكتابة ولهذا تنتقل المعرفة من جيل لآخر بالرواية. وبما أنهم شعب متماسك متوحد، ويميلون لكل فضيلة بالفطرة، ولا يحكمهم سوى العقل، وليس لديهم أي اتصال بالشعوب الأخرى، فإنه ليس في حياتهم أحداث تستحق الذكر، وتاريخهم محفوظ ولا يُثْقل كاهل الذاكرة. وقد ذكرتُ من قبل أنهم لا يصابون بأمراض ولهذا لا يحتاجون لأطباء. لكن عندهم أدوية ممتازة من الأعشاب لشفاء الرضوض والجروح التي تحدثها الحجارة الحادة في الرسغ أو الحافر ولعلاج ما يصيب أجزاء الجسد الأخرى من عُطل أو أذى.

وهم يحسبون السنة على أساس دورة الشمس والقمر ولا يقسمون الوقت إلى أسابيع، إنهم يعرفون جيدًا حركات الشمس والقمر ويفهمون طبيعة الخسوف والكسوف وهذا هو غاية ما يعرفونه في علم الفلك.

لكن لا بد أن أعترف لهم بالتفوق على كل المخلوقات في الشعر(٥) حيث التشبيهات الرائعة والأوصاف الدقيقة الصحيحة التي لا يمكن أن تضاهى، وهي متوفرة بكثرة في قصائدهم التي تدور في العادة حول بعض الأفكار الراقية عن الصداقة وحب الخير أو تمدح الذين فازوا بالسباقات والنشاطات الجسدية(٦). ومع أن مبانيهم بدائية وبسيطة إلا أنها ليست مزعجة وتكفي لحمايتهم من تقلبات الطقس وأمراض البرد والحر. وينمو في بلادهم نوع من الشجر ترتخي جذوره بعد أربعين سنة من نموه، ويسقط عند أول عاصفة، وهو شجر ينمو بشكل مستقيم ورؤوسه مدببة كرؤوس الأوتاد. يدق الهوينهم جذور هذه الأشجار في الأرض بالحجارة (فهم لا يعرفون الحديد)، بحيث يبعد كل جذع عن الآخر حوالي عشر بوصات ويصلون ما بينها بسيقان الشوفان أو بقضبان الأغصان؛ ويصنعون السقوف والأبواب بالأسلوب نفسه.

ويستعمل الهوينهم التجويف الواقع بين السنبك والحافر في أقدامهم الأمامية كما نستعمل أيدينا. وهم يفعلون ذلك بمهارة فائقة لم أكن أتوقعها أول الأمر. وقد رأيت فرسًا بيضاء تُدْخل خيطاً في خُرْم إبرة (وكنتُ قد أَعَرْتُها الإبرة عن عمد) بواسطة ذلك التجويف. وهم يحلبون بقرهم، ويحصدون شوفانهم ويقومون بكل الأعمال التي نقوم بها باليد بالأسلوب نفسه. ولديهم نوع من حجر الصوان الصلب يستعملونه لصناعة أدوات من الحجارة تقوم مقام الإزميل والفأس والقَدُّوم والمطرقة؛ كما يصنعون من حجارة الصوان هذه أدوات يقطعون بها العشب ويحصدون الشوفان الذي ينمو لوحده في كثير من الحقول. ويقوم بني الياهو في نقل غمار الشوفان إلى البيوت في عربات يجرونها. ويقوم الخدم من الخيل بالدَّوْس على هذه الغمار في أكواخ مسقوفة وذلك لفصل الحب عن

القش، ثم وضعه في المخازن، كذلك يصنعون أوعية بدائية من الخشب أو الطين، ويشوون الأواني الطينية في الشمس.

يموت بنو **الهوينهم** بسبب الهرم فقط، إلا إذا ألَمّ حادث مفاجئ يودي بحياتهم، ويُدفَنون في أماكن مجهولة ولا يشعر أصدقاؤهم وأقاربهم لدى موتهم بفرح أو حزن(٧)، ولا يظهر على من يحتضر منهم أي أسف لفراق الدنيا، فالموت عندهم شبيه بالعودة إلى البيت من زيارة لأحد الجيران. وأذكر أن سيدي كان ذات يوم موعودًا بزيارة يقوم بها إلى بيته صديقه وأسرته ليتحدثوا معه في قضية هامة. وفي اليوم المحدد جاءت زوجة صديقه وطفلاها متأخرين جدًا وبررتْ تأخرهم بعذرَيْن: الأول أن زوجها **لْهْنُونْهْ** (كما قالت) ذلك الصباح بالذات، وهي كلمة معبرة عندهم وأقرب معنى لها هو أنه **عاد إلى بطن أمه الأولى**. والعذر الثاني أن التشاور مع خدمها حول مكان مناسب لدفن جثة زوجها استغرق بعض الوقت. بعد ذلك لاحظتُ أنها تتصرف في بيتنا بنفس الابتهاج والعفوية التي يتصرف بها الآخرون. وقد ماتت بعد ذلك بحوالي ثلاثة أشهر.

وعلى العموم، يعيش **بنو الهوينهم** حتى سن السبعين أو الخامسة والسبعين، ونادرًا ما يعمرون حتى الثمانين. قبل وفاتهم ببضعة أسابيع يشعرون بهبوط تدريجي، لكن دون ألم. وفي هذه الفترة يُكْثِر الأصدقاء من زيارتهم في بيوتهم لأنهم لا يستطيعون الخروج منها بيُسْر ورضا. لكنهم قبل وفاتهم بعشرة أيام، وهم قلما يخطئون في معرفة موعد موتهم، يقومون برد زيارات القريبين من جيرانهم، محمولين على زلاجة مناسبة يجرّها **بنو الياهو**، وهم لا يستعملون هذه الزلاجة في هذه المناسبة فقط، بل يستعملونها في الرحلات الطويلة حين تتقدم بهم السنّ أو حين يعجزون عن السير بسبب حادث يصيب أقدامهم. وحين يردّ **الهوينهم** المشرف على الموت تلك الزيارات، يودع أصدقاءه وداعًا حارًا وكأنه مسافر إلى منطقة بعيدة في البلاد حيث ينوي قضاء بقية عمره.

ولست أدري إن كان ينبغي أن ألاحظ أنه ليس في لغة **الهوينهم** لفظة يعبرون بها عمّا هو شرّ سوى ما يستعيرونه من بشاعات **بني الياهو** أو خصائصهم السيئة. وهكذا فإنهم يعبرون عن حماقة خادم بقولهم **هوينم ياهو**، وعن فقدان طفل بقولهم **ويهْناهولم ياهو**، وعن حجر يجرح أقدامهم بقولهم **يونِلْهُومْناويهْلما ياهو** - أي أنهم يضيفون كلمة ياهو لكل كلمة.

ويمكنني بكل سرور أن أذكر المزيد عن أخلاق وفضائل هذا الشعب الرائع، ولكني أنوي أن أنشر بعد فترة قصيرة كتابًا عن هذا الموضوع بالذات وبوسع القارئ أن يرجع إليه. وسأتحدث الآن عن مأساتي المحزنة.

الفصل العاشر

نظام حياة المؤلف السعيدة بين الهوينهم. تحسن أخلاقه وتقدمه على طريق الخير بسبب تحدثه معهم. مواضيع أحاديثهم. المؤلف يستلم إنذارًا من سيده بوجوب مغادرة البلاد، فيقع مغشيًا عليه حزنًا وكمدًا، لكنه يخضع للأمر. يصنع قاربًا بمساعدة زميل له من الخدم، وينطلق بقاربه في البحر.

كنت قد رتبتُ شؤون حياتي كما يهوى قلبي ويطمئن به فؤادي. كان سيدي قد أمر بتجهيز غرفة لي على طريقتهم، وتبعد عن بيته ست ياردات. وقد غطيتُ جوانبها وأرضها بالطين، ووضعتُ فوق الطين حصيرًا من نبات الأسَلْ صنعته بنفسي. كذلك صنعت من خيوط القنب، الذي ينمو هناك وحده، نوعًا من القماش للوسائد، وملأتُ هذه الوسائد بريش الطيور التي كنت أصيدها بشراكٍ مصنوعة من شعر **الياهو**، وآكل لحمها اللذيذ. كذلك صنعت لنفسي كرسيين مستعملًا سكيني ومستفيدًا من مساعده الحصان الأشهب الذي كان يقوم عنّي بالأعمال الشاقة والمضنية. وحين بَلِيَت ملابسي صنعتُ ملابس جديدة من جلود الأرانب وحيوان آخر جميل بحجم الأرنب يسمّى **تْنُوهنُوه** ولجلده وَبَر ناعم. ومن هذه الجلود أيضًا صنعت جوارب مقبولة تمامًا. كذلك نعلتُ حذائي بنعل من الخشب الذي كنتُ أقطعه من الشجر وأركب عليه الجلد. وحين اهترأ الجلد استبدلته بجلود **الياهو** المجففة في الشمس. وكنتُ أحصل على العسل من تجاويف في الأشجار فأشربه مخلوطًا بالماء[1] أو آكله مع الخبز. وقد كانت أفعالي تؤكد صحة المبدأين المشهورين: **أنه من السهل جدًا إشباع حاجات الطبيعة، وأن الحاجة أم الاختراع**. وكنتُ أتمتع بالصحة الجسدية التامة وبالطمأنينة وراحة البال[2]. هنا لم أشعر بخيانة أو تقلّب من صديق، أو بأذى من عدو صريح أو خفي. وهنا لم تكن بي حاجة للرشوة أو التملق، أو القوادة لنيل الفضل من عظيم أو من مرؤوسيه، أو للحيطة من النصب والاحتيال والظلم. لم يكن هنا طبيب يدمر صحتي، أو محام يسلب أموالي، أو مخبر يعدّ عليّ حركاتي وكلماتي أو يلفّق لي تهمًا مقابل أجر. كذلك لم يكن هنا مستهزئون أو عيابون أو لوّامون أو نمامون أو نشالون أو قطاع طريق أو لصوص منازل، أو محامون أو قوادون وأصحاب مواخير أو مهرجون أو مقامرون أو سياسيون أو ظرفاء أو مشاكسون أو محدثون ثقيلو الظل، أو مجادلون أو مغتصبو نساء أو قتلة وسفاكو دماء أو سلاّبون نهابون أو

أدعياء علم ومعرفة أو قادة أحزاب وأتباعهم أو زعماء زُمَر وأشياعهم أو تشجيع على الرذائل بالقدوة السيئة أو بالإغواء. هنا لا توجد سجون وزنزانات أو مقاصل أو مشانق أو أعمدة جَلْدٍ أو منصات تشهير أو باعة وعمال غشاشون، كما لا يوجد كبرياء أو غرور أو ادعاء، ولا يتواجد متغندرون متأنقون، أو فُتُوّات يستأسدون على الضعفاء ويبتزون العاهرات، أو سكارى، أو عاهرات الشوارع أو أمراض الزهري، أو فاسقون يتبجحون بفسقهم، أو زوجات يكلفن أزواجهن ما لا يطيقون، أو أنصاف متعلمين أغبياء مغرورون، أو رفاق متعبون لجوجون متغطرسون مناكفون صياحون صاخبون، مغرورون شتامون، أو أنذال ارتفع مقامهم من الحضيض بفضل نذالتهم ورذائلهم، أو نبلاء أعزة سقطوا في الحضيض بسبب فضائلهم. هنا لا يوجد لوردات أو موسيقيون عابثون ولا قضاة ولا راقصو حبال منافقون.

وحين كان أصدقاء سيدي يأتون لزيارته أو تناول الطعام معه، كان سيدي يكرمني بالسماح لي بالدخول إلى حيث يجلسون والاستماع إلى ما يقولون. وكثيرًا ما كان هو ورفاقه يتواضعون ويوجهون لي أسئلة ويصغون لإجاباتي. وكنتُ أحيانًا أتشرف بمرافقة سيدي لدى زياراته للآخرين. ولم أكن أتجرأ على الكلام إلا لأجيب على سؤال، وكنت أفعل ذلك وأنا أشعر في أعماقي بالأسف لأن في ذلك إضاعة لوقت ثمين أستفيد منه في تهذيب نفسي. وكان سروري لا يوصف بمركزي كمستمع متواضع لأحاديثهم التي لا يقال فيها إلا المفيد الذي يعبرون عنه بما قل ودَلّ، والتي تراعى فيها قواعد الاحترام والإجلال، لكن دون مجاملات ورسميات فارغة، والتي لا ينطق أحد خلالها إلا بما يسرّه ويسرّ رفاقه، ولا يقاطَع فيها متكلم، والتي تخلو من الإسهاب الممل ومن الحماس المحموم المقيت ومن أيّة مشاعر على اختلافها. وهم يتصورون أنه حين يجتمع الناس، فإن قليلاً من الصمت يساعد على تحسين الحديث. وقد ثبت لي صحة ذلك، ذلك أنه خلال تلك الفترات التي يتوقف فيها الكلام تخطر لهم أفكار جديدة تجدد حيوية الحديث. مواضيعهم هي عمومًا الصداقة وحب الخير، والنظام والاقتصاد، وأحيانًا يتحدثون عن الآليات المرئية في عمليات الطبيعة أو عن التقاليد والمعتقدات القديمة، وعن حدود الفضيلة وقيودها، وعن مبادئ العقل التي لا تخطئ، أو عن القرارات التي سيوصون باتخاذها في جلسات مجلس الأمة القادمة. وكثيرًا ما يتحدثون عن روائع الشعر وبدائعه. ولا أدعي فخرًا حين أقول إن وجودي معهم كان يعطيهم مادة جديدة للحديث، لأن ذلك كان يمنح سيدي فرصة لإطلاع أصدقائه على قصة حياتي وتاريخ بلادي، وكان يطيب لهم جميعًا أن يتحدثوا عنا أحاديث ليست في صالح الجنس البشري، ولهذا لا ضرورة لإعادة ما كانوا يقولون. لكن يمكن إن أسمح لنفسي بالقول إنه كان يبدو أن سيدي يفهم طبيعة **الياهو** أكثر مني بكثير، مما جعلني أشعر نحوه بإعجاب شديد. فقد كان يأتي على ذكر كل شرورنا ورذائلنا وحماقاتنا ويكشف منها ما لم أذكره له قط، وذلك على أساس استنتاج ما قد يستطيع عمله بنو **الياهو** في

بلادهم، لو كان لديهم مثلنا نسبة ضئيلة من العقل. وكان يختم استنتاجاته هذه بتصوير مدى سفاهتهم وتعاستهم حينذاك، وهو أمر كبير الاحتمال.

وأعترف بكل صراحة أنني اكتسبت كل ما لديَّ من معرفة نافعة ضئيلة من المحاضرات التي سمعتها من سيدي وأستاذي الحصان، ومن الاستماع لأحاديثه وأحاديث أصدقائه. وإنه ليسعدني أن أستمع لتلك الأحاديث أكثر مما يسعدني أن أُمْلي أوامر وأحكامًا على أعظم المجالس في أوروبا وأكثرها حكمة. لقد كُنت معجبًا بقوة السكان وجمالهم وسرعتهم. وإن تلك الكوكبة من الفضائل التي يتحلى بها أولئك الأشخاص الأفاضل اللطفاء جعلتني أُجِلُّهم عظيم الإجلال. وفي الحقيق، في أول الأمر لم أكن أشعر نحوهم بتلك الهيبة التي يشعر بها بنو الياهو وكل الحيوانات الأخرى، لكن هيبتهم كبرت في نفسي بالتدريج وبأسرع مما تصورت، وكانت هيبة ممزوجة بالحب والاحترام والامتنان لأنهم تواضعوا فميزوني من بقية جنسي.

وحين فكرت بأسرتي أو أصدقائي أو بني بلدي أو عموم الجنس البشري، اعتبرتهم كما هم في حقيقتهم، بني ياهو شكلاً وطباعًا وميولاً. ربما هم أكثر تحضرًا من الياهو بقدر طفيف، ويتميزون منهم بنعمة الكلام، ولكنهم لا يستخدمون العقل إلا في تهذيب وزيادة تلك الشرور والرذائل التي لا يعرف إخوانهم في هذا البلد منها سوى ما خصتهم به الطبيعة والفطرة. وصرتُ عندما أرى بالصدفة شكل صورتي في ماء بحيرة أو نبع أدير وجهي هلعًا واشمئزازًا من نفسي(٣)، بل صرت أحتمل رؤية ياهو عادي أكثر مما أحتمل رؤية نفسي. ومن كثرة ما عاشرتُ بني الهوينهم، وتحدثتُ معهم، ومتعت ناظري برؤيتهم، صرت أقلد مشيتهم وحركاتهم حتى أصبح تقليدي لهم عادة متأصلة فيّ. وكثيرًا ما يُعَيِّرني أصدقائي بصراحة فظة ويقولون إنني أخِبّ كالحصان. ولكنني أعتبر قولهم هذا إطراء عظيمًا. كما لست أنكر أنني أثناء نطق الكلام أجدني أنطقه بصهيل بني الهوينهم وأسلوبهم، وأسمع الآخرين يهزأون مني لهذا السبب، لكني لا آبه لسخريتهم ولا أشعر بأي خزي.

وبينما كنتُ أنعم بالعيش بينهم، وأبشر نفسي أنني سأقضي بقية عمري معهم، أرسل إلي سيدي ذات صباح في وقت أبكر من الوقت المعهود. ولاحظت في ملامح وجهه بعض الحيرة كأنه لا يعرف أين يبدأ في قول ما ينوي قوله. وبعد صمت قصير، قال إنه لا يعرف كيف سأستقبل ما سيقوله، وهو أنه في جلسات مجلس الأمة الأخيرة، وحين نوقش موضوع بني الياهو، أبدى ممثلو المناطق انزعاجهم لأنه يحتفظ في بيته بواحد من الياهو (يقصدونني أنا) ويعامله كأنه من الهوينهم وليس كواحد من الدواب البهائم، وأنه كثيرًا ما يتحدث معي وكأنه يمكن أن يستفيد مني أو يستمتع بصحبتي، وأن مثل هذا العمل لا يتفق مع العقل أو الطبيعة، وما هو بشيء سمعوا بمثله من قبل. ولذلك فإن المجلس أشار عليه أن يفعل أمرًا من اثنين: إما أن يستخدمني كما يستخدم الآخرين من

بني الياهو، أو أن يأمرني بأن أعود سباحة إلى المكان الذي جئتُ منه. لكن **بني الهوينهم** الذين رأوني في بيته أو في بيوتهم، رفضوا الأمر الأول رفضًا قاطعًا، زاعمين أن بعض العقل الذي فيَّ مضافاً إلى الشر الفطري في تلك البهائم **الياهوية** الأخرى قد يمكنني، كما يخشون، من إغراء **بني الياهو** بالفرار إلى المناطق الحرشية أو الجبلية في البلاد ثم أعود بهم فرقًا غازية في الليل للإغارة على قطعان الماشية عند **الهوينهم**، ذلك لأن حب النهب والتخريب وكراهية العمل أمور فطرية فينا.

وأضاف سيدي أن جيرانه من **بني الهوينهم** يلحون عليه يوميًا بتنفيذ ما **أشار** به المجلس، وأنه لم يعد يستطيع التسويف والتأجيل. وهو يخشى أنه من المستحيل عليّ أن أذهب إلى بلد آخر سباحة، ولذلك فقد طلب مني أن أفكر بصنع قارب[٤] يشبه القارب الذي وصفتُه له لكي يحملني في البحر، وتعهد بأن خدمه وخدم جيرانه سيقدمون لي ما يمكنهم من مساعدة. وختم حديثه بقوله لو أن **الأمر** متروك له، فإنه يرضى بإبقائي في خدمته طالما حييتُ لأنه وجدني قد تطهرتُ من بعض العادات والطبائع السيئة بمحاولة تقليد **بني الهوينهم** بقدر ما تستطيعه طبيعتي الدونية.

وينبغي هنا أن أوضح للقارئ أن أي أمر أو مرسوم يصدر عن مجلس الأمة في هذه البلاد، يعبَّر عنه بكلمة **هُنْهْلُويْن** التي تدل، بقدر ما يمكن ترجمتها، على الحضّ أو النصح أو التحذير، لأنهم لا يتصورون أن يُرْغَم أو يُجْبر مخلوق عاقل على عمل ما، ولكن يمكن **نصحُهُ**، أو **تحذيره**، أو إعطاؤه مشورة، لأنه لا أحد يعصي أوامر العقل، إلا إذا تخلى عن ادعائه بأنه مخلوق عاقل.

عند سماع حديث سيدي أصابني من الحزن واليأس ما لا أطيق، وعجز جسمي عن الصمود تحت ضغط آلامي، فوقعت مغشيًا عليّ عند أقدام سيدي. وحين عدتُ إلى الوعي أخبرني أنه اعتقد أنني قد فقدتُ الحياة (لأن هؤلاء الناس لا يعرفون مثل هذه الأفعال الحمقاء)، فأجبته بصوت واهن أنني لو متُّ لكان ذلك يسعدني، وأنني لا أستطيع أن ألوم المجلس على **تحذيره** له، أو ألوم أصدقائه على إلحاحهم عليه، وأنني ظننتُ بعقلي الضعيف الفاسد أنه قد يتفق مع العقل أن يكونوا أقل قسوة وصرامة، وأنني لا أستطيع أن أسبح لمسافة فرسخ واحد، في حين أن أقرب بلاد قد تكون على مسافة مائة فرسخ، وأن كثيرًا من المواد الضرورية لصنع قارب صغير يحملني في البحر، غير متوفرة أبدًا في هذه البلاد، وأنني مع هذا سأحاول، طاعة لسيادته واعترافًا بفضله علي، مع أنني أرى الأمر مستحيلاً ولهذا أعتبر نفسي قد كُتِب لي الهلاك والموت. وأضفتُ أن الموت أهون الشرور بالنسبة لي، إذ لو افترضتُ أنني نجوتُ بمعجزة، فإنه سيكون من أصعب الأمور أن أقضي أيامي بين **بني الياهو** حيث سأرتدّ إلى عاداتي وآثامي القديمة بسبب غياب القدوة الصالحة التي ترشدني إلى طرق الفضيلة وتبقيني على مسالك الخير. وقلتُ إنني أعرف جيدًا الأسباب الوجيهة التي بنى عليها **الهوينهم** الحكماء قراراتهم، وإن هذه القرارات لن تهزها أو تغيرها الحجج التي يتذرع بها **ياهو** تعيس مثلي، ولهذا

فإنني إذ أتقدم له بالشكر على ما عرضه من مساعدة الخدم لي في صناعة زورق، أرجو أن يعطيني مهلة معقولة لأقوم خلالها بهذا العمل الصعب. وقلتُ إنني سأحاول الحفاظ على حياتي المنكودة، وإذا عدتُ إلى إنجلترا، فإنني أرجو أن أكون ذا نفع لأبناء جنسي عن طريق التغني بأمجاد بني **الهوينهم** المشهورين(٥)، وشرح فضائلهم للبشر لكي يقتدوا بها.

وأكرمني سيدي بجواب موجز لطيف. أعطاني مهلة شهرين للانتهاء من صنع زورقي، وأمر الحصان الأشهب، زميلي في الخدمة، أن يتبع تعليماتي، لأنني أخبرت سيدي أن مساعدته وحده تكفي، وكنتُ أعلم أن هذا الحصان الأشهب يكنّ لي المودة.

كان أول ما فعلتُه أن ذهبتُ بصحبته إلى ذلك الجزء من الساحل الذي وضعني فيه بحارتي المتمردون. صعدتُ إلى مكان مرتفع ونظرت إلى البحر من جميع الجهات، وخُيِّل لي أنني رأيت جزيرة صغيرة في الجهة الشرقية الشمالية. أخرجت منظار الجيب واستطعت أن أراها بوضوح على بعد خمسة فراسخ، لكن الحصان الأشهب ظنها غمامة زرقاء. ذلك أنه لم يدر بخَلَده أن هناك بلادًا أخرى غير بلده، ولهذا فهو لم يستطع أن يميز الأشياء البعيدة في البحر كما نستطيع نحن الذين لنا خبرة واسعة به.

بعد أن اكتشفت هذه الجزيرة لم أفكر بشيء آخر، وقررت أن أجعلها أول مكان أذهب إليه في منفاي، وأترك النتائج للأقدار.

عدتُ إلى البيت، وبعد التشاور مع الحصان الأشهب ذهبنا إلى أيكة قريبة حيث قطعنا عددًا من أغصان البلوط بسماكة عصا المشي وبعض الكتل الخشبية الكبيرة. كنتُ أستعمل سكيني بينما كان الحصان يستعمل سكينًا حادة من حجر الصوان مثبتة حسب طريقتهم في قطعة من الخشب. ولن أزعج القارئ بوصف مفصل لما عملته، إذ يكفي أن أقول إنني في خلال ستة أسابيع، وبمساعدة الحصان الأشهب الذي كان يقوم بالأعمال التي تتطلب جهدًا كبيرًا، انتهيت من صنع قارب شبيه بقوارب الهنود ولكنه أكبر منها، وغطيته بجلود بني **الياهو**(٦) التي كنتُ قد خَيَّطْتُها معًا بخيوط من القنب صنعتُها بنفسي. وكان شراعي أيضًا من جلود بني **الياهو** صغار السن، لأن جلود الكبيرة سميكة ويابسة جدًا. كذلك زودتُ نفسي بأربعة مجاذيف، ووضعتُ في الزورق كمية من لحم الأرانب والطيور بعد أن سلقته، كما وضعت فيه وعاءين أحدهما مليء بالحليب والثاني بالماء.

وجربتُ قاربي في بركة كبيرة بالقرب من بيت سيدي وأصلحت ما كان فيه من عيوب، فأغلقت كل الشقوق بشحم **الياهو** حتى أصبح كتومًا لا يتسرب إليه الماء، وقادرًا على حملي وحمل أمتعتي. وحين انتهيت من صناعته، طلبتُ أن ينقلوه إلى الشاطئ، فوُضِع على عربة جرها بعناية عدد من **الياهو** تحت إشراف الحصان الأشهب وخادم آخر ونُقِل إلى الشاطئ.

حين أصبح كل شيء جاهزًا وحان يـوم رحيلي، ودعتُ سيـدي وسيدتي وكـل أفراد الأسرة وعيناي تفيضان بالدموع وقلبي مثقل بالحزن. لكن سيدي أصرّ بدافـع الفضول، وربمـا بدافـع العطف (إذا جاز لي أن أقول ذلك دون غرور أو مباهاة) أن يرافقني حتى البحر وحتى أركب قاربي، وأقنع العديدين من أصدقائه من الجيران بمرافقتنا. انتظرتُ أكثر من ساعة حتى علا المدّ، وحين لاحظتُ أن الريح كانت لحسن الحظ تهب نحو الجزيرة التي كنت أنوي الإبحار إليها، ودعتُ سيدي مرة ثانية. وحين هممتُ بالانبطاح لكي أُقَبِّل حافره تكرَّمَ هو عليَّ ورفع حافره إلى فمي[٧]، لستُ أجهل اللوم الشديد الموجَّه إلي لأنني ذكرتُ هذه الواقعة الأخيرة. ويحلو لأعدائي أن يظنوا أنه من غير المحتمل أن يتواضع شخص عظيم كسيدي الحصان ويتفضل بمثل هذه المكرمة الرائعة عـلى مخلوق وضيع مثلي. كذلك لا أنسى أن بعض الرحالين يميلون إلى التباهي بالأفضال والمكارم التي أُنْعِم عليهم بها. لكن لو عَرف الناقدون واللائمون مقدار نبل سيدي ولطفه لغيّروا رأيهم.

وقدَّمْتُ آيات الاحترام والتبجيل لبني الهوينهم المرافقين لسيدي، ثم ركبتُ قاربي وانطلقتُ مبتعدًا عن الشاطئ.

الفصل الحادي عشر

الرحلة المحفوفة بالأخطار التي يقوم بها المؤلف. يصل إلى هولندا الجديدة ويأمل أن يستقر هناك. يصاب بسهم يطلقه عليه واحد من أهل البلاد. يُقْبَض عليه ويؤخذ رغمًا عنه إلى سفينة برتغالية. نبل القبطان وكرمه البالغ. المؤلف يصل إلى إنجلترا.

بدأتُ هذه الرحلة اليائسة في الخامس عشر من فبراير ١٧١٥ في الساعة التاسعة صباحًا، وكانت الريح مواتية. في أول الأمر استخدمتُ مجاذيفي. لكن حين فكرت أنني سأتعب بعد فترة قصيرة، وأن الريح قد تغير اتجاهها، قررت أن أنصب شراعي الصغير. وهكذا، وبمساعدة المدّ، انطلقت بسرعة فرسخ ونصف الفرسخ في الساعة، حسبما قدَّرتُ. وظل سيدي ورفاقه واقفين على الشاطئ حتى كدتُ أغيب عن بصرهم، وكثيرًا ما سمعت الحصان الأشهب (الذي كان دائـمًا يكنّ لي الحب) يصهل مناديًا علي: **هْنُويْ إيلّلا نيها مايا ياهو**، أي انتبه لنفسك أيها الياهو الطيب.

كانت خطتي أن أكتشف، إن أمكن، جزيرة صغيرة غير مأهولة، ولكن يمكن بشيء من الجهد والتعب أن توفر لي حاجات الحياة. ولو تيسر لي ذلك لكنت أكثر سعادة مما لو أتيح لي أن أكون الوزير الأول في أرقى دولة **بأوروبا**. وقد تصورتُ أن العودة لحياة المجتمع البشري في ظل حكم **بني الياهو** ستكون شيئًا مروعًا. لكني لو عشت وحيدًا كما اشتهيتُ، لتمتعتُ بأفكاري الخاصة وتأملاتي حول فضائل أولئك **الهوينهم** التي لا يمكن لأحد غيرهم أن يبلغها، دون أن يكون هناك فرصة للانتكاس والعودة إلى تلك الرذائل والمفاسد الشائعة لدى بني جلدتي.

قد يذكر القارئ ما رويتُه له عن تآمر بحارتي عليّ، وكيف حبسوني في كابينتي حيث بقيت فيها عدة أسابيع دون أن أعرف طريق سيرنا، وكيف حملوني بعد ذلك في قارب ووضعوني على الشاطئ، وأقسموا، صدقًا أم كذبًا، أنهم لا يعرفون موقعنا في العالم. رغم ذلك، اعتقدتُ حينذاك أننا على بعد عشر درجات جنوب **رأس الرجاء الصالح** أو على **خط العرض ٤٥ جنوبًا**، كما خمنتُ من بعض الكلمات التي سمعتهم يتحدثون بها، أننا نسير باتجاه الشرق الجنوبي، حيث يزعمون الوصول إلى **مدغشقر**. ومع أن هذا لم يكن أكثر من تخمين، فقد قررت أن أسير **باتجاه الشرق** على أمل أن أصل الساحل **الغربي الجنوبي** من **هولندا الجديدة**، وربما إلى جزيرة من النوع الذي تمنيته

تقع غربي تلك البلاد. كانت الرياح غربية وفي السادسة مساء حسبت أنني قد قطعت ما لا يقل عن ثمانية عشر فرسخًا **باتجاه الشرق**، وعند ذاك رأيت جزيرة صغيرة جدًا على بعد نصف فرسخ، ووصلت إليها في وقت قصير، لم تكن الجزيرة سوى صخرة فيها خليج واحد كان بالطبع مقوس الشكل بتأثير قوة العواصف. رسوت بقاربي هنا ثم تسلقتُ جزءًا من الصخرة واكتشفت بوضوح وجود برّ إلى **الشرق**، يمتد من **الجنوب** إلى **الشمال**. نمتُ طيلة الليل في قاربي واستأنفت رحلتي في الصباح الباكر ووصلتُ بعد سبع ساعات إلى الطرف الشرقي الجنوبي من **هولندا الجديدة**[١]. وهذا أكد لي الفكرة التي طالما راودتني، وهي أن الخرائط تخطئ في وضع هذه البلاد بمقدار ثلاث درجات على الأقل إلى **الشرق** من موقعها الحقيقي[٢]. ومنذ بضع سنوات أطلعتُ صديقي المحترم السيد هيرمان مُولْ[٣] على هذه الفكرة وشرحت له الأسباب، إلا أنه آثر أن يتبع ما تقوله المصادر الأخرى.

لم أرَ سكانًا في المكان الذي رسوتُ فيه، ولأنني لم أكن مسلحًا فقد خشيتُ أن أتوغل داخل البلاد. ووجدتُ بعض السمك الصدفي على الشاطئ فأكلتُه نَيِّئًا لأنني لم أجسر على إشعال نار خشية أن يكتشف أهل البلاد وجودي. وبقيت ثلاثة أيام آكل فيها المحار وبعض الأسماك الرخوية لكي أوفر المؤونة التي معي. كذلك كان من حسن حظي أن وجدت جدولاً للماء العذب سعدتُ به كثيرًا.

في اليوم الرابع توغلتُ في الصباح الباكر داخل البلاد فرأيت على مرتفع، عشرين أو ثلاثين من أهل البلاد، على مسافة لا تزيد عن خمسمائة متر مني، كانوا كلهم عراة، الرجال منهم والنساء والأطفال، وكانوا متحلقين حول نار مشتعلة كما عرفت من الدخان، وقد رآني واحد منهم فأخبر الآخرين. وتقدم نحوي خمسة منهم تاركين النساء والأطفال عند النار، فقفلتُ مسرعًا نحو الشاطئ وركبتُ قاربي وابتعدت. حين لاحظ أولئك المتوحشون تراجعي، راحوا يركضون خلفي وقبل أن أبتعد كثيرًا في البحر أطلقوا علي سهمًا أصاب الجزء الداخلي من ركبتي اليسرى، وجرحه جرحًا عميقًا (وسترافقني الندبة التي تركها إلى القبر). خشيتُ أن يكون السهم مسمومًا، ولهذا وبعد أن أصبحت بعيدًا عن مرمى سهامهم (وكان الجو هادئًا)، حاولت أن أمص الدم من الجرح، ثم ضمدتُه بقدر ما أستطيع.

احترت ماذا أفعل، إذ لم أجرؤ على العودة إلى المرسى نفسه، بل توجهتُ نحو الشمال واضطررتُ للتجديف لأن الرياح كانت تهب بعكس اتجاهي، من الغرب الشمالي. وبينما كنتُ أبحث عن مرسى آمن رأيت شراعًا في الجهة الشرقية الشمالية راح يزداد وضوحًا كل دقيقة. وقد ترددتُ: هل أنتظرهم أم أنصرف عنهم؟ وأخيرًا سيطر عليّ كرهي لجنس **الياهو**، فأدرتُ قاربي واتجهتُ نحو الجنوب وعدت إلى الخليج الذي كنت قد تركته في الصباح وفضلتُ أن أسلم نفسي

للبرابرة المتوحشين على أن أعيش مع الياهو الأوروبيين. اقتربتُ بقاربي من الشاطئ وأخفيتُ نفسي وراء حجر عند جدول الماء الذي كان ماؤه، كما سبق أن قلت، عذبًا ورائعًا.

ووصلتِ السفينة إلى مسافة نصف فرسخ من هذا الجدول، وأرسلت زورقًا محملاً بالأواني لملئها بالماء (ويبدو أن هذا المكان كان معروفًا تمامًا للسفن)، لكني لم ألاحظ ما حدث إلا حين كاد الزورق يصل للشاطئ، ولم يتوفر لي الوقت للبحث عن مخبأ آخر. عندما نزل البحارة إلى البرّ رأوا قاربي، وبعد أن فتشوه أدركوا أن صاحبه لن يكون بعيدًا، فراح أربعة منهم مسلحون يبحثون في كل خندق أو حفرة في المكان حتى عثروا عليّ منبطحًا على وجهي خلف الحجر. وتعجبوا غاية العجب من ملابسي الغريبة العجيبة: معطفي المصنوع من الجلد، النعل الخشبي في حذائي، الجوارب المصنوعة من الفرو. من هذا كله استنتجوا أنني لستُ من أهل البلاد الذين يعيشون عراة. وأمرني أحد البحارة أن أنهض، باللغة البرتغالية، وسألني من أكون. كنت أعرف تلك اللغة جيدًا، فوقفت على قدمي وقلت إنني ياهو مسكين منفي من بلاد الهوينهم، ورجوتهم أن يتركوني أذهب في سبيلي، وقد استغربوا أنني أجبتهم بلغتهم واستنتجوا من لون بشرتي أنني لا بد أن اكون أوروبيًا. لكنهم احتاروا في معنى كلمة ياهو وهوينهم، وفي الوقت نفسه أضحكتهم نغمة صوتي في الكلام التي تشبه صهيل الخيل. كنتُ في هذه الأثناء أرتعد خوفًا منهم وأرتجف كرهًا لهم. ورجوتهم مرة ثانية أن يسمحوا لي بالذهاب وبدأت أسير بهدوء نحو قاربي، لكنهم أمسكوا بي وأرادوا أن يعرفوا من أي البلاد أكون، ومن أيها جئت هنا، وسألوني أسئلة أخرى كثيرة. أخبرتهم أنني ولدتُ في إنجلترا، وقد جئت منها إلى هذه الأصقاع قبل خَمس سنوات[٤] حين كانت بلادهم وبلادي في حالة صلح وسلام، ولذلك فإنني آمل أن لا يعاملوني كعدو لأنني لا أضمر لهم شرًا، وإنما أنا ياهو مسكين يبحث عن مكان مقفر مهجور ليقضي فيه ما تبقى من حياته التعيسة.

عندما بدأوا يتحدثون، خُيِّل إليَّ أنني لم أسمع ولم أرَ قط شيئًا أغرب من ذلك، فقد تهيأ لي كأن كلبًا أو بقرة تتحدث في إنجلترا أو كأن ياهو ينطق في بلاد الهوينهم. وكان البرتغاليون الطيبون يتعجبون بالقدر نفسه من ملابسي الغريبة وطريقتي المضحكة في نطق الكلمات، رغم أنهم فهموها جيدًا. وراحوا يحدثونني بعطف بالغ ولطف شديد، وقالوا إن قبطانهم سيحملني في سفينته مجانًا إلى لشبونه، ويمكنني من هناك أن أعود إلى بلادي، وإن اثنين منهم سيعودان الآن إلى السفينة ليخبرا القبطان بما رأياه ويتلقيا أوامره، وإلى أن يعودا فإنهم سيقيدونني بالقوة إذا لم أقسم لهم أنني لن أهرب. وأدركت أنه من الأفضل لي أن أذعن لما طلبوا. كانوا تواقين جدًا لمعرفة قصتي، لكني لم أشبع فضولهم، فظنوا أن مصائبي قد ذهبت بعقلي. بعد ساعتين عاد الزورق بعد أن أخذ الأوعية المملوءة بالماء إلى السفينة، ولديه أوامر من القبطان بإحضاري إلى السفينة. وركعتُ على ركبتي أتوسل إليهم أن يتركوني على حالي وأن يمنحوني حريتي، ولكن دون جدوى، إذ ربطوني بالحبال،

ووضعوني في الزورق ثم حملوني إلى السفينة حيث أخذوني إلى كابينة القبطان.

كان اسمه **بيدرو دي مينديز**. وكان على قدر عظيم من اللطف والكرم، رجاني أن أحدثه بقصتي، وسألني عما أحب أن آكل أو أشرب، وقال إني سأعامَل كما يعامَل هو، وقال أشياء كثيرة طيبة فتعجبت من صدور كل هذه المكارم والأفضال من **ياهو**. لكني بقيت صامتًا وعابسًا، وكاد يغمى عليَّ من رائحته ورائحة رجاله. في آخر الأمر طلبت طعامًا من الزاد الذي كان في قاربي فأمر لي بفرخة وبعض النبيذ الرائع، وأصدر أمرًا بتجهيز كابينة نظيفة جدًا لي. رفضت أن أخلع ملابسي واستلقيت على الفراش بملابسي، بعد نصف ساعة تسللتُ للخارج وفي ظني أن البحارة مشغولون بتناول عشائهم، وذهبت إلى جانب السفينة بنيّة أن أقفز وأرمي نفسي في البحر ثم أسبح ناجيًا بحياتي بدل أن أبقى بين **بني الياهو**. لكن واحدًا من البحارة منعني من القفز، وأخبر القبطان بما فعلت، فأمر بأخذي إلى كابينتي وتقييدي فيها.

بعد العشاء جاء **دون بيدرو** إليَّ وطلب أن يعرف الدافع لتلك المحاولة اليائسة، وطمأنني أنه إنما يريد لي الخير وأن يقدم لي ما يستطيع من خدمات. وقد كلمني بطريقة مقنعة ومؤثرة مما جعلني في آخر الأمر أتنازل وأعامله كحيوان لديه نسبة ضئيلة من العقل. أعطيته رواية موجزة عن رحلتي والمؤامرة التي حاكها ضدي بحارتي، والبلاد التي وضعوني على بَرِّها، والسنوات الخمس التي قضيتُها في تلك البلاد[٥]. لكنه استمع إلى قصتي وكأنها حلم أو رؤيا وهمية. لذلك غضبت منه كثيرًا. فقد كنتُ قد نسيتُ تمامًا القدرة على الكذب التي ينفرد بها **بنو الياهو** في كل البلاد التي يهيمنون فيها، وبالتالي ميلهم إلى الشك في صدق الآخرين من بني جنسهم، وسألته، أهي عادة في بلدك **أن تقولوا الشيء الذي لم يكن**؟ وأكدت له أنني كدت أنسى ما يقصده بكلمة **كذب وتزييف، وأنني لو عشت ألف سنة في بلاد الهوينهم** لما سمعتُ كذبة واحدة ولو من أحط الخدم، وأنني لا أبالي قط أن يصدقني أو لا يصدقني، ولكني في مقابل أفضاله علي سأغفر له فساد طبيعته، وأرد على كل اعتراض يطيب له أن يذكره، وأنه سيكتشف الحقيقة بسهولة.

كان القبطان رجلاً حكيمًا، بعد أن حاول عدة مرات أن يجد ثغرة في بعض أجزاء قصتي، بدأ أخيرًا يكوّن رأيًا أفضل عن صدقي[٦]. لكنه أضاف، بما أنني أعلن التزامي الكامل بالصدق، فإنني لا بدّ أن أتعهد له بشرفي بأن أبقى في صحبته طيلة هذه الرحلة دون أن أحاول الفرار أو الانتحار، وإلا فإنه سيبقيني سجينًا حتى نصل **لشبونة**. وقد تعهدتُ له بما طلب لكني في الوقت نفسه أكدتُ له أنه أهون عليَّ أن أواجه أصعب المشقات على أن أعود للعيش بين **بني الياهو**.

وانقضت رحلتنا دون أية حوادث هامة. واعترافًا مني بفضل القبطان كنت أحيانًا أجالسه بناء على طلبه وإلحاحه كما كنت أحاول جاهداً أن أخفي كراهيتي لجنس البشر مع أنها كثيرًا ما كانت

تظهر، فيغض القبطان الطرف ويتظاهر أنه لم يلاحظها. كنت معظم النهار أحبس نفسي في كابينتي لأتجنب رؤية أحد من البحارة. وكثيرًا ما ترجاني القبطان أن أنزع عني ملابسي الوحشية وعرض أن يعيرني أحسن ما عنده من الملابس، لكني رفضت أن أقبل رجاءه وعرضه، كراهية مني لتغطية جسدي بأي شيء لامس أجساد الياهو. طلبتُ منه فقط أن يعيرني قميصين نظيفين على أن يكونا قد غُسلا بعد أن لبسهما، لأنهما حينذاك لن تدنساني كثيرًا. وكنت أبدلهما مرة كل يومين وأغسلهما بنفسي.

وصلنا لشبونة في الخامس من نوفمبر ١٧١٥. عندما نزلنا إلى البر أرغمني القبطان أن ألبس عباءته لكي يمنع الرعاع من التجمهر حولي. وحُمِلْتُ إلى بيته حيث وضعني في أعلى غرفة خلفية بناء على رجائي وإلحاحي. واستحلفته أن يخفي عن كل الناس ما حدثته به عن بلاد الهوينهم، لأن اي تلميح لهذه القصة سيجلب أعدادًا كبيرة من الناس لرؤيتي، وأهم من ذلك، فإنه قد يعرضني لخطر السجن أو الحرق على يد محكمة التفتيش(٧) وقد أقنعني القبطان بقبول ملابس جديدة، لكني رفضت أن يأخذ خياط مقاسي. على كل حال، كان دون بيدرو من حجمي ومقاسي تقريبًا(٨) ولذلك جاءت ملابسه على مقاسي. وقد جهزني بحاجات أخرى كلها جديدة، لكني عرضتها للهواء أربعًا وعشرين ساعة قبل أن أستعملها.

ولم يكن للقبطان زوجة، لم يكن له سوى ثلاثة من الخدم، لكنه لم يسمح لأي منهم بالحضور عند تناول الوجبات، كان سلوكه معي يستدعي الامتنان، كما كان ذا فهم إنساني صادق، مما جعلني أتقبل صحبته، بل إنه أثرَّ فيّ لدرجة أنني صرت أنظر للخارج من النافذة الخلفية، وبالتدريج نقلني إلى غرفة أخرى حيث كان بإمكاني أن أبُصّ على الشارع، لكني سرعان ما كنت أسحب رأسي للخلف رعبًا، وفي خلال أسبوع أغواني بالنزول إلى الباب. ووجدت أن خوفي كان يقل بالتدريج، لكن كراهيتي واحتقاري كانا يزدادان، وأخيرًا توفرت لدي الشجاعة للخروج إلى الشارع بصحبته، لكني كنت أسدّ أنفي بأوراق شجر ذكية الرائحة، وأحيانًا بورق الطباق.

بعد عشرة أيام كنت قد شرحت لدون بيدرو أحوالي العائلية، وألحّ عليّ أن دواعي الشرف والضمير تقضي أن أعود إلى بلادي وأعيش في منزلي مع زوجتي وأطفالي. وأخبرني أن في الميناء سفينة انجليزية مستعدة للإقلاع، وأنه مستعد لتزويدي بكل ما يلزمني. وليس من الممتع أن أكرر هنا ما ساق لي من حجج وما رددت به من حجج مضادة. قال إنه من المستحيل العثور على جزيرة بعيدة ومقفرة من الناس كما أشتهي لأعيش فيها وحدي، لكن يمكنني أن أكون السيد المطاع في بيتي، وأن أقضي وقتي معتكفًا على طريقة النساك كما أشاء.

وسلمتُ بصحة قوله في آخر الأمر ووجدت أن هذا خير ما أفعله. وتركتُ لشبونة في الرابع

والعشرين من نوفمبر في سفينة تجارية إنجليزية، لكني لم أسأل عن اسم ربانها، ورافقني **دون بيدرو** إلى السفينة وأقرضني عشرين جنيهًا. وودعني برقة وحنان وعانقني، فاحتملتُ عناقه بقدر ما أستطيع، وخلال هذه الرحلة لم أختلط بالربان أو بأي من رجاله، وبقيت في كابينتي متظاهرًا بالمرض. وفي الخامس من ديسمبر ١٧١٥، رسونا في ميناء **داوْنْزْ** حوالي التاسعة صباحًا، وفي الثالثة عصرًا كنتُ في بيتي في ريدريف.

واستقبلتني زوجتي وأبنائي بذهول عظيم وفرح بالغ، فقد كانوا يعتقدونني ميتاً. لكن لا بد أن أعترف أن رؤيتهم ملأتني بالكراهية والقرف والاحتقار، ومما زاد في ذلك فكرة ما يربطني بهم من قرابة. ومع أنني منذ نفيي المشؤوم من بلاد **بني الهوينهم**، كنتُ قد روضتُ نفسي على تحمل رؤية **بني الياهو**، وعلى التحدث مع **دون بيدرو دي مينديز**، إلا أن ذاكرتي وخيالاتي كانت على الدوام عامرة بفضائل وأفكار أولئك **الهوينهم** النبلاء. وحين كنت أفكر أنني إذ عاشرتُ واحدة من جنس **الياهو** أصبحت أباً للمزيد منهم، كنتُ أصاب ببالغ الرعب وعظيم الخزي والاضطراب.

حالما دخلتُ بيتي احتضنتني زوجتي بين ذراعيها وراحت تقبلني، ولأنني كنتُ قد فقدتُ عادة لمس تلك الدابة القبيحة طيلة سنوات عديدة، فقد وقعتُ الآن مغشيًا عليّ[٩]، وبقيت كذلك حوالي الساعة. وإنني إذ أكتب الآن قصة رحلاتي، يكون قد انقضى على عودتي الأخيرة إلى إنجلترا خمس سنوات. في السنة الأولى لم أكن أطيق وجود زوجتي أو أطفالي قريبًا مني، فقد كانت رائحتهم لا تُحْتَمل، وكذلك لم أكن أستطيع أن أراهم يأكلون في نفس الغرفة معي. وحتى الآن لا يجسرون على لَمْس طعامي أو الشرب من كأسي. كذلك لا أستطيع أن أسمح لأي منهم أن يمسك يدي. أول نقودٍ أنفقتُها اشتريتُ بها حصانين فحلين شابَّيْن، وأعددتُ لهما اسطبلاً ممتازًا. وهما وسائسهما أقرب المقرَّبين إليّ، لأن رائحة الاسطبل في السائس تنعش روحي. ويفهمني الحصانان جيدًا إذ أتحدث إليهما كل يوم لفترة لا تقل عن أربع ساعات. وهما غرباء على أي لجام أو سَرْج، وهما يعيشان معي في صداقة ومودة ووئام[١٠].

الفصل الثاني عشر

صدق المؤلف. هدفه من نشر هذا الكتاب. نقده لأولئك الرحالين الذين يحيدون عن الحقيقة. المؤلف يبرئ نفسه من أية غاية مشبوهة من الكتابة. ردّ على نقد. طريقة احتلال المستعمرات. المؤلف يمدح بلاده. تـأكيد لحق التـاج البريـطاني في امتلاك البلاد التي وصفها المؤلف وشرح لصعوبة فتحها واحتلالها. المؤلف يـودع القراء ويشرح أسلوب حياته في المستقبل. يقدم نصيحة طيبة ثم يختم الكتاب.

وهكذا قدمتُ لك أيها القارئ الكريم[١] تاريخًا صادقًا[٢] لرحلاتي خـلال ستة عشر عامًا وسبعة أشهر، وحاولت جهدي أن أهتم بالحقيقة أكثر من اهتمامي بالأسلوب المنمق والخبر المثير. ربما كان بإمكاني أن أفعل كالآخرين، فأدهشك بحكايات غريبة غير معقولـة. ولكني آثرت أن أروي وقائع عادية بأبسط طريقة وأسهل أسلوب. لكن هدفي الرئيسي هو أن أطلعك على ما حدث لا أن أسليك وأمتعك.

من السهل علينا أن نسافر إلى بلاد بعيدة قلما يزورها الانجليز أو الأوروبيون، كما أنه من السهل اختراع أوصاف لحيوانات عجيبة في البحر أو البر، لكن ينبغي أن يكون الهدف الرئيسي للرحالة هو أن يجعل الناس أكثر حكمة وأحسن سلوكًا، وأن ينور عقولهم بالأمثلة الطيبة والسيئة فيما يرويه لهم عن البلاد الأجنبية[٣].

أتمنى من أعماق قلبي أن يُسَنّ قانون يُلْزم كل رحالة قبل أن يُؤْذَن له بنشر رحلاته، أن يُقْسِمَ أمام اللورد رئيس القضاة أن كل ما ينوي نشره صحيح كل الصحة حسب علمه. حينذاك لا يمكن التدليس على الناس كما يحصل في العادة من قِبَل بعض الكُتّاب الذين يفرضون على القارئ الغافل أشنع الأكاذيب والأخبار المزيفة لكي يروج كتابهم بين جمهور القراء. لقد قرأت العديد من كتب الرحلات حين كنتُ غِرًّا واستمتعت بها كثيرًا. لكني بعد أن زرت معظم أجزاء الكرة الأرضية، واكتشفت بعيني ما ينفي الكثير من خرافات تلك الكتب، صرت أشمئز كثـيرًا من هذا النوع من المقروءات وأستنكر أن أرى هذا الاستغلال الوقح للناس الصادقين المصدِّقين. ولهذا، وبعـد أن طاب لمعارفي أن يظنوا أن كتابي قد لا يكون غير مقبول في بلدي، ألزمت نفسي بالمبدأ التالي: أن لا أحيد عن الحقيقة وأن أتمسك بها بحزم، ولا يمكن أبدًا أن يغريني شيء بتحريفها طالما بقيتُ أذكر

محاضرات وقدوة سيدي النبيل ورفاقه من السادة **الهوينهم** الأماجد الذين طالما تشرفت بالاستماع إليهم.

إن كان القدر القاسي قد كتب على سينون الشقاء
فإنه لا يمكن أن يجعله أيضًا من أهل الكذب والرياء[٤].

أعرف جيـدًا أن الكتابات التي لا تتطلب عبقرية فذة، أو علمًا واسعًا، أو أية موهبة أخرى سوى ذاكرة جيدة ومذكرة دقيقة لا تعود على صاحبها بالشهرة، وأعرف أيضًـا أن كُتّاب الرحلات، مثل مؤلفي القواميس، سرعان ما يغرقون في بحر النسيان تحت وطأة من يأتون بعدهم والذين يطفون على السطح. وإنه لأمر كبير الاحتمال أن الرحالين الذين سيزورون فيما بعد البلاد الموصوفة في كتابي هذا، قد يكتشفون أخطائي (إن كانت هناك أخطاء) أو يضيفون إلى ما اكتشفتُ اكتشافات عديدة جديدة، فتخبو شهرتي وتتألق شهرتهم، ويحتلون مكاني، وينسى العالم أنه عاش مؤلف اسمه **جلفر**. ولو كنت أكتب للشهرة وحصل هذا الأمر، لتألمت ألمـا شديدًا حقًا. لكن بما أن هدفي الوحيد هو **المصلحة العامة**، فإنني لا يمكن أن أحزن كل الحزن. من منا يقرأ عن الفضائل التي رأيتُها في **بني الهوينهم** الأماجد وذكرتُها هنا، لا يخجل من مفاسده ومخازيه، ولا سيما أنه يعتبر نفسه الحيوان العاقل المهيمن في بلاده؟ ولن أقول شيئًـا عن تلك البلاد البعيدة التي يسيطر عليها **بنو اليـاهو**، ولا سيـما بلاد العمالقة الذين هم أقل **بني الياهو** فسادًا وشرًا، والذين نسعد كثيرًا لو طبقنا مبادئهم في الأخلاق وقواعدهم في الحكم. لكني لن أسهب أكثر من هذا، وأحرى بي أن أترك القارئ الحكيم لآرائه وتطبيقاته.

إن سروري كبير لأن كتابي هذا لا يمكن أن ينال منه النقاد. أية انتقادات أو اعتراضات يمكن أن توجَّه إلى كاتب لا يروي إلا الوقائع العادية التي حدثت في بلاد بعيدة جـدًا وليست لنا فيها أية مصالح تجارية أو سياسية؟ لقد حرصتُ على أن أتجنب كل خـطأ يُتَّهم الكتاب العـاديون كثـيرًا بالوقوع فيه، ويكون اتهامهم عادلًا. وبالإضافة إلى ذلك، فأنا لا أتدخل بأي حزب، وأكتب دون تحمس أو تحيز أو نية سيئة نحو أي إنسان أو مجموعة من الناس أيًا كانوا. إنما أكتب لأنبل غاية، وهي أن أعلّم البشر وأنورهم وأرشدهم، لأنني أزعم لنفسي، دون أي تجاوز لمبدأ التواضع، بشيء من التفوق عليهم بسبب الفوائد التي اكتسبتُها بواسطة التحدث طويلًا مع أكثر **بني الهوينهم** حكمة وفضلًا وخلقًا. ولستُ أكتب بقصد الفوز بربح أو شهرة. ولم أسمح لنفسي بتدوين كلمة واحدة يمكن أن يكون فيها شيء من الهمز أو اللمز، أو تنطوي على إساءة لأحد. وهكذا آمل أن بوسعي أن أعلن نفسي بحق، مؤلفًا لا غبار عليه البتة، ولن تستطيع زُمَر المرجفين من أصحاب الرد والنقد، والملاحظة والفكر، والكشف والتعليق، أن يجدوا ضده مادة يمارسون بها مواهبهم.

أعترف أنه قد قيل لي همسًا، إنه كان لزامًا عليَّ بحكم واجبي كمواطن في **إنجلترا**، أن أقدم مذكرة إلى وزير الخارجية منذ أول عودة لي، لأن أية بلد يكتشفها مواطن تصبح ملكًا للتاج. لكني أشك أن.تكون فتوحاتنا في البلاد التي ذكرتها بسهولة فتوحات **فرديناندو كورتيز** ضد **الأمريكيين** العراة(٥). أما أهل **ليليبوت** فلا يساوون تكاليف تجهيز أسطول وجيش لإخضاعهم، ولا أظن أن من الحكمة محاولة غزو عمالقة **بروبْد نْجْناج**. ولا أعتقد أن جيشًا إنجليزيًا سيستريح في ظل جزيرة طائرة تحوم فوق الرؤوس. أما **الهوينهم** فإنهم في الحقيقة غير مُهيَّئين كما يبدو للحرب التي هي علم غريب عليهم تمامًا، ولا سيما حرب القذائف النارية. لكني لو كنت وزير دولة لما أشرتُ قط بغزوهم. ذلك أن حكمتهم، ووحدتهم وجهلهم للخوف، وحبهم لبلادهم تعوضهم عن كل نقص أو عيب في معرفتهم العسكرية. تصوروا عشرين ألفًا من هذه الخيول تقتحم جيشًا أوروبيًا، فتفرق الصفوف، وتقلب العربات وتعجن وجوه المحاربين عجنًا برفسات مروعة من حوافرها الخلفية... وبدلًا من الإشارة بغزو أبناء تلك الأمة الشجاعة ومحاولة إخضاعهم، أتمنى لو توفرت لديهم الرغبة والمقدرة على إرسال عدد كافٍ منهم لجعل أوروبا متحضرة، بواسطة تعليمنا المبادئ الأولى للشرف، والعدل، والحق والاعتدال، وحب المصلحة العامة، والصبر على الشدائد، والعفة والطهر، والصداقة، وحب الخير، والإخلاص، والوفاء، وهي كلها فضائل ومناقب، أسماؤها ما زالت محفوظة لدينا في معظم اللغات، ونجدها في كتب المؤلفين المحدثين والقدماء، وهذا ما أستطيع أن أقيم عليه الدليل من مكتبتي الصغيرة.

لكن كان لدي سبب آخر جعلني أقل حماسًا لتوسيع أملاك جلالته باكتشافاتي. الحقيقة أن لي بعض التحفظات على عدالة الملوك في الحرص على الحقوق في أمثال هذه المناسبات(٦). وعلى سبيل المثال، تدفع عاصفة مجموعة من القراصنة(٧) إلى حيث لا يعلمون. وأخيرًا يكتشف غلام البرّ من مكانه في قمة الصاري. وينزل القراصنة إلى الشاطئ للسلب والنهب. ويجدون شعبًا مسالمًا يستقبلهم بالعطف والترحاب. فيعطون البلد اسمًا جديدًا، ويستولون عليها رسمياً باسم ملكهم، وينصبون لوحة خشبية متعفنة أو حجرًا كنصب تذكاري، ويقتلون دستين أو ثلاثًا من أهل البلاد، ويعتقلون مثلهم ويحملونهم معهم بالقوة كعيِّنات، ويعودون إلى وطنهم، ويحصلون على عفو من الملك. وهنا يبدأ حكم جديد يكتسبه مغامر يحمل لقب حاكم **ذي حق إلهي**. وتُرْسَل السفن في أول فرصة. ويُطْرَد أهل البلاد من وطنهم أو يُذْبحون، ويعذَّب أمراؤهم لكي يكشفوا عما لديهم من ذهب(٨). وتباح للغزاة كل الأفعال اللاإنسانية فيستبيحون كل الحرمات. وتفوح من الأرض رائحة دماء أهل البلاد. وهذه المجموعة من سفاكي الدماء المستخدمين في مثل هذه الحملة المقدسة يكوِّنون مستعمرة جديدة، هدفها تحضير شعب بدائي بربري يعبد الأوثان، وهدايته إلى المسيحية(٩).

وأعترف أن هذا الوصف لا ينطبق أبدًا على الأمة البريطانية[١٠] التي يمكن أن يكون حكامها قدوة للعالم كله في الحكمة والحرص والعدل لدى نشر المستعمرات. وفي تبرعـاتهم السخية لنشر الدين والعلم، واختيارهم لرجال الدين الأتقياء الأكفاء للتبشير بالمسيحية ونشرها، وحرصهم على تزويد هذه المقاطعات الجديدة بأناس من المملكة الأم معروفون بحسن سيرتهم وحسن حديثهم، والتزامهم القوي بنشر العدل بتزويد الإدارات المدنية في جميع المستعمرات، برجالات ذوي كفاءات عالية ونزاهة لا تعرف الفساد، ويتوجون ذلك كله بإرسال حكام من أكثر الناس فضلاً ويقظة ولا هَمّ لهم سوى سعادة الشعب الذي يترأسونه وشرف الملك مولاهم.

لكن بما أن البلاد التي وصفتُها لا تبدو فيها رغبة في أن تفتّح وتُستعبَد، ويُقْتَل أهلها أو يُطْرَدون من قبل المستعمرين، كما أنه ليس فيها الكثير من الذهب أو الفضة أو السكر أو الطباق، فقد تصورتُ أنها لا تصلح هدفًا لحماستنا أو لقوتنا وبأسنا أو لاهتمامنا. وعلى كل حال، إذا كان يطيبُ لمن يعنيهم الأمر أكثر أن يروا رأيًا آخر، فأنا على استعداد لأن أُقْسِمْ، حينما يُطْلَب ذلك مني قانونيًا، إنه لم يَزُرْ تلك البلاد أوروبي قبلي قط، هذا إذا كان علينا أن نصدق أهل تلك البلاد.

أما بالنسبة لتملُّك تلك البلاد باسم مليكي، فهذه شكليات لم تخطر لي على بال. ولو خطرتْ على بالي، فإن وضعي وأحوالي فيها كانت تقضي أنه من الحكمة ومن أجل الإبقاء على حياتي أن أؤجّل ذلك حتى تحين فرصة أفضل.

وهكذا بعد أن شرحتُ ردّي على الاعتراض الوحيد الذي يمكن أن يثار ضدي كرحـالة، أرجو من القارئ الكيِّس أن يسمح لي بتوديعه الوداع الأخير، كي أعود لأستمتع بأفكاري وتأملاتي في حديقتي الصغيرة في ريدريف، ولأمارس دروس الفضيلة الرائعة التي تعلمتُهـا من الهوينهم، ولأعلم بني الياهو في عائلتي بقدر ما أجد لديهم رغبة في التعليم، ولأُكْثِر من النظر إلى وجهي في المرآة لعلّي أعوّد نفسي بمرور الزمن على تحمل رؤية المخلوقات البشرية، ولأبكي على بهيمية الهوينهم في بلادي، ولكي أعاملهم دائمًا باحترام إكرامًا لسيدي النبيل وعائلته وأصدقائه ولكل جنس الهوينهم الذي تتشرف الخيل عندنا بأنها تشبهها في كل قسماتها رغم أن عقولها وتفكيرها قد تدنت وانحطت.

بدأتُ في الأسبوع الماضي بالسماح لزوجتي بأن تجلس معي على العشاء في الطرف البعيد من مائدة طويلة، وأن تجيب (لكن بإيجاز شديد) على الأسئلة القليلة التي أوجهها لها. ومع ذلك، ولأن رائحة الياهو ما تزال منفرة جـدًا، فإنني أُبْقي أنفي مغلقًا بأوراق نباتات ذكيـة الرائحـة كأوراق اللافندر والطباق. ومع أنه من الصعب على عجوز مثلي أن يتخلص من عادات قديمة متأصلة، فإنني لست يائسًا من أنني سأستطيع ذات يوم أن أتحمل صحبة أحد جيراني من بني الياهو دون أن تراودني المخاوف التي ما زالت تسيطر علي بأنه سيعضني بأسنانه أو يؤذيني بمخالبه.

وعمومًا، فإن رضاي عن بني **الياهو** قد لا يكون صعب المنال لو أنهم اكتفوا فقط بتلك المفاسد والمخازي والحماقات التي وُجِدت فيهم بالفطرة. وإنه لا يغضبني أبدًا أن أرى محاميًا أو نشالاً أو جنديًا أو مهرجًا أو لوردًا أو مقامرًا أو سياسيًا، أو ابن حرام، أو طبيبًا، أو شاهد زور، أو راشيًا، أو خائنًا أو ما إلى ذلك. هذا كله من طبيعة الأشياء، لكني حين أرى مغفلاً كله عاهات وعلل جسدية وعقلية يتيه غرورًا وكبرياء، فإن كيل صبري يطفح، ولن أفهم قط كيف يمكن لمثل ذلك الحيوان وهذه الرذيلة أن يتفقا ويتعايشا معًا. إن الهوينهم الحكماء الفضلاء الذين يتحلون بكل المكارم التي تزين المخلوق العاقل ليس لديهم في لغتهم اسم لهذه الرذيلة، ذلك أن لغتهم تخلو من أية لفظة تعبّر عن أي شر سوى تلك الألفاظ التي يصفون بها الخواص البغيضة لبني **الياهو** عندهم. لكن ليس بين هذه الألفاظ ما يعبّر عن مفهوم الكبرياء والغرور، لأنهم لم يفهموا فهمًا كاملاً **الطبيعة البشرية** كما تعكس نفسها في البلاد الأخرى التي يهيمن فيها ذلك الحيوان. لكن لأني أكثر منهم خبرة، فقد استطعت أن ألاحظ بوضوح بعض ملامح هذه الرذيلة في أولئك **الياهو** المتوحشين.

لكن **الهوينهم** الذين يعيشون حسب حكم العقل وتوجيهه، لا يفخرون أو يغترون بالخلال الحميدة التي يمتلكونها كما لا ينبغي لي أن أفخر أو أغْترّ لأن لي ساقًا وذراعًا. ما من عاقل يتباهى بذلك رغم أنه يكون تعيسًا بائسًا لو فقدهما. وإنما أقف طويلاً عند هذا الموضوع بسبب رغبتي في أن أجعل مجتمع **الياهو الانجليز** مجتمعًا ليس منفرًا أو بغيضًا. ولهذا فإنني أرجو من لديهم ذرة من هذه الرذيلة السخيفة أن لا يتجرءوا على الظهور أمامي(١١).

انتهى بعون الله

هوامش الترجمة

لقد استعنّا في وضع هذه الهوامش بالهوامش التي أوردها «بول تيرْنَرْ» في الصفحات ٣٠٨ ـ ٣٧٩ من طبعة أوكسفورد ١٩٨٠ وتلك التي أوردها «بيتَرْ دِكْسون» و«جون تشوكَرْ» في الصفحات ٣٤٧ ـ ٣٦٠ من طبعة «بنجوين» ١٩٨٢. ويمكن تصنيف الهوامش التي وردت في الطبعتين ضمن صنفين:

الصنف الأول لغوي صرف ويعطي المرادفات الانجليزية الحديثة لبعض الكلمات أو العبارات الإنجليزية الواردة في **رحلات جلفر** والتي كانت مفهومة في عصر «سويفت» وأصبحت، بفعل عوامل التطور اللغوي، غير مفهومة لدى الإنجليز في القرن العشرين. هذه الهوامش لم نوردها هنا ولكننا استعنّا بها فقط في عملية ترجمة **رحلات جلفر** إلى اللغة العربية بحيث تكون ترجمتنا أمينة ومُؤَدِّيةً، قدر الإمكان، للمعاني التي أرادها «سويفت».

هوامش الصنف الثاني هي هوامش «معلوماتية» ـ إن جاز لنا استخدام هذا الوصف. ذلك أنها تقدم لنا معلومات تلقي ضوءًا على قضية أو أخرى من قضايا الكتاب، مثل قضية المصادر الأدبية أو الفكرية أو الفلسفية التي أوحت للكاتب «سويفت» بحادثة أو فكرة أو عبارة أدخلها في الكتاب، أو قضية الأحداث التاريخية أو السياسية أو العلمية الماضية والمعاصرة التي يشير إليها «سويفت» صراحة أو ضمنًا وبطريقة رمزية أو تقليدية أو تهكمية أو غير ذلك من أساليب الإشارة في الأدب، أو قضية الأحداث الهامة في حياة «سويفت» وعلاقاته الشخصية التي تنعكس في مكان أو آخر من الكتاب.

وقد حرصنا على إيراد معظم هوامش الصنف الثاني هذه، وعلى الأخص تلك التي نعتقد ونأمل أنها ستكون مفيدة للقراء والدارسين والباحثين العرب في التوصل إلى فهم أفضل لهذا الكتاب. لكن ترجمتنا للهوامش التي اخترناها ليست دائمًا ترجمة حرفية، بل هي ترجمة بتصرف: أحيانًا حذفنا منها وأحيانًا أضفنا إليها. وقد كان هدفنا ودليلنا في اختيار الهوامش وتصرفنا في ترجمتها هو دائمًا فائدة القارئ العربي.

كذلك حرصنا في جميع الهوامش التي اخترناها وترجمناها على إيراد مصادر المعلومات التي استقى منها «تيرنَرْ» و«دِكْسون» و«تشوكَرْ» كما أوردنا مصادر المعلومات التي استقينا نحن منها فيما أضفناه.

ونرجو أن نكون قد اهتدينا إلى الاختيار الصحيح والترجمة الأمينة والإضافات المناسبة.

ABREVIATIONS

AM	*Atlantic Monthly.*
Bacon	Works of Francis Bacon, ed. J. Spedding, R.L. Ellis, D.D. Heath, 1857-74.
Bonner	W.H. Bonner, *Captain William Dampier,* 1934.
Buckley	M.W. Buckley, *FL,* pp. 270-8.
Case	A.E. Case, *Four Essays on GT,* 1958.
Clark	P.O. Clark, *SP,* 1, 1953, 592-624.
Corr.	*Correspondence of JS,* ed. H. Williams, 1965.
DRN	*De Rerum Natura.*
Eddy	W.A. Eddy, *GT: A Critical Study,* 1963 (rptd. from 1923).
Ehrenpreis	1 I. Ehrenpreis, *MLN,* Ixx, 1955, 95-100.
	2 *PMLA,* Ixx, 1955, 706-16.
	3 *PMLA,* Ixxii, 1957, 880-99.
	4 *REL,* iii, no. 3, 1962, 18-38.
	5 *Swift: the Man, his Works, and the Age,* 1962, 1967.
ELH	*Journal of English Literary History.*
ELN	*English Language Notes.*
ES	*English Studies.*
Exp.	*The Explicator.*
Firth	C.H. Firth, *Proceedings of the British Academy,* ix, 1919, 237-59.
FL	*Fair Liberty Was All His Cry,* ed. A.N. Jeffares, 1967.
Frantz	R.W. Frantz, *MP,* xxix, 1931, 49-57.
Gough	*GT,* ed. A.B. Gough, 1956 (rptd. from 1915).
GT	*Gulliver's Travels.*
Histoire	Cyrano de Bergerac, *Histoire comique des états et empires de la lune et du soleil,* ed. P.L. Jacob, n.d. (c. 1858).
HLQ	*Huntingdon Library Quarterly.*

JEGP	*Journal of English and Germanic Philology.*
JHI	*Journal of the History of Ideas.*
Journal	*Swift, Journal to Stella,* ed. H. Williams, 1965.
JS	Jonathan Swift.
Kaempfer	E. Kaempfer, *History of Japan,* tr. J.G. Scheuchzer, 1727.
Kelling	H.D. Kelling, *SP,* xlviii, 1951, 761-78.
Lucian	Lucian, *Satirical Sketches,* tr. P. Turner, 1968.
Lycurgus	Plutarch, *Life of Lycurgus.*
Memoirs	*Memoirs of Martinus Scriblerus,* ed. C. Kerby-Miller, 1950.
MLN	*Modern Language Notes.*
MLR	*Modern Language Review.*
MLQ	*Modern Language Quarterly.*
Mogg	F. Mogg, *Scientific American,* clxxix, 1948, 52-5.
MP	*Modern philology.*

NM1 — M. Nicolson and N.M. Mohler, in M. Nicolson's *Science and Imagination,* 1962, pp. 110-54.
NM2 — M. Nicolson and N.M. Mohler, *Annals of Science,* ii, 1937, 405-30.
NQ — *Notes and Queries.*
OED — *Oxford English Dictionary.*
PMLA — *Publications of the Modern Language Association of America.*
Poems — *Poems of JS,* ed. H. William, 1958.
Pons — É. Pons, *Mélanges* offerts à *M. Abel Lefranc,* 1936, pp. 219-28.
PQ — *Philological Quarterly.*
Prose — *Prose Writings of JS,* ed. H. Davis, 1959-66.
PTA — *PTRS Abridg'd and Dispos'd under General Heads,* ed. H. Jones (vols. iv, v: 1700-20), 1721; ed. J. Eames and J. Martyn (vol. vi: 1719-33), 1734.
PTRS — *Philosophical Transactions of the Royal Society.*
Quinlan — M.J. Quinlan, *PQ,* xlvi, 1967, 412-17.
Quintana — R. Quintana, *Mind and Art of JS,* 1953 (rptd. from 1936).

Rabelais — Rabelais, *Gargantua and Pantagruel,* tr. J.M. Cohen, 1955.
REL — *Review of English Literature.*
RES — *Review of English Studies.*
Scott — *Prose Works of JS,* ed. Temple Scott, 1897-1908.
SN — *Satire Newsletter.*
SoR — *Southern Review.*
SP — *Studies in Philology.*
SR — *Sewanee Review.*
Thackeray — W.M. Thackeray, *English Humourists of the Eighteenth Century,* 1853.
TLS — *Times Literary Supplement.*
TSE — *Tulane Studies in English.*
TSLL — *Texas Studies in Literature and Language.*
Utopia — Sir Thomas More, *Utopia,* tr. P. Turner, 1965.
UTQ — *University of Toronto Quarterly.*
Voyages — *Dampier's Voyages,* ed. J. Nasefield, 1906.
Williams — *GT,* ed. H. Williams, 1926.
ZAA — *Zeitschrift für Anglistik und Amerikanistik.*

Gilver for Laurice C14, 10 Times Hind

هوامش الترجمة

إعلان

(١) أضيف هذا الإعلان أول مرة في طبعة فوكْنَرْ (Faulkner) التي صدرت عام ١٧٣٥.

(٢) «رسالة السيد سيمبسون إلى القبطان جلفر»: في هذا النص خطأ مطبعي، والعبارة الصحيحة هي: «رسالة القبطان جلفر إلى قريبه سيمبسون».

(٣) الإضافات: إشارة إلى الإضافات التي أدخلها الناشر موط (Motte) في الطبعة الأولى للكتاب التي صدرت عام ١٧٢٦. ومن الواضح أن موط كان يهدف إلى تجنب الاصطدام بسلطات رقابة المطبوعات حينذاك.

(٤) «يحيي ذكرى المرحومة... برئيس للوزراء»: يتفق النقاد والشراح أن الأوصاف القبيحة لرئيس الوزراء، والواردة في الفصل السادس من الجزء الرابع، كانت ذمًّا موجهًا إلى والْبولْ (Walpole) رئيس الوزراء في إنجلترا سنة صدور الطبعة الأولى من الكتاب (١٧٢٦). وقد تصرف الناشر موط بحكمة حين نسب هذا الذم إلى الماضي وأضاف نصًا طويلًا فحواه أن الملكة آن (Anne) كانت ملكة طيبة تباشر الحكم بنفسها ولا تعتمد على رئيس للوزراء، وأن من جاء قبلها من الحكام كانوا يعتمدون على رؤساء وزراء سيئين جدًا وتنطبق عليهم الأوصاف القبيحة التي ذكرها جلفر.

(٥) «سيد موثوق جدًا»: ربما كان الشخص المشار إليه هو تْشارْلزْ فورْدْ الذي كانت لديه نسخة من رحلات جلفر وكتب في هوامشها تصحيحات طفيفة كما كتب في الصفحات البيضاء فيها تصحيحات رئيسية. وهذه النسخة موجودة الآن في متحف فيكتوريا وألبرت.

رسالة من القبطان جلفر إلى قريبه سيمبسون

(١) أضيفت هذه الرسالة أول مرة في طبعة فوكْنَرْ عام ١٧٣٥، وربما كتبت خصيصًا لهذه الطبعة.
الاسم «جلِفْر» يوحي أن صاحبه ينخدع بسهولة. الاسم الكامل له هو «لْمِويلْ جَلِفْر». الاسم الأول «لْمِويل» يعني «منذور ومكرّس لله». لكن سويفت يريد، كما يبدو، أن يتهكم على حامل هذا الاسم الذي قلما يذكر الله في أقواله أو أفعاله. كذلك يسخر «سويفت» من «جلفر» إذ يجعله يكرر الزعم بأنه حريص على الصدق في حين أنه يكذب باستمرار. ومما يؤكد هذه السخرية العبارة اللاتينية المكتوبة تحت صورة «جلفر» في طبعة ١٧٣٥. هذه العبارة هي "Splendide Mendax" وتعني «كذاب كبير».
أما الاسم «سيمبسون» فهو الاسم المستعار الذي اتخذه «سويفت» لنفسه حين كان يفاوض الناشر «موط» حول طباعة رحلات جلفر. وربما كان الهدف من اختيار هذا الاسم هو الإيحاء بوجود قرابة بين «جلفر» والقبطان «ولْيم سيمبسون»، وهو مؤلف وهمي آخر لكتاب صدر عام ١٧١٥ بعنوان **رحلة جديدة إلى جزر الهند الشرقية**، ومادة هذا الكتاب هي أيضًا مسروقة من كتاب رحلات سابق:
لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع انظر R.W. Frantz, **HLQ (Huntington Library Quarterly)**, i (1938), 329-334.

(٢) **إحدى الجامعتين**: المقصود هنا جامعة أوكسفورد وجامعة كامبردج.

(٣) **دامبيير**: هو «وِلْيَم دامبيير» (١٦٥٢ ـ ١٧١٥) الذي كان قرصانًا ومكتشفًا ومؤلفًا لعدد من كتب الرحلات أهمها:

* **A New Voyage Round the World 1697);**
* **Voyages and Descriptions (1699);**
* **A Voyage to New Holaand (1703).**

(٤) **الفقرة الخاصة بالمرحومة صاحبة الجلالة الملكة «آنْ»**.
انظر الهامش رقم ٤ تحت إعلان.

(٥) **سيدي الحصان الهوينهم**: الحصان الذي عاش جلفر في بيته وتحت رعايته حين عاش في بلاد الخيول الناطقة، وذلك في الجزء الرابع من رحلات جلفر.

(٦) **أقول الشيء الذي لم يكن**: أكذب. يزعم «جلفر» أن مجتمع الخيول الناطقة لا يعرف الكذب وأنه لا توجد في لغة تلك الخيول كلمة تعبّر عن الكذب. وأقرب عبارة لديهم للتعبير عن الكذب هي **قول الشيء الذي لم يكن**.

(٧) **لا أعرف العمل الذي سطرته**:
كان «سويفت» منزعجًا جدًا من هذه التغييرات، ولهذا كتب خطاب الاحتجاج في ٣ يناير ١٧٢٧ وأرسله إلى صديقه «فورد» الذي قدّمه بدوره إلى الناشر «موط».

(٨) **الياهو**: الاسم الذي تطلقه الخيول الناطقة على الجنس البشري.

(٩) **هؤلاء**: هم بنو الهوينهم أي الخيول. **أولئك**: هم بنو الياهو، أي البشر.

(١٠) سميثفيلد: ساحة مكشوفة خارج الأسوار الغربية الشمالية لمدينة لندن، وقد تم فيها حَرْق بعض الزنادقة في القرن السادس عشر.

(١١) قصائد الهجاء والشتم بعد صدور رحلات جلفر نشر بعض الشعراء في لندن بعض القصائد الفكاهية أو الهجائية يسخرون فيها من «جلفر». مثال ذلك:

Two Lilliputian Odes: The First on the famous Engine with which Captain Gulliver extinguish'd the Flames in the Royal Palace... (1727).

(١٢) مفاتيح لرموز الكتاب: مثال ذلك:

Lemuel Gulliver's Travels.... Compendiously methodized... A Key... By Signor Corilini, 1726.

«السنيور كوريليني» هنا هو الاسم الأدبي لشخص كان اسمه الحقيقي «إدْمونْد كيرْل».

(١٣) أجزاء يُزْعَم أنها محذوفة: مثال ذلك ما يلي:

Memoirs of the Court of Lilliput. Written by Captain Gulliver, Containing an Account of the Intrigues and some other particular Transactions of that Nation, omitted in the two Volumes of his Travels (1727).

(١٤) خلط التواريخ:

يرى «آرثر كيس» (Case, 1958: 61-8) أن تسلسل التواريخ في رحلات جلفر صحيح بشكل عام. لكن هناك بعض الأخطاء التي قد لا تكون كلها أخطاء مطبعية وربما لا يكون الناشر مسؤولاً عنها كلها.

(١٥) المخطوط الأصلي قد تلف كله:

يرى «آرثر كيس» (Case, 1958: 7) أنه إذا كان المخطوط الذي أُعْطِي للناشر بخطّ يد «سويفت»، فقد يكون الناشر «موط» قد أتلفه عمدًا كي لا يكون وثيقة إدانةٍ ضده لدى السلطات الحكومية.

(١٦) يُخَطّئون اصطلاحاتي البحرية ويعتبرون الكثير منها... لم يعد مستعملاً:

معظم الاصطلاحات البحرية التي استعملها «سويفت»، ولا سيما تلك الواردة في وصف العاصفة في الفصل الأول من الجزء الثاني، مأخوذة من كتاب صدر أول مرة عام ١٦٦٩، عنوانه **Mariner's Magazine** ومؤلفه «صامويل ستيرمي» (Samuel Sturmy)

انظر: (Eddy, 1963: 143-4) *

* (Williams, 1968: 469-70).

(١٧) يوتوبيا: اسم جزيرة وهمية اخترعه «توماس مور» في كتابه الشهير الذي يحمل عنوان **Utopia**. صدر هذا الكتاب باللغة اللاتينية عام ١٥١٦ ثم تُرْجِم فيها بعد إلى اللغة الإنجليزية واللغات الأوروبية والعالمية وأصبح كتابًا عالميًا. يصور «توماس مور» في هذا الكتاب مجتمعًا مثاليًا يتكون من حكومة رشيدة وأمة سعيدة، كلمة يوتوبيا مشتقة من اللغة الاغريقية ومعناها «لا مكان» أو «المكان السعيد».

لمزيد من المعلومات عن هذا الكتاب القيم وعن كاتبه، انظر:

* توماس مور، يوتوبيا، ترجمة وتقديم د. أنجيل بطرس سمعان (دار المعارف بمصر: ١٩٧٤).

(١٨) الحقيقة يقتنع بها القارئ حالما يراها:

يعبّر هذا القول عن واحدة من العقائد أو المسلّمات في مجتمع الخيول الناطقة كما يصفه «سويفت» في الفصل الثامن من الجزء الرابع في رحلات جلفر.

(١٩) الحيوانات التعيسة: المقصود بهذه التسمية هم أعداء «سويفت» من النقاد.

من الناشر إلى القارئ

(١) كانت هذه الكلمات «مقدمة» للطبعة الأولى لكتاب **رحلات جلفر** التي صدرت عام ١٧٢٦.

(٢) **بانْبِري**: بلدة عُرِفَتْ بانتماء أهلها للمذهب «البيوريتاني»، ولا تزال توجد فيها شواهد قبور تحمل اسم عائلة «جلفر» في مقبرة كنيسة «سانت ماري». ويوجد في سجلات الأبرشية ذكْرٌ لدفن شخص اسمه «صامويل جلفر» في ١٧ أغسطس ١٧٢٨. وقد كان صامويل هذا، مِثْل «لِمويل جلفر»، صاحب فندق اسمه فندق «الدولفين» وموقعه في الجهة الجنوبية من سوق الخيل في تلك البلدة. واسم الفندق يوحي أن لصاحبه علاقة بحياة البحر.

(٣) **كان معروفًا... بالحرص على الصدق**: الناشر يكرر هنا ما يكرره «جلفر» من حيث حرصه على الصدق. وهذا تكرار للسخرية التي اشتهر بها «لوسيان» صاحب كتاب **تاريخ صادق** الذي يروي حكايات عن رحلات مليئة بالأعاجيب والأكاذيب. وقد كان هذا الكتاب واحدًا من مصادر «سويفت» الأدبية.

(٤) **ضعف حجم هذا الكتاب**: هذا القول تقليد ساخر لمزاعم القرصان ومؤلف الرحلات «وليم ذامبير» الذي ادَّعى أنه حذف من كتابه **رحلة جديدة حول العالم** (١٦٩٧) مصطلحات بحرية كثيرة كي يصبح مفهومًا للقراء من أهل البرّ الذين لا يعرفون حياة البحر، كما ادَّعى أن هذه المحذوفات تملأ كتابًا كاملًا نشره عام ١٦٩٩ تحت عنوان **رحلات وأوْصاف** **Voyages and Descriptions**.

انظر: (Bonner, 1934: 162-3) *.

الجزء الأول: رحلة إلى ليليبوت

الجزء الأول: الفصل الأول

(١) **ليليبوت: Lilliput**:

يتفق النقاد على أن المقطعين الأولين من هذه الكلمة يوحيان بمعنى «صغير: Little». أما المقطع الأخير «Put» فقد فُسِّر تفسيرات متعددة. يقول «مورلي» في مقدمته لطبعة **رحلات جلفر** عام ١٨٩٠ أن أحد المعاني الشائعة لكلمة "Put" في عصر «سويفت» هو «شخص أحمق». (H. Merley, ed. G.T., 1890: 17-18). ويرى «سيرونسي» أن الكلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية «Puto» وتعني «يفكر»، وأن «ليليبوت» تعني «بلاد الناس ذوي العقول الصغيرة والأجسام الصغيرة». انظر (C.C. Seronsy, NQ, ccii, 1957: 471). ويرى «بيكَرْ» أن «put» هنا تعني «مكان» وأن معنى «ليليبوت» هو «المكان الصغير». انظر: (S. Baker, NQ, cci, 1956: 477-479).

(٢) **أرسلني والدي... للدراسة في... كامبردج**:

في عصر «سويفت» كان السنّ المعتاد لدخول الجامعة هو السادسة عشرة. لكن «سويفت» دخل كلية ترينتي (Trinity College) في «دبلن» وهو في الرابعة عشرة. كذلك يرى «بلوك» (E.A. Block, **Modern Language Notes,** LXXVIII, 1953, 474-5) أن اختيار «سويفت» لجامعة «كامبردج» هنا ينطوي على الأفكار التالية: إن جلفر إنجليزي من أواسط الناس في عصره، فهو الابن **الأوسط** في أسرته التي عاشت في وسط إنجلترا، وتعلم في جامعة كانت معروفة بولائها للمذهب «البيوريتاني» الذي كانت تعتنقه **الطبقة الوسطى**.

(٣) **ليدن**: مدينة هولندية كانت فيها كلية للطب مشهورة، ولذلك كان الكثيرون من الطلبة الأجانب يفِدون إليها لدراسة الطب فيها.

(٤) **سْوَالُو**: اسم لسفينتين حقيقيتين مذكورتين في السجلات من ١٧٠٥ إلى ١٧٢١. وكلمة «سْوالُو» تعني عصفور الدوري.

انظر: (R. Quintana, 1962: 412).

(٥) **تزوجتُ السيدة ماري بيرتون... وحصلتُ على أربعمائة جنيه مهرًا**:

ربما كانت هذه العبارة سخرية مقنّعة ضد «دانيال ديفو»، وهو كاتب معاصر لـ«جوناثان سويفت» ومنافس له. وكان «ديفو» قد بدأ حياته كتاجر ملابس، ثم تزوج فتاة غنية وارثة وبدَّد المهر الذي جاءت له به وقيمته أربعة آلاف جنيه، وحُبِس لمدة خمسة أشهر في سجن «نيو جِيتْ»: "Newgate".

انظر: (J.R. Moore, **Notes and Queries,** CLXXVIII, 1940, 7).

ومما يجدر ذكره أيضًا أن كلمة «سيدة: Mrs» كانت تتقدم أسماء المتزوجات والعازبات على حد سواء.

(٦) **السفينة أنْتيلوب... أقلعنا... في الرابع من مايو ١٦٩٩**:

يذكر «دامبيير» أنه التقى في ٣ يونيو ١٦٩٩ بالسفينة «أنتيلوب» بالقرب من رأس الرجاء الصالح.

انظر: (Bonner, 1934: 168).

(٧) **أثقل على القارئ**: عبارة يكررها جلفر كثيرًا. كذلك هي من العبارات المفضلة لدى «دامبيير» الذي يكررها في كتبه. ويبدو أن «سويفت» كان هنا يسخر من الرحالة «دامبيير».
انظر: (Bonner, 1934: 164).

(٨) **أرض ڤان ديمن**: كانت هذه التسمية تَرِدُ في خرائط القرن الثامن عشر للدلالة على مكانين هما (١) الجزء الشمالي الغربي من أوستراليا (٢) تاسمانيا. وإذا كان المقصود هو «أوستراليا» فإن موقع ليليبوت يجب أن يكون على خط العرض ١٥ جنوبًا وليس خط العرض ٣٠ كما هو مذكور في نصوص الكتاب. أما إذا كان المقصود هو «تاسمانيا» فإن موقع ليليبوت يجب أن يكون داخل قارة أوستراليا.
يناقش «كيس» (Case, 1958: 50-61) جغرافية الكتاب رحلات جلفر وينتهي إلى أن الحقائق الجغرافية لدى «سويفت» صحيحة إلى حد ما، وأن الأخطاء في الخرائط هي أخطاء رسامي الخرائط الذين اعتمد عليهم الناشر «موط».

(٩) **ثلاثمائة قدم**: نصّ الكتاب بقول "half a cable's length" كلمة "cable" هنا كانت اصطلاحًا بحريًا يعني مسافة ستمائة قدم. انظر: (Turner, ed., 1980: 310, Note 10).

(١٠) **حينما استيقظتُ كان ضوء النهار قد بزغ...**
الأحداث التي تلي هذه العبارة ربما كانت مستوحاة من القصة التي يوردها «فيلو سْتْراتُس» في كتابه (Eikones) عن هجوم الأقزام على «هرقل» وهو نائم. انظر: (Eddy, 1963: 53, 76-7).

(١١) **لا يزيد طوله عن ست بوصات**:
مقاييس أبعاد الناس والحيوانات والأشياء في ليليبوت تساوي ١٢/١ منها في العالم العادي. أما المقاييس في بلاد العمالقة (في الجزء الثاني من رحلات جلفر) فهي تساوي ١/١٢ منها في العالم العادي.
مثال: إذا كان معدل طول الإنسان العادي هو ٦ أقدام فإن معدّل طول القزم في ليليبوت هو نصف قدم (ست بوصات)، ومعدّل طول العملاق هو ٧٢ قدمًا.
كذلك فإن حجم الإنسان يساوي ١٢ × ١٢ × ١٢ = ١٧٢٨ ضعفًا من حجم الأقزام، أما العملاق فحجمه هو ١٧٢٨ ضعفًا من حجم الإنسان العادي.
هذا ويشير «موج» (F. Mogg, **Scientific American**, CLXXIX, 1948, 52-5) إلى مجموعة من الصعوبات البيولوجية التي تنطوي عليها أوصاف «سويفت» للأقزام، ومنها على سبيل المثال أن حجم دماغ الواحد من سكان ليليبوت يحتم أن يكون ذكاؤه أقل من ذكاء القرود من نوع الشيمبانزي.

(١٢) **هيكينَهْ ديغُل**: يختلف الشراح في تفسير العبارات التي اخترعها «سويفت» ونسبها إلى لغة أهل «ليليبوت». «پونز» مثلاً يرى أن معنى هذه العبارة هو «أوه! ما أكبر فمه». انظر (E. Pons, 1936: 225-6). أما «كلارك» فيرى أن معناها هو: «يا للشيطان». انظر: (Clark, 1953: 600).

(١٣) **توجلو فوناك**: عبارة «ليليبوتية» أخرى. يرى پونز (Pons, 1936: 227) أنها تعني «هيا اقتلوه»، بينما يقول «كلارك» إنها تعني «أطلقوا عليه وابلاً من السهام» (Clark, 1953: 600).

(١٤) **لانْجْرو ديهُلْ سَانْ**: عبارة «ليليبوتية» تعني حسب تفسير «كلارك» (Clark, 1953: 601) «اهربوا من الإنسان الوحش» أو «اهربوا من الإنسان الشيطان». لكن «بول تيرنَرْ» (Turner, ed. 1980, 311) يرى أن هذا التفسير لا يتفق مع سياق النص، ويقترح تفسيرًا آخر هو: «اقطعوا الحبال» أو «أتيحوا له أن يحرك رأسه».

(١٥) **بوراك ميڤولا**: يترجمها «پونز» (Pons, 1936: 227): «سيحطم السكير الكأس»، أما كلارك (Clark, 1953: 601) فيترجمها إلى «إنه يرمي الأقداح».

(١٦) **پيبْلومْ سيلانْ**: يترجمها «كلارك» (Clark, 1953: 602-3) إلى: «اهربوا من المطر».

(١٧) **كان معبدًا قديمًا**: ربما كان «سويفت» يشير هنا إلى وِسْتْمِنْسْتَرْ هول (Westminster Hall) حيث حُكِم على الملك شارْلْز الأول بالإعدام. وفي خطبته الدينية بعنوان «حول استشهاد الملك شارلز الأول» التي ألقاها في ٣٠ يناير

١٧٢٦، أشار «سويفت» إلى هذا الإعدام ست مرات ووصفه بأنه جريمة قتل واغتيال. انظر:
H. Davis, ed **Prose Writings of Jonathan Swift,** (1959-1966), vol. IX, 219-31.

الجزء الأول: الفصل الثاني

(١) **بعض المُفْتَرِين من أعدائي:**
يبدو أن هذه الملاحظة ليست صادرة عن «جلفر»، وإنما عن «سويفت» الذي اتُّهِمَتْ كتاباته السابقة، وعلى الأخص كتاب **قصة برميل A Tale of a Tub**، «بالقذارة» و«البذاءة».
انظر: C.J. Rawson, **Imagined Worlds,** ed. M. Mark and I. Gregor (1968), p. 56.

(٢) **كان أطول... بقدر عرض إظفري:**
ربما استوحى «سويفت» هذه الصورة الساخرة من قصيدة ملحمية ساخرة كتبها «جوزيف أديسون» باللاتينية ونشرها عام ١٦٩٩، وترجمة عنوانها هي: «المعركة بين الأقزام وطيور الكركي». في هذه القصيدة يصف «أديسون» زعيم الأقزام بأنه «يتفوق على كل بني جنسه بحجمه الضخم وطوله الفارع الذي يكاد يبلغ قدمين» (البيتان ٧٧ - ٧٨ من القصيدة).

(٣) **في ملامحه قوة ورجولة:** ربما كان هذا وصفًا تهكميًا للملك جورج الأول يقصد منه الإشارة الساخرة إلى جسمه السمين البشع وذوقه السخيف في اختيار ملابسه.

(٤) **شفته نمساوية** المقصود هنا الشفة السفلى المكتنزة التي اشتهر بها «آل هابسبورج» من أباطرة النمسا.

(٥) **تجاوز مرحلة الشباب:** بمقارنة مقاييس الأعمال في ليليبوت مع مثيلاتها لدى البشر العاديين فإن عمر امبراطور ليليبوت كما ذكر في النص (٢٨ سنة) يساوي عمر إنسان عادي لا يقل عن أربعين سنة [ملاحظة: سن البلوغ عندهم هو ١٥ سنة وتساوي ٢١ سنة عندنا]. أما الملك جورج الأول فكان عمره لدى صدور رحلات جلفر (عام ١٧٢٦) ٦٦ عامًا.

(٦) **جلس على العرش منذ سبع سنوات:**
يتفق معظم النقاد أن «سويفت» بدأ كتابة رحلات **جلفر** بشكل جاد عام ١٧٢١. حينذاك كان قد مضى على جلوس جورج الأول على عرش إنجلترا سبع سنوات.

(٧) **كان صوته رفيعاً لكنه واضح وفصيح:** ربما كان المقصود هو التهكم على صوت جورج الأول الذي كان ألماني الأصل، وكانت لهجته الألمانية طاغية وتجعل كلامه بالإنجليزية يكاد يكون غير مفهوم.

(٨) **وبخليط منها:** هذه ترجمة بتصرف لعبارة النص الانجليزي ﻫَﻘﻠﻌﺶ ﭬﺸﺘﻪﺵ **التي هي خليط من اللغات الإيطالية والفرنسية واليونانية والأسبانية. ويقول** «تيرنَرْ» (Turner, ed. 1980: 312, Note 13) أن هذه اللغة الخليطة كانت تستعمل في بلدان شرق البحر الأبيض المتوسط.

(٩) **وقاحة الرعاع....**
يرى «إرنْبْريزْ» (Ehrenpreis, **PMLA,** LXXII (1957), 880-99) أن قصة مثيري الشغب الستة التي تأتي بعد هذه العبارة ربما كانت تصويرًا قصصيًا رمزيًا لبعض كتّاب النشرات من حزب الأحرار الذين قبض عليهم «بولنْبروك» ثم أطلق سراحهم دون عقاب عام ١٧١٢ لأنهم تهجموا في كتاباتهم على الحكومة (وكانت حينذاك من حزب المحافظين الذي يؤيده سويفت) وحقَّروها.

(١٠) **ستة من الثيران...:** هناك احتمال كبير بأن يكون «سويفت» قد استوحى هذه التفاصيل المبالغ بها عن طعام «جلفر» في «ليليبوت» من التفاصيل المبالغ بها أكثر في قصة الكاتب الفرنسي «رابيليه» عن العملاق «جارجنتوا» الذي كان يأكل في وجبة العشاء ستة عشر ثورًا، وثلاث بقرات صغيرات واثنين وثلاثين عجلاً وثلاثة وستين جَدْيًا رضيعًا وخمسة وتسعين من الخراف وثلاثمائة خنزير رضيع مطهوة في مرق من النبيذ ومائتين وعشرين من

طيور الحجل وستة آلاف فرخة. انظر: (Eddy, 1963: 97-8).

(١١) **كليفْرِنْ فْريلوكْ ومَارْسي فْريلوك:**

يقول «كلارك» (Clark, 1953: 604) أن هذين الاسمين يعنيان «الخائن المتطفل» للأول و«الخائن الحاقد» للثاني.

الجزء الأول: الفصل الثالث

(١) **راقصي الحبال...:**

كان الرقص على الحبال واحدة من التسليات الشعبية في عصر «سويفت»، لكن عبارة «الرقص على الحبال كثيرًا ما تستعمل بمعنى مجازي لتدل على السعي لنيل مكاسب أو مناصب دون وجه حق. وقد استعملها «سويفت» بهذا المعنى أكثر من مرة. وهو يستعملها هنا للسخرية من أناس ارتقوا إلى مناصب عالية ليسوا أهلًا لها وبمهارات لا علاقة لها بالمهارات التي تتطلبها تلك المناصب.

(٢) **فليمناب:** هذا الاسم يعني حسب تفسير «كلارك» (Clark, 1957: 604) «النصَّاب الأكبر» أو «كبير المحتالين». ويتفق النقاد أن «سويفت» يعني «السير روبرت والْبول» الذي أصبح في ١٧١٥ وفي ١٧٢١ وزير الخزانة، وكان من الناحية الفعلية رئيسًا للوزراء في إنجلترا. وقد هاجمه سويفت لأنه اعتبره المسؤول عن توجيه اتهام بالتقصير والخيانة ضد لورد «أوكسفورد» ولورد «بولِنْبْروكْ» (وكانا من أقطاب حزب المحافظين الذي كان في السلطة قبل ١٧١٤، كما كانا صديقين حميمين لـ«سويفت»؛ كما أنه كان يعتبر «والْبُول» مسؤولًا عن الظلم الذي عانت منه إيرلندا، ولا سيما محاولة الحكومة الانجليزية برئاسة «والبول» فرض عُمْلَة مغشوشة على أهل إيرلندا.

(٣) **رِيلْدْريسال:** اختلف المفسرون في تحديد الشخصية التاريخية التي يرمز لها «ريلدريسال». بعضهم اعتبره رمزًا لـ«إيرل ستانْهُوبْ» رئيس حكومة الأحرار من ١٧١٧ إلى ١٧٢١، وكان أكثر لينا مع المحافظين من «والبول». انظر: (Williams, 1926: 462). وآخرون اعتبروه رمزًا لـ«لورد كارتيريت» الذي كان وزير الدولة الأول من ١٧٢١ حتى ١٧٢٤، وكان صديقًا للمؤلف «سويفت». انظر (Firth, 1919: 246) وفريق ثالث اعتبروه «لورد تاونْسِيْنْدْ» الذي كان وزير دولة في وزارة حزب الأحرار. وكان المحافظون يعتبرونه في أول الأمر صديقاً لهم في القصر وفيما بعد لم يعودوا يطمئنون إليه. انظر: (Case, 1958: 78).

(٤) **وسادة من وسائد الملك:** يتفق النقاد أن المقصود هنا هي «الدوقة كِنْدَالْ» عشيقة الملك جورج الأول، التي كان لها نفوذ مهم في القصر. فمثلاً، حين أُرْغِم «والبول» على الاستقالة عام ١٧١٧ من منصبه ساعَدْته بنفوذها حتى عاد إلى منصبه عام ١٧٢١. كذلك استعملت نفوذها مقابل رشوة مقدارها عشرة آلاف جنيه للحصول على ترخيص بإصدار عُمْلة نحاسية مغشوشة وفَرْض التعامل بها على أهل إيرلندا. وقد هاجم «سويفت» في رسائله المشهورة تحت عنوان «رسائل تاجر جوخ» هذه العملة المغشوشة وساهم في إرغام الحكومة الانجليزية على سحب تلك العملة وإلغاء الترخيص، ولهذا أصبح «سويفت» في نظر الإيرلنديين بطلاً قوميًا.

(٥) **ثلاثة خيوط حريرية...:** ترمز إلى شرائط ثلاثة أوسمة في بريطانيا هي: وسام ربطة الساق (Order of the Garter)، ولونه أزرق، وقد مُنح لـ«والبول» في مايو ١٧٢٦؛ ووسام الحَمَّام (Order of the Bath)، ولونه أحمر، وقد أعاده إلى الوجود الملك جورج الأول في مايو ١٧٢٥، ووسام الشوكة (Order of the Thistle) ولونه أخضر، وأعادته الملكة (آن) إلى الوجود عام ١٧٠٣. ومن الواضح أن الناشر «موط» اعتقد أن سخرية الكاتب من هذه الأوسمة أمر خطير ولهذا غَيَّر ألوان الخطوط إلى أرجواني وأصفر وأبيض. انظر: (Turner, ed. 1980: 314, Note 6).

(٦) **تناولتُ تسعًا من العصي... على شكل مربع...:**

أشار الكثيرون من النقاد والمفسرين إلى وجود أخطاء واضحة في القياسات والأعداد والمساحات في هذه الفقرة،

من أمثال ذلك: كيف يمكن تصميم مربع بتسع عصي؟ وإذا كان طول العصا الواحد قدمان فكيف تكون مساحة الساحة المربعة قدمان ونصف أو طول ضلعها قدمان ونصف؟ وكيف يمكن وضع ٢٤ فارسًا بجيادهم وكامل عدتهم في هذه الساحة الصغيرة؟ وكيف يتاح لهم القيام بمناورات عسكرية من كَرّ وفرّ وغير ذلك في هذا الحيّز المحدود؟

وماذا نستنتج من وجود هذه الأخطاء؟ هل هي أخطاء عفوية لم يتنبّه لها «سويفت» المؤلف؟ أم هي أخطاء متعمدة، القصد منها التشكيك في صحة حرص المؤلف المزعوم «جلفر» على الصدق والموضوعية، وبالتالي جعله غير جدير بثقة القراء؟

(٧) **أمرَ الامبراطور... جيشه...:**

هناك من يرى (Gough, ed. 1915: 352) أن هذه الفقرة ربما تهدف إلى التهكم على حبّ الملك جورج الأول للاستعراضات العسكرية.

(٨) **كالتمثال:** النص الأصلي هو "Like a Colossus"، إشارة إلى التمثال الآدمي العملاق الذي يُعْتَقَد أنه كان موجودًا منفرج الساقين في مدخل ميناء «رودس».

(٩) **سكايريش بُلْغُلام:**

يرى «كلارك» (Clark, 1953: 604-5) أن المقصود بهذا الاسم هو «دوق مارلبورو» الذي كان الممثل الرئيسي لسياسة الاستمرار في الحرب ضد فرنسا، لدى حزب الأحرار، وقد هاجمه «سويفت» في كتاباته عدة مرات، وعلى الأخص في جريدة **The Examiner** بتاريخ ٢٣ نوفمبر ١٧١٠. أما «فيرث» (Firth, 1919: 242) فيرى أن «بُلْغُلام» يمثل «إيرل أوف نوتِنْجْهام» الذي استغلّ نفوذه ليمنع حصول «سويفت» على منصب أسقف "bishop". ومع أن «نوتِنْجْهام» هذا كان جاهلًا كل الجهل بأمور الأسطول والبحر إلا أنه عمِل وزيرًا للبحرية (Lord of the Admiralty) بين ١٦٨٠ و١٦٨٤ وكان يتباهى بعد ذلك بأنه خبير في شؤون الملاحة البحرية.

(١٠) **بليفُسْكو:** يتفق المفسّرون على أنها تمثل فرنسا.

الجزء الأول: الفصل الرابع

(١) ميلديندو: يرى «كلارك» (1935: 607) أن هذا الاسم يرمز إلى مدينة لُنْدن، وأن فيه لعبة تغيير مواقع الحروف في كلمة لندن.

(٢) **تتسع المدينة لخمسمائة ألف نسمة:** قُدِّر عدد سكان لندن في عام ١٧٠٠ بخمسمائة وخمسين ألف (٥٥٠,٠٠٠) نسمة.

(٣) **أكرمتني بابتسامة لطيفة:** يشير «كيس» (Case, 1958: 73) إلى أن هذه العبارة ربما تعكس مَيْل الملكة «آن» إلى حزب المحافظين.

(٤) **منذ أكثر من سبعين قمرًا:** يقترح **«Gough» (1915:354)** أن كلمة «قمر» تعني «سنة». هذا يتضمن أن الصراع الحزبي الذي بدأ في إنجلترا خلال الحرب الأهلية كان في العام ١٧٢٥ (حين كان «سويفت» يُعِدّ **رحلات جلفر** للطباعة) قد استمر لمدة ٧٤ سنة.

(٥) **ترامِكْسان وسلامِكْسان:** اسمان اخترعهما «سويفت» للإشارة إلى أول حزبين في إنجلترا وهما حزب الكنيسة العليا (الانجليكانية)، أي حزب المحافظين، وحزب الكنيسة الدنيا (البيوريتانيون وأتباع المذاهب التي لا تعترف بها الدولة)، أي حزب الأحرار.

(٦) **قرر جلالته أن يستخدم ذوي الكعوب القصيرة:** كان جورج الأول يفضل حزب الأحرار على حزب المحافظين.

(٧) **لدى ولي العهد... بعض الميل إلى ذوي الكعوب العالية**: كان جورج الثاني حين كان أمير «ويلز» (أي وليًا للعهد) يفضل حزب المحافظين.

(٨) **ستة آلاف قمرًا**: يشير Gough (1915: 354) أن المعنى المقصود ربما كان «ستة آلاف سنة»، وهو عمر الأرض، كما كان الناس يعتقدون حينذاك.

(٩) **طيلة الستة والثلاثين قمراً الأخيرة**:

المقصود هو الست والثلاثين سنة بين ١٦٨٩ و١٧٢٥. في هذه الفترة قامت بين إنجلترا وفرنسا حربان، الأولى (حرب حِلْف أوبْزبرْج) وقد امتدت من ١٦٨٩ حتى ١٦٩٧. والثانية (حرب الصراع على عرش إسبانيا) وقد بدأت في ١٧٠١ وانتهت بمعاهدة أوتْرِخْتْ عام ١٧١٣.

(١٠) **جدّ الامبراطور الحالي...**:

المفروض أنه يرمز للملك الانجليزي هنري الثامن. جرح إصبعه (أي تألم وغضب لأنه لم يُسمَح له بالزواج من «آن بولين»). **حاول كسر البيضة** (البيضة هي رمز عيد الفصح Easter، وبالتالي رمز للدين المسيحي) **من طرفها الأكبر بالطريقة القديمة** (أي: حسب المذهب الكاثوليكي). أمر رعاياه **بكسر البيض من طرفه الأصغر** (أي: باتباع الكنيسة الانجليكانية). وهكذا فإن أتباع الطرف الأكبر (Big-Endians) هم الكاثوليك وأتباع الطرف الأصغر (Small-Endians) هم الانجليكان (أي أتباع الكنيسة الرسمية في إنجلترا).

(١١) **فقد أحد الأباطرة حياته**: المقصود هنا هو الملك الانجليزي «شارلز» الأول.

(١٢) **فقد امبراطور آخر عرشه**: المقصود هو الملك الانجليزي «جيمس» الثاني.

(١٣) بليفسكو: فرنسا التي كانت خلال حكم «كرومويل» لإنجلترا ملجأً للملكيين (Royalists)، كما كانت بعد ١٦٨٨ ملجأً لليعاقبة (Jacobites) الذين كانوا يحاولون إعادة «آل ستيوارت» إلى عرش إنجلترا.

(١٤) **كُتب أتباع الطرف الأكبر حُظِرت...**: إشارة إلى المرسوم الانجليزي الصادر عام ١٥٥٠ والذي يقضي بمنع تداول كل الكتابات الكاثوليكية في إنجلترا، وحَرْقها وإلغائها.

(١٥) **ممنوعين... من العمل في الوظائف**: حسب المراسيم التي صدرت في إنجلترا في ١٦٦١ و١٦٧٢ و١٦٧٨.

(١٦) قرآنهم: أي كتابهم المقدس.

(١٧) حرب طاحنة: كان «سويفت» ضد استمرار الحرب بين فرنسا وانجلترا وعبّر عن رأيه هذا في مقالته المشهورة المنشورة عام ١٧١١ وعنوانها: "The Conduct of the Allies".

انظر: (Case, 1958: 74).

الجزء الأول: الفصل الخامس

(١) **جررتُ ورائي وبكل سهولة خمسين من أكبر بوارج العدو الحربية**:

يرى «تيرنَرْ» (Turner, ed. 1980: 317, Note 1) أن أَسْر أسطول بليفُسْكو يرمز إلى تفكيك القاعدة البحرية في «دَنْكِرْك» وإلغائها حسب معاهدة «أوتْرِخْتْ» (عام ١٧١٣). كذلك يعتبر وصف «جلفر» لعملية جَرّ أسطول «بليفُسْكو» وراءه بأنها تمت «بكل سهولة» دليلًا على كذب «جلفر» الذي يزعم أنه «حريص على الصدق». ذلك أن طول البارجة الواحدة هو ٩ أقدام، ويكاد يستحيل من الناحية الفعلية أن يستطيع «جلفر» جرّ خمسين منها «بكل سهولة».

(٢) **على شكل هلال كبير**: كان هذا هو شكل أسطول الأرمادا» الأسباني حين حاول غزو إنجلترا عام ١٥٨٨.

(٣) **لقب نارداك**: يفسر «كلارك» (Clark, 1953: 608) كلمة ناردك بأنها تعني "ill — begot, of ignoble birth —" أي: «ذو أصل وضيع». لكن «تيرنَرْ» يفضل تفسيرها بمعنى: «اللقب الذي يجلب النحس». وعلى هذا الأساس

يعتبر هذا اللقب إشارة ساخرة للقب الذي حصل عليه أوكسفورد (١٧١١) واللقب الذي حصل عليه بولنبروك (١٧١٢) مكافأة لجهودهما في إنهاء الحرب، ثم اتُّهما فيها بعد بالخيانة، من قِبَل حزب الأحرار، بسبب هذه الجهود ذاتها.

(٤) **تحطيم تلك الامبراطورية... مقاطعة..:**

إشارة إلى حزب الأحرار الذين كانوا لا يريدون الصلح مع ملك فرنسا لويس الرابع عشر إلا بشروط كانوا يعرفون سلفاً أنه لن يقبلها ـ مثل الشرط الذي يفرض عليه أن يرسل جيوشه لخلع حفيده فيليب عن عرش إسبانيا. انظر: (Turner, ed., 1980; 317, Note 5).

(٥) **علامة سخط وعدم ولاء:**

اتهم حزب الأحرار «بولِنْبُروك» بعدم الولاء لأنه زار فرنسا عام ١٧١٢، وقابل، حسب ظنهم، المطالب بعرش بريطانيا (the Pretender)، والذي هو من أسرة «ستيوارت» التي كانت تحكم انجلترا في القرن السابع عشر حتى عام ١٦٨٨.

انظر: (Ehrenpreis, **PMLA,** LXXII, 1957, 884).

(٦) **غَفَت وهي تقرأ قصة غرامية:**

ربما يقصد «سويفت» أن يشير إلى ما كرر أكثر من مرة بأنه لا ينبغي للسيدات أن يقرأن القصص الغرامية الرومانسية. فهو يشير في مقالة له بعنوان «رسالة إلى سيدة صغيرة السن» إلى الغرام بأنه «عاطفة سخيفة لا وجود لها إلا في الكتب المسرحية وفي القصص الرومانسية». كذلك نجد في أحد مخطوطات «سويفت» وعنوانه «ملاحظات: تعليم السيدات» قوله «في تعليم السيدات الصغيرات لا يُسمَح بالقصص الرومانسية الفرنسية، ويُسمَح بالقليل من المسرحيات».

انظر: (Turner, ed. 1980: 317 Note 12).

(٧) **مما أخمد الحريق كله في ثلاث دقائق:**

ربما استوحى «سويفت» هذه الطريقة في إخماد الحريق من قصة «رابيليه» عن العملاق «جارْجَنْتُوا» الذي أحدث بَوْلُه طوفانًا غرق فيه «مائتان وستون ألفًا وأربعمائة وثمانية عشر شخصاً عدا النساء والأطفال الصغار».

أما «فيرث» (Firth, 1919: 241) فيرى في قصة إطفاء الحريق بالبوْل وغضب الامبراطورة إشارة إلى كتاب «سويفت» **قصة برميل** (**A TAle of A Tub**) الذي نُشِر عام ١٧٠٤ وانزعجت الملكة «آن» لما فيه من قباحة وبذاءة، ورفضت لذلك أن يعيِّن «سويفت» في منصب أسقف.

أما «كيس» (Case, 1958: 75-6) فيرى أن هذه القصة تصوير رمزي لما فعله حزب الأحرار حين عقدوا معاهدة «أوترخت» مع فرنسا وبذلك أطفأوا لهب الحرب. يرى «كيس» أن المعاهدة كانت غير قانونية لأن المفاوضات كانت سرية، وأن الأمر كله يصور تحقيق غاية خَيِّرة بوسيلة غير مشروعة.

ويؤيد «إرِنْبْريزْ» (Ehrenpreis, **PMLA,** LXXII, 1957: 883) رأي «كيس» المذكور في الفقرة السابقة أعلاه.

الجزء الأول: الفصل السادس

(١) **وصف لسكان ليليبوت:** يثير هذا الفصل السادس جدلاً بين النقاد. ذلك أن معظم مادة هذا الفصل تختلف عن مادة الفصول السابقة واللاحقة. وتبدو وكأنها دخيلة على الجزء الأول كله. القسم الأول والأكبر من هذا الفصل يصور مجتمعًا يوتوبيًا صغيرًا كأنه مجتمع من الدمى المتحركة الجميلة. يعتقد «كُوِينْتانا» أن مادة هذا الفصل كُتِبت عام ١٧١٤ ثم أُقْحِمَتْ فيها بعد داخل قصة رحلة جلفر إلى بلاد الأقزام. انظر: (Quintana, 1953: 291-992). ويوافق «إدِي» على أن هذا الفصل أضيف إلى قصة الرحلة إلى ليليبوت كفكرة لاحقة. انظر:

(Eddy, 1963: 112). لكن نقادًا آخرين يرون أن الاختلاف بين هذا الفصل والفصول السابقة واللاحقة هو اختلاف مقصود ويخدم أغراض الحبكة من جانب والهدف الفكري العام من جانب آخر. انظر: (Pinkus, 1975: 33). من ناحية الحبكة، يعمل الفصل السادس بما فيه من وصف للمبادئ اليوتوبية على تقوية توقعات القراء بأن يكافأ «جلفر» على خدماته الجليلة الموصوفة في الفصل الخامس (أَسْر أسطول الأعداء) لكن ما يحدث بعد الفصل السادس من تآمر على «جلفر» وإدانته بالخيانة يحطم تلك التوقعات. وهنا يزداد وضوح بعض الأفكار العامة التي يبدو أن «سويفت» أراد توضيحها للقراء بشكل ساخر. من هـذه الأفكار أن البشر عمـومًا يعـرفون المبادئ الصحيحة السليمة لكنهم، بسبب الطبيعة البشرية الفاسدة، يناقضونها في ممارسـاتهم. من مبادئ الأقـزام أن يعاقَب المسيء ويكافأ المُحْسِن. لكن ما فعله الأقزام مع «جلفر» يتناقض مع مبدأ مكافأة المحسن. وهذا تجسيد درامي للفكرة الساخرة التي ينطوي عليها القول العربي الشائع: «اتق شرّ من أحسنتَ إليه»، كما أنه تصوير ساخر لنظرية العقد الاجتماعي بين الأفراد والدولة، إذ إن النظرية تبدو مقنعة ومقبولة لكن الوقائع الملموسة في الحياة تبين تسلط الدولة وعجز الأفراد.

(٢) **أسلوبهم في الكتابة. . . كما تفعل السيدات في إنجلترا:**

المعلومات عن اتجاهات خطوط الأوروبيين والعرب والصينيين تقليدية. لكن سويفت أضاف معلومتين اخترعهما من أجل الفكاهة والدعابة، أولهما اتجاه الخط من «الأسفل للأعلى كما يفعل الغاسكاجيون»، و«الغاسكاجيون» اسم لقوم لا وجود لهم: والمعلومة الثانية هي «كما تفعل السيدات في انجلترا».

(٣) **يضعون رأس الميت في الأسفل. . . :**

ربما استوحى «سويفت» هذه الفكرة من صورة في أطلس هيرمان مول **Herman Moll's Atlas**. هذه الصورة تُظهِر أهل «لابْلانْدْ: Lapland» مدفونين وهم واقفون. انظر: (E.D. Layburn, **Satiric Allegory**, 1956, p. 74). كذلك شـاعت قصة عن رجـل دُفِن في «ليث هِلْ» (Leith Hill, Surrey) عـلى طريقـة الدفن في ليليبـوت، وللأسباب نفسها. انظر: (Gough, 1956: 357).

(٤) **الدجل والاحتيال جريمة أكبر. . . من السرقة:**

يشير «تيرنَرْ» (Turner, ed., 1980: 319 Note 10) أن في التشريعات في يوتوبيا للكاتب توماس مور (١٥١٦) ما يشبه هذا التشريع في «ليليبوت». مثال ذلك أن محاولة ارتكاب جريمة تعاقَبْ بالقسوة ذاتهـا التي يُعاقب بهـا ارتكاب الجريمة. انظر أيضًـا ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان لكتاب يوتوبيا ص ١٩٥: (وفي كل جريمة تعتبر المحاولة المتعمدة والمعترف بها مساوية لارتكاب الجريمة).

(٥) **الثواب والعقاب المحورين. . . الحكم:**

يرى «تيرنَرْ» أن صورة الثواب والعقاب كمفصلين يرتكـز عليهما الحكم مأخوذة من مقالـة لِـ«سير وليم تِمْبِـلْ» صدرت عام ١٦٨٧ وعنوانها "Of Heroick Virtue".

انظر: (Turner, ed. 1980: 319 Note 12).

(٦) **سوى شعب ليليبوت:** يضيف «تيرنَرْ» (1980: 319 Note 13): وشعب يوتوبيا أيضًا.

ونجد في ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان لكتاب يوتوبيا (١٩٧٤: ص ١٩٦) ما يلي: «ولا يعمل اليوتوبيون على مقاومة الجريمة بالعقوبة فقط، بل يحثون الناس على الفضيلة بأنواع من التكريم».

(٧) **الكفر بوجود عناية إلهية. . :** إن القول هنا بعدم أهلية الكافر بالروح وبالله وبالخلود لشَغْل الوظائف العامة شبيه بما قاله «توماس مور» في يوتوبيا.

انظر ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان لكتاب يوتوبيا (١٩٧٤) حيث نجد في الفقرة الأخيرة من ص ٢١٥: «. . . يُحْرَم الشخص الذي يفكر بهذه الطريقة من جميع أنواع التكريم ولا يشغل أية وظيفة عامة ولا يكلّف بأي عمل».

(٨) **جدّ الامبراطور. . :** يُفْتَرَض أن المقصود هنا هو الملك هنري الثامن الذي كان ميالاً لمعاقبة أو مكافأة وزرائه

طبقاً لمعارضتهم أو موافقتهم على خططه ونواياه. وكان «توماس مور» من ضحايا هذا الملك الذي أمر بقطع رأس «مور» لأنه رفض الاعتراف به (أي بـ«هنري الثامن») رئيسًا للكنيسة في إنجلترا.

(٩) **نكران الجميل عندهم جريمة كبرى:**
المجتمعات اليوتوبية التي تصورها الكتب والقصص الأدبية تعتبر نواحي الضعف أو التقصير الأخلاقي جرائم كبيرة تستحق أشد العقاب. انظر على سبيل المثال النص الوارد في: Francis Godwin's **The Man in The Moon** (1638), p. 77 وترجمته ما يلي: «كل أنواع الكذب والتزييف تعاقَب هناك عقابًا صارمًا». كذلك فإن عقوبة الخيانة الزوجية في يوتوبيا هي العبودية القاسية. يصبح الخائن عبدًا. فإذا خان مرة ثانية فإنه يعاقب بالموت. (انظر ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان، **يوتوبيا** (١٩٧٤، ص ١٩٤).

(١٠) **إن الوالدين هما آخر مَنْ ينبغي أن يعْهَد إليهما بتربية أطفالهما:**
يتفق أهل ليليبوت حول هذا الموضوع مع ما ورد في كتاب **جمهورية أفلاطون**، ومع ما كان يفعله أهل «أسبارطة». انظر: (Lycurgus, XVI F).

(١١) **وهم دائمًا يشتغلون بعمل ما:** هذا مبدأ شبيه بالمبدأ السائد في يوتوبيا حيث يرتِّب رؤساء المدينة الأمور «بحيث لا يبقى رجل عاطلاً، بل يمارس كلٌّ عمله بجد...». انظر:
ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان، **يوتوبيا** (١٩٧٤: ص ١٥٢ وما يليها).

(٢) **ولكن الأستاذ... لن يسمح... باستخدام عبارات التدليل أو... ما إلى ذلك:**
وهذا شبيه بالتربية الصارمة التي اشتهرت بها أسبارطة، والتي لم يكن يُسمَح فيها للأطفال برفض الطعام المقدَّم لهم أو بالخوف من الظلام أو بالبكاء. انظر: (Lycurgus, XVI).

(١٣) **قصص مخيفة أو حمقاء:** في **جمهورية أفلاطون** تُقَرِّر الدولة القصص التي ترويها الأمهات والمربيات للأطفال.

(١٤) **يحتقرن كل أنواع الزينة الشخصية:** في يوتوبيا نرى الأطفال فقط يلبسون الجواهر. ونجد في ترجمة د. سمعان لـ **يوتوبيا** (ص ١٦٩) النص التالي: «ويجمع اليوتوبيون اللآلئ من شاطئ البحر، والماس والعقيق من بعض الصخور، ولكنهم لا يخرجون للبحث عنها. فإذا وجدوها صدفةً، صقلوها، وزَيَّنوا بها صغارهم. ويفرح هؤلاء الصغار ويفخرون بهذه الحلي في السنوات الأولى من طفولتهم، ولكنهم ما إن يشبّوا عن الطوق ويدركوا أن مثل هذه اللعب لا يلبسها إلا الأطفال، حتى يخلعوها خجلاً...».

(١٥) **لم ألاحظ أي اختلاف أو فرق في تعليمهن:** في **جمهورية أفلاطون** يتلقى الذكور والإناث التعليم نفسه.

(١٦) **عصاه.. البيضاء:** كانت هذه العصا رمزًا لوزير الخزانة.

(١٧) **أُبَرِّئُ ساحة سيدة عظيمة:** يرى فيرث (Firth, 1919: 245) أن في هذه القصة سخرية من علاقة «والبُول» بزوجته الأولى «كاترين شورتّر» التي اشتهرت بخيانتها لزوجها كما اشتهر زوجها «والْبول» بعدم اكتراثه بها أو بخيانتها..

(١٨) **كُلُسْترِلْ ودْرُنْلو:**
يرى «كيس» (Case, 1958: 80) أنهما إشارة للجاسوسَيْن (Pancier) و(Neynoe) اللذَيْن استخدمهما «والبُول» في محاكمة الأسقف أَتِرْبُري (Atterbury) عام ١٧٢٢.

(١٩) **أتحدى... أن يُثبتا أن أحدًا زارني قط متخفيًا أو مجهول الهوية:**
يرى «بْرادي» (F. Brady, **20 th. Century Interpretational G.T.**, 1968: 6) أنه مطلوب من القارئ أن يدرك التناقض بين قول «جلفر» هذا وقصة الزائر السّرّي في أول الفصل السابع التالي، وأن يستنتج بالتالي أن «جلفر» يكذب.
لكن «تيرنَرْ» (Turner, ed., 1980: 320 Note 42) يشير إلى أن النصَّ هنا لا ينكر وجود زوار سريين، ويؤكد فقط استحالة إثبات ذلك.

(٢٠) **يقلّ درجةً عن لقبي:** هذا يعكس بشكل ساخر حقيقة تاريخية إذا اعتبرنا «جلفر» يمثل زعيمَيْ حزب المحافظين وهما «أوكسفورد» (كان يحمل لقب إيرْلْ Earl) و«بولِنْبُروك» (وكان يحمل لقب فايكونت Viscount) واعتبرنا «فليمناب» يمثل «والْبول» الذي كان مجرد فارس ولقبه «سير Sir».

الجزء الأول: الفصل السابع

(١) **بلاد تبعد كل هذا البعد:**
في يوتوبيا يسخر «توماس مور» من الدبلوماسية الأوروبية عن طريق نَقلها ووضعها في العالم الجديد. ،وفي كتاب **Mundus Alter et Iden** يضع «جوزيف هول» (Hall) في العالَم الجديد صورًا كاريكاتورية ساخرة عن الحماقات الأوروبية. أما «سويفت» فيستعمل أسلوبًا في السخرية أكثر دهاء وذكاء. الأوصاف التي يقدمها في الفصل السادس السابق لهذا الفصل تعطي انطباعًا أن ليليبوت أرقى أخلاقيًا من أوروبا، لكنه في الفصل السابع والثامن يبيّن أنها ليست فقط مثل أوروبا في الانحطاط الأخلاقي، بل هي أسوأ من أوروبا. ولهذا فإن الوظيفة الفنية للفصل السادس هي أن تعمق الإحساس بالفساد الموصوف في الفصل السابع وأن تزيد وقع السخرية التي ينطوي عليها هذا الفصل. انظر: (Turner, ed. 1980: 321 Note 1).

(٢) **شخص مرموق في القصر:** يرى «كيس» (Case, 1958: 77) أنه ربما يرمز إلى «مارلبورو» الذي كان «بولنبروك» (من المحافظين) يعتبره صديقًا، والذي تلاعب بأعصاب «بولنبروك» حين أكد له (عام ١٧١٥) الشائعات التي تقول أن حكومة حزب الأحرار تنوي اتهامه بالتقصير والخيانة ومحاكمته، ولهذا اضطُرَّ (بولنبروك) للهرب إلى فرنسا.

(٣) **ليتّموك... لَلْكُنْ... بالموف:**
يرى «كِيس» (Case, 1958: 77) أن هؤلاء الأشخاص يمثلون أعضاء من حزب الأحرار كانوا يعارضون سياسة حزب المحافظين بخصوص الحرب بين فرنسا وإنجلترا، وحين تولى حزب الأحرار عام ١٧١٤ الحكم عمدوا إلى تشكيل لجنة (في ١٧١٥) للتحقيق في سلوك «أوكسفورد» و«بولنبروك» أثناء توليهما الحكم قبل ١٧١٤.

(٤) **لائحة الاتهامات:** يشير «كيس» (1958: 77-78) إلى أن هذه الاتهامات هي تقليد ساخر للاتهامات الموجهة ضد «أوكسفورد» و«بولنبروك» عام ١٧١٥ ومنها (١) أن مفاوضات السلام التي أجرياها مع فرنسا كانت غير قانونية (٢) أنهما أعطيا فرنسا شروطًا سهلة (٣) أنهما تراسلا سرًّا مع دبلوماسيين فرنسيين و(٤) أنهما لم يحصلا على تفويض خطي رسمي من الملكة ومختوم بختمها لإجراء مفاوضات السلام.

(٥) **يرشّوا سائلًا سامًّا على قمصانك...:**
يفترض «تيرنَرْ» (Turner, ed. 1980: 321, Note 7) أن «سويفت» استوحى قصة القتل بواسطة رشّ السم على الثياب من قصة موت «هرقل». لكن هذه الطريقة في قتل الأعداء وردت أيضًا في مسرحية ميديا تأليف «يوريبيدسْ» الإغريقي، كما وردت في قصص غربية وشرقية عديدة، منها قصة وفاة الملك والشاعر العربي امرؤ القيس بالثياب المسمومة التي أهداها له ملك بيزنطية.

(٦) **بالإبقاء على حياتك، والاكتفاء... بفقء عينيك:**
يقترح Gough (1956: 360) أن يكون هذا النص إشارة إلى اقتراح تقدم به بعض أعضاء حكومة الأحرار بعدم اتهام «أوكسفورد» و«بولنبروك» بالخيانة العظمى (التي تعاقَبُ بالموت)، والاكتفاء بتهمة «سوء التصرف» (وعقوبتها خسارة الألقاب والعقارات والممتلكات». أما فيرث (Firth, 1919: 246) الذي يعتبر «ريلدريسال» ممثلًا للسياسي اللورد «كارتيريت» (Carteret) فإنه يرى في هذا النص إشارة إلى قيام «كارتيريت»، حين كان حاكم إرلندا، بالإعلان عن مكافأة قدرها ٣٠٠ جنيه تُعْطى لمن يكشف عن هوية مؤلف «رسائل تاجر جوخ» (١٧٢٤)، وكان هذا المؤلف هو صديق «كارتيريت» ـ أي «سويفت» نفسه.

(٧) **فذلك لن يعطل قوتك الجسدية:**
ربما كانت هذه العبارة مستوحاة من قصة «شمشون» الذي فقأ الفلسطينيون عينيه ثم ربطوه برحى الطاحون في السجن لكي يدير حجر الطاحون.

(٨) **فهكذا يفعل أعظم الأمراء:**
يذكر «تيرنَرْ» (Turner, ed., 1980: 322, Note 11) استنادًا إلى «هيرودوتس» و«Gough» أن وزير «الملك العظيم» في بلاد فارس كان يسمَّى «عين الملك».
وليس استعمال «عين» بمعنى «وزير» أو «مستشار» أو «خادم أمين وموثوق» أمرًا جديدًا على اللغة العربية.

(٩) **المدائح عن رأفة جلالته ورحمته:**
يذكر «تيرنَرْ» (Turner, ed., 1980: 322, Note 15) أنه بعد الإعدامات التي نفذت بعد تمرد ١٧١٥، صدر إعلان يمتدح رحمة الملك. ويقترح «ر.ف. كِنِدي» (R.F. Kenned, Y. Notes and Querries, CCXIV, 340-1) مصدرًا أدبيًا آخر يتمثل في: (Suetonius, Life of Domitian, XI, 2) ويرِدُ فيه النصّ اللاتيني الذي ترجمته ما يلي:
«إنه [أي «دومينيان»] لم يُصْدِر قط حكمًا ممعنًا في القسوة دون أن يبدأه بالإعلان عن رأفته، بحيث أصبحت البداية التي تبدو متساهلة إشارة أكيدة إلى نهاية مسروعة».

(١٠) **لكني كنتُ قد قرأتُ... ضد خصومٍ بهذه القوة:**
يعتقد فيرث (Firth 1919: 244) أن هذا النص ينطوي على الأعذار التي تذرع بها «بولِنْبْروك» حين فرَّ إلى فرنسا وقال: «لقد بلغتني أخبار أكيدة ومتكررة... أن أولئك الذين لديهم السلطة لاتخاذ قرارٍ والقدرة على تنفيذه قد قرروا ملاحقتي حتى يوصلوني إلى المشنقة... ولن تشفع لي براءتي بعد أن طُلِب القضاء عليَّ من الخارج وتقرر تنفيذ ذلك في الداخل».

الجزء الأول: الفصل الثامن

(١) **أرسل شخصية مرموقة:**
كثيرًا ما قدَّمَتْ إنجلترا، بواسطة مبعوثيها من الدبلوماسيين، احتجاجات إلى فرنسا حول منح الأخيرة اللجوء السياسي لليعاقبة.

(٢) **اكتشفتُ... أنه كان سعيدًا جدًا بقراري...:**
حين وصل «بولِنْبروك» إلى فرنسا أصبح وزير دولة للمطالبة بعرش إنجلترا (The Pretender)، وكان لـويـس الرابع عشر، ملك فرنسا حينذاك، متعاطفًا مع اليعاقبة، بل اعترف بابن جيمس الثاني (وهو المطالب بعرش إنجلترا) ملكًا على انجلترا. لكن حين توفي لويس الرابع عشر بعد ذلك بستة أشهر، وأصبح «دوق أورلينز» وصيًا على عرش فرنسا، قررتْ فرنسا، بقيادة «الدوق»، وقف المساعدات لليعاقبة. انظر «تيرنر» (Turner, ed. 1980: 822, Note 2).

(٣) **وأجعلها تتناسل وتتكاثر:**
«جلفر» هنا له مصلحة شخصية في نقل الحيوانات القزمة إلى بلاده وجعلها تتكاثر هناك. لكنه حين يصل إلى بلاد العمالقة ويصبح قزماً فيها يعترض اعتراضًا شديدًا على خطة ملك العمالقة بإحضار أنثى من حجم «جلفر» وتزويجها له لكي ينجبا ذرية من الأقزام. انظر: (رحلات جلفر: الجزء الثاني: الفصل الثامن: الفقرة الأولى).

(٤) **فاقتنع... بصحة أقوالي:** لا يستطيع «جلفر» إقناع كل قارئ بصدقه بالطريقة التي أقنع بها قبطان السفينة. وهكذا يصبح دليله على صحة أقواله شبيهًا بالدليل الذي عرضه «لوسيان» حين روى قصصًا عجيبة عن حياة المجتمع على القمر. قال «لوسيان»: «حسنًا، هذا ما كان عليه الحال فوق القمر، وإن كنتم لا تصدقونني اذهبوا

إلى القمر وانظروا بأنفسكم».
انظر «تيرنَرْ» (Turner, ed., 1980: 323, Note 7).

(٥) **كسبتُ أرباحاً كثيرة... بِعْتُها...**:
قارن استغلال «جلفر» للحيوانات القزمة هنا واستغلال العملاق المزارع للقزم «جلفر» بعد أن عثر على «جلفر» في مزرعته وآواهُ في بيته (انظر رحلات جلفر، الجزء الثاني، الفصل الثاني والفصل الثالث). الاستغلال واحد في الحالتين، لكن «جلفر» لا يراه كذلك في الحالة الأولى لأنه هو المنتفِع بينما يراه استغلالاً بشعًا في الحالة الثانية لأن غيره كان المنتفع بينما كان هو الضحية.

(٦) **رغبتي التي لا تشبع في رؤية بلاد أجنبية**:
شهوة السفر إلى بلاد أجنبية استُعْمِلت كحافز للترحال في الكثير من قصص الرحلات، وأشهرها قصة روبنسون كروزو، وقصة يوتوبيا، وكذلك في قصة «لوسيان» بعنوان تاريخ صادق.

(٧) **فندق بْلاكْ بُلْ**: (أي فندق الثور الأسود)، كان هذا اسم فندق حقيقي في «هولبورن» مقابل شارع «فيتَرْلينْ» في لندن.

(٨) **السفينة أَدْفِنْتشَرْ**: (أي المغامَرَة)
لاحظ أن «جَلِفر» بدأ الرحلة الثانية التي انتهت به في بلاد العمالقة في سفينة تحمل هذا الاسم، كذلك بدأ رحلته الرابعة التي أوصلته إلى بلاد الخيول الناطقة في سفينة أخرى تحمل الاسم نفسه. ويشير كُونْلان (M.J. Quinlan, Philological Quarterly, XLVI, 1967, p. 413) إلى أنه كان هناك سفن كثيرة تحمل هذا الاسم، وأن الكثيرين من قباطنة هذه السفن كانوا يقعون في المشاكل ويواجهون المتاعب، ومنهم، على سبيل المثال، القبطان «وِلْيَم كِيدْ» "William Kidd" الذي تحوّل إلى قرصان ثم قُبِضَ عليه وشُنِق عام ١٧٠١.

الجزء الثاني: رحلة إلى بْروبْدِ نْجْناج

الجزء الثاني ـ الفصل الأول

(١) **بْروبْدِ نْجْناج**: لاحِظْ أن حرف (جـ) هنا يُنْطق بطريق أهل القاهرة في مصر حين ينطقون كلمات مثل «جميل» و«جيد».

ويشير «تيرنر» (Turner, ed. 1980: 324 Note 1) أن كلمة "Brobdingnag" ربما كانت منحوتة من حروف الكلمات «grand» «big» و«noble» (أي البلاد الضخمة والناس النبلاء وكبار الأجسام).

(٢) **حين وجدنا... الريح هوجاء وعاصفة... بحيث تتلقى دفع الرياح وتسير باتجاهها**:

يرى «تيرنر» (1980: 324, Note 5) أن هذه الفقرة كلّها المزدحمة بـالاصطلاحـات البحريـة التي تكثر في كتب الرحلات تكاد تكون منقولة حرفيًا من كتاب: Samuel Sturmy's **Mariner's Magazine** (1669), pp. 17-18.

وهذا ما قال به أيضًا «وليم إدي» و«هـ. وِلْيَمْز».

انظر: (Eddy, 1963: 143-144)

(Williams, 1926: 469-470).

هذا وقد اعتمدنا في ترجمة هذه الفقرة على الشروح التي أوردها «تيرنْرْ» (Turner, 1980: 324-5, Notes 5-25).

(٣) **الأجزاء الغربية الشمالية من بلاد التتار الواسعة**: عبارة Great Tartary الموجودة في النص الانجليزي منقولة عن Herman Moll's **Atlas Manuale** لتـدل على كتل الأراضي الواقعـة شمال الصـين (والتي يُدْعى معـظمها الآن سيبيريا). عبارة «الغربية الشمالية» خطأ، والصحيح هو «الشرقية الشمالية».

(٤) **رأيتُ... عملاقاً يطاردهم في البحر...**:

يقترح «تيرنر» (1980: 325, Note 29) أن يكون «سويفت» قد استوحى هذا الوصف والموقف من الملحمة الشعرية **الإنياذة** للشاعر ڤيرجيل (**Virgil, Aeneid**, III; 662 ff) حيث يخوض السايكلوب العملاق «بوليفيموس» البحـر مطاردًا سفينة «إينياس».

(٥) **وكان في الخطوة الواحدة يقطع عشر ياردات تقريبًا**:

إذا كانت نسبة القياسات في «جلفر» إلى القياسات في العملاق هي ١ إلى ١٢ فذلك يعني أن طول العملاق هو حوالي ٧٢ قدمًا انظر: (Eddy, 1963: 136) أما «موجْ» (Mogg, 1948: 50) الذي يعتبر نسبة القياس ١ إلى ١٠ فيرى أن وجود إنسان طوله ٦٠ قدمًا أمر مستحيل هندسيًا إلا إذا خضع هيكله لتعديلات كبيرة تجعله قادرًا على حمل وزنه الذي يبلغ ٩٠ طنًا، كأن يكون له رأس أصغر، وعنق أثخن، وجذع أكبر، وساقان أقصر... الخ.

(٦) **ومشية المخلوقات البشرية... تتناسب طرديًا مع حجمها**:

كان هذا هو الرأي التقليدي الشائع في عصر «سويفت»، وهذا هو ما ينطوي عليه قول شكسبير:

...O! it is excellent

To have a giant's strength, but it is tyrannous

To use it like a giant.

Measure for Measure, II, ii, 107-109.

وهذا هو الرأي الذي روَّجَتْه الميثولوجيا وكُتُب الأدب اليونانية والرومانية، وخصوصًا ما ورد فيها عن العمالقة الـ«سايكْلوب» Cyclops.

لكن «سويفت» يفاجئ القراء بتصوير مختلف للعمالقة في مجتمع «بروبْدِنْجْناجْ» حيث يصفهم بأنهم «أكثر الأمم إنسانية وأقلها فسادًا» (انظر: رحلات جلفر: الجزء الرابع، الفصل الثاني عشر).

(٧) **لا شك أن الفلاسفة على صواب. . . :**

المقصود هنا هو الأسقف الفيلسوف «جورج بيركلي»، وكان معاصرًا لـ«سويفت» وصديقًا له. وكان من نظرياته الفلسفية أن حجوم الأشياء ليس لها صفة ثابتة من حيث الكبر أو الصغر، بل هي صفات تتغير حسب تغير المخلوق الناظر إلى تلك الأشياء. وأكبر مثال على ذلك أن «جلفر» رآه الأقزام جبلاً في ضخامة حجمه بينما رآه العمالقة حشرة صغيرة.

(٨) **كلب حراسة يساوي. . . أربعة أفيال:**

ربما كان هذا الوصف مستوحى، في رأي «تيرنَر» (1980: 326, Note 41) من إحدى قصص «لوسيان» التي نجد فيها أن بعض كلاب جهنم «أكبر قليلاً من الأفيال الهندية».

(٩) **وهذا هو هدفي الوحيد من نشر هذا التقرير. . . عن رحلاتي. . . :**

يرى «تيرنر» (1980: 326, Note 45) شبهًا بين هذا الادعاء وادعاءات «دامْبْيير» الذي يزعم في كتابه (Voyages, i, 17) أنه لا يقصد من نشر كتابه مجرد «رواية قصص، وخاصة من هذا النوع»، بل هو يهدف مخلصًا إلى «ترويج المعرفة المفيدة وكل ما من شأنه أن يخدم مصلحة بلادي».

(١٠) **دون تصنّع المعرفة بالعلوم وتكلُّف المحسنات الأسلوبية. . . :**

وهذا القول أيضًا مشابه لقول «دامبيير» في كتابه (Voyages, i, 20): «أما بالنسبة لأسلوبي، فليس من المتوقع من بحار أن يتكلف الأسلوب الرفيع. حتى لو كنتُ قادرًا على ذلك، لا أظن أنني سأحرص على ذلك في كتاب من هذا النوع. وإني مقتنع أنه إذا كان ما أقوله مفهومًا، فلن يكون لأسلوب التعبير أهمية كبيرة».

الجزء الثاني: الفصل الثاني

(١) **كانت هذه الفتاة الصغيرة. . قادرة على القيام بإلباسي ملابسي أو نزعها عني:**

هناك شبه بين علاقة جلفر بالعملاقة الصغيرة وما يحدث (١) في كتاب **تاريخ مضحك للقمر، Histoire Comique de La Lune (1659)**، حيث يخبرنا المؤلف «سيرانو دو برْجِراك» (Cyrano de Bergerac) أنه حين طار إلى القمر وجد فيه قومًا، من العمالقة يتراوح طولهم من ١٨ إلى ٢٢ قدمًا، ووقعت في حبه إحدى وصيفات الملكة؛ و(٢) ما يحدث في إحدى قصص **ألف ليلة** (Arabian Nights) التي تُرْجمت من الفرنسية إلى الانجليزية عام ١٧٢٤، حيث يقع الحسن البصري أسيرًا، في يد العمالقة، وتتخذه أميرة من أميرات العمالقة دمية تقوم هي بإلباسه ملابسه وخلعها عنه.

انظر تيرنر (1980: 327 Note 3).

وانظر أيضًا (Eddy, 1963: 128-130).

(٢) **«جْلَمْ دالْ كْليتْشْ» و«جْريلْدْريجْ»:**

لقد اخترع «سويفت» في كتاب **رحلات جلفر** الكثير من الكلمات والعبارات غير المألوفة أو المعروفة في اللغة الانجليزية، كهاتين الكلمتين. وقد اختلف الشراح والمفسرون والنقاد حول معاني هذه الكلمات والعبارات ـ إن كان لها معان محددة ـ وحول الأصول اللغوية لها ـ إن كان لها أصول ـ، وحول الغاية من اختراعها.

والحقيقة أن الكثير من الكلمات والعبارات التي اخترعها «سويفت» ثقيلة على الألسن بحيث يصعب نطقها، كما أنها غريبة على المسامع بحيث لا تستسيغها الآذان ولا تألفها بسرعة. وهي فوق ذلك كله لا توحي للأذهان بمعان واضحة، بل هي أقرب إلى الطلاسم والألغاز المبهمة منها إلى الكلمات التي تعبّر عن معنى. بل إنها تبدو أحيانًا مجرد أصوات متنافرة رغم كونها متجاورة، وكأنّ المؤلف يريد أن يداعب بها القراء مداعبة مرهقة.

وتمثل هذه الكلمات والعبارات المخترعة أو المنحوتة أو المشتقة تحديًا كبيرًا بالنسبة للقراء والمفسرين والنقاد من الانجليز، لكنها بالنسبة لأبناء اللغات الأخرى تمثل ألغازًا عسيرة على الفهم والهضم والحلّ. ولهذا يجد مترجمو الكتاب عنتًا بالغًا لدى مواجهتها. أما الذين يترجمون الكتاب إلى اللغة العربية فإنهم حين يواجهون هذه الكلمات يجدون أنفسهم في وضع بالغ الصعوبة، وخصوصًا في غياب علامات التشكيل.

كيف تكتب بالعربية كلمات مثل: Brobdingnag أو Grildrig أو Glumdalclitch؟

كامل كيلاني، على سبيل المثال، حلّ المشكلة بإلغائها وتجاهلها. بدل أن يكتب «Brobdingnag» بحروف عربية ترجم الاسم إلى «بلاد العمالقة»؛ وبدل «Grildrig» كتب «القزم»، وبدل «Glumdalclitch» كتب «الحاضنة».

انظر: كامل كيلاني، جلفر: **الرحلة الثانية: في بلاد العمالقة** (دار المعارف بمصر: بلا تاريخ)، ص ٢٨.

عبد الفتاح صبري (**رحلات جلفر**: ١٩٠٩) اتخذ موقفًا مترددًا. فقد حلّ المشكلة بإلغائها وتجاهلها أحيانًا (ص ٥٩ وص ٦٨ مثلًا)، وفي أحيان أخرى كتب بعض الأسماء الغريبة بحروف عربية ولكن دون أن يتوخى الدقة. مثلاً: «Glumdalclitch» أصبحت في ترجمته «غلومدريش» (ص ٧٤)، و«Lorbrulgrud» أصبحت في ترجمته «برولدرود» (ص ٧٢)... إلخ.

أما ميشال صعب (رجل بين الأقزام، المطبعة الكاثوليكية ببيروت، ١٩٥٨) فقد كتب الكثير من هذه الكلمات والأسماء الغريبة بحروف عربية لكنه لم يستعن بعلامات التشكيل. فمثلاً «Brobdingnag» أصبحت في ترجمته «بربدنجناج»؛ و«Grildrig» أصبحت «جرلدرج»؛ و«Glumdalclitch» أصبحت «جلمدالكلتش».

وقد يلقي الجدول التالي بعض الضوء على أبعاد المشكلة في الترجمة إلى العربية:

المترجم الكلمات والأسماء التي اخترعها سويفت وترجمتها أمام اسم المترجم

	Brobdingnag	Glumdalclitch	gildrig
عبد الفتاح صبري (١٩٠٩)			
كامل كيلاني	بلاد العمالقة	غلومدريش	القزم
ميشال صعب	بلاد العمالقة	الحاضنة	جرلدرج
محمد محمد رفاعي	بربدنجناج	جلمدالكلتش	جريلدريج
ترجمتنا الحالية	بروبدنجناج	جلومدالكليتش	جْريلْدْريجْ
	بْرُوبْدِنْجْناجْ	جْلَمْ دالْ كْليتْشْ	

(٣) **لغة صغيرة خاصة بي:**

يخبرنا «تيرنْز» (1980: 327, Note 8) أن «سويفت» كان يطلق اسم «لغة صغيرة» على الاصطلاحات التي كان يستعملها هو و«ستيلاّ» في رسائلهما كل للآخر.

(٤) **عَرْضي مقابل نقود على جمهور...:**

«سيرانو دي برجراك» في قصته عن رحلته إلى القمر، عُرِضَ على الجمهور القمري بوصفه قزمًا في سيرك قمري انظر: (Eddy, 1963: 21).

(٥) **لو كان ملك بريطاني... مكاني...:**

يرى «تيرنْز» (1980: 327, Note 12) أن «سويفت» ربما كان يقصد بهذه العبارة الإشارة إلى أن الملك جورج

الأول ـ وهو الألماني الأصل ـ هو مثل «جلفر» في بلاد العمالقة، «شخصًا غريبًا على البلاد».

(٦) **حملني سيدي في صندوق:**

يذكر «تيلور» (D. Taylor, TSE, xii, 1962, 31) أن قزمًا سويسريًا مشهورًا اسمه «جون ويرْمْبرْغ»، وطوله ٣١ بوصة، كان قد عُرِض في جميع أنحاء أوروبا محمولاً في صندوق.

(٧) **أبعد قليلاً من عشرين ميلاً:** النص الأصلي هو: "Further than from London to St. Albans"

لكن «تيرنرْ» يخبرنا أن المسافة بين «لندن» و«سانت ألْبانْز» هي عشرين ميلاً لهذا فَضَّلنا أن نترجم النص إلى العربية بقولنا «أبعد قليلاً من عشرين ميلاً».

(٨) **ليعلن في أنحاء المدينة. . . :**

مادة هذا الإعلان، والحركات التي يقوم بها «جلفر» أثناء عَرْضه على المتفرجين، كما هي موصوفة في الفقرة التالية، تشبه عدة إعلانات عن عروض كانت تقام في لندن في عصر سويفت.

انظر: (A.M. Taylor, TSE, vii, 1957, 31)

و: (Turner, ed. 1980: 327-8, Note 17).

(٩) **صوَّب حبة بندق وقذفها على رأسي فأخطأتني. . . :**

تعرّض «سيرانو دي برجراك» في قصته عن رحلته إلى القمر، لحادث مماثل. انظر: (Eddy, 1963: 127-8).

(١٠) **سوى الأربعاء وهو يوم الراحة عندهم:**

ربما ينطوي هـذا النص على إشـارة إلى أن العمالقـة يعبدون عـطارد (Mercury)، وهو إلـه التجارة والمكـر واللصوصية عند الرومان، وذلك لأن هدف السخرية هنا هو الجشع التجاري وحب الربح الذي يطغى لدى بعض الناس على كل القيم الأخرى.

(١١) **لورْ بْرولْ جْرودْ**

اسم عاصمة بلاد العمالقة، ويفسّر «كلارك» (1953: 611) هذا الاسم بأنه يعني «لندن». أما كِلِنْج (H.D. Kelling, SP, XLVIII, 1951, 771) فيرى أن هذا الاسم تحريف للعبارة الفرنسية «L'orb d'urgul» التي تعني «عالَم الكبرياء».

(١٢) **أطلس سانسون عندنا:**

ربما قصد «سويفت» الإشارة إلى أطلس صدر لأول مرة ام ١٦٨٩ بعنوان **Atlas Nouveau** وقام برسمه «غِيُوم» و«أدْريان سانسون» (Guillaume and Adrian Sanson)، وكانت مقاييسه ٢٠ ٥/٨ بوصة في ٢٠ ١/٢ بوصة.

انظر: (H. Williams, ed. **G.T.**, 1926: 471).

الجزء الثاني: الفصل الثالث

(١) **كان جلالته أميرًا ذا وقار عظيم ووجه صارم:**

يعتقد «سير ولْتَرْ سكوت» أن «سويفت» رسم ملك العمالقة على شاكلة الملك وليم الثالث. أما «ولْيَمْزْ» فيرى أن شخصية ملك العمالقة هي تصوير لشخصية «أمير ويلز» (ولي عهد إنجلترا) وينطوي على مديح وإطراء له لأن المحافظين (ومنهم «سويفت») كانوا يطمعون في تأييـد هذا الأمـير لهم. انظر: (Williams, 1926: 471). أمـا «إرِنْبْريزْ» فيعتقد أن «سويفت» استوحى شخصية هذا الملك من شخصية «سير وِلْيَم تِمْبِلْ» انظر: (I. Ehrenpreis, **PMLA**, LXXII, 1957, 885-9).

(٢) **هذه الأميرة التي كانت على قدر عظيم من الفطنة والظرف:**

هي تمثل، في رأي «وِلْيَمْز» إطراء لأميرة ويلز، أما في رأي «إرنبريز» فهي مديح للسيدة «دورروتي أورْبورْن» زوجة «السير وِلْيَم تِمْبِلْ». انظر:

* (Williams, 1926: 471)

* (Ehrenpreis, **PMLA**, LXXII, 1957, 886).

(٣) **تصوَّر أنني آلة شبيهة بالساعة... لكنه حين سمع صوتي...:**

ربما كان «سويفت» قد استوحى هذه الأفكار مما قاله «ديكارت» في كتابٍ له هو: **Discourse on Method**, tr. L.J. La fleur, 1950, p. 36 وفيما يلي ترجمة لقول «ديكارت»:

«إن كان ثمة آلات تشبه أجسادنا وتقلد أفعالنا... فإنه يبقى لنا طريقتان نعرف بهما أن هذه الآلات ليست، رغم كل شيء، بشرًا حقيقيين. أولهما، أنها لن تستطيع الكلمات أو أية إشارات معقدة أخرى كما يفعل البشر لشرح أفكارهم للآخرين». انظر:

.(Ehrenpreis, REL, III, 3 (1962), 28-29)

(٤) **أجمعوا أنني لا يمكن أن أكون من إنتاج القوانين المألوفة في الطبيعة:**

تعرَّض «سيرانو» إلى فحصٍ مماثل قام به فلاسفة القمر وانتهوا منه إلى استنتاج مماثل: بأنه **فلتة من فلتات الطبيعة**. انظر؛

* Cyrano de Bergerac, **Histoire Comique de La Lune,** pp. 117, 142.

* Eddy, 1963: 126-7.

(٥) **وهذا قرار يناسب الفلسفة الحديثة... أسباب خفية...:**

قد تنطوي هذه العبارات على تهكم مبطن من «نيوتُنْ» الذي قال في كتابه **Optics** (الطبعة الثانية: ١٧١٧) إن العلم الحديث بما يحويه من «القوانين العامة في الطبيعة» أكثر فائدة بكثير من الفلسفة الأرسطية (Aristotelianism) وما تزعمه من «خصائص خفية». وقد ورد في الطبعة الرابعة من كتاب «نيوتن» (**Optics,** 4 th. ed., 1730, p. 377) ما ترجمته: «إن القول بمثل هذه الخصائص الخفية قد وضع نهاية للتقدم في الفلسفة الطبيعية، ولهذا رُفِضَ في السنوات الأخيرة. إن القول بأن لكل جنس من الأشياء خصائص معينة خفية تجعله يعمل ويعطي نتائج ملموسة طبقًا لها قول لا يوضح لنا أي شيء». ويردّ «سويفت» هنا بأن تفسير ظاهرة من الظواهر على أنها **Lusus naturae** (أي: فلتة من فلتات الطبيعة، أو ظاهرة لا تخضع للنواميس العامة في الطبيعة) هو تفسير هروبي شبيه في هروبيته بالتفسير الذي يشير إلى «خصائص خفية».

هذا ويكرر «سويفت» الإشارة إلى هذا الموضوع في الجزء الثالث من الفصل الثامن من **رحلات جلڤر**، حيث يُجْري مقابلة بين «أرسطو» و«ديكارت» ويشير إلى نظرية «نيوتن» في الجاذبية.

(٦) **رَدُّهم لم يتجاوز ابتسامة احتقار...:**

سخريته من تعصب العلماء القائم على جهلهم يتبع «سويفت» طريقة «لوسيان» الذي يقول في ص ١١٥ من كتابه (**Icaromenippusi**): رغم صعوبة التأكد من الوقائع فإنهم [يقصد العلماء] لا يطرحون نظرية ما على أنها فرضية مؤقتة، بل يبذلون جهدًا مستميتًا كي يثبتوا أنه لا يمكن لأية نظرية أخرى أن تكون صحيحة».

انظر كذلك موقف الحصان (سيد جَلِڤر وأستاذه) في الجزء الرابع ـ الفصل الثالث من **رحلات جلڤر**، حين يتهم الحصانُ ضيفه «جلڤر» بالكذب لأنه يقول بوجود بلاد أخرى غير بلاد الهوينهم.

(٧) **وسؤالي إن كنتُ من حزب الأحرار أو حزب المحافظين:**

كان «سويفت» غير راض عن انتشار روح التحزّب. وفي مقالةٍ له بعنوان **"Sentiments of a Church-of-England Man"** (١٧٠٨) يقول ما معناه «... لقد حطمت روح التحزب هذه كل مبادئ الإحسان والجوار والأخوة وكرم الضيافة، وقَصَمَتْ كل روابط الصداقة وقسمت العائلات على نفسها. ولا عجب أن يحصل ذلك حين صِرْنا حين نريد معرفة شخصية إنسان لا نسأل عن فضله وشرفه ودينه وذكائه وعقله وعلمه، بل أصبح السؤال

الحديث هو عن حزبه: هل هو من الأحرار أو المحافظين». انظر:
.Jonathan Swift, **Prose Writings of** Jonathan Swift, ed. H. Davis, 1959-66. vol. II, 24.

(٨) **يحمل عصا بيضاء طويلة بطول الصاري الرئيسي...:**
عصا بيضاء: ترمز إلى وزير الخزانة.
بطول الصاري الرئيسي في السفينة المسماة **ملكة البحار**: كانت هذه السفينة الحربية للملك «شارلز» الأول، وبُنِيَتْ عام ١٦٣٧، وكان طول الصاري الرئيسي فيها يبلغ حوالي ١١٠ (مائة وعشرة) أقدام.

(٩) **تبني أعشاشًا وجحورًا تسميها بيوتًا ومُدُنًا...:**
هذه النظرة الفوقية إلى إنجازات الجنس البشري، وهذا الوصف التصغيري والتحقيري لهذه الإنجازات، يوجد ما يشبهها في كتابات لوسيان (Lucian, **Icaromenippus**, p. 123) حيث نجد وصفًا لمدينة تمت مشاهدتها من القمر وبدَتْ كأنها تلّة نَمْل صغيرة، «تزحف حولها جموع غفيرة من النمل، بعضها منطلق إلى السهل وبعضها عائد إلى المدينة. وتُرى نملة تحمل روثًا وأخرى تعود ركضًا وهي تحمل قشرة فول أو نصف حبة قمح. ولا شك أن لدى هذا النمل ما يعادل ما عندنا من مهندسين، وسياسيين يساريين ووجهاء مدينة، ورجال أدب وفلاسفة...».

(١٠) **قزم الملكة**: «سيرانو دي برجراك» يزعم أيضًا أنه أثناء إقامته على القمر قابل قزمًا للملكة، وأنه اكتشف أن ذلك القزم هو «دومينجو جونزاليس» بطل قصة **The Man in the Moon** التي كتبها «فرانسيس جودْوِن» **Francis** Godwin ونشرها عام ١٦٣٨.
انظر: (Eddy, 1963: 21).

(١١) **كلية جريشام**: كانت هذه الكلية مقرًا للجمعية الملكية العلمية (Royal Society) من ١٦٦٠ حتى ١٦٦٦ ومن ١٦٧٣ حتى ١٧١٠. وربما كانت هذه الصور المنفرة لحشرات مكبرة تكبيرًا ضخمًا تهدف إلى السخرية من أعضاء في الجمعية الملكية مثل «روبرت هوك» «Robert Hooke» الذي نشر كتاباً بعنوان **Micrographia** عام ١٦٦٥ وفيه صور توضيحية مكبرة للبراغيث والذباب.

الجزء الثاني: الفصل الرابع

(١) **تمتد بلاد هذا الأمير...:**
يشير «ج. ر. مور» (J.R. More, **JEGP**, XL, 1941, 217-8) إلى أن ستة آلاف ميل على خط العرض المذكور في النصّ هي أكثر بكثير من ثلث المسافة حول الكرة الأرضية. أما «كيس» (Case, 1958: 58) فيشير إلى أن أبعاد «بروبدنجناج» إذا قُسِمت على ١٢ تعطينا مساحة مقاربة لمساحة الجزر البريطانية.

(٢) **المملكة شبه جزيرة...**: هكذا كانت **يوتوبيا** قبل أن يأمر الملك «يوتوبوس» بشق قناة تفصل «يوتوبيا» عن اليابسة.
انظر: **يوتوبيا** ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان (١٩٧٤)، ص ١٤٢.

(٣) **تحتوي على إحدى وخمسين مدينة**: هذا يقارب عدد المدن في **يوتوبيا** حيث يوجد «أربع وخمسون مدينة» (**يوتوبيا**، ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان، ص ١٤٢). وكل من هذين العددين قريب من عدد المقاطعات (counties) في إنجلترا و«ويلز».

(٤) **يكفي أن أصف «لورْبرولْ جْرودْ» العاصمة**: قارن مع **يوتوبيا** حيث تجد جميع المدن «متشابهة» في نظامها... وفي مظهرها». انظر (**يوتوبيا**، ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان (١٩٧٤). ص ١٤٢).

(٥) **حيث يكثر المتسولون...:**
يعتقد فيرث (Firth, 1919: 248) أن سويفت استوحى مشاهد المتسولين هنا من مشاهد المتسولين في «دَبْلِن» بإيرلندا.

(٦) **برج ساليزبُري**: ارتفاع هذا البرج هو ٤٠٤ أقدام. وحسب نسبة الأبعاد بين عالمنا وعالم العمالقة التي هي ١ إلى ١٢ فإن ارتفاع برج المعبد الرئيسي في عاصمة العمالقة ينبغي أن يكون ٤٠٤ × ١٢ = ٤٨٤٨ قدمًا لكي يعادل في أهمية الارتفاع برج «ساليزبري».

(٧) **تمتُّ بقياس إصبع صغير... طوله... أربعة أقدام وبوصة واحدة**:
قارن مع مبالغات «لوسيان» في كتابه **تاريخ صادق** (ص ٢٥١) حيث يقوم المسافرون بقياس أثر قدم «هرقل» ويجدون طولها ١٠٠ قدم، وقياس أثر قدم «ديونيسوس» ويجدون طولها ٩٩ قدمًا.

(٨) **قبة كنيسة «سانت بول»**: طول قطرها الداخلي ١٢٢ قدمًا، وارتفاع برجها مثل ارتفاع برج «ساليزبُري» هو ٤٠٤ أقدام. ومما تجدر ملاحظته أن «جلفر» عاد إلى إنجلترا من بلاد العمالقة في عام ١٧٠٦ في حين أنه لم يتم العمل في بناء كنيسة «سانت بول» إلا عام ١٧١٠.
انظر: (Turner, ed. 1980: 331 Note 16).

(٩) **فقد لا يصدقني أحد...**:
هذا تعبير تقليدي مألوف في قصص الرحلات الساخرة التي تنطوي على مبالغات كبيرة. ومن الأمثلة على ذلك قول «لوسيان» في تاريخ صادق (ص ٢٦١): «وإني لأتردد في أن أحدثكم عن عيونهم خشية أن تظنوا أنني أبالغ لأن الأمر يكاد يستحيل على التصديق» وكذلك قول «توماس مور» على لسان «هيثولداي» في يوتوبيا: «وهم [أي سكان يوتوبيا] يحتفظون بها [أي بالأموال] بطريقة أخجل حقًا من الكشف عنها، خوفًا من ألا تصدقوا كلماتي...» (يوتوبيا، ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان، ١٩٧٤، ص ١٦٧).

(١٠) **يتّهم الرحالون كثيرًا بالمبالغة**:
كان «لوسيان» من أول من عبَّروا عن اتهامهم للرحالين بالمبالغة أنظر مقدمة «لوسيان» لكتابه **تاريخ صادق**، ص ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

الجزء الثاني: الفصل الخامس

(١) **حجم حبة البرد يساوي ألفًا وثمانمئة ضعف**: الرقم الصحيح ينبغي أن يكون (١٢ × ١٢ × ١٢)، أي ١٧٢٨ ضعفًا.

(٢) **الطيور الصغيرة لم يظهر عليها أي خوف مني**:
واجه «سيرانو دي برجراك» موقفًا مماثلًا في رحلته إلى الشمس. انظر:
* (Histoire Comique, p. 276)
* (Eddy, 1963: 128-9).

(٣) **وصيفات الشرف**:
هذه الفقرة والفقرة التالية عن سلوك «وصيفات الشرف» في بلاد العمالقة أغضبت وصيفات الشرف في بلاط الملك جورج الأول في إنجلترا وأثارت احتجاجهن الشديد. انظر: **H. Williams, ed. Correspondence of Jonathan Swift** (1965), vol. III, p. 190.
ويرى تيرنَرْ (1980: 332, Note 13) وإدي (Eddy, 1963: 130-1) أن سلوك السيدات في بلاط ملك بروبدنجناج أكثر احتشامًا بكثير من سلوك الأميرة العملاقة مع الحسن البصري في **ألف ليلة وليلة**.

(٤) **يتبوَّلن كمية من البَوْل... أكثر من ثلاثة أطنان**:
قارن مع «أوفيد» الشاعر الروماني الساخر، الذي يقترح مشاهد من هذا النوع لشفاء العاشقين من داء الحب.
انظر (Ovid, **Remedia Amoris**, Lines 437-440).

(٥) **النافورة الكبرى بحدائق ڤرساي**؛ كان الماء حين ينطلق منها يصل إلى ارتفاع ٧٥ قدمًا. انظر: (Turner, ed. 1980: 332, Note 18).

(٦) **حتى وصل إلى سطح مجاور لسطحنا...:**

يؤكد تيرنَر (1980: 332, Note 22) أن قصة «جلفر» هذه مع القرد كانت قد كُتبت قبل يونيو ١٧٢٢ حين كتبت «ڤانيسّا» (وهو الاسم المستعار لفتاة كان بينها وبين سويفت علاقة حب قوي) إلى «سويفت» رسالة تصف فيها بعض الشباب الخليعين الذين يشبهون القرود وكانت قد التقت بهم في إحدى الحفلات، وتقول في الرسالة: «واحد من هؤلاء الحيوانات خطف مروحتي وراح يبدي إعجابه الشديد بي حتى... خُيِّل لي أنه سيخطفني ويصعد بي إلى سطح المنزل ويعاملني كما عومل أحد أصدقائك...» انظر: (H. Williams, **Correspondence of J.S.** (1965), vol ii, p. 428).

(٧) **اعترضت طريقي كومة من روث البقر:**

ربما استوحى سويفت هذه القصة من قصة مماثلة في **الإلياذة** حيث يكون «إيجاكْس» على وشك الفوز في سباق العَدْو لكنه يتزحلق على كومة من روث البقر ويقع منبطحاً على وجهه في الروث.

الجزء الثاني: الفصل السادس

(١) **موسيقاهم ليست مزعجة:**

يقول «صامويل جونسون»: (S. Johnson, **Lives**, ed. G.B. Hill, 1968, III, 53) إن «سويفت» لم يكن يحب الموسيقى ولم يكن يفهمها»، وإنه قال ذات مرة: «لست أعرف شيئًا عن الموسيقى، وكل الموسيقى التي في الكون لا تُساوي عندي شيئًا».

(٣) **فيها ثلاث ممالك عظيمة:**

يشير «فيرث» (Firth, 1919: 373) أن اسكتلندا لم تتحد مع إنجلترا بشكلٍ نهائي إلا عام ١٧٠٧ (أي بعد عودة «جلفر» من بروبْدِنْجْناج بسنة واحدة). لكن الملك وِلْيم وزوجته الملكة ماري كانا قد أصبحا ملكين على اسكتلندا عام ١٦٨٩، كما أصبحا أيضًا، بعد معركة بوِيْنْ (Boyne) عام ١٦٩٠ ملكين على إيرلندا اسمًا وفعلاً.

(٣) **العناية البالغة التي تُبْذَل في تعليمهم:**

قارِنْ كلام «جلفر» هنا عن تعليم أبناء النبلاء مع رأي «سويفت» في سوء تعليم أبناء الأثرياء وكبار القوم. فهو يقول في إحدى مقالاته (**Intelligences IX**) ما يلي: «يزداد سوء التربية والتعليم بقدر ما تزداد ثروة الوالدين وعظمتهما. ولستُ أشك على الإطلاق أنه لو كان العالم كله تحت حكم ملك واحد، لكان الابن الوحيد لذلك الملك ووارث عرشه من بعده هو أسوأ بني البشر تربية وتعليمًا منذ بدء الخليقة».

انظر: (H. Davis, ed. **Prose Writings of J.S.**, 1959-66, XII, 46).

(٤) **المحكمة العليا التي تكون أحكامها مبرمة وقاطعة:** كان مجلس اللوردات هو المحكمة العليا التي ليس لأحكامها استئناف، وهذا وَضْعٌ كان «سويفت» يحتج عليه.

(٥) **لم ينحرف أحفادهم قط:** كان انحراف وانحطاط العائلات الأرستقراطية موضوعًا تقليديًا متكررًا للأدباء الساخرين منذ القصائد الساخرة للشاعر الروماني الساخر جوڤنال (٦٠ - ١٤٠ م).

(٦) **بعد أن يبحثوا عنهم... آباء روحيون لرجال الدين والشعب:**

ربما كان «سويفت» وهو يكتب هذه الكلمات على لسان «جلفر» يفكر بفشله في الحصول على منصب «أسقف» (bishop).

(٧) **دون أن يكونوا قط تَذَلَّلوا لأحد النبلاء...:**

ربما كانت هذه العبارة تعريضًا بـ(إيرل وارتون) الذي ادّعى «سويفت» في مقالة له عام ١٧١٠ أنه [أي إيرل

وارتون] حاول أن يُرَقّي أحد رجال الكنيسة لديه إلى منصب أسقف لأنه قبل أن يتزوج خليلة كان الأيرل قد ملّها وأراد التخلص منها.

(٨) **وكيف يحدث أن يرغب الناس... في الوصول إلى عضوية هذا المجلس:**

يرى «إرنبريز» (Ehrenpreis, **PMLA**, LXII, 1957, p. 888) أن سويفت استوحى هذه الإشارة من إحدى النصوص التي كتبها «وِلْيم تِمْبِلْ» (Sir William Temple, **Works**, 1770, III, 42-3).

(٩) **فإنه لا يفهم كيف تنفق الدولة أكثر من مواردها...:**

يمثل رأي الملك هنا السياسة الاقتصادية لحزب المحافظين الذين كانوا يعارضون مبدأ اقتراض الدولة من الشعب حسب ما يُعْرف بالدَّيْن القومي. انظر: (Firth, 1919: 247). وقد بدأ تطبيق هذا المبدأ في ١٦٩٣ في ظل حكومة حزب الأحرار، ثم وُضِع له نظام خاص من قبل بنك إنجلترا في ١٦٩٤.

(١٠) **أن جنرالاتنا لا بد أن يكونوا أغنى من ملوكنا:**

يقال أن سويفت أراد بهذه العبارة النيل من القائد الانجليزي المظفر «مارْلْبورو» الذي حقق لإنجلترا أمجادًا عسكرية بانتصاراته على الفرنسيين وحلفائهم، والذي كان من دعاة استمرار الحرب ضد فرنسا. ويشير «تيرنَرْ» (1980: 334, Note 27) إلى قول «سويفت» في مقالته المشهورة «سلوك الحلفاء: Conduct of the Allies» ما ترجمته: «... هل يظن دعاة الحرب... أن كسب مدينة للهولنديين... تعويض كافٍ لنا عن خسارة ستة ملايين من النقود؟... ليس في كل هذا أية فائدة لنا... وليس له أية غاية سوى... زيادة شهرة قائدنا الجنْرال [يقصد: مارلبورو] وثروته».

النص الانجليزي موجود في: H. Davis, ed., **Prose Writings of J.S.** (1959-66), VI, 20.

(١١) **جيش دائم من المرتزقة...:**

هناك اعتراضات على الاحتفاظ بجيش دائم في الكتابات التالية:

* يوتوبيا تأليف «توماس مور» وترجمة د. أنجيل بطرس سمعان (١٩٧٤)، ص ١٢٤، وص ١٢٧.
* Sire William Temple, **Work**, (1770), I, 45.
* Ehrenpreis, **PMLA**, LXXII, 1957, 888-9.

كما كان الاعتراض على الاحتفاظ بجيش دائم من المبادئ الثابتة لحزب المحافظين. انظر: (Firth, 1919: 247)

(١٢) **إنه لا يعرف سببًا لإجبار الناس... ضعف وهوان:**

يقبل «سويفت» بحرية الفرد في اختيار معتقداته الشخصية لأن ذلك واقع لا يمكن إنكاره وتجاهله، لكنه في الوقت نفسه يرفض حرية نشر المعتقدات الشخصية إذا كانت تتعارض مع المعتقدات العامة تعارضًا صارخًا يؤدي إلى بلبلة أفكار الأمة وإلى انقسام الأمة إلى طوائف متناحرة. انظر قوله في مقالة له عنوانها «خواطر حول الدين: Thoughts on Religion» ما ترجَمَتُه:

«إن القول إن على المرء أن يُؤْمِنَ قولٌ يجافي الحقيقة وينكره العقل. نستطيع أن نرغم الناس، بالترغيب أو بالترهيب، أن يقولوا ويُقْسِموا أنهم يؤمنون، وأن يتصرفوا كأنهم مؤمنون، لكنك لن تستطيع أكثر من ذلك. ينبغي لكل فرد بصفته عضوًا في المجتمع، أن يكتفي بالاحتفاظ برأيه الخاص لنفسه، ولكن لا يجوز له أن يبلبل أفكار جاره أو يثير فتنة في مجتمعه». انظر:

(H. Davis, ed,. **Prose Writing of J.S.** (1959-66), IX, 261).

كذلك نجد في يوتوبيا (ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان، ١٩٧٤، ص ٢١٤) أن القانون «يكفل... لكل شخص حرية اعتناق الدين الذي يريده، ويسمح له بدعوة الآخرين إلى دينه، بشرط أن يؤيد الدعوة بالمنطق وبهدوء ووداعة، وأن لا يهاجم الأديان الأخرى بمرارة إذا لم تنجح حججه... فإذا ما عبَّر عن آرائه بعنف وحماس متطرف، عوقب بالنفي أو بأن يصبح عبدًا».

أما الكافر بالله وبالروح فإنهم في يوتوبيا «يمنعون مثل هذا الشخص من مناقشة أفكاره في حضور عامة

الشعب» (ص ٢١٦)، كذلك يُحرّم «من جميع أنواع التكريم، ولا يشغل أية وظيفة عامة، ولا يكلّف بأي عمل....» (ص ٢١٥).

الجزء الثاني: الفصل السابع

(١) **ديونيسيوس ناسينسيس:**
«مؤرخ يوناني عاش في روما حوالي عام ٢٥ ق.م. وكتب تاريخًا لروما في عصورها الأولى مدح فيه روما، في الفصل الثالث من رسالة إلى بومبيوس يقول إن «هيرودوتس» مؤرخ أهم من «ثوسيديدِسْ» لأن الأخير كان ناقمًا على بلاده التي أمَرَتْ بنفيه، ولهذا كان يسجل أخطاءها ومفاسدها بدقة، في حين كان يغفل عن ذكر أمجادها ومفاخرها أو يذكرها بإيجاز شديد وكأنه كاره لذلك».
انظر: (Turner, ed., 1980: 335, Note 2).

(٢) **اختراع اكْتُشِفَ قبل ثلاثمئة أو أربعمئة سنة:**
يقال إن اختراع البارود تم على يدي «بيرتولْدْ شفارتْز» عام ١٣٥٤. لكنه من المعروف أن المدافع استُعْمِلَت في «فلورنس» قبل ذلك، وفي عام ١٣٢٦. ويظهر رسم لمدفع في إحدى مخطوطات أوكسفورد عام ١٣٢٥. انظر: (Turner, ed., 1980: 335, Note 3).

(٣) **إذا رُبِطَت هذه الكرات بسلسلة...:** كانت القذائف المربوطة بسلسلة (قذيفتان أو نِصْفي قذيفة مربوطتان بسلسلة) تستعمل بشكل رئيس في المعارك البحرية. انظر: (Turner, ed., 1980: 335, Note 4).

(٤) **تحويل السياسة إلى علم:**
لمزيد من المعلومات حول معالجة السياسة بشكل علمي، والتي بدأها مكيافيلي في كتابه **الأمير** (١٥١٣)، انظر: E.B. Benjamin, **JHI**, XVIII, 1957, 572-9.

(٥) **من يستطيع أن ينتج سنبلتين...:**
كان المحافظون، ومنهم «سويفت» يؤيدون سياسة تشجيع الزراعة. ونجد في رسائل تاجر جوخ التي كتبها «سويفت» عام ١٧٢٤ قوله: «ذات مرة قلتُ لأحد الساسة الكبار في انجلترا، إن قليلين من رجال السياسة، رغم كل خططهم وبرامجهم، يفيدون أبناء المجتمع نصف ما يفيدهم به المزارع الشريف الذي تؤدي جهوده في تصريف المياه وتسوير الأراضي وتسميدها وزراعتها إلى زيادة القيمة الذاتية لقطعة من الأرض، وبهذا يؤدي لبلاده خدمة مستمرة، في حين أنه من المشكوك فيه أن أيًا من رجال السياسة يفعل ذلك، بل إنه من المؤكد أن ٩٩٪ منهم يُلحقون بالبلاد الكثير من الأذى». انظر: (H. Davis, ed., **Prose Writings of J.S.** (1959-66), X, 141).

(٦) **علومهم.. موجهة بكاملها إلى ما هو نافع في الحياة:** يتفق هذا مع قول مأثور للكاتب «فرانسيس بيكون» في مقالته The Advancement of learning (١٦٠٥): «إن آخر وأبعد غاية للمعرفة هي فائدة الناس وخدمتهم».

(٧) **المثل العليا:** النص الأصلي: "ideas"، وهي عند أفلاطون «المثل العليا» أو «النماذج الأصلية» للأشياء، وكل شيء مفرد ليس سوى نسخة غير كاملة عنها. مثلاً: كلمة «إنسان» تدل على «المثل الأعلى» أو «النموذج الأصلي» لمفهوم الإنسان، أما أحمد وجورج وفاطمة وكاترين فهم ليسوا سوى نماذج فردية، وكل واحد منهم ليس سوى صورة ناقصة عن المثل الأعلى لمفهوم «الإنسان».

(٨) **أما بالنسبة للمثل العليا.... والتجريدات... فهم لا يفقهون شيئًا منها...:**
هذا هو موقف «سويفت» نفسه نحو العبارات الفنية في الفلسفة التجريدية، وهو يسخر منها بالإكثار من العبارات غير الواضحة المعاني. وموقفه قريب من موقف «توماس مور» الذي يقول في كتابه يوتوبيا: «إنهم [أي سكان يوتوبيا] أبعد ما يكون عن الوصول إلى المستوى الذي بلغته اكتشافات علماء المنطق المُحْدَثين عندنا.

والواقع أنهم لم يخترعوا واحدة من تلك القواعد البالغة الحذق والخاصة بالتحديدات والتكبيرات والافتراضات مما يتعلمه أطفالنا في كل مكان في [كتاب] **المنطق الصغير**. وفضلاً عن ذلك فهم يفتقرون تماماً إلى القدرة على مناقشة الأهداف الثانية لدرجة أنه ما من واحد منهم يستطيع أن يرى حتى الإنسان نفسه كمُطلَق..».

انظر: (يوتوبيا، ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان (١٩٧٤)، ص ١٧٣).

(٩) **لا يجوز أن تتجاوز كلمات أي نص قانوني...:**

تجدر الإشارة إلى الشبه بين معاني هذه الفقرة وما وَرَدَ في **يوتوبيا** (ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان (١٩٧٤)، ص ص ١٩٦ - ١٩٧):

«وليس لديهم سوى القليل جدًا من القوانين... هم يرون أنه ليس من العدل في شيء أن جماعة من الناس تفرض عليها قوانين إما هي أكبر عددًا من أن تُقرأ كلها، وإما هي أكثر غموضًا من أن يفهمها أي شخص... إنهم ينفون من بلادهم جميع المحامين... هم يرون أن أوضح تفسيرات القانون هي أصح التفسيرات...».

(١٠) **أن الطبيعة قد انحدرت نحو الأسوأ...:**

القول بأن الكائنات البشرية كانت تتمتع في الماضي بأجسام أكبر هو مقولة قديمة جدًا. وقد ذكرها «هوميروس» في **الإلياذة** (Homer, **The Iliad**, XII, 447-9)، لكنها حظيت بانتشار وقبول واسعين في القرن السابع عشر. ويزعم كتاب فرنسي نُشِر عام (١٧١٨) أن طول آدم كان ١٢٣ قدماً وتسع بوصات، وأن طول النبي موسى كان ١٣ قدماً، وأن طول الاسكندر لم يزد على ٦ أقدام. انظر: (Eddy, 1968: 123).

(١١) **هذا إذا صح أن نطلق كلمة جيش... والفلاحين في الأرياف:**

قارن هذا مع ما ورد في **يوتوبيا** (ترجمة أ. ب. سمعان (١٩٧٤) ص ٢٠٠) حيث نجد أن «الرجال والنساء على حد سواء يتدربون على الأعمال الحربية في أيام محددة، حتى لا يفتقروا إلى اللياقة الحربية إذا دعت الحاجة للحرب».

الجزء الثاني - الفصل الثامن

(١) **كان عاقدًا العزم على أن يحصل لي على امرأة من جنسي وحجمي لَعَلّي أنجب منها ذُرّية:**

«سيرانو دي برجراك» تعرض أيضًا لموقف مشابه في رحلته إلى القمر حيث صدر أمر ملكي بتزويجه للإسباني «جونزاليس»، وهو ذكر مثله، لنفس الغاية.

انظر: (Cyrano de Bergerac, **Histoire Comique...** p. 133) *

* (Eddy, 1968: 128).

(٢) **كطيور الكناري المدجّنة:**

هذا تشبيه كان يحمل في أيام «سويفت» مدلولاً حقيرًا، إذ كان «طير الكناري» في اللهجة العامية المعاصرة يعني «قوادًا» أو «عاهرة»، وإذا قُبِض على أي منهما كان يُسْجَن في قفص.

انظر: (A.M. Taylor, **TSE**, VII (1957), 52). «سيرانو دي برجراك» حُبِس فعلاً في قفص (Eddy, 1968: 21).

أما رغبة الملك في جعل «جلفر» ينجب ذرية من الأقزام فربما كان «سويفت» قد استوحاها من زيجات مماثلة بين أقزام و«قزمات» حصلت في حياة «سويفت» منها زيجة بين قزم و«قزمة» تمت في (سان بطرسبرج) عام ١٧١٠، ومن محاولات عديدة فاشلة لإنجاب ذرية من الأقزام.

انظر: (A.M. Taylor, **TSE**, V (1955), 99).

(٣) **رحتُ أتطلع إلى البحر .. الحزين:** ربما كان تقليـدًا ساخـرًا لما وَرَد في ملحمة **الأوديسة** (**Odyssey**, V, 151-158) حيث يجلس «يوليسيس» فوق صخرة على شاطئ جزيرة الإلهة الساحرة «كاليبسو» (تُمَثّلها هنا جْلَم دالْ كْليتْش)، ويتطلع إلى البحر وهو يذرف الدموع شوقًا لأهله وحنينًا لوطنه.

(٤) **أن نسرًا كان يحمل حلقة الصندوق في منقاره**: قارن هذا بما حدث مع «سيرانو» حين حمله طير الرّخ. انظر (Cyrano... **Histoire Comique**, p. 339)، وقارن أيضًا بما حدث للسندباد الذي حمله الرُّخ من وادي الجواهر. انظر: (**ألف ليلة وليلة**: الكتاب الثالث: ص ص ٤٠٨ ـ ٤١٣. بيروت: منشورات دار الحياة: دون تاريخ).

(٥) **كما يفعل بالسلحفاة البحرية**: يقال إن «اسخيلوس» (المؤلف المسرحي اليوناني الشهير قُتِل حين ظنّ نسرٌ صلعته صخرة فأسقط عليها سلحفاة بحرية مقوقعة وبهذا قتله. انظر: (Turner, ed., 1980: 337, Note 7).

(٦) **أدركتُ حينئذٍ أنني قد سقطتُ في البحر**:

ربما استوحى «سويفت» فكرة هذه العبارة من الطريقة التي مات بها القزم «جون ورْمْـبِرْغ» الذي غـرق في «روتردام» عام ١٦٩٥ حينما سقط الحمّال، الذي كان يحمله وهو داخل صندوق، في النهر.

انظر: (A.M. Taylor, **TSE, VII** (1957), 30).

(٧) **تشبه قصة سقوط «فَيْتون»**: هذه إشارة لقصة في الميثولوجيا اليونانية. «فَيْتون» هو ابن «هيليوس» إله الشمس. تقول القصة إن «فَيْتون» أصرّ أن يقود مركبة الشمس، ثم فقد السيطرة على الخيول التي تجرّها وكاد بذلك يتسبب في حَرْق الأرض، لكن «زيوس» كبير الآلهة صعقه بواحدة من صواعقه الرعدية وأسقطه في نهر «إيريدانوس».

ولا شك أن هدف القبطان من تشبيه سقوط «جلفر» من منقار النسر بسقوط «فيتون»، هو الإشارة إلى الكبرياء أو الغرور الذي يؤدي إلى سقوط الإنسان. لهذا استقبل «جلفر» هذه الدعابة ببرود.

(٨) **تونكين**: مقاطعة في الهند الصينية أو ما يسمى الآن ڤيتنام.

الجزء الثالث ـ الفصل الأول

(١) **لابوتا:**
هذا الاسم مشتق حسب رأي «فيرث» (Firth, 1919: 254) من الكلمة الأسبانية **La puta** التي تعني «العاهرة». ويشير «فيرث» إلى مثل شعبي إسباني مذكور في القاموس الإسباني الذي كان في حوزة «سويفت»، يقول: «احذر من العاهرة التي تترك الجيب فارغاً». ويرى «فيرث» أن هذه التسمية تشير إلى قيام إنجلترا بنهب خيرات إيرلندا وإفقار شعبها. ويؤيد هذا التفسير ما كتبه «سويفت» في مقالة له بعنوان **A Short View... of Ireland (1728)** حيث يقول إن نصف دَخْل البلاد كلها يذهب ربحاً صافياً لإنجلترا.
انظر: (H. Davis, **Prose Writings of J.S.** (1959-66), XI, 9).
وبما أن قصة «لابوتا» تسخَر من العلماء والأكاديميين والمفكرين بشكل عام فإنه يمكن أيضًا تفسير كلمة «لابوتا» بمعنى «بلاد المفكرين» واعتبارها مشتقة من الكلمة اللاتينية «puto».

(١) **القبطان «وليم روبنسون»... سفينته اسمها «هوبْ وِل»:**
في سجلات ١٧٠٢ يوجد ذِكْر لسفينتين تحملان اسم هوبْ فُلْ. كذلك يوجد في سجلات ١٧١٠ ذِكْرٌ لقبطان اسمه «وليم روبنسون» يقود سفينة اسمها «أدْفِنْتْشَرْ» (وهو اسم للسفينتين اللتين ركبهما جلفر في الجزءين الثاني والرابع).
انظر (C.C. Seronsy, **NQ**, cci, 1957, 471).

(٣) **لهفتي على رؤية العالم... عنيفة...:**
حبّ السفر والرغبة في رؤية بلاد أجنبية والتعرف على شعوب وأمم أخرى كانا حافزاً على السفر تكرر ذكره في قصص «لوسيان» **وقصة يوتوبيا، وقصة روبنسون كروزو،** وقد ذكره «جلفر» في (الجزء الأول ـ الفصل الثامن، هامش رقم ٦).

(٤) **قلعة سان جورج:** قلعة أَنْشَأَتْها شَرِكة الهند الشرقية عام ١٦٤٠ وتحولت فيها بعد إلى مدينة «مَدْراسْ».

(٥) **متحالفين:** رغم المنافسة التجارية الشديدة بين إنجلترا وهولندا فإنه كان بين البلدين تحالف قوي (عام ١٧٠١) ضد فرنسا.

(٦) **خط الطول ١٨٣:**
في خرائط «هيرمان مول» (Moll) كانت خطوط الطول تُحْسَب على أنها ٣٦٠ خطاً شرقي لندن. وهكذا فإن الموقع المشار إليه هنا هو على خط الطول ١٧٧ غربي «جرينِتْشْ»، في مكان ما في المحيط الباسيفيكي (الهادي) شرقي اليابان وجنوبي جزر «ألوشيات».
انظر: (Williams, 1926: 477).

(٧) **فرأيتُ جسماً ضخماً كامداً ومُعْتماً بيني وبين الشمس:**
هذا المشهد شبيه بمشهد الاقتراب من القمر كما وصفه «لوسيان» في كتاب **تاريخ صادق** (Lucian, 1968: 253)

حيث يقول: «في اليوم الثامن شاهدنا ما يشبه جزيرة كبيرة معلقة في وسط الهواء، بيضاء ومستديرة ومضاءة بنور ساطع».

كذلك فإن من الممكن أن يكون «سويفت» قد استوحى فكرة استخدام جزيرة كهذه لأغراض السخرية السياسية من قصة للكاتب «دانيال ديفو» عنوانها **The consolidator**، نشرت عام ١٧٠٥. في هذه القصة يطير المؤلف إلى القمر في عربة ذات أجنحة تخفق أوتوماتيكيًا، ويجد في القمر مقاطعات تمثل أصحاب مذهب الربوبية (Deists)، وأتباع الكنيسة العليا (Anglicans)، والخوارج (Low churchmen or Dissenters)، وأتباع حزب الأحرار، وأتباع حزب المحافظين.

(٨) **قعر... شديد اللمعان**: ربما لأن علماء القرن السابع عشر كانوا يستعملون كلمة "adamant" للدلالة على حجر الماس، وأيضاً للدلالة على الحجر المغناطيسي.

(٩) **قادرون على رفعها وإنزالها وتحريكها للأمام كما يشاءون**:

في القرن السابع عشر ظهر لدى الناس اهتمام شديد ببناء آلات طائرة، وقد اخترع «روبرت هوك» (Robert Hooke)، سكرتير الجمعية العلمية الملكية ثلاثين من الآلات الطائرة.

انظر: (Turner, ed., 1980: 340, Note 15).

الجزء الثالث ـ الفصل الثاني

(١) **لم أرَ... جنسًا من البشر في غرابة أشكالهم وملابسهم وسِحَنِهِمْ**:

هذا الأسلوب الساخر الذي يعلق المفكرين التجريديين في الهواء قديم جدًا. وقد استعمله الكاتب اليوناني الكوميدي الساخر «أرسطوفانيس» في مسرحيته الغيوم (Clouds, 218 F) حيث وضع «سقراط» في سلة معلقة في الهواء.

لكن إرِنْبْريز (I. Ehrenpreis, PMLA, LXXII, 1957, 895-8) يعتقد أن «سويفت» رسم مفكري «لابوتا» على نمط صديقه «توماس شِريدان» الذي كان «سويفت» يقيم معه في «كُويلكا: Quilca» من أبريل حتى سبتمبر من عام ١٧٢٥، حين كان «سويفت» يكتب وينقح هذا الجزء الثالث من رحلات جلفر. وقد كان «توماس شِريدان» شديد الشرود الذهني.

(٢) **كانت رؤوسهم... مائلة... وإحدى عيونهم موجهة للداخل والأخرى شاخصة إلى قبة السماء**:

ربما كان «سويفت» قد استوحى هذا الوصف من صورة رمزية لعلم الرياضيات كانت موجودة في كتاب ألّفه «C. Giarda» عام ١٦٢٦ وعنوانه **Icones Symbolicae**. في الصورة الرمزية فتاة «تلبس عباءة مزينة برسوم للبوصلة والنجوم والأرقام ونوطات موسيقية، وتحمل أدوات هندسية، وجفن إحدى عينيها مغمض أما العين الثانية فتنظر نحو الأعلى».

انظر: (K. Williams, NQ, ccviii, 1963, 216).

(٣) **مستغرقًا دائمًا في التفكير...**: تكرار مع بعض التغيير لقصة تقليدية عن «تاليس» (Thales)، وهو أحد الحكماء السبعة، الذي سقط في بئر وهو يسير متأملًا في النجوم. وربما يكون «سويفت» قد قصد الإشارة إلى بعض القصص الطريفة المعاصرة عن «نيوتُنْ» وشرود ذهنه، ومنها على سبيل المثال أنه أراد أن يسلق بيضة فَوَضع ساعته في ماء يغلي وظلت البيضة في يده، وأنه أحدث ثقبين في باب مكتبته، ثقب كبير لقِطّة، وآخر صغيرة لقُطَيْطَة. انظر: (Gough, 1956, 382).

(٤) **أمام العرش... طاولة كبيرة عليها... أدوات هندسية**:

مع أن الملك جورج الأول لم يكن يهتم كثيرًا بالعلوم والرياضيات، فقد اشتهر عنه أنه كان يفخر بوجود «نيوتُن» كأحد رعاياه في بلد، وبوجود «لَيْبْنِتْز Leibniz» كواحد من رعاياه في بلد آخر.

(٥) **كرم ضيافته للغرباء:**

يرى «كيس» (Case, 1958: 85) أن هذه العبارة ربما كانت إشارة انتقادية للملك جورج الأول الذي عيَّن الكثيرين من الألمان أبناء بلده الأصلي «هانوفر» في مناصب ذات رواتب عالية في إنجلترا.

(٦) **الجزيرة الطافية:** هذه عبارة استعملها «وِلْيم تِمْبِل» في وصفه للسياسة الخارجية الانجليزية في عهد الملك «شارلز الثاني Charles II». يقول «تِمْبِلْ»: «كان سلوكنا وأفكارنا كسلوك الجزيرة الطافية التي تسير في هذا الاتجاه أو ذاك حسبما تسوقها الرياح أو حركات المدّ والجزر».

انظر: (Turner, ed. 1980: 341 Note 13).

(٧) **أخطأ في أحد أرقام قياساته...:**

هذه القصة تهدف إلى السخرية من المحاولات التي كانت تستهدف قياس ارتفاعات الشمس والقمر والنجوم والجبال القمرية والأرضية بواسطة الرّبعية (quadrant) وآلات أخرى. انظر: M. Nicolson and N.M. Mohler, **Science and Imagination,** (1962), 120.

وربما كانت تشير بشكل خاص إلى الخطأ المطبعي في كتاب «نيوتُن» ممّا أدّى إلى إضافة صفر على قياس المسافة بين الأرض والشمس.

(٨) **لاجادو:** يرى «كلارك» (Clark, 1953: 613) أنها تعني لندن.

(٩) **كان الملك... وأفراد حاشيته... قد أخذوا كل آلاتهم الموسيقية:**

تسخر هذه الجملة وما يتبعها حتى آخر الفقرة من الملك جورج الأول الذي خصص معاشًا تقاعديًا للموسيقي «هانْدِلْ Handel» بقيمة ٦٠٠ جنيه سنويًا، كما تبرع بألف جنيه لتأسيس الأكاديمية الملكية للموسيقى (عام ١٧٢٠)، وهي مؤسسة أنشئت خصيصًا لإنتاج أوبرات «هانْدِلْ»، كذلك فإنها تسخر من ظهور موجة طاغية من الحماس للموسيقى في ذلك العصر. انظر: (Firth, 1919: 255) كذلك نجد فيها سخرية من بعض أعضاء الجمعية الملكية حينذاك، مثل الدكتور «جون والاس» الذي كتب أبحاثًا عديدة عن أوجه الشبه بين الموسيقى والرياضيات. انظر: (Nicolson and Mohler, 1962: 120-123).

(١٠) **دوخني الضجيج... موسيقى النجوم:**

هذا تقليد ساخر لما ورد في القصة التي كتبها شيشيرون بعنوان (Somnium Scipionis: x-xi)، حول صعود سيبيو (Scipio) إلى مجرة درب التبانة (Milky Way) حيث سمع أصواتًا جميلة وقيل له إنها موسيقى ذات سبع نغمات ناجمة عن دورة الكواكب، وإن قوة أصوات هذه الموسيقى تؤدي إلى الصمم لدى البشر فلا يعودون يسمعونها. وسكان «لابوتا» هم نسبيًا سكان كوكب صغير، وهم هنا يساهمون في إحداث موسيقى النجوم.

انظر: (Turner, ed., 1980: 342, Note 19).

(١١) **كانت تُدَلّى خيوط... من القنب...:**

يبدو أن طريقة تَلَقّي الطلبات والالتماسات هنا مستوحاة من نصّ في قصة **Icaromenippus** الواردة في كتابات «لوسيان»، حيث يوجد في أرضية قصر «زِيُوس»، صفوف من الثقوب لكل صف منها وظيفة معينة. أحدها لتوصيل دعوات البشر وطلباتهم من «زيوس»، وصَفّ ثان تأتي منه رائحة القرابين والأضحيات (نبيذ ومأكولات).

انظر: (Lucian 1968: 127-128).

(١٢) **يؤمنون بالتنجيم:** كلمة «التنجيم Astrology» كانت حينذاك تعني «التنجيم» «Astrology» بالمعنى الشائع حديثًا (في القرن العشرين)، وكذلك كانت تعني «علم الفلك» «Astronomy».

لاحِظْ أن أهل «يوتوبيا» يحتقرون «التنجيم» انظر: (يوتوبيا، ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان (١٩٧٤)، ص ١٧٣) حيث يرد ما يلي: «أما فيما يختص باتفاق الكواكب واختلافها، وباختصار جميع أنواع التنجيم الخادع المخجل، فذلك ما لا يحلمون به على الإطلاق».

هذا وقد قام «سويفت» عام ١٧٠٨ بدور المنجّم، وكتب متنكرًا باسم مستعار هو «إسحق بيكَرْسْتاف» نبوءة بموت منجم انجليزي معروف حينذاك اسمه «جون بارْتْرِدجْ: John Partridge» في موعد محدد. وحين حان هذا الموعد نشر «بيكرسْتَاف» (أي «سويفت») خبرًا مفصلًا عن وفاة «بارْتْرِدْجْ»، في حين راح «بارترِدْجْ» يعلن دون طائل أنه يحتج على الخبر الملفق وأنه ما زال على قيد الحياة.

انظر: (H. Davis, **Prose Writings of J.S.** (1959-66), 139-170).

(١٣) **لاحظتُ هذا الميل نفسه لدى معظم علماء الرياضة. . . :**

كان علماء الرياضة في إنجلترا يميلون إلى حزب الأحرار. كان «نيوتُنْ» صديقًا حميمًا لوزير المالية «تشارلـزْ مونتاجو» (وكان هذا من الأحرار)، كما أنه ساند «والْبولْ» في قضية العملة المغشوشة (The Wood affair) التي كان «سويفت» خصمًا لـ«والبول» فيها. كذلك كان لَيْبْنِتْزْ (Leibniz)، وهو عالم رياضيات ألماني، يساند بفعالية الاتحاد بين هولندا وانجلترا ضد فرنسا.

انظر: (Gough, 1956: 384-5).

(١٤) **أن الأرض. . . تمتصها الشمس وتبتلعها:**

كان تحليل «نيوتن» لحركة الكواكب في كتابه (**Principia Mathematica,** 1687, BKI, Sect. vii-viii) قد أوضح أنه لا بد من وجود توازن دقيق بين سرعة حركة انجذاب الأرض نحو الشمس وسرعة حركة المماسّ في مدار الأرض حول الشمس بحيث تظل الزاوية بين اتجاه الحركية زاوية قائمة. ولو انخفضت السرعة الثانية بالنسبة للسرعة الأولى فإن الأرض تقترب تدريجيًا من الشمس وتسقط آخر الأمر فيها.

انظر: (Nicolson and Mohler, 1962: 125).

(١٥) **سطح الشمس ستغلفه الحمم. . . فلا تعود تنير. . . :**

كان «ولْيَمْ دِرَمْ» (Wm. Derham) قد أفاد بأن البقع الشمسية تنجم عن ثورات في البراكين الشمسية التي تقذف الحمم وهذه بدورها تصبح قشرة تغطي سطح الشمس.

انظر:

* (**PTA (Philosophical Transactions Arbrldged),** ed. H. Jones, IV, i, 1721, 238).

* (Nicolson and Mohler, 1962, 125-7).

(١٦) **المذنّب الأخير:** مذنّب «هالي» الذي ظهر عام ١٦٨٢. كان «إدموند هالي» (Edmund Halley) قد تنبأ بعودة هذا المذنّب في عام ١٧٥٨ (أي ٣٢ وليس ٣١ سنة بعد ١٧٢٦). لكن «هالي» كان قد حسب أن متوسط فترات غياب المذنّب هي ½ ٧٥ سنة، ولهذا كان عامة الناس يتوقعون عودة المذنب في ١٧٥٧.

انظر: (Nicolson and Mohler, 1962, 127-9).

(١٧) **قد يحطمنا:** كان «وِلْيَم وِسْتون: Wm. Whiston» في كتابه (**Sacred Theory of the Earth,** 1696, pp. 126-156) وفي (**The cause of the Deluge Demonstrated,** 1716) قد أوضح أن الفيضان المذكور في الإنجيل حدث بسبب مذنّب. وفي كتاب صدر عام ١٧٣٢ وعنوانه (**A True and Faithful Narrative of What Passed in London**)، وهو كتاب ساخر نُسِب أول الأمر إلى «سويفت» ثم تبين أن مؤلفه هو «أَلِكْسَنْدَرْ بوب»، أذيع أن «وِسْتون» أعلن أنه «في يوم الجمعة القادم سيزول العالم من الوجود» بسبب مذنب، وأن المذنب ظهر في يوم الأربعاء «في الدقيقة الثالثة بعد الساعة الخامسة».

انظر: (Temple Scott, **Prose Works of J.S.** (1897-1908), iv, 276, 278).

وفي ١٧٢٤ قرأ «هالي» في الجمعية الملكية بحثًا عن طوفان نوح، وقدم فيه وصفًا حيًا للفوضى والدمار اللذين قد ينجمان عن الاصطدام بمذنّب.

انظر:

* (**PTA: Philosophical Transactions Abridged,** VI, ii, 1-5).

* (Nicolson and Mohler, 1962: 129-32).

(١٨) **أن الشمس... ستستهلك نفسها كليًا... وتختفي:**
كان «روبرت هوك» (R. Hooke, **Posthumons Works,** 1705, p. 94) قد أشار إلى احتمال حدوث هذا الأمر.
انظر: (Nicolson and Mohler, 1962, 126-7).

(١٩) **متزوجة من رئيس الوزراء...:**
يفترض أن هذه قصة أخرى للاستهزاء برئيس الوزراء «والبول» وزوجته «كاترين شورْتَرْ».
لكن فيرث (C.H. Firth, **RES,** ii, 1926, 340-341) يلاحظ هنا إشارة خاصة إلى قضية في المحكمة (١٧١٥) رفعها شخص اسمه «جون دورْمَرْ» على خادمه «توماس جونز» لأن الخادم زنا بزوجة سيده، وضربها وأساء إليها بأعمال أخرى.

الجزء الثالث: الفصل الثالث

(١) **قطرها ٧٨٣٧ ياردة أو حوالي أربعة أميال ونصف...:**
يبدو أن الجزيرة لها شكل «الأرض الصغيرة» (**Terrella**) التي وصفها «وِلْيَم جِلْبِرْت» في كتاب **"De Magnete"** الصادر عام ١٦٠٠، وهي عبارة عن حجر مغناطيسي له شكل كروي، ويستعمل في تجارب الغاية منها دراسة الخصائص المغناطيسية للأرض. وكان من بين المعروضات في الجمعية الملكية كرة أرضية صغيرة قطرها ١/٢ ٤ بوصة، ومن هنا جُعِل قطر «لابوتا» ١/٢ ٤ ميلاً. أما الرقم ٧٨٣٧ فيبدو أنه إشارة إلى القياسات المعاصرة لقطر الأرض. «نيوتُن»، على سبيل المثال، قدّر أن نصف قطر الأرض يساوي ٣٩٢٣ ميلاً.
انظر: (Nicolson and Mohler, **Annals of Science,** ii, 1937, 415-417).

(٢) **كما يتفق علماء الطبيعة:** علماء الطبيعة «الحديثون» يتفقون أن السحب (**Cirrus**) يمكن أن ترتفع إلى علو يزيد على ٨ أميال. لكن في عام ١٧٢٩ اعتبر «ديزاجُولْييرْز» (J.T. Desaguliers) علو ميلين هو أقصى ما يمكن أن ترتفع إليه وتستقر عنده «الأبخرة الصاعدة بسبب الحرارة».
انظر (**PTA,** VI, ii, 68).

(٣) **كهف الفلكيين:** ربما استوحى «سويفت» هذه الأوصاف من «الكهف العميق جدًا الذي ينزل مسافة ١٧٠ درجة» في المرصد الفلكي في باريس.
انظر:

* (PTRS, vi, 1671, 2217).

* (Nicolson and Mohler, **Annals of Science,** ii, 1937, 409).

(٤) **مكوك الحائك:**
نشر كوروليني عام (١٧٢٦) مفتاحًا (**Key**) للرموز في رحلات جلفر ويشير فيه إلى أن ذِكْر المكوك هنا يشير إلى «صناعات المنسوجات الكتانية والصوفية الانجليزية». وهذا تفسير معقول لأن في قصة علاقة «لابوتا» (وهي رمز لإنجلترا) بمدينة «ليندالينو» (وهي رمز لمدينة «دَبْلِنْ») سخرية من الاضطهاد الذي كانت إنجلترا تمارسه على إيرلندا، وعلى الأخص فيما يتعلق بصناعة المنسوجات الصوفية الإيرلندية، إذ كانت إنجلترا تحظر على إيرلندا تصدير هذه المنسوجات.

(٥) **قوى هذا المغناطيس تتحرك دائمًا في خطوط موازية لاتجاهه:**
في هذا القول خطأ علمي إذ إن خطوط القوى في المغناطيس العادي تشع من القطبين في جميع الاتجاهات.

(٦) **حين يكون الحجر موازيًا لمستوى الأفق تقف الجزيرة ساكنة...:**
يقول «ميرتون» (R.C. Merton, **JHI,** xxvii, 1966, 275-277) أن القوى المتجهة لأعلى المساوية للقوى المتجهة

لأسفل في طَرَفَيْ الحجر تجعل الحجر يدور حول نفسه. لكن يبدو أن «ميرتون» و«سويفت» قد نسيا قول «سويفت» إن قوى المغناطيس تتحرك في خطوط موازية لاتجاهه، وهذا يعني أنه حين يكون وضع الحجر أفقيًا لا توجد قوى مغناطيسية عمودية على الإطلاق، وفي هذه الحالة نتساءل عن مصدر القوة التي تُبْقي السفينة محمولة في الهواء.

(٧) **ورغم أن أكبر مناظيرهم... تبيّن النجوم بوضوح أكبر:**
لم تكن هذه الجملة موجودة في الطبعة الأولى (١٧٢٦)، لكنها أضيفت في النسخة التي صححها «فورد» والمحفوظة الآن في «متحف فكتوريا وألبرت». كذلك أضاف «فورد» بعد كلمة «المئة» كلمة «ياردة»، والصحيح هو «المئة قدم»، لأنه لم يكن في ذلك العصر تلسكوب بطول مائة ياردة. وقد صحح «فوكْنَر» هذا الخطأ في طبعة ١٧٣٠ وحذف كلمة ياردة. وربما كان هذا دليلاً على أن «سويفت» أشرف بنفسه على تصحيح وتنقيح طبعة «فوكْنَر». كذلك ربما كانت هذه الجملة المضافة إشارة إلى التلسكوب الانكساري الذي طَوَّره وصَنَعَهُ «هادلي» (J. Hadley)، وطوله ست أقدام فقط لكنه يُكَبِّر الأشياء ٢٣٠ ضعفًا.
انظر:

* (**PTA, VI**, i, 1723, i, 133-135).
* (Gough, 1956: 388).
* (Nicolson and Mohler, 1962: 123, N. 28).

(٨) **قائمة بعشرة آلاف نجم ثابت:**
كتاب **British Catalogue of Stars (1725)** الذي ألفه «جون فْلامْسْتيد» (John Flamsteed) يذكر ٢٩٣٥ نجمًا. ويبدو أن «سويفت» أراد أن يقلل من أهمية إنجاز هذا المؤلِّف الذي كان قد أزعج «الدكتور آرْبُثْنَط» صديق «سويفت».
انظر: (Turner, ed., 1980: 345, Note 15).

(٩) **اكتشفوا.. قمرين يدوران حول المريخ...:** قمرا المريخ، «فوبوس» و«ديموس» اللذان تتفق حركاتهما اتفاقًا كبيرًا مع هذا الوصف، لم يتم اكتشافهما حتى عام ١٨٧٧. ويبدو أن تنبؤ «سويفت» الناجح هنا كان رمية من غير رامٍ.
لمزيد من الإيضاح انظر:

* (Turner, ed., 1980: 345, N 16).
* (S. H. Gould, **JHI**, vi, 1945, 91-101).

(١٠) **لاحظوا ودرسوا ثلاثة وتسعين مذنَّبًا:**
كان «هالي» قد حسب مدارات ٢٤ مذنَّبًا في عام ١٧٠٤.

(١١) **يحرمها من الاستفادة من أشعة الشمس...:**
قارن بما ورد في كتاب تاريخ صادق: **True History** للمؤلف «لوسيان» (Lucian, 1968: 258) حيث يُجْبِر أهل الشمس أهل القمر على الخضوع لهم ببناء جدار سميك من السحب في الجو وبذلك حرموهم من أشعة الشمس حتى خضعوا.
بالنسبة للمعنى السياسي، قارن هذه القصة بما يقوله «سويفت» في رسائل تاجر جوخ على لسان الإيرلنديين: «نحن نخضع لمضايقات غريبة في كل ميادين التجارة التي يمكن أن تعود علينا بالنفع، ومحظور علينا أن نعمل في الميادين المهمة جدًا... بل نحن محرومون من كل النعم التي أرادها لنا الله وأرادتها لنا الطبيعة». انظر: (Firth, 1919: 253).

(١٢) **خوفًا على قعر الجزيرة الأدَمَنْتي:** فيرث (Firth, 1919: 257) يفسر هذه العبارة بمعنى «خوفًا على المصالح الانجليزية في إيرلندا»، أي سكان إيرلندا الذين هم من أصل إنجليزي والذين يعتمد الحكم الانجليزي في

إيرلندا عليهم. أما «بْرايْسْ» (M. Price, **Swift's Rhetorical Art,** 1953: 83) فيرى أن «القعر الأدمني» يعني «الامتيازات الملكية»، ويرى تيرنَـرْ (1980: 345, n. 19) أن المعنى ببساطة هو أن الحكومة الانجليزية (من الأحرار) ستسقط إذا تجاوز ظلمها للإيرلنديين الحدود.

(١٣) **قبل وصولي بحوالي ثلاث سنوات. . . :**
قصة هذه المدينة الثائرة على الظلم ترمز إلى الحملة الناجحة التي قامت في إيرلندا ضد العملة المغشوشة (Wood's Penny). وقد بدأت هذه الحملة قبل ١٧٢٦ بثلاث سنوات. ومع أن نصّ هذه القصة كان موجودًا في المخطوط الأصلي الذي كتبه «سويفت»، إلا أن الطبعة الأولى (١٧٢٦) كانت خالية منه لأن الناشر «موط» لم يجرؤ على طباعتها. ملخص قصة العملة المغشوشة هو أن «وليم وود» (Wm. Wood) مُنِحَ ترخيصًا في عام ١٧٢٢ (وكان قد رشى دوقة «كِنْدال» بمبلغ عشرة آلاف جنيه لتساعده في الحصول على الترخيص) يخوّله إصدار عملة نحاسية بقيمة «١٠٠٨٠٠» (مائة ألف وثمانمئة) جنيه للتداول في إيرلندا. وقد احتج البرلمان الإيرلندي الذي لم يؤخذ رأيه، بأن فرض التداول بهذه العملة الجديدة سيحطم اقتصاد إيرلندا، كذلك نشر «سويفت» **رسائل تاجر جوخ**، دون ذكرٍ لاسم للمؤلف، لكي يشجع الإيرلنديين على رفض هذه العملة، في آخر الأمر سُحِبَ الترخيص في أغسطس ١٧٢٥.
لمزيد من التفاصيل عن هذه القضية انظر: H. Davis, ed., **Drapier's Letters** (1935), pp. ix-Lxvii.

(١٤) **ليندالينو:** تعني «دَبْلِنْ». لاحِظْ التلاعب بالحروف هنا. فإن كلمة **Lindalino** فيها المقطع **Lin** مكرر مرتين، والمقطع **da** هو كلمة إرلندية تعني اثنين. ولهذا فإن Lindalino تعني **Double lin** وتُخْتَصَر في النطق إلى **Dublin** التي هي عاصمة إيرلندا.
انظر:

* (Clark, 1953: 613).

* (Kelling, 1951: 776).

(١٥) **أربعة أبراج ضخمة:** ترمز هذه الأبراج إلى المؤسسات الأربعة في الحكومة الإيرلندية المحلية وهي: مجلس الشورى (the Privy Council)، والمحكمة العليا (the Grand Jury)، ومجلسا البرلمان الإيرلندي (مجلس العموم ومجلس اللوردات).
انظر: (Case, 1958: 84).

(١٦) **صخرة قوية مدببة:** ترمز للكنيسة الإيرلندية ومركزها كاتدرائية «سان باتريك» (St. Patrick's Cathedral) التي كان «سويفت» رئيسًا (Dean) لها.
انظر: (Case, 1958: 84).

(١٧) **تزودوا بكميات من الوقود الشديد الانفجار:** رمز لقرارات البرلمان الإيرلندي وكتابات «سويفت» التي ألهبت حماس الناس للمقاومة. انظر: (Firth, 1919: 256).

(١٨) **إعفاءات هامة. . :** أي العفو عن المحرّضين على الثورة ضد الظلم وعدم اتهامهم أو محاكمتهم.

(١٩) **حقهم في اختيار الحكم:** في الرسالة الرابعة من **رسائل تاجر جوخ** يعترف التاجر بحق ملك انجلترا في حكم إيرلندا، لكن على أساس أن برلمان إيرلندا يقبل به حاكمًا لإيرلندا. **«لأن العقل يرى أن الحكم دون موافقة المحكومين هو الاستعباد بعينه»**. انظر: (H. Davis, **Prose Writings of J.S.** (1959-66), x, 62-63).

(٢٠) **قانون أساسي:** هو قانون صدر في إنجلترا عام ١٧٠١، وبموجبه يُحْظَر على الملك أن يغادر إنجلترا دون إذن خاص من البرلمان. لكن الملك جورج الأول أقنع البرلمان (عام ١٧١٦) أن يلغي شرط الحصول على إذن. وقد أثارت زيارته إلى «هانوفر» الكثير من الاستياء.
انظر: (Case, 1958: 85).

الجزء الثالث: الفصل الرابع

(١) **مونودي:** اختلف الشراح حول هوية الشخص الذي ترمز له هذه الشخصية. أحدهم يرى أنه «بولنْبْروك» (Scott, viii, p. 181)؛ وثان يقول أنه «لورد ميدِلْتون» الذي كان رئيس المالية في إيرلندا وعارض فرض العملة المغشوشة على إيرلندا (Firth, 1919: 257-8)؛ وثالث يعتقد أنه «أوكسفورد» (Case, 1958: 87-9).. الخ.
انظر: (Turner, ed., 1980: 347, Note 3).

(٢) **لم أعرف... أرضاً بهذا القَذَر من سوء الاستغلال.. البؤس والفقر:**
يعتقد «فيرث» (Firth, 1919: 254) أن «سويفت» كان يقصد الإشارة إلى «دَبْلِنْ» التي كان فيها عام ١٧٢٤ (١٥٠٠) بيتاً فارغاً وآيلاً للسقوط، وإلى تدهور أحوال الزراعة في إيرلندا نتيجة تحويل الكثير من الأراضي الزراعية إلى مراع للماشية، وربما كان فيه إشارة خاصة، كما يقول «إرِنْبْريزْ» (Ehrenpreis, PMLA, Lxxii, 1957, 897)، إلى أحوال منطقة (Quilca) التي أقام فيها «سويفت» فترة مع صديقه «شيريدان» أثناء كتابة رحلات جلفر.

(٣) **منذ أربعين سنة..:**
صدر المرسوم الأول بإنشاء الجمعية الملكية في ١٦٦٢، والثاني في ١٦٦٣ - أي قبل محادثة «جلفر» هذه مع «مونودي» (التي من المفروض أنها تمت عام ١٧٠٧) بمدة ٤٥ سنة.

(٤) **أكاديمية المخترعين:**
كلمة Projectors كانت تطلق على المخترعين في الميادين السياسية والاجتماعية والمالية كما تطلق على المخترعين في مجال العلوم. والمظهر العلمي للأكاديمية الموصوفة هنا ليس فقط على غرار الجمعية الملكية العلمية التي أسست في إنجلترا عام ١٦٦٢، بل على نمط الجمعيات العلمية الموصوفة في مصادر أدبية مثل «بيت سليمان» (The House of Solomon) في كتاب «بيكون» وعنوانه **أطلانطا الجديدة New Atlantis**، وتلك الموصوفة في كتاب «رابيليه» تحت اسم "The Kingdom of The Quintessence".

(٥) **وأن خيرات الأرض سيُمْكِن إنتاجها.. في أي فصل.. نريد:** قارن هذا بما ورد في كتاب «بيكون»، **أطلانطا الجديدة:** «ونحن نجعل.. الأشجار والزهور تنمو قبل موسمها أو بعده، ونجعلها تحمل وتثمر أسرع مما تفعل في الأحوال الطبيعية».
انظر: (Bacon, iii, 158).

(٦) **لم يكن مَرْضِيًّا عنه في القصر:**
إشارة إلى الملكة «آن» التي كانت تكره سلوك «أوكسفورد» الشخصي.

الجزء الثالث: الفصل الخامس

(١) **خمسمئة غرفة:** ربما كانت هذه المبالغة للسخرية من طموحات الجمعية العلمية الملكية في توسيع نشاطاتها ومبانيها.

(٢) **لاستخراج أشعة الشمس من الخيار...:** ربما استوحى «سويفت» هذه الفكرة من أبحاث «جون هيلْزْ» (John Hales) عن تأثير أشعة الشمس في تنفس النباتات. وبالنسبة لتعبئة أشعة الشمس في قوارير مختومة، يوجد شبه بما نجده في مسرحية «توماس شادْوِل» (Thomas Shadwell) الكوميدية التي صدرت عام ١٦٧٦ تحت عنوان **The Virtuoso**، وفيها يقوم «سير نيكولاس جيمْراكْ» باستخدام «أناس في جميع أنحاء إنجلترا... يعبئون الهواء في قوارير... ويحكمون إغلاق القوارير». (**The Virtuoso, IV, iii, 256-8**).

(٣) طريقتهم في الاستجداء من كل من يذهب لمشاهدتهم:
في «بيت سليمان» في كتاب «بيكون» وعنوانه **New Atlantis** الزائر هو الذي يُعْطى هدية سخية قيمتها ٢٠٠٠ دوقات. انظر (New Atlantis, Bacon, iii, 166). أما هنا في رحلات جلفر فإن الوضع مقلوب بقصد التهكم والسخرية، إذ أن الزائر هو الذي يُعْطي.

(٤) رائحة كريهة فظيعة: هذا يشبه ما نجده عند «رابيليه» حول عالِمٍ «يخمّر في حوضٍ كبيرة بَوْل البشر في روث الخيل، ويخلط معهما كثيرًا من البراز المسيحي...» انظر:
(Rabelais, **Gargantua and Pantagruel,** tr, J.M. Cohen, 1955, V, xxii, p. 651).

(٥) قابلية النار للطرق والتمديد: وهذا أيضًا تشبيه ما يقوله «رابيليه» (Rabelais, 1955: V, xxii, 652): «وآخرون كانوا يقطعون النار بسكين ويسحبون الماء في شبك».

(٦) أستاذ كفيف منذ ولادته:
يؤكد «تيرنَرْ» (Turner, 1980: 348, n. 10) أن قصة هذا المعلم الأعمى مستوحاة من تقرير كتبه «روبرت بُويْل» (Robert Boyle)، وهو من أوائل المؤسسين للجمعية العلمية الملكية، عن «رجل أعمى.. استطاع في بعض المرات أن يميز الألوان عن طريق لمسها بأصابعه...».

(٧) طريقة لحرث الأرض بالخنازير: في هذا شبَه بما أورده «رابيليه» (Rabelais, 1955, V, xxii, 651) عن «آخرين كانوا يحرثون الشاطئ الرملي بثلاثة أزواج من الثعالب في رقابها نِير، دون أن يفقدوا حبة واحدة من بذورهم». كذلك نجد هنا شبهًا بما ورد في أحد أبحاث الجمعية العلمية الملكية عن زراعة الطباق في سيلان، وفيه وصف لكيفية تسميد قطعة من الأرض بِحَبْس عدد من الجواميس فيها إلى أن تسمدها بروثها. انظر: **(PTA, IV, ii,** 313).

(٨) لدخول المخترع الفنان...: قصة هذا الفنان تقليد لباحث فرنسي اسمه (M. Bon) كان قد كتب بحثًا بعنوان «حرير العناكب» وقدمه للجمعية العلمية الملكية، وأرفق بالبحث جوارب وكفوفًا مصنوعة من شباك العناكب. وزعم أن حرير العناكب «ليس أقل جمالاً من الحرير العادي». انظر: **(PTA, V, i,** 20-24).

(٩) يضع ساعة شمسية على ديك الرياح..:
كان «سير كريستوفَرْ رِنْ» (Sir Christopher Wren) قد رَكّب مسجلاً أوتوماتيكيًا للرياح عن طريق وَصْل ساعة بديك الرياح (عام ١٦٦٣). كذلك كتب «وِلْيَمْسون» (J. Williamson) عام ١٧١٩ بحثًا عن ساعات جعلها «تتفق مع الحركة الواضحة للشمس». انظر **(PTA, IV, i,** 394-6).
ما أضافه «سويفت» هنا هو أنه وضع «ساعة شمسية» بدل ساعة «رِنْ»؛ وبدل جَعْل الساعات تتفق مع حركة الشمس، أحدث تعديلات في حركات الشمس والأرض، أي أن الفلكي المخترع في هذه الفقرة يحاول المستحيل: جَعْل الثوابت متغيرة وجَعْل المتغيرات ثوابت.

(١٠) منفاخان كبيران...:
قارن هذه الفقرة مع ما يقوله «رابيليه» (Rabelais, 1955: V, xxii, 651) «رأيت مُكَلِّسًا شابًا يستخرج الضراط من جيفة حمار ويبيعه بسعر خمس بنسات للياردة».
ونجد في كتاب «سْبْرات» (Sprat, **History of the Royal Society,** 1667, p. 232) سجلاً لتجربة مشهورة أجراها «روبرت هوك» (١٦٦٧) على كلب أحدث فيه تنفسًا صناعيًا عن طريق نفخ الهواء بمنفاخ إلى داخل قصبته الهوائية.
انظر: (Turner, 1980: 349, n. 16).

(١١) الفنان العلامة العالمي: الأغلب أن هذا إشارة إلى «روبرت بُويْل» (١٦٢٧ - ١٦٩١) الفيزيائي الكيميائي المتعدد التخصصات. كان اختصاصيًا في طبيعة الهواء، وفي تحجر الأشياء، وفي الرخام، وفي شؤون الزراعة، وفي تربية الأغنام. وكان من الأعضاء المؤسسين للجمعية الملكية الفلكية.

(١٢) **يبذر القش في الأرض:** هذا هو أحد التشبيهات التقليدية عند «رابيليه» لمن يهدرون جهودهم في أعمال لا طائل من ورائها. ومن هذه التشبيهات عنده أولئك الذين «يحرثون الشاطئ الرملي، . . . ويجزّون صوف الحمير. . . ويبحثون عن قطوف العنب في الشجيرات الشائكة وعن التين في الشوك. . .».

(١٣) **ينتج سلالة من الغنم عارية من الصوف:**
نجد في برنامج إنجاب الحيوانات في «بيت سليمان» مشاريع وهمية مشابهة: «. . . نحن نجعلها أكبر وأطول من المعتاد، وعلى عكس ذلك نقزّمها ونوقف نموها: ونحن نجعلها أكثر ثمرًا وأكثر إنتاجًا، وعلى عكس ذلك نجعلها مجدبة وغير منجبة. كذلك نجعلها تختلف في اللون والشكل والنشاط وفي أمور كثيرة».
(**New Atlantis**, Bacon, iii, 159).

(١٤) **إطار احتلّ الجزء الأكبر من عرض القاعة وطولها:**
قد يكون المقصود من هذه الآلة المفكرة هو إعطاء مثال توضيحي عن جدل قديم يعود إلى أيام «شيشيرون» الروماني. وكان «سويفت» يعتقد أن هذا الجدل ما زال موجودًا في عصره ولذلك أشار إليه في مقالة له عنوانها **Tritical Essay** (١٧٠٧) بقوله: «ليس صحيحًا ما يقوله الأبيقوريون حين يزعمون أن الكون تكوّن من اجتماع عشوائي للذرات. لن أصدق ذلك، كما أني لن أصدق أن تجمعًا عشوائيًا للحروف الهجائية قد يعطينا بالصدفة كتابًا فلسفيًا بديعًا وغنيًا بالعلوم».
انظر:

* (H. Davis, ed., **Prose Writings of J.S.** (1959-66), i, 246-7).
* (Ehrenpreis, **MLN**, Lxx, 1955, 98-100).

(١٥) **سيتيح لأكثر الناس جهلًا. . . أن يؤلف كتبًا. . دون. . . مساعدة من العبقرية أو الدراسة:**
هذا شبيه بما يقوله «سويفت» في كتابه الساخر الشهير **قصة برميل (A Tale of A Tub)** عام ١٧٠٤، عن أقصر الطرق لتحصيل العلم واكتساب القدرة على التأليف: «. . . لقد اكتشفنا، نحن أبناء هذا العصر، طريقة أسرع وأنجع لكي نصبح علماء ومفكرين دون الحاجة إلى متاعب الدراسة ومعاناة التفكير، ألا وهي النظر بإمعان في الفهرس».
انظر: (H. Davis, ed., **Prose Writings...** (1959-66), i, 91).

(١٦) **العادة أن يسرق علماؤنا الاختراعات بعضهم من بعض. . .:**
يؤكد تيرنرْ (Turner, 1980: 350, n. 24) أن في هذا النصّ إشارة إلى الجدل الذي قام بين «نيوتُن» و«لايْبْنِتْز» حول أيهما سبق الآخر إلى اكتشاف حساب التفاضل والتكامل. فقد بدأ هذا الجدل عام ١٦٩٩ حين أشير إلى أن «لايْبْنِتْز» سرق هذا الاكتشاف من «نيوتُن»، وهذا هو ما قررته لجنة الجمعية الملكية التي عُيِّنَتْ لبحث الموضوع في عام (١٧١٢). وقد اتضح الآن أن «نيوتُن» له أسبقية التوصل إلى هذا الاكتشاف، وأن «لايْبْنِتْز» توصل للاكتشاف فيما بعد، ولكن بجهده الخاص ودون الاعتماد على «نيوتُن» أو السرقة منه.

(١٧) **مدرسة اللغات:**
كان «سْبْرات» قد أوصى عام ١٦٦٧ بإنشاء أكاديمية انجليزية تتولى كل قضايا اللغة الانجليزية و«تنجز إصلاحات عظيمة في أساليب كلامنا وكتابتنا».
انظر: (Sprat, **History of The Royal Society**, 1667, p. 40-42).

(١٨) **اختصار الكلام. . .:**
يكرر «سويفت» الفكرة ذاتها في مقالة له بعنوان **Polite Conversation** (١٧٣٨) يقول فيها: «الاختراع الوحيد الذي تم في السنوات الأخيرة والذي أسهم في الارتقاء بآداب الكلام هو اختصار المقاطع المتعددة في الكلمة الواحدة إلى مقطع واحد وحذف غيره من المقاطع. انظر (H. Davis, **Prose Writings, of J.S.**, 1959-66, p. 106).

كذلك فقد استخدم «جورج أورْوِلْ» نفس المبدأ في كتاب له صدر عام ١٩٤٩ وعنوان ١٩٨٤، لدى وصفه للغة التخاطب الجديدة "Newspeak".

انظر: (George Orwell, **Nineteen Eighty-Four** (Penguin Books, 1975), pp. 241 F).

(١٩) **تصغير للرئتين عن طريق الاحتكاك والحتّ:**

هذه الفكرة وردت عند «لوكريثيوس» (Lucretius) الذي يذكر في كتابه (**De Rerum Natura,** iv, 526-541) أن الصوت يتألف من جزيئات مادية، ولهذا فإن الكلام الكثير يُتعب الجسد و«يحُكّ الحلق ويكشطه».

(٢٠) **الكلمات ليست سوى أسماء لأشياء:**

هنـاك تعبيرات أو عبـارات تؤدي نفس الفكرة قـالها «بيكـون» انظر (Bacon, i, 451-452)؛ و«هـوبْزْ» انـظر (Hobbes, **Leviathan** (1651), ed. Woller, 1935, p. 13)؛ و«سْبْرات»، انظر (Sprat, **History of the Royal Society,** p. 113).

أما «هُوِلْ» فيُرْجِع الفكرة إلى «شيشيرون» و«كْوِنْتِلْيان» انظر: (A.C. Howell, **ELH,** xiii (1946), 131-142).

(٢١) **العيب الوحيد الموجود فيها. . . :**

لجأ «سويفت» إلى التشبيه نفسه في «رسائل تاجر جوخ» حين تحدث عن المشاكل التي ستنجم عن تداول العملة المغشوشة (عُمْلة «وود» النحاسية)؛ يقول: «لو أراد أحد السادة [الذين يعيشون في الأرياف] أن يأتي للمدينة ليشتري ملابس وخمور وتوابل لنفسه ولأسرته. . .، فإنه لا بد أن يحضر معه خمسة أو ستة من الخيول محملة بأكياس [العُملة] كما يفعل المزارعون حين يجلبون الحبوب للمدينة». انظر:

(H. Davis, **Prose Writings of J.S.,** x, 6).

(٢٢) **كلغة عالمية. . . :**

إشارة إلى مؤلفات ظهرت في القرن السابع عشر حول موضوع اللغة العالمية مثل:

* Geogre Dalgarno, **Ars Signorum, Vulgo Character Universalis, et Lingua Philosophica** (1661).
* Bishop John Wilkins, **Essay towards a Real Character and a Philosophical Language** (1668).

انظر: (Turner, ed., 1980: 351, n. 32).

الجزء الثالث: الفصل السادس

(١) **أن هناك توازياً شاملاً بين الجسد الطبيعي والجسد السياسي:**

يشرح شكسبير هذا التوازي بالتفصيل في المسرحية التراجيدية «كورْيـولانوس» (**Coriolanus**)، الفصـل الأول المشهد الأول، السطور ٩٦ إلى ١٦٧.

(٢) **تنافرّ العناصر. . . أو عدم تجانسها. . :**

طبقًا لنظرية قديمة في الطب، يعتمد استمرار الصحة الجيدة على استمرار التوازن الصحيح في نسبة السوائل أو العناصر الأربعة التي تدخل في تكوين الجسم وهي الدم، والبلغم (وهو خليط من أخلاط البدن كان القدماء يزعمون أنه يسبب الكسل)، والصفراء (مادة صفراء يفرزها الكبد وتختزَن في المرارة، وكان القدماء يزعمون أنها تسبب سرعة الغضب)، والسوداء (مادة سوداء يفرزها الكبد وكانوا يزعمون أنها تسبب الكآبة).

(٣) **طيربانيا. . ارتجلنا:** هما «بريطانيا» و«إنجلترا» بعد تغيير مواقع الحروف فيهما.

(٤) **المؤامرات في تلك المملكة تحاك. . . . :**

كان حزب المحافظين يكثر من الادعاء بأن مؤامرات اليعاقبة (أي أنصار «آل ستيوارت» الذين كانوا يعملون بعد ١٦٨٨ على إعادة هذه الأسرة إلى عرش إنجلترا) هي إلى حد كبير مؤامرات مزعومة من تلفيق حزب الأحرار.

(٥) **الصقر الحوام**: النص الأصلي هو "Buzzard" وهو نوع غبي من الصقور لا جدوى منه ولا نفع فيه. وكثيرًا ما تستعمل كلمة "buzzard" للدلالة على شخص غبي أو جاهل.

(٦) **«مرض النقرس» تعني «رجل دين ذا مرتبة عالية»**:

ربما كان المقصود هنا الإشارة إلى «وِلْيَم كِنْجْ» رئيس أساقفة «دَبْلِنْ» الذي ظل يعاني من داء النقرس طيلة ثلاثين عامًا. انظر: (Gough, 1959: 397). ولم تكن العلاقة بين «سويفت» و«كِنْجْ» طيبة، كما تدل على ذلك رسالة وجهها إلى «كنج» ١٨ مايو ١٧٢٧، يقول فيها: «منذ اللحظة التي توفيت فيها الملكة «آنْ» اخترتم فضيلتكم أن تنتهزوا كل فرصة لِتَبْتَليني بكل أنواع الإزعاج، ولم تتكرّموا عليَّ طيلة حياتي بإشارة واحدة تدل على الرضا سوى المجاملات العادية... لقد كان هذا شأنكم معي طيلة الأعوام الست والعشرين الأخيرة».

انظر: (H. Williams, ed., **Correspondence of J.S.**, 1965, iii, 210).

(٧) **الغربال...**: الشخص الذي لا يستطيع أن يكتم سرًّا.

(٨) **«مصيدة فئران» تعني «وظيفة»**: المقصود هنا وظائف الخدمة المدنية، وهي بالنسبة لذوي الطموحات الكبيرة مثل «سويفت» قيْدٌ على حريتهم وإحباط لطموحاتهم. ويرى بعض النقاد أن «سويفت» يعبر هنا عن الشعور القوي بالإحباط الذي أورثه له عمله في الكنيسة.

انظر: (Gough, 1956: 398).

(٩) **تور**: يمكن أن نعتبر هذه الكلمة اسمًا مستعارًا لكاتب الرسالة التآمرية بعد فك رموزها.

الجزء الثالث: الفصل السابع

(١) **مالدونادا**: هي «لندن» في رأي كلارك (Clark, 1953: 615).

(٢) **جْلَبْدَبْدْرِبْ**: هي «دَبْلِنْ» حسب تحليل كلارك (Clark, 1953: 615).

(٣) **لوجْناغْ**: هي «إنجلترا» كما يقول كلارك (Clark, 1953: 615).

(٤) **أستدعي من أشاء من الأموات...**: يبدو أن «سويفت» استوحى موضوع المقابلات مع مشاهير الأموات من كتاب «لوسيان» تاريخ صادق، حيث يقابل «لوسيان» شخصيات مشهورة من الأموات مثل «سقراط» و«أفلاطون» و«هوميروس» في السهول الفردوسية (Elysian Fields)؛ بينما يذهب «مينيبوس» بمساعدة الساحر الفارسي «ميتروبارزان» إلى العالم السفلي (The Underworld) حيث يقابل «احشويرش: Xerxes» و«داريوس Darius» وفيليب المقدوني.

انظر: (Lucian, pp. 278-8; 103-8).

(٥) **معركة أربيلا**:

يذكر تيرنَرْ (Turner, 1980: 354, n. 9) أنها معركة «جاوجاميلا» "Gaugamela" التي انتصر فيها «الاسكندر» على «داريوس» النصر الأخير عام ٣٣١ ق.م.

«داريوس»: المقصود هنا هو «داريوس» الثالث وعاش بين (٣٨٠ ؟ و٣٣٠ ق.م.)، وحكم بلاد الفرس من ٣٣٦ إلى ٣٣٠ ق.م. واسم المعركة الأخيرة التي هزمه فيها الاسكندر هو معركة «إيسُّوسْ» عام ٣٣١ ق.م. و«إيسوس» هو اسم بلدة تقع شمال الاسكندرون في تركيا.

(٦) **لم يمت مسمومًا... الخمور**:

يذكر «بلوتارك» المؤرخ اليوناني (٤٦ ـ ١٢٠ م) في كتابه **Life of Alexander** (Lxxvii)، القصة التي تقول أن الاسكندر مات مسمومًا بناء على نصيحة أرسطو، لكنه يقول إن الكثيرين يعتقدون أن هذه قصة مختلقة، أما القصة التي يقبلها «بلوتارك» فهي أن الاسكندر مات من الحمى بعد أن ظل يحتسي الخمر طيلة الليل والنهار

الذي تلاه، لكنه يوضح أن الإفراط في الشُّرب كان بسبب الحمى التي كانت تجعله يشعر بظمأ لا يُرْوَى (p. Lxxv).

انظر: (Turner, ed. 1980: 354, n. 10).

(٧) **لم يكن لدى جيشه نقطة... من الخل:**
إشارة إلى قصة «ليڤي: Livy» المؤرخ الروماني (٥٩ ق.م - ١٧ م) التي تقول إنه بينما كان هانيبال يعبر جبال الألب كان يليِّن الصخور التي تعترض طريقه عن طريق إشعال نار فوقها وبعد ذلك يصب عليها الخل.

(٨) **قبيل اشتباكهما:** أي اشتباكهما في معركة «فارساليا» (عام ٤٨ ق.م.) التي انهزم فيها «بومبي».

(٩) **في انتصاره الأخير:** أي انتصاره في معركة «موندا» (عام ٤٥ ق.م.) على أبناء «بومبي».

(١٠) **بروتوس:** هو «ماركوس يونيوس بروتوس» (٨٥ - ٤٢ ق.م). هو أحد القادة والسياسيين في روما، وكان صديقًا لقَيْصر ثم انضم إلى المتآمرين على قيصر وشارك في اغتياله عام ٤٤ ق.م. «سويفت»، مثل شكسبير رسَم لـ«بروتوس» شخصية مثالية أكثر منها واقعية. «بروتوس» كان، على سبيل المثال، يحب المال حبًا جمًّا ولا يرحم أحدًا يعوق طريقه لكسب المال.

(١١) **سقراط:** شيخ فلاسفة أثينا (٤٦٩ - ٣٩٩ ق.م).

(١٢) **إيباميونداس:** أحد قادة طيبة (Thebes) اليونانية، العسكريين وأحد الساسة فيها (٤٢٠ - ٣٦٢ ق.م.).

(١٣) **كاتو الابن:** هو «مارْشيوس بورْشِيوس كاتو (٩٥ - ٤٦ ق.م.): فيلسوف أخلاقي من أتباع المذهب الرواقي وأحد المدافعين عن الجمهورية الرومانية والنظام الجمهوري ضد يوليوس قيصر.

(١٤) **السير توماس مور:** هو مؤلف الكتاب المشهور الذي صدر عام ١٥١٦ م. تحت عنوان يوتوبيا. لكن «سويفت» يضيفه هنا باعتباره واحدًا من الذين استشهدوا في سبيل عقيدتهم ومبادئهم، ذلك أنه رفض الاعتراف بالملك هنري الثامن رئيسًا للكنيسة الانجليزية، فاتهمه الملك بالخيانة العظمى وحكمت عليه المحكمة بالإعدام وأُعْدِم عام ١٥٣٥ م.

الجزء الثالث: الفصل الثامن

(١) **طلبتُ أن أرى هوميروس:**
كذلك فعل «لوسيان» في كتابه تاريخ صادق حيث قابل هوميروس وسأله عن قصائده وسمع رأيه في نقاده ومحققي كتبه.

انظر: (Lucian, pp. 280-281).

(٢) **كان عيناه من أشد العيون... نفاذاً:** تواترت الأخبار أن هوميروس كان أعمى. لكن «سويفت» يسير على خطى «لوسيان» الذي قال في كتابه تاريخ صادق: «لم يكن لديّ داعٍ لسؤاله إن كان حقًا أعمى، لأنني رأيت بنفسي أنه لم يكن كذلك».

انظر: (Lucian, p. 281).

(٣) **همس لي أحد الأشباح...:**
يرى «كيس» (Case, 1958: 92) أن هذا الشبح ربما قُصِد به «سير وِلْيَم تِمْبِل» الذي كان يفضل الدراسات الكلاسيكية على الدراسات الحديثة. وقد دافع «سويفت» في كتابه معركة الكتب **The Battle of the Books** (عام ١٧٠٤) عن آراء «تِمْبل».

(٤) **دايديموس:** هو عالم اسكندري (٦٥ ق.م. - ١٠ م)، اشتهر بمثابرته في الدراسة والتحصيل العلمي، وألف بحثًا عن «هوميروس»، وتفسيرًا لأعماله.

(٥) **يوستاثيوس**: رئيس أساقفة سالونيكا (توفي حوالي ١١٩٤ م) ومؤلف لأحد الشروح **للإلياذة والأوديسّه**.

(٦) **تنقصها العبقرية اللازمة لفهم شاعر**: هذا شبيه بالملاحظة التي سمعها «لوسيان» من «هوميروس» الذي قال: «مشكلة هؤلاء المحققين والمفسرين التعساء أنهم بلا ذوق أدبي».
انظر: (Lucian, p. 281).

(٧) **سكوتّس**: هو «دَنْس سْكوتّس» "Duns Scotus" (١٢٦٥ - ١٣٠٨): كان من الفلاسفة المَدْرسيين (السلفيين) ومؤلفًا لأحد الشروح عن أرسطوطاليس (من اسمه اشتُقّت الكلمة الانجليزية "Dunce" التي تعني «شخص غبي أو مغفل».

(٨) **راموس**: هو «بْيير لا رامي» «Pierre La Ramée» (١٥١٥ - ١٥٧٢)، كان أستاذًا للفلسفة في جامعة فرنسا "The Collège de France" وخصمًا مشهورًا للفلسفة الأرسطية.

(٩) **ديكارت**: هو «رينيه ديكارت» "René Descartes" (١٥٩٦ - ١٦٥٠) فيلسوف وعالم رياضة فرنسي.

(١٠) غاسندي: هو «بيير غاسِنْدي (١٥٥٢ - ١٦٥٥): عالم رياضة وفلكي وفيلسوف فرنسي، عارض فلسفة «ديكارت» وفلسفة أرسطو وحاول أن يحيي الاهتمام بنظرية «أبيقور» في الفيزياء الذرية مع رفضه، في الوقت نفسه، فلسفة أبيقور المعادية للدين.

(١١) نظرية الجاذبية: هي نظرية «نيوتُنْ» التي حَلّت محل نظرية «ديكارت» في كون الأجرام السماوية تسير في دوّامات أو ما يسمى نظرية الدوّامات (The Vortex Theory).

(١٢) حتى أولئك الذين... المبادئ الرياضية: المقصود هنا هو «نيوتن» الذي شرح نظريته في كتاب نشره عام ١٦٨٧ تحت عنوان: **Philosophiae Naturalis Principia Mathematica**.

(١٣) إيليوغابالوس: هو «ڤاريوس أڤيتوس باسيانوس» وهو امبراطور روما (٢١٨ - ٢٢٢) الذي حمل اسم «ماركوس أوريليوس أنطونينوس» حين كان امبراطورًا اشتهر بإفراطه الزائد في الترف والتنعم بلذائذ الحياة. يروي عنه «جيبُنْ» (Gibbon) أنه «كان يكافئ بسخاء من يخترع أكلة جديدة، لكن إذا لم يستسغ الأكلة الجديدة يحكم على مخترعها بأن لا يأكل شيئًا سواها حتى يخترع أكلة أخرى تروق للحَلْق الامبراطوري». انظر:
(Gibbon, **Decline and Fall of the Roman Empire,** ed., J.B. Bury, 1909, i, 195, n. 68).

(١٤) المرق الإسبارطي: هو مرق ذو لَوْن أسود كان يقدَّم في الوجبات الجَماعية في إسبارطه. ويقال أن أحد ملوك «بونتوس» استأجر طباخًا إسبارطيًا ليطهو له مرقًا إسبارطيًا، لكنه وجد هذا المرق منفرًا ومقززًا.
انظر: (**Lycurgus,** xii).

(١٥) لم أجد صفًا طويلاً من الرؤوس المتوّجة... اثنين من الكرادلة:
حول الموضوع نفسه يقول «رابيليه»: أعتقد أن هناك كثيرين من أباطرة هذا العالم وملوكه ودوقاته وأمرائه وباباواته لم يكن أسلافهم أكثر من باعة حطب وباعة صكوك غفران، كما أن الكثيرين من الشحاذين الذين يعيشون في بيوت الصدقة يتحدرون من صلب ملوكٍ وأباطرة عظام».
انظر:

* (Rabelais, I, i, p. 41)
* (Williams, 1926: 482).

(١٦) ما قاله «بوليدور ڤيرجيل»... إمرأة فاضلة:
«بوليدور ڤيرجيل» شخص إيطالي (١٥٠٤ - ١٥٥٤) كان قد أصبح رئيسًا للشمامسة في «ويلز». ولا يوجد مثل هذا القول في مؤلفاته التي تحتوي على ٢٦ مجلدًا عن تاريخ انجلترا، ويُعْتَقَد أن هذا القول هو من اختراع «سويفت» وأراد به أن يعارض ما كُتِب على قبر «مارجريت كاڤِنْدِش»، دوقة «نيوكاسِلْ» وهو «كل الاخوة كانوا أبطالاً وكل الأخوات كنَّ فاضلات».
انظر:

* (Turner, ed., 1980: 356, n. 19).

* (Case, 1958: 92)

(١٧) **الصدف التافهة... الثورات:**

يتضح لنا معنى هذا القول حين نقرأ ما قاله «سويفت» سابقاً في كتابه **قصة برميل A Tale of A Tub** (١٧٠٤)، حيث يعزو حملات هنري الرابع (ملك إنجلترا) إلى قصة حب فاشلة، كما يعزو حملات لويس الرابع عشر إلى ناسور شرجي.

انظر: (H. Davis, **Prose Writings of J.S.**, 1959-6¾, i, 103-104).

(١٨) **تاريخًا سريًا...:**

حين قرأ «سويفت» كتابًا ألفه الأسقف «جيلبرْت بيرنتْ» (Gilbert Burnet) تحت عنوان **History of My Own Times** (1724-34) كتب الملاحظات التالية: «المؤلف في معظم التفاصيل من أسوأ من قابَلْتُهم تأهيلاً لمهنة مؤرخ... تاريخه السرّي يتكون في معظمه من فضائح تلوكها الألسن في المقاهي، أو في أفضل الحالات من أخبار مأخوذة عن مصدر ثالث أو رابع أو خامس. أما حديثه عن ولادة المُطالب بالعرش (The Pretender) فلا يليق إلا بعجوز تروي حكاية وهي جالسة في زاوية المدخنة».

انظر: (H. Davis, **Prose Writings of J.S.**, V, 183).

(١٩) **أحد أمراء البحر... معلومات العدو كانت ناقصة:** ربما كان المقصود هنا هو الأدميرال «إدوارد رَسِل» (١٦٥٣ - ١٧٢٧) الذي كان يفاوض الملك جيمس الثاني المنفيّ، ويتجنب في الوقت نفسه أن يدخل في معركة بحرية مع الفرنسيين، ولكنه اضطُرَّ أن يهزمهم في «لاهاي» عام ١٦٩٢ لأن قائد الأسطول الفرنسي تطوع بالهجوم على أسطول الحلفاء دون أن يدرك التفوق العددي لهذا الأسطول بنسبة ٨٢ إلى ٤٥.

انظر: (Turner, ed. 1980: 356, n. 27).

(٢٠) **ثلاثة من الملوك:** يشير «سير ووِلْتَرْ سْكوتْ» إلى أن هؤلاء يرمزون إلى ملوك إنجلترا «شارلز الثاني»، و«جيمس الثاني»، و«وِلْيَم الثالث».

انظر: (Sir Walter Scott, ed. **Works of Swift**, xii, 258).

(٢١) شخص بدا لي أن قصته غريبة...:

ربما كانت هذه القصة رمزًا لجحود حزب الأحرار نحو صديق «سويفت» «شارلز موردونْتْ: إيرْلْ بيتَربورو الثالث». كان شارلز قائدًا للحملة الانجليزية في إسبانيا، وبعد أن حقق انتصارات رائعة عام ١٧٠٦ استُدعي إلى إنجلترا وعُيِّنَ بدلاً منه الامبراطور شارل الذي كان صغير السن وقليل الخبرة. وبينما كان عائدًا إلى إنجلترا في ١٧٠٧ هاجمه الأعداء وأصيب ابنه الذي كان يقود سفينة قُطْرٍ بجروح بليغة أدَّت بعد بعض الوقت إلى وفاته.

انظر: (Case, 1958: 92-3).

(٢٢) **أكْتيوم:** المعركة البحرية التي حدثت عام ٣١ ق.م وانتصر فيها أوكتافيان (أغسطس فيما بعد) على أنطونيو وكليوباترة.

(٢٣) **كان ذلك السبب الوحيد لهرب أنطونيو:** يختلف «سويفت» هنا مع المؤرخ «بلوتارك» الذي يقول في كتابه (**Life of Antonius**, Lxvi) إن السبب الحقيقي هو أن كليوباترة أبحرت فجأة بسفنها الستين بعيدًا عن ميدان المعركة ولحق بها أنطونيو.

(٢٤) **امرأة اسمها ليبَرْتينا:** أي امرأة أُعْتِقَت بعد أن كانت من الرقيق، أي - كما يقول تيرنَرْ (Turner, 1980: 357, n. 34) من الطبقة التي تنتمي إليها المومسات.

(٢٥) **بِبْليكولا:** كان «ببليكولا» قائد الجناح الأيمن في أسطول أنطونيو في معركة «أكْتيوم». انظر: (Plutarch, **Life of Antonius**, Lxv-Lxvi) موضوع السخرية هنا هو أن «أغسطس» عامَل أحد غلمان عدوه القائد المهزوم بكرم بالغ.

بينما بَخِلَ بالتقدير على الرجل الذي يدين (أغسطس) له بالنصر.

(٢٦) **أجريبّا**: هو «ماركوس فيبسانيوس أجْريبّا» (٦٢ - ١٢ ق.م) الذي أشرف عام ٣٧ ق.م. على تدريب أسطول «أوكتافيان» وكان له الفضل الأول في انتصار هذا الأسطول في معركة «أكْتيومْ».

(٢٧) **حيث احتكر الفضل... والغنائم... القائد الرئيسي... لأي منها**:

لا شك أن «سويفت» يقصد هنا التهجم على «مارلْبورو»، القائد العام للجيوش الانجليزية خلال الحرب ضد فرنسا.

(انظر: الجزء الثاني: الفصل السادس، الهامش رقم ١٠).

الجزء الثالث: الفصل التاسع

(١) **كنت أعلم أن الهولنديين... دخول تلك المملكة**:

بعد إخماد الثورة المسيحية في «شيمابارا» عام ١٦٣٨، أغلقت الحكومة اليابانية بلادها في وجه كل الأوروبيين، ما عدا الهولنديين الذين نالوا هذا الامتياز لأنهم أحضروا عشرين مدفعًا كبيرًا ودكُّوا بالقذائف معقل المسيحيين في قلعة «هارا» لمدة خمسة عشر يومًا.

(٢) **ترالْ درابْجْ دُوبْ أو تْريلْ دْربجْ دْريبْ**: يفسّر «كِلِنْجْ» (Kelling, 1951: 773) هذا الاسم بمعنى «عبيد القذارة الشريرة» أو «عبيد الفخ الشرير».

(٣) **يلْحَسْ التراب...**: هذه الصورة عبرانية انظر: (سفر النبي أشعيا: **(Isaiah, xlix, 23)** حيث نجد ما ترجمته «سيركعون لك ووجوههم إلى الأرض، ويلحسون تراب قدميك». ولكن تحويل هذا إلى واقعة أدبية ربما استوحاه «سويفت» من وصفٍ لقاعة الاستقبال في قصر ملك سيام كما ورد في كتاب بعنوان تاريخ اليابان كتبه طبيب هولندي اسمه «إنْجِلْبَرِخْتْ كامْفَرْ» (١٦٥١ - ١٧١٦)، وكان طبيب السفارة الهولندية في اليابان. كذلك نجد «كامْفَرْ» يعطي أوصافًا لطريقة مثول الغرباء أمام امبراطور اليابان، وهي تنطوي على زحف على اليدين والركبتين.

الجزء الثالث: الفصل العاشر

(١) **سترولْدْبْروجْز**: يرى «فيتْزْجيرالْدْ» أن وصف هؤلاء الذين كان يُطْلَق عليهم لقب «الخالدون». انظر: (R.P. Fitzgerald, **SP**, Lxv, 1968, 657-676).

بالنسبة للموضوع العام لهذا الفصل، وهو حُبّ البقاء، قارن مع أسطورة «تيثونَسْ» الذي مُنِحَ الخلود دون دوام القوة والصحة والشباب؛ ومع ما كتبه «جوفينالْ» عن حماقة من يرجون طول العمر لجهلهم بألوان التعاسة التي تواكب الشيخوخة، انظر: (Juvenal, **Satires**, x, 188-288). وقارن أيضًا مع أفكار مماثلة كتبها «سويفت» نفسه. فهو يقول: «كل إنسان يرغب أن يطول عمره، لكن لا أحد يرغب أن يصبح عجوزًا» ويقول في مكان آخر: «الموت ظاهرة طبيعية وضرورية وعامة على كل المخلوقات. ومن المستحيل أن يكون الله سبحانه قد أوجد الموت ليسيء للبشر». انظر: (H. Davis, **Prose Writings of J.S**, iv, 246; ix, 263).

وكان الاهتمام بطول العمر أمرٌ شائع في عصر «سويفت» من أمثلة ذلك وصف للمعمرين في «نْيُوإنْجْلَنْدْ» كتبه «كوتُنْ ماذَرْ» (Dr. Cotton Mather). أنظر (**PTA**, V, ii, 165) و(Nicolson and Mohler, 1962: 116)؛ وكتاب بالفرنسية نُشِر عام ١٧١٦ وتُرْجِم إلى الانجليزية عام ١٧٢٢ تحت عنوان **Long livers** (أي **المعمرون**)، وفيه يعتبر المؤلف الفرنسي «Harcouet de Longeville» طول العمر نعمة كبيرة. انظر:

* J.L. Barrol, **PMLA,** Lxxiii, 1958, 43-50.

* S. Klima, **PQ,** xlii, 1963, 566-569.

* Turner, ed. 1980: 358, n. 1.

(٢) **اكتشاف خطوط الطول:** أي اكتشاف طريقة لتحديد خطوط الطول في البحر. وكان البرلمان الانجليزي قد رصد جائزة قيمتها عشرون ألف جنيه لمن يخترع طريقة مناسبة لذلك، وكان «وِلْيَم وِسْتون» (William Whiston) و«هَمْفْري ديتُنْ» (Humphrey Ditton) قد اقترحا خطة تقضي بترسية سفن ذات مدافع وقذائف ضخمة على كل خط في دائرة خطوط الطول.

انظر: (Turner, ed., 1980, 359, Note 8).

(٣) **الحركة الأبدية:** كانت هذه موضوعًا يحظى باهتمام كبير في البحث العلمي خلال القرن السابع عشر، وقد قام «ديزاجوليرز» (Desaguliers) ببحث جادّ لهذا الموضوع عام ١٧٢١.

انظر: (**PTRS,** xxxi, 234-239).

(٤) **الدواء الكوني الشامل:** كان في ذلك العصر افتراض بوجود دواء من هذا النوع، يشفي جميع الأمراض ويطيل العمر بلا حدود. ونجد في نهاية كتاب **المعمرون Long Livers** (انظر الهامش رقم (١) أعلاه) تعليمات مفصلة عن كيفية تحضير هذا الدواء وعن كيفية تعاطيه (خمس أو ست نقط في كأس من النبيذ أو في صحن من المرق حسب نوع المرض). انظر:

* (S. Klima, **PQ,** xliii, 1963, 567)

* (L.D. Peterson, **ELN,** in 1964, 265-267)

(٥) **وفي سنّ التسعين...:** إن قائمة العلل وأنواع العجز التي يعاني منها المعمرون هنا تشبه ما يذكره «جوڤينال» في قصائده الساخرة. فقدان الأسنان والشعر والقدرة على تذوق الطعام (Juvenal, **Satires,** x, LL 199-204)؛ الأمراض المتنوعة الأخرى المذكورة في البيتين ٢١٨ - ٢١٩ من قصيدة جوڤينال العاشرة (**Satires,** x, LL: 218-219)؛ أما فقدان الذاكرة فنجده في الأبيات (232-236) من القصيدة نفسها.

الجزء الثالث: الفصل الحادي عشر

(١) **لا أذكر أني صادفتُ مثيلاً له في... كتب الرحلات...:**
كان ذِكر المعمرين وأوصافهم أمر شائع في كتب الرحلات وقصص الرحالين بِدْءًا من تلك الموجودة في كتاب «بْليني» (Pliny, **Natural History**) الذي كُتِبَ في القرن الأول الميلادي، ثم في كتاب «لوسيان» تاريخ صادق حيث نجد قوله: «حين يطول عمر أهل القمر ويهرمون فإنهم لا يموتون، بل يختفون في الهواء كالدخان» (Lucian, p. 260). ولم يكن «سويفت» جاهلاً بهذه الأوصاف للمعمرين، ولهذا فإنه إنما يقصد الدعابة. لكن الشيء الذي لم يسبق له مثيل إلا في قصائد «جوڤينال» فهو جَعْل طول العمر أمرًا منفرًا ومثيرًا للقرف والاشمئزاز.

(٢) **أرجو حين يعلم الهولنديون بهذا الأمر...:**
ربما قصد «سويفت» الإشارة إلى كتاب تاريخ اليابان الذي كتبه باللغة الألمانية «إنْجِلْبِرخت كامْفَرْ» (١٦٥١ - ١٧١٦) الذي كان طبيبًا بالسفارة الهولندية لدى امبراطور اليابان. وربما كان مخطوط هذا الكتاب متوفرًا في إنجلترا بعد عام ١٧١٦. كذلك ربما كانت الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب قد انتهت عام ١٧٢٢، لكنها لم تصدر على شكل كتاب مطبوع إلا عام ١٧٢٧. ومن الممكن أن «سويفت» سمع بوجود هذا الكتاب عن طريق صديقه «كارتيريت» (Carteret) الذي كان قد حجز نسخة من الكتاب قبل صدوره. يذكر «كامْفَرْ» في كتابه أنه في إحدى المرات التي قابل فيها الامبراطور، سأله الامبراطور: «هل الأطباء في أوروبا يبحثون عن الدواء الذي

يجعل الناس خالدين كما يفعل الأطباء الصينيون منذ مئات السنين؟».
انظر:

* (Kaempher, ii, 534)

* (J.L. Barrol, PQ, xxxvi, 1957, 504-8).

(٣) **قطعة من الألماس الأحمر**: كان هذا الألماس نادر الوجود كالألماس الأزرق والأخضر والأسود، ولهذا كان، مِثلها، مرغوبًا وغالي الثمن.

(٤) **يبدو**: كان هذا هو اسم «طوكيو» قبل عام ١٨٦٨.

(٥) **نانغازاك**: هي حاليًا «ناغازاكي» كان التجار الهولنديون يعيشون بالقرب منها على جزيرة صغيرة اسمها «ويشيما» في حال قريبة الشبه بحال السجناء.

(٦) **الدَّوْسُ بالقدم على الصليب**: كان اليابانيون يطالبون أبناء بلدهم المشتبه بأنهم مسيحيون بالقيام بهذا العمل، لكنهم، كما يبدو، لم يكونوا يفعلون ذلك مع الهولنديين. ويقال أن اليابانيين قاموا خلال القرن السابع عشر برَمْي الألوف من المسيحيين من فوق صخرة تدعى «ناكابوكو» بالقرب من مدخل ميناء «ناغازاكي»، وذلك لأنهم رفضوا أن يدوسوا على الصليب.

(٧) **أول واحد من أبناء بلدي يبدي تحرجًا من هذا الأمر... مسيحيا**:
في كتابه تاريخ اليابان يذكر «كامْفَرْ» أن الهولنديين كانوا يتجنبون، لأسباب وأهداف تجارية، القيام بأي عمل يدل على أنهم مسيحيون، وذلك مجاراة لقوانين اليابان التي كانت تحظر أي سلوك يوحي باعتناق الدين المسيحي (Kaempher, i, 325) ويذكر «كامْفَرْ» (i, 357) أن الهولنديين كانوا يجيبون حين يُسْألون إن كانوا مسيحيين: «لا، لسنا مسيحيين، نحن هولنديون».
انظر: (J.A. Dussinger, NQ, ccxi, 1966, 210-211).

(٨) **أمْبويْنا**: اختار «سويفت» هذا الاسم إمعانًا في إثارة مشاعر معادية لهولندا. ذلك أن «أمبوينا» كان اسم جزيرة من جزر الهند الشرقية التي يسيطر عليها الهولنديون. وقد عقد الانجليز معهم ثلاث معاهدات نالوا بموجبها حق ممارسة التجارة هناك. وفي عام ١٦٢٣ قبض الهولنديون على عشرة من الانجليز في جزيرة «أمْبُويْنا»، وعذَّبوهم عذابًا شديدًا حتى انتزعوا منهم اعترافات متناقضة بأنهم كانوا يتآمرون على الحامية الهولندية في الجزيرة، ثم عرضوهم على الناس في الشوارع وبعد ذلك أعدموهم. انظر:
(W.J. Brown, ELN, i, 1964, 262-4).

الجزء الرابع: الفصل الأول

(١) **الهُوينْهْمْ**: ربما اخترع «سويفت» هذا الاسم لأن نُطْقَه رغم صعوبته يوحي بصهيل الخيل. ويفسِّر «كِلِنْجْ» هذا الاسم بمعنى «الخيول الناطقة» (Kelling, SP, Lviii, 1951: 769)؛ أما «بَكْلي» فيفسره بمعنى «مَنْ ليسوا بشرًا» (Who Inhuman)، ويرى أن هذا الاسم ينطوي على معنى أن الخيل هي دون البشر (Subhuman) وليست متفوقة عليهم.

تعود فكرة وجود خيل متفوقة عقليًا على البشر إلى «السِّنْتور» (Centaur) «شيرون» (السِّنْتور: مخلوق أسطوري نصفه إنسان ونصفه حصان: وجهه وصدره كالإنسان وجذعه وقوائمه الأربعة وذيله كالحصان). وتقول الأسطورة أن «السِّنْتُور شيرون» اشتهر بالحكمة والعدل والخبرة في الطب والموسيقى، كما أنه كان معلمًا ومربيًا للبطلين اليونانيين «جيسُونْ» و«أخِيل». والسؤال حول أيها أكثر عقلانية وأفضل أخلاقيًا، الحيوان أم الإنسان، كان قد أثير ونوقش للمرة الأولى في كتاب (Moralia, 985 d-992) للكاتب اليوناني «بلوتارك» من خلال محاورة بين «جريلّوس» و«أوديسّوسْ» حول «استعمال العقل من قِبَل الحيوانات غير العاقلة». وكان «جريلّوس» قد حَوَّلَتْه

الإلهة الساحرة «سيرسي» إلى خنزير، وقال إنه لا يرغب في أن يعود إنسانًا مرة ثانية.
كان الرأي التقليدي هو أن «سويفت» أراد «بني الهوينهم» أن تكون مخلوقات رائعة وكاملة وتستحق الإعجاب. ولا يزال بعض النقّاد يدافعون عن هذا الرأي. انظر، على سبيل المثال:

* G. Sherburn, **MP**, Lvi, 1958, 92-97.

* C. Peake, **MLR**, Lv, 1960, 177-180.

لكن التفسيرات الحديثة تعتبرهم مخلوقات جديرة بالسخرية والتهكم، وذلك لأسباب متعددة، منها أولاً إنهم يمثلون أصحاب المذهب الرواقي في الفلسفة (Stoics) وأصحاب المذهب الديني الذي يقول إن الله خلق الكون ووضع نواميسه ثم تركه وشأنه ولم يعد يتدخل في سيره (Deists)، وهما مذهبان كان «سويفت» ينكرهما ولا يرضى عنهما. انظر:

* Ehrenpreis, **PMLA**, Lxxii, 1957, 880-899.

* K. Williams, 1968; 180-192.

وثاني الأسباب أن «بني الهوينهم» يفتقرون إلى بعض الفضائل التي يتميز بها البشر. انظر: (Buckley, in Jeffares, ed. 1967: 270-272).

وثالث الأسباب أن طبيعة «بني الهوينهم» تنطوي على سخف وتفاهة يثيران السخرية والضحك. انظر: (E. Stone, **MLQ**, x, 1949, 367-376).

لكن أكثر الأسباب رواجًا وقبولاً لدى القراء هو أن «بني الهوينهم» يمثلون مثلاً أعلى ينطوي على زيف كبير، وأن «جَلِفر» حين وقع تحت تأثير الخيل وتبنّى أفكارهم ومبادئهم وعاداتهم أصبح شخصًا سخيفًا ومثيرًا للضحك. وما حدث له هنا يشبه إلى حدٍّ ما ما حدث للرحالين في القصة الأخيرة من كتاب «لوسيان»، **تاريخ صادق**، حيث كاد الرحالون يُقْتَلون ويؤكلون من قِبَل ساحرات شابات مغريات حين يتضح لهم أن لَهُنّ تحت ثيابهن حوافر كحوافر الحمير.

ولمزيد من الاطلاع على قضية التفسيرات المتعددة للجزء الرابع انظر: M.P. Foster, ed. **A Casebook on Gullivers Among the Houghnhnms, 1961.**

(٢) **بني الياهو**: يترجم بَكْلي (Buckley, 1967: 270) كلمة «ياهو: Yahoo» إلى "Ye who (behave thus)" - أي «أنتم يا مَنْ تتصرفون هكذا»، ويعتبر بني الياهو، كما صورهم «سويفت» إدانة للقراء.

ويربط «مور» (J.R. Moore, **NQ**, cxcv, 1950, 182-185) بين كلمة «ياهو» من جهة واسم بعض القبائل السامية الحقيرة في أفريقيا التي تسميها كتب الرحلات «اليهود» أو «اليَهُو». وأغلب الظن أن «مور» إذ يشير إلى هذه القبائل بأنها «سامية» وأنها تعيش في أفريقيا إنما يشير إلى اليهود (Jews) الذين كانوا يقطنون في شمال أفريقيا. وليس من المستبعد أن يكون «سويفت» قد استوحى بعض صفات بني الياهو، ولا سيما حبهم المجنون للحجارة الثمينة وجشعهم وأنانيتهم، من الصورة الشائعة في أوروبا في ذلك العصر عن اليهود.

وقد يكون المقصود من تصوير بني الياهو بهذا الشكل المقزز هو إعطاء جواب للسؤال عن ماهية الإنسان. ذلك أن كتب المنطق المدرسية في أيام «سويفت» كانت تعرِّف الإنسان بأنه «حيوان عاقل» كما كانت تَذْكُر الحصان كمثال على الحيوانات غير العاقلة. لكن وصف «سويفت» لسلوك «بني الياهو» الذين يشبهون البشر شكلاً، وسلوك الخيول الناطقة ينطوي على إنكار لصحة تعريفات كتب المنطق وعلى ضرورة إيجاد تعريفات مختلفة. انظر: R.S. Crane, **Reason and the Imagination**, ed. J.A. Mazzeo, 1962, pp. 243-253.

كذلك يبدو أن «بني الياهو» يمثلون فساد الإنسان بعد السقوط، وقابليته لارتكاب الآثام والخطايا حسبما تصوره العقيدة المسيحية، وكأنما قصد «سويفت» أن يفنّد الفلسفات المتفائلة، مثل فلسفة «شافْتْزبري: Shaftesbury» (١٦٧١ - ١٧١٣) التي تؤكد أن الإنسان خيِّر بالفطرة، وأن يؤكِّد من جديد عقيدة الخطيئة الأصلية (Original Sin). انظر:

E. Tuveson, **UTQ**, xxii, 1953, 368-375.

وأخيرًا فإن صورة «بني الياهو» هنا قد تُشير بشكلٍ غير مباشر إلى الأوضاع الهمجية لحياة الإيرلنديين الذين كانوا يعيشون، كما يقول «سويفت»، في «جهل مطبق وبربرية فظيعة وفقر مدقع، ويستسلمون كليًا للخمول والكسل والقذارة واللصوصية». انظر:

* H. Williams, ed., **Correspondence of J.S.**, 1965, v, 58.

* H. Davis, **Prose Writings of J.S.**, 1959-66, x, 139.

* Firth, 1919, 250.

(٣) **لسفينة تحمل اسم «أَدْفِنْتْشَرْ»:**

ربما اختار «سويفت» هذا الاسم ليوحي بوجود صفات مشتركة بين «جلفر» والقبطان «وِلْيَم كيدْ»، القرصان الذي أبحر هو الآخر على سفينتين تحملان الاسم نفسه، كما فعل «جلفر» (لاحظ أن «جلفر» بدأ الرحلة الثانية والرحلة الرابعة في سفينتين تحملان الاسم نفسه). كان القبطان «كيد» قد قال أثناء محاكمته (عام ١٧٠١) إن بحارته تمردوا عليه وهجروه وانضموا إلى القراصنة، وهذا ما فعله البحارة مع القبطان «جلفر» في هذه الرحلة الرابعة. وجْه الشبه بين «جلفر» و«كيد» هو أن «كيد» عُيِّن في بادئ الأمر لكي يلاحق القراصنة ويقبض عليهم كي يُقدَّموا للمحاكمة، ثم صار هو نفسه قرصانًا - أي فقد إنسانيته. وربما كان هدف «سويفت» أن يوحي أن «جلفر» أيضًا فقَدَ إنسانيته في هذه الرحلة وتحول إلى كارهٍ للبشر.

(٤) **روبرت بيورفوي:** كلمة «بيورفوي» (Purefoy) تعني "pure faith" - أي «صاحب الإيمان الطاهر الخالي من الشوائب». وقد كان «سويفت» معاديًا لجماعة «ذوي الإيمان الطاهر: Puritans». فقد هاجمهم عام ١٧٢٦ في إحدى خطبه الوعظية وعنوانها «خطبة وعظية عن استشهاد الملك شارلز الأول» **(Sermon on the Martyrdom of Charles I)**، ووصفهم بأنهم أولئك الذين يسمون أنفسهم ذوي الإيمان الطاهر **Puritans**، **ويزعمون أن إيمانهم أطهر من إيمان أتباع الكنيسة الرسمية»، كما وصفهم بقوله «أولئك البيوريتانيون الأشرار».**

ويبدو أن «سويفت» حين يخبرنا أن «جلفر» اختار طبيبًا ذا إيمان طاهر، إنما يربط بين «جلفر» و«البيوريتانيين»، ويشير إلى أن «جلفر» مثلهم يتعصب تعصبًا شديداً لرأيه ويعتقد أنه وحده على حق والآخرون جميعًا على باطل - وأن هذه الصفة فيه ستؤدي في النهاية إلى تحطيم إنسانيته.

(٥) **القبطان بوكوك:** ربما استوحى «سويفت» شخصية هذا القبطان من شخصية «دامبير» الذي قضى هو الآخر ثلاث سنوات مع قطاعي الخشب حول خليج «كامبيشي»، والذي أدى تعصبه الشديد لمبادئه الدينية إلى خلاف حاد مع مساعده مما أوصلهما إلى محاكمة عسكرية. انظر:

W.H. Bonner, **Captain William Dampier**, 1934, pp. 8, 165.

(٦) **كان متعصبًا تعصبًا عنيدًا لآرائه . . . :**

هذه إشارة واضحة إلى ما سيؤول إليه حال «جلفر» في هذا الجزء الرابع حين يتمسك بشكل عنيد بالقيم والمبادئ التي تعلمها من «بني الهوينهم» ويصبح مريضًا بِكُرْه البشر.

(٧) **هؤلاء السفلة . . . :** ربما كانت قصة البحارة الذين تمردوا هنا على قبطانهم «جلفر» ترمز إلى الأحداث السياسية التي وقعت في بريطانيا في العامين ١٧١٤ و١٧١٥ حين أخرج حزب الأحرار حزبَ المحافظين من قيادة سفينة الدولة، وسجنوا «قبطان» المحافظين، «أوكسفورد» في القلعة. انظر:

(A. Shclösser, **Zeitschrift für Anglistik und Amerikanistik**, xv, 1967, 375).

(٨) **مدغشقر:** كانت جزيرة «مدغشقر» ملتقى مشهورًا للقراصنة. في هذه الجزيرة انضم القبطان «كيد» (انظر الهامش ٣ في هذا الفصل) إلى قرصان آخر مشهور اسمه «روبرت كوليفورد» (بعض التقارير تعطيه اسم «كوليفَرْ»). انظر:

M.J. Quinlan, **PQ**, xlvi, 1967, 416.

(٩) **شاهدتُ عددًا من الحيوانات في حقل:** يبدو أن جزءًا من وصف «بني الياهو» هنا مُسْتَوحى من الأوصاف الموجودة في كتب الرحلات عن القبائل الهمجية (ولا سيما قبائل الهوتِنْتوتْ) وعن القرود. انظر: **(R.W. Frantz, MP, xxix, 1931, 49-57)**.

وقارن بما قاله «دامبيير» عن القبائل الأصلية في أوستراليا: «إن سكان هذا البلد هم أتعس الشعوب في العالم. إن «الهوتِنْتوتْ»، رغم قذارتهم، إذا قورنوا بهؤلاء من حيث الثراء، يُعْتَبَرون سادة مترفين. فهؤلاء بلا بيوت، ولا حتى ثياب من الجِلد... كما عند «الهوتنتوت». ولو أغفلنا شكل هؤلاء البشري، فإنهم لا يختلفون إلا قليلاً عن الوحوش» انظر:

(W. Dampier, **Voyages and Descriptions,** 1699, i, 453).

(١٠) **كان لها مخالب... تنتهي بروؤس مدببة:**

في كتابه حياة سويفت: **Life of Swift** (١٧٨٤، ص ٥٠٥) يستشهد «توماس شِريدان» بهذا النص ليثبت أن «سويفت» لم يقصد أن يجعل «بني الياهو» رمزًا للبشر. يقول «شِريدان»، «من المعروف جيدًا أن الأظافر البشرية إذا سُمِح لها أن تنمو.. لا تأخذ أبدًا هذا الشكل، وأنها إذا لم تُقَلَّم تعيق اليدين عن القيام بوظائفهما. لكن ربما كان المقصود من هذه المخالب أن ترمز إلى عدوانية البشر».

(١١) **كانت أثداؤهن تتدلّى... تصل إلى الأرض حين يمشين»:**

قارن بالأوصاف التالية:

«النساء [الافريقيات] يُرْضِعْنَ. ويمتد ثدي المرأة في قبيلة «يوبيروس» (Uberous) حتى لَيمكنها أن تضعه على كتفها...».

«وتتدلّى أثداؤهن حتى لتصل إلى تحت سُرّتهن، بحيث إذا انْحَنَتْ إحداهن وهي تعمل في التعشيب يتدلّى ثدياها حتى يكادا يصلان الأرض بحيث يخيل لمن يراها من بعيد أن لها ستة أرجل».

انظر:

* Thomas Herbert, **Some Yeares Travels,** 1638, p. 18.

* Richard Ligon, **A True and Exact History,** 1657., p. 51.

* Frantz, **MQ,** xxix, 1931, 54.

(١٢) **ترمي برازها فوق رأسي:** في الصفحة ١٠٨ من كتاب **A New Voyage and Description of the Isthmus of America (1699)** (وهو كتاب كان موجودًا في مكتبة «سويفت»)، يذكر المؤلف «لَيُونيلْ ويفَرْ Lionet Wafer» القرود التي «كانت تقفز من غُصْنٍ إلى غصن... وهي تثرثر وتزمجر، وحين تتاح لها الفرصة تتبول عمداً على رؤوسنا».

كذلك يصف «دامبيير» قرود «بَنَما» بما يلي: «كانت فرقة كبيرة ترقص من شجرة إلى شجرة فوق رأسي، تثرثر وتُحْدِث ضجيجًا فظيعًا. وكانت تنظر إليَّ من وجوه عابسة كبيرة العدد وتقوم بحركات بهلوانية غريبة. بعضها كان يكسّر فروعًا جافة ويرميها عليّ، وبعضها الآخر يُلقي برازه وبوله حول أذنيّ». انظر:

* Dampier, **Voyages and Descriptions,** 1699, **ii,** 161.

* Frantz, 1931, 52.

(١٣) **أظن أنهما لا بدّ أن يكونا ساحرين غيرا شكليهما...:**

ربما يكون «سويفت» قد استوحى هذه الفكرة من كتاب **Metamorphoses** (تأليف أوفيد Ovid)، أو من قصة الحمار الذهبي: **The Golden Ass** (تأليف أبوليوس Apuleius) التي يغير بطلها شكله عن طريق السحر إلى حمار. ونجد القصة نفسها في قصة من تأليف «لوسيان» عنوانها **Lucius** أو **The Ass**.

(١٤) **محاولاً... أن أقلد صهيل الخيل،، وظهرت عليهما الدهشة:**

ربما كانت هذه العبارة تعليقًا، تهكميًا على قول أرسطو **(Poetics,** 1448 b, 6-7) بأن «الإنسان يختلف عن بقية

الحيوانات بكونه أكثرها قدرة على المحاكاة وممارسة للتقليد».

الجزء الرابع - الفصل الثاني

(١) **ملابسي التي لم يكن لدى الحصانين أية فكرة عنها:** يبدو أن في هذه العبارة إشارة إلى ضعف قوة الملاحظة عند الخيل رغم الادعاء هنا بأنها «عاقلة». فقد سبق للحصان السيد في الفصل الأول أن شاهد «جلفر» يرفع القبعة عن رأسه ثم يعيد وضعها فوق رأسه.

(٢) **سهولة إشباع حاجات الإنسان:**

هذه فكرة «أبيقورية» تكررت في كتابت «لوكريشيوس» (Lucretius, **DRN**, ii, 16-19) و«هوراس» (Horace, **Satires, I, ii,** 111-116) كما ذكرها «ألِكْسَنْدر بوب» صديق «سويفت».

(٣) **ليزيد الشهية إلى الشراب:** يشير «تيرنَرْ» (Turner, 1980: 364, n. 10) إلى أن هذه نظرية باطلة، وأنها تنطوي على إشارة للقارئ بأن أفكار «جلفر» وأحكامه لم تعد صحيحة أو جديرة بالاعتماد عليها.

(٤) **الإنسان وحده، دون الحيوانات، مغرم بالملح:**

هذه أيضًا نظرية باطلة حسب قول تيرنَرْ (Turner, 1980: 364, n. 11). الأنعام، على سبيل المثال. مغرمة بالملح ويزداد أكلها حين يتوفر عنصر الملح في الطعام كما يزداد حليبها. ولقد كان الملح عنصرًا أساسيًا في حياة البشر. ولهذا فإن رَفْض «جلفر» للملح ينطوي على معنى رمزي هو رفضه للمجتمع البشري. ويقول «بليني» في هذا الصدد: «الحياة المتحضرة مستحيلة دون الملح». انظر:

* Pliny, **Natural History,** XXXI, xli, 88.

* P. Bruckman, **SN,** i, 1963, 7-8.

وقارن هذا مع فكرة معارضة تقول إن القبائل البدائية في أمريكا الشمالية كانت تكره الملح وتعتبره مصدر كل الأمراض لدى الشعوب المتحضرة. انظر:

* De Lahontan, **Dialogues Curieux,** 1703, ed. G. Chinard, 1931, pp. 97, 128.

وقارن أيضًا بما ورد في قصة روبنسون كروزو من كراهية البدائيين ممثلين بشخصية «جمعة»، للملح. انظر: **كتاب التحفة البستانية في الأسفار الكروزية أو رحلة روبنصن كروزي،** ترجمه... المعلم بطرس البستاني (المطبعة الأميركانية في بيروت سنة ١٩٠٤)، ص ٢٢٨.

الجزء الرابع: الفصل الثالث

(١) **أبدى الامبراطور شارل... ملاحظة بهذا المعنى:**

يشاع عن الامبراطور شارل الخامس أنه قال إنه يفضل أن يخاطب ربَّه بالإسبانية، ومعشوقته بالإيطالية، وحصانه بالألمانية. وربما كان «سويفت» يفكر بهذه الإشاعة حين شبَّه لغة أهل «لابوتا» باللغة الإيطالية. انظر: (رحلات جلفر، الجزء الثالث، الفصل الأول).

(٢) **ليس لدى بني الهوينهم أدنى فكرة عن الكتب أو الأدب:**

يرى «بَكْلي» (Buckley) في هذه العبارة إشارة إلى أن «بني الهوينهم» يفتقرون إلى الإبداع. انظر:

M.W. Buckley, **Fair Liberty Was All His Cry,** ed. A. N. Jeffares, 1967, p. 271.

لكننا نجد في الفصل التاسع من هذا الجزء الرابع أن «بني الهوينهم» متفوقون على كل المخلوقات في الشعر.

(٣) **هو يعلم أنه من المستحيل أن توجد بلاد وراء البحر...:**

هذه الأقوال المنسوبة إلى الحصان السيد دليل على أن تعصب «عقل بني الهوينهم» شبيه بالتعصب الجاهل لدى

علماء «بْروبْد نْجْناجْ» (انظر الجزء الثاني ـ الفصل الثالث)، وقد يكون القصد منها السخرية من الذين يريدون مناقشة قضايا الدين والإيمان والغيبيات عن طريق العقل وحده.
قارن هذا بإحدى مواعظ «سويفت» وعنوانها: **On the Trinity** حيث يقول: «من القضايا القديمة والصحيحة القول بأن الأشياء قد تكون فوق مستوى عقلنا دون أن تكون متناقضة معه... ولو قيل لشخص جاهل إن حجر المغناطيس يجذب الحديد عن بعد فقد يقول إن هذا شيء مناقض لعقله، وإنه لمن الخير أن لا يعتمد الناس كل الاعتماد على عقلهم في قضايا الدين».
انظر: (H. Davis, ed., **Prose Writings of J.S.** 1959-1966, ix, 164-166).

(٤) **كلمة «هوينهم»... كمال الطبيعة:**
يرى «تيرنَرْ» (Turner, 1980: 365, n. 5) أن هذه العبارة تنطوي على أن «بني الهوينهم» لا يمثلون أحد المثل العليا للبشر، بل يمثلون ضعفًا بشريًا هو الغرور والكبرياء.

(٥) **جَسَدي مغطى بشكل يختلف عن أجساد الآخرين:**
هذا ينطوي على أن حكمتهم تعتمد على الظاهر من الأمور، وليس على بواطنها. ويشير «تيرنَرْ» (Turner, 1980: 365, n. 7) إلى أن «سويفت» كان يفضل الفلسفة المعتمدة على الظاهر وينفر من الفلسفات التي تزعم أنها تعرف البواطن وتبني عليها.

(٦) **أصْنَعه من جلود بني الياهو....:**
ربما كانت هذه إشارة إلى انهيار إنسانية «جلفر» وتَحَوُّله إلى عدُوّ كاره للبشر. قارن هذا مع ما ورد في مقالة «سويفت» بعنوان **A Modest Proposal** (1729)، حيث يقترح، بسخرية مريرة، أن يُسْتَفاد من جلود أطفال فقراء الإيرلنديين في «صناعة كفوف رائعة للسيدات وأحذية صيفية للسادة المترفين».
انظر: (H. Davis, ed., **Prose Writings of J.S.**, 1959-66, xii, 112).

(٧) **لا يستطيع أن يفهم لماذا تعلمنا الطبيعة أن نخفي ما أعطته لنا الطبيعة:**
حول قضية الملابس هنا ومضامينها الفلسفية انظر:

* I. Ehrenpreis, **PMLA,** Lxxii, 1957, 889-890.
* J.J. MacManmon, **JHI,** xxvii, 1966, 61.

(٨) **تكرم سيادته بتلبية كل رغباتي، وهكذا بقي السرّ مجهولاً:**
هذا يعني أن الحصان يعرف مفهوم الكذب وما ينطوي عليه التكتم على الحقيقة (عدم إفشاء السر) والسكوت على المظهر الزائف.

الجزء الرابع: الفصل الرابع

(١) **أن بني الهوينهم هم سادتكم:**
ربما كان «سويفت» يقصد هنا السخرية من حب الانجليز الشديد للخيل.

(٢) **أن حاجاتهم وشهواتهم أقل منها عندنا:**
هذه صفة مشتركة بين «بني الهوينهم» و«الرواقيين»، أصحاب فلسفة التقشف. قارن هذا بحديث «سويفت» الساخر من الرواقيين حيث يقول: «إن خطتهم في إشباع الحاجات عن طريق قطع الرغبات شبيهة بقطع أقدامنا حين تحتاج إلى أحذية». انظر:
(H. Davis, **Prose Writings of J.S.**, i, 244).

(٣) **تركتُ بلادي لأجمع ثروة:**
لاحظ أن هذا الدافع للسفر والترحال مختلف عن الدافع الذي ذكره «جلفر» في نهاية الفصل الثامن من الجزء

الأول (أي: «رغبتي التي لا تشبع في رؤية بلاد أجنبية»)، كما ذكره في بداية الفصل الأول من الجزء الثالث (أي: «لهفتي على رؤية العالم»).

(٤) **ولهذا فقد اضطروا إلى البحث عن رزقهم في أماكن أخرى:**
لاحظ أن الأسباب التي يعطيها «جلفر» هنا للسفر والاغتراب هي أسباب لا إنسانية ولا أخلاقية، ذلك أن الأسباب هنا تتمثل في ارتكاب الجرائم وفي الفرار من العقاب أكثر منها رغبة في اكتساب الرزق أو في التعرف على العالم وشعوبه.
هذا الانحطاط في الأسباب يعكس انحطاطًا موازيًا في طبيعة «جلفر» وفي رؤيته لشؤون الناس وفي فهمه لطباع البشر.

الجزء الرابع ـ الفصل الخامس

(١) **الحرب الطويلة مع فرنسا:**
المقصود هنا حرب عصبة أوجزبرج (The league of Augsburg) من ١٦٨٩ حتى ١٦٩٧ ثم حرب الصراع على عرش أسبانيا من ١٧٠١ حتى ١٧١٣.

(٢) **طمع حاكم لا يكتفي بما لديه من بلاد ومَن تحت حكمه من بشر:**
قارن بما ورد في **يوتوبيا**: «لنفرض أني اقترحتُ [على ملك فرنسا ووزرائه الذين يخططون لحربٍ تهدف إلى ضم إيطاليا لفرنسا] أن يتركوا إيطاليا وشأنها. . . وأن نبقى في بلادنا لأن مملكة فرنسا وحدها تكاد تكون أكبر من أن يحكمها رجل واحد. . .».
انظر: (توماس مور، يوتوبيا، ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان (١٩٧٤)، ص ١٢٣ ـ ١٢٤).

(٣) **إذا كان اللحم خبزًا أو الخبز لحمًا:**
إشارة إلى العقيدة المسيحية حول تحوُّل خبز القربان وخمره إلى جسد المسيح ودمه. وقد صور «سويفت» في كتابه قصة برميل (١٧٠٤)، تصويرًا ساخرًا، الاختلافات حول هذه العقيدة بين الكاثوليك (ويمثلهم في القصة Peter)، والانجليكان (ويمثلهم Martin) والخوارج «Dissenters» (ويمثلهم في القصة Jack).

(٤) **إذا كان الصفير شرًا أم خيرًا:**
كذلك هناك طوائف مسيحية تعتبر الموسيقى (العزف على الأورغن) والغناء في الكنائس أعمالاً آثمة.
انظر: (Turner, 1980: 367, n. 7).

(٥) **ما ينبغي فعله بقطعة من الخشب: تقبيلها أو حرقها:**
قطعة الخشب ترمز إلى الصليب، وقد اعتبرت بعض الطوائف إجلال خشبتين على شكل صليب عملًا مكروهًا، من هؤلاء أتباع «كالفن» والبيوريتانيون (المتطهرون).

(٦) **أفضل لون للملابس**: إشارة إلى طوائف الرهبان: الدومينيكان (ملابسهم سوداء)؛ الكَرْمليين «Carmelites» (ملابسهم بيضاء)؛ رهبان الثالوث «Trinitarians» (ملابسهم حمراء)؛ والفرانْسِيسْكان (ملابسهم رمادية).

(٧) **تقوم الحرب بين أميرين. . . لاغتصاب بلاد أمير ثالث**: قارن هذا بما وَرَد في **يوتوبيا** (ص ١٢٣) حيث يشير أحد المستشارين على ملك فرنسا «التوصل إلى تسوية مع ملك أراجون وإعادة مملكة نافار إليه، ضمانًا للسلام»، موضوع السخرية هنا أن مملكة نافار ليست لملك فرنسا أو لملك أراجون، وأنّ السلام المقترح بينهما سيتم على حساب ملك ثالث.

(٨) **لا يجوز للمرء أن يتكلم دفاعًا عن نفسه:**
قارن هذا بالأحوال القانونية في **يوتوبيا** حيث نجد أهل يوتوبيا «ينفون كلية من بلادهم جميع المحامين، الذين يتناولون القضايا بمهارة ويناقشون الأمور القانونية بدهاء. ويرون من الخير أن يقوم الشخص بالدفاع عن قضيته ويقول للقاضي ما كان سيقوله المحامي. . .» (ص ١٩٦).

الجزء الرابع: الفصل السادس

(١) **اضطررتُ أن... أشرح له فوائد النقود... وقيم المعادن:**
قارن هذا بالوصف الساخر لسلطان الذهب وقوته في **قصة شارون** وانظر: (Lucian, pp. 86-87). وبالوصف الساخر لاستعمالات الذهب في صناعة قيود السجناء والعبيد وصناعة «قصاري» التبول... الخ في **يوتوبيا** (ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان، ص ص ١٦٨ - ١٧١).

(٢) **أكثر الناس.. يكدّون كل يوم ساعاتٍ طويلة بأجور زهيدة... رخاء:**
موضوع المال والفقراء والأغنياء مطروق أيضًا في **يوتوبيا** (ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان (١٩٧٤)، ص ص ٢٢٨ - ٢٢٩).

(٣) **قلتُ إننا لا نستورد الخمر.. يقصر أعمارنا:**
يؤكد تيرنَرْ (Turner, 1980: 368, n. 8) أن هذا الوصف لمضارّ الخمر لا يتفق مع موقف «سويفت» من الخمر في حياته الشخصية - فقد كان يستمتع به ويشتري كميات منه متعددة الأنواع والمصادر.

(٤) **أحمل على جسدي نتاج عمل مائة من الحِرَفيين...:**
يحتج «توماس مور» أيضًا في **يوتوبيا** (ص ١٥٤) على هدر الوقت والجهد في الأعمال غير النافعة، كصناعة الزخارف والكماليات.

(٥) **يعرفون كيف يثبتون للدنيا صواب رأيهم:**
قارن هذا مع قول «سويفت» في القصيدة التي ينعى فيها وفاته (**Verses on te Death of Dr. Swift, LL, 131-132**)

He'd rather chuse that I should dye
Than his prediction prove a Lye.

ومعنى هذين البيتين من الشعر: «أنه [أي الطبيب] يفضّل أن أموت، على أن أشفى ويَثْبُتَ بذلك أن تَنَبُّؤَه [بموتي] كان كاذبًا».
وبالنسبة لميل بعض الأطباء إلى قتل مرضاهم، أنظر أيضًا:
.Juvenal, Satires, x, 221

(٦) **مرسوم الحصانة...:** يشير تيرنَرْ (Turner, ed., 1980: 369, n. 18) إلى أن هذا يشبه «مرسوم العفو والنسيان» الذي صدر عام ١٦٦٠ عند عودة الملكية إلى إنجلترا، وهو عَفْوٌ عمَّن اشتركوا في التمرد على الدولة الملكية أو في الحكومات الجمهورية التي حكمت إنجلترا قبل ١٦٦٠. وهو عَفْوٌ شمل الجميع ما عدا خمسين شخصًا حُدِّدَتْ أسماؤهم. وقد تندَّر أنصار الملكية (Cavaliers) على هذا المرسوم فسَمُّوْه «مرسوم العفو عن أعداء الملك والنسيان لأصدقائه».

الجزء الرابع: الفصل السابع

(١) **صارت الحقيقة عندي جميلة وعزيزة... قررت إن أضحي من أجلها بكل شيء:**
ربما جاءت هذه العبارة على نمط العبارة التي تُنْسَب إلى «أرسطو» ويقول فيها: «إنني أحب أفلاطون وأحب سقراط، لكني أحب الحقيقة أكثر».

(٢) **الشهرة غير الطبيعية:** حُبّ الجواهر والأحجار الكريمة يُعْتَبر أيضًا في **يوتوبيا** (ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان (١٩٧٤) ص ص ١٧٩ - ١٨٠) شهوة إلى لذة وهمية كاذبة.

(٣) **قام ذات مرة... على سبيل التجربة، بنقل بعض الحجارة..:**
ربما استوحى «سويفت» هذه «التجربة» من **قصة الكولونيل جاك** (١٧٢٢) للكاتب «دانيال ديفو»، حيث يلفّ «جاك» بعض النقود في خرقة قذرة ويخبّئها في تجويفٍ في جذع شجرة، لكنها تسقط في التجويف العميق فلا

يقدر الوصول إليها، ويروح يصرخ ويزأر حزنًا ويأسًا، ثم يفرح فرحًا جنونيًا حين يصل إليها ويستعيدها. انظر:

Daniel Defoe, **Colonel Jack,** ed., S.H. Monk, 1965, pp. 23-26.

(٤) **نَهَمُهم الذي لا يعفّ عن شيء:** قارن هذا بما وُصِفَت به قبائل «الهوتِنْتوت»: «أناس يأكلون كل شيء مهما يكن كريهًا وقذرًا، وإذا قتلوا حيوانًا فإنهم يأخذون أمعاءه ويعصرونها حتى يخرج منها الروث، ثم يضعونها على نار الفحم دون أن يكشطوها أو يغسلوها، ولا تكاد تسخن حتى يتخاطفوها ويأكلوها». انظر:

* Captain Cowley, **voyage Round the Globe,** pp. 35-6, in William Hacke's, **A Collection of Original Voyages,** 1699.

* R.W. Frantz, **MP,** xxix, 1931, p. 53.

(٥) **إن تلك البهائم. . . تعتبر الإناث مشاعًا للجميع:**
يحظى هذا النظام بالتأييد في جمهورية **أفلاطون**. انظر: (Plato's **The Republic,** BK V.).

(٦) **لاحظ سيدي أن أنثى الياهو. . . :**
يشير «تيرنَرْ» (Turner 1980: 370, n. 14) إلى أن هذه التكتيكات الأنثوية يتكرر ذكرها في الأدب الرعوي (Pasto-ral Literature) ـ على سبيل المثال في قصائد «ڤيرجيل».
انظر: (Virgil, **Eclogues,** iii, 64-65).

(٧) **المتع الحضارية. . . :**
إشارة إلى أن الانحرافات الجنسية والممارسات الجنسية الشاذة ليست من الغرائز الفطرية، بل هي نتاج حضاري. وقد كانت هذه الفكرة رائجة في عصر «سويفت»، لكنها موجودة أيضًا في الأدب الكلاسيكي. انظر: (Juvenal, **Satires,** ii, 162-170).

الجزء الرابع: الفصل الثامن

(١) **إن ذوي وذوات الشَّعر الأحمر. . هم أشدهم فسقاً وفجورًا. . . :**
يوضح «تيرنَرْ» أن هذه نظرية كانت شائعة في القرون الوسطى، وأنها متصلة دون شك بشخصية «يهوذا» الذي كان ذا شعر أحمر والذي راجت عنه قصة فِسْقه بأمّه.

(٢) **صدف أن أنثى ياهو كانت واقفة. . . :**
ربما كانت قصة هذه الفتاة مع «جلفر» اقتباسًا مُعدّلًا ساخرًا عن وصف «حَوْض آدم وحواء للسباحة» الموجود في قصّة **أطلانطا الجديدة** (**New Atlantis,** in Bacon, iii, 154) التي كان يستحم فيها الشباب (أو الشابات) الذين يرغبون في الزواج وهُمْ عراة تماماً لكي يتم تفحصهم من قِبَل من يمثلون العروس (أو العريس).

(٣) **لم تتجاوز الحادية عشرة من عمرها:** الفرق الكبير بين عُمْر هذه الفتاة و«جلفر» يوحي بأن القصة ربما ترمز إلى «ڤانيسّا» (وهو الاسم الذي كان «سويفت» يطلقه على صديقته» إسْتَرْ ڤانومْري التي وقعت في غرام «سويفت» رغم أنه كان يكبرها بخمس وعشرين سنة، ولحقَتْ به عام ١٧١٤ إلى إيرلندا، وراحتْ تكثر من زيارته في «دَبْلِنْ» وتلح عليه بشوقها وشهوتها رغم صَدِّه المتواصل لها. انظر: (Turner, 1980, 371, n. 7).

(٤) **مبلؤهم الرئيسي العظيم هو استخدام العقل والانصياع لأحكامه:**
كان هذا هو مبدأ أصحاب مذهب الدين الطبيعي (Deists) الذين يؤمنون بوجود إله وينكرون الأديان السماوية، وإيمانهم مبني على هداية العقل وليس على وحي من السماء. وهُمْ يؤكدون أن العقل وحده يهدي للأخلاق الفاضلة والمناقب الحميدة، وأن الله لا يتدخل في نواميس الكون. كان «بُولِنْبْروك»، صديق «سويفت»، من أتباع هذا المذهب، وقد كتب رسالة إلى «سويفت» (١٢ سبتمبر ١٧٢٤) يدافع فيها عن مذهبه ويقول فيها: «إن

القدرة على تمييز الصحيح من الخطأ، والحق من الباطل، التي نُسَمّيها العقل... هي نور العقل الذي ينبغي أن يوجِّه كل أعمال العقل».

(٥) **العقل عندهم... مُقْنِع على الفور...:**
قارن هذا مع مبدأ «ديكارت» القائل «إن كل الأشياء التي نتصورها بدقة ونراها بوضوح كامل تكون صحيحة». انظر:

Descartes **Discourse on Method,** 1637, Pt iv, tr. J. Veitch, 1957, p. 27.

وقارن مع مفهوم «المعرفة الحدسية» عند «جون لوك» (Locke) والتي «لا يجد العقل عناء في تفحُّصها وإثباتها، بل يرى الحقيقة كما ترى العين النور، حالما يُوَجَّه نحوها... إن هذا الجزء من المعرفة لا يمكن مقاومته، فهو مثل نور الشمس الساطعة، يفرض نفسه في الحال على المدارك حالما يتجه إليه العقل». انظر:

John Locke, **Essay Concerning Human Understanding,** 1690, BK. IV, ch. ii, ed.A.C. Frazer, 1958, ii, 176-177.

(٦) **العقل يُعَلِّمنا أن نقبل أو نرفض فقط عندما نكون على يقين:**
يلاحظ تيرنَرْ (Turner, ed., 1980: 271, n. 10) أن هذا مبدأ خالفه السيد الحصان حين رفض أن يصدق أن هناك بلادًا أخرى وراء البحر. انظر: (رحلات جلفر: الجزء الرابع - الفصل الثالث - نهاية الفقرة الرابعة).

(٧) **يتفق كليًا مع أحكام «سقراط»...:** الإشارة هنا إلى قول سقراط إن محاولة البحث في العالم المادي إنما هي مضيعة للوقت، لأن بعض المعلومات عن هذا العالم يستحيل الوصول إليها، وأن البحث المفيد الوحيد هو البحث في موضوع الفلسفة الأخلاقية. انظر:

* Plato, **Apology,** 19 c-d.

* Xenophon, **Memorabilia,** I, i, 11 f; IV, vii, 6.

ثم قارن مع ما يَرِدُ في **جمهورية أفلاطون** (Republic, 475, c-3 — 480 a 13) حيث يوصَف الذين يدرسون «المثل العليا **Ideas**» الخالدة، مثل الجمال والعدل بأنهم وحدهم الذين يحصلون على «المعرفة» "episteme"، أما الذين يدرسون عالم المدارك الحسية فلا يحصلون على أكثر من «رأي أو اعتقاد» "doxa".

(٨) **الصداقة وَحُبّ الخير هما الفضيلتان الرئيسيتان...:**
الصداقة، حبّ الخير، كانت كلمات يحبها «شافْتْزْبُري» (١٦٧١ - ١٧١٣) ويكررها لأنه كان يعتقد أن لدى البشر عواطف اجتماعية غريزية. انظر: (E. Tuveson, **UTQ,** xxi, 1953, 373). كذلك كانت هذه الكلمات محببة لدى «بُولِنْبْروك» الذي كتب إلى «سويفت» (أغسطس، ١٧٢٣): «لا أعرف عهوداً أوثق من عهود الصداقة»، كما أنه قال في إحدى مقالاته: «حب الاجتماع بالآخرين هو الغريزة العظمى في الطبيعة البشرية، وحب الخير هو ناموسها الأعظم». انظر:

* Bolingbroke, **Philosophical Works,** 1754, iv, 256

* Ehrenpreis, **PMLA,** lxii, 1957, 892-893.

(٩) **الغريب... أينما ذهب فهو في بيته:** قارن بوصف مشابه للمسافرين في **يوتوبيا** (ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان، ص ١٦٤)، حيث المسافرون «لا يحملون شيئًا معهم، فإنهم لا يحتاجون لشيء طوال رحلتهم، فأينما حَلُّوا فهم في بيوتهم وبين أهلهم».

(١٠) **لا يعرفون المجاملات الشكلية:** قارن بما جاء في **يوتوبيا** (ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان: ص ص ١٧٨ - ١٧٩) حيث يُعْتَبَر أن من الغباء «أن يقيم المرء كل هذا الوزن لأنواع التكريم الزائفة... فأي سرور طبيعي صادق يمكن أن يجده الشخص في أن يكشف له آخر عن رأسه أو يثني له ركبته؟».

(١١) **رأيتُ سيدي يحب أبناء جاره كما يحب أبناءه:** في **جمهورية أفلاطون** يعتبر الرجال جميع الأطفال الذين يولدون بعد سبعة إلى عشرة شهور من مضاجعتهم للنساء أبناءهم.

لمزيد من الشرح عن هذه المعلومات انظر:

Plato, **Republic**, BK. V., 461 D.

(١٢) **الطبيعة تعلمهم أن يُحِبّوا جنسهم كله على قدم المساواة**: هذا شبيه إلى حَدّ كبير بما نجده في **يوتوبيا** (ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان ص ص ١٧٥ ـ ١٧٧) لدى الحديث عن «اللذّة الخيِّرة الشريفة» حيث نجد: «فالعقل أساسًا... يحدو بنا ويحفزنا... أن نعاون، من أجل أُخُوَّتنا الطبيعية جميع الآخرين أيضًا...» (ص ١٧٥).

(١٣) **حينما تُنجِبُ أمهات الهوينهم... لا يَعُدْن إلى الانفراد بأزواجهن**:

كذلك يفعل الأزواج البراهميين في الهند، حيث يتوقفون عن معاشرة زوجاتهم بعد أن تنجب الواحدة منهن طفلاً أو اثنين انظر: (Frank Kermode, **NQ**, cxcv, 1950, 318).

(١٤) **كيلا تصبح الأعداد الكبيرة عبئًا على البلاد**:

يعتقد «بنو الهوينهم» أنه لا توجد «فيما وراء البحر» بلاد غير بلادهم ولهذا لا بُدَّ لهم أن يحددوا النسل منعاً لظاهرة الانفجار السكاني، ولأنه لا يوجد مكان تذهب إليه الأعداد الزائدة منهم.

(١٥) **عند الزواج يحرصون على تَخَيُّر الألوان....**:

في **جمهورية أفلاطون** أيضاً يخضع التناسل لتخطيط الدولة وإشرافها بحيث تتوفر في الأطفال الذين يتم إنجابهم الشروط الصحية والتناسلية التي تقررها الدولة. انظر:

Plato, **Republic**, 458 d-461 e

(١٦) **يعتبرون الزواج عملاً من الأعمال الضرورية للكائن العاقل**:

الزواج هنا واجب اجتماعي بقصد تأدية وظيفة بيولوجية هي استمرار بقاء الجنس، وليس لعاطفة الحب والهيام فيه أي وزن. يقول «سويفت» في رسالة إلى **سيدة شابة** (كتبها عام ١٧٢٣) مخاطبًا السيدة، «كانت دائمًا تربطني بأبيك وأمكِ صداقة كاملة، والشخص الذي اختاراه زوجًا لكِ هو... من المقربين جدًا إليَّ... لقد توفرَتْ في زواجك الحكمة والمودة المشتركة، دون أن تخالطها تلك العاطفة السخيفة التي لا وجود لها إلّا في المسرحيات العابثة والقصص الرومانسية». انظر:

(H. Davis, ed., **Prose Writings of J.S.** ix, 87, 89).

(١٧) **لكن نَقْضَ الزواج أو الخيانة الزوجية فأمور لم يسمع بها.... أحد**:

قارن مع قصة «جوذْوِنْ» (Godwin, **The Man in the Moone**, 1638: 103) التي وَرَد فيها أن «نساءهم جميعهن يتمتعن بجمال مطلق، ولا أدري السرّ الذي منحتهنّ إياه الطبيعة بحيث أن الرجل إذا عرف واحدة منهن، لا يشتهي قط امرأة غيرها».

(١٨) **ويعتقد سيدي أننا نخطئ... حين نعطي الإناث تعليمًا مختلفًا ...**

في **جمهورية أفلاطون** (Plato's, **Republic**, 451 e 6-7) وفي **يوتوبيا** (ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان، ص ١٧٢) يتلقّى الجنسان، الذكور والإناث. تعليمًا واحدًا.

الجزء الرابع: الفصل التاسع

(١) **هل يجب إبادة بني الياهو....**:

هذا المثال التهكمي على «الرحمة» و«حُبّ الخير» لدى بني الهوينهم ربما استوحاه «سويفت» من نظام الـ«كْروبيا» (أي نظام ذبح العبيد والأقنان في اسبارطة). انظر:

* Plutarch, **Life of Lycurgus**, xxviii.

* W.H. Halewood, **PQ**, xliv, 1965, 191.

(٢) **ظَهْرًا على جَبَل. . . :** يُفْتَرَض أن كلمة «جبل» هنا تشير إلى «التَلّة الشديدة الانحدار» أو «الجبل» الذي وَضَعَ عليه مِلْتَنْ (Milton) جنة عدن في **الفردوس المفقود**. انظر: (John Milton, **Paradise Lost**, iv, 172, 226).

(٣) **نشأ. . من تأثير حرارة الشمس على الصلصال. . . :**

من الواضح أن هذا إشارة لنظرية «لوكْريشيوس» (Lucretius, **DRN**, V, 791-8) التي تزعم أن كل المخلوقات الحية تنشأ من الأرض لأنها لا يمكن أن تكون سَقَطتْ من السماء أو برزت من البحر، وأنه «حتى الآن لا تزال حيوانات كثيرة تنشأ من الأرض ويشكّلها المطر ودِفْء الشمس». ومن المحتمل أن «سويفت» أراد، حين أشار لهذه النظرية الأبيقورية في أصل الخليقة التي تناقض النظرية الانجيلية، أن يذكِّر قُرَّاءه أن بني البشر هم، رغم انحطاطهم، من صنع الله.

(٤) **أهملوا استخدام الحمير:**

ربما استوحى «سويفت» هذه الفكرة من الممارسة الحديثة (في عصره) في إيرلندا والمتمثلة في استقدام الحمير واستخدامها. انظر: (Firth, 1919: 250)، لكن مقارنة البشر بالحمير كانت نكتة معروفة وشائعة، وقد أكثَرَ «سويفت» من استعمالها في كتابَه **قصة برميل**: (**A Tale of A Tub**) **ومعركة الكتب**: (**The Battle of the Books**).

(٥) **لا بد أن أعترف لهم بالتفوق. . . في الشعر:**

لا شك أن المقصود من الحديث عن شِعْرٍ للخيل هو الفكاهة والضحك.

(٦) **قصائدهم. . . حول الصداقة وحب الخير. . . :**

كان معظم الشعر في اسبارطة يتألف من «مدح الذين ماتوا من أجل اسبارطة». انظر: (Lycurgus, xxi). أما الشعر المقبول في **جمهورية أفلاطون** فهو الذي «يصف قدرة الرجال العظام الخارقة على تحمل الشدائد والثبات في وجه الصعوبات». انظر: (**Republic**, 390 d 1-3). كذلك فإن معظم قصائد الشاعر «بندار» (Pindar) تمجّد الفائزين في سباقات العَدْوِ أو سباقات الخيل والعربات أو أشكال الرياضة الأخرى. وقد كانت محاولات «سويفت» الأولى في نظم الشعر (١٦٩٠ - ١٦٩٢) على نمط قصائد «بِنْدار».

(٧) **لا يشعر أصدقاؤهم. . . لدى موتهم بفرح أو حزن. . . :**

هذا هو أسلوب الرواقيين (Stoics) في مواجهة الكوارث وموت الأحِبّة. قارن هذا بأسلوب سكان **يوتوبيا** حيث «عندما يموت الناس فرحين ويتركون الحياة ممتلئين بالأمل، لا يبكيهم أحد، بل يشيعونهم بالغناء». انظر: (**يوتوبيا**، ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان، ص ٢١٦).

الجزء الرابع: الفصل العاشر

(١) **كنت أحصل على العسل. . . فأشربه مخلوطًا بالماء. . . :**

العسل المخلوط بالماء هو أحد أنواع الشراب في يوتوبيا. انظر: (**يوتوبيا**، ترجمة، د. أنجيل بطرس سمعان. ص ١٤٥).

(٢) **كنت أتمتع بالصحة الجسدية. . . وراحة البال:**

نجد في «لوكريشيوس» (Lucretius, **DRN**, ii, 16-19) ما يلي: «ألا ترى أن الطبيعة لا تحتاج شيئًا إلاّ جسمًا خاليًا من الأوجاع، وعقلاً قادرًا على الاستمتاع بالأحاسيس السارّة وخاليًا من القلق والخوف؟».

(٣) **صِرْتُ عندما أرى شكل صورتي في ماء بحيرةٍ أو نَبْعٍ أدير وجهي. . . اشمئزازًا:**

هذا تعديل تهكمي لنصوص متكررة في شعر الغزل الرعوي (pastoral love-poetry). انظر على سبيل المثال:

* (Theocritus, vi, 34-8).
* (Virgil, **Eclogues**, ii, 25-6).
* (Pope, **Pastorals**, ii, 27-30).

حيث نجد العاشق الخائب (وهو «بوليفيموس» عند الأول، و«كوريدون» عند الثاني، و«الفتى الراعي» عند «بوب») ينظر إلى شكله في الماء ليتأكد أنه ليس في الحقيقة مُنَفِّرًا. أما «جلفر» فقد وقع في غرام بني الهوينهم ويشعر أنه قبيح وغير جدير بهم.

(٤) **طلب مني أن أفكر في صنع قارب:**

يبدو أن هذا الموقف تقليد تهكمي لما وَرَد في ملحمة **الأوديسة** (**Odyssey, v, 105-261**) حيث تتلقى الإلهة الساحرة «كاليبسو» أمرًا من مجلس الآلهة في «أوليمبوس» بإطلاق سراح «أوديسّوس» ومساعدته في بناء قارب.

(٥) **التغني بأمجاد بني الهوينهم المشهورين:**

إن اختيار «سويفت» لكلمات مثل «أمجاد» و«مشهورين» إنما يراد به التهكم، ذلك أنه ليس لهم تاريخ يذكر وليس لهم أي اتصال بالشعوب الأخرى، ولم يسمع بهم أحد.

(٦) **وغَطَّيْتُه (أي القارب) بجلود بني الياهو:**

إشارة أخرى إلى تدهور إنسانية «جلفر» وتحوُّله إلى عدو للبشر. انظر: (**رحلات جلفر**: الجزء الرابع ـ الفصل الثالث، الهامش رقم ٦).

(٧) **وحين هَمَمْتُ بالانبطاح لكي أُقَبِّل حافره. . . :**

يعتبر ثَكْري (Thacheray, 36-39) هذه الحادثة أجمل «نُكْتة» في كتاب **رحلات جلفر**، إذ تنعكس فيها الأمور ويصبح عاليها سافلها بشكل منطقي تمامًا وفي الوقت نفسه سخيف كليًا.

كذلك فإن هذه الحادثة وتفسير «جلفر» المضحك لها تخدم غرضًا فَنّيا هامًا، إذ تنبه القارئ إلى السخافة المنكرة التي وصل إليها «جلفر» في حُبِّه المجنون للخيل وكراهيته السقيمة للبشر.

الجزء الرابع: الفصل الحادي عشر

(١) **الطرف الشرقي الجنوبي من هولندا الجديدة:**

يعلِّق «مور» (J.R. Moore, **JEGP**, xl, 1941, 220) على هذا بما يلي: «إذا كانت بلاد بني الهوينهم تقع حيث وصف «جلفر» موقعها، أي غرب الطرف الغربي الجنوبي من أوستراليا، فهذا يعني أنه استطاع، حين رحل عن هذه البلاد، أن يقطع مسافة تتراوح بين ١٥٠٠ و٢٠٠٠ ميلًا بحريًا باتجاه الشرق في قارب مغطى بجلود بني الياهو، وفي مدة إبحار فِعْلي لا تتجاوز ست عشرة ساعة وبسرعة لا تزيد، في تقديره هو، عن فرسخ ونصف الفرسخ في الساعة الواحدة». وهذا يعني أن معلومات «جلفر» هنا ليست صحيحة.

ويقترح سْكوتْ (Scott, ed. vii, 295) تصحيح النصّ بحيث يصبح «الطرف الغربي الجنوبي».

أما «كيس» (Case, 1958: 60-61) فيدافع عن إبقاء النصّ على حاله شارحًا ذلك بأن «جلفر» يقصد أنه وصل الطرف الجنوبي من «تاسمانيا» وأن بلاد بني الهوينهم تقع على مسافة قصيرة من الطرف الجنوبي من تاسمانيا (تقريبًا على خط عرض ٤٤ جنوبًا وخط طول ١٤٠ شرقًا).

(٢) **الخرائط تخطئ. . موقعها الحقيقي:**

ربما كان «سويفت» هنا يكرر ما أشار إليه «دامْبيير» من أنه وجد أن هولندا الجديدة (New Holland) تقع إلى الغرب مسافة أبعد من المسافة التي تحددها خريطة «تاسمان». انظر:

* Bonner, 1934: 174.

* J. Masefield, ed., **Dampiers Voyages**, 1906, ii, 430-1; 432-3.

(٣) **صديقي المحترم السيد هيرمان مولْ:**

هيرمان مول جغرافي هولندي (توفي في ١٧٣٢) كان قد جاء إلى لندن حوالي عام ١٦٨٠. وربما كان أطلس هيرمان، وعنوانه **خريطة جديدة وصحيحة للعالم** (١٧١٩) هو الأطلس الذي اعتمد عليه «سويفت» في تحديد المواقع الجغرافية في كتاب **رحلات جلفر**. انظر: (Case, 1958: 51-2).

(٤) **جئتُ منها. . . قبل خمس سنوات:**
طِبْقًـا لحسابات «كيس» (Case, 1958: 63) فإن «جلفر» قد غادر إنجلترا قبل هذا الحادث بأربع سنوات وستة أشهر وثمانية عشر يومًـا.

(٥) **السنوات الخمس التي قضيتُها في تلك البلاد:**
نصّ الطبعة الأولى لرحلات جلفر يذكر «السنوات الثلاث»، وهذا يتفق مع ما يقوله «جلفر» في الفصل الثامن من هذا الجزء الرابع، بأنه عاش ثلاث سنوات في هذه البلاد.
لكن «فوكْنَرْ» غيَّر في طبعة ١٧٣٥ «السنوات الثلاث» إلى «السنوات الخمس»، ويبدو أنه فعل ذلك لكي يجعل قول «جلفر» للقبطان «دون بيدرو» متفقًا مع ما سبق أن قاله للبحارة (انظر الهامش ٤ السابق). لكن «فوكْنَر» نسي أن يخصم من السنوات الخمسة الفترة التي استغرقتها الرحلة من إنجلترا إلى بلاد الخيل، وهي فترة تزيد عن تسعة أشهر. انظر: (Case, 1958: 63).

(٦) **بدأ. . . يكوِّن رأيًا أفضل عن صِدْقي:**
في الطبعة الأولى (١٧٢٦) يوجد بعد كلمة «صِدْقي» النص التالي: «خصوصًا وأنه اعترف أنه قابـل قبطانًا هولنديًا زعم أنه نزل مع خمسة من بحارته على جزيرة أو قارّة جنوب هولندا الجديدة، وراحوا يبحثون عن ماء، فرأوا حصانًا يسوق أمامه عددًا من الحيوانات التي تشبه شبَهًا تامًا أولئك الذين وصفتُهم من بني الياهو، كما ذكروا تفاصيل أخرى قال القبطان إنه قد نسيها، لأنه اعتقد حينذاك أن كلام القبطان الهولندي كله ليس سوى أكاذيب».
وقد حذف «فوكْنَرْ» في طبعة ١٧٣٥ هذا النص كله، لكي لا يكون هناك تناقض بين هذا النص وبين تأكيد «جلفر» (في الفصل الثاني عشر الذي يلي هذا الفصل)، «لم يَزُرْ تلك البلاد أوروبي قبلي قط».
النص المحذوف مُهمّ جدًا لأنه يجعل «صِدْقَ» جلفر مساويًـا لصِدْق «الهولندي»، مع أن «جلفر» أكد أكثر من مرة أن الهولنديين كذابون وخوانون ولا يلتزمون بالأمانة.
لكن ما يقوله «جلفر» في الفصل الثاني عشر مهم أيضًا فهو يقول: «فأنا على استعداد لأن أُقْسِم. . أنه لم يزر تلك البلاد أوروبي قبلي قط، هذا إذا كان علينا أن نُصَدِّق أهل تلك البلاد». فهذا القول لا يؤكد حقيقة بقدر ما يؤكد استعداد «جلفر» لحلف اليمين، وخصـوصًا أن الجزء الأخير فيه يُثير في ذهن القارئ الشك في صحة أقوال بني الهوينهم أنفسهم.

(٧) **قد يعرضني لخطر السجن أو الحرق على يد محكمة التفتيش:**
محكمة التفتيش هي محكمة كاثوليكية كنسية مشهورة بقسوتها في معاملة من يَبْدُر منهم أي فعل أو قول يتناقض مع مبادئ العقيدة الكاثوليكية.
وقصة «جلفر» عن خيول ناطقة لها السيادة على البشر ستُعرّضه لتهمتين خطيرتين في نظر محكمة التفتيش: أولهما فساد العقيدة، لأن قصته تتناقض مع ما يقوله سفر التكوين (Genesis, i, 28) حول أن الله قد منح الإنسان «السلطة والسيطرة. . . على كل كائن حيّ يدب على وجه الأرض»؛ والتهمة الثانية أن قصته توحي ضمنًا أنه رافق السحرة وعاش معهم. وقد خطر لـ«جلفر» نفسه، في الفصل الأول من هذا الجزء الرابع، أن الحصانين اللذين قابلهما ساحران متنكران في هيئة حصانين.

(٨) **كان «دون بيدرو» من حجمي ومقاسي»:**
ربما كان المقصود هنا هو الإشارة إلى أن فلسفة «دون بيدرو» القائمة على الإحسان وحُبّ الخير للآخرين هي البديل الصحيح لفلسفة «جلفر» القائمة على تسفيه البشر وكرههم.

(٩) **وَقَعْتُ الآن مغشيًا عليَّ. . :**
يختلف المفسّرون حول مدلول هذه الحادثة. بعضهم اعتبرها دليلاً على عدم النضج العاطفي عند «سويفت» نفسه. انظر:

* Lord Brain, **Irish Journal of Medical Science,** 6 th, Series, 1952, p. 342.

لكن القصيدة الفكاهية بعنوان «من ماري جلفر إلى القبطان ليمويل جلفر» التي نُشِرَت لأول مرة في مجلد واحد مع رحلات جلفر عام ١٧٢٧ والتي يُعْتَقد أن «سويفت» وأصدقاءه «بوب» و«جاي» و«آربوثْنُط» قد اشتركوا في نَظْمِها ـ هذه القصيدة تدل على أن «سويفت» وأصدقاءه كانوا يعتبرون الحادث دعابة مضحكة. ومما جاء في القصيدة قول «ماري جلفر» مخاطبة زوجها القبطان «جلفر» ما يلي (الترجمة هنا بتصرف):

يا مرحبا، يا ألف ألف مرحبا في بيتك المشتاق!
يا ويلتي! أتنزوي من لمستي ومن حُلْوِ العناق؟
أتعوذ من لمسي؟ وأنا النظيفة دائمًا بين النساء
أفي «ليليبوت» كانت زوجة «فليمناب» أحلى في البهاء؟
لا لونُ شعري أحمرٌ، ولا نَفَسي بغيض
ونظافتي فوق التي في سائس الخيل البليد
ماذا وراء عناية يحظى بها وَلَدُ المذاود؟
وزيارة الفرس التي تبقيك دومًا في المذاود؟
وأهيم في الليل البهيم أصيح صيحات الجنون
ويفيق جيراني على صوتي وترقبني العيون.
أخبروني أين زوجي؟ خَبِّروني أين نام؟
فيجيبني الأصحاب والجيران: مع فَرَسٍ ينام.

(١٠) حتى الآن لا يجسرون على لمس طعامي.. مودّة ووئام:

يرى «تيرنَرْ» أن إصرار «جلفر» على منع أفراد أسرته أو غيرهم من مشاركته في الطعام أو الشراب له مدلولات دينية مؤداها أنه لم يَعُدْ مسيحيًا، بل أصبح يعاند معاندة بغيضة في تمسكه بآرائه اللاإنسانية واللامسيحية. انظر: (Turner, ed., 1980: 377, n. 18).

الجزء الرابع: الفصل الثاني عشر

(١) أيها القارئ الكريم: من المفروض أن «جلفر» يستعمل كلمة «الكريم» هنا متهكمًا، لأنه يخاطب قراء من بني الياهو الانجليز.

(٢) تاريخًا صادقًا: «سويفت» يستعمل هاتين الكلمتين هنا وهو يعلم أنه يكرر عنوانًا مشهورًا لكتاب «لوسيان» تاريخ صادق، وهو كتاب كله أكاذيب.

(٣) من السهل اختراع أوصاف لحيوانات عجيبة... البلاد الأجنبية:

هذا شبيه بما يقوله «توماس مور» في يوتوبيا عن مقابلته للرحالة «روفائيل هيثلوداي»، يقول «مور»: «أما عن الوحوش الغريبة، فلِعَدَم كونها أشياء جديدة، لم نوجه إليه أسئلة بشأنها، فما أسهل العثور على... الوحوش المخيفة. أما المواطنون الذين يحيون حياة متحضرة في ظل قوانين صالحة وعادلة، فشيء نادر الوجود...». انظر: (يوتوبيا، ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان، ص ٩٥).

(٤) إن كان القدر القاسي... أهل الكذب والرياء:

هذه ترجمة بتصرف لبيتين من الشعر من ملحمة الإينيادة للشاعر فيرجيل (Virgil, **Aeneid,** ii, 79-80).
وكلمات هذين البيتين قالها اليوناني «سينون» كمقدمة لقصة مختلفة كليًا بهدف إقناع أهل طروادة بإدخال الحصان الخشبي إلى مدينتهم، وكان الحصان يحمل في داخله عددًا كبيرًا من المحاربين اليونانيين الذين اغتنموا فرصة إدخال الحصان الخشبي للمدينة، فاستولوا على المدينة وأحرقوها.

وهكذا نرى أن «سويفت» حين جعل «جلفر» يتشبه باليوناني «سينون» أراد أن ينبهنا إلى أن قصة «جلفر» عن الخيول الناطقة هي قصة كاذبة مثل قصة «سينون»، وأن تصديق «جلفر» يؤدي إلى الخراب والدمار. انظر: (C. Winton, **SR**, Lxviii, 1960, 32).

(٥) **فرديناندو كورتيز**: هو هيرناندو كورتيز (١٤٨٥ ـ ١٥٤٧)، القائد الإسباني الذي استطاع بوحشيته وقسوته التي رَوَّعتِ السكان أن يحتل المكسيك في أقل من عامين ونصف العام (٤ مارس ١٥١٩ إلى ١٣ أغسطس ١٥٢١).

(٦) **عدالة الملوك في الحرص على الحقوق...**: المقصود هنا هو حقوق أبناء البلاد المفتوحة مقابل حقوق الفاتحين.

(٧) **مجموعة من القراصنة**: أوائل المستعمرين الإسبان في أمريكا كانوا من المغامرين الذين كان همّهم الأول هو العثور على كنوز الذهب، وقد اشتهروا بقسوتهم على أهل البلاد الأصليين وبالمذابح والفظائع التي ارتكبوها ضدهم.

(٨) **يُعَذِّب أمراؤهم... ذهب**:
من أمثلة ذلك ما فعله «كورتيز» بملك المكسيك «مونتيزوما» الثاني، إذ قيده بالسلاسل عام ١٥١٩ إلى أن سلَّمه ما قيمته حينذاك ٤٠٠ ألف جنيه من الذهب الخالص وكمية ضخمة من الجواهر والحجارة الكريمة.

(٩) **وهدايته إلى المسيحية**: في عام ١٥٣٣ قَتَل القائد الإسباني «بيزارو» آخِر ملوك الإنكا في بيرو، واسمه «أتاهُوَالْبا»، رغم أنه أخذ منه فدية باهظة من الذهب والفضة. وقد حكم «بيزارو» عليه بالموت حَرْقًا، لكنه حين أعلن «أتاهُوَالْبا» إيمانه بالمسيحية، غيَّر الحكم بالحرق إلى حكمٍ بالإعدام على خازوق.

(١٠) **هذا الوصف لا ينطبق.... على الأمة البريطانية**:
قارن تهكم «سويفت» الشديد هنا بتهكم «توماس مور» في **يوتوبيا** على الدبلوماسية الأوروبية. انظر: (**يوتوبيا**: ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان، ص ص ١٩٨ ـ ٢٠٠).

(١١) **ولهذا فإنني أرجو... عدم الظهور أمامي**:
لاحظ أن كتاب **رحلات جلفر** ينتهي بموعظة ضد رذيلة الكبرياء والغرور، وهي شبيهة بالموعظة التي نجدها في **يوتوبيا** (ترجمة د. أنجيل بطرس سمعان ص ٢٣٠) ضد الكبرياء.
لكن هذه الجملة الأخيرة في كتاب **رحلات جلفر** توضح أن أكبر مثال يُجَسِّد رذيلة الكبرياء هو «جلفر» نفسه.

YORK CLASSICS

The series, planned to consist of some 40-50 volumes, will constitute a complete library for Arabic-speaking readers of English literature and will include a biography of the author, an introduction to the work, notes and a glossary.

AUSTEN, Jane
Emma
Pride and Prejudice
Sense and Sensibility

BENNETT, Arnold
Anna of the Five Towns

BRONTË, Charlotte
Jane Eyre

BRONTË, Emily
Wuthering Heights

CONGREVE, William
The Way of the World

CONRAD, Joseph
Heart of Darkness

DEFOE, Daniel
Moll Flanders
Robinson Crusoe

DICKENS, Charles
A Tale of Two Cities
Great Expectations
Hard Times
Oliver Twist

DU MAURIER, Daphne
My Cousin Rachel

ELIOT, George
Silas Marner
The Mill on the Floss

Every Man

FIELDING, Henry
Joseph Andrews

FORSTER, E.M.
A Passage To India

GOLDING, William
Lord of the Flies

GOLDSMITH, Oliver
She Stoops to Conquer

HARDY, Thomas
Tess of the d'Urbervilles
Under the Greenwood Tree
The Trumpet-Major
The Return of the Native
Far from the Madding Crowd

HAWTHORNE, Nathaniel
The Scarlet Letter

HEMINGWAY, Ernest
Fiesta
For Whom the Bell Tolls
The Old Man and the Sea

ISBEN HENRIK
Ghosts

JONSON, Ben
Volpone

JOYCE, James
A Portrait of the Artist as a Young Man

LAWRENCE, D.H.
Sons and Lovers
Women in Love
The Virgin and the Gypsy

MARLOWE, Christopher
Doctor Faustus

MILLER, Arthur
Death of a Salesman

SHERIDAN, Richard
The Rivals

STEINBECK, John
The Pearl

SWIFT, Jonathan
Gulliver's Travels

SYNGE, John
The Playboy of the Western World

TWAIN, Mark
The Adventures of
Huckleberry Finn
The Adventures of Tom Sawyer

WILDE, Oscar
An Ideal Husband
The Importance of Being Earnest



BN 03 C 360002